

مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة أطروحات الدكتوراه (٥)

الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق

الدكتور وميض جمال عمر نظمي



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة أطروحات الدكتوراه (٥)

الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية
للحركة القومية العربية (الاستقلالية)
في العراق

الدكتور وميض جمال عمر نظمي

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» ـ شارع ليون ـ ص.ب.: ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤ ـ برقياً: «مرعربي»

تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

الطبعة الاولى: بيروت: آذار/مارس ١٩٨٤

الطبعة الثانية: بغداد: ١٩٨٥

الطبعة الثالثة: بيروت: حزيران/يونيو ١٩٨٦

مُقـدّمَـة الطبعَـة الثانِيَـة

في الحقيقـة لا يوجـد ما اضيفـه إلى مقدمـة الطبعـة الأولى. على الأقـل لقصر الفـترة بـين الطبعتين. ولكنني أتوجه الى القارىء الكريم ـ خاصة من كان لديه اطلاع أو خبرة أو معرفـة ـ بـأن لا يتردد في الكتـابة لي بـأي (تصحيح) او اجتهـاد أو اضافـة أو نقد ـ خـاصة النقـد ـ وسيكون ذلك موضع ترحيبي التام. ولن اتعالى عن تصحيح خـطأ أو اشارة الى رأي، وحتى حالة تمسكي بقناعاتي، فاني سأناقش ولكن لن أتجاهل.

ان المعـرفة العلميـة (خاصـة التاريخيـة والسياسيـة) هي صيرورة مستمـرة وتفـاعـل دائم، وليست أفكاراً متعالية أو مسبقة أو متعصبة. تلكم هي قناعتي. ومع الشكر سلفاً.

وأود هنا أن أسجل امتناني لرسالة تقدير بليغة وصلتني من شيخ المؤرخين العراقيـين السيد عبـد الرزاق الحسني وان اختتم مقـدمتي هذه بـآخر مـا ورد في رسالتـه (لا يعرف الفضـل الا ذووه).

المؤلف

كانون الاول / ديسمبر ١٩٨٤

اهـــداء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ﴾ .

(صدق الله العظيم)

الى مناضلي العراق وكادحيه ، على امتداد ميادين الكفاح ـ فكراً ونضالاً وقتالاً وجهداً ـ وعبر مراحله الطويلة والمتعاقبة .

الى الذين قتلوا واستشهدوا ، وعلّموا الناس كيف يموت الرجال . .

الى الذين صبروا على السجن والتعذيب والغربة . . . ولم يترجلوا .

الى الذين ما لاذوا بستار الخوف ، وما استرخصوا الكلمة ، وعاشوا ابعد ما يكـون عن الامان .

الى الذين شاءوا الطهارة الثورية ، وأشاحوا عن مباهج الدنيا . وكانـوا يملكون في الامـر اختيارا .

الى الذين أرادوه موطناً لا رعية ، له كل الحق في الحرية والخبز والكرامة . « وأعليناه انساناً . . . » .

الى الذين عتوْا على العتاة ، ومشوا على الارض هوناً . .

الى الذين حاربوا الغزاة والاستعمار والوصاية الاجنبية ، بأي قناع تسربلت . .

الى الـذين ما كفـروا بالـوطن الممتد من المحيط الى الخليـج ، برغم الحـزن السـاكن في الاعماق ، « ان النهر يظل لمجراه اميناً » .

من اجل استقلال العراق وكرامته وتحرره وسيادته ، وعروبته ، وديمقـراطيته ، ووحـدته الوطنية الراسخة والطوعية .

اليهم ـ جميعاً ـ اهدي ـ بتواضع ـ هذا الفصل عن الثورة العراقية والعربية المستمرة ، حتى الظفر .

إيضـاح

عنـد الكتابـة باللغـة الانكليزيـة فـان من المـألـوف استخـدام اسم العـائلة لـلاشا
الشخص. وبما ان القارىء العـربي والعراقي قـد يختلط الامر عليـه أحيانـاً، لذا وجـا
المفيد ايضاح المقصودين:

١ ـ الصفحة ٦٨، السطر ١٢، المقصود هو السيد عبد اللطيف ثنيان.

٢ ـ الصفحـة ٩٠، الهامش ٣، المقصـودون هم السادة: محمـود نديم الـطبقجـلي
الوهاب الطباطبائي، عبد الحسين الازري، صادق الاعرجي.

٣ ـ الصفحة ١١٩، السطر ١٦، المقصود ملا كاظم الخراساني.

٤ ـ الصفحة ١٢١، السطر ٤، المقصودون هم السادة: حسن الصدر ومهدي الخال

٥ ـ الصفحة ١٢٨، السطر ١٧، المقصود هو السيد محمد علي كمونة.

٦ ـ الصفحة ٢٨٧، السطر ٨، المقصود هو الشيخ شعلان أبو الجون.

٧ ـ الصفحـة ٣٧٤، من السطر ٧ الى السـطر ١٥، المقصودون هم السـادة: محمـ
بحر العلوم، وعبد الكريم الجزائري، وصاحب الجواهر، وكاطع العوادي، وهادي المك
وهادي زوين، ومحسن شلاش، وجلال بابان.

٨ ـ الصفحة ٣٨٤، هامش ١٥٢، المقصود السيد الياس آغا النقيب.

وأجريت تعديلات على مصطلح وقف عودة الى وقف اوده وذلك بناءً عـلى رأي تفضـ
مشكوراً الاستاذ حسين جميل.

المحتويات

القسم الاول
العراق تحت السيطرة العثمانية

القسم الثاني

دور الضباط العسكريين في الحركة القومية ١٩١٢- ١٩٢٠

القسم الثالث

العراق تحت الادارة البريطانية ١٩١٤- ١٩٢٠

القســم الرابــع

الثـــورة

قائمة الجداول

شكر وعرفان

خلال فترة عملي ، لانجاز هذا البحث، تكرم علي الكثيرون بالمساعدة والعون والدعم ، وبأشكال شتى . لذا فإنني اود ان انتهز هذه الفرصة ، لتقديم الشكر لهم ، معترفاً بأن ذلك ليس سداداً للدين الكبير الذي غمروني به . انني مدين كثيراً لوالدي ووالدتي ، اللذين تحملا كافة نفقات دراستي بتضحية . واود ان اقدم امتناني الخاص للسيدة والدتي ، التي تحملت ـ بعد رحيل والدي ـ مستلزمات دراستي بصبر وايثار .

اني ، كذلك ، مدين كثيراً للسادة التالية اسماؤهم ، والذين اتاحوا لي بعض وقتهم ومعرفتهم : السيد جون رتشموند (جامعة درهام) ، وهو الذي اشرف ـ بصبر ـ على هذا البحث ، والاستاذان البرت حوراني (جامعة اكسفورد) ، والبروفسور بوزورث (جامعة مانشستر) اللذان قرآ البحث واجازاه لشهادة الدكتوراه .

كذلك اود ان اوجه شكري للاستاذ هشام الشاوي ، ود. محمد سلمان حسن ، ود. غسان رابح العطية ، ود. وليد قزيها . وكذلك السيد محمد حميد دراغ ، والسيد حسن شعبان ، والسيد جميل هلال ، والسيد بديع عمر نظمي ، ود. علي حسين الخلف ، ود. يوسف عز الدين ، والمرحوم عبد الوهاب محمود . ولا بد كذلك من توجيه الشكر الى مكتبة الخالصي ـ بالكاظمية ـ حيث اتيح لي الاطلاع على مخطوطات مهمة، وغير منشورة حتى الآن . والشكر نفسه ايضاً للسيد نصير كامل الجادرجي ، الذي اتاح لي الاطلاع على (بعض) الاوراق غير المنشورة للمرحوم والده، ود. باسل عبد المهدي والاستاذ حسين جميل.

كذلك فإنني اتوجه بالشكر الى السادة العاملين في المكتبات التالية : مكتبة جامعة درهام والمكتبة العلمية والمكتبة الشرقية للجامعة ذاتها . والى دائرة الوثائق البريطانية العامة (Public Re- cord Office) ، والى مكتبة المتحف البريطاني ، ومكتبة جامعة نيوكاسل ، ومكتبة لندن ، ومكتبة

الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ، ومكتبة مركز دراسات الشرق الاوسط في جامعة اكسفورد . وكذلك المكتبة الوطنية والمكتبة المركزية لجامعة بغداد .

وخلال كتابة هذا البحث ، فلقد تأثرت بالكثير من الافكار القيّمة التي سمعتها او قرأتها عن اساتذة اكاديميين ، ومناضلين سياسيين ، ومعارف من ذوي الخبرة والاطلاع والمعرفة . انه لمن (المستحيل) ادراج اسماء كل هؤلاء . ولكن بودي تسجيل فضلهم الكبير . واود ـ في الوقت نفسه ـ ان احمل وحدي مسؤولية نواقص واخطاء هذا البحث .

كذلك اتوجه بالشكر الى الاخوة في مركز دراسات الوحدة العربية ، واخص بالذكر د. خير الدين حسيب . فهم الذين اتاحوا لهذا العمل ان يرى النور وان يصل للقارىء العربي .

المؤلـف

ايلول / سبتمبر ١٩٨٣

مقدّمة

ينبغي تثبيت عدة نقاط مهمة لكي نوضح ، منذ البداية ، طبيعة الحركة القومية العربية في العراق . فهنالك ، من ناحية ، تفاعل واضح وعميق بين الحركة القومية العربية في مجموعها وبين ذلك الجزء المتفرع عنها في العراق (الاستقلالي والوحدوي) . الا ان هذه العلاقة العضوية ، يجب ان لا تحول دون النظر في الخصوصيات والسمات الخاصة بالحركة القومية العربية العراقية . فليس من الواقعية دراسة الحركة القومية في العراق بمعزل عن الحركة العامة (للقومية العربية) . ولكن ذلك يجب ان لا يطمس الخطوط المتمايزة بينهما .

لقد بلغت الحركة القومية (الاستقلالية) العراقية مرحلة عالية من القوة والعزم في اوائل العشرينات من القرن الحالي، وذلك بسبب انتشار الوعي الفكري والتسييس الواسع ؛ كذلك بسبب التطور التاريخي ونمو عوامل اقتصادية واجتماعية ؛ وبسبب من سياسة التزمت الاستعماري التي انتهجها المندوب المدني (الحاكم) البريطاني ، والتي لم تكن بمنحى عن معارضة وتوجس بعض الجهات البريطانية الرسمية الاخرى . ولقد عبرت هذه الحركة القومية (الاستقلالية) عن عنفوانها في الاحداث البطولية لعام ١٩٢٠ ، والتي اثّرت كثيراً على المجرى السياسي لمستقبل العراق .

إن الهدف المعلن للثورة - بكافة فصائلها - كان الاستقلال والحكم العربي والوحدة العربية . الا انه لا يجب المبالغة بالقول بأن الثورة كانت قومية محضة ؛ كذلك فإنه من قبيل التبسيط المفرط الادعاء المقابل بأنها كانت مجرد انفجار عشائري فوضوي وعشوائي ، او الزعم بأنها كانت مجرد استجابة دينية لبعض الفتاوى .

ففي التاريخ الانساني الفعلي ، لم تكن هناك ثورات قومية او اجتماعية (خالصة) . ان اغلب الثورات كانت ، دوماً ، مزيجاً من دوافع وعوامل عديدة ومتفاعلة . وفي العالم الواقعي ، لا توجد حركات او افكار خالصة ، اللهم الا في عالم الافكار المطلقة والمجردة . وفي ضوء هذا

المعيار ، يصبح من المبرر علمياً اعتبار ثورة العشرين ، ثورة وطنية وقومية ، وذلك لأن مسألة الاستقلال والعروبة كانت هي المهيمنة .

ولا ينبغي غضّ النظر عن العوامل والمكونات الاخرى للثورة . وفي الواقع كانت الحركة القومية (الاستقلالية او الوطنية) تتألف من ثلاث فئات رئيسية : اولاً القوميون والذين يمكن تقسيمهم ، بشكل عام ، الى الضباط العسكريين الذين بدأوا بوعيهم وحركتهم السياسية داخل الجيش العثماني . وبسبب من ظروف معينة فلقد اسهموا (او على الاصح اغلبهم) في النشاط السياسي العربي والعراقي من خارج العراق (الحجاز ثم سوريا ثم على الحدود العراقية) . اما الضباط القوميون الذين رفضوا الالتحاق بحركة الحجاز ـ لسبب او لآخر ـ فإن بعضاً منهم اسهم بدور فعّال في احداث ثورة العشرين ومن داخل العراق ، وخاصة بالالتحاق بالفرات الاوسط وديالى .

وهناك القوميون في المدن العراقية الرئيسية ، الذين شكلوا تنظيماتهم السياسية (بالاساس حزبا العهد وحرس الاستقلال) ، وشنوا حملة من الدعاية التحريضية ضد الادارة البريطانية ، محلياً وعربياً ودولياً . وهؤلاء القوميون ، هم الذين اعطوا الحركة الاستقلالية العراقية نظرتها السياسية وصاغوا شعاراتها واهدافها وعملوا على تكتيل قواها الرئيسية .

اما المجموعة الثانية فكانت مكونة من بعض علماء الدين في المناطق المقدسة ، من الذين استخدموا نفوذهم لإحراج وضع البريطانيين والتحريض عليهم . وسنكتشف ، خلال سياق البحث ، بأن هؤلاء قد قبلوا ـ بشكل او بآخر ـ بشعارات الحركة القومية (الاستقلال والحكم العربي) . كما ان بعض رجال الدين الآخرين ـ ثانويين او رئيسيين ـ لم يتعاطفوا مع الثورة او الاستقلال . وهذا امر طبيعي ، حيث يوجد في كل مجموعة من الناس ، تيارات مختلفة وحتى تناقضات فكرية وسياسية .

وهناك اخيراً ، وليس آخراً ، الدور الرئيسي الذي لعبته العشائر (الفلاحون) وبعض شيوخها . هؤلاء منحوا الحركة الاستقلالية يدها الضاربة ومثلوا تهديدها العنفي وصراعها المسلح . وسيتضح كذلك ـ من سياق البحث ـ بأن الغالبية الساحقة من رؤساء العشائر قد قاموا بانتفاضتهم المسلحة تحت رايات العروبة والاستقلال . وبذلك كانوا جزءاً فاعلاً ومندمجاً ـ الى حد ما ـ بالحركة القومية والاستقلالية . بل ان بعضهم كانوا اعضاء فعليين في الاحزاب القومية . على ان ذلك لا يعني ابداً انعدام الحافز الاجتماعي ـ الاقتصادي وراء حركتهم المسلحة .

وهنا ،نسمح لانفسنا بالقول بأن العيب الاساسي في اكثر الكتابات عن الثورة ، انها آحادية النظرة . فإنها تميل لتضخيم دور هذا الفريق او ذاك ـ من اطراف الحركة الوطنية ـ على حساب باقي العناصر، او بالاحرى على حساب الحقيقة . وهذا ما نأمل تجنبه.

وثمة نقطة اخرى ذات اهمية حيوية لاستيعاب الموضوع ، وهي موقف الوطنيين (بسائر فصائلهم) من النفوذ البريطاني . ونحن هنا نتحدث عن العناصر (الوطنية) وليس المحافظة او

الموالية ـ بشكل مكشوف ـ للبريطانيين . ان بعض (الوطنيين) ، بسبب من اجتهادهم او ممارساتهم او مصالحهم او انتهازيتهم ، كانوا قد اعتبروا بريطانيا، او بالاحرى بعض ساساتها ، بمثابة (حليف) لأجل تمكين العرب من الاستقلال والوحدة . في حين ان جناحاً آخر من القوميين والوطنيين ، اعتبر بريطانيا بمثابة العدو الرئيسي للاهداف والاماني العربية الوطنية والقومية . وفي (الوسط) كان هناك آخرون اكثر (براغماتية) اومرونة ، وغيروا آراءهم ومواقفهم تبعاً لتغير الظروف او الزمان .

ان آثار ونتائج هذه الخلافات (احياناً داخل الحزب الواحد) في التصور السياسي لم تكن بسيطة ، بل لعبت دوراً مهماً في تاريخ العراق السياسي . ان دراسة هذه المواقف (التي لم تكن عرضية او طارئة بل لها جذور فكرية واجتماعية) ونتائجها ، تعتبران امراً ضرورياً في هذا البحث . وباختصار ، فلقد اثار الوطنيون الجذريون الثورة ، ولكن العناصر (المساومة) هي التي التقطت الثمرة ، ومعها تمت الصفقة البريطانية .

إن هذا البحث هو محاولة لإحلال احداث العراق في ١٩٢٠ في سياقها التاريخي العريض . وسنحاول ان نتتبع العوامل والقوى التي كمنت خلف الثورة ، وتأثير هذه الثورة على السياسة البريطانية اللاحقة ، وعلى مستقبل العراق السياسي . ان بعض التطورات الاجتماعية ـ الاقتصادية في العراق منذ ١٨٤٠ ، والغزو الغربي الاستعماري للامة العربية ، مع محاولات المركزية والتتريك في الامبراطورية العثمانية ؛ كانت كلها عوامل لنمو وعي وحركة قومية عربية وديمقراطية دستورية . ولزيادة الاهتمام (بالسياسة) من قبل المثقفين وبعض القطاعات الجماهيرية الاخرى وخاصة بعض قادة العشائر النابهين .

ان الاحتلال البريطاني للعراق ١٩١٤ ـ ١٩٢١ كان قد خدم ، موضوعياً ، نمو وتصاعد هذا الوعي . فالاحتلال عرقل وقمع نشوء مؤسسات وادارة وطنية . ولقد حاول الاحتلال تجميد التطورات البنيوية في المجتمع الريفي المنظم على اسس قبلية . تلك الاسس التي كانت قد بدأت بالتفكك ، وحاول الاحتلال ايقاف ذلك التداعي . كذلك فإن الاحتلال البريطاني مارس سياسات استعمارية ومالية وضريبية كانت استفزازية جداً . وان جهوداً دؤوبة ومتواترة من قبل القوميين والوطنيين في العراق نجحت في إثارة الرأي العام العراقي وتوحيده ضد هذا الاحتلال وفي اقامة تحالف جماهيري واسع ، تحت شعارات قومية عربية واضحة . هذا التحالف كان سيصبح العمود الفقري لثورة ١٩٢٠ .

وعلى الرغم من ان الثورة هُزمت (عسكرياً) ، الا انها اسقطت السياسات الالحاقية والاستعمارية المباشرة التي كان ينتهجها الحاكم البريطاني في العراق وانهت نصيبها من الاستمرار .

إن البريطانيين ـ الذين هزتهم الثورة وحاولوا استيعاب دروسها ـ كانوا يتطلعون لاختصار واقتصاد تكاليف الاحتلال . وفي الوقت ذاته ، كانوا حريصين على الحفاظ على مركز نفوذ مهيمن في العراق . لذا فلقد سارعوا ـ عبر مؤتمر القاهرة (١٩٢١) ـ لايجاد صيغة (استقلالية) ترضي

الاجنحة غير الجذرية من الوطنيين والقوميين . وترضي كذلك الاجنحة (المحافظة) في المجتمع العراقي ، والذين كانوا جميعاً يتوجسون ذعراً من السياسة الجذرية (الـراديكاليـة) التي كانت الحركة القومية قد انتهجتها ، وخاصة اللجوء للعنف المسلح واثارة العشائر (الفلاحين) .

ان هذا البحث (سيزعم) بأن الثورة كانت قومية حقاً . ولكنها كانت (جنينية) وليست متطورة او ناضجة بشكل كافٍ .

قومية : لأن شعارات فصائلها كافة (بمن فيهم العشائر وبعض رجال الـدين) ، كانت الاستقلال التام والحكم العربي لكيان عراقي موحد ، مع تطلع الى وحدة عربية . قومية : لأنها وحدت فصائل كبيرة من الشعب العراقي من طوائف وعناصر مختلفة، ضد الاحتلال . قومية : لأنها كانت اتحاداً بين عشائر مختلفة وتحت شعارات واهداف جلية . انها لم تكن - ابداً- حرباً داخلية بين العشائر ، ولم تكن صراعاً بين عشيرة ما والحكومة المركزية (كما كان عليه الامر في السابق) . قومية : لأنها مارست تأثيراً لا يستهان به في تكوين الكيـان العراقي الحـديث . قوميـة : لأنها اصدرت صحفاً قومية تعبر عن فكر وطني وقومي واضح[1]. قومية : لأنها شكلت - نـوعاً - من الادارة الوطنية في المناطق المحررة حيث عُهد اليها بالادارة وسُلم اليها اسرى جيش الاحتلال ورُفع فوقها العلم العربي . قومية : لأنها تفاعلت مع الحركة القومية في الحجاز وسورية - واحياناً - مع مصر . ولانها طالبت بملك عربي ورفضت كل المرشحين الاجانب من سواه .

ربما حدث بعض (النهب) هنا او هناك ، وربما وقعت بعض الاعمال الفردية . ولكن كل ذلك كان ثانوياً ، بل وهامشياً ، ازاء جوهر وضخامة الحدث العام . واود هنا ان اتساءل ، هل هناك ثورة في تاريخ العالم باسـره ، القديم والحـديث ، (المتخلف) والمتقدم لم تـرافقها (احداث) كهذه ؟ فلماذا يُثار ذلـك ضد ثـورة العشرين؟ مـوقف ودوافع بعض المستشـرقين والاجانب واضحة . ولكن لِمَ ينتقص بعض الكتاب العراقيين من هذه الثورة العظيمة بحجج واهية كهذه ؟

اما ان الحركة والثورة كانتا - قومياً - جنينيتين او بدائيتين(اذا شئتم)، فهذا امر فيه بعض الصحة ايضاً . ان الثورة لم تتمكن من تشكيل جيش تحرير موحد للفصائل العشائرية (الفلاحية) كافة ، على غرار الجزائر او فيتنام مثلاً . جنينية : لأنها لم تتمكن - كذلك - من انشاء سلطة مركزية موحدة تقود فصائل الثورة كافة وتدير المناطق المحررة كلها . جنينية : لان بعض العشائر - في احيان كثيرة - اكتفت بتحرير مناطقها من الاحتلال الاجنبي ولكن لم تطمح الى توسيع العمليات العسكرية خارج اطار تلك الحدود . ذلك على الرغم من ان بعض هـذه المحاولات تمّ فعـلاً (الهجوم على الحلة مثلاً) ولكنها دُحرت عسكرياً بعد معارك ضارية شاركت فيها عشائر متعددة بقيادة - شبه - موحدة . جنينية : لأنها لم تتمكن من تنسيق حرب انصار . جنينية : لأنها لم تتمتع بقيادة موحدة ذات توجه قومي وطبقي جذري وحاسم .

---

(١) جريدتا الاستقلال لعبد الغفور البدري والفرات لمحمد باقر الشبيبي .

إن الثورة ـ على الرغم من هزيمتها العسكرية ـ قد انهت احتمالات الاحتلال المباشر والاندماج الاستعماري للعراق من قبل الاستعمار البريطاني . تلك الاحتمالات التي كان يؤمن بها ـ ايماناً راسخاً ـ رئيس الادارة الاستعمارية البريطانية في العراق (ارنولد تالبوت ولسن)، والتي كان هناك احتمال فرضها على العراق ، على الرغم من المعارضة الليبرالية والاستعمارية (الجديدة) لبعض المسؤولين البريطانيين سواء في العراق او في بريطانيا .

إن الثورة قد اسرعت واسهمت ـ موضوعياً ـ في قيام الدولة العراقية الحديثة والتي اعتور استقلالها الكثير من النفوذ البريطاني . ذلك النفوذ ، الذي كان سيناضل ضده شعب العراق ، والذي كان سيصفّي حساباته معه في ميعاد آخر .

إن هذا البحث ، كان بالاصل اطروحة دكتوراه في العلوم السياسية ، قدمت لجامعة درهام بانكلترا في صيف ١٩٧٤ . ولقد تمت ترجمته كاملة وبامانة للعربية ، مع اجراء بعض التعديلات الطفيفة ـ التي اقتضتها اسباب شتى ـ ولكنها لم تمسّ ابداً جوهر او منهج البحث .

ان هذا البحث ، لا يتعالى ـ ابداً ـ على الاعمال القيّمة التي سبقته سواء أكانت منشورة بالعربية ام بالانكليزية. فبالعربية اودّ الاشارة الى اعمال السيد عبد الرزاق الحسني ، ود. عبدالله الفياض ، والشيخ فريق مزهر آل فرعون ، والسيدعلي آل بازركان ، والسيد سليمان فيضي ، والبروفسور ل. ن .كوتلوف (سوفياتي) ود. علي الوردي[٢] . وهناك اعمال اخرى كثيرة لا ينتقص منها ـ ابداً ـ عدم قدرتي على ايرادها هنا ،(انظر مصادر البحث) .

اما الاعمال المنشورة بالانكليزية ، فلا بد من الاشارة الى اعمال فيليب ايرلند ود. غسان رابح العطية ود. بيتر سلكلت[٣] وبعض الاعمال الاخرى القيّمة . كذلك لا بد من الاشارة الى مذكرات الساسة الانكليز الذين حكموا العراق وخاصة مذكرات السير أ . ت . ولسن والمس غيرترود بيل وغيرهما ايضاً، (انظر مصادر البحث) .

فلولا اعمال هؤلاء جميعاً لما أمكن للبحث الحالي ان يكون على ما هو عليه . ولقد نهلت كثيراً من كتاباتهم جميعاً . فاليهم اصدق الشكر والتقدير لاعمالهم الرائدة . مع ذلك ، ومع غزارة وعلمية وقيمة ما كتب عن الموضوع ، فإنني اعتقد ـ بتواضع ـ ان هناك الكثير من الجدة والاصالة والتحليلات والمعلومات الجديدة في هذا البحث . ويمكن تفسير ذلك بعاملين اساسيين : الاول ، هو اطلاعي على وثائق ومخطوطات ورسائل (غير منشورة) بالغة الاهمية ، ولكن لم يتسنّ لاحد قبلي ان يطلع عليها ، وبالتالي ، ان يستخدمها في تغطية تحليل ووصف احداث تلك الفترة .

---

(٢) لقد استفدت كثيراً من كتابات د. علي الوردي وقرأتها بامعان . اما كتابه عن ثورة العشرين فلقد كتبه ونشره بحزايه في عامي١٩٧٧و١٩٧٨ ، اي بعد انتهائي من انجاز هذا البحث الذي تأخر نشره لاسباب شتى . وارجو ان اتمكن ـ يوماً ما ـ من اجراء تقويم لهذا الكتاب القيم .

(٣) لقد انهى د. سلكلت كتابه بعدي ولكنه نشره قبلي (بالانكليزية ١٩٧٦) ، واود ان اشكره لاشارته الرقيقة والكريمة لعملي.

اما العامل الثاني، فإنه يكمن في المنهج الذي اخترناه للبحث والاسلوب الذي عالجنا به الموضوع ، ونمط الرؤية الفكرية ، التي من خلالها ، حاكمنا وفسرنا الاحداث .

وبصدد المصادر ، فهي غزيرة ومتوفرة ، وبالعربية والانكليزية . لكن ـ يبدو لي ـ ان اغلب الباحثين العرب لم يتمكنوا من الاطلاع على المصادر الانكليزية . في حين ، ان اغلب الباحثين الانكليز ، لم يتيسر لهم الاطلاع على المصادر العربية . لذا فإن حالتي كانت (خاصة) ، وذلك باستثناء عمل الدكتور غسان العطية (المنشور بالانكليزية) . وفي قسم المصادر ، فلقد عددت الكثير من هذه المصادر (الوثائقية وغير المنشورة) . ومنها ما يعود لرئاسة الوزارة ، ووزارات الخارجية والحرب والهند والمستعمرات والطيران والمكتب العربي في القاهرة (مؤسسة مخابراتية بريطانية) . وهذه المصادر كافة قد اطلع عليها ـ بشكل او بآخر ـ السادة ايرلند وعطية وسلكلت . ولكن هناك مصادر ووثائق انكليزية اخرى ، لا يبدو لي ، ان هؤلاء السادة قد اطلعوا عليها . وهي بالشكل التالي :

اولاً : بالانكليزية ، لقد اتيح لي الاطلاع ، لأول مرة ، على ما يلي :

١ ـ اوراق ووثائق ورسائل بالغة الاهمية للمس غيرترود بيل (السكرتيرة الشرقية للحاكم البريطاني في بغداد آنذاك) . وهي محتفظ بها في غرفة خاصة بمكتبة جامعة نيوكاسل . ان قسماً من هذه الرسائل (وليس الاوراق والتقارير) قد نُشر (بالانكليزية) في جزأين .

ولكن هذا النشر كان ـ مع الاسف ـ انتقائياً وناقصاً . فلقد حذفت مقاطع وجمل مهمة من الرسائل المنشورة . وهذه المقاطع المحذوفة كانت ـ في بعض الاحيان ـ تغير معنى الرسالة الى حد كبير[٤] . كذلك فإن رسائل اخرى ـ لا تقل اهمية ـ لم تنشر بتاتاً . ولقد قمت بتصوير بعض الوثائق ، وارجو ان اتمكن ـ يوماً ـ من نشرها بالعربية . كذلك فلقد اطلعت على رسائل وتقارير مهمة للمس بيل (غير منشورة) ومحتفظ بها في اضبارات خاصة في المكتبة الشرقية لجامعة درهام .

٢ ـ لقد تمكنت ايضاً من مراجعة وثائق مهمة للسير أ . ت . ولسن (الحاكم البريطاني السياسي في العراق آنئذٍ) وهي محفوظة في المتحف البريطاني بلندن وفي قسم المخطوطات . كذلك فلقد عثرت له ايضاً على رسائل مهمة للفترة من ١٩٠٣ ـ ١٩٢١ ، في مكتبة لندن (وهي بداهة غير منشورة ايضاً) .

٣ ـ اما في قسم الوثائق والمخطوطات والرسائل ، في مكتبة مركز دراسات الشرق الاوسط بجامعة اكسفورد، فلقد وجدت مواد مهمة ، منها ـ مثلاً ـ رسائل من السيد طالب (باشا) النقيب (الشخصية البارزة في البصرة والسياسة العراقية) ، و أوراق اخرى تعود للسيد فلبي (الذي كان يمثل جناحاً خاصاً في السياسة البريطانية في العراق والشرق الاوسط) . كذلك فلقد اطلعت على وثائق ورسائل تعود للماجور (الرائد) دكسن ، والذي كان ضابطاً سياسياً في عراق فترة البحث .

---

(٤) لقد اثار استغرابي كثيراً هذا « الحذف » ، فهو لا ينسجم والتقاليد الاكاديمية والموضوعية .

٤ ـ كذلك فلقد قرأت وثائق ورسائل متعددة فيها يسمى (بأرشيف السودان) ، وهو يتضمن وثائق بريطانية مهمة عن تلك الفترة ، ويحتفظ بها في عدة صناديق وفي جناح خاص بمكتبة الدراسات الشرقية بجامعة درهام . وعلى الرغم من ان (عنوان) هذه الوثائق لا يشير الى اهميتها بالنسبة للعراق، الا انه ـ في حقيقة الحال ـ توجد فيه امور كثيرة مهمة ومتعلقة بالسياسة البريطانية في العراق .

ثانياً : بالعربية ، لقد سمحت لي مكتبة الخالصي بالاطلاع على وثيقتين مهمتين : الاولى كتاب مخطوط للشيخ مهدي الخالصي وهو سيرة لحياة ابيه ، الشيخ محمد مهدي (والذي لعب دوراً في احداث تلك الفترة) ومؤرخ في ١٩٣٧ (غير منشور) . وكذلك مخطوطات اخرى (غير مؤرخة) ولكن تتضمن معلومات مهمة عن احداث تلك الفترة ايضاً .

كذلك فلقد اتاح لي السيد نصير كامل الجادرجي ، الاطلاع على اوراق (غير منشورة) تعود للمرحوم والده والمرحوم محمود صبحي الدفتري والمرحوم جعفر ابو التمن (وكلها تتعلق بتلك الفترة) . وايضاً اتاحت لي الفرص الاطلاع على اوراق خاصة بالمرحوم محمد رضا الشبيبي تتعلق بالوضع في النجف خلال ١٩١٨ ـ ١٩١٩ . وكانت محفوظة في مجلة (الثقافة الجديدة) والتي نشرتها المحلة بعد ذلك . وكل هذه المصادر الاصيلة كانت غائبة عن اعمال الباحثين العرب والاجانب . ولقد حاولت استخدامها بشكل يساعد على القاء اضواء جديدة على تلك الفترة ، سواء في وصف او تحليل احداثها .

اما الاختلافات الاخرى مع الكتابات الاخرى ، فتكمن في المنهج الفكري الذي اختاره كاتب هذه السطور لنفسه ، والذي يجعله يختلف ـ ولا نقول يتميز ـ عن التحليلات والاستنتاجات ، بل حتى في سرد الوقائع ، عن الكتابات التي سبقته .

فأولاً : ليس من الموضوعية في شيء الانتقاص من المذكرات القيّمة للسر ولسن والمس بيل وعدد آخر من البريطانيين العاملين في العراق آنئذ ، ونخصّ بالذكر لونغريغ . كذلك ـ وعلى الرغم من اختلافاتنا العميقة ـ فليس من النزاهة في شيء الانتقاص من الجهد العلمي والوثائقي والرائد لكتاب فيليب ايرلند .

ولكن هذا لا يمنع من وجود خلافات حول العديد من المسائل . ان اغلب هؤلاء الكتاب ـ من المستشرقين ـ لم يروا في العراق سوى (الامبراطورية) البريطانية . فهي التي تصوغ الحلول وتنشيء الانظمة وتغير الاستراتيجيات . وتجاهلوا ـ بشكل او بآخر ـ دور الشعب العراقي ومناضليه وثورته العظيمة في (التدخل) ـ على اقل تقدير ـ في حسم مصير العراق .

نحن لم نتجاهل السياسة البريطانية والدولية وآثارها العميقة ، خاصة في تلك الفترة . ولكننا (رأينا) ايضاً الدور البارز لثوار وشعب العراق .

ان اغلب هؤلاء المستشرقين لم يروا في الثورة عاملاً حاسماً . ولم يخصص لها ايرلند الا صفحات قليلة من كتابه . واعتبرها مجرد تمرد عشائري فوضوي . ولقد اختلفنا معه ـ كثيراً ـ في

هذه النقطة . ولجأنا لاسلوب هادىء وعلمي في (دحض مزاعمه) . حيث اعتمدنا ـ في ابراز دور الثورة ـ على كتابات كبار المسؤولين البريطانيين انفسهم .

ومن الانصاف القول بأن كوتلوف (مستشرق سوفياتي) كان الاستثناء من هذه القاعدة ـ (الاستشراقية) . فكوتلوف ابرز دور الثورة في صــوغ مستقبل العراق السياسي . وتعاطف كثيراً مع شعب العراق وكفاحه . وربما يعود ذلك لتأثره بالتقاليد العلمية السائدة في الاوساط الاكاديمية السوفياتية .

كذلك يقتضي الانصاف الاشارة الى ان بيتر سلكلت (المستشرق البريطاني ومن الجيـل الحديث) قد شذ عن القاعدة (الاستشراقية) الغربيـة . فلقد وصف بشكـل موضـوعي آلية الاستغلال الامبريالي للعراق. وفضـح ما يسمى (بـالدور التحـديثي) للادارة البـريطانيـة في العراق . ذلك الدور المزعوم الذي حاول ابرازه العديد من المستشرقين الغربيين . ووقع في الفخ معهم ، بعض الكتاب العراقيين .

ثانياً : إن الكثيرين من الكتّاب الاجانب لم يروا في الشعب العراقي اي وحدة وطنية . بل عمدوا الى (تضخيم) الكيانات الطائفية ، والدينية ، والعنصرية ، والعشائرية . وكان من ابرز هؤلاء اليهودي العراقي «المتأنكلز»، ايلي خضوري (الاستاذ في جامعة لندن) والذي لا ننكـر اطلاعاته الواسعة ، ولكن ـ مع الاسف ـ المسخرة كلياً للعداء للامة العربية ولابراز نقاط الضعف فيها ، بل وتشويه تاريخها ورموزها البشرية النضالية .

ويشارك خضوري في ذلك عدد كبير من الكتاب الاجـانب . ونكتفي بذكـر يوري دان واليعازر بيري (من الكيان الصهيوني) وغيرهما كثر .

ولقد حاولت ان ارد على ذلك كله ، ولكن بهدوء وعلمية وبعيـداً عن الانفعاليـة . لقد ناقشت آراء خضوري (وغيره) وحاولت تفنيدها على اسس موضوعية ، تقوم اولاً على مصادر (حيادية) وانكليزية . وتقوم ثانياً على ابراز التناقضات الواضحة والمتهافتة في كتاباته ذاتهـا حيث وجدته يُناقض نفسه عبر صفحات متقاربة ، واحياناً في الصفحة نفسها . ناهيك عن تناقض فكره واستنتاجاته مع الوقائع التاريخية والموضوعية لسير الامور . ولقد قال غـرامشي (الحقيقة دائـماً ثورية) .

إن كاتب هذه السطور، ليس من التعصب الاعمى والانغلاق الذهني ، بحيث لا يرى او لم ير (التعددية) في المجتمع العراقي . ولكن مثل هذه التعددية ، لم تكن عائقاً امام الوحدة الوطنية والقومية . ولن تكون اذا ما عرفنا كيف نعالجها بروح الاخوة والمساواة والديمقراطية وتأكيد المواطنة الصادقة حقوقاً وواجبات .

لذا فإننا لم نتجاهل التعددية في المجتمع العراقي . ولكننا ـ وبشكل موضوعي وعلمي ـ رأينا ايضاً الوحدة الوطنية الصادقة والعارمة . ان هذه الوحدة استمرت ضمن الاطار العام للوحدة

الوطنية العراقية، وكجزء من انتماء العراق المصيري للامة العربية. ان احترام كل ذلك هو الشرط الاساس لتحقيق الاندماج الوطني الراسخ والمتين.

ثالثاً : ان الكثيرين من الكتاب ، العراقيين منهم خاصة ، حاولوا ابراز دور هذه الفئة او تلك المنطقة او العشيرة وهذا القائد او ذاك ؛ وذلك على حساب الاشتراك الجماعي للجماهير العراقية في الثورة . بعضهم حاول ذلك عن قصد او عمد ، وعن محاولة لطمس دور الآخرين . وهذا ما نعترض عليه . البعض الآخر ، حاول ذلك لابراز دور شخصيات او مناطق (كجزء) من الثورة الشاملة . وهذا امر لا غبار عليه بحد ذاته .

اما بالنسبة لنا ، فلقد حاولنا ان نعطي لكل ذي حق حقه . ورأينا الثورة كثمرة لاسهام جماعي للعديد من فصائل الشعب العراقي . ان دور قومي بغداد لا يطمس دور الفرات الاوسط . ان دور الشيخ شعلان ابو الجون والشيخ عبد الواحد سكر ، لا يلغي دور الشيخ ضاري الزوبع . ان تحرير دير الزور ، وهجمات الضباط العراقيين (على الحدود السورية) وانتفاضة تلعفر لا تلغي دور انتفاضة ديالى . وان اسهام (بعض) رجال الدين لا ينفي دور القوميين العرب في المدن والريف . كذلك فإن اعتماد ثورة العشرين على الجماهير العربية بالاساس ، لا يلغي دور الاكراد في انتفاضة ١٩١٩ ، او اشتراك بعضهم مع بعض العشائر التركمانية في ثورة ١٩٢٠ ايضاً.

رابعاً : ان كاتب هذه السطور يؤمن بالمنهج القومي - الاجتماعي ، او القومي - الطبقي في محاولة تحليل احداث التاريخ ومنها - بداهة - العربي والعراقي . ولعل هذه اهم نقطة ، تجعل هذا البحث ، مختلفاً عن كتابات الذين سبقوه .

فالسيدان محمد مهدي البصير[٥] وعبد الرزاق الحسني ، كانا - في تقديري - افضل من كتب عن ثورة العشرين ضمن اتجاه قومي عربي . ولكنهما لم يريا في الثورة سوى العامل القومي والوطني ، العامل المثالي والروحي فقط . ولم يتمكنا ان يريا خلف هذا الشعور القومي ، السياسة الادارية (الوظيفية) والاجتماعية والمالية والضرائبية للادارة الانكليزية ، بل ان علي البازركان - وهو شخص جليل - ذهب بعيداً حين كتب بأن قوميي بغداد ثاروا ضد الانكليز لاسباب وطنية وقومية بحتة . واضاف (بازدراء) ان عشائر الفرات الاوسط ثارت - بالاساس - ضد الضرائب الانكليزية . وكأن هذا امر مستهجن ، ولا ينسجم مع القومية (النقية)[٦] .

ان كاتب هذه السطور لا يرى (ضرراً) في ان ترتبط القومية بالعامل الطبقي ، وتعتبره

---

(٥) حبذا لو اعادت وزارة الاعلام والثقافة في العراق طبع هذا الكتاب للدكتور البصير والذي يعتبر من اجود ما كتب عن الموضوع . وكان كاتبه معاصرا ومساهماً في تلك الاحداث .

(٦) ربما كتب علي ال بازركان هذا الكلام منفعلاً بمحاولات فريق مزهر آل فرعون لانكار دور قوميي بغداد، ولابراز دور الفتلة في الثورة . ان آل فرعون يتجاهل ان بعض زعماء الفتلة لم يشتركوا في الثورة التي لعبت فيها الفتلة دوراً بارزاً .

حافزاً لها . واذا كانت سياسة الارض والضرائب البريطانية (عاملاً) في تثوير الفلاحين العراقيين ، فإن حرمان مثقفي العراق وضباطه العسكريين من المناصب والمراكز في وطنهم ، كان بدوره (عاملا) لا يستهان به في تثوير هذه الفئات ايضاً .

إن الفكر القومي التقدمي الحديث ، ما عاد (ينكر) الترابط الوثيق بين القومية والوطنية وبين العوامل الاجتماعية اي بين القومي والطبقي ، بل انه يفسر احدهما بالآخر . ولا يجوز ـ بعد الان ـ (احتقار وازدراء) الاقتصاد السياسي ، وتجاهل آثاره العميقة على المجتمع وافكاره وحركاته السياسية .

وعلى الضد من ذلك ، فإن كتابات بعض من يدعون وصلاً (بالمادية التاريخية) ، قد ركزت بشكل ـ منفرد ـ على الاقتصاد والطبقات ، وتجاهلت العوامل القومية والمعنوية والفكرية في الثورة . ان المنحى (الاقتصادوي الماركسي) ، لم ير في الثورة سوى الصراعات الاجتماعية وعلاقات الانتاج ، وحاول تجاهل المحتوى الفكري القومي لمثل هذه الصراعات . وبالتالي فشل ـ هذا الاتجاه ـ في تفسير ان الشعارات الاساسية للثورة كانت (عراق موحد ومستقل تماما ، ملك عربي ودستوري ، نزوع الى وحدة عربية) . ان (الاقتصادوية) تجاهلت فكرة العروبة ، وبالتالي قفزت من فوق التاريخ الواقعي ان لم نقل (زوّرته) .

ولقد حاول كاتب هذه السطور ـ بتواضع ـ ان يرى الجانبين من الموضوع . فهو لم يلغ دور الاقتصاد وعلاقات الانتاج ، بل ابرزه . الا ان ذلك لم يمنعه ـ مطلقاً ـ من رؤ ية الجانب القومي الناصع في تلك الثورة العظيمة .

خامساً : إن هناك نقطة مهمة تتفرع عن النقطة اعلاه (الوعي السياسي واشكاله والشروط الاجتماعية) . فكثير من الكتّاب يؤكدون على (الاهمية القصوى) للفتاوى الدينية ، في إثارة الثورة . ويقال ـ احيانا ـ بأنه لولا تلك الفتاوى لما قامت هذه الثورة .

في حين ان حقيقة الوقائع تشير الى ان انتفاضة الفرات الاوسط بدأت في الرميثة (شعلان ابو الجون وغثيث الحرجان) في ٣٠ حزيران / يونيو ١٩٢٠ . وذلك قبل صدور اي فتوى او ايعاز ديني . وان تلك الفتوى (للامام الشيرازي او الحائري) كانت قد صدرت بعد ايام ليست قليلة من اندلاع القتال .

ومن ناحية اخرى فإنه من الواضح ، ان تلك الفتوى ، لم يكن لها ذلك (الاثر السحري) . فعشائر دجلة لم تسهم في الثورة (لاسباب سنوضحها في سياق البحث) . كذلك فإن الكثيرين من زعماء عشائر الفرات الاوسط ، لم يسهموا في الثورة . وفي بعض الاحيان ، كان بعض العشائر ـ يمسكون العصا من الوسط ـ فيد مع الثوار ، والثانية مع الانكليز . في حين ان بعض قادة العشائر والفلاحين شاركوا وبحماس وتصميم في الثورة وحتى ايامها الاخيرة .

وعندما كانت (المرجعية) تعود للسيد كاظم اليزدي ، فإن الاخير كان معادياً (للمشروطية) اي الحركة الدستورية (الايرانية والعثمانية) ، وكان نصيراً للاستبداد ومتعاطفاً

مع الادارة البريطانية ، ولم يتعاطف حتى مع الاهداف المعتدلة والسلمية للحركة الاستقلالية والوطنية . مع ذلك فلقد تصاعدت الحركة الوطنية والدستورية والاستقلالية ، في انحاء العراق كافة ومنها المدن المقدسة . وارغمت هذه الحركة اكبر مرجع ديني على الصمت ، ولم تتأثر بموقفه كثيراً . وهذا يدل على محدودية تأثير (المرجعية) ، خاصة عندما تكون معارضة لروح الحركة الشعبية والوطنية .

كذلك فإن شعارات الثورة وضمن العشائر نفسها ، كانت وطنية وعربية وليست مجرد دينية . وعلى الرغم من (بعض) الامتزاج بين المفهومين . ولا يجوز بهذا الصدد التقليل من نشاط الضباط العسكريين القوميين الذين التحقوا بقوات الثورة ، سواء في الفرات الاوسط او ديالي .

كذلك ، فإن بواكير الثورة ، بدأت في اواخر ١٩١٩ . عندما هاجم الضباط العراقيون القوميون (في سوريا) الحدود العراقية ، وحرروا دير الزور بالقوة ، وشنوا الهجمات ضد القطعات العسكرية الانكليزية في القائم وحتى عانة . ثم كانت انتفاضة تلعفر ودخول (الجيش العراقي العربي) لها ، والسعي لتحرير الموصل بالقوة . وهذا كله تم بدافع قومي واضح ولم يكن له اي علاقة بأي عامل آخر .

إن الضعف الانكليزي العسكري ، ازاء هذه الهجمات المتتالية ، كان عاملاً حاسماً في (استخفاف) الفرات الاوسط ومن ثم ديالى والانبار (الدليم) بالبريطانيين ، ومن ثم الثورة عليهم . ويبقى الفرات الاوسط هو الميدان الذي شهد اعنف واشرس المعارك وقدم اغلى الشهداء والتضحيات .

اننا بذلك لا نحاول ان نلغي دور العامل الديني و(الفتوى) ، والاسهام الشريف والفعال والوطني والعربي لبعض رجالات الدين ، ونخص بالذكر منهم الشيرازي او الحائري وابنه والخالصي والصدر والجزائري وبحر العلوم ، ومن قبلهم محمد سعيد الحبوبي . ان كل ما نحاول عمله هو وضع هذا العامل في حجمه الحقيقي وربطه ـ عضوياً ـ بالعوامل الاجتماعية وبالوعي الوطني والقومي ، وليس رفعه الى مرتبة (الاقنوم) كما يحاول البعض ان يفعل . بكلمة اخرى إن (الفتوى) لم تكن العامل الحاسم والوحيد في الثورة ، فعلينا اذن ان نبحث عن العوامل الاخرى ، سواء كانت شروطاً اجتماعية او اشكالاً اخرى من الوعي وفي مقدمتها الوعي القومي العربي والوطني العراقي .

سادساً : ان كاتب هذه السطور ينهج ـ ايضاً ـ نمطاً من المعرفة ، يمكن تسميته بالنسبية والشمولية . فبقدر تعلق الامر ـ بالنسبية ـ فليس هناك ـ في المعرفة الانسانية ـ ما هو مطلق او ما هو فوق التاريخ ، او ما هو متجاوز للزمان والمكان . ان المعرفة يجب ان تقوم على اساس النسبية وقبول التناقضات في الحياة ، سواء في اللحظة التاريخية نفسها ، وحتى في داخل الشخص الواحد ، او في مجرى التطور التاريخي العام .

اما الشمولية في النظرة الى المعرفة ، فهي ليست نقيض النسبية ، بل مكملة لها . ان العين

البشرية (مؤهلة) لأن ترى خمسة الوان ، ما بين الابيض والاسود . فلماذا يصر بعض الباحثين على عدم استغلال هذه (الهبة) ؟ بل يعمدون الى الحكم على الامور بمعيار الابيض والاسود فقط . ولماذا يعمدون الى تجاهل اثر الزمان وتطورات الحياة والتاريخ على البشر والحركات ؟

نقول ذلك لكي نوضح بعض النقاط التالية :

ـ ان بعض الكتاب ، وابرزهم كوتلوف ، ومن حذا حذوه ، يهاجمون حزب العهد ، ويعتبرونه (اداة) الاستعمار البريطاني . وهذا ليس من الانصاف ولا الموضوعية في شيء .

فإذا كان (عهد) بغداد (بقيادة النقشبندي) قد عجز عن (قيادة) الحركة الوطنية ، فإنه اسهم فيها . وحل محله حزب اكثر جذرية (حرس الاستقلال) والذي كان مليئا بالحماس للاستقلال التام والوحدة العربية . في حين ان (عهد) الموصل (بقيادة الغلامي) كان غير ذلك . فلقد اسهم هذا (العهد) بشكل بالغ الجدية والجذرية في قيادة الحركة الاستقلالية ، وكان وراء انتفاضة تلعفر . وهيأ لتحرير الموصل بالقوة . وكان يؤمن بالكفاح المسلح ونبذ اساليب التفاوض ورفع المذكرات الى الدول الكبرى .

ولقد بلغ الامر بمعتمد هذا الفرع حد المطالبة بالتعاون مع البلاشفة وانصار كمال اتاتورك (بدون ان يأخذ بمبادئهم) . وذلك نكاية بالانكليز . كذلك فلقد مد هذا الفرع جسوراً ايجابية مع بعض اكراد وتركمان ونصارى المنطقة ، تمهيداً لتحالف وطني ضد الادارة الانكليزية . وفي داخل حزب العهد علينا ان نميز بوضوح بين ياسين الهاشمي مثلاً (ممثل الجناح الجذري) وبين نوري السعيد (ممثل الجناح المساوم) .

ـ ان مواقف بعض (القادة) قابلة للتحول . فقد تتغير قناعاتهم الفكرية ، او تزين لهم مصالحهم الطبقية ، مواقف جديدة . فطالب النقيب ـ مثلاً ـ كان زعيماً للحركة القومية العربية في العراق خلال ١٩١٠ ـ ١٩١٤ ، ولكنه ـ في ١٩٢٠ ـ غيّر مواقفه ولم يكتف بادانة الثورة ، بل تعاون مع الادارة الانكليزية ، واصبح وزيراً للداخلية واليد القوية في ضرب الوطنيين وسجنهم وتشريدهم .

وشيء مشابه لذلك حدث لأناس امثال نوري السعيد وجعفر العسكري . فلقد تحولوا من عناصر وطنية الى عناصر متعاطفة مع الانكليز وموالية لسياساتهم ، سواء كان ذلك بسبب اجتهاداتهم وتقديراتهم السياسية ام بسبب انحيازهم الاجتماعي لفئات طبقية موالية للاستعمار .

إن امراً كهذا (مقبول في الفهم التاريخي) ولا يجوز ان يشكل ادانة لماضيهم السابق . واكثر من ذلك ، لا يجوز ان يستخدم تبريراً للهجوم ولادانة الحركات السياسية التي اسهموا بها ، ولو لفترة . فإذا كان البعض قد استهوته المناصب والاملاك ومباهج الدنيا او ارهقه النضال ، فهذا لا يلغي دوره السابق .

وما هو اهم من ذلك ، فإنه لا يلغي دور الحركات الوطنية والقومية بمجرد انها احتوت ـ

حيناً ـ بعض من (تخاذلوا) . ان هذا (السقوط) لم يُنهِ تلك الحركات ، او اهدافها على الاقل . فلقد برزت عناصر جديدة ـ قيادات وقوى اجتماعية ـ ترفع الراية وتواصل المسيرة والكفاح بعزم اشد وصلابة امضى .

ان سقوط (البعض) لم ينهِ الحركة الوطنية والقومية . فلقد برزت قيادات جديدة ، لم يكن اقلها ابطال وشهداء ثورة ايار / مايو ١٩٤١ . إن راية الاستقلال والوحدة الوطنية والعربية لم تسقط ، ولن تسقط . قد يغادر الصفوف (نفر) ، ولكن الثورة العربية مستمرة ، وربما بقيادات اكثر صلابة وامتن تنظيماً واعمق وعياً ، وبفئات اجتماعية اكثر كدحاً وجذرية .

ـ ان النظرة العلمية تجعلنا نكتشف بأن اشخاصاً معينين ، كانوا (في تناقض في الوقت نفسه) . فمثلاً لم تفصل بين ثورة الحجاز (١٩١٦) ، والثورة العراقية (١٩١٩ ـ ١٩٢١) سوى اربعة اعوام فقط . وفي حين كانت الاولى متحالفة (موضوعياً) مع الانكليز او بالاحرى ضحية خديعة منهم ، فإن الثانية كانت معادية للانكليز . وهنا تجدر الاشارة الى ان بعض الرجال (علي جودت ، جميل المدفعي ، مولود مخلص ، رمضان شلاش) كانوا قد لعبوا دوراً رئيسياً في كلتا الثورتين .

ـ كذلك يجدر الذكر بأن الوطنيين والقوميين والاستقلاليين كافة ، كانوا في ١٩١٨ ـ ١٩٢١ قد طالبوا بملك هاشمي حاكماً (دستورياً) على العراق . وهذا يحمل في طياته بعض التناقض . ثوار معادون للانكليز ، يطالبون بملك متحالف ـ او بالاحرى وبشكل ادق شبه متحالف ـ مع الانكليز .

ان الباحث المتمعن والموضوعي يجب ان لا تجزعه مثل هذه التناقضات . فهكذا هي الحياة في تدفقها وحيويتها وزخمها وتناقضاتها . وعلى الكاتب ان يبحث بتجرد وتعمق واخلاص في اسباب وجذور مثل هذه (التناقضات) . وعلى ضوء ظروف ذلك العصر وليس غيره ، علّه ـ بذلك ـ يصل الى اقرب درجة ممكنة من (الحقيقة) .

ان الباحث المنصف والموضوعي يجب ان لا يهاب الحقيقة التاريخية ، ولا ان (يلوي) عنقها لتلائم تصوراته المسبقة . وعليه ان لا يكتب تاريخ الامس على ضوء تصورات وتطورات الحاضر ، وإلا فإنه ـ في احسن الاحوال ـ يزوّر التاريخ ولا يكتبه .

على ان هذا لا يعني ـ ولا للحظة واحدة ـ الاستغناء عن ادوات التحليل السياسي والتاريخي الحديث . تلك الادوات التي انضجتها وطورتها المعرفة الانسانية المتجددة .

واخيراً ، تحية لثورة وثوار العشرين . تحية لكفاحهم المسلح ضد جيوش اكبر امبراطورية انئذ . تحية لشهدائهم وقتلاهم . لقد كان موتهم انتصاراً . والف تحية لاهدافهم الجليلة : وحدة وطنية شاملة ومتينة ، عراق مستقل تماماً ، حكم دستوري وديمقراطي ، ووحدة عربية .

وفي ايامنا هذه ـ وفي الوطن العربي ـ حيث يهددنا شبح دول الطوائف ، وحيث يتعرض استقلال العراق وسيادته للتحدي ، وحيث تتعمق التجزئة ، وتغيب الديمقراطية ويغتال الفكر ، وتعربد الهجمة والهيمنة الامبريالية ـ الصهيونية بشكل بالغ الاذلال ولم يسبق له مثيل ، وحيث تتعرض المقاومة الفلسطينية للابادة وهي تنتقل (من الحصار الى الحصار) ، وحيث يتضاعف الثراء الفاحش، ويشيع ـ نقيضه ـ الفقر المدقع والبؤس .

انه زمن القدس ، وكامب ديفيد ، وصبرا وشاتيلا . . . (الله يا زمن) .

في زماننا هذا ـ بالذات ـ تكتسب ذكرى ثورة العشرين ابعادا كبيرة ، ومغزى خاصاً ، وباعثاً للنشور والامل . . فصبر جميل . . وانا على العهد .

المؤلف
ايلول / سبتمبر ١٩٨٣

القسم الأول

العراق تحت السيطرة العثمانية

الفصل الاول

الاوضاع الاجتماعية - الاقتصادية

مقدمة

إن العراق الحديث هو النتاج التاريخي لعملية التوحيد السياسي والاقتصادي للولايات العثمانية الثلاث : الموصل وبغداد والبصرة . هذه الصيرورة التاريخية تعززت بعاملين مهمين . اولاً : سياسات الحكومة البريطانية بعد الحرب العالمية الاولى، وثانياً: النمو المتزايد للحركة القومية والاستقلالية . ان تفاعل كل هذه العوامل ادى الى تشكيل الحكومة العراقية المؤقتة عام١٩٢٠، ومن ثم ميلاد الدولة العراقية الحديثة .

هذه الصيرورة التاريخية لم تبدأ الا في النصف الثاني من القرن الماضي . وقبل ذلك ، كان العراق يعاني اوضاعاً عاقت نمو الوعي القومي والوطني وعطلت حدوث اية تغييرات اجتماعية ـ اقتصادية او فكرية مهمة . والسؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا هذا التأخر في عملية التحديث؟ وللاجابة عن ذلك لا بد من العودة للوراء قليلاً .

لقد كان الغزو المغولي (١٢٥٨) قد دشن بداية عهد جديد في العراق، عهد اتسم بالتخلف والسيطرة الاجنبية كبديل عن عهود الرقي والحكم العربي . ولقد كانت افدح الاضرار التي لحقت بالعراق على يد الغزاة المغول هي تدمير نظام الري فيه . ذلك النظام الذي أوصله العباسيون الى درجات متقدمة من التطور والكفاءة[١] حتى اضحى بمثابة الجهاز العصبي للحضارة في العراق .

إن الجزء الاعظم من القطر ، وهو السهل الغريني الخصب المترامي الاطراف ، والواقع بين النهرين ، كان يعتمد في الري على مياه هذين النهرين (دجلة والفرات) ذلك لأن سقوط الامطار

---

(١) William Bayne Fisher, *The Middle East: A Physical, Social and Regional Geography* (London: 1966), pp. 381-382.

في هذه المنطقة كان من ناحية غير كافٍ ، ومن ناحية اخرى لا يهطل في الوقت المناسب . ولم يكن من الممكن معالجة ذلك بنظام بسيط للري بالفيضان ، لأن موسم الفيضان كان يحل ايضاً في وقت غير مناسب ، فهوُ متأخر بالنسبة للحاصلات الشتوية ومبكر بالنسبة للحاصلات الصيفية(٢) . وبالاضافة الى ذلك فإن النهرين يحملان نسبة عالية من الرواسب التي تؤدي غالباً ، في حالة عدم قيام رقابة دقيقة الى غلق وانسداد مجرى الانهار الصغيرة(٣) . وكل ذلك كان هو ما حصل فعلاً اثر الدمار الذي اصاب نظام الري الدقيق في العراق .

لقد افضى ذلك الى هجران الزراعة ، وتشجيع البداوة ، ونشوب منازعات حادة حول الاراضي القليلة التي بقيت صالحة للزراعة . ومن هنا فلقد كان من المنطقي ان تسود العراق حالة من التدهور الاجتماعي ـ الاقتصادي والحروب العشائرية واضمحلال المدن وتدهور التجارة(٤) . وفي مثل هذه الظروف فلقد كان يصعب جداً نمو الوعي القومي او الوطني .

ان الاساس الرصين للاقتصاد العراقي ونموه كان يرتكز بالاساس على الزراعة ، ومن اجل نجاحها فلقد كان لا بد من ان يقام نظام جيد كفؤ للري طوال السنة . كان ذلك يتطلب سدوداً لخزن مياه الفيضان الربيعي ويتطلب ايضاً عدداً من اقنية البزل لمنع الملوحة التي كانت تهدد التربة العراقية باستمرار(٥) . وكان مثل هذا النظام يتطلب قبل كل شيء حكومة مستقرة ومخلصة وقادرة على النهوض بمنشآت الري .

الا ان حكومة كهذه لم تقم في العراق ، على الاقل حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وحتى فيها بعد فإن الاصلاحات التي تمت كانت متواضعة وغير منظمة ، وبالنتيجة فلقد عم الركود الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية للعراق . ولم يكن التخلف قاصراً على جانب واحد من الحياة ، بل شاع في كافة جوانبها ، وتغلغل في كافة انحاء المجتمع العراقي . ولنتفحص بعض النماذج لمظاهر هذا التخلف .

كان اضمحلال عدد السكان مخيفاً ويقول عيساوي : « ان الري بمياه دجلة والزراعة بمياه الامطار في الشمال قد اعالا دون شك ، في العصور الوسطى ، عدداً من السكان قد يزيد بثلاثة اضعاف عن عددهم الحالي . اي بعد قرن من النمو السريع »(٦) . ويعزى هذا الهبوط الى غزوات الطاعون المتكررة والحروب المحلية والخارجية ورداءة الخدمات الصحية . فمثلاً عندما غزا الطاعون بغداد عام ١٨٣١ كان عدد

---

(٢) Sir W. Willcoks, *Irrigation of Mesopotamia* (London: 1917), pp. xii.

(٣) احمد سوسة ، فيضانات بغداد في التاريخ (بغداد : مطبعة الاديب ، ١٩٦٣) ، ج١ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٤) عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩) ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٥) Willcoks, *Irrigation of Mesopotamia*, p. xii.

(٦) Charles Philip Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1966), p. 130.

سكانها ١٥٠,٠٠٠ نسمة وعندما رحل عنها هذا المرض الوبيل فإن عدد السكان تضاءل الى ٣٠,٠٠٠ نسمة[٧] .

وباستثناء منطقة سقوط الامطار (المنطقة الشمالية) فلقد كانت الزراعة مقصورة على المناطق المجاورة للمدن الرئيسية ، لا سيما مناطق شط العرب وديالى وكربلاء . ولقد كانت شروط مثل هذه الزراعة بدائية جداً وذات انتاج محدود[٨] ، بحيث كان نادراً ما يتعدى الحاجات المحلية او يوفر فائضاً للتصدير . ولذلك كانت التجارة العراقية ، عملياً ، تجارة مرور (ترانزيت) يكتفي العراق فيها بأن يلعب دور محطة تجارية بدون اي اسهام ذاتي في التصدير . وحتى تجارة المرور المتواضعة هذه كانت دوماً تختنق بسبب انعدام الامن في الطرق التجارية[٩] .

اما صناعة العراق المتواضعة فلقد كانت بدورها مضمحلة . وفي عام ١٩١٠ وصف اقتصادي ايطالي الوضع الصناعي في العراق بأنه بدائي وفي حالة انحلال[١٠] . وكان التعليم المتوفر الوحيد هو حفظ القرآن تحت اشراف المقرىء ، وافتتحت اول مدرسة حديثة في بغداد في عهد داود باشا (١٨١٧ ـ ١٨٣٢)[١١] . ان دراسة تلك الحقبة من تاريخ العراق تخرج عن نطاق هذا البحث[١٢] . ولكن يمكن القول باختصار ان الامن كان مختلاً ، والعدل نادراً ، والضرائب فادحة ، والسياسة خرقاء[١٣] . واذا ما قبلنا تعريف هيغل للتاريخ ، والذي يقضي بأن التاريخ هو عملية تغيير الانسان لبيئته ، وانه حيثما لا يوجد تغيير فليس ثمة تاريخ[١٤] ، فلدينا كل المبررات للقول بأن العراق آنئذٍ كان في (فترة لاتاريخية) . ولسنا بهذا الصدد بحاجة للاستعانة بتحليلات كارل ويتفوغل عن «الاستبداد الشرقي المائي »[١٥] . او تحليلات كارل ماركس عن (نمط الانتاج الآسيوي)[١٦] . فإن كتاب لونغريغ يقدم شواهد وفيرة عن مدى ركود وجمود الحياة

---

(٧) *The Encyclopaedia of Islam* (1913), vol. 1, p. 568.

(٨) S. Haider, «Land Problems of Iraq,» (Ph. D. dissertation, University of London, 1942), p. 224.

(٩) سعاد العمري ، مترجمة ، رحلات نيبهور (بغداد : ١٩٥٤) ، ص ٦٧ - ٦٩ .

(١٠) A. Lanzoni cited by: Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*, p. 181.

(١١) George Eden Kirk, *A Short History of the Middle East, from the Rise of Islam to Modern Times*, 7th ed. (London: Methuen, 1964), p. 105.

(١٢) للمزيد من الاطلاع على شروط تلك الفترة ، انظر :
Friedrich Rosen, *Oriental Memories of a German Diplomatist* (New York: Dutton, 1930), and Claudius James Rich, *Narrative of a Journey to the Site of Babylon in 1811* (London: Duncan and Malcolm, 1839).
بالاضافة الى كتابات Sir G. Lowther .

(١٣) Stephen Hemsley Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq* (London: Oxford University Press, 1925), p. 281.
وقد ترجم جعفر خياط هذا الكتاب الى العربية بعنوان « اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » .

(١٤) Georg Wilhelm Friedrich Hegel, *The Philosophy of History* (New York: 1956), pp. 105-106.

(١٥) Karl August Wittfogel, *Oriental Despotism: A Comparative Study of Total Power* (London: 1963).

(١٦) Karl Marx, *Pre-Capitalist Economic Formations*, edited with an introduction by E.J.Hobsbawm (London: Lawrence and Wishart, 1964).

الاجتماعية ـ الاقتصادية والثقافية والسياسية في العراق وفراغها من اية تغييرات مهمة او جذرية .

وفي مثل تلك الظروف ، كان يمكن لقوتين ان تحققا بعض التغيرات وتجددا حياة البلد ، وهما الحكومة او الشعب. الا ان اياً من هاتين القوتين لم تكن قادرة على ادخال تدابير توفر الشروط الاولية للتخلص من الركود (Stagnation) . فلقد كان الحكام والمحكومون على السواء عازفين عن بلوغ هذا الهدف.

كانت الحكومة التركية ـ تم ضم العراق الى الامبراطورية العثمانية عام ١٥١٤ ـ تنظر للعراق كمجرد منطقة عازلة على الحدود الامبراطورية مع دولة فارس، وكانت بغداد تعتبر منفى يرسل اليه الولاة من الذين فقدوا الحظوة . وخلال الفترة ما بين ١٨٧٩ و١٩١٠ حكم بغداد عشرة ولاة ، وخلال الفترة نفسها عيّن سبعة عشر والياً على البصرة . وخلال الفترة ١٩٠٠ ـ ١٩١٤ حكم البصرة عشرة ولاة اتراك[١٧] . وكان المطلوب من هؤلاء الولاة جباية الاموال وارسال مبالغ معينة الى الأستانة . وكانت مدد ولايتهم تختصر عمداً ـ لئلا يعززوا سلطانهم ـ ويقعوا ـ بالتالي ـ تحت اغراء المطالبة بالاستقلال[١٨] .

وقبل مجيء مدحت باشا لم يعرف العراق اي اصلاحات تذكر ، باستثناء عهد داود باشا . وحتى جهود مدحت باشا المخلصة كانت ـ في اغلب الاحيان ـ فاشلة وأدت الى نتائج معاكسة لنواياه الطيبة[١٩] . وكانت مساعيه لتحديث الادارة باستخدام النظام الاداري العثماني قد ادت على حد قول لونغريغ الى : «نشوء طبقة واسعة من الموظفين النظاميين ، الافندية ، الذين حلوا محل الباشوات المستبدين القدامى . كانوا يعرفون القراءة والكتابة ولكن تعليمهم لا يتجاوز ذلك . . بعيدين تماماً عن روح الخدمة العامة . الهيئة الاجتماعية تعني لديهم طبقتهم الخاصة لا غير. يحتقرون العشائر والفلاحين. يصرون على التحدث بالتركية وسط العرب . واخيراً ، فإنهم بصورة تكاد تكون عامة ، فاسدون ومرتشون ـ هكذا كان موظفو الدولة الذين تنحصر في ايديهم مهمات الحكومات»[٢٠] .

من ناحية اخرى ، كان جمهور سكان العراق بدوره عاجزاً عن المطالبة بأية تغييرات جذرية . وفي الواقع كان بعض افراد (طبقة الافندية) ذات النفوذ ، وملاك الارض و(المجتهدون) يعارضون اجراء اية اصلاحات خشية تهديد مصالحهم الراسخة في النظام القديم . وكان السواد الاعظم من الجماهير يخشى التجديد ، لأنه ضحية مزيج من التعصب الديني والاجتماعي والجهالة . وكان يعارض التجديد خوفاً من (الخروج على الاسلام) لأنه ضحية مفاهيم بالية وبعيدة عن جوهر الدين .

---

(١٧) عبد القادر باش اعيان العباسي ، «تاريخ البصرة ،» البصرة ، [د. ت.] (مخطوط) ، ص ٩ ـ ١٢ .

(١٨) Albertine Jwaideh, *Middle Eastern Affairs, No. 3: Midhat Pasha and the Land System of Lower Iraq*, St. Anthony's papers, no. 16 (London: Oxford University, St. Anthony's College, 1963), p. 111.

(١٩) Lady Anne Blunt, *Bedouin Tribes of the Euphrates*, edited with a preface and some account of the Arabs and their horses by W.S. Blunt, 2 vols. in 1 (London: Murray, 1879), vol. pp. 195-196.

(٢٠) Stephen Hemsley Longrigg, *Iraq, 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History* (London; New York: Oxford University Press, 1953), p. 281.

وبالاضافة الى ذلك فلقد كان شعب العراق مفرق الصفوف ، يفتقر الى الاحساس بالوحدة ، وعاجزاً عن الكفاح الجماعي او الموحد من اجل الاصلاحات. وكان ولاء الفرد متوجهاً نحو الطائفة الدينية ، او العشيرة ، او المدينة ، اكثر منه نحو العراق كوطن . كان مفهوم الوطن او القومية ، العراقي او العربي ، غامضاً ومشوشاً[٢١] . وفي حالة وجود مثل هذا المفهوم الوطني او القومي ، فإنه كان مقصوراً على حلقات ضيقة من الجماعات او الافراد .

كان العراق ، من الناحية الاثنية ، مقسماً الى عدة فئات : العرب يؤلفون الاكثرية (حوالى ٧٠ بالمائة) والاكراد حوالى ١٥ بالمائة والباقي من التركمان والفرس والارمن واليزيديين والصابئة والشركس ، وذلك على الوجه التالي :

جدول رقم (١ ـ ١)

التقسيم الاثني لسكان العراق

المجموعة الاثنية	العدد
العرب(أ)	١٦٥٠٠٠٠
المسيحيون	ــ
اليهود	٦٠٠٠٠
الشبك	١٠٠٠٠
الصابئة	٢٠٠٠
الاكراد	٣٨٠٠٠٠
الاتراك والتركمان	١١١٠٠٠
الفرس	٧٠٠٠٠
السريان	٦٠٠٠٠
الارمن	٥٧٠٠٠
اليزيديون	٢١٠٠٠
الشركس	٨٠٠٠
آخرون	١٠٠٠٠
المجموع	٢٣٢٨٠٠٠

(أ) لا يجد الكاتب مبرراً لاعتبار المسيحيين واليهود والصابئة والشبك غير عرب .

ملاحظة عامة : تشير العلامة « ـ » الى ان البيانات غير متوافرة .

المصدر : احتسبت من :

Great Britain, Admiralty War Staff, Intelligence Division, *A Handbook of Mesopotamia*, 4 vols. ([London: The Division, 1916-8]), vol. 1, p. 66.

(٢١) هذا لا يعني ان الوعي القومي لم يكن موجوداً ، بل يعني انه كان في حالة انحسار .

اما من الناحية الدينية فإن العقيدة السائدة هي الاسلام الذي يمثل حوالى ٩٠ بالمائة من مجموع السكان . وكان اليهود اقلية قوية تعيش في المدن ، وبالدرجة الرئيسية في بغداد والبصرة . وكانوا ذوي قوة ونفوذ تعزى الى براعتهم المالية ، والتعليم العالي الذي كان بعضهم يحصل عليه عن طريق مدارسهم الخاصة او ارسال ابنائهم الى اوروبا .

وكان المسيحيون يتركزون ايضاً في المدن الكبرى (الموصل وبغداد والبصرة) ، ولكنهم ، خلافاً لليهود ، كانوا يشكلون بعض المجتمعات الريفية لاسيما في مقاطعة الموصل . وكان لهم مدارسهم الخاصة ايضاً ، ويحصلون على تعليم متقدم نسبياً . وفي الفترة العثمانية ، كان اليهود والمسيحيون يعاملون (كمواطنين من الدرجة الثانية) ، وقد حرموا من حقوق كثيرة . وفي عام ١٨٥٦ فقط صدر مرسوم عثماني يعلن المساواة في معاملة الاقليات في ارجاء الدولة العثمانية كافة . ولكن اذا اخذنا بنظر الاعتبار الادارة التركية والظروف السائدة آنئذٍ ، حق لنا التشكك في مدى مفعول هذا المرسوم .

وكان المسلمون العراقيون يعانون ، في تلك الفترة ، من انقسامات مذهبية . ولقد اتخذ الصراع الطائفي طابعاً خطيراً عندما اعتنق الشاه الفارسي اسماعيل الصفوي المذهب الشيعي وذلك في اوائل القرن السادس عشر[٢٢] . ومنذ ذلك الحين ، بدأ الخلاف يتخذ شكلاً اكثر عنفاً وخطورة[٢٣] ، ومع ذلك فينبغي الاشارة الى انه قد جرت في فترات معينة بعض المحاولات للمصالحة المذهبية[٢٤] . الا ان الطابع العام لتلك الحقبة كان الصراع . وكانت هذه المأساة التاريخية تمثل عقبة في طريق الوحدة الوطنية .

من الناحية الاجتماعية ، كان سكان العراق مقسمين الى ثلاثة اقسام رئيسية : العشائر البدوية ، وسكان الريف (بمن فيهم العشائر شبه البدوية والمتوطنة)، وسكان المدن .

كان البدو العرب يسكنون الصحراء في القسم الغربي والجنوبي الغربي من العراق . وكانت العشائر الرئيسية هي : شمر في الشمال والجزيرة ، وعنزة في الشامية ، والدليم في جنوبي غربي العراق . وكان البدو يعتمدون اقتصادياً على الجمال والغزو[٢٥] . ولم يكونوا عنصراً ذا انتاجية عالية في المجتمع العراقي ، بل كانوا يشكلون عقبة كأداء امام نمو التجارة البرية وخطراً على الامن ، وتحدياً لاية حكومة مركزية .

---

(٢٢) Edward G. Browne, *A Literary History of Persia*, 4 vols. (Cambridge: Cambridge University Press, 1953-1956), vol. 4, p. 260.

(٢٣)انظر مثلاً: ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠) ، ص ٤٠ ، و
Edward S. Creasy, *History of the Ottoman Turks*, with a new introduction by Zeine N. Zeine (Beirut: Khayat's, 1961), pp. 131-132 and 356.

(٢٤) جعفر آل محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها (النجف : ١٩٥٨) ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(٢٥) اي شن الغارات لنهب القوافل التجارية والعشائر والمدن المجاورة.

اما بالنسبة لسكان الريف ، فلقد كانت تشكيلاتهم الاجتماعية تختلف تبعاً لأنظمة الري والزراعة . ففي الشمال ، في المناطق التي تروى بمياه الامطار كانت الوحدة الاجتماعية هي القرية . اما في الجنوب حيث المنطقة المأهولة بالعرب ، المروية بالنهر ، فكانت الوحدة الاجتماعية هي العشيرة .

كان الاحساس بالانتماء عشائرياً . وكانت العشيرة عادة تمتلك رقعة واسعة من الارض تدعى (الديرة) ، وتضم اراضي مزروعة وغير مزروعة بالاضافة الى اراض تغطيها المياه (الاهوار) . وكان نظام (الديرة) يعطي القبيلة الحق في زراعة اي جزء منها وفقاً لخصوبتها وريّها[٢٦] . وكانت الديرة تعتبر ملكاً للعشيرة كلهاوليست ملكاً فردياً للشيخ او العائلة التي ينتمي اليها . ولذلك كان ثمة احساس قوي بالوحدة داخل العشيرة مما عاق بالنتيجة نمو الوعي القومي او الوطني .

ولم تكن السلطات التركية تقدم للعشائر الا مطالب مستمرة بدفع الضرائب . وبالنظر لضعف الحكومة في فرض سيطرتها خارج اسوار المدن، فقد كانت العشائر تتبادل الخدمات والحماية مع بعضها ، بدلاً من الاعتماد في ذلك على حكومة غير مؤهلة . ولقد علّمت التجربة العشائر ان ضعفها يجعلها عرضة لبطش الحكومة او حتى العشائر الاخرى . ولذلك لم يكن امامها سبيل سوى بناء تحصيناتها الخاصة ورص صفوفها بغرض الدفاع عن النفس ضد بعضها البعض وضد الحكومة على حد سواء . ولقد سعت العشائر الى تحصين مراكزها بتوحيد نفسها في مجموعات اكبر او اتحادات عشائرية .

واشهر هذه الاتحادات كان « المنتفك » الذي شمل الجزء الجنوبي من البلاد، اي من القرنة الى السماوة وعلى امتداد نهر الفرات . وكانت القوة التي توحد هذه العشائر وتقودها متمركزة في عائلة السعدون الشهيرة وهي في الاصل من الحجاز، وكانت المدينتان الرئيسيتان في هذه المنطقة هما الشطرة والناصرية.

اما الفرات الاوسط او منطقة الحلة والديوانية ، وهي الرقعة الممتدة من السماوة الى المسيب ، فكانت خاضعة لمشيخة اتحاد الخزاعل ، وكانت وحداتها منتشرة في المنطقة الواقعة بين الكفل والديوانية والسماوة . وكانت تسكن هذه الرقعة عشائر واتحادات اخرى ، مشهورة ايضاً بخصائصها القتالية ومن بينها الفتلة التي استوطنت حول نهري المشخاب والشامية ، وكان فرع آخر من الفتلة يسكن المنطقة المحيطة بالهندية . وكانت عشيرة بني حسن تسكن المنطقة الواقعة بين كربلاء والكوفة . اما اتحاد زبيد ، الذي كان يضم عشيرة البوسلطان وعشيرتي المعمرة والجوحية فكان متوطناً بين دجلة والفرات . وكانت عشيرتا عفج والدغارة تسكنان المنطقة المحيطة بنهر الدغارة .

---

(٢٦) هاشم جواد ، مقدمة في تاريخ العراق الاجتماعي (بغداد : ١٩٤٦) ، ص ٤٤ .

كانت منطقة الفرات الاوسط تتسم، بشكل استثنائي، بتلاحمها العشائري القوي . وكانت الروح العشائرية عميقة الجذور بسبب الظروف الموضوعية والتاريخية السائدة في تلك المنطقة . ان نصفها الشرقي (الذي تروبه مياه الدغارة) كان قد ولّد تلاحماً عشائرياً قوياً للدفاع عن ثرواتها ازاء الضرائب الجشعة للحكومة . اما النصف الغربي فكان يواجه الصحراء ويتهدده خطر الغزو البدوي ولذلك لم يكن للعشائر مناص من توحيد صفوفها وتعزيز روحها العشائرية .

اما البواخر النهرية وسندات الطابو ـ وهما عاملان ادخلا في ستينات وسبعينات القرن الماضي ، ولعبا دوراً بارزاً في اضعاف التشكيلات العشائرية في مناطق العراق الاخرى ـ فلم يكن لهما دور يذكر في الفرات الاوسط ، كما سنرى في الصفحات القادمة .

وعلى امتداد دجلة ، من القرنة الى بغداد ، تقع منطقة العمارة التي تؤلف ارضاً غنية تحاذي ايران، تسكنها عشائر البو محمد ، وبني لام وربيعة وشمر طوقة . ومن المسيب الى الرمادي ، وعلى امتداد الفرات ، كانت تسكن عشائر زوبع ، وبني تميم والجنابيين .وفي ما يلي ذلك شمالاً كانت عشائر الدليم .وعلى امتداد دجلة من بغداد الى الموصل كانت تسكن العبيد وشمر جربة . وحول نهر ديالى ، والى الشمال من بغداد كانت بني تميم والعزة[27] .

وكان الكيان الاقتصادي للعشائر المتوطنة يقوم على الملكية الجماعية للارض او الديرة . فلقد كان المحصول يوزع بالتساوي بين كل فرع من فروع العشيرة وفقاً لعدد افرادها . ولم يكن الشيخ يعتبر مالكاً للارض او جابياً للضرائب . الا انه كان يحصل عادة على حصة اكبر ـ من غيره ـ من المحصول ولكن فقط لتغطية نفقات (المضيف) الذي كان مكرساً لاستعمال العشيرة برمتها ولاشباع (غرورها) في كرم الضيافة . وكان على الشيخ ان ينفق ايضاً بعض المال على (حوشيته) و(صبيانه) للحفاظ على هيبته .

كان يرأس كل عشيرة عضو بارز ومعترف به من البيت الحاكم . وكان يساعد الشيخ عادة مجلس عشائري لحل المشاكل التي تواجه العشيرة كهيئة جماعية ، ومجلس قضائي لحل المشاكل ما بين افراد العشيرة وفقاً للقانون غير المكتوب ولكنه متعارف عليه وفقاً للعادات والتقاليد العشائرية .

إن النظام العشائري المستند الى هيكل اقتصادي عميق الجذور (من الملكية الجماعية واقتصاد الكفاف) والذي حافظت عليه الظروف الموضوعية السائدة (الحكومة الفاسدة الضعيفة وانعدام الامن) قد ولّد قيماً وعلائق اجتماعية معينة بين اعضائه الذين كانت تشدهم ببعضهم روابط الدم والتعصب والشريعة والقوانين والاخلاق العشائرية المتعارف عليها . ان هذا النظام اعاق نمو الوعي القومي ووقف حائلاً امام نمو سوق عراقية موحدة، كما كان تحدياً دائماً لأية سلطة مركزية في العراق .

---

(27) فيما يتعلق بالعشائر العراقية ، انظر : عباس العزاوي ، عشائر العراق ، ٤ ج (بغداد : ١٩٣٧- ١٩٥٦)

وكان ثمة انقسام آخر في المجتمع العراقي وهو (التمايز الحاد بين سكان المدن والاعراب . . . كان ينبغي اقامة التوازن بين ابن المدينة المتعلم الذي يعتمد على (شطارته) لتحسين احواله ، والاعرابي الذكي غير المتعلم الذي يعتمد على قواه في التحدي . . .(٢٨) .

ان الحكومة التركية، التي اقلقتها هذه التحديات لسلطتها، ردت على ذلك باسلوبين يهدفان الى مجابهة قوة النظام العشائري وهما : اولاً ، التكتيك التركي المفضل (فرق تسد) ؛ وثانياً ، الحملات العسكرية المباشرة الرامية الى اخضاع العشائر بالقوة . لقد تجلت هذه السياسة في الاشكال التالية :

١ ـ تحريض القبائل ضد بعضها ، إما عن طريق مصادرة الارض من قبيلة ما واعطائها الى اخرى ، او عن طريق التحيز لجانب معين خلال الحروب العشائرية . فمثلاً ، انتزع شبلي باشا (متصرف الديوانية) ، الارض من الخزاعل واعطاها الى الفتلة (وكانت منطقة المشخاب الغنية جزءاً من هذه الارض) . وقد ادى هذا الى نشوب قتال عنيف بين العشيرتين وحلفائهما . وانحاز الاتراك الى جانب الفتلة وحركوا قواتهم لتهديد الخزاعل(٢٩) . ومن المفارقات الطريفة والمؤلمة ـ في آن ـ في هذا الصدد ، انه بعد فترة قصيرة شجع الاتراك آل ابراهيم على رفض دفع الثمن الى الفتلة مقابل استغلالهم لارض تعود للفتلة . وقد ادى هذا بدوره الى مصادمات ومعارك جديدة(٣٠) .

٢ ـ اثارة الحسد والمنافسات داخل القبيلة الواحدة ، عن طريق ابدال الشيخ المعترف به بآخر ، اما من العائلة نفسها او من عائلة اخرى .

٣ ـ في سبيل خلق هوة بين الشيخ وعشيرته ، انتهج الاتراك سياسة تعيين بعض الشيوخ كحكام رسميين على وحداتهم العشائرية . بقصد تحويل الشيخ من زعيم لقبيلته الى جابي ضرائب وممثل للحكومة(٣١) .

ان هذه السياسة قصيرة النظر لم تجلب للعراق سوى الخراب . فلقد تحول العراق الى ميدان للحروب ما بين العشائر المتصارعة على الارض او الماء ؛ ومزقته الصدامات بين العشائر والحكومة ، مما الحق بالبلاد ضرراً بالغاً . وكان مجرى الدم غزيراً وعميقاً ، ولكن النتائج كانت سطحية وتافهة .

إن النظام العشائري لم يكن مصادفة سيئة ، بل كان ثمرة ظروف تاريخية وموضوعية معينة ،

---

(٢٨) Foreign Office [F.O.] 371 / 340 6 / 66571, «Administration Report of the Revenue Board, Baghdad, March 22nd- December 31 st 1917,» p. 4.

(٢٩) وداي العطية ، تاريخ الديوانية (النجف : ١٩٥٤) .

(٣٠) عبد الشهيد الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ، ١٩٢٠ (النجف : ١٩٦٧) ، ص ٦١ ـ ٦٤ .

(٣١) Longrigg, *Iraq, 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History*, p. 292.

ولم يكن من الممكن اتباع سياسة فعّالة لتصفية هذا النظام الا عن طريق تهيئة الاسس الاقتصادية والادارية لذلك . ومن هنا ، فلقد كانت نتيجة السياسة التركية في معظم الحالات هي الفشل الذريع . لا شك ان الاتراك قد نجحوا في إضعاف هذه العشيرة اوذلك الشيخ ، الا ان المحصلة النهائية لسياستهم لم تؤد الى تحطيم النظام العشائري ككل . بل ، تجاه هذه القسوة الحكومية ، كان افراد العشائر ـ في اغلب الاحيان ـ يجدون في مؤسساتهم العشائرية الملاذ الوحيد لهم . وبذلك يمكن القول انه قبل ان يقوم مدحت باشا بادخال نظام الطابو ، فلقد كانت السياسة التركية تؤدي بصورة غير مقصودة الى تقوية التنظيم العشائري عملياً .

وعلى اي حال، فإن عجلة التاريخ كانت تدور . كانت سلسلة من الاحداث تجري في داخل العراق وما حوله وتبذر بذور التغيير . ان عهد داود باشا (١٨١٧ ـ ١٨٣٢) شهد تأسيس المصانع الاولى لانتاج المعدات الحربية ، والملابس ، واول مضخة مائية[٣٢] ، واول ماكنة للطباعة[٣٣] . كما ان داود باشا وضع نهاية للنفوذ الاقطاعي لآل بابان في السليمانية والجليلي في الموصل ، الذين كانوا يشكلون تهديداً خطيراً لأي شكل من الحكم المركزي[٣٤] . وبعد الاحتلال التركي الثالث عام ١٨٣١ ، استمرت سياسة الاتراك في تصفية النظام العشائري وبشكل اكثر سرعة وفعالية ، بفضل استخدام الاساليب العسكرية الجديدة واستخدام المدفعية ضد العشائر .

وادخل والي بغداد مدحت باشا (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢) سلسلة من الاصلاحات كان لها اثر عميق على العراق ، وابرزها نظام الطابو. وفي عام ١٨٧٠ ، فرض مدحت حداً معيناً من الوحدة المركزية في البلاد عن طريق اصلاح النظام الاداري . وفي عام ١٨٦٨ ، تم ربط العراق باسلاك (القابلو) بالاقطار المجاورة ، بما فيها الهند[٣٥] . وفي عام ١٨٧٨ بدأت مكاتب البريد التركية بالعمل[٣٦] . وفي عام ١٨٦٤ بدأت البواخر النهرية تمخر عباب دجلة وبعد ذلك بخمسة اعوام افتتحت قناة السويس . ان كل هذه العوامل مهدت الطريق لتغييرات جديدة في العراق ، كان اهمها نمو التجارة الخارجية ونظام الطابو لتسجيل الاراضي .

اولاً : نمو التجارة العراقية والجوانب المتعلقة به

قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كانت التجارة العراقية جد محدودة . كان مجموع حجمها لا يزيد عما يساوي مائة الف دينار عراقي . وكان معظمها من منشأ اجنبي .

---

(٣٢) سليمان فائق ، تاريخ بغداد (بغداد : ١٩٦٢) ، ص ٦١ .

(٣٣) Kirk, *A Short History of the Middle East, from the Rise of Islam to Modern Times*, p. 105

(٣٤) عبد الرحمن البزاز ، محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، ط ٣ منقحة ومزيدة (بغداد مطبعة العاني ، ١٩٦٧) ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٣٥) Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, pp. 296-297.

(٣٦) المصدر نفسه .

وباستثناء التمور وبضع مواد صوفية ، لم يكن العراق يصدر اية منتجات محلية(٣٧) . لذلك كان النشاط التجاري يعتمد الى حد كبير على تجارة الترانزيت ، حيث يقوم العراق بدور محطة تجارية لا اكثر(٣٨) . وفضلاً عن ذلك ، كانت التجارة العراقية مقصورة على الاقطار المجاورة ، ولا تكاد تتعداها الى اوروبا(٣٩) .

الا انه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، جرى توسع سريع(٤٠) في تجارة الصادرات العراقية(٤١) . ورافق ذلك نمو ملحوظ في تصدير المنتجات المحلية العراقية(٤٢) . وكما يشير د. محمد سلمان حسن فلقد كان النمو السريع في التجارة العراقية مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بسلسلة من التغيرات مر بها العراق في بداية القرن الماضي ، وهي اخضاع القادة العشائريين للسلطة المركزية ، والسياسة العثمانية لتصفية النظام العشائري ، وتوحيد الولايات العراقية حول محور بغداد في ثلاثينات القرن المنصرم ، وتطبيق نظام الولايات العثماني في العراق عام ١٨٧٠ ، والاصلاحات الاقتصادية والادارية لمدحت باشا ، لاسيما ادخال نظام الطابو الذي ولد تغييرات جذرية في نظام ملكية الارض .

وقد كان لافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ تأثير قوي على الاقتصاد العراقي ، اذ انه بنتيجة تقليص تكاليف ومدة الرحلات التجارية ، فلقد ساعد ذلك على احداث طفرة كبيرة في التجارة العراقية .

ولقد استفادت التجارة العراقية ايضاً من سلسلة من التغييرات في السياسة التجارية العثمانية . فقبل عام ١٨٣٨ ، كانت تركيا تفرض رسوماً جمركية عالية(٤٣) اعاقت التجارة الخارجية . ولكن في عام ١٨٣٨ ، تغيرت هذه السياسة من خلال جملة من المعاهدات التي

---

(٣٧) J.B. Rousseau cited by: Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*, p. 136.

(٣٨) المصدر نفسه .

(٣٩) H[amilton] A[lexander] R[ooskeen] Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East*, 2 vols. (New York; London: Oxford University Press, 1950-1957), vol. 1: *Islamic in the Eighteenth Century*, part 1, p. 304.

(٤٠) خلال الاعوام ١٨٦٤ ـ ١٨٧١ بلغت صادرات العراق ١٤٧٠٠٠ دينار وارتفعت خلال الاعوام ١٨٨٨ ـ ١٨٩٥ الى ١٢٧٢٠٠٠ دينار ، لتبلغ خلال عام ١٩١٢ / ١٩١٣ ٢٩٦١٠٠٠ دينار ، انظر : المصدر نفسه .

(٤١) Mahammed Salman Hasan, «Foreign Trade in the Economic Development of Modern Iraq, 1869-1939,» (Ph.D. dissertation, Oxford University, 1958), table 1, p. 42.

وهذه الاطروحة هي من افضل ما كتب عن تاريخ العراق الاقتصادي في تلك الفترة وقد نشرت بالعربية فيما بعد ، انظر : محمد سلمان حسن ، التطور الاقتصادي في العراق : التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ، ١٨٦٤ ـ ١٩٥٨ (صيدا : المكتبة العصرية ، ١٩٦٥) .

(٤٢) Colonial Office [C.O.] 696/3, «Custom Administration Report for the Year 1920,» p. 1.

(٤٣) فعلت تركيا ذلك لحماية اقتصادها الوطني برفع سعر الاسوار الجمركية .

فرضتها بريطانيا واقطار اوروبية اخرى . وطبقاً لهذه المعاهدات اصبحت رسوم الاستيراد تستوفى بنسبة ٥ بالمائة ورسوم التصدير بنسبة ١٢ بالمائة . وفي عام ١٨٦١ ، استبدلت هذه المعاهدات باخرى جديدة زادت فيها رسوم الاستيراد الى ٨ بالمائة ، في حين خفضت رسوم التصدير الى ٨ بالمائة ايضاً . كما اخضعت الرسوم الاخيرة لتخفيض سنوي قدره ١ بالمائة ابتداء من عام ١٨٦٩[٤٤] . وفي ما بين ١٩٠٠ و١٩١١ عارضت الحكومة البريطانية ، اية محاولة تركية لزيادة رسوم الاستيراد[٤٥] . وفي تموز / يوليو ١٩٠٧ سمح لتركيا بزيادة رسوم استيراداتها الى ١١ بالمائة . وفي عام ١٩١٤ زيدت الرسوم ذاتها الى ١٥ بالمائة . وخلال الحرب العالمية الاولى ، رفعت رسوم الاستيراد مرة اخرى الى ٣٠ بالمائة ، الا انه من البديهي ان هذه الزيادة لم تشمل العراق بسبب الاحتلال البريطاني .

ثمة عامل آخر ساعد على توسع التجارة واحداث تطور اقتصادي واجتماعي مهم في العراق ، وهو ادخال البواخر والمواصلات النهرية . فلقد وصلت اول باخرتين (بغداد والبصرة) في عام ١٨٥٧ . وبالرغم من وجود حصة للجمهور تقدر بحوالى النصف فإن الولاة لم يوافقوا على تحميل هذه السفن بالشحنات الخاصة[٤٦] . بل اكتفوا باستخدام هذه السفن لنقل الجنود والخدمات البريدية فقط . وفي عام ١٨٦٧ اضاف نامق باشا (الوالي) ثلاث سفن اخرى (الموصل ، الرصافة ، الفرات) الى الاسطول ونظم الخدمة على اساس تجاري تحت اسم (الادارة العمانية ـ العثمانية) وقام ايضاً ببناء ورشة تصليح[٤٧] .

وفي نيسان / ابريل ١٨٦١ تأسست في لندن شركة اخرى للملاحة باسم (شركة الفرات ودجلة للملاحة) على يد هـ . ب . لنج.وكانت عائلة لنج هذا قد اسست بيتاً تجارياً في بغداد عام ١٨٣١[٤٨] وبرأسمال متواضع قدره (١٥,٠٠٠ باوند)[٤٩] . وبالرغم من المعارضة السياسية لبعض الولاة وللعراقيين التي جابهوا بها هذه الشركة ، وبرغم المنافسة الاقتصادية من جانب (الشركة العمانية ـ العثمانية) ، فلقد عززت الشركة البريطانية مراكزها : فإلى جانب حيازتها سفناً اكبر وافضل ، كانت تمولها الحكومة الهندية ، فضلاً عن احتكارها الفعلي لشحن الواردات من الهند وبريطانيا عند وصولها الى البصرة ، وسيطرتها على تجارة الصادرات للشركات البريطانية في العراق[٥٠] . كل هذه العوامل مهدت الطريق امام الشركة

---

(٤٤) سعيد حمادة ، النظام الاقتصادي في العراق (بيروت : المطبعة الاميركية في بيروت ، ١٩٣٨) .

(٤٥) Edward Mead Earle, *Turkey, The Great Powers and the Baghdad Railway* (New York: Macmillan, 1923), p. 226.

(٤٦) Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, p. 294.

(٤٧) H. Shiha cited by: Haider, «Land Problems of Iraq,» p. 265.

(٤٨) Halford Lancaster Hoskins, *British Routes to India* (New York; London: Longmans, Green, 1928), p. 424.

(٤٩) *The Story of Euphrates Co.*, Cited by: Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*, p. 148.

(٥٠) Haider, «Land Problems of Iraq,» p. 266.

البريطانية لفرض سيطرتها التجارية وكذلك فتحت الباب لتغلغل المصالح الاقتصادية البريطانية وبالتالي النفوذ البريطاني في العراق . ولقد ارتفع رأس مال الشركة الى ١٠٠,٠٠٠ باونـد قبل الحرب العالمية الاولى ثم قفز الى ٣٠٠,٠٠٠ باوند في عام ١٩١٩[٥١] .

وفي وقت مبكر ، عام ١٨٦٨ ، اكد (القومنداان) لنج ان التجارة بين الهند وموانىء الخليج العربي والفرات قد ازدهرت بشكل استثنائي ، منذ ان اجتذبت البعثة الانظار ، لاول وهلة ، الى هذه الاقطار[٥٢] .

وفي آذار / مارس ١٩١٤ ، اندمجت مصالح لنج مع شركات اللورد انجيب الـذي كان يسيطر آنئذٍ على شركات (Peninsular Orientad) و(British India) وغيرها من شركات البواخر والشركات الملاحية والصناعية في الشرق ، ولقد ادى هذا الاندماج الى اتفاق جديد مع تركيا ، دعم المصالح البريطانية[٥٣] .

ان هذا التغلغل المالي البريطاني المتعاظم قوبل من جانب من العراقيين بالاستياء . وقد ذكر ان وجهاء بغداد احتجوا في اواخر عام ١٩٠٩ ورفعوا التماساً بعدم تجديد (فرمان) الشركة ، حتى انهم عرضوا دفع جميع التكاليف المترتبة على الغاء حقوق الشركة البريطانية[٥٤] .

إن هذه السفن التجارية قلصت مدةالرحلات واجور الشحن الى درجة كبيرة ، وساعدت على النمو السريع لحجم التجارة الخارجية . فقد تقلصت مدة السفر في عكس اتجاه التيار من البصرة الى بغداد الى اربعة او خمسة ايام بالمقارنة مع ٤٠ الى ٦٠ يوماً بواسطة المراكب المحلية او السفن الشراعية[٥٥] . وفي عام ١٨٦٦ كان النقل على دجلة يكلف (١٥٠) قـرشاً لكـل طغار (٢,٦٩٠ باوند) ؛ اما على الفرات حيث كان استخدام المراكب التجـارية غـير ممكن ، فكان متوسط الكلفة يبلغ (٢٠٠) قرش[٥٦] .

إن النقليات النهرية لم يكن اثرها محصوراً في توسيع التجارة ، بل لعبت ايضاً دوراً حاسماً في عملية استيطان العشائر . فإنها سهلت اخضاع العشائر بالقوة العسكرية ، باتاحة الفرصة امام الجيش لاستخدام المواصلات النهرية الجديدة ، وفضلا عن ذلك ، فإنها شجعت العشائر على الاعتماد على الزراعة بتهيئتها منفذاً مربحاً للانتاج الزراعي . واذا علمنا ان الفرات كان آنذاك ، لاسبـاب متعددة ، لا يستخـدم للملاحـة ، فلم يكن من المـدهش ان عشـائـر دجلة قـد تم (ترويضها) قبل عشائر الفرات بمدة طويلة . ان البواخر النهرية ساعدت بشكل فعال على تحطيم

---

(٥١) Issawi, Ibid , pp. 148-153.

(٥٢) F.R. Chesney, *Narrative of the Euphrates Expedition Carried on by the Order of the British Government during the Years 1835, 1836 and 1837* (London: Longmans, 1868), p. 357.

(٥٣) Earle, *Turkey, The Great Powers and the Baghdad Railway*, pp. 258-260.

(٥٤) صدى بابل ، السنة ١ ، العدد ٢٠ (٣١ كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٩) .

(٥٥) Hoskins, *British Routes to India*, p. 427.

(٥٦) Haider, «Land Problems of Iraq,» p. 267.

المؤسسات العشائرية القائمة على اقتصاد الكفاف (المغلق) ، وذلك بايجادها عامل الربح ، الذي حول الاقتصاد العراقي الى اقتصاد سوق (ربح). في حين ان غياب البواخر النهرية عن منطقة الفرات ادى الى استمرار النظام العشائري هناك .

الا ان هذا التأثير لم يكن وحيد الجانب . فإن توطن العشائر ونمو التجارة كان لهما ، بدورهما ، تأثير ايجابي على السفن النهرية . ومن الواضح ان التطور في المواصلات النهرية الحديثة ، بواسطة الشركات الاجنبية ، لم يصبح ممكناً الا أنه كان مربحاً[٥٧] . ويمكن تعليل ذلك بعاملين : ازدياد الطلب الاوروبي على المواد الغذائية والخامات العراقية ، وتوافر الارض واليد العاملة في العراق . مما اتاح له انتاج وتصدير المواد المطلوبة .

١ ـ التحول في اتجاه التجارة العراقية

ان نمو تجارة الصادرات العراقية كان مصحوباً بتحول جذري في اتجاهها . فلم يعد الشرق الاوسط سوقاً رئيسية للصادرات العراقية ، بل اضحت بريطانيا وامبراطوريتها تحلان تدريجياً ، باطراد ، محل اسواق الشرق الاوسط . وفي نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي ، كان معظم الصادرات العراقية المحمولة بحراً موجهاً الى اوروبا ، في حين كان جزء صغير ومتناقص يصدر الى الاقطار الاخرى ، بما فيها الامبراطورية العثمانية . وعلى العكس من تجارة العراق البرية ، كانت تجارته البحرية تلعب دوراً فعالاً في تطوره الاقتصادي .

كانت التجارة البرية العراقية تتجه شمالاً عن طريق الموصل الى تركيا ، وغرباً الى سوريا ، لاسيما حلب ، وشرقاً الى ايران ، وكذلك من بغداد الى دمشق عن طريق البادية الغربية ، ومن الزبير والنجف وسوق الشيوخ الى العشائر البدوية في الصحراء الغربية . وكانت تجارة الصادرات التي تمر عبر هذه الطرق البرية ذات قيمة منخفضة ومتناقصة تدريجياً.ان التحسن في الملاحة البحرية والنهرية ، لاسيما بعد افتتاح قناة السويس ، ونمو الشركات التجارية الاوروبية والمحلية وازدياد الطلب الاوروبي على المواد الغذائية والخامات العراقية ، كانت كلها عوامل ساعدت على تحويل التجارة العراقية من الشرق الاوسط الى اوروبا[٥٨] .

وقد ذكر يوسف غنيمة انه في عام ١٩٠٩ كان ٣٣,٤ بالمائة من الصادرات العراقية تذهب الى بريطانيا ، و٥٨,٨ بالمائة من وارداتها يأتي من بريطانيا[٥٩] .

---

(٥٧) المصدر نفسه .

(٥٨) ان هذه الظاهرة موضحة بجلاء في : حسن ، التطور الاقتصادي في العراق : التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ، ١٨٦٤ ـ ١٩٥٨ ، ص١٢٨ ـ ١٣١ .

(٥٩) يوسف غنيمة ، تجارة العراق قديماً وحديثاً (بغداد : ١٩٢٢) ، ص ١٠٠ .

جدول رقم (١ ـ ٢)

التوزيع النسبي لمجموع الصادرات العراقية
في الاسواق العالمية ، للفترة ١٩٠٩ ـ ١٩١١

السـوق	التوزيع النسبي (٪)
المملكة المتحدة	٣٠
الهنـد	١٨
فرنسـا	١٤
المانيـا	٧
الولايات المتحدة الامريكية	٧
بلجيكا	١,٦
غيرهـا	٢٢,٦

المصدر : احتسبت من : محمد سلمان حسن ، التطور الاقتصادي في العراق : التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ، ١٨٦٤ ـ ١٩٥٨ (صيدا : المكتبة العصرية ، ١٩٦٥) ، ص ١٣٤ .

وبهذا الشكل ، استطاع البريطانيون ،الذين استهلوا اولى علائقهم التجارية مع البصرة في عام ١٦٣٥ باستثمارات ضئيلة لشركة الهند الشرقية[٦٠] ، استطاعوا في ١٧٦٣ ، ان يفتتحوا فرعاً لهذه الشركة في منطقة الخليج[٦١] . ومنذ ذلك التاريخ اخذت المصالح التجارية البريطانية تنمو باطراد في العراق، في حين كانت الروابط الاقتصادية مع تركيا تهبط الى ادنى مستوى[٦٢] .

٢ ـ محتويات التجارة العراقية

إن احصائيات الصادرات العراقية تبين ازدياداً مطلقاً ونسبياً في تصدير السلع الزراعية ، وكذلك بروز المنتجات الزراعية الى المقدمة في صادرات العراق . وكانت صادرات العراق الرئيسية هي التمور ، والقمح ، والشعير (حاصلات زراعية) ، والصوف ، والجلود، والحيوانات الحية (حاصلات حيوانية). وفي عام ١٨٧٨ كانت الصادرات الزراعية تؤلف ٤٩ بالمائة من مجموع الصادرات العراقية ، في حين كانت الصادرات الحيوانية تؤلف ٥١ بالمائة ، وخلال عامي١٩١٢و

---

(٦٠) John Gordon Lorimer, *Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia* (London: Holland, 1970), vol. 1: *Historical Part IB*, p. 188.

(٦١) المصدر نفسه .

(٦٢) Haider, «Land Problems of Iraq,» pp. 703-704.

١٩١٣ ، كانت السلع الزراعية تؤلف ٨٠ بالمائة من مجموع الصادرات في حين انخفضت الصادرات الحيوانية الى ٢٠ بالمائة[٦٣] .

ان ذلك يوضح ان نمو الزراعة (بفضل توطين العشائر) وتوسع التجارة كان لهما تأثير متبادل وايجابي على بعضهما . كما يبين ان الحاصلات الزراعية لم تعد موجهة الى سد الحاجات المحدودة للعشيرة ، بل لاشباع حاجات السوق .

٣ ـ توسع تجارة الاستيراد

ان نمو الصادرات امدّ البلاد بالعملة الصعبة والقدرة المالية التي ساعدت على توسع تجارة الاستيراد . ومما شجع على ذلك ايضاً ، انخفاض تكاليف واسعار السلع المستوردة بفضل افتتاح قناة السويس ، والتحسينات في ميناء البصرة ، واقامة المواصلات النهرية .

ويمكننا ان نلاحظ في هذه التجارة ازدياداً مطلقاً ونسبياً في استيراد السلع الانتاجية ـ لاسيما مضخات الري ـ ازدياداً مطلقاً مع هبوط نسبي في السلع الاستهلاكية[٦٤] . ويتبين من ذلك ان نمو التجارة ساعد على تحسين الظروف الزراعية ، بغرض رفع وتيرة الانتاج[٦٥] .

وهنا ايضاً نلاحظ النسبة المتزايدة باستمرار لاستيرادات العراق من بريطانيا وامبراطوريتها . وبحلول عام ١٩٢٠ ، كان مجموع حصة الامبراطورية البريطانية من الواردات العراقية يبلغ حوالى ٧٥ بالمائة[٦٦] .

٤ ـ التأثير الاجتماعي ـ السياسي للتجارة العراقية

يمكن تلخيص آثار نتائج توسع التجارة العراقية والتحول في اتجاهها بالنقاط التالية :

أ ـ كانت الرسوم الجمركية تؤلف المصدر الرئيسي الثاني لموارد العراق العامة وتشكل ٢٠ ـ ٢٥ بالمائة منها . ومع تنامي تجارة العراق الخارجية ، اخذت الرسوم تدر موارد اكثر فأكثر على الرغم من تخفيض نسبتها[٦٧] .

---

(٦٣) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق : التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ، ١٨٦٤ ـ ١٩٥٨ ، ص ٦١ .

(٦٤) خلال عام ١٨٦٤ / ١٨٦٥ بلغ مجموع واردات العراق ٣١٨٩٠٠ باوند ، ٦٣ بالمائة منها يتألف من السلع الاستهلاكية و٢٤,٩ بالمائة منها يتألف من السلع الانتاجية . وخلال عام ١٩١٢ / ١٩١٣ قفزت الواردات الى ٣٤٦٧٦٠٠ باوند ، ٥٥,٦ بالمائة منها ، من السلع الاستهلاكية و٣٨,٦ بالمائة منها يتألف من السلع الانتاجية . انظر : المصدر نفسه ، ص ٢٥١ .

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥١ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٢٥٣ ـ ٢٦١ ، و C.O. 693/3, «Custom Administration Report for the Year 1920,» pp. 1-28.

(٦٧) يعقوب سركيس ، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد ، تقديم محمد رضا الشبيبي (بغداد : شركة التجارة والطباعة المحدودة ، ١٩٤٨) ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

ب ـ ان ازدياد المبادلات التجارية مع بريطانيا وامبراطوريتها كان يهدف الى ربط الاقتصاد العراقي بالبريطاني ويطور ـ بالتالي ـ المصالح الاقتصادية البريطانية التي تحولت من ثم الى مصالح سياسية .

ج ـ ان تعاظم نفوذ الشركات البريطانية على التجارة العراقية افرز اتجاهين في صفوف الطبقة التجارية العراقية . فأولئك الذين اندمجوا في الاطار العام للسيطرة المالية البريطانية اصبحوا سنداً اجتماعياً وسياسياً للهيمنة البريطانية على العراق(٦٨) . اما الآخرون الذين تضرروا من المنافسة التجارية البريطانية فقد اصبحوا احد المصادر الرئيسية للاستياء(٦٩) والتحريض السياسي ضد السيطرة البريطانية .

د ـ ان الاثر الاكثر اهمية للتجارة العراقية الخارجية انعكس على التركيب الاقتصادي للمجتمع ، وعلى عناصره التكوينية وقواه الاجتماعية ونظام الاراضي فيه .

إن التوسع الهائل في التجارة العراقية الخارجية لعب دوراً بارزاً في تحويل اقتصاده من اقتصاد طبيعي او اقتصاد كفاف ومغلق (Subsistance Economy) ـ بعبارة اخرى من الانتاج الحيواني والزراعي لغرض الاستهلاك الذاتي الى الانتاج التجاري من اجل السوق والربح ـ وباختصار ، من اقتصاد كفاف الى اقتصاد سوق . ان هذا بدوره مهد الطريق لتحول نظام الاراضي من النظام المشاعي والقبلي للملكية الى اشكال جديدة من ملكية الارض (لاسيما الملكية الخاصة) . كما ساعد ذلك على انقاص عدد البدو وزيادة عدد الرعاة . وقد سهل ايضاً ازدياد عدد الفلاحين المتوطنين . كما شجع على التوسيع في (تتجير) الزراعة (اي الزراعة من اجل السوق المحلية والتصدير) . وهو ايضاً عجل بانهيار النظام القبلي لمصلحة ملكية الارض الخاصة . ومن الواضح ان كل هذه النتائج كانت مترابطة عضوياً وجدلياً ، بعضها ببعضها الآخر ، او بكلمة اخرى ان كلا منها يساعد الآخر ويفتح له الباب .

ان كل هذه العوامل مهدت الطريق امام نشوء الوعي القومي . فتطور الاقتصاد القائم على الربح ، وربط العشائر المزارعة بالمدن ، وهي عملية عجل بها تقدم المواصلات النهرية ومحاولات السلطة لفرض سيطرتها المركزية . واخذت الاحداث والتطورات في انحاء العراق تصبح اكثر ارتباطاً ببعضها ، مهما كانت درجة تباعدها . ان انحلال اقتصاد الكفاف ، وتوأمه الانعزال العشائري ، كانا اشارة الى حلول عهد جديد ، تدريجياً ، محل العهد القديم .

ولقد تميزت هذه العملية بصفتين ، بقدر ما يتعلق الامر ببحثنا هذا . فأولاً ، ان التطورات الاجتماعية ـ الاقتصادية لم تكن عميقة جداً . وبالتالي فإن نتاجها السياسي ، المتمثل في نشوء الوعي السياسي والقومي والوطني كان بدوره ذا طابع متواضع . لقد بقي هذا الوعي في حالة جنينية وبدائية .

(٦٨) البرجوازية الكومبرادورية .

(٦٩) البرجوازية الوطنية .

ثانيـا ، ان هذا التطور الاجتماعي ـ السياسي كان منذ بدايته مرتبطاً بالمصالح المتنامية للامبراطورية البريطانية سواء في عموم المنطقة ام في العراق . ومن ثم فإن نمو القومية العربية في العراق كان في حالة تفاعل جدلي مستمر ، سلبي وايجابي معاً ، مع الامبريالية البريطانية .

ثانياً : توطن العشائر وحركة السكان

إن نمو التجارة ، وتوسع الزراعة ، وتعزز الامن ، وادخال نـظام الطابـو في الاراضي ، والنقليات النهرية ، كانت عوامل ذات اهمية عميقة بالنسبة للمجتمع العراقي ، وكان اثرها المباشر هو تشجيع توطن العشائر . وفي الواقع ، كان ذلك يجري بشكل واضح . كانت العشائر البدوية الصرف في العراق تؤلف عام ١٨٦٧ حوالى ٣٥ بالمائة من مجموع السكان[٧٠] . وبحلول عـام ١٩٣٠ اكد السير هنري داوسن ان عددها قد تقلص الى ٧ بالمائة فقط[٧١] . ان التغييرات في تركيب السكان تبين الاتجاه العام للنشاط الاجتماعي ـ الاقتصادي لأي مجتمع . وهذا ينطبق طبعاً على العراق ، والجدول رقم (١ ـ ٣) المقتبس من مقال بالانكليزية للدكتور محمد سلمان حسن يوضح ذلك :

جدول رقم (١ ـ ٣)

التغييرات في التكوين البدوي والحضري للسكان
في العراق ، حتى عام ١٩٣٠ (بالآلاف)

السنة	البدو	النسبة المئوية	سكان الريف	النسبة المئوية	الحضر	النسبة المئوية	المجموع
١٨٦٧	٤٥٠	٣٥	٢٥	٤١	٣١٠	٢٤	١ ٢٨٠
١٨٩٠	٤٣٣	٢٥	٩٦٣	٥٠	٤٣٠	٢٥	١ ٨٢٦
١٩٠٥	٣٩٣	١٧	١,٣٢٤	٥٩	٥٣٣	٢٤	٢ ٢٥٠
١٩٣٠	٢٣٤	٧	١,٢٤٦	٦٨	٨٠٨	٢٥	٣ ٢٨٨

المصدر احتسبت من .

Mohammed Salman Hasan, «Growth and Structure of Iraq s Population, 1867-1947,» *Bulletin of the Oxford University Institute of Statistics*, no. 20 (1958)

---

(٧٠) Sir A. B. Campboll, «Estimation of Iraqi Population 1867,» cited by. Hasan, p 52

(٧١) Sir V. H.W. Ernest Dowson, *An Enquiry into Land Tenure and Related Questions Proposals for the Initiation of Reform* (Lechworth, England Garden City Press for Iraq Government 1931), p 12

ان التغييرات في تركيب سكان العراق كانت مرتبطة بالتطور الاقتصادي الذي اشرنا اليه عند الحديث عن نمو التجارة العراقية . ويقول بهذا الصدد شارل عيساوي:« ان ادخال النقليات البحرية والنهرية الاوروبية دشن عهد اضمحلال السكان العشائريين وسقوط تجارة القوافل (التي كانت سائدة في العصور الوسطى) في الشرق الاوسط . وقد ساعد ذلك على ازدياد سكان الريف ، وتوسع تجارة التصدير العراقية ـ الاوروبية ـ الهندية . وفي حين زاد هذا النمو في التجارة الخارجية من نسبة القطاع التجاري لسكان الريف ، فإن الزيادة المستمرة في الواردات الاوروبية قضت على الصناعات الحرفية المحلية[٧٢] وساعدت بالتالي على ابقاء عدد السكان الريفيين ثابتاً نسبياً حتى اوائل الثلاثينات »[٧٣] .

وخلال الفترة الاولى من التطور الاقتصادي والتحولات السكانية ، كان التحول من البداوة الى الريف يتجه الى الرعي اكثر منه الى الزراعة ، وعليه استمرت الحياة العشائرية في جنوب العراق ، لأن الرعي كان مربحاً اكثر من الزراعة[٧٤] .

الا ان هذه الظاهرة لم تدم طويلاً ، لأن تعزز هيبة وسلطة الحكومة والاستتباب النسبي للأمن ، حرما الرعاة من قدرتهم السابقة على التهرب من دفع الضرائب على مواشيهم (ضريبة الكودة) . كما بدأ الطلب الاوروبي على الصادرات العراقية يتحول من الصوف الى المواد الغذائية . وكذلك الامر بالنسبة لنظام الطابو والنمو التدريجي للملكية الخاصة للاراضي الزراعية . كل هذه العوامل ادت الى ازالة مزايا تربية المواشي بالنسبة للزراعة ، وبذلك فتح الباب امام تحول جديد في تركيب السكان ، من رعاة الى زراع هذه المرة .

ثالثاً : مشكلة الارض

بعد سلسلة من الحملات القاسية والدامية ، ولكن الفاشلة ، ضد العشائر العراقية[٧٥] ، كان مدحت باشا اول مسؤول تركي ادرك خطأ هذه السياسة[٧٦] . وكون نظام الاراضي هو العامل الحاسم في تحديد العلاقة بين العشائر والحكومة ، ولأجل دراسة دوافع وتطبيقات ونتائج سياسته ، فمن الضروري تكوين فكرة عن الخلفية التاريخية لنظام الاراضي . ويقول بهذا الصدد د. صالح حيدر في اطروحته :

« عندما احتل العثمانيون العراق ، الغوا الاقطاعيات العسكرية للمغول واستعاضوا عنها بنظام (الاراضي

---

(٧٢) لاحظ الآثار التدميرية للامبريالية .

(٧٣) Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*, p. 160.

(٧٤) Doreen Warriner, *Land Reform and Development in the Middle East: A Study of Egypt, Syria and Iraq* (London: 1948), p. 117.

(٧٥) انظر : صديق الدملوجي ، مدحت باشا (بغداد : ١٩٥٣) ، ص ٦٣ ـ ٣٦ ؛ العطية ، تاريخ الديوانية ، ص ٥١ ـ ٥٣ ، ويوسف كركوش الحلي ، تاريخ الحلة (النجف : ١٩٦٥) ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٧٦) سليمان فائق ، تاريخ المنتفك ، تعريب م . خ . الناصري (بغداد : ١٩٦١) ، ص ٣٧ ـ ٦٣ .

الاميرية) . ومن ثم اصبحت معظم اراضي العراق من هذا الصنف . اما العقارات التي كان بوسع اصحابها ابراز حجج شرعية لإثبات كونها اراضي (خراجية) او (عشرية) فقد بقيت في ايدي اصحابها باعتبارها (ملكاً) . وعلى الشاكلة نفسها ، اعترف بالهبات الدينية كـ (أوقاف) . اما بقية الاراضي ، فمنها ما قسم الى اقطاعات عسكرية ، ومنها ما منح باللزمة ، ومنها ما احتفظت به العشائر والزعماء الوراثيون بموجب نظام الحيازة المحلي . ومن هنا ، فإن العراق خلال هذه الفترة (١٥٢٥ ـ ١٨٣١) عكس ملامح النظام الاقطاعي المدني والعسكري معاً ، وفي الوقت نفسه احتفظ بالنظام الاسلامي للملك والوقف ، وكذلك بالحيازة العشائرية »[٧٧] .

إن نظام التملك بالنسبة للاراضي العشائرية لم يكن واضح المعالم وأثار منازعات حادة بين الاتراك والعشائر . فبموجب النظم الاسلامية ، التي طبقت في العراق بعد الفتح الاسلامي ، كانت الاراضي تعتبر ملكاً صرفاً (اي ملكية خاصة) ، وتقسم الى صنفين : الخراجية (التي يدفع عنها الخراج او الضريبة) ، والعشرية (التي يدفع عنها العشر) . الا ان الاتراك ، لسبب ما ، ادرجوا معظم الاراضي تقريباً تحت صنف الاراضي الاميرية[٧٨] . ومن هنا فإن الحكومة كانت ، نظرياً ، تدعي ملكية هذه الاراضي ، الا انها من الناحية العملية كانت عاجزة عن وضع هذا الادعاء موضع التطبيق .

فلقد كان من المنطقي ان تنكر العشائر على الحكومة مثل هذه الدعوى . فإن ملكية العشائر للارض لم تستند الى هبات او وثائق تحريرية ، بل لقد استولت عليها اما عنوة ، او استوطنتها وزرعتها عندما كانت متروكة .

كانت الارض ـ في منطقة الري ـ التي تتألف بالدرجة الرئيسية من وسط وجنوب العراق ، تخضع لنظام الملكية الجماعية . وكان الفلاح الفرد يزرع ارضه بحكم عضويته في العشيرة . وملكية (الديرة) كانت تستند الى قدرة العشيرة بمجموعها على الدفاع عنها ، وكانت الارض ـ بالتالي ـ تعتبر ملكاً مشتركاً لجميع افراد العشيرة . وعلى الرغم من ان الشيخ كان عادة يحصل على جزء اكبر من الحاصل او الدخل ، فإنه كان ملزماً بانفاقه على مصلحة العشيرة .

كانت الارض المزروعة تقسم الى وحدات زراعية تعرف بـ (القطع) ، ويشرف عليها (السراكيل) . وكانت مهمة السركال الاهتمام بشؤون (القطعة) عن طريق تحديد مواعيد البذار والحصاد ، والمحافظة على منشآت الري ، وتقسيم القطعة الى وحدات اصغر ، وتوفير المال والبذور . وكانت القطعة بدورها تقسم الى وحدات اصغر يعرف الواحد منها بـ (الفدان) ويعمل فيها فريق من الفلاحين يتألف عادة من ٤ الى ٨ رجال ، ويعرف بـ (الجوق) . وكان هؤلاء الرجال يوزعون في ما بينهم اعمال الزراعة، الا انهم كانوا يحصدون بصورة جماعية ويتقاسمون الغلة[٧٩] .

---

(٧٧) Haidor, «Land Problems of Iraq,» p. 171

(٧٨) Jwaideh, *Middle Eastern Affairs, No.3: Midhat Pasha and the Land System of Lower Iraq*, p. 118

(٧٩) Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*, p. 163.

٢ ـ الاراضي الاميرية[٨٤] ، وكانت تقسم الى نوعين : الاميرية الصرف التي لم يجر عليها اي خلع (Alienation) ، والمفوضة بالطابو ، اي التي اعطت الحكومة حق حيازتها ، بموجب (سند طابو) ، الى شخص معين وفق شروط عامة معينة . وهذه الاراضي كانت تعرف عادة باراضي الطابو، وفي بعض الاحيان كان يشار اليها باعتبارها ملكاً[٨٥] . وفي هذه الارض كان حق التصرف يعطى للشخص الحائز على السند ، اما الرقبة فتبقى للدولة .

٣ ـ الاوقاف[٨٦] .

٤ ـ الاراضي المتروكة[٨٧] ، وهي التي تترك لاستعمال جميع الناس في حين تعود ملكيتها للدولة .

٥ ـ الاراضي الموات[٨٨] ، وهي المهجورة وغير المستعملة .

كان هناك صنف سادس من الاراضي ، وهو (الاراضي السنية) او (المدورة) وهي تشمل املاك (التاج) ، وقد حولت فيها بعد الى املاك الدولة[٨٩] .

ووفقاً لقانون الاراضي العثماني ، فلقد كانت السلطات مستعدة للاعتراف بحق التقادم المكسب لملكية الارض لكل شخص يثبت (حق القرار) ، الذي يتضمن استمراره في اشغال الارض، وكذلك زراعتها لفترة لا تقل عن عشر سنوات[٩٠] . وكان يصعب على افراد العشائر توفير هذه الشروط فبحكم الطابع الجماعي للملكية العشائرية ، لم يكن هناك ارض يزرعها فرد واحد من العشيرة لمثل هذه المدة الطويلة . وفضلاً عن ذلك ، فبالرغم من ان مساحة (الديرة) كانت ، بوجه عام ، ثابتة ، الا ان (القطع) و(الفدادين) كانت تتغير باستمرار ، بسبب الملوحة ، او انهاك التربة ، او كثرة الفيضانات او تحول الانهار او اغلاق الاقنية بالطمى .

ولما كان الاعتراف بحقوق ثابتة لافراد العشائر متعذراً ، فإن خلق هذه الحقوق كان ضرورياً بالنسبة لمقتضيات الوضع . ولذلك عرض مدحت باشا على افراد العشائر الحصول على سندات طابو بدفع (بدل المثل) الذي كان يعرف ايضاً بـ (المعجل) .

كان القانون واضحاً في تحديد حقوق والتزامات الحائز على سند الطابو ، الذي كان يكتسب الحيازة القانونية على الارض ، مع بقاء ملكيتها النهائية (الرقبة) في يد الحكومة . وفضلاً عن

---

(٨٤) المصدر نفسه، ص١٩ .

(٨٥) F.O. 371/4150/5395, «Revenue Circular, Baghdad, 29 May 1919,» p. 1.

(٨٦) ناصر ، قوانين الارض والاملاك غير المنقولة ، ص ٤٠ .

(٨٧) المصدر نفسه .

(٨٨) المصدر نفسه .

(٨٩) F.O. 371/4150/5395, «Revenue Circular, Baghdad, 29 May 1919,» p. 1.

(٩٠) المادة (٢) من تعليمات ادارة الطابو في الولايات ، انظر : Haider, «Land Problems of Iraq,» p. 508.

ذلك ، نص القانون على ان حيازة الارض الاميرية مشروطة بزراعتها ، فإذا بقيت متروكة لمدة ثلاث سنوات او اكثر ، فقد الحائز كل حق له فيها[٩١] .

كانت تلك محاولة طموحة . ولو انها نفذت بشكل صحيح ، لكان العراق قد مر بثورة اجتماعية تقدمية ذات ابعاد ايجابية عميقة . الا ان النظام العشائري العراقي والادارة العثمانية كانا غير مؤهلين لإسناد هذه المحاولة بالشروط اللازمة لنجاحها .

إن الادارة العثمانية ، التي كان موظفوها يتقاضون رواتب زهيدة ، والتي كانت تفتقر الى الخبرة والى المسوحات اللازمة للاراضي ، لم تكن قادرة على تحقيق الاهداف المطلوبة[٩٢] . كانت السندات تصدر احياناً بالنسبة لاراضٍ متداخلة ، او تتكرر احياناً بالنسبة للعقارات ذاتها ، او تصدر احياناً وهي تشمل مساحات كبيرة جداً من ارض لم يكن من حق الحكومة ولا في نيتها اعطاء حق حيازتها للافراد . وقد ادى ذلك الى اهدار اموال طائلة ، وكان يتنافى مع سياسة الحكومة ، المثبتة في القانون وفي التعليمات الى موظفي الطابو ، حول وجوب تفويض الاراضي لزارعيها الفعليين[٩٣] .

ان الهدف الرئيسي لسياسة مدحت باشا ، وهو تفويض الاراضي لصغار المزارعين وتحويل افراد العشائر الى ملاك ارض ، لم يتحقق ابداً . فلم يكن بوسع افراد العشائر ان يهيئوا ما يكفي من المال لدفع (المعجل) للحصول على سندات الطابو . ومن جهة اخرى ، كان القانون العثماني يمنع الملكية المشاعة[٩٤] . وبذلك حرم العشيرة ، كهيئة جماعية ، من امكانية شراء الارض . وكان افراد العشائر من جهتهم لا يرغبون في شراء السندات لأنهم كانوا يعتقدون انها سترتب ضرائب عليهم ، كما كانوا يرتابون في ان اقتناء السندات سيجعلهم عرضة للتجنيد . وفوق كل هذا ، لم يكن افراد العشائر يجدون اي سبب لشراء اراضٍ كانوا قد حققوا الحيازة الكاملة والفعلية عليها ، بالقوة .

ان تردد وعزوف افراد العشائر عن شراء سندات الطابو افسح المجال امام الموظفين الكبار ، وتجار المدن وبعض الشيوخ الاذكياء لشراء الاراضي والحصول على السندات . لقد كان هؤلاء

---

(٩١) Sir Stanley Fisher, *Ottoman Land Laws Containing the Ottoman Land Code and Later Legislation Affecting Land with Notes and an Appendix of Cyprus Laws and Rules Relating to Land* (London; New York: Milford; Oxford University Press, 1919),
الماده (٩) ، ص ٦ ، المادة (٦٨) ، ص ٢٤ . الاستثناءات على هذه القاعدة كانت : ١ ـ اراحة التربة ؛ ٢ ـ الفيضانات ؛ ٣ ـ الاسر (في حالة الحرب) .

(٩٢) عبد الله فياض ، مشكلات الاراضي في لواء المنتفك (بغداد : ١٩٥٢) ، ص ٤٧ .

(٩٣) Jwaideh, *Middle Eastern Affairs, No. 3: Midhat Pasha and the Land System of Lower Iraq*, p. 125.

(٩٤) Fisher, *Ottoman Land Laws Containing the Ottoman Land Code and Later Legislation Affecting Land with Notes and an Appendix of Cyprus Laws and Rules Relating to Land*,
الماده (٨) ، ص ٦ ، الاستثناءات المحدودة جداً على هذه القاعدة وردت في المادة (١٣٠)، ص ٤١ .

الناس يمتلكون مزية الحيازة على المال المطلوب ، ويدركون اهمية التطور الجاري . كما ان نمو التجارة العراقية والطلب المتوسع باطراد على المنتجات العراقية ، ادى الى تسابق تجار المدن غير الزراعيين والموظفين الاداريين على شراء الاراضي الزراعية .

وقد شكّل هذا بداية مشكلة جديدة ، هي مشكلة الملاّك الغائبين الذين كانوا يعيشون غالباً في المدن ، ويطالبون ببدل (الملاّكية) عن اراضيهم التي كان يزرعها رجال العشائر . وغني عن القول ، ان الفلاحين كانوا يشعرون بنقمة مريرة على هـذا التدهـور في مركـزهم ، ويقاومـون التغيرات الاجتماعية الجديدة بضراوة . لقد كان الفلاحون يـرفضون رفضـاً قاطعـاً الاعتراف بحقوق الملاكين الغائبين ويمتنعون عن دفع بدل الملاكية اليهم .

ان هذا التغيير في علاقات الانتاج الاجتماعية قد ولّد موقفين سياسيين متباينين . فقد كان الملاّك الغائبون وحائزو سندات الطابو يشعرون ان الحكومة حليفهم الرئيسي ضد ثورة الفلاحين . وبسبب عجزهم عن جباية بدل الملاّكية بأنفسهم من رجال العشائر ، كانوا مضطرين الى الاعتماد على سلطة الحكومة في هذا الشأن . ومن جهة اخرى، فإن افراد العشائر رفضوا ان يصبحوا مجرد مستأجرين ،وبذلك وجدوا انفسهم في الخندق المضاد للحكومة ، التي كانت تؤازر اعـداءهم الالداء ، من الملاكين الغائبين وحائزي سندات الطابو . « ومن هنا فإن نظام الطابو ، الذي جرى ادخاله اول الامر لحماية الفلاح ، اصبح يستخدم كوسيلة قهر ضدّه »[٩٥] .

وفي بعض المناطق العشائرية ، لا سيما المنتفك ، استغل بعض شيوخ العشائر نظام الطابو للحصول على السندات . فمثلاً ، قام (بعض) آل السعدون ، تحت تأثير نصائح شيخهم الذكي ناصر باشا[٩٦] ، الذي كان بدوره قد اقتنع بنصيحة مدحت باشا[٩٧] ، بشراء مساحات كبيرة من الارض . وطرأ تغيير جذري في المنطقة بسبب التحول في علاقات الانتاج الاجتماعية . فإن ذلك الجزء من آل السعدون بتحوله الى ملاك اراضٍ ، قد تبدل مركزه تماما ازاء العشائر ، فتحولت العلاقة ازاءهم من علاقة شيخ بافراد العشيرة ، الى علاقة ملاّك بمستأجر . وقد كان هذا بداية تفكك انحاء عشائر المنتفك ، وكذلك بداية الصراع الطويل والمرير بين افراد العشائر والقسم المتملك من آل السعدون . وتقول جويدة بهذا الصدد « في هذه الظروف ، كانت القوة الجماعية للزراع بوصفهم افراد عشيرة هي الوسيلة الوحيدة لحمايتهم من موظفي الحكومة وحائزي سندات الطابو على السواء وبالنتيجة ، اصبح الزراع والحكومة معاً يعتمدون بدرجة متزايدة على المساعي الحميدة لشيوخ العشائر باعتبارهم

---

(٩٥) Haidar, "Land Problems of Iraq," p. 532.

(٩٦) علي الشرقي ، ذكرى السعدون (بغداد : ١٩٢٩) ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٩٧) Haidar, Ibid., pp. 566-567.

ويختلف حيدر عن البرتين جويدة في تفسير بواعث مدحت باشا في اعطاء الاراضي لآل السعدون بل وتعرب جويدة عن شكوكها البالغة في كون مدحت باشا هو المسؤول عن ذلك.

اصحاب السلطة الفعالة الوحيدة المتبقية : واصبح افراد العشائر اكثر تحسّساً بالعشيرة كوحدة ، وبأراضيهم كموطن او (ديرة) عشائرية بصورة جماعية للعشيرة كلها »(٩٨) .

إن هذا القول لا يمثل الا نصف الحقيقة . صحيح ان العشيرة ازدادت قوة بوحدتها ، الا ان هذا كان امراً مؤقتاً . ان سقوط الاتحاد العشائري كان ضربة قوية للنظام العشائري برمته . فلا يمكن اعتبار شيخ العشيرة هو السلطة الفعالة المتبقية الوحيدة ، في الوقت الذي كان هذا الشيخ حائراً في الحقيقة بين ان يتمرد على حكومة ذات قوة متزايدة او تنحسر شعبيته بين عشائره . وبالرغم من ان نتائج اصلاحات مدحت باشا العقارية لم تتوافق مع نواياه ، الا انها على الاقل حققت احد اهدافه وهو التعجيل بانحلال النظام العشائري ، لا عن طريق تحويل الفرد العشائري الى ملاك خاص مستقل .كما كان الهدف الرئيسي ، بل عن طريق اغتراب هذا الفرد عن ارضه تماماً وتحويله الى مجرد مستأجر . صحيح انه في بداية الامر ، اتجه افراد العشائر ، تحت تأثير النقمة على التغييرات الجديدة ، الى تقوية النظام العشائري ، الا ان نظام الطابو ، في المدى البعيد ، بذر بذور التفكك العشائري .

ان الشيخ العشائري كانت تتجاذبه عناصر اخرى ، اضافة الى خوفه المتزايد من السلطة المتنامية للحكومة ، وذلك لشعوره بالارباح التي يمكن ان يحققها عن طريق تحوله من شيخ (ابوي) الى ملاّك يجني ارباحاً عالية من الدخل الزراعي . مثل هذه الارباح لم تكن لتتوفر له في ظل الترتيبات العشائرية القديمة .

وهكذا فإن النظام العشائري في العراق مر بحالة مزدوجة ومتناقضة . فحيثما تحول الشيخ الى ملاك بدافع الرهبة او الرغبة او كلتيهما، فإن العلاقات العشائرية كانت تبدأ بالتفسخ ثمرة للصراع الاجتماعي بين الشيخ الملاك من جهة وبين افراد عشيرته الرافضين للنمط الجديد في العلاقة من جهة اخرى . اما في المناطق التي رفض الشيوخ فيها التحول الى ملاكين ـ لسبب او لآخر ـ او تأخرت هذه العملية لغاية ما بعد ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ ، فإن النظام العشائري ازداد تماسكاً واصبح الشيوخ غير الملاكين فرسان عشائرهم في النضال ضد الملاك الغائبين والحكومة . وبشكل لا يخلو من عمومية وتجريد نستطيع القول بأن النمط الثاني كان هو الغالب في مناطق الفرات الاوسط ، موطن الثورة الاستقلالية والقومية ، التي كانت في آن واحد قومية وطبقية ؛ بمعنى ان العشائر (والشيوخ غير المالكين) وجدت في المسألة القومية (العداء للانكليز) تبريرها الايديولوجي للنضال ضد اشكال الملكية الجديدة وسلطة الحكومة الجائرة التي انتصرت للملاك

---

(٩٨) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ، ١٨٦٤ ـ ١٩٥٨ ، ص ١٩٠ ، و Dowson, *An Enquiry into Land Tenure and Related Questions: Proposals for the Initiation of Reform*, p. 21.

اما حويدة فإنها لا تعتقد بوجود مثل هاتين الارادتين . انظر : Jwaideh, *Middle Eastern Affairs, No.3: Midhat Pasha and the Land System of Lower Iraq*, pp. 125-126.

الغائبين وفرضت و(جبت) الضرائب من الفلاحين . وتجاهل هذه النقطة او العجز عن استيعابها يشكل النقص الخطير في معظم البحوث والكتابات المتعلقة بتلك الفترة .

وعلى اية حال، يبدو ان نظام الطابو قد عطل بـ (ارادتين) او مرسومين خلال عامي ١٨٨٠ ـ ١٨٨٢[٩٩] . وهكذا ترك الاتراك وضعاً معقداً جداً لخلفائهم البريطانيين الذين كانت تحدد اساليبهم في معالجة هذا الوضع مستقبل الاحداث والتكوين الاقتصادي ـ الاجتماعي للعراق .

وافضل اختصار لمسألة الارض في العراق ، كما واجهها البريطانيون يكمن في العبارات التالية لاحد كبار موظفي الادارة البريطانية: « ان استمرار الزراعة وتوسعها عملا على تفكك العشائر واضعاف نفوذ الشيوخ . وان اعادة واستمرار قوة شيوخ العشائر[١٠٠] ، وفي الوقت نفسه تحقيق الانفتاح في الريف وتنشيط الزراعة ، يمثل احدى المعضلات الهامة في ادارة الاراضي في العراق »[١٠١] . ومن الطبيعي اننا سنعود لمناقشة هذه المسألة المهمة في سياق تطور البحث .

---

(٩٩) المصدر نفسه .

(١٠٠) كان الانكليز يطمحون الى دعم سلطة الشيوخ وسيلة لتوفير قاعدة اجتماعية للامبريالية البريطانية ولكنهم ، في الوقت نفسه ، يدركون الاثر السلبي لذلك على ازدهار الزراعة العراقية كمورد اساسي لاسواقهم . على اية حال لقد حل الانكليز هذه المسألة حوالى عام ١٩٣٠ / ١٩٣١ بعد ان ادركوا المغزى التاريخي لثورة العشرين الامبريالية ايضاً تملك تحليلا طبقيا !!

(١٠١) F.O. 371 - 5406 - 139231. - Administration Report of the Revenue Board, Baghdad, March 22nd December 31st 1917.- p. 5

الفصل الثاني

الجذور التاريخية والفكرية للقومية العربية

في عام ١٩٢٠ ، جرت في العراق ثورة مسلحة اسهمت في تحقيق استقلال البلاد فيما بعد ، وحظيت بتشجيع القوميين وعلماء الدين معاً ، هذه الحقائق معروفة جيدا ولا حاجة الى الدخول في تفاصيلها . ومعروف ايضاً انه في عام ١٩٢٠ ، اتخذت الحركة الاستقلالية طابعاً دينياً ـ قومياً ، ارتبطت فيه القومية العربية بـ (الجهاد) و(الفتاوى) .

هذه الحقائق تثير اسئلة كثيرة لا تزال بحاجة الى اجوبة . هل يمكن اعتبار هذه الحركة ، سياسياً وفكرياً حركة قومية؟ او بعبارة اخرى ، هل كان العرب العراقيون يملكون الخصائص المميزة للأمة التي تؤهلهم لخلق حركة قومية؟ وفضلاً عن ذلك الى اي مدى يمكن اطلاق وصف القومية على حركة ذات طابع كهذه؟ واذا كان الامر كذلك فما هي جذور ومصادر هذا الترابط والتركيب الفكري ؟

إن بحثنا هذا بمجموعه مكرس بالطبع للاجابة عن هذه الاسئلة . الا اننا في هذا الفصل سنركز على الجوانب الفكرية من المسألة . وسنبحث اولاً المسألة المتعلقة (بوجود) امة عربية في العراق ، ثم سنبحث بعد ذلك عن العلاقة بين الاسلام والقومية العربية . وخلافاً للكثير من الاتجاهات الفكرية السائدة فمن وجهة نظرنا ، نعتقد بوجود تمايز (بالمعنى السياسي) على الرغم من التأثير العميق والمعترف به للاسلام على تطور العرب القومي .

لقد كان المسيحيون العرب اول من الح الى التمايز بين الاثنين . ثم تحول الامر الى ازمة فكرية حادة للمثقفين العرب المسلمين . من هنا فإن البعض حاول ايجاد نظرة تجمع الاسلام والقومية العربية ، او بتعبير ادق نزعة تحاول ان توفق بين الاسلام والتيارات الفكرية الحديثة .

من الناحية السياسية ، كان ذلك يمثل معادلة ممتازة ، من حيث انه يخاطب الجمهور المسلم ويمثل سلاحاً ماضياً ضد الهجمة الاستعمارية الغربية . ولكن من الناحية الفكرية ، لم يكن الامر

بالسهولة ذاتها ، إذ ان هذه المعادلة تفتقد عنصر الديمومة ، وكانت بطبيعتها وقتية لا تناسب الا فترة انتقالية .

إن الاحتلال الاوروبي اضعف ، الى حد كبير ، من التمايز بين الاسلام السياسي والعروبة ذلك التمايز المستفحل في عهد السيطرة التركية على العرب . ان الاحتلال الاوروبي ادخل حيوية جديدة على هذا الجمع الاعتباطي . ولقد اصبحت هذه المعادلة (وحدة الاسلام بالعروبة) حجر الزاوية الفكري لحركة مقاومة الاستعمار الغربي . وكانت حركة التحرر الوطني في العراق عام ١٩٢٠ مدينة كثيراً لهذه المعادلة الفكرية . ولنعد الان الى مناقشة النقطتين الاساسيتين :

اولاً : حول مفهوم الامة العربية

الانطباع الشائع هو ان القومية العربية هي نتاج ظروف السنوات الاولى من القرن الحالي ، وان نهوضها كان يعود الى عاملين رئيسيين : النفوذ الغربي المستفحل ، وسياسة التتريك العثمانية[١] ، مثل هذا الانطباع العام عورض من وجهتي نظر مختلفتين .

فبعض الكتاب انكروا على العرب هذه القومية وتجاهلوا خصائصهم القومية ، كما فعل لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا الاسبق[٢] . ويزعم كاتب صهيوني « ان دولة العراق كانت مخلوقاً مصطنعاً » وانه في نهاية العهد العثماني « لم يكن هناك شيء اسمه القومية العراقية »[٣] . ويكتب صهيوني اخر « ليست هناك (امة عراقية) ولا تقاليد في التعاون لتوحيد الطوائف المختلفة »[٤] ويبسط اليهودي العراقي « المتأنكلز » ايلي خضوري آراء البروفسور غب (او بالاحرى ارنست رينان) ويحاجج بالشكل التالي : « ان ارادة اولئك الضباط الشباب (يقصد الضباط العراقيين القوميين العرب) شاءت قيام امة عربية ، ولم يكن للاثنوغرافيا ، او الجغرافية ، او التاريخ اية اهمية الا بالقدر الذي يعزز تلك الخيالات »[٥] .

وعلى الضد من ذلك ، رسم القوميون العرب المتحمسون صورة وردية لوحدة وتلاحم

---

(١) George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*, 3rd ed. (London. Hamilton,1955), p. 13,

وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية بعنوان « يقظة العرب » . وانظر ايضاً :

Hisham B. Sharabi, *Nationalism and Revolution in the Arab World* (Princeton, N.J.: Van Nostrand, 1966), pp. 7-8, and

انيس صايغ ، تطور المفهوم القومي عند العرب (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦١) .

(٢) David LiyodGeorge, *Momoirs of the Peace Conference*, 2 vols. (New Haven, Conn.: Yale University Press,, 1939), vol. 2, pp. 659, 666 and 669-670, and Gertrude Lowthian Bell, *From Amurath to Amurath* (London: Heinemann, 1911), p. 161.

(٣) Uriel Dann, *Iraq under Qassem: A Political History, 1958-1963* (Jerusalem: 1969), p. 1.

(٤) Eliezer Be'eri, *Army Officers in Arab Politics and Society* (London: 1970), p. 326.

(٥) Elie Kedourie, *The Ghatham House Version and Other Middle Eastern Studies* (London: Weidenfeld, 1970), p. 214.

العرب في التاريخ وآمنوا بالوجود (الازلي) للأمة العربية الموحدة[٦] ؛ فعلى سبيل المثال، وفي عام ١٩١٩ قال الملك فيصل « اننا كنا عربا قبل زمن موسى ، ومحمد ، وعيسى ، وابراهيم »[٧] . وفي عام ١٩٢٠ دافع فيصل عن قضية القومية العربية في مؤتمر الصلح بباريس ، حيث اعلن انه « يندر ان تجد هناك امة متجانسة مثل العرب »[٨] . مع ذلك فإن فيصلاً ذاته كتب في عام ١٩٣٣ يقول « ان العراق يفتقر الى اهم عامل في الحياة الاجتماعية ، الا وهو الوحدة الفكرية والعرقية والدينية » . وبعد حديث طويل عن عوامل الانقسام والفرقة في العراق فلقد توصل فيصل - آنئذ - الى ما معناه « انه لحد الآن لا يوجد شعب عراقي بل فئات اجتماعية خالية من اي تفكير قومي »[٩] . ومما لا شك فيه ان فيصلاً كتب هذه الكلمات بدوافع انفعالية ولا تخلو من مرارة سببتها بعض الاوضاع السياسية الطارئة .

إن الفجوة الشاسعة بين هاتين المقولتين لا يمكن تفسيرها الا بالاقرار بأن كلا منهما تحتوي على بعض عناصر الصحة . وبسبب تضخيم هذه العناصر او تبسيطها اكثر مما ينبغي ، فإن كلتا المقولتين لم تكن في التحليل الاخير ، صائبة او مفيدة في استيعاب مثل هذه العملية التاريخية المعقدة .

ولقد حاول مفكرون أخرون ، ابرزهم حازم نسيبة والياس مرقص ، ان يرسموا خطوطاً مميزة بين المفهومين[١٠] . ولقد اضفى البرت حوراني على مثل هذه المحاولات شكلاً موزوناً حيث ميز بين (القومية) العربية كحركة سياسية « لم تتضح معالمها . . الا خلال القرن الحالي وبين الاحساس (العرقي) العربي الذي كان العرب (على حد قول حوراني) يشعرون به دائماً بشكل استثنائي منذ اقدم عصور التاريخ التي عرفوا بها »[١١] .

هل كانت اذن هناك ثمة امة عربية عراقية في الظروف الملموسة للعراق في الفترة ما بين ١٩١٨ و ١٩٢١؟ ان القومية هي ظهور جماعة من الناس على شكل كيان يعي ذاته ويتطلب تعبيراً جماعياً عن نفسه في اشكال قانونية وسياسية . وتتميز الامة بصفات مختلفة ابرزها اللغة ، والتاريخ ، والارض ، والآراء ، والوحدة الاجتماعية - الاقتصادية . ان عملية نشوء الامة يجب

---

(٦) سامي شوكت، هذه اهدافنا (بغداد : ١٩٣٩)، ص ٣٠ ، وعبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للقومية العربية ، سلسلة الدراسات القومية ، ٢ (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠) ، ص ٧ - ١٢ .

(٧) ساطع الحصري ، يوم ميسلون : صفحة من تاريخ العرب الحديث (بيروت : دار الاتحاد ، [د. ت.]) ، ص ٢٠٧ .

(٨) مذكرة فيصل الى مؤتمر الصلح بباريس بتاريخ ٢٩ / ١ / ١٩٢٠ في :
Lloyd George, *Memoirs of the Peace Conference*, vol. 2, p. 674.

(٩) مذكرة فيصل السرية المؤرخة في بغداد ، آذار ١٩٣٣ في : علي جودت ، ذكريات علي جودت ، ١٩٠٠ - ١٩٥٨ (بيروت : مطابع الوفاء ، ١٩٦٧) ، ص ٣٥٦ - ٣٦٠ .

(١٠) حازم زكي نسيبة ، القومية العربية : فكرتها ، نشأتها ، تطورها ، ترجمة عبداللطيف شرارة (بيروت : ١٩٦٦) ، ص ٣٩ و ٦١ ، والياس مرقص ، موضوعات الى مؤتمر عربي (دمشق : دار دمشق ، ١٩٦٣) ، ص ٣ - ٤ و ٧ - ٩ .

(١١) Albert Habib Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939* (London: Oxford University Press; Royal Institute of International Affairs, 1962), p. 26.

ان ينظر اليها كديناميكية جدلية وليس كستاتيكية ثابتة . وبقدر ما يتعلق الامر بالعراق فإننا اميل الى استخدام تعبير (nationalitarie) قومانية بالفرنسية بدلاً عن (nationalism) قومية بالانكليزية وتعابير (narod) شعب بالروسية و (nationalité) بالفرنسية و (volkerschaft) بالالمانية بدلاً عن (nation) كما يفسرها القاموس الانكليزي[١٢] . هذا ليس مجرد خلاف حول اللفظ بل امر يراد به الاعراب عن وجهة نظرنا القائلة بأن العراقيين العرب كانوا خلال ١٩١٨ - ١٩٢١ قد تجاوزوا مرحلة العشائرية ، ولكنهم لم يكتسبوا بعد الشروط الكاملة للقومية[١٣] او الصفات المميزة للامة بمعناها الاوروبي المحدد. بمعنى آخر كانت هناك بذور امة وقومية ولكنها في مرحلة جنينية وليست نهائية .

ثانياً : الاسلام والقومية العربية

مثّل الاسلام عنصراً مهماً جداً في عملية التطور القومي العربي . فإنه وحد العرب سياسياً وحل محل عصبيتهم القبلية السابقة . وتحت رايات الاسلام تسارعت العملية التاريخية في (تعريب) الهلال الخصيب ، ووادي النيل ، وشمال افريقيا . وقدم الاسلام للعرب مبرراً فكرياً للتوسع وتكوين امبراطورية وحضارة متطورة وبالتالي احساساً فخوراً بالتاريخ . وخلال الفترة المظلمة التي حلت بالعرب ، لعبت اللغة العربية التي وحّدها القرآن الكريم ، دوراً بارزاً في صيانة الكيان القومي العربي . وباختصار فإن الاسلام عزز التطور القومي العربي وهكذا اصبح الاسلام ، كثقافة تستند الى التاريخ واللغة ، جزءاً عضوياً وأساسياً في التكوين القومي العربي .

الى هذا الحد ، يتفق معظم المفكرين العرب[١٤] ، الا انه من هذا المنطلق نشأ رأيان (متطرفان) . اولهما يدعي بأن الاسلام هو في الحقيقة دين قومي عربي ؛ والثاني يقول بأن الاسلام قوة توحيدية جديدة حلت محل القومية وأزالت كل الفروق بين المسلمين عرباً كانوا ام غير عرب . وفي التحليل النهائي يشترك الرأيان في ارضية واحدة . فكلاهما يفشل في رسم اي فاصل جدي بين الاسلام السياسي والقومية العربية . وكلاهما يمثل تحدياً جدياً للمقولة التي يتبناها كاتب هذا البحث ، وهي ان هناك فرقاً بين (الاسلام السياسي) والقومية العربية ، وان حركة الاستقلال في العراق كانت نتيجة تحالف، اكثر منه وحدة ، بين القوميين والاسلاميين .

---

(١٢) انظر : مكسيم رودنسون ، الماركسية والامة ، ص ٩ و٣٣ ، والنظرية الماركسية في الامة (بيروت : ١٩٧١) .

(١٣) Stephen Hemsley Longrigg and Frank Stoakes, *Iraq* (New York: 1958), pp. 21-22.

(١٤) انظر مثلاً : ساطع الحصري ، آراء واحاديث في الوطنية والقومية (القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٤٤) ، ص ١١ و٢٠ ، وقسطنطين زريق ، معنى الوعي القومي : نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي(بيروت : ١٩٣٨) ، ص ٣٧ - ٣٨ .

ان ابرز دعاة هذا التيار[١٥] كان الاستاذ المرحوم عبد الرحمن البزاز[١٦] . فهو مع بعض الكتاب الاخرين ، لم يقصروا جهودهم على اثبات (عروبة الاسلام) بالتفاعل العام بين العرب والاسلام ذلك التفاعل المؤكد والذي اشرنا اليه سابقاً والذي يعترف به قومي علماني هو استاذ الجيل ساطع الحصري[١٧] . بل ان هؤلاء الكتاب ذهبوا لحد الدعوى بأن الاسلام ، عن طريق مصدريه الرئيسيين ، القران والحديث قد اعلن عن طابعه القومي العربي . لقد بررت هذه الادعاءات عن طريق الاستشهاد بالكتاب والحديث حيثما وردت فيهما عبارات مثل (القوم) و(الامة) و(العربي) . وحذا مفكرون عرب بارزون مثل د. زين زين[١٨] ود. عبد العزيز الدوري[١٩] حذو البزاز في هذه المحاولة . واذا صح ذلك ، فلا يمكن رسم خط فاصل بين القومية العربية والاسلام السياسي . وفضلاً عن ذلك ، فإن كل مسلم عربي ،بحكم دينه ، يجب ان يعتبر قومياً عربياً .

إن قراءة دقيقة للقران تكشف عما تتصف به هذه الاستشهادات من انتقائية وافراط في التبسيط[٢٠] . فإن عبارتي (القوم) و(الامة) استخدمتا بمفهوم الامة الاسلامية عموماً، وفي

---

(١٥) انظر مثلاً مؤلفات : احمد حسن الباقوري ، محمد الغزالي ، معروف الدواليبي ، محمد العربي ، الخربوطلي ، وغيره

(١٦) عبد الرحمن البزاز ، الاسلام والقومية العربية .

(١٧) ساطع الحصري ، محاضرات في نشوء الفكرة القومية (القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٥١) ، ص ١٩٤

(١٨) Zeine N. Zeine, *The Emergence of Arab Nationalism with a Background Study of Arab Turkish Relations in the Middle East*, rev. and resot ed. (Beirut, Khayat's, 1966), p 136 137

(١٩) الدوري ، الجذور التاريخية القومية العربية ، ص ١٢ - ١٤ .

(٢٠) بالنظر لخطورة هذا الادعاء ولمساعدة القارىء وللاحتكام اليه ، فلقد اوردت اغلب الآيات القرآنية التي وردت فيها مثل هذه العبارات :

السورة	الآية	السورة	الآية	السورة	الآية
البقرة	١٢٨، ١٢٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٣	الرعد	٣٠ ، ٣٧	الشورى	١٩٤
الدخان	٥٨	الاحقاف	١٢ ، ١٨	الحجرات	١٤
آل عمران	١٠٢ ، ١١٠	النحل	٣٦، ٨٤، ٨٩، ٩٢، ٩٣ ، ١٠٥	ابراهيم	٤
المائدة	٦٦	المؤمنون	٤٣ ، ٤٤ ، ٥٢	الحجر	٣٥
الانعام	٣٨ ، ٤٢ ، ٦٩	العنكبوت	١٨	طه	١١٣
الاعراف	٣٤ ، ٣٨ ، ١٥٩	فاطر	٢٣ ، ٤٢	الانبياء	٩٢
التوبة	٩١ ، ١٠٢ ، ١٢١، ١٢٨	الزمر	٢٨	الحج	٣٤ ، ١٧
يونس	١٩ ، ٤٧ ، ٤٩	غافر	٥	النمل	٤٨ ، ١٠٣
هود	٨، ٤٨، ١١٨	فصلت	٢١ ، ٤١ ، ٤٢	القصص	٢٣
يوسف	٢ ، ١٢	الشورى	٥ ، ٨ ، ١٩٤	الجمعة	٢
الزخرف	٣، ٢٢، ٢٣، ٣٣ ، ٤٢	الجاثية	٢٨	الفتح	١١ ، ١٦

احيان اخرى للدلالة على فئة صغيرة من الناس (رواد الاسلام الاوائل) . وفضلا عن ذلك فإن هذه المزاعم تتجاهل حقيقة تاريخية ولغوية مهمة ، وهي التطور الذي طرأ على معاني هذه العبارات . ونجد ذلك ناصعا في (سورة الانعام) التي استشهد بها البزاز (الاية ٦٦) (الامة) وردت ثانية في السورة ذاتها ، الآية (٣٨) للدلالة على البشر والحيوان على السواء . ويتضح تعسف هؤلاء الكتاب اكثر عندما يتجاهلون آيات قرانية اخرى تبدو فيها النظرة الانسانية للقران بجلاء مثل الآية التي تقول ﴿ ولقد ارسلناك رحمة للعالمين ﴾[٢١] .

وفضلاً عن ذلك ، فإن مفهوم القومية الاسلامية قابل للنقاش من وجهة النظر التاريخية والا فكيف بالامكان تفسير الظاهرة الشعوبية وصراعها المرير مع العروبة[٢٢] ، كذلك معارضة العرب للسيطرة التركية . وهكذا نرى بالاستناد الى خلفية فكرية وتاريخية انه يصعب قبول فكرة كون الاسلام ديناً قومياً عربياً او الادعاء المعاكس القائل بأن الاسلام قد ازال جميع الفروق القومية . وهنا قد يطرح البعض مسألة الوئام التاريخي العربي - العثماني . وهنا نقول بأنه من الصحيح ان العرب لغاية ١٨٣٠ لم يبدر منهم الكثير مما ينم عن سخط قومي تجاه حكامهم العثمانيين[٢٣] . ولكن هذه الحقيقة يجب ان تفسر على ضوء المعطيات التاريخية المحددة وليس كظاهرة ذات شمولية مطلقة .

ان الغزو العثماني للاقطار العربية لم يحل الحكم العثماني محل حكم عربي . كل ما في الامر انه حل محل سيطرة اجنبية كانت قائمة فعلاً[٢٤] . وفي الفترات الاولى من الحكم العثماني عومل العرب بالكثير من الاحترام[٢٥] . وكانت الدولة العثمانية قائمة على اسس اللامركزية وبفضت

---

(٢١) سورة الانبياء : الآية ١٠٧ . انظر ايضاً : سورة ال عمران : الايه ١٠٣ ؛ سوره الانفال . الايتين ٦٢ و٦٣ ، وسوره الفرقان : الآية ١ . كذلك قول الرسول في حجة الوداع : « لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى »

(٢٢) عن الشعوبية انظر : حسين قاسم العزيز ، « اثر تعارض المصالح الاسس اطماع العربيه والايرانيه في فتنه الامين والمامون ، » الثقافة الجديدة (بغداد) ، العدد ٤ (تموز / يوليو ١٩٦٧) ؛ عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية (بيروت : دار الطليعه ، ١٩٦١) ؛ محمد بديع شريف ، (د. م : المحامين ، احمد عزت عبد الكريم ، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة (القاهرة : ١٩٥٤) ؛

Sir H[amilton] A[lexander] R[osskeen] Gibb, «Social Significance of the Shuubiyah,» in: Gibb, *Studies on the Civilization of Islam*, edited by Stanford J. Shaw and W R. Polk (Boston, Mass : Beacon Press, 1962).

بالاضافه الى مؤلفات عبد الهادي الفكيكي .

(٢٣) اشير هنا الى الاستثناء الذي مثله الوهابيون ومحمد علي الذين يمكن اعتبارهم بدايات النهضه القوميه العربية .

(٢٤) ناجي علوش ، « تطورات الحركه العربية منذ بدء النهضة : الحركة العربيه حتى الحرب العالميه الاولى ، ١٨٥٠ - ١٩٢٠ ، » دراسات عربية ، السنة ٢ ، العدد ١ (تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٥) ، ص ٥٧ .

(٢٥) H[amilton] A[lexander] R[osskeen] Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East*, 2 vols (New York, London: Oxford University Press, 1950-1957), vol. 1, part 1, p. 160

كذلك حتى اواخر القرن الثامن عشر[٢٦] . كذلك فإن ما يفسر (الاستكانة) العربية القومية ايام الحكم العثماني على رأي البعض ،هو ان الروابط القومية العربية كانت قد اخذت في التفكك وحلت محلها روابط عائلية وقبلية ومذهبية[٢٧] . ويمكن تفسير ذلك بالقول بأن اقتصاد المنطقة كان يتدهور من اقتصاد بضاعي الى اقتصاد كفاف[٢٨] . وبذلك تفكك الاقتصاد الى وحدات صغيرة جداً . ويضيف البعض الأخر ان العثمانيين كانوا يعتبرون انفسهم مسلمين اولاً وقبل كل شيء وكانوا ينظرون النظرة ذاتها الى الامبراطورية بمجموعها (من حيث الحروب والمناصب . . . الخ)[٢٩] .

ان نشوء التمايز لم يصبح واضحاً فقط خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى ، بل انه خلق ازمة فكرية وضميرية بين المفكرين العرب . فلقد ظل الاسلام لعدة قرون حجر الزاوية في الثقافة العربية ولم يكن من المتصور نشوء تناقض بين التفاخر بالعروبة والاعتزاز بالاسلام (كدولة) . الا ان ذلك لم يكن من الممكن ان يستمر الى النهاية .

ان التناقض الفكري بين (الدولة الاسلامية العثمانية) والقومية العربية كان لا يزال في طوره الجنيني خلال الفترة التي سبقت الاحتلال البريطاني مباشرة . وقد طالب القوميون العرب (باستثناء البعض منهم)بالحقوق العربية،على اساس ان العرب اكثر قدرة على حماية الاسلام من الاتراك . لذلك ، فمن المرجح ان الكتاب والسياسيين في ذلك الحين كانوا يتصورون انفسهم مسلمين وقوميين عرباً في ان واحد . وقد عزز الاحتلال البريطاني هذه الفكرة وطمس الخلاف الذي كان قد بدأ بين الاسلاميين والقوميين .

ثالثاً : الانبعاث السياسي والفكري

ان انحلال الامبراطورية العثمانية ولّد ثلاث ظواهر مختلفة في الحياة العربية : اتساع التغلغل الاوروبي ؛ ومحاولات الانبعاث الداخلي ؛ وازدياد التمردات المنظمة . ومن جهة اخرى ، فإن محاولات الاتراك لإعادة تنظيم الامبراطورية لم تكن سيئة التوقيت فحسب ، بل صحبتها ايضاً

---

(٢٦) محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، ١٥١٤ - ١٩١٤ (القاهرة : [د.ت.])، ص ١١٧ - ١٢٨ .

(٢٧) فيليب خوري حتي ، لبنان في التاريخ ، منذ اقدم العصور التاريخية الى عصرنا الحاضر ، ترجمة انيس فريحة ، (بيروت : ١٩٥٦) ، ص ٣٤٤ ، و
Sydney Nettleton Fisher, *The Middle East: A History* (New York: Knopf, 1959), p. 254.

(٢٨) الياس مرقص ، نقد الفكر القومي (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٦)، ص ٤٥٢ .

(٢٩) عبد الكريم غرايبة ، مقدمة لتاريخ العرب الحديث ، ١٥٠٠ - ١٩١٨ (دمشق : جامعة دمشق ، ١٩٦٠) ، ج ١ ، ص ٨٨ - ٨٩ ، و
Gibb and Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East*, vol. 1, part 1, p. 159.

اجراءات هادفة الى اقامة المركزية على اسس متسمة بالنزعة القومية التركية . وكان ذلك عاملا آخر في استثارة الوعي القومي العربي .

إن التغلغل الاوروبي اوضح للعرب ان العثمانيين قد فشلوا في مهمة الدفاع عن (الوطن) الاسلامي ازاء الغزاة الاجانب[٣٠] . وكان الحكام الجدد ، يختلفون ، دينيا وثقافياً عن العرب . الا ان الطابع الامبريالي للغزاة الجدد كان احد وجهي العملة . اما الوجه الاخر فكان يتجسد في ثقافتهم وحضارتهم المتقدمة . وبالنسبة لنخبة من العرب « كان الغرب الامبريالي هو ايضاً الغرب المثقف ، والى حد كبير المصدر الذي ينبغي الرجوع اليه » . على حد قول جاك بيرك[٣١] .

ومن ناحية اخرى ، فإن الاسلحة الفكرية العربية كانت انئذ عاجزة عن تحدي الثقافة الجديدة او تمثلها . وقد اثار هذا التحدي ، بين نخبة من العرب محاولة لاعادة النظر في تراثهم الفكري من اجل تجديد استشرافهم الفكري برمته . الا ان مشكلة الحوار الثقافي هذه قد تعقدت بسبب التأثير الاسلامي الجبار . فالاسلام لم يكن مجرد عقيدة طارئة . بل كان المثقفون والجماهير على حد سواء مرتبطين بالاسلام ارتباطاً عميقاً . فقد وجدوا فيه كيانهم المهدد وجذورهم الثقافية التاريخية . كان الاسلام بالنسبة لهم آخر مصدر للمفاخرة وللعزاء في مجابهتهم المستميتة ، واليائسة احياناً ، للغرب المتقدم ابداً . باختصار لقد زود الاسلام الانسان العربي بـ (الروح) التي هو بأمسّ الحاجة اليها في (عالم خال من الروح) . الا ان مثل هذا الهدف وهذا التعلق الرومانسي والمأساوي بالاسلام لم يكن يتملك اذهان او قلوب النخبة المثقفة من بعض العرب المسيحيين .

جميع هذه العوامل تفاعلت ، لا لتخلق فقط حركة انبعاث فكري عربي ، بل لتسبب ايضاً انقسامها الى شطرين متمايزين هما : التجديد او التحديث (Modernization) والتغرب او محاكاة الغرب (Westernization) . فمدرسة محاكاة الغرب لم تقتصر على الاعجاب باوروبا ، بل انطلقت اساساً من التراث الاوروبي واستلهمته . اما مدرسة التحديث فقد جعلت نقطة انطلاقها من الاسلام ، وكان اهتمامها بالثقافة الاوروبية انتقائياً وتعديلياً .

وكانت العلاقات بين ممثلي هذين التيارين ذات طابع يلفت النظر فرغم اختلافهم حول العديد من المسائل الا ان صلاتهم كانت تتميز بصداقة وتفاهم عميقين . فهم جميعاً وجدوا انفسهم قلة في نخبة مثقفة تتطلع لصوغ قيم جديدة داخل مجتمع يناوىء اية محاولة للتجديد . وبهذا الصدد فلقد كتب شبلي شميل الى رشيد رضا (وكان الاثنان من قادة حزب اللامركزية العثماني) ملخصاً نقاط الاتفاق والخلاف بينهما بما معناه : انك تنظر الى محمد كنبي وتمجده . وانا انظر اليه كانسان وامجده اكثر . ومع اننا نختلف تماماً فيما يخص الايمان (اي الدين والمبادىء الدينية) ، الا ان ما يربطنا هو

---

(٣٠) توفيق علي برو ، القومية العربية في القرن التاسع عشر ، كتب قومية ، ٤ (دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٦٥) ، ص ١٠ - ١٢ .

(٣١) Jacques Berque, «The Arabs and Social Science in the Last Hundred Years,» *Middle East Forum*, vol. 34, no. 1 (1967), p. 153.

العقل المتسامح المفتوح واخلاص افكارنا[٣٢] . وربما كان شبلي شميل محقاً في تفاؤ له فيما يخص مجال الفكر المجرد ، الا انه في مجال السياسة العملية كانت نتائج هذا الخلاف ابعد اثراً مما كان يتصور .

رابعاً : فشل تيار محاكاة الغرب في العراق

مما لا شك فيه ان المسيحيين العرب كانوا الرواد الاوائل للفكر القومي العربي[٣٣]: الا ان تأثير افكارهم (في العراق) كان ضئيلاً باستثناء حالتي جميل صدقي الزهاوي وانستاس الكرملي . وثمة اسباب كثيرة تكمن وراء ضآلة هذا التأثير . فإن العوامل الدينية ، والروابط الثقافية بالغرب ، ومذابح ١٨٤٥ ـ ١٨٦٠ الطائفية ، والعداء للعثمانيين كلها ساهمت في تكوين شكل ومحتوى الجهود الفكرية(المسيحية). ولقد اشار توينبي الى«ان الاقلية المسيحية(العربية)تلقت الحضارة الغربية بشكل تلقائي»،وعزا توينبي ذلك الى الروابط الدينية والتجارية[٣٤] . وقدم البرت حوراني تفسيراً مماثلاً ، ففي الوقت الذي اكد فيه على اهمية (الحماية الاجنبية) ، فإنه اشار الى ان التجارة كانت تنتقل « الى ايدي المسيحيين واليهود الشرقيين » ، الذين اصبحوا « وسطاء في التجارة مع اوروبا »[٣٥] .

ان هذه العوامل مجتمعة جعلت النظرة الفكرية (المسيحية) اكثر جرأة في تحدي المعتقدات التقليدية ، وفي الاستجابة للتيارات الجديدة في الغرب ، لاسيما فيما يتعلق بالقومية كبديل عن الدين ، وتبني النظرة العلمانية ، واتخاذ موقف شبه تأييدي من الغرب . ومن جهة اخرى ، فإن هذه العوامل بالذات ونتائجها الفكرية ، التي لم تكن تحظى بتأييد الغالبية المسلمة ، حرمت الحركة (التغربية) من الاستجابة الجماهيرية التي كانت تطمح اليها[٣٦] .

وفي كثير من الاحيان كان بعض المسيحيين العرب يخلقون انطباعاً بأنهم ليسوا شديدي النقمة ازاء الخطر الغربي[٣٧] ، او مهتمين اهتماماً صادقاً بالحفاظ على الوحدة الاسلامية . وربما يكون هذا الموقف قابلاً للتفسير ، الا انه بالتأكيد لم يكن مقبولاً لدى العرب المسلمين الذين كانوا في الواقع

---

(٣٢) المنار ، (٣ اذار / مارس ١٩٠٨) ، ص ١٠ .

(٣٣) سلسمان الخازن ، يوسف بك كرم في المنفى (بيروت : ١٩٥٠) ، ص ٣٤٦ ـ ٣٦٢ ؛ عبد الكريم غرايبه ، سورية في القرن التاسع عشر ، ١٨٤٠ ـ ١٨٧٦ (القاهرة : جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العاليه ، ١٩٦١ ـ ١٩٦٢) ، ص ٢١٥ ـ ٥٢١ ، والجامعة الاميركية في بيروت ، هيئة الدراسات العربية ، الفكر العربي في مائة سنة ، اعداد فؤاد صروف ونبيه امين فارس (بيروت : الجامعة ، ١٩٦٧) ، ص ٥٩ ـ ٦٠ ، ٨٧ و ٤٧٦ ـ ٤٧٧

(٣٤) Arnold Joseph Toynbee, «Aspects of Arab History,» *The Listener*, vol. 80, no. 2058 (5 September 1968), p. 294.

(٣٥) Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939*, pp. 40, 57 and 95.

(٣٦) Toynbee, Ibid., p. 294.

(٣٧) Hourani, Ibid. pp. 252 and 278-279.

ينقمون على التدخل الاوروبي اكثر من نقمتهم على السيطرة العثمانية . ان معروف الرصافي مثلاً الذي كان عراقياً وقومياً عربياً علمانياً قد صرح لكامل الجادرجي ان هذه الافكار قد اثارت نفوره ودفعته الى كتابة قصيدة[٣٨] (ما هكذا . . .) التي ورد فيها :

عــدوا النصــارى وعــدوا المسلمـين بهــا ونــحــن نعهدهـــم طـرا اعــاريـبــا
كــانــوا احق البــرايــا مــطلبــا فـغــدوا من ابطل النـاس في الـدنيـا مـطاليبـا[٣٩]

كما ان توفيق السويدي (وهو احد القوميين العرب العراقيين في تلك الفترة ومن الذين مثلوا العراق في المؤتمر العربي بباريس) انتقد موقف بعض المسيحيين العرب الداعي الى الانفصال عن الدولة العثمانية[٤٠] .

ويطرح هشام شرابي تفسيراً (ديموغرافياً) لفشل المسيحيين العراقيين في القيام بدور فكري مماثل لذلك الذي قام به نظراؤهم في سوريا : « في المناطق التي كان المسيحيون يؤلفون فيها اقليات صغيرة وسط اغلبية مسلمة ، فإنهم كانوا يميلون الى عدم الاشتراك في الحياة العامة والسياسية . . . ان الاقليات المسيحية في العراق . . . بسبب تعدد طوائفها ، وضآلة حجمها ، وعزلتها الاجتماعية ، كانت تميل الى ان تحيا حياة منغلقة ضيقة وضعيفة الاتصال بمحيطها الاسلامي »[٤١] .

لذلك كله فلم يكن غريباً ان لا يتأثر العراقيون آنئذٍ بالشكل العلماني للقومية . الا انه ظهر شكل آخر للنهضة الفكرية والقومية العربية كان اكثر ملاءمة للمثقفين العراقيين آنئذٍ .

خامساً : تأثير المصلحين الاسلاميين

من الواضح ان مجموعة من المفكرين وهم : جمال الدين الافغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) ،ورشيدرضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) ، وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢) كانوا قد مارسوا تأثيراً قوياً على المثقفين العراقيين في تلك الفترة[٤٢] . فمن ناحية انتشرت افكارهم ومؤلفاتهم انتشاراً واسعاً ، ومن ناحية اخرى فإن تعاليمهم كان من شأنها ان تقسم المثقفين العراقيين الى محبذين وخصوم . فبعض الادباء كالزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦) و الشهرستاني ،

---

(٣٨) كامل الجادرجي ، « اوراق ، » من مجموعات نصير الجادرجي .

(٣٩) معروف الرصافي ، ديوان الرصافي ، ط ٣ (القاهرة : ١٩٤٧) ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٧ .

(٤٠) توفيق السويدي ، مذكراتي : نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية (بيروت : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٩) ، ص٢٦ ـ ٣١ .

(٤١) Hisham B. Sharabi, *Arab Intellectuals and the West: The Formative Years, 1875-1914* (London: 1970), pp. 113-115.

(٤٢) أ . اسعد ، الشعر والشعراء في العراق (بيروت : ١٩٥٦) ، ص ٧ و٩٧ ـ ٩٨ ، ومحيي الدين اسماعيل ، من ملامح العصر (صيدا : المطبعة العصرية ، ١٩٦٧) ، ص ١٣ ـ ١٤ .

والرصافي (١٨٧٥ ـ ١٩٤٥) والكاظمي (١٨٧٦ ـ ١٩٣٥) والحبوبي (المتوفى ١٩١٥) ، ومحمد رضا الشبيبي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٦) قبلوا وبشروا بالافكار المنبعثة من مصر وباريس (حيث تصدر مجلة العروة الوثقى) . وبذلك خلقوا مدرسة جديدة في التفكير ما لبثت ان تحداها كتاب آخرون ، وتعرضت للاضطهاد من جانب المؤسسات الدينية المحافظة . وكان من الطبيعي لهذا الصراع ان يتحول الى جدال علني[٤٣] يؤثر ضمن حلقات واسعة على مثقفي العراق في تلك الفترة .

ويمكن تقسيم جوهر افكار المصلحين الى عنوانين : سياسية وفلسفية . فمن الناحية السياسية كان المصلحون يهدفون الى اثارة المشاعر الدينية كوسيلة فعالة لمكافحة الاستعمار الغربي[٤٤] . ولم يرددوا في ادانة الطائفية ودعوا الى نبذ الخلافات (الثانوية التافهة البالية) على حد تعبيرهم بين الشيعة والسنة . بل ذهبوا الى حد الدعوة للاتحاد بين المسلمين والمسيحيين واليهود[٤٥] . وبعد حقب من الانقسام الطائفي والمذهبي في المجتمعات العربية ، حاول الرواد الاوائل اعادة تقسيم المجتمع على اساس الاتجاهات الفكرية والميول السياسية بدلاً من الاسس السابقة .

وبالرغم من ان المصلحين اعربوا عن تقديرهم للثقافة الغربية ، الا انهم اعلنوا احتجاجهم الصارخ على الاستعمار الغربي وتغلغله المتزايد[٤٦] . لقد ايقظ هذا الموقف حركة قومية عربية معادية للغرب كان لها تأثير عظيم على العراقيين . ان تأثير المصلحين كان احد عوامل الاتجاه المعادي للغرب في الحركة الوطنية العراقية . كما انه يلقي ضوءا على السهولة النسبية التي استطاع بها القوميون والاسلاميون (التقدميون) ان يوحدوا جهودهم .

---

(٤٣) انظر مثلا لعلي حسين الوردي : دراسة في طبيعة المجتمع العراقي : محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الاكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث (بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦٥)، و لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ، ٧ج (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٦٩ ـ ١٩٧٦) ، ولرفائيل بطي : الأدب العصري في العراق العربي ، ٢ ج (القاهرة ، ١٩٢٣) ، والصحافة في العراق (القاهرة : جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٥٥) ، ولعبد العزيز القصاب : من مذكراتي (بيروت : ١٩٦٢) .

(٤٤) Nikki R. Keddie and Hamid Algar, *An Islamic Response to Imperialism. Political and Religious Writings of Sayyid Jamal al-Din al-Afghani*, including a translation of the «Refutation of the Materialists» from the original Persian (Berkeley, Calif.: University of California Press, 1968), p. 96, and Sir D[onald] M. Wallace, *Egypt and the Egyptian Question, 1890-1982* (London: Macmillan, 1983), p. 103

(٤٥) محمد المخزومي ، خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني (بيروت : ١٩٦٢) ، ص ٨٢ ؛ محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ٣ج (القاهرة : ١٩٢٥ ؛ ١٩٣١ ؛ ١٩٤٧) ، ج١ ، ص ٨١٩ ، وعبد الرحمن الكواكبي ، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (القاهرة : [د. ت .])، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٤٦) Nikki R. Keddie, *Religion and Rebellion in Iran: The Tobacco Protest of 1891-1892* (London: Cass, 1966), pp. 15-27, and

العروة الوثقى (بيروت) ، السنة ١ (١٩١٠) ، ص ١٣ ، والسنة ٢ (١٩١١) ، ص ١٤ ، ٦٨ ، ١٣٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣.

وفضلا عن ذلك ، فلقد كان المصلحون دعاة متحمسين للدستور . واعربوا مرارا عن رغبتهم في قيام حكم دستوري عادل يرأسه حاكم « اذا ما خان الدستور . . . فإما ان يبقى رأسه بلاتاج اويبقى تاجه بلا راس»[٤٧] وعزوا التقدم الاوروبي الى « غياب الحكم الفردي »[٤٨] ، واعلنوا انه عندما تتنور الامة بالعلم والمعرفة « فيجب عليها قبل كل شيء ان تتحرر من الحكم المطلق »[٤٩] .

وفضلاً عن ذلك ، فإن المصلحين الاسلاميين قد مجدوا دون استثناء ، ولو بدرجات متفاوتة ، دور العرب وطاقاتهم في المحافظة على الاسلام ، واعربوا عن استيائهم من الاتراك وطريقتهم في معاملة العرب[٥٠] . وكان من المنطقي ان تمهد هذه النظرة الطريق الى نشوء الوعي القومي العربي .

اما من الناحية الفلسفية ، فلقد كانت آراء المجددين في الاسلام والعالم المعاصر ذات مضامين بعيدة الاثر وجدير بالذكر انهم كلهم تعرضوا للاتهام بالتشكيك الديني وحتى بالالحاد . والى يومنا هذا نجد ان عدداً واسعاً من المستشرقين وعلى الاخص سلفيا حييم وايلي خضوري يصرون على اتهام المصلحين بالكفر او الهرطقة الدينية[٥١] . وفي العراق ، كانت الاتهامات من هذا النوع تعرض حياة المجددين للخطر . ففي ١٣ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٠٨ نجا ثنيان والرصافي والزهاوي من الموت على ايدي غوغاء غاضبين لأنهم دافعوا عن الدستور[٥٢] . وفي عام ١٩١٠ ، فر الزهاوي من بغداد لعدة اشهر حتى ينسى الناس مقالاً كتبه في الدفاع عن حقوق المرأة[٥٣] . ومثل هذه الاتهامات تثر شكوكاً جدية حول قدرة المصلحين على التأثير في المسلمين الآخرين ، بمن فيهم بعض العلماء الذين لم يكن من المنطقي ان يقبلوا ان (ينخدعوا) بـ (الكفرة) .

وفي الواقع ، ان تدهور (الاسلام الرسمي) في اواخر العهد العثماني ، الى مذهب لا عقلي ، انعزالي ، خاضع ، يبرر السياسة الطائفية والاستبدادية للحكم العثماني ، قد جعل منهم ثواراً فكريين . لقد ظهر المصلحون في مجتمع تخضع نظرته العقلية الى بعض جوانب (المحافظة) في

---

(٤٧) جمال الدين الافغاني ، الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني مع دراسة عن الافغاني الحقيقة الكلية ، تحقيق ودراسة محمد عمارة (القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨) ، ص ٤٧٧ - ٤٧٩ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٤٩) رشيد رضا ، «الحكومة الاستبدادية ،» المنار ، السنة ٣ (١٩٠٠) .

(٥٠) المخزومي ، خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ؛ محمد عبده ، الاسلام والرد على منتقديه (القاهرة : ١٩٠٩ - ١٩١٠) ، ص ٢٦ ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ام القرى (حلب : ١٩٥٩) .

(٥١) Elie Kedourie: *Afghani and 'Abduh: An Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam* (London: Cass, 1966); «Future Light on Afghani» *Middle Eastern Studies*, vol. 1, no. 2 (January 1965); S. Haim, p. 11, and

محمد احمد خلف الله ، عبد الله النديم ومذكراته السياسية (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٦) ، ص ٥٢ .

(٥٢) علي ظريف الاعظمي ، مختصر تاريخ بغداد (بغداد : نعمان الاعظمي ، ١٩٢٦) ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٥٣) عبد الحميد الرشودي ، جامع ومعد ، الزهاوي : دراسات ونصوص ، تقديم يوسف عز الدين (بيروت : مكتبة دار الحياة ، ١٩٦٦) ، ص ١١٣ - ١١٤ .

الاسلام[٥٤] . وقد دافعوا عن الحكم الدستوري وسط اناس يؤمنون بـ (الاعتراف بالسلطة القائمة . . . مهما كانت)[٥٥]. ودعوا الى المعرفة في مجتمع كانت مؤسساته الدينية تحذر الناس من ان (الشيطان يروج لمزايا المعرفة لكي يؤثر عليهم)[٥٦]. ودعوا الى النشاط السياسي في مجتمع واقع تحت تأثير الفكرة القائلة بـ « ان الانسان عاجز عن السيطرة ليس فقط على المقدرات السياسية البحتة بل على جميع الاشكال الخارجية للحياة الاجتماعية »[٥٧] . لقد بشروا بالعدل الاجتماعي والنضال السياسي في مجتمع كان يلقن باستمرار ان الاسلام يدعو (للفقر) و(العزوف عن الحياة)[٥٨] . وان الجحيم هي مصير كل شخص مثقف « ينحصر هدفه في نيل المعرفة وفي التمتع بمباهج هذه الحياة والحصول على القوة والجاه بين الناس »[٥٩] .

وعليه ، فلن يكون من قبيل المبالغة ان نقول ان المصلحين الاسلاميين كانوا يدعون الى ثورة فكرية ، لا اقل . فأولئك الذين دعوا الى « تقديم العقل على ظاهر الشرع » والى « النظر العقلي لتحصيل الايمان »[٦٠] كانوا في الواقع ينقضون كل ما يرمز اليه الاسلام العثماني الرسمي . مع ذلك ، فقد كان المصلحون الاسلاميون لا يخرجون عن التقاليد المقبولة القائمة في الاسلام ، وخصوصاً لدى بعض المدارس والنزعات الاسلامية .

صحيح ان الافغاني اعترف بأنه « طالما بقيت الانسانية ، لن يتوقف الصراع بين العقيدة الجامدة والبحث الحر ، بين الدين والفلسفة »[٦١] الا انه صحيح ايضاً ان الافغاني ومحمد عبده وجدا في (الاسلام الحقيقي) حلاً لهذا الصراع[٦٢] . وبعبارة اخرى ، حسب التعبير الرائع لألبرت حوراني ، ان الافغاني « قبل بالتوحيد النهائي للفلسفة والنبوة ، وبأن ما تلقاه النبي عن طريق الوحي هو نفس ما يمكن ان يحصل عليه الفيلسوف عن طريق المعرفة »[٦٣] . قول كهذا يوضح مدى اعتماد المصلحين الجدد على التيارات السابقة

---

(٥٤) W [illiam] Montgomery Watt, *Muslim Intellectuals: A Study of al-Ghazali* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1963), p. vii.

(٥٥) Manfred Halpern, *The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963), p. 17.

(٥٦) W [illiam] Montgomery Watt, trans., *The Faith and Practice of Al-Ghazali*, Ethical and Religious classics of East and West, 8 (London: Allen and Unwin, 1953), p. 87.

(٥٧) Ibid., p. 179 and

اسماعيل المهدوي ، « ابو حامد الغزالي : دراسة جديدة لحياته وافكاره ، » الآداب ، السنة ١٦ ، العددان ١٠ - ١١ (تشرين الاول / اكتوبر - تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٨) .

(٥٨) زكي مبارك ، الغزالي والاخلاق (القاهرة : [د. ت.]) .

(٥٩) Abu Hamid al-Ghazzali, *The Book of Knowledge*, translated from Ihya Ulum al-Din and with notes by Nabih Amin Faris (Lahore: Sh. Muhammad Ashraf, 1962), p. 162.

(٦٠) محمد عبده ، الاسلام دين العلم والمدنية (القاهرة : ١٩٤٩) ، ص ٩٥ - ٩٦ .

(٦١) Keddie and Algar, *An Islamic Response to Imperialism: Political and Religious Writings of Sayyid Jamal al-Din al-Afghani*, p. 187.

(٦٢) محمد عبده ، الاسلام والنصرانية (القاهرة : ١٩٤٧ - ١٩٤٨) ، ص ١٠٧ و ١٣٠ - ١٤٠ .

(٦٣) Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939*, p. 87.

التي ظهرت في الاسلام[٦٤] . ولقد اشير ان الافغاني تأثر تأثراً عميقاً بابن رشد[٦٥] . الذي حاول التوفيق بين الفلسفة والدين . وفضلاً عن ذلك ، فإن ما ينسبه الحوراني للافغاني يتماثل الى حد كبير مع الاقوال التي نطق بها المعتزلة كالقول بأنه « ينبغي الحكم على صدق الرسول بالتفكير المنطقي وبدون ذلك لا تكون ثمة فائدة للقرآن او السنة »[٦٦] . او كقولهم بأن الرسول قد « ناقش الجوانب العقلية في الاسلام والا لما استطاع تمثيل الوحي »[٦٧] .

وعليه يمكن القول بأن المصلحين كانوا ، من جهة ، مفكرين جديين تحدوا الافكار الاسلامية السائدة. ومع ذلك فإنهم ، من ناحية اخرى ، كانوا جزءاً من الاطار العام للاسلام وتسامحه . وبعبارة اخرى ، انهم رفضوا كلاً من السلفية اللامنطقية وكذلك التقليد الاعمى للغرب . ولقد احيوا بعض القيم الاسلامية التي كانت ضرورية جداً للحياة في العالم الحديث ، مثل الفاعلية ، واستخدام العقل البشري بمزيد من الحرية والسعي الى تحقيق القوة السياسية والعسكرية . وعن طريق البحث عن هذه القيم في التقاليد الاسلامية بدلاً من الاستعارة المباشرة من الغرب ، فلقد استطاع المصلحون ؛ اولاً التأثير على المسلمين المؤمنين بشكل لم يتيسر لاولئك الذين اعتنقوا الافكار الغربية مباشرة[٦٨] . وثانياً جعل الافكار الغربية الجديدة ذات الضرورة الحيوية اكثر قبولاً[٦٩] . وثالثاً رأب الصدع بين المسلمين انفسهم وخلق امكانيات للحوار المنتج بين الفرق المختلفة .

ومع ذلك ، فبحكم ، نظرتهم هذه ، خلق المصلحون معضلة عويصة . ان فكرتهم عن الاسلام خضعت لموقف ذاتي وانتقائي يؤكد على الجوانب العقلية من (الاسلام القديم) وبذلك تركت كثيراً من القضايا من دون ايضاح . وينطبق ذلك ايضاً على الناحية السياسية . فهم مجدوا الاسلام وفضحوا استبدادية وجور الحكم العثماني ، ومع ذلك فلقد دعوا الى الحفاظ على الامبراطورية الاسلامية (العثمانية)[٧٠] . مثل هذا التناقض سبب الكثير من العذاب الفكري للمثقفين الذين قبلوا (او شاركوا) بهذا التوجه ، بمن فيهم المثقفون العراقيون .

إن هذه الازدواجية السياسية تفسر امرين : فعندما حلت اللحظة الحاسمة في عام ١٩١٤ ، لم يكن المثقفون العرب مهيئين لوضع خطة مشتركة للعمل السياسي ، بل وقعوا في انقسامات سياسية واضطراب فكري . ومع ذلك فعندما طمس التناقض بين الاسلام والعروبة بفعل الاحتلال

---

(٦٤) حول تأثير ابن سينا على الافغاني وحول تأثير ابن سينا وابن رشد على الافغاني .

(٦٥) الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج٣ ، ص ٣٠٦ .

(٦٦) ماجد فخري ، دراسات في الفكر العربي (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٠) ، ص ٧٧ ، والمهدوي ، « ابو حامد الغزالي : دراسة جديدة لحياته وافكاره ، » القسم الثاني ، ص ٥٤ .

(٦٧) المصدر نفسه .

(٦٨) Keddie and Algar, *An Islamic Response to Imperialism: Political and Religious Writings of Sayyid Jamal al-Din al-Afghani*, p. 3.

(٦٩) Majid Khadduri, *Political Trends in the Arab World: The Role of Ideas and Ideals in Policies* (London: 1970), pp. 64-65.

(٧٠) رضا ، تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده، ج١ ، ص ٩١٢ .

البريطاني ، كان سهلاً على القوميين والاسلاميين العراقيين ان يوحدوا صفوفهم لمجابهة التحدي الجديد .

ان رشيد رضا ، الذي مارس تأثيراً على العراقيين من خلال صحيفته (المنار) وحزب اللامركزية ، والذي اعتبر خلال زيارته لبغداد عام ١٩١٢ ، رائداً للقومية العربية كان مثلاً واضحاً لهذا القلق الفكري . ففي عام ١٨٩٧ ، قال بصراحة « ان مستقبلنا يعتمد على رفض مبدأ القومية الاوروبي »[٧١] . وفي عام ١٩٠٠ حذر من تجزئة المسلمين الى اجناس وامم[٧٢] . وفي عام ١٩٠٤ انكر رضا وجوب عروبة الخلافة وقال « نريد الوحدة مع الاتراك ولكن على اساس العدل والمساواة »[٧٣] . ومع ذلك ، ففي عام ١٩٠٠ ، وفي مقال بعنوان (العرب والاتراك) ، وقف بصراحة الى جانب الشخصية العربية ، والثقافة العربية ، واساليب الحكم العربية ، وحتى الفتوحات العسكرية العربية[٧٤] ، وانتقد بمرارة معاملة الاتراك للعرب[٧٥] . الا انه ادان القوميين العرب في مصر والقوميين الاتراك على السواء ؛ لأنهم كانوا يهددون الوحدة الاسلامية .

لقد اوضح رشيد رضا ان هدفه هو تجديد المسلمين وليس اقامة دولة اسلامية موحدة « لان ذلك امر محال »[٧٦] . وبالنسبة له كان من الضروري تقوية (العرب) بالعلم الحديث وتحقيق « نوع من الوحدة العربية للصمود بوجه الغزو الاوروبي »[٧٧] .

على الصعيد الذاتي ، بقي رشيد رضا مخلصاً لمعتقداته ومحاولته التوفيق بين التناقض . الا انه بحكم نظرته ودعواته الى الاصلاحات الدينية ، والتجديد ، والعروبة ، كان ، موضوعياً ، يلغم اسس الامبراطورية . ان التطور التاريخي اللاحق كان يقوض امنياته الخيالية . فالامبراطورية العثمانية كانت تغدو اكثر تركية واقل اسلامية ، واكثر عجزاً واقل قوة . وبالنتيجة كانت كتابات رضا تزداد هجوماً على الاتراك وتحمل طابعاً تعبوياً متعاظماً[٧٨] . ومنذ عام ١٩٠٨ ، اعرب رضا عن مخاوفه بخصوص النزعات القومية التركية (تركيا الفتاة)[٧٩] . وفي عام ١٩١٣ ، كانت معظم صفحات (المنار) مكرسة لهجوم عنيف على (الاتحاديين) وسياساتهم العنصرية والمعادية للعرب[٨٠] .

---

(٧١) المنار ، السنة ١ (١٨٩٨) ، ص ٦٧ .
(٧٢) المنار ، السنة ٣ (١٩٠٠) ، ص ١٢٤ .
(٧٣) المنار ، السنة ٦ (١٩٠٤) ، ص ٩٥٥ .
(٧٤) المنار ، السنة ٣ (١٩٠٠) ، ص ١٦٩ ـ ١٧٢ .
(٧٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٣ .
(٧٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٣ ـ ١٩٨ .
(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ .
(٧٨) المصدر نفسه ، ص ١٢١ ـ ١٢٤ .
(٧٩) المنار ، السنة ٢ (١٨٩٨) ، ص ١٠ ، ٨٣٦ ، ٨٤١ و ٨٤٢ ـ ٨٥٩ .
(٨٠) المنار ، السنة ١٦ (١٩١٣) ، ص ٦ ، ٥٥ ـ ٦٢ ، ١٠٧ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ٢٣١ ، ٤٧١ ، ٥٥٠ ، ٧١٩ ، ٧٥٣ و ٧٧١ .

لقد بلغت حيرة وثنائية رشيد رضا الذروة بنشوب الحرب العالمية الاولى . فمن جهة ، وباعتباره عضواً قيادياً في (حزب اللامركزية) ، فإنه اشترك في نشاطات معادية للحكم العثماني وقبل العون من انكلترا بأمل انشاء حكومة عربية ومستقلة[٨١] . ومن جهة اخرى ، وحالما اتضح له ان العرب لا الانكليز هم الذين اصبحوا احجار اللعبة ، نصح رضا الشريف حسين بانهاء تحالفه مع بريطانيا والسعي لأجل الوحدة العربية بدلاً من الاشتراك في فعاليات ضد العثمانيين ، وحذر حسين والقادة العرب الآخرين من الخطط والنوايا البريطانية[٨٢] .

سادساً : الانقسام السياسي بين القوميين العرب

ان النمو الجنيني للافكار القومية بين العرب جرى خلال الفترة الاخيرة من القرن الماضي واوائل هذا القرن . وتقتضي الضرورة التاريخية ان نشير الى انه في ذلك الحين كانت السيطرة التركية (التي شملت في يوم ما جميع الاقطار العربية)[٨٣] قد ازيحت من مصر والسودان وشمال افريقيا وحلت محلها سيطرة دول اوروبية . واستمر الحكم التركي في سوريا والعراق الى فترة متأخرة ، الى ان تمت تصفيته نهائياً خلال الحرب العالمية . هذه الحقيقة التاريخية ولدت انقساماً مهماً بين الحركات القومية العربية . ففي سوريا الكبرى[٨٤] كان الاضطهاد التركي يصاحب النمو المطرد للافكار القومية بين المثقفين السوريين . لذلك ؛ لم يكن غريباً ان تتسم القومية العربية في سوريا بالسمات التالية : نزعة عربية شمولية وقوية ، ضعف النزعة الاسلامية ، تأثر عميق بالمسيحيين العرب ، تفاؤل حذر تجاه الدول الغربية ، يتراوح بين الاستنكار المعتدل والغزل السياسي المكشوف[٨٥] .

ولم يكن غريباً ان الحركة القومية في مصر ، التي كان نموها يتبلور تحت ظروف الاحتلال البريطاني لا التركي ، اتخذت طابعاً معادياً لبريطانيا ، موالياً للعثمانيين ومتشككاً تجاه (القومية العربية) التي انطوت على نزعة الانفصالية عن العثمانيين . ذلك كان موقف عدة اجيال من القادة الوطنيين المصريين الذين وجهوا ، على التعاقب تيار الحركة القومية في مصر[٨٦] : احمد عرابي (قائد

---

(٨١) شكيب ارسلان ، السيد رشيد رضا او إخاء اربعون سنة (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ؛ دمشق : مطبعة ابن زيدون ، ١٩٣٧) ، ص ١٥٢ - ١٥٦ .

(٨٢) المصدر نفسه ، ص ٣١٤ - ٣١٧ .

(٨٣) ان مراكش وحدها (المغرب حالياً) بقيت خارج اطار هذه السيطرة .

(٨٤) اي سورية ولبنان وفلسطين والاردن حالياً .

(٨٥) على الاقل قبل تقسيم فلسطين وبروز الخطر الصهيوني .

(٨٦) جمال عبد الناصر ، الميثاق الوطني (القاهرة : ١٩٦٤) ، ص ٢١ - ٢٢ .

انتفاضة (١٨٨١)[87] مصطفى كامل[88] (١٨٧٤ - ١٩٠٨) ومحمد فريد[89] (المتوفى عام ١٩١٩) وعدد كبير من قادة الرأي العام المصري[90] . لذلك كان من الطبيعي بالنسبة للقوميين في مصر ان يتخذوا موقفاً مناوئاً لثورة الحجاز في ١٩١٦[91] . لقد اعربوا عن رغبة ثابتة في اعلاء شأن الخلافة واعتبروا (الثورة العربية) (مؤامرة) انكليزية وبالتالي هاجموا فكرة (القومية العربية)[92] .

من هنا فإنه يمكن للمرء ان يستنتج بوضوح ان النقمة العربية على الغرب بوجه عام كانت عميقة الجذور . ان الادعاء بأن العداء العربي لبريطانيا لم ينشأ الا في الفترة التي تلت عام ١٩١٨ ، كما هو الاعتقاد الشائع في المشرق العربي[93] ، هو نظرة وحيدة الجانب وبالتالي خاطئة ، لأنها تستبعد العرب العراقيين والافارقة[94] من كونهم ايضاً جزءاً من التاريخ العربي . انها نظرة ضيقة تختزل التاريخ العربي الى تاريخ الهاشميين وثورة ١٩١٦ .

وهكذا فإنه يمكننا ان نستخلص ان الحركة القومية العربية قد واجهت ، منذ ايامها الاولى ، تأثيرين متباينين . الاول صادر من القاهرة يحذر من نوايا بريطانيا وحلفائها العرب ، والثاني من سوريا (والحجاز) يطالب بانهاء السيطرة العثمانية ولو بثمن قبول التحالف مع بريطانيا . ومما عزز النظرة السورية هو السياسة البريطانية الليبرالية في سوريا .

اما الحركة القومية في العراق فقد اختلفت عن سوريا ومصر في عدة نقاط ، اهمها اثنتان بالنسبة لموضوعنا : انها ظهرت ونمت في وقت متأخر نسبياً (١٩٠٩ - ١٩٢٠) ، وكذلك فإنها تعرضت خلال تبلورها للاضطهاد المزدوج من جانب السلطات التركية والبريطانية على التعاقب .

---

(٨٧) نقل احمد عرابي عن ميوله « العربية » وكتب « ان قيام دولة عربية . . . هو خيانة للاسلام وخروج على تعاليم الله ورسوله » . انظر : ساطع الحصري ، ما هي القومية؟ ابحاث ودراسات على ضوء الاحداث والنظريات (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٥٩) ، ص ٢٠٣ .

(٨٨) قال مصطفى كامل انه « بالرغم من ان المصريين يعرفون وطنا واحدا ، وهو مصر ، الا انهم بطبيعة الحال لا بد من ان يؤيدوا دولة الخلافة . . . » . انظر : عبد الرحمن الرافعي ، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية (القاهرة ، مطبعة الشرق ، ١٩٣٩) ، خطابه في الاسكندرية عام ١٩٠٠ .

(٨٩) انظر كتابه : محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية (القاهرة : ١٨٩٤) . وقد كتب في مذكراته : « انه لا خلاص لمصر من الاحتلال البريطاني الا عن طريق السيادة العثمانية » ، انظر : محمد فريد ، « مذكرات محمد فريد » ، الكاتب (القاهرة) ، السنة ٩ ، العدد ١٠٤ (١٩٦٩) ، مذكراته في ١٠ نيسان/ ابريل ١٨٩٢، ٢٢ شباط/ فبراير ١٨٩٤، ايار / مايو ١٨٩٧ .

(٩٠) انيس صايغ ، الفكرة العربية في مصر (بيروت : هيكل الغريب ، ١٩٥٩) ، الفصلان ٣ و٤ .

(٩١) محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، ٢ج (القاهرة : ١٩٥٦) ، ج٢ ، ص ١ - ٢٠، ٣٩ .

(٩٢) ساطع الحصري ، اراء واحاديث في القومية العربية (بيروت : ١٩٥٦) ، ص ١٨ و١٣٢ .

(٩٣) المصدر نفسه ، القومية العربية : فكرتها ، نشأتها ، تطورها ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٩٤) علال الفاسي ، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي (القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٤٨) .

وهذه الحقيقة ميزت الحركة القومية في العراق بسمتين متناقضتين بعض الشيء ، فمن جهة ، لم يأل القوميون في العراق جهداً لاظهار سخطهم على الاحتلال البريطاني ، ومن جهة اخرى ، قبل القوميون في العراق بزعامة الهاشميين تلك الزعامة التي رفضها اشقاؤ هم المصريون جملة وتفصيلاً .

سابعاً : الجو الفكري في العراق

تأثرت الانتلجنسيا العراقية الناشئة تأثراً عميقاً بالافكار الصادرة عن مصر وسوريا . الا ان الاسهام العراقي في الحوار كان محدوداً جداً . ذلك ان الظروف المحيطة بالعراق حرمته من المستلزمات الضرورية لقيام نهضة فكرية عميقة .

فالعراق لم يتمتع بالحريات السياسية والفكرية التي تمتعت بها مصر ، كان القمع سائداً ، والتبادل الحر للافكار غير مسموح به الا نادراً[٩٥] . وكان التعليم العالي الحديث في العراق يختلف كثيراً عنه في مصر وسوريا . فما بين عامي ١٨٧٢ و١٩١٢ ، كان مجموع عدد الطلبة العراقيين في استانبول يبلغ ١,٤٠٠ فقط ، منهم ١,٢٠٠ تخرجوا كضباط في الجيش العثماني[٩٦] . وخلال الفترة نفسها كان عدد الطلبة العراقيين في الجامعة الاميركية في بيروت لا يتجاوز السبعين[٩٧] . وباستثناء عدد قليل من المسيحيين ابرزهم الكرملي[٩٨]، لم يكن معظمهم يميل الى ممارسة دور فكري مماثل لذلك الذي مارسه نظراؤ هم السوريون . ومع كل ذلك فلقد كان العراقيون متأثرين بالتيارات الصاعدة ، وكان هذا التأثير ينعكس في كتاباتهم .

كان بعض الشيعة العرب العراقيين اول من تقبل ودافع عن الافكار الداعية الى التجديد والقومية العربية . فلكونهم عرباً رفضوا الاندماج بالفرس من ناحية وبمضطهديهم الاتراك من ناحية اخرى . ولكونهم ، من الجهة الاخرى ، شيعة ، كانوا ناقمين على الحكم الطائفي والاستبدادي للعثمانيين ، ولكنهم ـ في الوقت ذاته ـ لم يكن بوسعهم التخلي عن الاسلام او القبول باتجاه محاكاة الغرب . لقد كان من المنطقي بالنسبة لهم ان يتطلعوا الى حكم دستوري وكيان قومي

---

(٩٥) عبدالله فياض ، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٦٣) ، ص ٤٠ - ٥١ .

(٩٦) Abdul Wahab Abbas al-Qaysi «The Impact of Modernization on Iraqi Society during the Ottoman Era: A Study of Intellectual Development in Iraq, 1869-1917,» (Ph.D. dissertation, University of Michigan, 1958), p. 67.

(٩٧) المصدر نفسه ، ص ٨٧ .

(٩٨) الاب انستاس ماري الكرملي (١٨٦٦ ـ١٩٤٧) . درس في بيروت وفرنسا وكتب عدة مقالات في الصحف المصرية . خلال الاعوام ١٩١١ـ ١٩١٤ نشر مجلة لغة العرب الذي مجد فيها لغة العرب وتاريخهم . وقد اعتبره محمد رضا الشبيبي احد الرواد الاوائل للقومية العربية . وفي عام ١٩١٨ وما يليه حرر في مجلة العرب وكانت تدعو للقومية العربية وللتعاون مع الانكليز . انظر : كوركيس عواد ، الاب انستاس ماري الكرملي : حياته ومؤلفاته ، ١٨٦٦ ـ ١٩٤٧ (بغداد : ١٩٦٠) ، والجبوري ، الكرملي الخالد (بغداد : ١٩٤٧) .

عربي . ولذلك كانت استجاباتهم للافكار الاصلاحية والقومية تلقائية وعميقة . ويعترف ايلي خضوري بأن القوميين العرب قد ظهروا دون شك بمظهر الاحرار المتنورين والمتحررين من التعصب الديني ، والحريصين على خير الاسلام كمجموع ، وعلى تحرر جميع المسلمين من السيطرة المسيحية . نمط من هذا الفكر كان من شأنه ان يخاطب عقول العلماء الشيعة الذين كانوا قد تأثروا بتعاليم جمال الدين الافغاني والذي دعا الى وحدة سنيّة ـ شيعية من اجل الانبعاث السياسي للاسلام(٩٩) . وقد اشار كل من حوراني وكـدي الى التقارب بين افكار المصلحين والتقاليد الفكرية للشيعة(١٠٠) . وبدوري فقد حاولت ايضاح اوجه التشابه بين المعتزلة ورؤ ية المجددين للاسلام . وبهذا الصدد تنبغي الاشارة الى « الحقيقة المعروفة وهي ان الشيعة ورثوا عن المعتزلة مفهوم الاعتماد على العقل والمنطق »(١٠١) . من هنا ، فإن الرؤ ية الجديدة للاسلام ، كما بشّر بها المجددون ، قد اجتذبت عقول بعض الشيعة العراقيين ، لأنها كانت مستمدة الى حد كبير من تقاليدهم الخاصة والتقت مع حاجاتهم العملية وفي مقدمتها هوية قائمة على المساواة والعروبة .هذا على الرغم من بعض الخلافات الشيعية ـ المعتزلية .

ويعرب محمد مهدي البصير عن قناعته بأن الحركة الشعرية العراقية التي ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، بمثابة احياء للتقاليد العقلانية التي ازدهرت في عهد المأمون(١٠٢) . ويشيد البصيّر بهذه التقاليد باعتبارها الاكثر مجداً في التاريخ الفكري العربي ويؤ كد ان اولئك الذين احيوها في العراق كانوا من اصل عربي خالص. ان البصير يعتبر ابراهيم الطباطبائي (المتوفى عام ١٩٠٥) اول شاعر عراقي دعا الى (القومية العربية)(١٠٣). الا انه في الواقع ان هذا الفضل يعود الى عبد الغني الجميل(١٠٤) وعبد الغفار الاخرس . وكان الاخير صديقاً للاول. وتأثر

---

(٩٩) Elie Kedourie, *England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire, 1914-1921* (London: Bowes and Bowes, 1956), p. 190.

(١٠٠) Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939*, p. 108; Keddie, and Algar, *An Islamic Response to Imperialism: Political and Religious Writings of Sayyid Jamal al-Din al-Afghani*, pp. 9, 39, 46-47, 50-51; 62 and 92, and A. F. al-Nafeesi, «The Role of the Shi'ah in the Political Development of Modern Iraq, 1914-1921,» (Ph. D. dissertation, Cambridge University 1972), p. 109
وقد ترجمت هذه الرسالة للعربية بعنوان « دور الشيعة في التطور السياسي للعراق الحديث » .

(١٠١) محمد مهدي البصير ، نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر (بغداد : ١٩٤٧) ، ص ٨ ـ ٩ ، ١٥ ـ ١٦ و٣٣ . البصير نفسه كان قومياً عربياً ومثقفاً شيعياً وقد لعب دوراً سياسياً ملحوظاً خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ .

(١٠٢) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(١٠٣) المصدر نفسه ، ص ١٤١ ـ ١٦١ . وقد نظمت القصيدة عام ١٨٩٩ انظر : ابراهيم الطباطبائي ، ديوان الطباطبائي (صيدا . [د. ت.])، ص ٩٧ ـ ١٠٢ .

(١٠٤) عبد الغني الجميل (١٧٨٠ ـ ١٨٦٣) هو عالم سني وزعيم شعبي وشاعر. (انظر : محمود الالوسي ، غرائب الاغتراب (بغداد : ١٩١٠) ، ص ١١ ، وما بعدها . وفي عام ١٨٣٢ قاد انتفاضة عربية في بغداد. انظر: عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ج (بغداد : مطبعة بغداد الحديثة ، ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦) ، ج٧ ، ص ١٤ ـ ١٦) . وقيل ان حركته لقيت تشجيعاً من ابراهيم باشا في سورية ، انظر: عبد العزيز سلمان نوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية عهد داود باشا الى نهاية عهد مدحت باشا (القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨)، ص ١٩٦ ـ ١٩٨ ـ

بحركته وكتب عدة قصائد لا تدع مجالاً للشك في ميوله القومية العربية وهو القائل :

وبنات الكار لنا عربية رخصت لدى الاعجام وهن غوالي[١٠٥]

وحيدر الحلي (توفى عام ١٨٨٧) قارن الحكم التركي بذلك الذي قتل الحسين[١٠٦] . وفي قصائده تبدو بدايات النزعة العراقية الى العائلة الهاشمية حيث يقارن الهاشميين في مكة بقيام المهدي المنتظر[١٠٧] . وصورة مشابهة لذلك يبرزها ابراهيم الطباطبائي الذي توسل للمهدي ان يبعث ، وتنبأ بحدوث ذلك في مكة[١٠٨] . اما صالح القزويني (المتوفى عام ١٨٨٣) فقد اتهم الاتراك بالغدر والظلم[١٠٩] في حين شكا ولده راضي (المتوفى عام ١٨٧٠) من غربته في ايران واعلن عن تفضيله القاطع (العراقيين العرب) على الاتراك[١١٠] . اما الشاعر عبد المطلب الحلي فلقد انتقد السلطان عبد الحميد والشاه الفارسي كذلك ، وأشاد بالخراساني لميوله الدستورية والمعادية للغرب . وفي عام ١٩١٠ ، ايد طالب النقيب في البصرة ودافع عن قضيته بين زعماء آل فتلة . وعندما غزا الايطاليون ليبيا فلقد اظهر الحلي حماساً عربياً قومياً[١١١] . واحتج على الاحتلال البريطاني للعراق وبسببه هجر الحياة العامة والشعر[١١٢] . وقد بشر جعفر الحلي[١١٣] وابو المحاسن المحسن[١١٤] بموقف مماثل من

- (في الاصل اطروحة دكتوراه قدمت الى جامعة عين شمس في القاهرة) ، وعبد الغفار الاخرس ، مجموعة عبد الغفار الاخرس (بغداد : [د. ت.])، ص ٢٣ - ٢٩ ، ٤٤ - ٥٥ و ١٢٣ - ١٢٤ .

(١٠٥) نظم معظم قصائده القومية ما بين عامي ١٨٤٦ و ١٨٥١ ، انظر : الاخرس ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ - ٣١ ، ٨٨ - ٩٠ و ١٠٢ - ١٠٧ .

(١٠٦) حيدر الحلي ، الدر اليتيم (بومباي : [د. ت.])، ص ٣٦٦ و ٣٩٤ .

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ - ١٨٦ ومن بعض مقاطعها :

اما لمقعودك من آخر أثرها فديتك من ثائر
واولئك صفوة المجد من هاشم وخالصة الحسب الفاخر
وفيها يسومونا خطة بها ليس يرضى سوى الكافر

(١٠٨) الطباطبائي ، ديوان الطباطبائي ، ص ٩٧ .

(١٠٩) صالح القزويني ، « الديوان ،» (مخطوط) ، ص ١١١ - ١١٢ .

(١١٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ وهو القائل :

وما تبريز للفصحاء مأوى واين الترك من عرب العراق

(١١١) علي الخاقاني ، شعراء الحلة او البابليات ، ٥ ج (النجف : دار البيان ، ١٩٥١ - ١٩٥٣) ، ص ١٩٦ - ٢٣٠ .

(١١٢) البصير ، نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ، ص ٣٢٦ - ٣٢٨ ، ٣٤٢ و ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(١١٣) عام ١٨٩٥ دعا الحلي (المتوفى عام ١٨٩٩) الهاشميين الى القيام بثورة عربية ، واشاد بالشيرازي لمعارضته التدخل الغربي . وفي عامي ١٨٩٦ - ١٨٩٧ امتدح الحلي ثورة اليمن العربية ضد الاتراك ، انظر : جعفر الحلي ، سحر بابل وسجع البلابل او تراجم الاعيان الافاضل (صيدا : [د. ت.])، ص ٢١٧ - ٢١٨ ، ٣٥٨ - ٣٥٠ و ٤٢٢ .

(١١٤) ابو المحاسن المحسن (ولد عام ١٨٧٨) . كان دستوري النزعة ، شجب معاملة الاتراك للعرب ولكنه اتهم القوميين العرب بتشجيع الاحتلال الغربي . انظر : البصير ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٠ - ٣٦٠ و ٣٦٤ .

حيث النزعة الدستورية ، والعربية ، والعداء للغرب. لقد كان جميع هؤلاء الشعراء من الشيعة العرب الذين تأثروا بالافكار القادمة من سوريا ومصر والذين حاولوا الدعوة لقضايا جديدة وإن لم تخلُ احياناً من التناقضات .

كان للمصلحين تأثير واضح على النخبة العراقية . فقد كانت (العروة الوثقى) تقرأ على نطاق واسع نسبياً في العراق ويقال « وكان كل عدد من اعدادها يثير ضجة كبيرة »[١١٥] . وكان الخالصي[١١٦] والصدر[١١٧] من اوائل الذين تأثروا بأفكار الاصلاح والعروبة . وكلاهما كان عالماً في الكاظمين وقد مارسا تأثيراً فكرياً وسياسياً مهماً على الحركة الاستقلالية العراقية . وخلال اقامته في العراق (عام ١٨٩١) اقام الافغاني صلات مباشرة مع عراقيين بارزين هما عبد المحسن الكاظمي ومحمد سعيد الحبوبي .

وقد اصبح الكاظمي (١٨٧٠ ـ ١٩٣٥) واحداً من شعراء العراق الثلاثة العظام . وبسبب اعتناقه افكار الافغاني اضطر للهرب الى ايران ومن ثم الى مصر في عام ١٨٩٩[١١٨] ، حيث تولى محمد عبده رعايته والتأثير عليه[١١٩] . لقد هاجم الكاظمي الظلم العثماني، ورحب بالدستور[١٢٠] ، ومجد العرب وطالب بوحدتهم واستقلالهم[١٢١] . الا انه دافع عن الدولة العثمانية حينما تعرضت للتهديد (خلال حربي البلقان وليبيا)وحذر من النوايا الغربية[١٢٢]. ولفترة قصيرة ازر حركة الحجاز (١٩١٦) الا انه انقلب ضدها عندما علم بتحالفها مع الانكليز[١٢٣] .

اما محمد سعيد الحبوبي (المتوفى عام ١٩١٥) فلقد كان عالماً وشاعراً ، ثم اصبح من دعاة الاصلاح ، ودافع عن المعرفة العلمية والعقلانية ، وعن الوحدة بين الشيعة والسنة[١٢٤] . وبعد وفاته انقسم اتباعه الى مدرستين : القوميين العرب ومنهم الاخوان محمد رضا ومحمد باقر الشبيبي وعلي الشرقي وجعفر ابو التمن . والمدرسة الثانية كانت مدرسة الاصلاح الديني[١٢٥]، وابرز

---

(١١٥) شمس ، سفير الله (القاهرة : ١٩٦٩) ، ص ٦٥ .

(١١٦) محمد الخالصي ، « كتاب في سبيل الله ، » [د.ت.]، مكتبة الخالصي (مخطوط) ، وحديث مع الشيخ هادي الخالصي في كانون الثاني / يناير ١٩٧٠ .

(١١٧) عباس علي ، زعيم الثورة العراقية ، يتضمن حياة الزعيم العظيم السيد الصدر (بغداد : مكتبة الاحرار العلمية ، ١٩٥٠) ، ص١٩ ـ ٢٦ .

(١١٨) عبد المحسن الكاظمي ، ديوان الكاظمي ، الجزء الثاني ، تحقيق ونشر حكمة الجادرجي (القاهرة : ١٩٤٨) ، ص ٣ ـ ٦ .

(١١٩) يوسف عز الدين ، شعراء العراق في القرن العشرين (بغداد : مطبعة اسعد ، ١٩٦٩) ، ص ٣٤ .

(١٢٠) الكاظمي ، المصدر نفسه ، ص ١٢٦ ـ ١٢٩ .

(١٢١) عز الدين ، المصدر نفسه ، ص ٤٠ و٥٢ ـ ٥٥ .

(١٢٢) الكاظمي ، ديوان الكاظمي ، الجزء الاول (دمشق : مطبعة ابن زيدون ، [د.ت.])، ص ٩٩ ـ ١٢١ .

(١٢٣) عز الدين ، المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

(١٢٤) فياض ، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ ، ص ٨٤ .

(١٢٥) ومن ابرزهم الجزائري وبحر العلوم والجواهري .

عناصرها كان هبة الدين الشهرستاني الذي اصدر مجلة (العلم) التي ذكر فيها انه لا يوجد ثمة تناقض بين الاسلام والعلم[١٢٦] . وفي النجف افتتح مكتبة عامة ليتيح للجمهور الاطلاع على التيارات الجديدة في مصر وسوريا[١٢٧] . والف كتاباً حاول ان يوفق فيه بين الاسلام والعلوم الحديثة والاساليب الجديدة في التفكير والمنطق . وكانت هذه المحاولة قائمة ، بالطبع ، على احياء الجوانب العقلية في التراث[١٢٨] . وكان الشهرستاني على اتصال بجميل صدقي الزهاوي[١٢٩] ، وقد ادت افكاره الى الاصطدام بالاوساط المحافظة في النجف[١٣٠] . وقد لعبت دوراً فعالاً في ثورة ١٩٢٠ التي كانت تهدف في رأيه الى (اقامة مملكة عربية)[١٣١] .

ثامناً : الزهاوي والرصافي

وبلغت الحركة الفكرية العراقية عهداً جديداً من النضج والأصالة بظهور معروف الرصافي (١٨٧٥-١٩٤٥) وجميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣-١٩٣٩) : ففي عام ١٩٠٥ اصدر الزهاوي ، كتاباً حاول فيه تفنيد المبادىء الوهابية. وقد اشار فيه الى ان افكار الوهابيين الاساسية هي خلع صفات بشرية على الله ، وجعل القرآن فوق مستوى المعرفة العقلية ، ورفض (الاجتهاد) و(الاجماع) و(القياس) . ولقد اعترض الزهاوي على ذلك وأكد بأن استخدام العقل ضروري للبرهنة على وجود الخالق ولضرورة النبوة . وذهب للقول بأنه اذا نشأ خلاف بين العقل والتقاليد الموروثة ، فينبغي تفسير هذه التعاليم او التقاليد على اساس العقل . والزهاوي هو القائل :

وإن دليل النقل ان كان مانعاً ... يؤول بالعقل الذي هو احكم

واكد الزهاوي ان التعاليم المنقولة عن الله لا يمكن قبولها كشيء مقدس الا باستخدام العقل والذكاء[١٣٢] .

---

(١٢٦) العلم (النجف) ، السنة١، العدد١ (١٩١٠)، ص ٤ ، ٧ و٢٢ والعددان ٢ و٣ (١٩١٠)، ص ١٢٨ و١٣٢ على التوالي .

(١٢٧) جعفر آل محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها (النجف : ١٩٥٨) ، ص ١٢٠ .

(١٢٨) هبة الدين الشهرستاني ، الهيئة والاسلام (النجف : ١٩١١) .

(١٢٩) يوسف عز الدين ، في الادب العربي الحديث : بحوث ومقالات (بغداد : دار البصري ، ١٩٦٧) ، ص ٦٢ .

(١٣٠) الوردي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي : محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الاكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث ، ص ٢٥٢ .

(١٣١) عبد الرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ط ٢ منقحة (صيدا : مكتبة العرفان ، ١٩٦٥) ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(١٣٢) جميل صدقي الزهاوي ، الفجر الصادق (القاهرة : ١٩٥٥) ، ص ٢٧ - ٢٨ و ٣٢ - ٣٣

اما الرصافي فأعرب عن رأيه بأن الدين ليس وليد الوحي الخارج عن الطبيعة ، بل هو من ابتداع مفكرين لامعين وقال بهذا الصدد :

ولا ممن يرى الاديان قامت بوحي منزل للانبياء
ولكن هن وضع وابتداع من العقلاء ارباب الدهاء[133]

وكشف كل من الشاعرين عن شكوكه بخصوص بعض المعتقدات الاسلامية الاساسية كالقيامة وخلود الروح[134] . ولقد صارح الرصافي الجادرجي بأنه لم ينشر بعض كتاباته خشية الاتهام بالالحاد[135] .

مع ذلك ، فلقد اكد الرصافي في وصيته ايمانه بالله وبرسوله محمد[136] . وفضلاً عن ذلك ، دافع الرصافي عن الاسلام وكتب يقول :

يقولون في الاسلام ظلما بأنه يصد ذويه عن طريق التقدم
فإن كان ذا حقا فكيف تقدمت اوائله في عهدها المتقدم[137]

يسقط التناقض اذا ما وعينا بأن كلا الشاعرين تصور (اسلاما) اصيلا وعلميا وعقلانيا يختلف عن (الاسلام) الذي تردت اليه مجموعة القيم الفكرية السائدة في اوائل هذا القرن . ان تصوراتهما هذه وجدت جذراً لها في استلهام الماضي الاسلامي لأجل سد الفجوة التي تفصل الحاضر الاسلامي عن الثقافة الغربية الهائلة .

وقد اتخذ الشاعران موقفاً ايجابياً من المفكرين العلميين خارج نطاق الاسلام . فلقد امتدح الزهاوي رينان وبوخنر[138] وداروين وقال بأنهم اكثر جدارة بالجنة من كثير من المسلمين الذين يدعون التقوى حيث قال :

أيلقى (رنان) في الجحيم (وبوخنر) و(داروين) من عن اصلنا كشف السترا[139]

وحيا الرصافي (الفئة الحرة المؤلفة من المسيحيين واليهود والاسلام) الذين سحقوا حركة

---

(١٣٣) الرصافي ، ديوان الرصافي ، قصيدة « حقيقتي السلبية » .

(١٣٤) المصدر نفسه ، قصيدة « تساؤل » ، وانظر ايضاً لجميل صدقي الزهاوي : الكلم المنظوم (بيروت : ١٩٠٩) ، قصيدة « ايتها السماء » ، ص ١١٦ ـ ١١٧ ، واللباب (بغداد : ١٩٢٨) ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(١٣٥) كامل الجادرجي ، « حديث مع الرصافي حول كتاب عن النبي محمد » (مخطوط ضمن اوراقه) .

(١٣٦) بدوي احمد طبانة ، معروف الرصافي : دراسة ادبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية (القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٤٧) ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(١٣٧) الرصافي ، ديوان الرصافي ، قصيدة « السلام » .

(١٣٨) بوخنر (١٨٢٤ ـ ١٨٩٩) ، كان قد كتب كتاباً عام ١٩٠٥ اظهر فيه تصوراته المادية عن الكون وتفسيره للدارونية . ولقد ترجمه شبلي الشميل الى العربية .

(١٣٩) الزهاوي ، الكلم المنظوم ، ص ١١٨ .

(الردة) في عام ١٩٠٩ . ودعا الرصافي المسلمين والمسيحيين الى الاتحاد وتحقيق المجد للوطن الذي عرفه الرصافي كوطن عربي اكثر منه عراقياً اوعثمانياً، وقال بهذا الصدد :

ما ضر لو كان التعاون بيننا	لتعمر بلدان وتأمن قطان
اشقى بأمر الدين وهو سعادة	اذن فاتباع الدين يا قوم خسران
وقولا لمن لام صه اويحك اننا	على كل حال في الموطن اخوان[١٤٠]

وفي عام ١٨٩٨ ، هاجم الزهاوي السلطان عبد الحميد وقال فيه :

ايأمر ظل الله في ارضه بما	نهى الله عنه والرسول المبجل
فيُفقِرَ ذا مال وينفي مبرءاً	ويسجن مظلوماً ويسبي ويقتل[١٤١]

ومع ذلك ، ففي عام ١٩٠٥ قال الزهاوي ان العثمانيين يجب ان يحافظوا على الخلافة باعتبارها الطريقة الوحيدة لصيانة الوحدة الاسلامية[١٤٢] . ولم تنج قصائد الرصافي من (تناقضات) مماثلة . ولأجل ازالة الالتباس، ينبغي ان نعيد الى الذهن ان الشاعرين ، « شانهما في ذلك شان معظم المثقفين العرب في العراق آنذاك ، طالبوا بحكم ذاتي عربي ضمن اطار الدولة العثمانية التي يجب ان تشملها الاصلاحات » ، وذلك على حد قول محمد رضا الشبيبي[١٤٣] .

كان من المنطقي ان يستقبل الشاعران بحماس اعلان الدستور ويؤيدا جمعية الاتحاد والترقي[١٤٤] . وقد اشيع انهما انضما الى فرع الجمعية في بغداد[١٤٥] . الا ان الرصافي نفى ذلك[١٤٦] ، بالرغم من انه اصبح محرراً للقسم العربي في صحيفة (بغداد) التي كانت تنطق بلسان الجمعية في العراق[١٤٧] .

على ان فترة الوئام بين المثقفين العراقيين وجمعية الاتحاد والترقي لم تدم طويلاً . وعندما اتضح فشل الجمعية في انجاز (حكم ذاتي عربي ضمن الدولة العثمانية)،تغير موقف كل من الشاعرين : عن الزهاوي ، قرر ان يدير ظهره للاسلام بجانبيه السياسي والعقائدي وان يعتنق (الغرب) بكافة مضامينه . وهكذا اصبح الزهاوي مشككاً في كل شيء باستثناء وجوده وموته[١٤٨] . واعتبر الالحاد مسألة شخصية . اما ايمانه بالقومية العربية فقد استمر ثابتا وواضحا .

---

(١٤٠) الرصافي ، ديوان الرصافي ، ص ٣٤٧ ـ ٣٧٧ .

(١٤١) الزهاوي ، المصدر نفسه ، ص٦ ـ ٩ .

(١٤٢) الزهاوي ، الفجر الصادق ، ص ٧ ـ ٨ .

(١٤٣) محمد رضا الشبيبي ، « المقدمة ،» في : طبانه ، معروف الرصافي : دراسة ادبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية ، ص ١٠ ـ ١١ .

(١٤٤) الرصافي ، ديوان الرصافي ، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ ، والزهاوي ، الكلم المنظوم ، ص ٥١ ـ ٥٨ .

(١٤٥) بطي ، الصحافة في العراق ، ص ٢٢ .

(١٤٦) من اوراق كامل الجادرجي .

(١٤٧) بطي ، الادب العصري في العراق العربي ، ص ٧٠ .

(١٤٨) جميل صدقي الزهاوي ، رباعيات (بيروت : ١٩٢٤)، ص ١٦٠ .

وكان يقول « بدون الوحدة العربية ، لا يستطيع العرب البقاء لمدة طويلة »[149] . الا ان قومية الزهاوي كانت علمانية حيث اكد أن جميع العرب ، سواء أكانوا مسلمين ام مسيحيين ام يهوداً ، يؤلفون امة واحدة . وعارض الزهاوي القومية السلفية التي تعيش على امجاد الماضي وقال بأن القومية العربية يجب ان تبني مجداً جديداً في حياة جديدة[150] .

لقد تأثر الزهاوي تأثراً عميقاً بتقدم الغرب ، وعزا ازدهار الحضارة الغربية الى العلم والديمقراطية والمساواة ، والى حرية الفكر وتحرر المرأة[151] . وربما كان حماسه للحضارة الغربية يفسر موقفه السياسي الموالي لبريطانيا . ففي عام ١٩١٤ ، (اضطر) رغماً عنه الى التوقيع على وثيقة تؤيد الاتراك ، وفي عام ١٩١٨ قال هذه الابيات :

تبصر ايها العربي واترك	ولاء الترك من قوم لئام
ووال الانكليز رجال عدل	وصدق في الفعال وفي الكلام[152]

ولم يكتم الزهاوي سروره بعودة السير برسي كوكس الذي رحب به علناً بقصيدة مشهورة مطلعها :

عد للعراق واصلح منه ما فسدا	وابث به العدل وامنح اهله الرغدا[153]

وقد اتهم كثير من الكتاب الزهاوي بالانتهازية والخيانة بسبب قصيدته هذه الا انهم جميعاً[154] اغفلوا كون هذا الموقف نابعاً من فلسفته الغربية الاتجاه . وفضلاً عن ذلك ، فإن قراءة متمعنة في القصيدة ، تثبت ان الزهاوي لم يكن مجرد (عميل بريطاني) . فهو رحب بكوكس كبديل عن ولسن ، وطالب الاول ان يفي بوعده بتكوين حكومة عربية ، ولم يترك مجالاً للشك في ان تأييده للانكليز كان قائماً على الامل بأنهم سينعمون على العراق بخيرات حضارتهم . ولكن ما (لا يغفر) للزهاوي في قصيدته هذه هو هجومه على الثورة .

ان مثل هذه المواقف كانت تمثل الاستثناء من القاعدة ، فإن العداء المتعاظم بين الحكم التركي والمثقفين العراقيين ، الذي كان يمكن ان يعمق التباين بين الدولة الاسلامية والقومية ، قد توقف بعد

---

(١٤٩) الزهاوي ، الاوشال (بغداد : ١٩٣٤) ، ص ٦ .

(١٥٠) الزهاوي ، الثمالة (بيروت : ١٩٢٦) ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(١٥١) الزهاوي : ديوان الزهاوي (القاهرة : ١٩٢٤) ، ص ٢٣١ ؛ الكلم المنظوم ، ص ٩ ، ١٤ ـ ١٥ ، واللباب ، ص ٦٧ .

(١٥٢) العرب ، ١٥ / ٢ / ١٩١٨ .

(١٥٣) الزهاوي ، ديوان الزهاوي ، ص ٣٢٠ ، ١٤٥ ـ ١٤٦ و١١٠ .

(١٥٤) يوسف عز الدين ، الزهاوي : الشاعر القلق (بغداد : ١٩٦٢) ، ص ٢٧ ؛ هلال ناجي ، الزهاوي (القاهرة : ١٩٦٢) ، ص ٣٧ ، وعبد الرزاق مجيد الهلالي ، الزهاوي بين الثورة والسكوت (بغداد : ١٩٦٤) ، ص ٥٣ .

الغزو الغربي . وكان واضحاً ان غالبية المثقفين العراقيين كانت تخشى التدخل الغربي اكثر مما تخشى الحكم التركي . وكان الغزو الايطالي لليبيا والحملة البريطانية في العراق نقطة تحول في التطور الفكري العراقي . فقد خلقا رد فعل عميقاً لدى القومية العربية ، ارتبط آنئذٍ بالاسلام ومعاداة الغرب . وذهب الشعراء العراقيون في تلك الفترة الى حد ادانة الحضارة الغربية باعتبارها اداة للتوسع والتدمير ، موجهة ضد العرب والمسلمين على السواء . ويقدم د. يوسف عز الدين في دراسته عن تلك الفترة نماذج كثيرة من هذا التطور الفكري[155] .

كان الرصافي ابرز دعاة هذا التيار . فمنذ عام ١٩٠٩ احتج على سياسات جمعية الاتحاد والترقي ، وحذر من أن العرب « سيحصلون على حقهم بقوة السيف »[156] . وآزر الرصافي الجمعيات العربية[157] وطالب بحقوق العرب القومية[158] . كان مفهوم الرصافي للقومية علمانياً وتقدمياً .

وكان يؤكد ان من السخف الرجوع الى ماضي العرب ، وان من الضروري اصلاح الحاضر[159] وبناء مستقبل جديد[160] قائم على العلم والمعرفة[161] . ومع ذلك كله ، فلقد اعترض الرصافي على (المؤتمر العربي) لأنه عقد بباريس ووصف الذين حضروه بأنهم « كالحملان التي تطلب مساعدة الذئب »[162] . وأشار الى ان خيبة امله في (الحركة العربية) بدأت عندما ادرك ان بعض القوميين كانوا ينشدون العون الاجنبي[163] . وفي عام ١٩١٤ ، دعا الرصافي الى الجهاد دفاعاً عن الوطن ولتحرير مصر وعدن[164] . الا ان الاحداث جرت خلافاً لهذه الرغبات فقد استولى الانكليز على بغداد وخاطب الرصافي الاتراك بنبرة فيها تحدٍ ، عقيم على الاكثر ، للواقع :

انا باق على الوفاء وان كا ... نت بقلبي ممن احب جراح[165]
فاليهم ومنهمُ اليوم اشكو ... بلغيهم شكايتي يا رياح

ووجد الرصافي في ياسين الهاشمي زعيم الجناح (المتطرف) بين الضباط القوميين العراقيين بطلاً جديداً وعندما اعتقله الانكليز عام ١٩٢٠ ، حياه الرصافي بقصيدة بعض ما جاء فيها :

---

(١٥٥) يوسف عز الدين ، الشعر العراقي الحديث (بغداد : ١٩٦٠) ، ص ١٦٥ (في الاصل اطروحة دكتوراه قدمت الى جامعة لندن) .
(١٥٦) الرصافي ، ديوان الرصافي ، « شكوى الى الدستور ، » ص ٣٨٩ - ٣٩١ .
(١٥٧) المصدر نفسه ، « في معرض السين ، » ص ٣١٩ - ٣٩٣ .
(١٥٨) مصطفى علي ، ادب الرصافي (القاهرة : ١٩٤٧) ، ص ١١٧ - ١١٩ .
(١٥٩) الرصافي ، ديوان الرصافي ، « نحن والماضي ، » ص ٣٤ - ٣٦ .
(١٦٠) المصدر نفسه ، « الى الشبان ، » ص ٦٥ - ٦٨ .
(١٦١) المصدر نفسه ، « ما هكذا ، » ص ٣٦٤ - ٣٦٧ .
(١٦٢) من اوراق كامل الجادرجي .
(١٦٣) الرصافي ، ديوان الرصافي ، ص ٤٨١ - ٤٨٣ .
(١٦٤) المصدر نفسه ، ص ٤١٠ - ٤١١ .
(١٦٥) المصدر نفسه ، ص ٤٥١ .

يـاسـين انـك بـالـقـلوب مـشـيـع	الـأنـت لـلوطـن الـعـزيـز مـودع
اين الـدمـام ، ونحـن من حـلفـائهم	سـرعـان مـا نقضـوا العهـد وضيعـوا
ان اخـرجـوك من المـواطن مُكـرهـاً	فـالشعب خلفـك هـائـج لا يهجـع
ولـنـسـعـرنْ مـعـامـعـاً يصـلونها	ورؤوسهم فيهـا لسيفـك ركّـع[166]

وهكذا يتضح ان مدرسة (التحديث) او التجديد كانت ذات اثر على المثقفين العراقيين الناشئين . وقد اجتمعت القومية العربية ، والاسلام (المتجدد والعقلاني) ، والنزعة الدستورية ، ومعاداة الغرب ، لتكون جميعاً بحجر الزاوية في الحركة الاستقلالية العراقية . وربما كان من مفارقات التاريخ ان عجز القومية العربية عن التميز كلياً عن الاسلام السياسي كان في نهاية الامر في مصلحة الحركة الاستقلالية العراقية حيث انه سهل على القوميين والاسلاميين عقد تحالفهما ضد الانكليز .

ومع ذلك ، فمن المهم الاشارة الى ان هذه الافكار بقيت حتى عام ١٩١٩ مقصورة على دائرة صغيرة من المثقفين ولم يكن لها ذلك التأثير الواسع على الجماهير . ان السياسة الاستعمارية للادارة البريطانية خلال اعوام ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ كانت احد اسباب انتشار هذه الافكار وتغلغلها بين الجمهور والتحول بالتالي الى قوة سياسية ضاربة .

وفي الواقع ، فإن دراسة متمعّنة للمثقفين العراقيين تكشف عن ان كثيراً منهم ، خلال عامي ١٩١٧ و١٩١٨ ، قد خفضوا من عدائهم للانكليز . فقد كان لفظائع الاتراك ، بالاضافة الى الصيغة (الليبرالية) لبيان الجنرال مود المليء بالوعود تأثير كبير . وفي ٤ تموز / يوليو ١٩١٧ وما يليه اصدر الانكليز صحيفة (العرب) في بغداد . وكان يحررها فلبي (اعقبته المس بيـل) وكان الكـرملي والزهاوي والدجيلي والازري والبصير من بين كتابها البارزين[167] . ووقف الشبيبيان (رضا وباقر) موقفاً (معتدلاً) حتى اواخر عام ١٩١٨[168] . وفي ربيع ١٩١٧ ، زار رونالد ستورز[169] عدة مدن عراقية والتقى بعدد كبير من الزعماء العراقيين . ولقد لقي استقبالاً حاراً ، وذكر في تقريره فيما بعد انه وجد تأييداً كبيراً من جانب العراقيين ، لاسيما ابناء الفرات الاوسط ، لثورة الشريف حسين . واقترح عليه الشهرستاني والكرملي ارسال وفد عراقي الى الحجاز[170] ، وفي قناعتي ، انه حتى اواخر ١٩١٨ ، كان الانكليز قادرين على تشجيع العناصر القومية (المعتدلة) التي كان يمكن التفاهم معها . الا ان سياسة ولسن الاستعمارية البالية كانت قد اخمدت الاتجاهات المعتدلة وجعلت الصدام العنيف بين القوميين العرب والامبراطورية البريطانية امراً محتوماً .

---

(١٦٦) المصدر نفسه .

(١٦٧) بطي ، الصحافة في العراق .

(١٦٨) انظر ماسيل .

(١٦٩) احد كبار موظفي « المكتب العربي » في القاهرة التابع لبريطانيا ، انظر :
Sir Ronald Storrs, *Orientations* (London: Nicholson and Watson, 1937), pp. 228-242

(١٧٠) المصدر نفسه .

الفصل الثالث

الحركة القومية العربية في العراق خلال العهد العثماني ١٩٠٨-١٩١٦

لم يكن العراق في اواخر القرن التاسع عشر تربة خصبة لنمو حركة قومية . فعلى خلاف مصر وسوريا ، لم تكن للعراق اتصالات وثيقة بالافكار الاوروبية ، او بالبعثات التبشيرية او الثقافة الاوروبية . ان البعثة التبشيرية الاولى (الكرملية) وصلت الى البصرة عام ١٦٢٣ والى بغداد عام ١٧٢١ . وافتتحت اولى مدارسها في بغداد عام ١٧٢٨ . هذا في حين انها وجدت في سوريا منذ عام ١٢٢٦[١] . واسس الدومنيكيون بعثتهم في الموصل عام ١٧٥٠ وافتتحوا مدارسهم على اساس غير طائفي . وانشأوا اول مطبعة في الموصل عام ١٨٦٠[٢]، واصدروا مجلتهم (الاولى في العراق) باسم (اكليل الورد) عام ١٩٠٢ . واسس الكرمليون مجلتهم (زهيرة بغداد) في عام ١٩٠٥[٣] .

وفضلاً عن ذلك ، كان مستوى التعليم في العراق غير عالٍ . وكان عدد الطلبة الذين يرتادون المدارس الموجودة غير كبير[٤] . وباستثناء ابناء بعض العوائل الغنية فلم يكن ثمة طلبة يرسلون الى الخارج لمواصلة التعليم . ولكن من جهة اخرى ، كانت بذور التغيير تشق طريقها خلال التربة العراقية . كانت الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية تتعرض ، بعد سنوات من الركود ، لتحولات تدريجية ولكنها محسوسة ، ذات نتائج سياسية محتومة . وفضلاً عن ذلك ، لم يكن المثقفون العراقيون بعيدين جداً عن افكار المصلحين الاسلاميين والقوميين العرب الصادرة عن سوريا ومصر .

---

(١) H. Gallances, *Settlement of the Carmelites in Mesopotamia 17th and 18th Centuries* (London: 1927).

(٢) سليمان الصايغ ، تاريخ الموصل ، ٢ ج (بيروت : ١٩٢٨) ، ج١ ، ص ٣٢٨ و٣٢٤ .

(٣) عبد الرزاق الحسني ، تاريخ الصحافة العراقية (بغداد : مطبعة الزهراء ، ١٩٥٧) ، ص ٢٥ .

(٤) استناداً الى الهلالي كان مجموع الطلبة عام ١٩١٤ يبلغ ١٩٤٩٩ ، منهم ٦٠٠ طالبة و٣٧٨ طالباً في المدارس الحكومية و٢٦٦٣ طالبة و٨٠٢٠ طالباً في المدارس الاهلية والدينية والاجنبية . وكان هناك ١٣٣٨ طالباً في المدارس العسكرية . انظر : عبد الرزاق مجيد الهلالي ، تاريخ التعليم العراقي في العهد العثماني (بغداد : ١٩٥١) ، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٢ .

ان الحياة السياسية بوجه عام ، والحركة القومية في العراق بوجه خاص ، كانت تنمو وتنضج بسرعة بفعل عوامل خارجية الى حد كبير، والى حد ما نتيجة للتطور التدريجي والطبيعي للظروف التاريخية الملموسة القائمة في البيئة العراقية ذاتها . وقد لعب حدثان مهمان دوراً أساسياً في تحديد شكل الحياة السياسية في العراق . الاول هو وصول جمعية الاتحاد والترقي الى السلطة في الامبراطورية العثمانية عام ١٩٠٨ . والثاني هو الاحتلال البريطاني للعراق خلال اعوام ١٩١٤ - ١٩٢١ . ان بحثنا هذا معنيٌّ بالدرجة الرئيسية بالحدث الثاني وتأثيره على الحركة الاستقلالية . الا انه من الضروري عرض نبذة موجزة عن العامل الاول لأجل فهم جذور هذه الحركة .

قبل مجيء جمعية الاتحاد والترقي الى الحكم ، كانت الامبراطورية العثمانية ذات طابع اسلامي غالب وبعيدة عن النزعة القومية التركية[٥] . ويرى برنارد لويس ان « مفهوم العثمانية . . . لم يكتسب مدلولاً قومياً الا في القرن التاسع عشر تحت تأثير الليبرالية الاوروبية »[٦] . وقد تمتع العرب بمعاملة طيبة في ظل العثمانيين[٧] . وبالرغم من استبدادية السلطان عبد الحميد فإنه لا يمكن اتهامه بالتعصب القومي التركي[٨] . وفي محاولته الحفاظ على تماسك الامبراطورية ، فإنه سمح لبعض العرب بإشغال اعلى المناصب خلال حكمه[٩] .

ان الدستوريين العثمانيين قد استثارهم قرار عبد الحميد في عام ١٨٧٨ بالتخلي عن دستور ١٨٧٦ « وكان الانتقاد الرئيسي الموجه لهذا النظام (اي حكمه الفردي) هو انه اتاح الفرصة للمساهمة في الحياة السياسية - حتى اسمياً - لعدد محدود جداً من الناس »[١٠] . وقد قامت جمعية (تركيا الفتاة) وهي الفئة المعارضة الاساسية والتي غيرت اسمها الى (جمعية الاتحاد والترقي) في مؤتمرها عام ١٩٠٢ في باريس ، بانتفاضة عسكرية في عام ١٩٠٨ . لقد انهار عبد الحميد واعلن في ٢٣ تموز / يوليو دعوة البرلمان للانعقاد وفقاً لدستور ١٨٧٦ . وفي ١٣ نيسان / ابريل ١٩٠٩ اضطر عبد الحميد الى التنازل عن العرش بعد محاولة فاشلة لاسقاط الاتحاديين . وهكذا عزز الاتحاديون سيطرتهم ، واصبح الخليفة الجديد ، محمد رشاد ، مجرد حاكم صوري[١١] .

---

(٥) محمد جميل بيهم ، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، دراسة تستعرض دور العرب والترك في تنازع العالم على السيادة وتتناول اوضاعها في العصر الحاضر (بيروت : المطبعة الوطنية ، ١٩٥٧) ، ص ٨٠ .

(٦) Bernard Lewis, «Islamic Revival in Turkey,» *International Affairs*, vol 28, no. 1 (January 1952), p 47

(٧) H[amilton]A[lexander] R[osskeen] Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East*, 2 vols. (New York; London: Oxford University Press, 1950-1957), vol. 1, part 1, p 160.

(٨) George Peabody Gooch and Harold Temperley, eds., *British Documents on the Origins of the War, 1898-1914*, 5 vols. (London, His Majesty's Stationary Office [H.M.S.O.], 1928), vol. 5, pp. 7-20

(٩) نوري السعيد ، استقلال العرب ووحدتهم (بغداد : ١٩٤٣) ، ص ٢٠ .

(١٠) F. Ahmed, «The Young Turk Revolution,» *Journal of Contemporary History*, vol. 3, no. 3 (July 1958), p. 19.

(١١) Ernest Edmondson Ramsaur, Jr., *The Young Turks: Prelude to the Revolution of 1908* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1957).

إن انتصار الاتحاديين في اعلان الدستور أدخل اربعة عوامل جديدة في الواقع السياسي للوطن العربي ، كان من شأنها ان تلهب النزعات القومية العربية .

فأولاً : استُقبل صدور الدستور بالابتهاج والرضا من جانب كبير من السكان[١٢] ، ولم يكن العراق استثناء من ذلك[١٣] . وحيا الادباء ذوو الميول المتقدمة بحرارة العهد الجديد[١٤] . الا ان النظام الجديد عجز عن تنفيذ وعوده . ان الاصلاحات النسبية والمتواضعة التي ادخلها ، لم تستطع ازالة التخلف والفساد من الامبراطورية . وبعد مضي سنوات قلائل فقط كشف العهد الجديد عن تعصبه واخذ يلجأ الى الاضطهاد الوحشي . وسرعان ما حل الاحباط والخيبة محل موجة الفرح الاول[١٥] . ومهدت المرارة الجديدة الطريق للميول الاستقلالية والنزعات القومية .

ثانياً : ان انتصار الاتحاديين اثار بين بعض الاوساط العربية نقمة واستياء كبيرين ، لم يكن مبعثها عجز الاتحاديين عن تنفيذ وعودهم ، بل مجرد الاعلان عن الاهداف الدستورية . ان شعار المساواة وتقييد سلطة السلطان سببّا ازعاجاً شديداً لبعض العراقيين ذوي النزعة المحافظة[١٦] . الذين كانوا ينظرون الى مفهوم (المشروطية) برمته بقلق وتوجس[١٧] .

كان ذلك اول مظهر لانقسام سياسي وفكري عميق داخل المجتمع العراقي . ذلك ان المشروطية اثارت اهتماماً عاماً وواسعاً ، ولم تكن الصراعات التي اثارتها محصورة في اوساط ضيقة . وفي العراق ، كانت المشروطية تحظى بالدرجة الرئيسية بتأييد فئة المتعلمين من الطبقة الوسطى (الافندية) ذوي الميول القومية العربية وفريق آخر من علماء الدين وكان يتصدرهم الخراساني . كلا الفريقين كان يتطلع الى عهد من المساواة والحرية يتناسب مع مطامحه . وكانت هذه اهم مسألة التقى حولها القوميون العرب والمصلحون الاسلاميون .

---

(١٢) كتب شاهد عيان : « لقد انفجرت الامبراطورية كلها في بهجة شاملة . . . وشوهد المسلمون يعانقون المسيحيين واليهود . . . » ، انظر :
Henry Harris Jessup, *Fifty-Three Years in Syria*, 2 vols. (New York: 1910), vol 2, pp. 785-787

(١٣) علي جودت ، ذكريات علي جودت ، ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨ (بيروت : مطابع الوفاء ، ١٩٦٧) ، ص ٢٥ .

(١٤) على سبيل المثال فإن الكتّاب العراقيين الذين تحمسوا للدستور كانوا الرصافي والزهاوي ومحمد رضا الشبيبي واخاه باقر ، عبد القادر العبيدي ومحمد الحسين الازري وكاظم الدجيلي وابراهيم صالح شكر وعبد اللطيف ثنيان . انظر : انيس الخوري المقدسي ، التيارات الادبية في العالم العربي المعاصر (بيروت : ١٩٦٧)، ص ٤٥ ـ ٤٨ .

(١٥) Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (London: Oxford University Press under the auspices of the Royal Institute of International Affairs, 1961), pp 25-27;
جودت ، ذكريات علي جودت ، ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨ ، ص ٢٥ ـ ٢٧ ، وسليمان فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات (بغداد : عبد الحميد سليمان ، ١٩٥٢) ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(١٦) توفيق السويدي ، مذكراتي : نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية (بيروت : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٩) ، ص ٢٥

(١٧) علي حسين الوردي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي : محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الاكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث (بغداد . مطبعة العاني ، ١٩٦٥) ، ص ١٣٨ و٤٨٠ .

وبالرغم من التأييد الحكومي ، فإن المشروطية واجهت معارضة واسعة وادينت من قبل كبار الوجهاء وبعض الزعماء الدينيين ، الذين لم ترق لهم المساواة بين الاغنياء والفقراء ، وبين المسلمين وغير المسلمين . الجمهور العام بدوره انقسم وكانت الاغلبية قد انحازت في مراحل الصراع الاولى الى جانب (المعسكر المحافظ)(١٨) ، ومن هؤلاء كان الهاشميون من بين خصوم الدستور(١٩) . وفي العراق كان يتزعم المعارضة فريق متنفذ من الملاكين الغائبين وبعض علماء الدين المحافظين من جماعة كاظم اليزدي ، وبعض وجهاء المدن . كل هؤلاء وجدوا في الدستور خطراً على افكارهم المحافظة وامتيازاتهم الاجتماعية واعتبروا « موقف تركيا الفتاة من الدين والخليفة تدميراً للرباط الوحيد تقريباً بين العرب والحكومة العثمانية » على حد قول الملك عبدالله(٢٠) .

وسرعان ما تجمعت المعارضة (المحافظة) حول جماعة (المشورة) التي كان يتزعمها السيد عبد الرحمن الكيلاني وكان من قادتها سعيد النقشبندي وعلاء النائب(٢١). ولقد وصف تقرير بريطاني السيد عبد الرحمن الكيلاني (الذي اصبح فيما بعد رئيس اول وزارة عراقية) بأنه كان « اعلى الزعماء الدينيين السّنّة منزلة في العراق . . . وكان يدير اوقاف التكية القادرية ذات الغلة الوفيرة ويمتلك اراضي خاصة ذات قيمة كبيرة »(٢٢) . ويبدو ان كونه ملاكاً كبيراً ونائباً جعله يعتبر الاتحاديين بمثابة (كابوس) وجعله مؤيداً قوياً لأية حكومة ، تركية(٢٣) كانت ام بريطانية(٢٤) .

ان الخلاف بين الفريقين اتخذ شكل مجابهة فكرية واسعة وتحريض سياسي وحتى معارك في الشوارع . وقد ولّد هذا وعياً وفعّالية سياسيين كبيرين بين الجمهور العراقي ووضع حداً للركود الفكري السابق . الا انه قد يكون من الحقائق المأسوية ان الضربة الحاسمة للسيطرة التركية جاءت من اوساط ذات نظرة مناوئة للدستور اي من الحسين شريف مكة الذي كان معروفاً بآرائه المحافظة(٢٥) .

---

(١٨) علي ظريف الاعظمي ، مختصر تاريخ بغداد (بغداد : نعمان الاعظمي ، ١٩٢٦) ، ص ٢٤٩ - ٢٥١ ، ومحمد نجم الدين الواعظ ، الروض الازهر (الموصل : ١٩٤٩) ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

(١٩) عبدالله بن الحسين ، مذكرات عبدالله بن الحسين (القدس : ١٩٤٥)، ص ٢٢ - ٢٦ .

(٢٠) Stophan Hemsley Longrigg, *Iraq 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History* (London: 1953), p 43

(٢١) اصبح الاثنان فيما بعد قوميين عربيين ومن قادة حزب العهد في بغداد . والى جانبهم في جماعة المشورة كان عيسى الجميل وعبد الرحمن الحيدري وكاظم باشا (من الملاك الغائبين الاثرياء جداً) ومحمد فاضل الداغستاني (ضابط عسكري) وملا نجم الواعظ (قاضي) .

(٢٢) Foreign Office [F.O.] 371 / 45315, «Personalities, Iraq-Arab Bureau, 1917».

(٢٣) Colonial Office [C.O.] 696 / 1, «Baghdad Wilayat Administration Reports, 1917,» p. 160, and C.O. 696 / 2, «Administration Reports, 1918, Baquba,» p. 17.

(٢٤) F O 882 / 23 / MES / 197, «Tel. no. 11669, from Civil Commissioner [C.C.], Baghdad Dated 29 December 1918,»

(٢٥) Ameen Rihani, *Around the Coasts of Arabia* (London: Constable, 1930), p. 20, and
امين الريحاني ، ملوك العرب او رحلة في البلاد العربية ، ٢ج (بيروت : دار صادر ؛ مطبعة الرنجاني ، ١٩٥١) ، ج١ ، ص ٥٧ .

ثالثاً : ان العامل الاكثر اهمية من تأثير الاتحاديين على نهوض القومية العربية يكمن في الطابع القومي التركي للاتحاديين والذي كان يتناقض بشكل حاد مع الطابع الاسلامي للعهد السابق . وقد اتخذ هذا التغير التركيبي بين الامبراطورية شكلين . فبالرغم من كافة الادعاءات العربية بالمساهمة الكبيرة في انقلاب ١٩٠٨(٢٦) ، تبقى الحقيقة الاساسية وهي (ان ثورة تركيا الفتاة كانت حركة وطنية للاتراك المسلمين)(٢٧) . وقد لعب العرب دوراً ضئيلاً ومتناقصاً في الحركة والانظمة التي انبثقت عنها . وعليه ، فإن اشتراك العرب في تشكيلات الحكومة العثمانية قد تضاءل بالنسبة لايام حكم عبد الحميد .

ومما زاد الوضع سوءاً الى حد كبير النزعات القومية التركية المكشوفة للاتحاديين ومحاولاتهم الهوجاء لفرض اجراءات معينة استفزت العرب وعمقت حساسيتهم القومية(٢٨) . وقد اوضح عزيز علي المصري ، وهو قومي عربي بارز(٢٩) ، كيف ان آماله في تكوين امبراطورية عربية ـ تركية على غرار الاتحاد بين النمسا وهنغاريا(٣٠) « قد تحطمت بفعل الافكار (التركية) او (الطورانية) المعادية للعرب ، التي كان يحملها الاتحاديون »(٣١) . ويقول ارنولد توينبي : « ان هذا النظام التركي الشوفيني (اي حكم الاتحاديين) ولّد نتيجة خطيرة هي الضد المباشر لما كان يهدف اليه . فقد اتجه نحو تتريك جميع سكان الامبراطورية العثمانية . وكانت النتيجة ان الرعايا المسلمين السنّة الناطقين بالعربية في الامبراطورية العثمانية اصبحوا بمرور الزمن قوميين عرباً بالجملة »(٣٢) .

---

(٢٦) Francis McCullagh, *The Fall of Abdul Hamid* (London: Methuen, 1910), pp 218-219.

(٢٧) Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, p. 208 and Gooch and Temperley, eds . *British Documents on the Origins of the War, 1898-1914*, vol. 4, p. 207. «From Lowther to Grey.»

(٢٨) للاطلاع على وصف عربي لفظائع الاتحاديين ، انظر : [اسعد داغر]، ثورة العرب : مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها ، بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية (القاهرة : مطبعة المقطم ، ١٩١٦) ، ص ٩٠ ـ ١٣٠ .

(٢٩) Majid Khadduri, *Middle Eastern Affairs, No. 4: Aziz Ali al-Misri and the Arab Nationalist Movement*, St. Antony's papers, no. 17 (Oxford: Oxford University Press, St Antony's College, 1965), pp 140-163.

(٣٠) كانت مثل هذه الافكار منتشرة ايضاً بين المفكرين القوميين الاتراك . ففي عام ١٩١٨ ، اقترح ضياء كوكالب (الاب الروحي للقومية التركية) اتحاداً فدرالياً اوكونفدرالياً بين دولتين مستقلتين ، الاناضول التركي وعربستان .

Uriel Heyd, *Foundations of Turkish Nationalism: The Life and Teaching of Ziya Gokalp* (London Luzac, 1950), p. 131.

(٣١) F.O. 371/3396/14436, «Interview with Aziz Ali, Dated 14 January 1918 , from A Hardinge to J Balfour,».

(٣٢) Arnold Joseph Toynbee, «Aspects of Arab History,» *The Listener*, vol. 80, no 2058 (5 September 1968), p. 294.

ويلاحظ توينبي الاستاذ الى « ان النزعة الطورانية هيأت سلاحاً لتفكيك اجزاء الامبراطورية الروسية ، التي كان يقطن داخل حدودها ثلث الشعوب الناطقة بالتركية » .

Arnold Joseph Toynbee and Kenneth P. Kirkwood, *Turkey* (London: Benn, 1926), p 57

وقد اعترف جمال باشا (وهو احد قادة الاتحاديين البارزين ، وشغل منصب وزير البحرية والقائد العام في سوريا خلال الحرب) اعترف صراحة بالميول القومية التركية للاتحاديين ، اعلن امام العرب بكبرياء : « تحت وطأة الخطر الداهم (اي ركود الروح القومية التركية) هب رجال (تركيا الفتاة) ، بهمة تجل عن الوصف ، رفعوا السلاح ليعلّموا الاتراك الروح القومية والفضائل المتصلة بها . وكان ذلك الهدف من جميع مساعيهم خلال السنتين او الثلاث الماضية »(٣٣) .

رابعاً : ان انتصار الاتحاديين واحياء الدستور وفرا حريات نسبية للصحافة والفكر والتعبير والتنظيم السياسي . فقبل تموز / يوليو ١٩٠٨ ، لم تكن تصدر في العراق الا ثلاث صحف(٣٤) . وغني عن البيان ان صفحاتها كانت تخلو من اية معالجة جدية للاوضاع القائمة ، وبعد اعلان الدستور خلال اعوام ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ ، صدرت حوالى (٧٠) صحيفة في العراق(٣٥) . اخذت تجري مناقشة صريحة وجدية لمواضيع جديدة ، لم يكن يمكن التطرق اليها سابقاً ، « مثل المسائل الاساسية للدين والقومية ، وللحرية والولاء في الدولة الحديثة »(٣٦) . وقد اثار بعض المحررين غضب السلطات وتعرضوا للاعتقال وتعطيل جرائدهم(٣٧) .

من الواضح ان الاتحاديين ساعدوا على تغيير مجرى التاريخ في الجزء الآسيوي من الوطن العربي . فإنهم ، بمحاولتهم (تتريك) الامبراطورية ، او بعبارة ادق ، (مركزة) ادارتها ، اثاروا النزعات الاستقلالية او القومية . وبمحاولتهم انزال السياسة من (السماء) الى عالم الجماهير ، حركوا

---

(٣٣) Ahmad Djemal Pasha, *Memoires of a Turkish Statesman, 1913-1919* (London: [n.p., n.d.]), p. 200.

(٣٤) الزوراء في بغداد (١٨٩٦ ـ ١٩١٧) ؛ الموصل (١٨٨٥ـ ١٩١٨) ، والبصرة (١٨٨٩ ـ ١٩١٤) .

(٣٥) الحسني ، تاريخ الصحافة العراقية ، ص ٥ ـ ٥١ ، و

George Eden Kirk, *A Short History of the Middle East, from the Rise of Islam to Modern Times*, 7th ed. (London: Methuen, 1964), p. 122.

(٣٦) Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, p.208.

(٣٧) مثلاً: الايقاظ (البصرة) ، لسليمان فيضي (ايار / مايو ـ آب / اغسطس ١٩٠٩) ؛ اظهار الحق (البصرة) ، لـ ق .جلميران (تموز / يوليو ـ آب / اغسطس ١٩٠٩) ؛ الأتي (البصرة) ، لعمر فوزي ، وهو محامي من انصار طالب النقيب (آب / اغسطس ١٩١١ ـ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٢) ؛ النهضة (بغداد) ، لمزاحم الباججي ، وهو محامي ومن عائلة غنية ومتنفذة ، زعيم جمعية النادي الوطني عام ١٩١٢ (تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٣ ـ وقد عطلت بعد صدور ١١ عدداً فقط) ؛ بين النهرين ، لـ م . ن . الطبقجلي ، وهو من عائلة بغدادية متنفذة (كانون الثاني / يناير ١٩٠٩ ـ آذار / مارس ١٩١٠) ؛ الرقيب ، لعبداللطيف ثنيان ، وهو من بغداد (كانون الثاني / يناير ١٩٠٩ ـ عطلت في اواخر عام ١٩١٠) ؛ الدستور ، لـ أ . ع . الطباطبائي ، وهو من البصرة (آذار / مارس ـ ايلول / سبتمبر ١٩١٢) ؛ الروضة ، لـ أ . هـ . الازري ، وهو من بغداد (آب / اغسطس ١٩١٠ ـ آب / اغسطس ١٩١١) ؛ الرصافة ، لـ س. الاعرجي ، وهو من بغداد (آذار / مارس ـ تموز / يوليو ١٩١١) ؛ صدى بابل ، لداود صليوه ، وهو مسيحي من بغداد (تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٩ ـ ١٩١٤) ، ولغة العرب ، للاب انستاس ماري الكرملي ، وهو مسيحي من بغداد (عطلت في عام ١٩١٤) . وبعد عام ١٩١٤ ، اغلقت جميع الصحف غير الرسمية وصدرت اوامر باعتقال جميع محرريها .

تنظيمات ونزعات سياسية لم يستطيعوا احتواءها . وباعلانهم عن برامج اصلاحية ، انعشوا آمالاً لم يستطيعوا تحقيقها في الواقع(٣٨) . وإن كانت جذور القومية العربية قائمة قبل مجيء الاتحاديين الى الحكم بزمن طويل ، فمن المؤكد ان السياسات التي سار عليها الاتحاديون قد نشطت نمو هذه القومية ـ الا ان هذا النمو لم يتبلور الى حد المطالبة بالاستقلال التام عن الامبراطورية العثمانية . وفضلاً عن الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية ، يبدو ان وحدة الدين (مع الاتراك) ، والخوف من النوايا الغربية ، والعجز العسكري ، كانت اسباباً وجيهة لعزوف القوميين العرب عن الانفصال عن الامبراطورية(٣٩) .

كانت المحاولات الاولى لتأليف احزاب سياسية في العراق (١٩٠٨ ـ ١٩١٢) تتميز بكونها امتدادات فعلية لمنظمات سياسية قائمة في تركيا نفسها(٤٠) . وقد افتتحت جمعية الاتحاد والترقي اول فرع لها في بغداد عام ١٩٠٨ . الا ان عضويتها كانت تقتصر في الاساس على الموظفين ، وضباط الجيش ، وبعض اليهود . الا انها حظيت بتأييد بعض العراقيين التقدميين مثل الرصافي والزهاوي(٤١). وكان فرعها في البصرة اكثر شعبية بفضل تأييد طالب النقيب ،الذي لم يستمر ، مع ذلك ، طويلاً . وقد تكونت المعارضة المحافظة للاتحاديين في عام ١٩١١ وتركزت حول (الحزب الحر المعتدل) . وكانت تستمد التأييد من اعضاء (المشورة) المنحلة ويقودها محمود ، نجل عبد الرحمن الكيلاني .

اما المعارضة الوطنية العربية للاتحاديين ، فكانت في مراحلها الاولى تتجمع حول (حزب الحرية والائتلاف) الذي افتتح فرعه في بغداد (١٩٠٩) والبصرة (١٩١١). الا ان فترة التطابق هذا بين المنظمات السياسية العراقية والتركية لم تدم طويلاً . ذلك ان خيبة الامل المتعاظمة مهدت الطريق امام ظهور تجمعات عراقية مرتبطة بمنظمات عربية .

---

(٣٨) ان جميع العوامل المشار اليها آنفاً ، قد تضافرت مع الضعف المتزايد للامبراطورية العثمانية وقيام الحركات الاستقلالية بين الامم الخاضعة لها ، في عام ١٦٨٣ ، بلغت الامبراطورية العثمانية اوج قوتها . ومنذ ذلك التاريخ ، استقلت الاقطار التالية : هنغاريا (١٦٩٩) ، القرم (١٧٨٤) ، مصر (١٨٠٨) ، صربيا (١٨٧٨) ، رومانيا (١٨٨٧) ، اليونان (١٨٨٢) ، بلغاريا (١٩٠٨) ، البوسنة (١٩٠٨) ، طرابلس الغرب (١٩١٢)، البانيا (١٩١٣)،. . . الخ .

(٣٩) يمكن الاشارة في هذا الصدد الى الظواهر التالية : حركة الجهاد تأييداً للاتراك ؛ مغادرة موظفين عرب بصحبة القوات التركية المنسحبة ؛ عدم وجود اية مطالب انفصالية في برامج التجمعات القومية العربية . انظر : طالب مشتاق، اوراق ايامي (بيروت ١٩٦٨)، ص ١٩، و

Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers-Cmd.1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: H.M.S.O. 1920), pp. 1, 3 and 31.

(٤٠) هذه الاحزاب هي : جمعية الاتحاد والترقي ، الحزب الحر المعتدل ، وحزب الحرية والائتلاف .

(٤١) يوسف عز الدين ، الشعر العراقي الحديث(بغداد : ١٩٦٠) ، ص٣٧ ـ ٣٨ (في الاصل رسالة دكتوراه قدمت الى جامعة لندن) .

وقبل عام ١٩٠٨ ، كانت ثمة عدة جمعيات عربية ، لاسيا في سوريا ، تدعو الى بعض الأهداف العربية . وكان يقود معظمها مسيحيون عرب[٤٢] . وقد مهد اعلان الدستور الطريق امام تأليف تجمعات جديدة تختلف عن القديمة في نقطتين اساسيتين . الاولى ، انها قد شكلت من المسلمين العرب وكانت تخاطبهم ، والثانية ، انها كانت اكثر قوة في مطالبتها بالحقوق العربية ما عدا الاستقلال . وكانت اهم هذه الجمعيات : (الاخاء العربي العثماني ١٩٠٨) ، ومؤسسها شفيق بك المؤيد الذي شنقه الاتراك عام ١٩١٥ ، و(الجمعية القحطانية ١٩٠٩) ، و(العربية الفتاة ١٩١٠) ، و(حزب اللامركزية الادارية العثماني القاهرة ١٩١٢) ، و(حزب العهد) السري[٤٣] . ان بحثنا سينحصر بحزبي (اللامركزية) و(العهد) بسبب نشاطهما في العراق .

دعا (حزب اللامركزية العثماني) الى مؤتمر عربي لبحث القضية العربية وطرح المطالب العربية . وقد عقد المؤتمر في باريس خلال ١٨ ـ ٢٣ حزيران / يونيو ١٩١٣ وكانت اول محاولة من نوعها . وقد مثل العراق توفيق السويدي وسليمان عنبر (وكان الاثنان طالبين في باريس) وتلقى المؤتمر برقيتي تأييد من العراق . الاولى من السيد طالب النقيب في البصرة[٤٤] والثانية من بغداد[٤٥] .

ويشير السويدي الى وجود ثلاثة تيارات داخل المؤتمر . الاصلاحيون ، الذين كانوا ينشدون المساواة بين الاتراك والعرب (ومعظمهم مسلمون عرب) ، والمناوئون للاتراك (ومعظمهم مسيحيون عرب) ، (الوصوليون) من امثال عبد الحميد الزهراوي [٤٦] . الا انه من الواضح ان التيار العام للمؤتمر ، بالرغم من دفاعه (فكرياً) عن القضية القومية العربية بشكل لم يسبق له مثيل ، فإنه ابدى رغبة ملحة ومخلصة في المحافظة على وحدة الامبراطورية .

وقد استهل اسكندر عمون (وهو مسيحي وأحد قادة حزب اللامركزية) خطابه الذي القاه في افتتاح المؤتمر ، بشجب اية ميول انفصالية وقال : « ان الامة العربية لا تريد الا الغاء شكل

---

(٤٢) عبد الكريم غرايبة ، سورية في القرن التاسع عشر ، ١٨٤٠ ـ ١٨٧٦ (القاهرة : جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦١ ـ ١٩٦٢) ، ص ٢١٥ ـ ٢٣٣ .

(٤٣) كانت مطالب هذه الجمعيات تتراوح من زيادة الحقوق المحلية وتوسيع السلطات المحلية ، وزيادة نسبة التعيينات ، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية ، الى الحكم الذاتي المحلي واللامركزية . وفضلاً عن ذلك ، لم يطالب اي من هذه الجمعيات ، علناً او سراً ، بالاستقلال . انظر : مصطفى الشهابي ، المصدر السابق ، ص ٦٨ ـ ٨٣ .

(٤٤) حزب اللامركزية ، اللجنة العليا ، المؤتمر العربي الاول (القاهرة: الحزب ، ١٩١٣) ، ص ٦ . وبالاضافة الى تأييده للمؤتمر ، اعلن طالب النقيب في برقيته « ان الامة العربية ، في جميع اقطارها ، يجب ان تحقق كياناً قومياً » وان « حقوقها السياسية والاقتصادية تحظى بتأييد العثمانيين » .

(٤٥) كانت البرقية موقعة من بعض البغداديين ذوي النفوذ ، مثل عبداللطيف المدلل ، وبهجت زينل ، ومزاحم الباجحي ، . . . الخ . انظر : السويدي ، مذكراتي : نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية ، ص ٣٠ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٢٦ ـ ٣١ . ويؤيد هذا الرأي شكيب ارسلان في كتابه : سيرة ذاتية (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩) ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ ، وقد دفع الزهراوي ثمناً غالياً ليثبت اخلاصه للقضية العربية ، فقد شنقه الاتراك عام ١٩١٥ .

الحكومة . . . اننا نريد حكومة عثمانية، ليست تركية ولا عربية ، حكومة يتمتع فيها كافة العثمانيين بحقوق متساوية ويتحملون التزامات متساوية »[٤٧] .

وشدد خطاب السويدي على وجود العرب كافة ، وعلى الرغبة في الاصلاح واللامركزية[٤٨] . وقال عبد الغني العريسي[٤٩] انه ، طبقاً لكافة النظريات القومية، فإن العرب « يؤلفون امة يجب ان تتمتع بحقوق الجنسية » . ومع ذلك ، شدد العريسي على « اننا لا نريد الانفصال طالما بقيت حقوقنا محترمة ومصونة »[٥٠] .

وبالرغم من اعتدال المؤتمر في مطاليبه ، وبالرغم من اعتراف الاتحاديين به رسمياً، فإنه لم يفلح في اثارة الحماس لدى بعض القادة القوميين العرب البارزين . فإن عزيز علي المصري ، مثلاً ، عارضه في نقطتين . الاولى ، انه انتقد عقد المؤتمر في عاصمة دولة اجنبية ، والثانية ، انه اعتبر من غير المناسب طرح مثل هذه المطالب في وقت كان العثمانيون يخوضون حرباً ضد دول البلقان[٥١] . اما الحسين شريف مكة ، فإنه اعترض من وجهة نظر مغايرة ، وارسل برقية الى السلطات التركية يشجب فيها المؤتمر ويتهم اعضاءه بالخيانة و « خدمة الاجنبي »[٥٢] .

واختتم المؤتمر اعماله باتفاق مع ممثل الحكومة العثمانية على تنفيذ المطالب التالية : جعل اللغة العربية هي الرسمية في الاقطار العربية بالتدريج ، ووجوب المام كافة المسؤولين ، باستثناء الولاة ، باللغة العربية وتعيينهم محلياً ، وان يكون هناك ثلاثة وزراء عرباً على الاقل ، وخمسة ولاة عرباً ، وعشرة متصرفين عرباً[٥٣] .

كان حزب اللامركزية الذي نظم المؤتمر ، قد اثر ، سياسياً وفكرياً ، على الحركة القومية الناشئة في العراق ، والتي تمثلت بشكلها الجنيني، في (النادي الوطني) في بغداد و(الجمعية الاصلاحية) في البصرة . وقد تبنى هذان الاثنان البرنامج السياسي لحزب اللامركزية وكانا على اتصال دائم بقيادته في مصر[٥٤] .

تأسس حزب اللامركزية في مصر خلال١٩١٢-١٩١٣ على ايدي بعض المثقفين السوريين، الذين كانوا، رغم اختلافهم في البواعث الفكرية والميول السياسية، متفقين على نقطتين

---

(٤٧) المؤتمر العربي الاول ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٤٨) السويدي ، مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية ، ص ٢٩ .

(٤٩) شنقه الاتراك عام ١٩١٦ .

(٥٠) حزب اللامركزية ، اللجنة العليا ، المؤتمر العربي الاول ، ص ٤٢ ـ٥٠ .

(٥١) احمد شفيق باشا ، مذكراتي في نصف قرن (القاهرة) ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

(٥٢) السويدي ، مذكراتي : نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية ، ص ٥٢ .

(٥٣) فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات ، ص ١٢٩ ـ١٣٠ . قارن ذلك بالتركيب القومي للادارة في عهد ا . ت . ولسون .

(٥٤) فيضي ، المصدر نفسه ، ص ٩٨ و١١٦ ، ومحمد مهدي البصير ، نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر (بغداد : ١٩٤٧) ، ص ٣٧ ـ ٤١ .

اساسيتين ، وهما وحدة الامبراطورية العثمانية وضرورة الادارة اللامركزية التي يتمتع فيها العرب بكامل حقوقهم . وكان البرنامج السياسي للحزب يتضمن مواد تكشف عن اتجاهاته :

المادة الاولى : كل ولاية (في الدولة العثمانية) هي جزء لا يتجزأ من السلطنة التي هي بدورها غير قابلة للتجزئة بأية حال من الاحوال . الا ان الادارة المحلية لكل ولاية يجب ان تقوم على اساس اللامركزية .

المادة الرابعة : تشكل في عاصمة كل ولاية ، جمعية عامة ، ومجلس اداري ، ومجلس للتعليم ومجلس للاوقاف .

المادة الرابعة عشرة : تكون لكل ولاية لغتان رسميتان ، التركية واللغة المحلية للسكان .

المادة الخامسة عشرة : يكون التعليم في كل ولاية بلغة سكان تلك الولاية[٥٥] .

وفي كتاب نشر عام ١٩٠٧ ، ذكر رفيق العظم (رئيس حزب اللامركزية)[٥٦] « ان روابط القومية والوطن هي اهم من روابط الدين »[٥٧] . واكد ان الاختلافات الدينية بين العرب يجب ان لا تعيق نمو القومية العربية[٥٨] . الا ان العظم دعا الى (رابطة اسلامية) للدفاع عن حقوق المسلمين ضد امم الغرب المسيحية[٥٩] . وكان يؤمن بأن الخلافة منوطة بالاتراك وحذر من نقلها الى العرب[٦٠] . وكانت افكار رشيد رضا وحزب (العهد) لا تختلف كثيراً عن ذلك في هذا الصدد . ولذلك لم يكن استقلال العرب او العراق متصوراً من قبل القوميين العرب كهدف عاجل آنئذٍ وكانت المعارضة القومية العربية لسياسات الاتحاديين تتمثل في عدة منظمات تختلف تبعاً للظروف المحيطة بها (المركز الجغرافي ، التركيب الاجتماعي ، ومقدار الحرية السياسية) . وكانت هذه الظروف تنعكس حتماً على البرنامج السياسي لكل منظمة .

اولاً : الموصل ، بغداد ، البصرة

لم يكن الوعي القومي عميقاً او فعالاً في هذه المنطقة في تلك الفترة . وحاول سليمان فيضي ان يعلل ضعف الحركة القومية العربية في الموصل بالاشارة الى قوة النزعة الدينية (الاسلامية) التي كانت

---

(٥٥) المنار (القاهرة) ، السنة ١٦ ، العدد ٣ (٨ اذار / مارس ١٩١٣) ، ص ٢٢٩ - ٢٣١ ، نقلاً عن : Zeine N. Zeine, *The Emergence of Arab Nationalism, with a Background Study of Arab-Turkish Relations in the Near East* (Beirut: Khayat's, 1966), pp. 97-98

(٥٦) كانت اللجنة القياديه لحزب اللامركزية تتألف من العظم ، وعمون (نائبان للرئيس) ، وهادي العظم ، وعبد الغني الخطيب (امينان مساعدان) ، ورشيد رضا ، وشبلي الشميل ، وجريد بك (اعضاء) .

(٥٧) رفيق العظم ، الجامعة الاسلامية واوروبا (القاهرة : ١٩٠٧) ، ص ٤ .

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ٨ - ٩ .

(٦٠) انيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى (بيروت : دار الطليعه ، ١٩٦٦) ، ص ٤٩ .

تشكل عقبة امام نمو القومية العربية(٦١) . وقد يكون هذا صحيحاً ، الا انه يثير التساؤل بدوره ، عن سبب قوة العامل الديني . ومما يلفت النظر ان نلاحظ انتقال الادوار (بالنسبة للقومية العربية) بين البصرة والموصل ، طبقاً للظروف التاريخية المتغيرة (للسيطرة العثمانية والاحتلال البريطاني) . ففي حين نجد ان البصرة كانت عملياً ، المركز الرئيسي للنشاط القومي العربي خلال العهد التركي ، لاسيما بعد عام ١٩١٠ ، كانت الموصل ، من جهة اخرى ، نسبياً ، اقل تأثراً بالنزعة القومية ، ولكن خلال الاحتلال البريطاني اصبحت الموصل بؤرة مهمة للسخط وللفعاليات القومية العربية ، في حين تخلت البصرة عن دورها الرائد كطليعة للقومية العربية في العراق . وربما كانت العوامل التالية تلقي ضوءاً على طبيعة الحركة القومية العربية في الموصل (ضعفها ، وقوتها ، وتركيبها الاجتماعي) :

١ ـ كان القرب الجغرافي للموصل من تركيا ، مع مضامينه ونتائجه الواضحة ، عاملاً في اعاقة تطور الحركة القومية العربية في الموصل خلال العهد التركي . وعلى نقيض ذلك ، لعب العامل نفسه دوراً في التعجيل بنمو هذه الحركة خلال الحكم البريطاني (بالاضافة الى بعد الموصل عن مركز السلطة والقوة العسكرية البريطانية) .

٢ ـ لم يكن التركيب القومي لولاية الموصل عربياً كما كان الامر بالنسبة للبصرة او بغداد . ومن مجموع السكان الذي يقل عن نصف مليون ، كان العرب لا يزيدون الا قليلاً عن الثلث(٦٢) . وقد ذكر ان الطوائف المذهبية والإثنية الاخرى كانت تعارض السيطرة العربية بقوة(٦٣) . الا انه ينبغي الاشارة الى ان السكان العرب في الموصل لم يكونوا مبعثرين في ارجاء الولاية ، بل كانوا متركزين في مدينة الموصل والمدن والقرى المجاورة لها ، وكان لهذا العامل اهمية في قيام نوع طريف من الوعي السياسي ؛ كان الاحساس الحاد بالعروبة تلطفه نظرة اسلامية . فالاول كان يؤكد على الكيان الذاتي ، والثاني كان يهدف الى تحقيق الوئام مع المسلمين غير العرب في المنطقة . ولكونهم محاطين بمجتمع غير اسلامي واسع ، وجد المسلمون العرب ضمانة لهم في تبني (العروبة الاسلامية) وشجب النفوذ الغربي والتطلع الى سوريا .

---

(٦١) [illegible] ، في غمرة النضال : مذكرات ، ص ١٢١ .

(٦٢) C.O.696/3, «Mosul Administration Report, 1920,» p. 25.

[illegible] ل. ف. نادلر ، الحاكم السياسي في محافظة الموصل ، كان تركيب السكان كما يلي :

عرب	١٧٠٦٦٣
اكراد	١٧٩٨٢٠
مسلمون	٣٢١٨٩٤
اجناس غير عربية	٢٤١٦٥٥
اجناس غير كردية	٢٣٢٥٧٨
غير مسلمين	٩٠٥٠٦

(٦٣) F.O.371/4147/146.

٣ ـ ينبغي لفت الانتباه الى عامل اجتماعي ـ تاريخي كان يميز الموصل عن بقية العراق . ان سياسة المركزية التركية التي كانت تستدعي تحطيم الاتحادات العشائرية ، والغاء حكم العوائل وتصفية الملكية الاقطاعية في العراق قد نفذت (بشكل فعّال) خلال وبعد ايام مدحت باشا (١٨٦٩ - ١٨٧٢) . الا ان الموصل كانت تمثل حالة استثنائية لتلك العملية التاريخية . ذلك ان تحطيم حكم العوائل في الموصل واخضاعها للسيطرة المركزية التركية قد تم في مرحلة اسبق من ذلك بكثير ، وحقق نتائج حاسمة وايجابية . فقد حكمت عائلة الجليلي الثرية الموصل منذ عام ١٧٣٠ بعد الحصول على موافقة العثمانيين ، بسبب دورها الفعّال في الدفاع عن الموصل ضد غزو نادر شاه الفارسي (١٧٢٦)[٦٤] . الا ان آل الجليلي فقدوا شعبيتهم بسبب ممارستهم الاستغلال والاحتكار الاقتصادي[٦٥] ، وتم اقصاؤهم بعد ثورة شعبية قادتها عائلة العمري عام ١٨٢٦ . الا ان آل الجليلي ما لبثوا ان اعيدوا الى السلطة في الموصل بفضل التدخل العثماني المباشر[٦٦] . وفي عام ١٨٢٨ ، قاد قاسم العمري ثورة جديدة ناجحة ، وقام بنفي يحيى الجليلي الى حلب ونصّب نفسه والياً على الموصل بالموافقة الضمنية للعثمانيين الذين كانوا عديمي الحيلة آنئذٍ[٦٧] . وفي عام ١٨٣٠ ، قام يحيى الجليلي ، بمساعدة الشيخ صفوك ، رئيس عشيرة شمر جربة ، وتشجيع ابراهيم باشا المصري (الذي كان آنئذٍ يسيطر على سوريا) بغزو الموصل واعادة سيطرته[٦٨] . وكان ذلك نقطة تحول في تاريخ الموصل . ذلك ان الاتراك ، رغم تأييدهم للجليلي بادىء الامر ، دفعهم الخوف من الخطر المصري الى اقصاء الحكم الجليلي بصورة نهائية ، وفي عام ١٨٣٣ اصبحت الموصل خاضعة تماماً للسيطرة التركية[٦٩] وكان (الخطر) المصري هو المسؤول الى حد كبير ، عن دفع الاتراك الى تصفية العوائل في الموصل ، وفرض التجنيد الاجباري (لاول مرة في تاريخ العراق العثماني)وفرض وجود عسكري قوي[٧٠] .

وهكذا فإن عدم وجود عوائل ذات سطوة سياسية حرم الحركة القومية في الموصل من القائد الابوي الذي كان وجوده ، في ظل تلك الظروف التاريخية ضرورياً لتطور اي تنظيم سياسي[٧١] ، ومن جهة اخرى ، فإن هذا العامل نفسه ساهم الى حد كبير في خلق الطابع الراديكالي (اجتماعياً وسياسياً) للحركة في الموصل . ففي حين كانت قيادة الحركة الوطنية في البصرة خاضعة لعناصر

---

(٦٤)الصايغ ، تاريخ الموصل ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ و٢٨٢ـ ٢٨٨ .

(٦٥) عبد العزيز نوار ، داود باشا والي بغداد، ١٨١٧ـ ١٨٣١(القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨) ، ص ١٤٧ (في الاصل رسالة ماجستير قدمت الى جامعة عين شمس) .

(٦٦) عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ ج (بغداد : مطبعة بغداد الحديثة ، ١٩٣٥ - ١٩٥٦) ، ج ٦ ، ص ٢٩٩ .

(٦٧) المصدر نفسه .

(٦٨) نوار ، داود باشا والي بغداد، ١٨١٧ـ ١٨٣١ .

(٦٩) العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٧ ، ص ٢٦ .

(٧٠) نوار ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٨٥ - ٨٦ .

(٧١) كان الكيلاني يتولى في بغداد رعاية المعارضة « المحافظة » والسويدي يؤازر الحركة القومية الناشئة ، اما طالب النقيب فكان يشرف على الحركة السياسية في البصرة .

مثرية ، وفي بغداد لافراد من الطبقة الوسطى العليا ، فإن قيادة الحركة الوطنية في الموصل كانت تتألف من افراد من الطبقة الوسطى السفلى ، من منشأ متواضع ، بل احياناً من الفقراء .

٤ ـ التركيب الاجتماعي ـ الاقتصادي للموصل وانعكاساته السياسية : بدون الدخول في كثير من التفاصيل ، نود ان نورد بعض الملاحظات المهمة ذات الصلة المباشرة بالحركة الوطنية العربية في العراق :

أ ـ لقد ذكر ان الموصل كانت لزمن طويل مركزاً ومحطة تجارية لتجارة الموصل والعراق الموجهة نحو الشمال (تركيا) والغرب (سوريا ـ حلب ودمشق)[٧٢] . وعليه كان من الطبيعي ان يكون للطبقات التجارية في الموصل مصلحة خاصة بالاحتفاظ بروابط سياسية مع تركيا وسوريا . وحتى عندما بدأت التجارة العراقية ، من ضمنها تجارة الموصل ، تنتقل تدريجياً من اسواق الشرق الاوسط الى اسواق اوروبا والامبراطورية البريطانية (ابتداء من عام ١٨٨٤) ، فقد بقيت الاسواق التركية والسورية مستهلكاً رئيسياً لتجارة الموصل[٧٣] . ولعل هذا العامل الاقتصادي يفسر التحول الجذري في الموقف السياسي لسياسيي الموصل من الخضوع للاتراك الى المقاومة العنيفة للانكليز . وهذا العامل نفسه يلقي ضوءاً على التحول السياسي في موقف بعض التجار الصغار[٧٤] من كونهم خارج الحركة الوطنية خلال العهد التركي الى قيامهم بدور فعال فيها خلال العهد البريطاني .

ب ـ نظام الاراضي في الموصل : ان تعطيل تسجيل الاراضي الذي جرى في عامي ١٨٨٠ و١٨٨٢ لم يشمل الموصل والاجزاء الشمالية من العراق. ولذلك استمر نظام الطابو دون ان تعترضه عوائق . وبمرور الزمن ، اصبحت اراضي الطابو في الموصل تمثل النسبة الاعلى في جميع انحاء العراق[٧٥] . وقد سبق ان اشرنا الى المظالم التي رافقت (توزيع) الاراضي طبقاً لهذا النظام . الا انه يبدو ان الموصل كانت تمثل نموذجاً حاداً لهذا الظلم[٧٦] . وكان من الانعكاسات الاقتصادية والسياسية لهذا الوضع ان اصبح حائزو الاراضي معتمدين كلياً على الحكومة لـ (حماية املاكهم) من غضب الفلاحين . وخلافاً للوضع في البصرة ، كان حائزو الاراضي في الموصل يستمدون سيطرتهم

(٧٢) محمد سلمان حسن ، التطور الاقتصادي في العراق : التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي، ١٨٦٤ - ١٩٥٨ (صيدا : المكتبة العصرية ، ١٩٦٠) ، ص ٨٩ .

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

(٧٤) انضم بعض صغار التجار الى الحركة القومية (العهد) في الموصل بعد الاحتلال البريطاني (مثل ابراهيم عطار باشي ومصطفى الجليلي ومحمد امين العمري وعبدالله العمري) . وكانوا جميعاً ينحدرون من عائلات غنية جداً ، ولكنهم انفسهم لم يكونوا اثرياء .

(٧٥) Sir V.H.W. Ernest Dowson, *An Enquiry into Land Tenure and Related Questions Proposals for the Initiation of Reform* (Lechworth, Eng.: Garden City Press, for Iraq Government, 1931), p. 11.

(٧٦) كتبت مس بيل : « كان يدفع للفلاح ٢٥ بالمائة من قيمة ارضه ، واذا رفض البيع ، يزج به في السجن بتهمة ملفقة بكونه قاتلاً . . . الى ان يغير رأيه » ،
Great Britain, House Parliament, of Parliamentary Papers-Cmd. 1061: *Review of the Civil Administration of Mesopotamia*, p. 54.

على الارض من قوة الحكومة وارادتها ، وبالنتيجة ، فإن حائزي الاراضي في الموصل لم يكونوا في وضع يسمح لهم بممارسة اية معارضة للسلطة الحاكمة . وقد كتب الحاكم السياسي في الموصل عام ١٩١٩ : « لا يساورني شك في ان الطبقات الاكثر فقراً لا تنظر نظرة تقدير الى ادارتنا . . اما بالنسبة لوجهاء المدن ، والملاكين والمثقفين فإن الامر ليس بهذا الوضوح . ان هذه الطبقات ، بوجه عام ، لم تكن تحس بوطأة الادارة التركية ، بل انها على العكس ، استطاعت بوسائل متعددة ، مباشرة وغير مباشرة ، ان تستفيد منها »[٧٧] .

وقد اشار سليمان فيضي ، الذي زار الموصل في آب / اغسطس ١٩١٣ بتكليف من السيد طالب النقيب للاتصال بالقوميين العرب من اجل تنسيق العمل ، اشار الى العدد المحدود للعناصر العاملة من اجل القضية ، وذكر ان القوميين العرب بين ضباط الجيش التركي المرابط في الموصل كانوا ياسين الهاشمي (رئيس الاركان) ، ومولود مخلص ، وعلي جودت وعبدالله الدليمي . اما بين المدنيين ، فيشير فيضي الى سعيد الحاج ثابت وابراهيم عطار باشي (وكلاهما تاجر ذو مقدرة مالية متوسطة) والحاج ايوب عبد الواحد (حانوتي) وداود الجلبي (طبيب) . ويقول فيضي انه استطاع ان يؤلف جمعية سرية من هؤلاء الاشخاص وغيرهم[٧٨] ، للعمل من اجل القضية القومية العربية[٧٩] . الا ان هذه الجمعية لم تقم بأي نشاط ، واختفت بعد مدة قصيرة من تشكيلها[٨٠] . ولكن في عام ١٩١٤ ، وقبيل الحرب العالمية ، شكل بعض المدنيين العرب جمعية جديدة سموها جمعية (العلم) السرية[٨١] . وكانت لجنتها القائدة تتألف من ثابت عبد النور (رئيساً ، وهو مسيحي متعلم انضم فيما بعد الى ثورة الحجاز) ، ومكي الشربتي (الذي خلف نور في الرئاسة) ، ومحمد رؤوف الغلامي (وهو اديب معروف) ورؤوف الشهواني (وهو طالب اصبح فيما بعد ضابطاً عسكرياً)[٨٢] . وقد بقيت جمعية العلم حتى ايار/مايو ١٩١٩، عندما ادمجت بـ (العهد)[٨٣] . وخلال الحرب اتصلت بالحجاز وقامت بنشاط سري في تحريض السكان والجنود العرب ضد الاتراك[٨٤] .

إن المعارضة العربية للاتحاديين في بغداد اتخذت ، في شكلها الجنيني ، موقف المطالبة بالمساواة بين العرب والاتراك اكثر منها باللامركزية او الاستقلال . وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه المعارضة

---

(٧٧) C.O.696/2, «Administration Reports, Mosul 1919,» p. 7.

(٧٨) من بين الاسماء الاخرى التي ذكرها فيضي : مكي الشربتي وعبدالله باش عالم ومحمد رؤوف الغلامي . . . الخ .

(٧٩) فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات ، ص ١٢١ - ١٢٤ .

(٨٠) محمد امين العمري ، تاريخ حرب العراق خلال الحرب العظمى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ٣ج (بغداد : المطبعة العربية ، ١٩٣٥) ، ج٣ ، ص ٤٥ .

(٨١) عبد المنعم الغلامي ، « صفحات مطوية من تاريخ الحركة القومية ، ٤ ، » صدى الاحرار (الموصل) ، العدد ١٥٨ (٩ ايار / مايو ١٩٥٢) .

(٨٢) من الجدير بالذكر ان كل هؤلاء كانوا من بيئة اجتماعية متواضعة .

(٨٣) الفلاحي ، « صفحات مطوية من تاريخ الحركة القومية ، ٢٥ ، » صدى الاحرار، ١٠/١٠/ ١٩٥٢.

(٨٤) صدى الاحرار ، ١٣ / ١٦ / ١٩٥٢ .

اعتبرت نفسها جزءاً من الهيكل السياسي التركي اكثر منها قوة خارجية ، وهكذا فقد تجمع فريق من المثقفين الشباب[٨٥] حول صحيفة (بين النهرين)(التي صدرت لاول مرة في ٦ كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٩) للتعبير عن رغبتهم في الاصلاح والتقدم وتحقيق حقوق العرب . وشكلوا فرع بغداد لـ (حزب الحرية والائتلاف) الذي كان في الواقع حزباً تركياً يعارض سياسات الاتحاديين ويتعاطف مع المطالب العربية في المساواة[٨٦] . وكان هذا الفريق من المثقفين البغداديين الشباب يحظى بمساندة يوسف السويدي ، وعلى اتصال وثيق بالسيد طالب في البصرة ، الذي تبنى تشكيل فرع في البصرة لنفس الحزب وقدم مساعدات مالية وحماية كبيرة للفريق البغدادي[٨٧] .

الا ان خيبة الامل المتزايدة في السياسات التركية اقنعت بعض الشباب العرب بمرور الزمن بالتخلي عن ارتباطاتهم بالاحزاب السياسية التركية وتشديد مطالبهم القومية باللامركزية بدلاً من مجرد المساواة . وهكذا تشكلت جمعية جديدة في اواخر ١٩١٢ تحت اسم (جمعية النادي الوطني) كانت ذات طابع قومي عربي اكثر راديكالية وجرأة . وكان يسند هذه الجمعية الجديدة ايضاً يوسف السويدي وطالب باشا ، وسرعان ما ارتبطت بجمعية الاصلاح في البصرة (التي شكلها طالب باشا في ٢٨ شباط / فبراير ١٩١٣) . وفي الواقع ، تبنت جمعيتا البصرة وبغداد برنامج حزب اللامركزية العثماني واصبحتا فرعين بارزين له[٨٨] .

وكان الاعضاء النشيطون في النادي الوطني يضمون صفوة المثقفين في بغداد آنئذٍ ، بعضهم ينحدر من اصل متواضع وآخرون من عوائل ثرية جداً ، ولكنهم لا يمثلون بالضرورة وجهات نظر عوائلهم السياسية . ومن الجدير بالذكر انه كان من بين الاعضاء النشطين في هذه الجمعية بعض من الشباب من منطقة الفرات الاوسط وعدد كبير من الضباط العاملين في القوات المسلحة التركية . وكان من بين هؤلاء الاعضاء : مزاحم الباجه جي ، محام حديث التخرج ، ينتمي الى عائلة ثرية جداً ، رئيس الجمعية ومحرر صحيفة (النهضة) ، حمدي الباجه جي ، محاضر في كلية الحقوق ، ابراهيم ناجي ، يحمل شهادة في القانون ، ابراهيم حلمي العمر ، اديب مشهور ، بهجت زينل ، طالب في كلية الحقوق ، الشيخ محمد باقر الشبيبي ، واحد من اكثر الشباب تنوراً في الفرات الاوسط ، اديب ، الشيخ محمد رضا الشبيبي ، ذو ثقافة عالية جداً من النجف ، اديب وشاعر

---

(٨٥) كان من بين المثقفين الشباب محمود نديم الطبقجلي وكامل الطبقجلي (وكلاهما ينتمي الى عائلة معروفة تعمل في الصحافة) وابراهيم صالح شكر وابراهيم حلمي العمر وحمدي الباجه جي .

(٨٦) تشكل هذا الحزب على يد صادق بك (وهو لواء في الجيش التركي وقائد سابق في جمعية الاتحاد والترقي) واعضاء سابقون آخرون في الجمعية ممن اثار قلقهم سلوك الاتحاديين الاستبدادي ، وتعزز مركز هذا الحزب عندما انضم اليه حسين حلمي باشا ومحمود مختار باشا (وكلاهما رئيس وزراء تركي سابق) ، وكان للحزب جاذبية كبيرة بالنسبة للساسة العرب الذين كانوا يتخوفون من تعصب الاتحاديين ، الا ان هذا الحزب لم يدم طويلاً ، اذ عطله الاتحاديون .

(٨٧) فهمي ، في غمرة النضال : مذكرات ، ص ٨٢ ، ٩٨ و ١١٦ .

(٨٨) البصير ، نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر، ص ٣٧ - ٤١ .

وكاتب سياسي ، رزوق غنام ، عربي مسيحي من بغداد ، محرر جريدة ، مبدر الفرعون ، شيخ عشيرة متعلم من آل فتلة في الفرات الاوسط ، تحسين العسكري ، عبد الحميد الشالجي ، يوسف عز الدين ، عبد اللطيف الفلاحي ، محمود اديب ، محمود بعقوبة ، كانوا كلهم ضباط شرطة يعملون في بغداد ـ

كان يوسف السويدي ، وهورئيس العائلة الكبيرة النفوذ ، الروح الموجهة للحركة القومية في بغداد . وقد ولد السويدي عام ١٨٥٤ في بغداد حيث تلقى بعض التعليم في الدراسات العربية والدينية مما اتاح له ان يصبح قاضياً خلال ايام الاتراك . وقد وصفه تقرير رسمي بريطاني مؤرخ في عام ١٩١٧ كما يلي : « اشرف الاشراف ، لا يفوقه منزلة الا النقيب في بغداد . منحدر من الخليفة العباسي . عضو صلب في الحزب القومي العربي . وقد جعله ارتباطه بالحزب الليبرالي (الحرية والائتلاف) موضع ريبة الاتحاديين »[٨٩] .

وعندما اغتيل رئيس الوزراء الموالي للاتحاديين ، محمود شوكت باشا في حزيران / يونيو ١٩١٣ بدون دافع واضح ، استغل الاتحاديون هذه الفرصة لوضع حد للمعارضة وتشديد قبضتهم على الامبراطورية . وقد سجن السويدي مع آخرين . ولكن في ايلول / سبتمبر ١٩١٣ ، بعد اطلاق سراحه ، انتخب السويدي ، تحدياً لارادة الاتحاديين ، عضواً في دائرة الدليم لاول مجلس عام لولاية بغداد ، وهو مجلس كانت غالبيته مناوئة للاتحاديين . وفي آب / اغسطس ١٩١٤ قتل ثابت ابن السويدي (وهو قائمقام في الادارة التركية) باوامر الاتحاديين بسبب معارضته العلنية لمذبحة الارمن في ديار بكر[٩٠] . وفي عام ١٩١٥ ، اعتقل السويدي مرة اخرى ومثل امام المحكمة العليا بأمر جمال باشا . ثم نفي ولم يسمح له بالعودة الا بعد الهدنة .

وكانت سيرة السيد طالب باشا نقيب البصرة في السياسة العراقية والحركة القومية خلال سنوات ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ ذات طابع متميز . والحقيقة التي تلفت النظر هي ان البصرة وليس بغداد او النجف او الموصل ، كانت الى حد كبير مركز الحركة القومية الصاعدة . فالرجل والمدينة قد ارتبطا عضوياً نتيجة ظروف تاريخية معينة آنئذٍ .

فالبصرة تقع جغرافياً في اقصى طرق من الامبراطورية العثمانية المتداعية ، بجوار مشيختين عربيتين (المحمَّرة والكويت) كانتا خاضعتين للحماية البريطانية مما جعل شيخيهما يتمتعان بمركز وامتيازات معينة لم تكن لهما في السابق . وقد اسس الانكليز قنصليتهم واول مكتب للبريد في المحمرة عام ١٨٩٠[٩١] ، وبعد اكتشاف النفط وتأسيس شركة النفط

---

(٨٩) F.O. 371/126993, «26 June 1917,».

(٩٠) البصير ، المصدر نفسه .

(٩١) Sir Arnold Talbot Wilson, *The Persian Gulf: A Historical Sketch from the Earliest Times to the Beginning of the 20th Century* (Oxford : Clarendon, 1928), p. 266.

الانكلو ـ فارسية اعلن الانكليز حمايتهم على المحمرة عـام ١٩٠٩(٩٢) . وفي عام ١٨٩٩ وقـع الانكليـز معاهـدة مع الشيـخ مبارك ، ركـزت نفوذهـم عـلى الكويت وعـززت مـركـز الشيـخ المتميز . وكانت ايدي الاتراك مغلولـة ، واضطروا بمـرور الزمن الى الاعتـراف بالـوضع عـام ١٩١١(٩٣) . وكان العثمانيـون مضطرين ، بسبب الـظروف ، الى ممارسـة الحذر الشـديد في تصرفاتهم في البصرة لئلا يثيروا رد فعل بريطانيـاً في منطقـة حيويـة جداً بـالنسبة لمصـالحهم . وفضلاً عن ذلك ، فمما لا ريب فيه ان السيد طالب كان يتلقى عونـاً سياسيـاً(٩٤) وماليـاً(٩٥) من خزعل ، شيخ المحمرة ، ومبارك شيخ الكويت . والواقع ان الانكليز اوضحوا موقفهم بما لا يقبل الشك عندما وصلت سفينتهم الحربية (البرت) الى البصرة في الرابع من ايار / مايـو عام ١٩١٣ ، في الوقت نفسه الذي كان الاتراك يحاولون فيـه وضع حـد للتنامي المقلق لنفـوذ طالب(٩٦) .

وكان التركيب الاجتماعي ـ الاقتصادي للبصرة عامـلاً آخر في تحـديد الـدور او الاتجاه السياسي المتميز للبصرة (القومي العربي وربما الموالي للانكليز) . كانت المدينة بصورة اساسيـة مرفأ تجارياً ومركزاً لاكبر بستان نخيـل في العالم(٩٧) . ولـذلك كـانت التجارة عمـوماً وزراعـة وتصـدير التمـور خصوصـاً ذات اهمية كبـرى . وكانت تجـارة البصـرة تتميـز بثـلاث سمـات اساسية : النمو السنوي في حجمها ، واعتمادها المتزايـد على الاسـواق البريـطانية ، وازديـاد حجم تصـدير التمـور . وكانت جميـع هذه السمـات ظاهـرة خـلال العهـد العثمـاني الا انها اكتسبت ابعاداً اوسع خلال العهد البريطاني .

كانت التمور هي المادة الرئيسية في صادرات العـراق . وخلال ١٩١٢ ـ ١٩١٣ كـانت تمثل (١٨) بالمائة من مجموع الصادرات . ولكن خـلال ١٩١٦ ـ ١٩٢٠ اصبحت تمثل (٥١) بالمائة(٩٨) . وفي عام ١٨٨٣ كـانت البصرة تصـدر ١١/٦٠٣ اطنان من التمـور ، من ضمنها ١٠,٣٦٤ طناً مخصصة للمملكة المتحدة . وخلال ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ازدادت صادرات التمـور الى ١٥٢,٠٠٠ طن ، وكان معظمها يشحن ايضاً الى بـريطانيـا(٩٩) ، وخلال عـام ١٩١٨ ،

---

(٩٢) Great Britain, F.O., Historical Section, *The Gulf*, F.O., no. 76 (London: H.M.S.O., 1920), p. 57.

(٩٣) Ibid., p. 54.

(٩٤) F.O.882 13 MES, «Memorandum: the Arab Movement and its Possible Future, Autumn 1915,».

(٩٥) F.O. 882 25 Arab Bureau[A.B.]17, «History of Sayyid Talib and His Family , Dated 30 August 1916.».

(٩٦) Philip Willard Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (London: Jonathan Cape, 1937), pp. 233-234.

(٩٧) مظفر حسين جميل ، « سياسة العراق التجارية ، » (اطروحة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، كلية الحقوق ، ١٩٤٩) ، ص ٥١ .

(٩٨) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ، ١٨٦٤ ـ ١٩٥٨ ، ص ١١٨ .

(٩٩) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ و١٧٦ .

بلغت صادرات البصرة ٢٢٢ (لك) روبية ، بضمنها ١٤٠ (لك) من قيمة التمور وحدها . ومن الجدير بالذكر ان القسم الاعظم من التمور كان يصدر الى الامبراطورية البريطانية ، في حين كانت حصة الاقطار الاخرى ضئيلة جداً[١٠٠] .

وتحت هذه الظروف ، لم يكن من الغريب ان تحتل البصرة ، في ظل الحكم التركي ، « مركز الصدارة الذي لا ينازع في الحركة العربية »[١٠١] . الا ان البصرة تخلت عن مركزها (القيادي) على اثر وقوعها تحت الحكم البريطاني . ذلك ان « طبقات الملاكين والتجار في البصرة . . . شعروا ان الحكم البريطاني سيساعدهم »[١٠٢] . وخلال العهد البريطاني « ازداد تجار وشعب البصرة نفسه غنى ، وازدهرت تجارتهم »[١٠٣] . وبالمفهوم السياسي ، كان هذا يعني ان (السياسات الشريفية) فقدت جاذبيتها[١٠٤] واستناداً الى تقرير برسي كوكس : « في البصرة . . . لم اجد حماساً لفكرة الحكومة الوطنية »[١٠٥] .

كانت الهيمنة السياسية والاجتماعية للعوائل الثرية من السمات المميزة للوضع في البصرة ، على خلاف الامر في ارجاء العراق الاخرى . ويمكن ان نعزو هذا ايضاً الى طبيعة العلاقة الانتاجية القائمة في المناطق التي كانت تسود فيها تجارة التمور . ان العدد الكبير لزارعي التمور ، وصعوبة خزنها وطبيعتها السريعة التلف ، كانت كلها عوامل اضعفت مركز المنتجين الصغار تجاه التجار الاثرياء والملاكين . ومما زاد في تعزيز مركز الفئة الاخيرة انها كانت الوحيدة القادرة على تجهيز الزارعين بالرأسمال الكبير الضروري لانتاج التمور . وفضلاً عن ذلك ، فقد احتكر التجار العراقيون سوق التمور العالمي بتجهيزه بما يتراوح بين ثلثي واربعة اخماس حجمه الكلي . وهكذا انعكست السيطرة الاقتصادية لتجار وملاكي البصرة في مركز سياسي واجتماعي مرموق كان ، على خلاف الامر في ارجاء العراق الاخرى ، نادراً ما يلقى تحدياً من (الاسفل) .

وتحت هذه الظروف التاريخية المؤاتية ظهر طراز القيادة التي مثلها السيد طالب[١٠٦] . ومع ان الظروف الموضوعية ساعدت على صعود طالب الى القيادة ، الا ان الرجل صب شخصيته الخاصة في هذه القيادة . كان طالب ينحدر من اسرة النقيب في البصرة التي تدعي التسلسل من الولي الكبير السيد احمد الرفاعي . وفي عام ١٨٤٠ ، حصلت عائلة النقيب على

---

(١٠٠) C O. 696 / 2, «Basrah Custom Report for the Year Ending 31 December 1918.».

(١٠١) Longrigg, *Iraq 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History*, p. 45.

(١٠٢) C.O. 696 / 2, «Administration Reports, Basrah 1919,» p.25

(١٠٣) F.O. 371 / 5231 / no. 12986, «26 October 1920,»

(١٠٤) C.O. 696 / 2, «Administration Reports, Basrah 1919,» pp. 25-26 and 59.

نسبة الى الشريف حسين قائد ثورة الحجاز . وعندما يشير الانكليز الى «الشريفية» فهم يعنون الميول القومية العربية .

(١٠٥) F.O. 371 / 5231 / no. 12466, «24 October 1920,».

(١٠٦) انظر : H.A al-Nakib, «A Critical Study of Sayyid Talib Pasha al-Nakib in the Setting of His Time and Environment, on the Basis of Arabic and Foreign Documents.» (M Phil. thesis, Leeds University, 1973)

ثروة عظيمة عندما استطاع السيد رجب (والد طالب) « ان يرغم دائرة الطابو عن طريق الرشوة ووسائل اخرى على تسجيل اراض مختلفة ، كانت بحيازته بصفة ملحقات وقفية ، تسجيلها كملك خاص لنفسه وشقيقه احمد »(١٠٧) ، وقد علم حمدي باشا ، وهو وال نزيه بشكل استثنائي ، بهذه العملية الاحتياليةواخذ يسعى لالغائها. وحاول ايضاً ان يضع حداً لتجارة تهريب الاسلحة التي كان يديرها النقيب وشيخ الكويت بصورة مشتركة . ولكن في عام ١٨٩٩ نجح طالب في اقناع الاستانة باعفاء حمدي باشا من منصبه . وفي عام ١٩٠٠ ، حصل طالب على مؤازرة خزعل شيخ المحمرة باصدار الامر الى اثنين من رجاله بقتل عبدالله افندي الراوندوزي ، وهو محام كردي كان يعيش في البصرة ، وكان قد اخبر الحكومة بعدم شرعية تملك خزعل لبعض بساتين النخيل في البصرة. « وشعرت السلطات التركية بالذعر من جراء هذه التظاهرة ، فاستسلمت وسمحت بتسجيل البساتين باسم الشيخ خزعل »(١٠٨) . وفي عام ١٩٠٢ ، عين طالب ، بالاستناد الى الدعم القوي من الوالي والشيخين ، متصرفاً للاحساء ، الا انه سرعان ما اعفي من منصبه بسبب (سوء تصرفاته الادارية)(١٠٩) . وقد وصفه تقرير رسمي بالعبارات التالية : « طاغية بكل معنى الكلمة ، يسعى الى ابتزاز اموال الاغنياء ، وينهب اي شخص يرفض خدمته عن طريق لصوص محترفين (شقاة) يحتفظ بهم في داره »(١١٠) . ومن ناحية اخرى فإن كرم طالب تجاه الفقراء ومؤازريه والمضطهدين سياسياً كان (مضرب الامثال) .

وفي عام ١٩٠٩ استهل طالب حياته السياسية بالانضمام الى جمعية الاتحاد والترقي في البصرة ، املاً ان يصبح قائدها المعترف به . الا ان الاتحاديين وقفوا ضد مطامح طالب ، وكان هدفهم اعطاء السلطة السياسية شكلياً فقط لعرب المدن ، مع الاحتفاظ بكامل السلطة الحقيقية في ايدي الولاة . وانتخب طالب نائباً . وفي الاستانة ، بعد خيبة امله في الاتحاديين واتصاله بجو قومي عربي ناضج نسبياً ، هجر طالب الاتحاديين وانضم الى حزب الاحرار المعتدل(١١١) . وفي اوائل ١٩١١ ارسل طالب رسالة جريئة الى حسين شريف مكة شكا فيها من الاضطهاد القومي الذي يمارسه الاتراك بحق العرب . وحث الشريف على الثورة ووعده بالمساندة الكاملة(١١٢) . وقد رافقت الرسالة وثيقة موقعة بالنيابة عن جميع (؟)(١١٣) النواب

---

(١٠٧) F.O. 882/25/A.B.17, «History of Sayyid Talib and His Family, Dated 30 August 1916.»

(١٠٨) المصدر نفسه ، والواقع ان الوالي التركي اعترف بـ « حقوق » خزعل عام ١٩١٠ نتيجة تدخل بريطاني مباشر .

Sir Arnold Talbot Wilson, *South West Persia: A Political Officer's Diary, 1907-1914* (London; New York Oxford University Press, 1941), pp. 118-119.

(١٠٩) البصير ، نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(١١٠) F.O. 882/25/A.B. 17, «History of Sayyid Talib and His Family, Dated 30 August 1916.»

(١١١) المصدر نفسه .

(١١٢) فيصل ، في غمرة النضال : مذكرات ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(١١٣) لم تكن الوثيقة موقعة من « جميع » النواب العرب . وقد شنق الاتراك في عام ١٩١٦ اثنين من الموقعين ، هما المؤيد والعسلي (نائبي دمشق) .

العرب ، تعترف بحسين اميراً لمكة وبكونه السلطة الدينية الوحيدة على جميع الاقطار العربية(١١٤) .

وفي تموز / يوليو ١٩١١ ، اسس طالب اول فرع عراقي لحزب الحرية والائتلاف . وعقد اجتماع في دار طالب في البصرة حضره حوالى المائة من وجهائها ، ومعظمهم من جمعية الاتحاد والترقي ، تركزت المناقشات ضد الاتحاديين حول نقطتين : سياساتهم المناوئة للعرب ، ونزوعهم الى فرض حكم دكتاتوري . واختتمت المناقشات باتخاذ قرار بتشكيل الحزب الجديد على اساس مستقل (وليس مرتبطاً عضوياً بالمقر العام في الآستانة) وارسال استقالة جماعية الى جمعية الاتحاد والترقي . وانتخبت لجنة ادارية يرأسها طالب وتضم اغنى العائلات في البصرة : آل عبد الواحد ، باش اعيان ، آل نعمة ، آل صانع ، آل منديل ، آل سلمان . وكانت الاهداف الرسمية لهذا الحزب هي مساواة العرب والاتراك ، وضرورة الاصلاح في الامبراطورية ، والمطالبة بانهاء سياسة الاضطهاد. اما هدف الاستقلال ، او حتى اللامركزية ، فلم تجر اية اشارة اليه . وفي الواقع ، فإن الاحتفال الرسمي بافتتاح الفرع في ٦ آب / اغسطس قد حضره رسمياً الوالي وكبار المسؤولين الآخرين ، واصدر الحزب جريدة يومية باسم (الدستور) ، كان يحررها عبد الوهاب الطباطبائي ويمولها محمود عبد الواحد (وكان الاول محامياً شاباً والثاني تاجراً وملاكاً غنياً) .

وفي اوائل عام ١٩١٢ ، زار طالب مصر ، حيث التقى باللورد كتشنر ، ثم ذهب الى سملا حاملاً رسائل تعريف من المستر كراو القنصل البريطاني في البصرة ، وقابل اللورد هاردنغ . ويبدو ان هذه اللقاءات اعطت طالب الانطباع بأن الانكليز كانوا مستعدين لدعم خططه(١١٥) .

وفي شباط / فبراير ١٩١٣ نشّط طالب معارضته للاتراك بتأسيس الجمعية الاصلاحية في البصرة على غرار حزب اللامركزية في القاهرة والنادي الوطني في بغداد(١١٦) . وتبنت الجمعية الجديدة(١١٧) برنامجاً من (٢٨) مادة يعترف بوضوح بسيادة الامبراطورية العثمانية على العراق ، ولكنه يطالب بوجوب كون الولاة عراقيين وبأن تكون العربية هي اللغة الرسمية للدولة(١١٨) . وخلال العام نفسه ، جمع طالب عدداً ضخماً من التواقيع على عريضة ارسلت

---

(١١٤) فيضي ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ ، و[داغر]، ثورة العرب : مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها ، ص ٧٨ . ويدعي داغر ان الوثيقة ارسلت عام ١٩١٣ .

(١١٥) F.O. 882/25/A.B. 17, «History of Sayyid Talib and His Family, Dated 30 August 1916,».

(١١٦) فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات ، ص ١٣٠ ، والبصير ، نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ، ص ١٩ - ٤٠ .

(١١٧) كانت القيادات الجديدة للجمعية هي قيادة حزب الحرية والائتلاف نفسها .

(١١٨) F.O. 192/2451, «Despatch no. 51, 28 August 1913,» cited by: Zeine, *The Emergence of Arab Nationalism, with a Background Study of Arab-Turkish Relations in the Near East*, p. 104.

الى الآستانة وتطالب باصلاحات عاجلة لتلبية المطامح القومية العربية . وفضلاً عن ذلك ، فإنه دبر لقاء مع شيخي المحمرة والكويت لبحث امكانية تشكيل اتحاد كونفدرالي يضم المشيختين والبصرة(١١٩) .

وقد رد الاتراك على هذه المحاولات بارسال قائد عسكري يدعى فريد بك بمهمة وضع حد لنفوذ طالب المتعاظم . كما اتخذوا اجراء احتياطياً آخر بنقل الضباط العرب الكبار (رشيد الخوجة وياسين الهاشمي وعبداللطيف الفلاحي) الى مراكز خارج ارض العراق . والظاهر ان فريد بك كان يخطط لاغتيال او اعتقال طالب بمعونة عجمي السعدون المنتفكي ، الذي كان افراد عشيرته قد بدأوا يتسربون الى البصرة بأعداد كبيرة . واصبح وضع طالب حرجاً جداً ، ولكنه لم يرضخ للتهديد ولجأ انصاره الى الهجوم كخير وسيلة للدفاع ، فاغتالوا ، في ١٩ حزيران / يونيو ، القائد العسكري وجرحوا متصرف المنتفك ، الذي كان يرافقه ، جرحاً مميتاً .

وبعد هذه العملية ، بدا كأن طالب قد بلغ قمة نفوذه واضطر الاتراك الى الاعتراف بمركزه ارضاء لمطامحه بأمل احتواء مطالبه المتطرفة ، كما ان طالب نفسه ، الذي كانت سطوته الشخصية تهمه اكثر من برنامجه الاصلاحي ، رحب بالمساعي التركية لتثبيت وضعه الممتاز ؛ ولذلك ففي كانون الثاني / يناير ١٩١٤ ، بعد فترة من المفاوضات مع الاتراك ، اصدر طالب بياناً اعلن فيه انه والحكومة « قد اتفقا على تنسيق جهودهما كما لو كانا روحاً وجسداً واحداً » ، وان كل الخلافات بينهما قد سويت ، وانه سيبذل في المستقبل كل ما في وسعه لتدعيم الوحدة العثمانية(١٢٠) . وفي ايار / مايو ١٩١٤ ابلغ طلعت (وزير الداخلية) السفير البريطاني بأن طالب النقيب سيعين والياً على البصرة(١٢١) .

ولا يدخل في نطاق هذا البحث تقديم تقويم تفصيلي للاهمية التاريخية لنضال طالب . الا انه ينبغي الاشارة الى ان الرجل كان مدفوعاً بطموح جامح اكثر منه برؤية مثالية . ان هدفه الحقيقي لم يكن استقلال العراق او وحدة العرب بقدر ما كان تشكيل « اتحاد كونفدرالي او تحالف بين حكام وامراء عرب شبه مستقلين، من ضمنهم شيخا المحمرة والكويت ، والسيد طالب كأمير للبصرة ، وابن سعود ، وابن رشيد ، وشريف مكة ، والامام يحيى والسيد ادريس . ولم يكن هناك اي اتجاه نحو الديمقراطية على الاطلاق . فكل حاكم سينفرد بالحكم في منطقته الخاصة ، الا ان الامور ذات الاهتمام

---

(١١٩) مصطفى عبد القادر النجار ، التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية،١٨٩٧-١٩٢٥ (القاهرة : ١٩٧٠) ، ص ١٤٠ - ١٤٥ (في الاصل رسالة ماجستير قدمت الى جامعة القاهرة) .

(١٢٠) امين محمد سعيد ، الثورة العربية الكبرى : تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن ، ٣ج (القاهرة : البابي ، ١٩٣٥ - ١٩٣٦) ، ج١ ، ص ٢٤ .

(١٢١) F.O. 882/25/ A.B. 17, «History of Sayyid Talib and His Family, Dated 30 August 1916.».

المشترك في الاتحاد ، وكذلك الشؤون الخارجية كما هو المفروض ، سوف تعالج بالتشاور بين الحكام الاوتوقراطيين »[١٢٢] .

لقد كان طالب ، نوعاً ما ، انفصالياً يسعى الى اقامة سلطة اقليمية ، الا انه ، في محاولته هذه ، ادى موضوعياً خدمة كبيرة لظهور القومية العربية . فعن طريق طرح مطالب قومية عربية ، وتحدي الحكم التركي وإضعاف هيبته ، وتقديم الحماية والمساعدة المالية والسياسية للقوميين العرب ، مهد طالب الطريق لقيام الحركة القومية العربية ، الا انه بالنظر لفرديته وانانيته المفرطة فقد حول هذه الحركة الى مغامرة شخصية ، بدلاً من تيار سياسي ناضج . ولذلك ، فعندما نشبت الحرب فوجىء القوميون العرب ولم يستطيعوا اقتناص الفرصة او تهيئة برنامج للعمل او المطالب السياسية .

إن نزعة طالب(الانفصالية)لم تكن محصورة لديه ،ولا هي من ابتكاره بل كانت في الواقع ميلاً سائداً بين طبقة التجار والملاكين الذين كانت مصالحهم الاقتصادية بالذات تجعلهم موالين للانكليز بل وانفصاليين . ومما تجدر الاشارة اليه انه في اواسط عام ١٩٢١ ، عندما تأسست حكومة عراقية مؤقتة واصبح واضحاً إن الانكليز يهيئون لتحويل العراق الى كيان سياسي (مستقل) وموحد كانت العوائل ذات النفوذ في البصرة تتوجس من هذا الامر . وقد قدمت عريضة موقعة من اكثر من (٤٥٠٠) اسم ، بواسطة (فريق من كبار التُجار والملاكين) الى السلطات البريطانية تطالب بـ « جعل البصرة كياناً سياسياً خاصاً والمحافظة على روابطها الخاصة مع الانكليز ، مع الاعتراف بملك واحد على جميع انحاء العراق »[١٢٣] . وفي الوقت نفسه فإن عريضة مضادة موقعة من قبل القوميين العرب وتطالب بالوحدة التامة مع بقية انحاء العراق لم تستطع ان تجمع اكثر من (١٠٠٠)[١٢٤] توقيع . وفي ١٣ نيسان / ابريل ١٩٢١ ، ابرق السير برسي كوكس الى وزارة الخارجية البريطانية يبلغها فيها بهذه المطاليب التي قدمها اليه احمد صانع باشا (وهو تاجر ثري ، من مؤيدي طالب ، واصبح فيما بعد وزيراً للدولة)[١٢٥] . الا انه بفضل معارضة كوكس قبرت هذه المحاولة وهي في المهد . والواقع ان طالب نفسه اقترح على الكابتن كلايتن انه « قد يكون من الضروري فصل البصرة عن بغداد والموصل »[١٢٦] .

---

(١٢٢) F.O. 882 / 13 / MES, «Memorandum: The Arab Movement and Its Possible Future, Autumn 1915,», and Hans Kohn, *A History of Nationalism in the East*, trans. by Margaret M. Green (London: Routledge, 1929), p. 279.

(١٢٣) F.O.371/6352/9842.

(١٢٤) المصدر نفسه .

(١٢٥) F.O.371/6350/4953.

(١٢٦) Sir Arnold Talbot Wilson, «Miscellaneous Papers,» British Museum, Department of Manuscripts, (no. 52457), and

مذكرة من الكابتن أ . ن . كلايتون في ٢٢ آب / اغسطس ١٩٢٠ الى ارنولدت . ولسون حول مقابلة مع طالب باشا . وقد ذكر كلايتون في ايضاحه لموقف طالب : « ربما كان هذا مجرد رغبة في اظهار ولائه لنا واستعداده للمضي الى اقصى ما =

ثانياً : انحسار النشاط القومي العربي داخل العـراق خـــلال ١٩١٤ - ١٩١٨

عندما نشبت الحرب ، اخذ القوميون العرب على حين غرة ، وكـان عليهم ان يختاروا إما تأييد الغرب واما مسـاندة (البـاب العالي) . وقـرر الهاشميـون مسانـدة بـريطانيـا وفق شروط معينة . الا ان فريقا اخر من القوميين العرب ، من ذوي النزعـات الاصلاحيـة الاسلاميـة ، قليلي العدد نسبيـاً غير انهم واسعو النفـوذ ، تخوفـوا من الخطر المتمثـل في الاحتلال الانكلو- فرنسي ، وقرروا مساندة تركيا .

وكـان في مقدمـة هؤلاء شكيب ارسلان (١٨٦٩) - ١٩٤٦) الـذي كان كـاتباً وسيـاسياً نشيطاً وصديقاً لمحمد عبده ورشيد رضا ويؤمن بمزيج من القومية العربية والاسلاميـة . وكان يقول ان استقلال العرب هو حلمه الدائم الا ان انحلال الامبراطـورية العثمـانية سيؤدي الى خضوع العرب لفـرنسا وانكلتـرا وكذلـك كان الامـر مع محمـد كرد عـلي (المتوفى ١٩٥٣) ، الكاتب المؤرخ والمعلم الاسلامي ، فقد دافع عن العرب ضد الاتـراك وطالب بـاستقلالهم ، وخلال الحرب انحاز الى جانب الاتراك ونشرت جـريدتـه (الشرق) النص السـري لاتفاقيـة سايكس - بيكو (دمشق ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧)[١٢٧] . والـذي يبدو ان البـلاشفة سربوا نصوص هذه المعـاهدة الى الاتـراك . واثار نشـرها استيـاء هائـلاً في صفوف القـوميين العـرب . الا ان غالبيـة القوميـين العرب كـانوا مضـطربين وغـير قـادرين عـلى اتخـاذ مـوقف حاسم . وباختصار : كان اختيار هذا البديل او ذاك مسألة مفتوحة ، تتقـرر نتيجتها بـالقدرة (الاقناعية) لأي من الجانبين (التركي او البريطاني) .

كان رد الفعل العـام للجمهور العـراقي تجاه الغـزو البريـطاني ، في ايامـه الاولى ، هو التـوجس والسخط . ودعا العلماء المسلمـون الى الجهاد ، وهجـر الموظفـون العـرب دوائـرهم وانسحبوا مع الاتراك المتقهقرين ، وحافظ الضباط العـرب على ولائهم لـرؤسائهم الاتـراك . الا انـه قبل مـرور عامـين ، بدأ الانفصـام يـظهـر في التكتل التـركي - العـربي . فـالهـزائم العسكرية ، وسياسة الاتراك الشوفينية ، وانتشار المجـاعة والمشـاعر المنـاوئة للحـرب ، وشنق القوميين العرب في سوريا ، وثورة الحجاز ، وانتفاضات النجف وكربلاء ، ومذبحـة الحلة ،

. تمكن في سبيل البقاء معنا ، او ربما كان مدفوعاً بعدم التأكد من نفوذه في الولايتين الشماليتين ، ورغبته في تأمين البصرة على الاقل لنفسه » .

(١٢٧) شكيب ارسلان ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهـم؟ ط ٣ (القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٣٩) ، ص٧٨ - ٩٥ ؛ ارسلان ، سيرة ذاتية ، ص٦٩ - ٧٠ و١١٠ - ١١١ ؛ محمد كرد علي ، مذكرات محمد كرد علي (دمشق : ١٩٤٨) ، ج١ ، ص١١٧ ومابعدها ، وجمال الدين الألوسي ، محمد كرد علي (بغداد : دار الجمهورية ، ١٩٦٦) ، ص ١٣ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٥٦ - ٥٩ و٩٢ - ٩٤ .

كانت كلها ، عوامل بددت اوهام التضامن التركي ـ العربي وشجعت القوميين على التقرب المتوجس من الانكليز(١٢٨) .

وكانت استجابات الانكليز لمحاولات القوميين العرب متباينة . ففي الحجاز وسوريا ، كانت السياسة البريطانية ، بعد عام ١٩١٦ ، ودية ومشجعة(١٢٩) . وعلى الضد من ذلك ، تجاهل الانكليز في العراق اية مساعدة كان يمكن ان يقدمها لهم الوطنيون العراقيون . وحسب تعبير لورنس : « كانت بريطانيا لسوء الحظ تتفجر بالثقة في احراز نصر سهل ومبكر : كان تحطيم تركيا يسمى نزهة . ولذلك امتنعت الحكومة الهندية عن تقديم اية تعهدات للقوميين العرب . . . »(١٣٠).

كان هذا التباين في الموقف البريطاني عاملاً آخر في تعميق الانقسام في الحركة القومية العربية . فالقوميون في سوريا والحجاز وجدوا لزاماً عليهم ان يتخذوا موقفاً موالياً لبريطانيا ، اما في العراق فقد كانوا يشكون في نوايا بريطانيا . وفضلاً عن ذلك كان الموقف البريطاني في العراق مسؤولاً عن انحسار الحركة القومية خلال ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .

إن صفات السيد طالب جعلته المرشح الاول لقيادة انتفاضة عربية موالية ـ موضوعياً ـ لبريطانيا . وفي تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٤ ، بادر طالب الى الاتصال بالانكليز ، عن طريق شيخ المحمرة ، وعرض القيام بثورة عربية في البصرة مقابل اعترافهم به كزعيم محلي(١٣١). وكان من رأي الانكليز انه قد (بالغ) في المطاليب التي طرحها(١٣٢) ، وفي ٢٤ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٤ اصدرت حكومة الهند تعليماتها الى ممثلها السياسي في الخليج العربي آنئذٍ (السير برسي كوكس) بأن « ينصح طالب بأنه ، في حالة نشوب الحرب بين بريطانيا وتركيا ، يجب ان يبقى في البصرة وينسق جهوده مع ابن سعود وشيخي الكويت والمحمرة لصيانة المصالح البريطانية في البصرة »(١٣٣) . وجاء في البرقية انه ، في مقابل ذلك ، يتعهد الانكليز باعطائه الامتيازات التالية :

---

(١٢٨) Frederick James Moberly, ed., *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918: History of the Great War Based on Official Documents*, 4 vols. (London: H.M.S.O., 1923-1927), vol. 1, p. 133.

(١٢٩) Elizabeth Monroe, *Britain's Moment in the Middle East, 1914-1956* (London: 1965), Her quotation of Sykes' Paper no. 1, «Kitchener's Letter to Hussein, November 1914,».

(١٣٠) Thomas Edward Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph* (Harmondsworth, Eng : Penguin, 1969), p. 58.

(١٣١) Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers-Cmd 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia*, p. 2.

وقد اورد فيضي شروط طالب بشكل مبالغ فيه ، انظر : فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات ، ص ١٨٨ ـ ١٩٠ ، حيث يدعي ان طالب اشترط عدم احتلال البصرة من قبل القوات البريطانية والاعتراف بالعراق دولة مستقلة . ويظهر ان هيفاء النقيب قد قبلت برواية فيضي : المصدر نفسه ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(١٣٢) F.O. 882 / 25 / 17, «History of Sayyid Talib and His Family, Dated 30 August 1916,».

(١٣٣) F.O. 371 / 2144, «Tel. from Secretary of the Government of India in the Foreign and Political Department, Simla, to the British Residence in the Persian Gulf, Basrah, 24 August 1916,».

«١ ـ اعفاء بساتين النخيل العائدة له من الضرائب .

٢ ـ حمايته من اضطهاد الاتراك .

٣ ـ احتفاظه بكافة الامتيازات التي ورثها هو والنقيب (والده) »[١٣٤] .

بغض النظر عن الشروط التي طرحها طالب لخدمة الانكليز فمن الواضح ان حكومة الهند قد رفضت حتى الحد الادنى من شروطه ، وتجاهلت مطالبه السياسية كلياً . الا ان طالب ، الذي كان اكثر طموحاً من ان يغريه (البخل) البريطاني ، والذي اقلقته (دعوات) انور باشا الملحة المستمرة للحضور الى الآستانة ، كما انتابته الحيرة ازاء نتيجة الحرب ، قرر ان يحل مشكلته الملتهبة بالخروج منها نهائياً . فذهب الى الكويت ، ودخل الانكليز البصرة منتصرين ، وكتب طالب الى كوكس (الذي كان آنئذٍ الضابط السياسي الاول في قوات الحملة الهندية) يعرض عليه استسلامه ويطلب نفيه الى الهند . وفي ١٩ كانون الثاني / يناير ١٩١٥ ، غادر طالب البصرة متوجهاً الى بومباي .

ان البيانات البريطانية الاولى الموجهة الى العراقيين ، على العكس من بيان الجنرال مود الى اهالي بغداد ، والذي اعلن في ظروف تاريخية مختلفة (١٩ آذار / مارس ١٩١٧)، قد تحاشت تماماً اي وعود سياسية او الاشارة الى مستقبلهم السياسي ، ولم تتعد البيانات الاولى ذكر عموميات من النوع التالي : « ان الحكومة البريطانية ليس لها نزاع مع السكان العرب على ضفة النهر ، وطالما اظهر السكان مشاعرهم الودية وامتنعوا عن تخبئة الجنود الاتراك او حمل السلاح فليس ثمة ما يخشونه وسوف لا يصيب اشخاصهم او اموالهم ضرر »[١٣٥] . او : « وفي الختام ، فإنكم احرار تماماً في ممارسة مهنكم واعمالكم كالمعتاد »[١٣٦] .

الا ان نائب الملك في الهند كان اكثر تخصيصاً في خطابه الذي القاه امام الجالية البريطانية في البصرة ، حيث قال : « وفي اية تسوية يتم التوصل اليها بعد هذه الحرب العظمى ، بامكانكم ان تكونوا مطمئنين الى ان ثمة اجراءات ستتخذ لحمايتكم وحماية مصالحكم »[١٣٧] .

ولكن الزحف الظافر لم يتم بسهولة . فقد شهد شتاء ١٩١٥ ـ ١٩١٦ انتكاستين عسكريتين فادحتين للقوات البريطانية . فقد اضطرت الفرق البريطانية ، خلال الاسبوع الاخير من كانون الاول / ديسمبر ١٩١٥ والاسبوعين الاولين من العام الجديد ، الى اخلاء شبه جزيرة كاليبولي (التي تشرف على الدردنيل) ، والتسرب الى مصر ، وبالنسبة للجنرال ماكسويل (قائد القوات البريطانية في مصر) كانت عملية الجلاء هذه تعني تجدد

---

(١٣٤) Ibid., and Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers-Cmd. 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia.*

(١٣٥) F.O. 371/5153, «British Proclamations in Iraq no.4, Signed by P. Cox, Dated 5 November 1911,».

(١٣٦) F.O., Ibid., no. 5, «22 November 1914,».

(١٣٧) F.O., Ibid., no. 6, «Speech by H.E. the Viceroy of India, «16 February 1915,».

الخطر على مصر وقناة السويس . وعلى الجبهة العراقية ، لقيت القوات البريطانية ، بعد زحف متهور على سلمان باك ، مقاومة تركية عنيفة اضطرتها الى التراجع الى الكوت والتحصن فيها . وكان ذلك بداية مأزق الكوت ، الذي واجه فيه الانكليز حصاراً عسكرياً محكماً من قبل خليل باشا وقواته . ومن كانون الاول / ديسمبر حتى نيسان / ابريل ، فشلت جميع الجهود البريطانية لفك الحصار . ونتيجة ذلك ، اضمحلت مقاومة الجنرال تاوسند ، وفي ٢٩ نيسان / ابريل ١٩١٦ استسلم هو ورجاله البالغ عددهم (١٣,٣٠٩) دون قيد او شرط[١٣٨] .

لم تعد بريطانيا (تتفجر بالثقة)[١٣٩] . وكان اتجاه الحرب في ذلك الوقت يبرر موقفاً اكثر تساهلاً واقناعاً تجاه العرب . وبعد مناقشات مطولة ، اختتم مكماهون مراسلاته مع الحسين في ٣٠ كانون الثاني / يناير ١٩١٦ ، ملزماً بريطانيا بـ (تنازلات) جدية لتلبية المطاليب العربية . وارسلت وزارة الحربية لورنس الى البصرة ، في آذار / مارس ١٩١٦ ، فيما وصف بأنه « احدى اغرب المهمات في التاريخ العسكري البريطاني »[١٤٠] وهو تقديم مبلغ مليون باوند (زيدت الى مليونين) كرشوة لخليل باشا لفك حصار الكوت عن الانكليز ، وكلف لورنس ايضاً بالبحث في البصرة عن امكانيات قيام حركة عربية[١٤١] . وكان القوميون العراقيون مهيئين لمثل هذا الموقف . فقد اثارت حفيظتهم اجراءات الشنق الواسعة النطاق في بيروت ودمشق ، والفظائع في الحلة ، كما شجعتهم الانتفاضات الناجحة في النجف وكربلاء . وباختصار ، استناداً الى قول لورنس ، « كانت الظروف نموذجية للقيام بحركة عربية »[١٤٢] .

وفي الواقع ، عقد اجتماع مهم جداً ، لوجهاء بغداد في دار النقيب في اواخر ١٩١٥ ، لبحث الوضع ، واتخذ الاجتماع قراراً مهماً . فقد اقترح عبد اللطيف ثنيان ارسال

---

(١٣٨) انظر فيما يتعلق بحصار الكوت :

A.J. Barker, *The Neglected War: Mesopotamia, 1914-1918* (London: Faber and Faber, 1967); Edmond Candler, *The Long Road to Baghdad: Late Official «Eye-Witness» in Mesopotamia*, 2 vols. (London, N.Y.: Cassell, 1919); Sir W. Robertson, *Soldiers and Statesmen* (London: 1926), and Charles V.F. Townshend, *My Campangn in Mesopotamia* (London: Butterworth, 1920).

بالاضافة الى اعمال س. هـ . باركر .

(١٣٩) David Lloyd George, *War Memories*, 6 vols. (London: Nicholson and Watson, 1933-1936), vol 1 p 569

عند نهاية ١٩١٦ ، كان الموقف الحربي خطيراً الى درجة ان السير وليم روبرتسون (فيلد مارشال ، ورئيس اركان الامبراطورية العامة خلال ١٩١٥ - ١٩١٩) كتب في تقرير الى لويد جورج : « اننا في الوقت الحاضر نقوم عملياً بالانتحار » . انظر :

Lloyd George, Ibid., vol. 2, p. 1037.

(١٤٠) Philip Knightley and Colin Simpson, *The Secret Lives of Lawrence of Arabia* (London: 1969), p. 45

(١٤١) Ibid., pp. 45-49

(١٤٢) Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph*, p.59.

تأييد الى الانكليز ، يعرض تقديم المساعدة لهم. ووافق جميع المجتمعين[١٤٣] على هذا الاقتراح ، بمن فيهم يوسف السويدي . والغريب في الامر ان المعارض الوحيد كان عبد الرحمن النقيب (الكيلاني) الذي قال انه قد خدم الاتراك مدة طويلة ولا يسعه الانقلاب عليهم[١٤٤] . ويبدو ان بعض الحاضرين سرّب اخبار الاجتماع للسلطة العثمانية[١٤٥] .

الا ان مهمة لورنس المشينة الاولى فشلت ، بفضل نزاهة خليل باشا . كما خابت مهمته الثانية بسبب (جهل)[١٤٦] الموظفين البريطانيين في العراق الذين احبطوا خططه ، « حيث ان حكومة الهند كانت تعارض في تقديم اي تعهد للقوميين العرب »[١٤٧] .

واستناداً الى فيضي ، يبدو ان لورنس ، خلال اقامته في البصرة ، قابله مرتين في ٧ نيسان / ابريل ١٩١٦ ، لبحث شروط الحركة العربية في العراق[١٤٨] . وكانت حجج لورنس تستند على الافتراض بأنه اذا ثار عرب العراق ضد الاتراك ، فسوف تضمن بريطانيا لهم الحرية والاستقلال . وقد ذكر انه لا توجد لدى الحكومة البريطانية او الشعب البريطاني اية نوايا استعمارية ازاء العراق . ويدعي فيضي ان لورنس عرض عليه تقديم كافة المساعدات والامكانيات المتوفرة في حالة قبوله قيادة الثورة المقترحة . وقد اخبر فيضي لورنس بأنه في حالة قبوله القيادة ، ينبغي ان تتوفر لديه خلفية اجتماعية معينة اعترف بتواضع بأنه يفتقر اليها . ويؤكد فيضي ان دافعه السلبي الاخر كان ارتيابه العميق في اطماع بريطانيا السرية ، مقترناً بإيمانه الراسخ بوجوب عدم التحالف مع الانكليز على حساب الاتراك ، مهما كانت حدة الصراع بين الطموح القومي العربي والاضطهاد التركي القصير النظر[١٤٩] .

ولو كان الانكليز جادين حقاً في اثارة انتفاضة عربية لكان مرشحهم الاكثر رجحاناً لقيادة هذه الانتفاضة هو السيد طالب ، بدلاً من شخصيات مثل فيضي او احمد باشا الصانع . ويبدو ان نفي طالب واطماعه الملتهبة قد حطمت كبرياءه السياسي . ففي ١٥ اب / اغسطس ١٩١٦ ، رفع طالب التماساً الى اللورد غلسفورد (نائب الملك في الهند)

---

(١٤٣) المجتمعون هم : موسى كاظم الباجه جي ، جميل زاده عبد الرحمن ، يوسف السويدي ، يوسف الباجه جي ، عبد الرحمن النقيب ، عبداللطيف ثنيان ، ورشيد الهاشمي .

(١٤٤) F.O.371.2771;F.O.371 4150,andF.O 371 126993.

(١٤٥) المصدر نفسه ، ان هذا التلميح ليس مؤكداً . الا انه بعد فترة قصيرة من عقد الاجتماع ، حاول الاتراك اعتقال ثنيان والهاشمي ، ولكنهما هربا . وقد اعتقل السويدي وحكم عليه بالاعدام ، ولكنه نجا من الموت بفضل تدخل محمد فاضل باشا الداغستاني ، الا انه نفي الى الاناضول .

(١٤٦) Knightley and Simpson, *The Secret Lives of Lawrence of Arabia*, p. 50, and Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph*, pp. 58-60

(١٤٧) Lawrence,Ibid ,pp.58-60.

(١٤٨) فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات ، ص ٢٠٦ - ٢٦٦ .

(١٤٩) كان فضل لورنس متجهاً بالدرجة الرئيسة نحو حزب العهد ورجال مثل ياسين الهاشمي وعزيز علي ورشيد رضا (وهم القوميون الذين كانوا يرفضون التعاون مع الانكليز) .

يعرض فيه خدماته . وقد اعتذر عن موقفه اللاتعاوني خلال الايام الاولى للحرب ، وعزا ذلك الى احترامه للمعاهدة المعقودة بينه وبين الاتراك . الا ان هذه المعاهدة كانت قد الغيت على يد الاتراك الذين اتهموه بالخيانة العظمى (جريدة المقطم ، القاهرة ١٢ / ٧ / ١٩١٦ ، ص ٥ ، الفقرة ٣) . واختتم طالب رسالته بالقول : « اني مستعد تماماً لوضع نفسي تحت تصرف الحكومة البريطانية ومساعدتها بكل امكانياتي . . . اني في الوقت الحاضر لست صديقاً فحسب ، بل حليف ، وارغب في تكريس نفسي وامكانياتي لاية خدمة لقضية بريطانيا »(١٥٠) .

وقد ابرقت سملا الى البصرة تبلغها بعرض طالب(١٥١). والظاهر ان السلطات في البصرة لم تهتم بالموضوع واحالت الطلب الى القاهرة(١٥٢) . وقد اجاب المندوب السامي في مصر الى سملا بما يلي : « نأسف لعدم التمكن من الاستفادة من خدمات السيد طالب »(١٥٣) .

وفضلاً عن ذلك ، ففي اوائل ١٩١٧ ، ابرق رئيس الأركان الامبراطورية العامة ، متأثراً بالنجاحات العسكرية العربية قرب الجبهة المصرية ، الى الجنرال مود (اللفتنانت - جنرال ، قائد القوة البريطانية في العراق من آب / اغسطس ١٩١٦ الى ١١ آذار / مارس ١٩١٨) يقترح تحريك النشاط العسكري العربي الى خطوط الفرات للضغط على الاتراك(١٥٤) . وقد عارض مود هذا الاقتراح ، وذكر انه اذا سمح للعرب بالتسلح يوماً ما « فمن المحتمل جداً ان يشهروا السلاح ضدنا في اليوم التالي »(١٥٥) . وكان مقتنعاً بوضوح بأن العرب ، في حالة تسلحهم ، « سيشكلون دائماً اخطاراً محتملة »(١٥٦) .

ان جميع هذه المواقف المتتالية لم تكن عفوية ولا نتيجة (الجهل) المحض . بل كانت على العموم ، جزءاً من سياسة نفذتها سلطات الهند التي كانت تدير الحملة عسكرياً وسياسياً . الا انه من المهم ان نشير الى ان هذه الخطة لم تكن - بالضرورة - تتطابق مع السياسة البريطانية(١٥٧) . يكفي في هذا الصدد ان نذكر العبارات اللاذعة التي قوّم بها رئيس

---

(١٥٠) Lawrence, Ibid . and F.O. 371 / 2144, «Tel. from Secretary of the Government of India in the Foreign and Political Department, Simlla, to the British Residence in the Persian Gulf, Basrah, 24 August, 1916.»

(١٥١) المصدر نفسه ، وفيضي ، في غمرة النضال: مذكرات، ص١٦٧ . وقد اخبر لورنس فيضي ان السلطات البريطانية تفضل عدم عودة السيد طالب .

(١٥٢) F O 371/2783, «11 September 1916,».

(١٥٣) Moberly, *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918: History of the Great War Based on Offical Documents*, vol. 4, p. 21.

(١٥٤) Ibid .vol 4.p 10

(١٥٥) Ibid .vol 4.p 11

(١٥٦) لم تستلم وزارة الحربية البريطانية زمام السيطرة التامة على حملة العراق الا في ١٨ حزيران / يونيو ١٩١٦ .

انظر :

Lloyd George, *War Memories*, vol. 2, p. 806.

(١٥٧) Great Britain, *Parliamentary Papers-Cmd. 8610: Report of the Commission Appointed by*
= *Act of Parliament to Enquire into the Operations of War in Mesopotamia Together with a Separate*

وزراء بريطانيا الطريقة التي اديرت بها حملة العراق . فقد كتب لويد جورج : « ان الحقائق التي يكشف عنها تقرير هذه اللجنة[١٥٨] تلقي ضوءا كاشفا على سوء التصرف ، والغباء ، والاهمال الاجرائي والعجز المذهل للسلطات العسكرية التي كانت مسؤولة عن تنظيم الحملة »[١٥٩] .

ان مثل هذا الموقف البريطاني في العراق[١٦٠] ساهم في اخماد الحركة الوطنية[١٦١] . فقد ضعفت الحركة الوطنية العراقية الناشئة الى درجة جدية نتيجة ضربات عديدة تلقتها خلال اعوام ١٩١٤ - ١٩١٨ . وكان الاتراك بدورهم غير واثقين من عرب العراق[١٦٢] . فاتخذوا جملة من التدابير السياسية القمعية ضد القوميين العراقيين النشطين[١٦٣] . ان كل حركة ، لاسيما في مراحلها الاولى تحتاج بوجه خاص الى القيادة ، وبنتيجة نفي طالب والسويدي وتجزؤ القوميين الشباب ، ضعفت هذه القيادة عملياً . وفضلاً عن ذلك ، فإن الحرب التي حملت للعراق القلق ، والعذاب ، والاحكام العرفية والاضطهاد المزدوج ، كانت عاملا اخر في غياب برنامج او نشاط وطني موحد داخل العراق خلال اعوام ١٩١٤ - ١٩١٨ .

ان هذا الوضع خلق انطباعاً مغلوطاً لدى رجال الادارة البريطانية . فاعتقدوا ان العراقيين كانوا راضين عن الحكم البريطاني ، وان كل الاضطرابات التي جرت فيها بعد كانت من نتائج ليبرالية الصحافة البريطانية ، والتصريح الانكلو- فرنسي ، ونقاط ولسن الاربع عشرة. ان هذه النظرة، وان لم تكن غير مبررة كليا، قد تجاهلت العوامل الانفة الذكر ، كما انها تجاهلت واقع ان الادارة البريطانية لم تشمل المدن المقدسة (كربلاء والنجف) ومناطق الفرات الاوسط ، الا بعد عام ١٩١٨ . وفضلا عن ذلك ، فإنها قللت من شأن السخط الوطني الذي ابداه العراقيون تجاه الحكم الاجنبي (كما تجلى في حركة الجهاد خلال اعوام ١٩١٤ - ١٩١٦) ومغادرة الموظفين العراقيين اماكن اعمالهم بصورة واسعة النطاق ، واضطرابات النجف عام ١٩١٩ ، التي كانت موجهة ضد الانكليز ، وانتفاضات النجف وكربلاء والحلة عام ١٩١٦ التي كانت موجهة ضد الاتراك) . كما انها تعامت عن نشاط الضباط العراقيين القوميين في الحجاز وسوريا .

Report by Commander J. Wedgwood, DSO, Mesopotamia Police and Appendices (London: H M S O., 1917).

(١٥٨) L. George, Ibid., vol. 2, p. 808.

(١٥٩) Philip Graves, *The Life of Sir Percy Cox* (London: Hutchinson, 1941), p 193

(١٦٠) ابعاد طالب ونوري السعيد ، وتقييد الصحافة ومنع نشر انباء حركة الحجاز ، وعدم السماح للضباط العراقيين بالبقاء في العراق خلال الاعوام ١٩١٤ - ١٩١٨ ، او بالعودة الى العراق خلال الاعوام ١٩١٨- ١٩٢٠ .

(١٦١) Moberly, *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918: History of the Great War Based on Official Documents*, vol. 1, appendix 6, «Summary of a Pamphlet by the Ottoman Staff Bimbashi Mohamad Admin: The Turco-British Campaign in Mesopotamia and Our Mistakes,» pp. 352-355

(١٦٢) فمثلاً صدرت اوامر بإلقاء القبض على القوميين العراقيين التالية اسماؤ هم : الازري ، الدجيلي ، شكر ، ثنيان ، الباجه جي ، العمر ، الطبقجلي ، الاعرجي ، صليوه ، الكرملي ، الهاشمي ، وقد هرب بعضهم الى البصرة في حين تم القبض على البعض الاخر .

(١٦٣) Bertram Thomas, *Alarms and Excursions in Arabia* (New York: 1913), p 68

الفصل الرابع

النشاط السياسي في مناطق الفرات الاوسط

بعد الاطلاع على الكتاب الذي ظهر اخيراً للدكتور نفيسي[1] ، اصبح من الممكن اختصار هذا الجزء . ومع ذلك ، فإن الدور المهم الذي لعبه ابناء الفرات الاوسط ، سواء أكانوا من المجتهدين ام المثقفين ، يثير على الاقل سؤالين . ان هذا الاشتراك الفعال في الحركة الاستقلالية العراقية ، والوحدة الشيعية ـ السنية البالغة الدلائل خلال اعوام ١٩١٨ - ١٩٢١ ، هما حقيقتان ثابتتان، وسنحاول في هذا الفصل ان نتقصى الجذور التاريخية لهذه العملية . اما بالنسبة للشكل العملي للاشتراك والوحدة الآنفي الذكر ، فسنبحثهما في الموضع المناسب .

اولاً : الجوهر السياسي للعقيدة والتقاليد الدينية

الى جانب بعض الطقوس والعقائد الدينية ، فإن العقيدة الاساسية في الفكر الشيعي هي الايمان بـ (الإمامة) . وحول هذه العقيدة يقوم الخط الفاصل بينهم وبين الطوائف الاسلامية الاخرى[2] ، فهم يؤمنون بأن الامامة ضرورة دينية ، وكان يجب ان تنحصر في عليّ واولاده من فاطمة .

ان هذه العقيدة تكشف عن الجوهر السياسي لهذا الايمان . ففي خلفيته ، ليس ثمة حاجز بين السياسة والدين . وقد كتب البرت حوراني : « بدأت الشيعة ... كحركة سياسية في

---

(١) A.F. al-Nafeesi, «The Role of the Shi'ah in the Political Development of Modern Iraq, 1914-1921,» (Ph.D. dissertation, Cambridge University, 1972).

(٢) محمد حسين آل كاشف الغطاء ، اصل الشيعة واصولها ، ط٩ (بيروت : [د.ت.])، ص ١٠٧ - ١١٣ .

القرنين السابع والثامن . . . ويؤمن الشيعة بأن محمداً وخلفاءه الائمة هم وحدهم ذوو القدرة والعصمة على تفسير كلمة الله تفسيراً حقاً وتوجيه المجموع ، وان اطاعة الامام هي منبع الفضيلة . . . »[٣] .

وكان جزءاً عضوياً من عقيدتهم ، ان يرفضوا ويقاوموا اي (سلطان جائر) . وقد اعتبروا معظم الخلفاء غاصبين . وهذا مما الحق بهم اضطهاداً وقمعاً متواصلين ، وبنتيجة ذلك ، ارهف وعيهم السياسي واشتدت الوحدة والتضامن في صفوفهم ، كما اكتسب ايمانهم طابعاً جهادياً ، وراديكالياً بعض الشيء[٤] . وباختصار ، فإنهم مثّلوا معارضة دائمة واحترافية للمسلمين الحاكمين . ومن جهة اخرى ، طوّروا مفهوم (التّقيّة) الذي يسمح لهم باخفاء بعض آرائهم خشية الاكراه او التهديد بالايذاء[٥] .

وفي اطار مثل هذا الايمان ، والتاريخ والتقاليد ، كان تحاشي السياسة امراً متعذراً . وفضلاً عن ذلك ، كانت ثمة عوامل اخرى حددت الانغماس العميق والفعال للمجتهد في السياسة ، وهي الاجتهاد واعتماده المالي والمنصبي على الارادة العامة .

ان المسلم الجيد عليه التمسك بتعاليم القرآن والسنة . فإذا لم يسعفه ذلك ، فعليه اتباع (الاجماع) و(الاجتهاد)[٦] . وبمرور الزمن ، وزيادة تعقيدات الحياة ، ازدادت اهمية الاجتهاد مع الحاجة الى حلول للمشاكل الجديدة التي تواجه المسلمين في عالم متغير . ولاسباب مختلفة ، قرر العلماء السنيون اقفال باب الاجتهاد[٧] ، في حين استمر الشيعة في الاعتماد عليه كمرشد ديني رئيسي . ومن الجدير بالذكر ان ايقاف الاجتهاد لم يكن بسبب رفض علماء السنة (للعقل) ، بل كان حفاظاً على (الاسلام) من فساد الحكام الاجانب الذين كانوا احياناً ـ بالترهيب ـ يفرضون على العلماء اصدار (فتاوى) غير نزيهة ولا تنسجم مع تعاليم الاسلام . ولقد دعا ابن تيمية وابن قيم الجوزية الى اعادة فتح باب الاجتهاد . كما فعل ذلك محمد عبده والكواكبي . وكذلك الشيخ شلتوت (شيخ الازهر) المعاصر .

---

(٣) Albert Habib Hourani, «Arabi Culture,» *The Atlantic Monthly*, vol. 198 (October 1956), p. 126.

(٤) محمد جواد مغنية ، الشيعة والحاكمون (بيروت : المكتبة الاهلية ، ١٩٦١) ، ص ٢١ .

(٥) Al-Nafeesi, «The Role of the Shi'ah in the Political Development of Modern Iraq, 1914-1921,» p. 35.

(٦) الاجماع هو اتفاق العلماء المسلمين ، في زمن معين ، على حكم موحد في قضية دينية او قانونية . اما الاجتهاد فهو تفسير العلماء لأمر ديني معين في القرآن ومضامينه بالنسبة لقضية غير مذكورة في القرآن او السنة . وكانت الاشكال الاربعة للاجتهاد ، حسب قوتها الدينية ، هي : القياس والاستحسان والاستصلاح والاستصحاح .

(٧) من الجدير بالذكر ان «ايقاف» الاجتهاد ، لم يكن بسبب رفض علماء السنة « للعقل » . بل كان حفاظاً على « الاسلام » من فساد الحكام ، وبخاصة الجند الاجانب الذين كانوا احياناً ـ بالترهيب ـ واحياناً ـ بالترغيب ـ يفرضون على العلماء اصدار « فتاوى » غير نزيهة ولا تنسجم مع تعاليم الاسلام .

وفي عصور لاحقة ، دعا ابن تيمية وابن قيم الجوزية الى إعادة فتح باب الاجتهاد . وفي بدايات القرن الحالي جدد محمد عبده والكواكبي هذه الدعوة . كذلك فعل الشيخ شلتوت (شيخ الازهر) خلال فترة حكم جمال عبد الناصر . ولقد ادخل شلتوت الفقه الجعفري للتدريس في الازهر واعتبره احد المصادر الاساسية للفقه والاجتهاد بالاضافة الى المذاهب الاربعة الاخرى .

وكـانت نتيجة ذلـك هي تعزيـز مركـز المجتهدين بـالسمـاح لهم بـالاستمـرار في تسيـير تصـرفات اتبـاعهم : وقد قيـل انه « في الاسـلام الشيعي لا يزال ثمة مجتهدون مـطلقـون . ذلـك انهم يعتبـرون ناطقيــن بلسـان (الامـام المختبىء)[٨] . وهـذا المـركـز يختلف تمـاماً عن مـركـز (العلماء) بـين السنة »[٩] .

إن هذه الحقيقة ذاتها اكسبت المجتهدين نفـوذاً كبيراً جـداً ، فمثلاً ، لم يجـر ذكر التبـغ والتدخين في القـرآن ، ولذلـك لم يكن المسلمون ممنـوعين من التـدخين . وفي عـام ١٨٩٠ ، اعطى شاه ايران ، ناصر الدين ، احتكار التبغ الى شركة بريطانية . واثار هذا الامتياز ضجـة كبرى في ايران وتدخل العلماء في الامر . ويصفـ أ . ج براون تطور المشكلة : « في اوائل كانون الاول / ديسمبر ١٨٩١ ، وصلت رسالة من مجتهد سامراء ، الحـاج ميرزا حسن الشيـرازي ، تدعـو الناس الى التخـلي التام عن التبـغ الى ان يتم الغاء الامتيـاز . . . وفجأة وبتـوافق تـام . . . اغلق تجـار التبـغ حـوانيتهم ، ووضعت الغلايين جـانباً ، ولم يعـد احد يـدخن ، لا في المدينـة ، ولا في حاشيـة الشاه ، ولا حتى في حجـرات النساء . فيا للانضباط ، ويا للطاعة ، عندما يتعلق الامر بالخضوع للارشادات او بالاحرى للاوامر التي يصدرها الملائيون ذوو النفوذ او المجتهدون المشاهير »[١٠] .

وثمة عامل أخر اسهم في تعزيز مركز المجتهد ، وهو التفاعل العميق بينه وبين اتباعه ، والذي كان يتجلى في تحديد مركز المجتهد الديني ووضعه المالي .

كانت اهمية المجتهد وارتفاع مركزه ينحصران بالدرجة الرئيسية بعدد اتباعه ومدى انتشار شهرته . ولكي يصبح المرء مجتهدا ، كان عليـه ان يبقى في النجف ويدرس عـلى يدي مجتهـد كبير لمدة تصل الى (٢٥) عاماً . فإذا اثبت جـدارته من خـلال تقواه ، وتـوّحده ، وسلوكـه ، وتفهمه الديني ، كان يمنح اجازة في الاجتهاد ، تزوده بالقدرة على اصدار الفتاوى[١١] .

ولأجل ان يصبح المرء مجتهداً ذا مركز معترف به ، كان عليه ان يجمع حوله الرجال ذوي المعرفة الواسعة ويرسلهم الى كافة انحاء المعمورة للتبشير بشهرته . ويتسع نفوذه بـالتدريـج ، حتى يعترف به في النهاية من عموم الناس كواحد من اعاظم المجتهدين[١٢] .

---

(٨) بمرور الزمن ، انقسم الشيعة الى عدة مدارس او نحل . وكان الشيعة العراقيون ينتمون الى الجعفرية او الاثني عشرية وهم يؤمنون بالاثني عشر اماماً ، المتحدرين من علي .

(٩) *The Encyclopaedia of Islam* (1913), vol. 2, pp 248-249, and vol. 4, pp 350-358.

(١٠) Edward G[ranville] Browne, *The Persian Revolution, 1905-1909* (Cambridge: Cambridge University Press, 1910),p. 51.

(١١) اما الاخرون الذين لم يبلغوا هذا المركز السامي ، بسبب رسوبهم في الامتحان بالدرجة الرئيسية ، فكانوا يعرفون بالملائية ، او المؤمنين او المتدينين ، او المقلدين . وهؤلاء يصلحون لاستلام الخيرات وتسوية القضايا الشرعية الثانوية ، ولكنهم لا يستطيعون اصدار الاحكام . وثمة أخرون اصبحوا يعرفون بالوكلاء او المعتمدين ، وهم يمثلون المجتهدين ويتصرفون بالنيابة عنهم . انظر :

Colonial Office [C.O.] 696/ 1 , «Administration Reports, Najaf and Shamiyah, 1918,» p. 105.

(١٢) المصدر نفسه .

ان اعلى مركز في التسلسل الديني هو المجتهد الاول . وهذا المركز هو الأخير ، لا يكتسب بالتعيين او الشهادة بل بالشعبية والمكانة . ومن الجدير بالذكر هنا ان بعض المجتهدين احرزوا جزءاً من مكانتهم عن طريق الاشتراك في السياسة بتأييد قضايا الشعب[١٣] ، وكذلك بالامتناع عن معارضة عادات الشعب او احاسيسه حتى عندما كانت معتقداتهم الخاصة تتناقض مع هذه الاحاسيس[١٤] .

ان دراسة الموارد المالية لرجال الدين والمؤسسات الدينية آنئذ تكشف عن اعتمادهم الكبير على التبرعات الشعبية اكثر منه على المساهمات الرسمية . وكان المورد الرسمي الرئيسي يأتي من الحكومة الفارسية آنئذ . اما المساهمة العثمانية فكانت متواضعة جداً[١٥] . وكان المورد الرسمي الثالث يأتي من الهند عن طريق (وقف عودة)[١٦] .

إن الجزء الاعظم من مالية رجال الدين كان يأتي من التبرعات الشعبية المتمثلة في الزكاة ، و(الخمس) ، و(رد المظالم) ، و(حق الوصية) ، و(النذور) وعدد لا يحصى من الهبات والخيرات ومصروفات الحجاج[١٧] . وهذا يدل على ان المجتهدين ، كانوا يعتمدون الى درجة كبيرة على الجمهور.

وبناء على هذا التفاعل العميق بين المجتهدين والجماهير ، كان من الصعب على المجتهدين ان يبقوا بمعزل عن السياسة ، لاسيما عندما كانت القضايا السياسية ذات اهمية عميقة للجمهور الواسع . وفي هذه الاحوال ، كان تدخلهم في السياسة يكاد يكون امراً محتوماً . كان عليهم ان يواجهوا ضغطاً متزايداً وملحاً بالانحياز الى جانب معين في القضايا السياسية ، وكانوا غير قادرين على مقاومة هذا الضغط . وقد كتب ونغيت ، الحاكم السياسي في النجف والشامية : « . . . وان المجتهد الكبير الذي تستند سلطته على الشعبية ، مضطر الى الموافقة ووضع اسمه على بيان فيكون له نتائج خطيرة »[١٨] .

---

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧ ـ ٦٨ و ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(١٤) علي حسين الوردي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي : محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الاكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث (بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦٥) ، ص ٢٣٠ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(١٦) انظر الصفحات التالية .

(١٧) الزكاة هي فرض ديني بدفع حصة من الارباح الى العلماء لتوزيعها على الفقراء . اما « الخمس » فيتألف من خمس الارباح . وكان ينبغي ايضاً دفع الثلث من اي ميراث الى المجتهدين بموجب « حق الوصية » . اما الذين يتقاضون رواتب من الحكومة فكان عليهم ان يدفعوا جزءاً من الراتب للمجتهدين (رد المظالم) . ويقدر عدد الزوار الذين كانوا يفدون الى النجف وكربلاء في المناسبات المهمة لا يقل عن ١٢٠٠٠٠ .
Thomas Reginald Lyell, *The Ins and Outs of Mesopotamia* (London: Philpot, 1923), pp. 43-55, and الوردي ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، ٢٤٧ ـ ٢٤٨ و ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

(١٨) G.O. 691/1, «Administration Reports, Najaf and Shamiya, 1918,» p. 66.

ثانياً : التطور التاريخي للعلائق المذهبية

كان المجتمع العراقي ، في اواخر القرن التاسع عشر ، يعتوره الصراع المستمر بين الطوائف الرئيسية . واتخذ الصراع شكلاً خطيراً عندما زج الشاه الفارسي بنفسه في هذا الصراع في اوائل القرن السادس عشر. ومنذ ذلك الحين ، اكتسب الصراع مزيداً من الاهمية عندما تدخلت فيه قوى اجنبية ، اي تركيا وايران[١٩] . وغني عن البيان ان مثل هذه الظروف عاقت ظهوروعي عربي عراقي او اي وعي وطني او قومي . ومع ذلك ، ففي عام ١٩٢٠ ، اظهر السنة والشيعة العراقيون وحدة ثورية ووطنية بالغة الدلائل .

ان ثمة عملية تاريخية تنطوي وراء ذلك . فإلى جانب التطور الاجتماعي ـ الاقتصادي ، كانت تجري تغيرات فكرية شجعت على تنامي هذه الوحدة . وكان مبعث ذلك هو قيام الحركات الدستورية في تركيا وايران على السواء ، والخوف المتزايد من التغلغل الاستعماري الغربي ، وتأثير افكار المصلحين الاسلاميين المعادية للطائفية . وكذلك ازدهار الافكار القومية العربية .

ففي آب / اغسطس ١٩٠٦ اعلن الدستور في ايران[٢٠] . وقد اثار ذلك صراعاً طويلاً في ايران بين الدستوريين وخصومهم ، انعكس في العراق نفسه . وكان الدستوريون يدركون تماماً ان نجاحهم يتوقف على كسب بعض كبار المجتهدين الى جانبهم . « وفي النهاية ، انتصروا بفضل الانحياز المحدد لـ (آخوند خراساني) الى جانبهم »[٢١] . وقد أعلن الخراساني (وهو المجتهد الاول) ـ آنئذٍ ـ في فتواه ان الخروج على الدستور هو بمثابة الخروج على تعاليم الاسلام نفسه[٢٢] . وقد ايده في فتواه عدد من المجتهدين الآخرين ، من بينهم الشيرازي

---

(١٩) اجبر السلطان الاول العلماء في عهده على تزويده بفتوى تبيح « ابادة » الشيعة (ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠) ، ص ٤٠) ، وقد زعم انه عند احتلاله العراق ذبح حوالى ٤٠٠٠٠ شيعي ،

Edward S. Creasy, *History of the Ottoman Turks* (Beirut: Khayat's, 1961), p. 256).

وفي عام ١٥٠٨ غزا الشاه الفارسي اسماعيل الصفوي العراق وقتل عدداً جسيماً من اعيان السنة ودمر اضرحة ابي حنيفة والكيلاني (محمد جواد مغنية ، دول الشيعة في التاريخ (بيروت : ١٩٦٥)، ص ١٢٧ ـ ١٢٩) ، وفي عام ١٦٢٤ ، قام الشاه عباس بعمل مماثل (عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ ج (بغداد : مطبعة بغداد الحديثة ، ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦) ، ج ٤ ، ص ١٧٧) . وفي عام ١٦٣٨ اعاد مراد الرابع احتلال بغداد وصب جام انتقامه على حوالى ٥٠٠٠٠ شيعي (Greasy, Ibid., p. 256) .

(٢٠) Browne, *The Persian Revolution, 1905-1909*, pp. 98 and 132.

(٢١) C.O. 691/1, «Administration Reports, Najaf and Shamiya, 1918,» p. 67.

(٢٢) محمد علي كمال الدين ، التطور الفكري في العراق (بغداد : ١٩٢٠) ، ص ٢٣ .

والاصفهاني[٢٣] . وفي تموز / يوليو ١٩٠٩ اقصي الشاه المناوىء للدستور[٢٤] وحل محله آخر اكثر تعاطفاً ، وقد ايد علماء النجف (الدستوريون) هذه الحركة واقاموا احتفالاً كبيراً[٢٥] . وعندما اعلن الدستور العثماني الثاني ، ارسل الخراساني ، بالنيابة عن المجتهدين (التقدميين) ، برقية الى عبد الحميد ، يطالب فيها بالاعتراف بالدستور كفرض ديني[٢٦] . وفي كلتا الحالتين امتنع السيد كاظم اليزدي عن اعلان تأييده[٢٧] .

اننا نشهد هنا اربعة احداث جديدة : بلوغ النجف (ذروة مكانتها كمركز للعواصف السياسية) وبروز علماء الدين كأداة قوية في النشاط والتحريك السياسيين ، وظهور تيارين متميزين بين العلماء انفسهم ، وهما التيار المتحرر او التقدمي ويقابله التيار المحافظ ، ورابعاً ، الاسهام الفعّال للعلماء وفتاواهم السياسية ، والذي خلق جواً جديداً تماماً في البلاد . ان المناظرات المفتوحة والمناقشات الصريحة في الجوامع والمدارس في النجف وغيرها ولدت وعياً عاماً في العراق ، وذهبت الى غير رجعة الايام التي كان الحكم الاستبدادي المطلق يقرن فيها بالاسلام ، وبذلك بدأ الوعي السياسي يحل بنشاط محل السلبية السياسية .

وفضلاً عن ذلك ، فإن الحركة الدستورية او (المشروطية) اثارت جدلاً واسعاً في العراق . ولم يكن هذا الجدل محصوراً بين اوساط المثقفين الضيقة ، بل امتد الى اقسام اوسع من السكان وخلق انقساماً حول المسألة[٢٨] . واخذ السنّة العراقيون بدورهم يشتركون في الجدل وينقسمون حول المسألة . إن قيام (المشروطية) عمل على اخماد الصراع الطائفي بادخال خط فاصل جديد . ووجد الدستوريون العراقيون ، سواء أكانوا شيعة ام سنة ، قضية مشتركة يدافعون عنها . وهذا يلقي ضوءاً على حقيقة انه في عام ١٩١٠ كانت الفئات السياسية المتكونة حديثاً قد تخطت الهيكل الطائفي وضمت في صفوفها عناصر من الشيعة والسنّة والمسيحيين على السواء[٢٩] . وفي النجف بلغ الصراع بين انصار اليزدي (المناوئين للدستور) وانصار الخراساني ذروته . وكان القائمقام آنئذٍ هو ناجي السويدي ، الذي كان قومياً عربياً وسنياً[٣٠] . وقد وقف الى جانب الدستوريين وساعدهم بصورة رسمية[٣١] .

---

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤ .

(٢٤) Browne, *The Persian Revolution, 1905-1909*, pp. 130-170.

(٢٥) جعفر آل محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها (النجف : ١٩٥٨) ، ص ٢٤ .

(٢٦) كمال الدين ، التطور الفكري في العراق ، ص ٢٧ .

(٢٧) انظر الصفحات التالية .

(٢٨) علي حسين الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ٧ج (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٦٩ - ١٩٧٦) ، ج٣ ، ص ١١٥- ١٢٧ و ١٦١ - ١٧٠ .

(٢٩) انظر الصفحات السابقة .

(٣٠) انظر الصفحات التالية .

(٣١) الوردي ، المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١١٩ .

وفي كانون الاول / ديسمبر ١٩١١ ، توفي الخراساني ، وخلفه اليزدي المحافظ النزعة كمجتهد اول ، وفي الفترة ما بين عامي ١٩١٢ و١٩٢٠ كان المجتهدون البارزون في العراق هم الشيرازي في سامراء (الذي انتقل فيها بعد الى كربلاء) ، والاصفهاني في النجف ، والصدر والخالصي في الكاظمية(٣٢) .

وقد جاء وصف السيد اليزدي في تقرير للادارة البريطانية كما يلي : « انه في قرارة نفسه موال لبريطانيا وشديد العداء للاتراك . ومنذ خلع محمد علي شاه ، عندما عبّر شفاهاً ، ولكن ليس كتابة ، عن عدم تأييده للدستوريين ، فإنه لم يشترك قط في السياسة ، بل وانقطع تماماً عن التراسل مع الحكومة الفارسية . وقد باءت كل المحاولات لحمله على ذلك بالفشل . بل انه لا يرد على الحكومة الفارسية عندما تسأله المشورة ، ولا شك انه في قرارة نفسه يكره الدستوريين ، ويؤيد الملكيين بقوة » .

« وتجدر هنا الاشارة الى ملاحظاته للكولونيل ستوكس ، عندما اخبره الاخير بأنه كان في فارس وقت اعلان الدستور ، فاجابه : نعم ، عندما بدأت فارس بالرجوع الى الوراء »(٣٣) .

اما المجتهد المعروف الآخر فكان ميرزا محمد تقي الشيرازي في سامراء ، وكان آنئذٍ المنافس الوحيد لليزدي ويساويه من حيث كثرة الاتباع ، الا ان منزلته لم تكن تضاهي منزلة اليزدي . ولكن اليزدي لم يكن ليصدر قراراً ضد رجل كالشيرازي(٣٤) . كان الشيرازي رجلاً مسناً ، ولم يكن له دور فعال في السياسة قبل عام ١٩١٨ . الا انه لم يكن ليتردد في عدة مناسبات من ايضاح موقفه السياسي بكل جلاء . وكان يعتبر تقدمياً ونصيراً قوياً للحركة الدستورية في ايران وتركيا . وبعد عام ١٩١٨ ، وبتشجيع من الوطنيين ونجله ، اشترك علناً في النشاط السياسي وكان عاملا رئيسياً في نهوض الحركة المناوئة للانكليز ، لاسيما بعد ان اصبح المجتهد الاول . وسوف نبحث ذلك في الفصول القادمة .

اما المجتهد الثاني في الاهمية في النجف ، والرابع في العالم الشيعي ، فكان شيخ الشريعة الاصفهاني . وقد ساهم بنشاط في (الجهاد) الذي اعلن ضد الانكليز بعد غزوهم العراق ، الا انه تفاهم معهم بعد ذلك . وكان من مناصري الدستور الاشداء ، وكانت له صلات مبكرة مع الانكليز خلال كونه احد موزعي (وقف اودة)(٣٥) . وقد اصبح المجتهد الاول في منتصف الثورة ولعب دورا مهما ولكن وسطياً في تلك الاحداث .

كان الخوف من التغلغل الغربي عاملا آخر في التقريب بين ابناء الطوائف العراقيين . وظهرت اول بادرة على ذلك في اجتهاد الشيرازي الاب وغيره من المجتهدين على

---

(٣٢) C.O. 691/1, «Administration Reports, Najaf and Shamiya, 1918.» p 105

(٣٣) المصدر نفسه .

(٣٤) المصدر نفسه .

(٣٥) المصدر نفسه .

امتياز التبغ[٣٦] . وبذلك خاطر المجتهدون بخسران تأييد الحكومة الفارسية التي كانوا حتى ذلك الحين في امس الحاجة اليها . وفي اواخر ١٩١١ ، دعا الخراساني الى الجهاد ضد الغزو الروسي لايران . وفي نيسان / ابريل ١٩١٢ ، ايد دعوته الخالصي والصدر والشيرازي . اما اليزدي فلم يحرك ساكناً[٣٧] .

وفي اواخر ١٩١١ ، اعلن جميع العلماء العراقيين ، ومن ضمنهم اليزدي (الجهاد) ضد الغزو الايطالي لليبيا . وتشكلت في جميع انحاء العراق لجان لهذا الغرض ، ولعب الشيعة فيها دوراً فعالاً جداً[٣٨] ، وكان اسهامهم في الجهاد الليبي يعني في الواقع مناصرتهم للدفاع عن بلد سني وعن الوحدة العثمانية . وفي تلك المناسبة كتبت جريدة نجفية : « كلما ازداد اعداؤنا ظلماً ، اشتدت وحدتنا قوة»[٣٩] . الا ان اهم حلقة في هذه العملية كانت عام ١٩١٤ ، عندما اعلن المجتهدون الجهاد ونظموا قوات للدفاع عن العراق ضد الانكليز . وبذلك عبروا عن تفضيلهم لحكم السنة على حكم الانكليز .

وقد لعبت افكار المصلحين الاسلاميين دوراً مهماً في عملية التوحيد هذه . فقد بشّر هؤلاء بإسلام لا طائفي ، وبوحدة الشيعة والسنة ، واشاروا الى الاخطار الناجمة عن التغلغل الغربي في العالم الاسلامي . الا ان نفوذهم لم يكن نفوذاً فكرياً محضاً . فقد كان الافغاني في البصرة ابان نشوء مشكلة التبغ . فكتب رسالة دينية وعاطفية الى الشيرازي يحثه فيها على التدخل ، كما تضمنت الرسالة هجوماً عنيفاً على الشاه الفارسي . وقد نشرت على نطاق واسع في العراق وذكر انها كانت ذات تأثير قوي في النجف[٤٠] .

ان عداء الافغاني للشاه الفارسي اثّر على بعض المجتهدين الى حد التشكيك في صواب تحالفهم مع الحكومة الفارسية[٤١] . وخلال اقامته في العراق (عام ١٨٩١) زار الافغاني النجف ، وكربلاء والكاظمية ، وبغداد والبصرة . وقام باتصالات ، وبشّر بافكاره وأثر على بعض العراقيين البارزين مثل الحبوبي ، والشهرستاني والكاظمي[٤٢] . وفي الاستانة اسس

---

(٣٦) Nikki R. Keddie, *Religion and Rebellion in Iran: The Tobacco Protest of 1891-1892* (London: Cass, 1966).

(٣٧) الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج٣ ، ص ١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٣٨) ابراهيم الوائلي ، الشعر العراقي وحرب طرابلس (بغداد : ١٩٦٤) . وقد تطوع زعيم عشيرة آل فتلة للاشتراك في القتال . وتزعم طالب لجنة البصرة . كما نشط الرصافي ورضا وباقر الشبيبي والشرقي والحلي .

(٣٩) العلم (النجف) ، السنة ٢ ، العدد ٧ (٢٣ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١١) ، وهي مجلة هبة الدين الشهرستاني .

(٤٠) الامين ، جمال الدين الافغاني (النجف : [د . ت .]) . وقد ورد نص الرسالة في كتاب : محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ٣ج (القاهرة : ١٩٢٥ ، ١٩٣١ ، ١٩٤٧) ، ص ٥٦ ـ ٦٢ .

(٤١) Sir Percy Sykes, *A History of Persia*, 3rd ed., 2 vols. (London: Macmillan, 1958), vol. 2, pp. 398-399.

(٤٢) عبد المحسن القصاب ، ذكرى الافغاني في العراق (بغداد : مطبعة الرشيد ، ١٩٤٥) ، ص ٨٥ ، ومحفوظ ، عراقيات الكاظمي (بغداد : ١٩٦٠) ، ص ٧٦ .

لجنة تدعو للوحدة الشيعية ـ السنية[٤٣] . وكتب عدة رسائل الى المجتهدين ، اورد فيها عدة امثلة من التاريخ والعقائد الاسلامية ، وحثهم على الاتحاد مع السنة للدفاع عن الامبراطورية العثمانية . وكان هذا حسب رأي الافغاني افضل وسيلة للدفاع عن الاسلام ضد المطامع الغربية[٤٤]. وقد حققت جهود الافغاني بعض النجاح في كل من ايران[٤٥] والعراق[٤٦] . ومما تجدر الاشارة اليه ان الفتوى العراقية ضد الغزو البريطاني (عام ١٩١٤) كانت تقوم على مبدأ (الدفاع عن اهل الثغور)[٤٧] . وهو المبدأ نفسه الذي كان يدعو اليه الافغاني منذ عام ١٨٩١ .

وفي عام ١٩٠٦ ، دعا علي البزركان ، وهو شاب (سني) مثقف ومن اوائل القوميين العرب ، الى تأسيس مدرسة لتدريس ابناء الشيعة العلوم واللغات الحديثة ، فاتهم بالكفر . وفي عام ١٩٠٨ ، حصل على تأييد الحبوبي ، المجتهد الاصلاحي الذي شن حملة واسعة لاقناع الطائفة . وبمرور الزمن قررت الطائفة تمويل المدرسة وافتتحتها لجنة بتخويل من الوالي عام ١٩٠٩ ،وتجدر الاشارة الى ان حجج الحبوبي وال بازركان كانت تقوم على ضرورة العلم الحديث بالنسبة للشباب الشيعي واهمية نزع الولاء عن ايران واقامة وحدة عراقية شيعية ـ سنية[٤٨] .

إن جميع هذه العوامل قربت ما بين ابناء الطائفتين وسمحت بقيام تضامن جديد . وقد وجدت العناصر التقدمية في الطائفتين ، في قضية (المشروطية) وفي اصلاح شؤون الاسلام ، رؤية مشتركة . وان خيبة امل السنة في الاتحاديين ، فيما بعد ، والجفاء بين الشيعة والشاه ، عملا على محو الافتراق السابق بايران وتركيا . كما ان السخط على النفوذ الغربي عزز الوحدة الناشئة ولعب دوراً في تحديد مستقبل العلائق مع بريطانيا .

ثالثاً : العلائق بين بعض رجال الدين والحكومة البريطانية حتى عام ١٩١٨

١ ـ وقف أوده

إن اول اتصال مباشر مهم بين بعض العلماء في كربلاء والنجف والسلطات البريطانية

---

(٤٣) Browne, *The Persian Revolution, 1905-1909*, p. 41[illegible]

(٤٤) مهدي المخزومي ، خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني (بيروت ، ١٩٦١) ، ص ٤١٥ .

(٤٥) Browne, Ibid , p. 107

(٤٦) [illegible] ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج٣ ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦ .

(٤٧) [illegible] الدولة الاسلامية ضد الكفار .

(٤٨) [illegible] ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية . رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما القص بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء (بغداد : مطبعة اللواء ، ١٩٥٤) ، ص ٤٥ ـ ٥٠ .

تأسس من خلال وقف اودة . ويعود منشأ هذا الوقف الى عام ١٨٢٥[٤٩] . والى ما قبل عام ١٩١٠ ، كانت موارد وقف اوده- توزع كما يلي : كانت تقسم بالتساوي بين مجتهدي المدينتين . وكان للمقيم البريطاني في بغداد مطلق الحرية في اختيار المجتهدين من المدينتين (كربلاء والنجف) الذين كانوا يتلقون المال منه مباشرة . وكان توزيع المال متروكاً لارادة المجتهدين . وكان المجتهد يتلقى المال عادة من الوقف لمدى الحياة[٥٠] .

وفي عام ١٩٠٣ ، وفي كربلاء، كان المجتهدون التالية اسماؤهم يتلقون المال من الوقف : محمد باقر[٥١]، وهاشم القزويني ، وحسين المازندري ، وجعفر الطباطبائي ، وعلي اليزدي (ابن السيد كاظم اليزدي) ، وسبتة حسين . وفي النجف كانوا : محمد بحر العلوم[٥٢]، وعلي النهاوندي ، ومحمد حسن ، وعبدالله المازندري ، وعبد الحسن ، ومحمد هندي ، وكاظم الخراساني[٥٣] . وفي عام ١٩٠١ ، اضيف المجتهدون التالية اسماؤهم الى الموزعين في كربلاء : محمد الكاشاني وعلي التنغابوني ، ومحمد باقر البهبهاني ، وقولي باقر ، وحسين القمي . وفي النجف كان الموزعون الاضافيون هم : فتح الله شريفة ، وابو القاسم الاشقواري ، والملاّ علي الخنصري ، وابو تراب ، والشيخ مهدي[٥٤] .

وكان من رأي الانكليز ان هذا النظام لم يكن مناسباً . ويبدو انهم كانت تخامرهم بعض الشكوك حول كيفية توزيع المال[٥٥] . ولذلك ففي عام ١٩١٠ غيّر المقيم البريطاني في بغداد هذا النظام وفرض اساليب جديدة . وكان التغير الاساسي عن القواعد السابقة هو انه « ينبغي على المجتهد الموزع ان يوزع نصف المال الذي يتلقاه ، عن طريق لجنة مؤلفة منه ومن زملائه ، ومن عدد مساوٍ من الاعضاء (اعضاء دار المقيم البريطاني) الذين يمثلون المقيم البريطاني ، برئاسة احد هؤلاء الاعضاء »[٥٦] .

وفي المذكرة المشار اليها لاغا حميد خان ، وردت اسماء المجتهدين الموزعين عام ١٩١٨ كما يلي : « شيخ الشريعة (الاصفهاني) حسن صاحب الجواهري ، السيد جعفر بحر العلوم ، الحاج محمد اغا هندي ، الشيخ مهدي اسد الله ، الشيخ مهدي الكشميري »[٥٧] .

---

(٤٩) John Gordon Lorimer, *Gazetteer of the Persian Gulf: Oman and Central Arabia* (London: Holland, 1970), p. 1854.

(٥٠) C.O. 696/2, «Administration Reports, Shamiyah, 1919,» note by the A.P.O. Agha Hamid Khan, p. 32.

(٥١) كان السيد باقر الموزع الاصلي في كربلاء ، وكان راتبه الشهري ١٥٠٠ روبية .

(٥٢) كان السيد بحر العلوم الموزع الاصلي في النجف ، وكان راتبه الشهري ١٥٠٠ روبية . وكان الاخرون يتلقون ٥٠٠٠ روبية .

(٥٣) Lorimer, *Gazetteer of the Persian Gulf: Oman and Central Arabia*, pp. 1613-1614.

(٥٤) Ibid., p. 1616.

(٥٥) Lyell, *The Ins and Outs of Mesopotamia*, p. 46.

(٥٦) C.O 696/2, «Administration Reports, Shamiyah, 1919,» p.32.

(٥٧) Ibid., p. 32.

ولدى استعراض التقرير البريطاني السري عن « الشخصيات المرموقة في النجف والشامية »[٥٨] . من الطريف ان نلاحظ ان خمسة من هؤلاء المجتهدين قد وصفوا بأنهم « موالون جداً لبريطانيا » ، ومما هو اكثر طرافة ، بالاضافة الى غرابته ، هو ان جميع هؤلاء قد وصفوا بأنهم « ليسوا من ذوي النفوذ » .

وبقدر ما اكتسب الانكليز صداقات عن طريق قضية الوقف هذه ، فإنهم خلقوا ايضاً شعوراً بالاستياء ، على الاقل من باب الحسد والاحساس بالتحيز البريطاني غير العادل في اختيار المجتهدين الموزعين .

٢ ـ الجهاد

كان العامل الثاني الذي اثّر على العلائق بين علماء الدين في الفرات الاوسط وبريطانيا قبل عام ١٩١٧ هو (الجهاد) ، فعندما شرع الانكليز في غزو العراق في ٦ تشرين الثاني /نوفمبر ١٩١٤ ، اطلقت السلطات التركية حملة دينية لكسب تأييد العلماء للقضية العثمانية . وقد صورت الحرب للعلماء بوصفها حرباً اسلامية ضد الكفار . وطُلب منهم اصدار فتوى للجهاد ضد الغزاة .

وقد اعلن الجهاد السيد محمد سعيد الحبوبي ، والشيخ عبد الكريم الجزائري ، والسيد عبد الرزاق الحلو ، والشيخ جواد صاحب الجواهري ، وكثيرون غيرهم (وكلهم من العرب) . وتبعهم شيخ الشريعة الاصفهاني في اعلان الجهاد[٥٩] . ولم يكن من المستغرب ان نجد اليزدي غائباً عن حركة الجهاد[٦٠] .

وكانت العشائر راغبة عن الاستجابة للدعوة للجهاد بسبب الكره الذي كانت تضمره دوما للاتراك[٦١] ، الا ان الحبوبي الذي كان العنصر الاكثر نشاطاً في حركة الجهاد ، ذهب الى الفرات الاوسط وشرع في اقناع زعماء العشائر[٦٢] . وقام الاتراك ايضاً ببعض المبادرات الودية باطلاق سراح بعض المسجونين من آل فرعون واعادة اراضيهم المغصوبة في المشخاب[٦٣] . وعلى اية حال ، فإن قوة الفتوى والجهود المثابرة للعلماء ، لاسيما الحبوبي ،

---

(٥٨) C.O. 696/1, «Administration Reports, Najaf and Shamiyah, 1918,» p.106-107.

(٥٩) عبد الشهيد الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ١٩٢٠ (النجف : ١٩٦٧) ، ص ٦٩ .

(٦٠) ال شعبونة ، ماضي النجف وحاضرها ، ص ٢٤٦ ، وقد اخبرني البعض بأن كاظم اليزيدي كان قد اصدر فتوى بالجهاد ضد البريطانيين .

(٦١) فريق المزهر آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها (بغداد : مطبعة النجاح ، ١٩٥٢) ، ص ٣٦ ـ ٣٨ .

(٦٢) الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ١٩٢٠ ، ص ٧٢ .

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

آتت ثمارها وتقدمت قوات الجهاد الى الشعبية لمساعدة الاتراك . وانضم بعض العلماء الى القوات وبقوا معها ابان القتال . وكان ابرز الزعماء العشائريين لحركة الجهاد هم[٦٤] : عجمي السعدون ، والسيد نور الياسري وعبد الواحد الحاج سكر ، والسيد علوان السيد عباس ، والسيد هادي المكوطر ، والسيد محسن ابو طبيخ ، والسيد هادي زوين ، ومبدر الفرعون ، وشعلان ابو الجون ، وغثيث الحرجان .

وتجدر الاشارة هنا الى ان جميع هؤلاء الزعماء كانوا من الفرات الاوسط ، وفضلاً عن ذلك ، فقد اصبحوا كلهم فيما بعد قادة ثورة العشرين . ومن جهة اخرى ، فمن الانصاف القول بأن جهادهم لم يكن دليل ولاء عميق للاتراك ، فجميع هؤلاء الاشخاص كانوا قد سببوا كثيراً من المتاعب للاتراك قبل الجهاد ، وكانوا في الحقيقة راغبين جداً عن القتال من اجلهم لولا حرصهم على ارض العراق[٦٥] .

ومن الناحية العسكرية ، لم تكن نتائج حركة الجهاد ذات اهمية تذكر ، الا ان اهميتها السياسية تستحق نظرة سريعة . فلقد اظهر الجهاد قوة العامل الديني والقومي الذي وحّد ابناء الفرات الاوسط مع خصومهم الاتراك في الدفاع عن البلاد ضد الغزاة الاجانب .

وكان من النتائج السياسية الاخرى للجهاد ان بعض العلماء التزموا ادبياً على الاقل ، بموقف مناوىء للانكليز وبالاستمرار عليه فيما بعد ، كما انه سمم علائق عشائر الفرات الاوسط مع الانكليز الى حد كبير . والى حد ما ، يمكن القول ان بذور ثورة العشرين قد بذرت في حركة الجهاد عام ١٩١٥ .

وفضلاً عن ذلك ، كشفت حركة الجهاد عن التأثير القوي للعلماء العرب على رجال العشائر . وقد كان هؤلاء في الحقيقة راغبين عن الانحياز الى جانب مضطهديهم الاتراك لولا فتوى زعمائهم الدينيين . وقد قال الشيخ بدر الرميض (زعيم بني مالك) لاحمد اوراق (احد القادة الاتراك) ما يلي : « لقد ختنتم الاسلام ، كما يتجلى من معاملتكم للعرب . . ولولا فتوى علمائنا لما وقفنا الى جانبكم »[٦٦] .

٣ ـ الوضع في النجف عشية الاحتلال البريطاني

كان سكان النجف ، باستثناء العلماء وحاشيتهم من المريدين والاتباع ، ينقسمون الى مجموعتين عشائريتين ، الزغرت والشمرت[٦٧] . وكان عدد السكان يبلغ ٤٠,٠٠٠ ،

---

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٧٢ ـ ٧٥ .
(٦٥) آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ٣٦ ـ ٣٨ .
(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٤٠ ـ ٤١ .
(٦٧) آل محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها ، ص ٢٤٠ .

انقسموا الى اربع محلات ، يخضع كل منها لزعيم . وكانت المحلات هي البراق ، والمشراق ، والحويش ، والعمارة . وكان زعماء هذه المحلات هم كاظم صبي ، والحاج سعد ابن الحاج راضي ، والسيد مهدي بن السيد سلمان والحاج عطية ابو كلل ، على التناظر . وكان الحاج راضي من الشمرت والبقية من الزغرت[٦٨] . وكان جميع هؤلاء الزعماء من اصل متواضع . فالصبي كان صانع قهوة ، والحاج سعد كان قصاباً[٦٩] ، وابو كلل كان يشتغل مهرباً قبل الحرب[٧٠] . اما السيد مهدي فكان نجل زعيم الزغرت .

وبعد هزيمة الاتراك في الشعيبة ، ادرك زعماء النجف ضعف الاتراك وعجزهم عن ارسال اية قوات الى النجف في حالة قيام ثورة هناك . وبدأ الزعيم الرابع ، ابو كلل ، يخطط للسيطرة على المدينة ، ومهد لذلك بانهاء الخلافات والمنازعات السابقة . ولم يكن النجفيون يضمرون اي حب للقائمقام التركي الفظ القاسي[٧١] ، وبالنتيجة ، وقفوا الى جانب اسقاط الادارة العثمانية .

وارتكب الاتراك خطأً مهلكاً بارسالهم قوة عسكرية الى النجف ، بمهمة ملاحقة الهاربين من الجيش[٧٢] . وكانت تلك شرارة الانتفاضة الشعبية ونجح الحاج سعد ورجاله (الذين كان بينهم عدد من الهاربين من الجيش) في دخول المدينة واجبروا الاتراك على اتخاذ موقف الدفاع لمدة (٢٤) ساعة ، وخلال تلك المدة وصلت امدادات من الخارج وهبت المدينة باسرها وانضمت الى الثوار . ووجد الاتراك انفسهم يواجهون ١٠,٠٠٠ رجل مسلح ، وقد انقطع عنهم الطعام والماء ، فاضطروا الى الاستسلام بعد ثلاثة ايام . وجردهم الثوار من السلاح ثم سمحوا لهم بمغادرة النجف الى الكفل[٧٣] . وقد ذكر ايضاً ان اليزدي « لم يعلن الجهاد ضد الاتراك ولكن قيل انه شجع ثورة العشائر »[٧٤] .

ولم يرغب الاتراك في القيام بعمل مضاد ، بالنظر لمكانة النجف الدينية وقد تخلوا ببساطة عن مركزهم في النجف وقبلوا بالامر الواقع . وهكذا تمتعت النجف بالاستقلال المحلي تحت حكم الزعماء الاربعة وتحررت تماماً من اي نفوذ خارجي او سلطة حكومية

---

(٦٨) ال بازركان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية : رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما الصق بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء ، ص ٥٧ .

(٦٩) Foreign Office [F.O.] 882/27, «Arab Bureau Papers,» p.116.

(٧٠) المصدر نفسه ، وتجدر الاشارة الى ان التهريب في كل تلك الاوضاع لم يكن يعتبر عملاً مشيناً .

(٧١) محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

(٧٢) الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ١٩٢٠ ، ص ٨٦ .

(٧٣) C.O. 696/1, «Administration Reports, Najaf and Shamiyah, 1918,» p.68; المصدر نفسه ، ص ٨٦ ؛ آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ٤١ ، وال محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

(٧٤) F.O. 882/26, «Arab Bulletin 41, Dated February 6 1917,».

مركزية[٧٥] . الا ان هذه الفترة السعيدة (او البائسة)[٧٦] انتهت في اب / اغسطس ١٩١٧ ، عندما عين اول وكيل للحكومة البريطانية .

وبعد شهور قلائل من ثورة النجف ، قامت كربلاء ، المدينة المقدسة الثانية ، تحت تأثير احداث النجف بثورة على الاتراك في حزيران / يونيو ١٩١٥ ، وبسبب ضعف الاتراك العسكري والمكانة الدينية للمدينة ، فإنهم لم يستعملوا العنف لقمع الثورة ، بل حاولوا حل المشكلة سلمياً . فقدموا بعض التنازلات ووافقوا على تقليص سلطتهم ونفوذهم في كربلاء . ولكن في ايار / مايو ١٩١٦ قامت عائلة كمونة بثورة جديدة لانهاء ما تبقى من النفوذ التركي . وهكذا خضعت كربلاء لحكم عائلة كمونة ، متحررة تماماً من اية سلطة حكومية اجنبية . وبقيت فترة الحكم الذاتي هذه حتى ارسل الانكليز ، في اواسط عام ١٩١٧ ، وكلاءهم لادارة شؤون كربلاء[٧٧] .

ومنذ حزيران / يونيو ١٩١٦ ، كان بعض اعيان المدن المقدسة قد اقاموا صلات مع القوة البريطانية الغازية . وحمل مراسل الى السير برسي كوكس مذكرة موقعة من (٢٠٠) شخصية معروفة في كربلاء ومصدقة من قبل العلماء . قد اعربت المذكرة عن احتجاجها على الاتراك « لقصفهم العتبات المقدسة ، وذبح الابرياء ، وهتك اعراض النساء على يد جنود مدعي الاسلام »[٧٨] . وحث المراسل الحاكم السياسي العام على ارسال عدد من السفن الحربية الى (التبلة) (وهي مكان يقع في منتصف الطريق تقريباً بين الناصرية والسماوة) ، حيث سيقوم الشيخ علي كمونة (زعيم كربلاء) بجلب عدد من الرجال ومرافقة السفن الى السماوة والنجف . « وهو يقول ان هناك في المدن المقدسة الان ٧٠,٠٠٠ رجل كلهم متحدون في الرأي ومستعدون للانضمام الى الانكليز ضد الاتراك ومساعدتهم في الاستيلاء على بغداد »[٧٩] .

وفي اوائل عام ١٩١٧ ، ارسل الحاج عطية ابو كلل (زعيم ثورة النجف) رسالة الى السلطات البريطانية في الناصرية ، يبلغها فيها بأن عدد اعضاء الاتحاد العشائري المتجمع للثورة ضد الاتراك يبلغ الـ ٢٥,٠٠٠ . ودعا الحاج عطية الانكليز الى « الهجوم على الفرات ، والانضمام الى قواته العشائرية »[٨٠] . ومن الجدير بالذكر انه بالرغم من ان السلطات العسكرية رغبت في استغلال هذه الامكانيات ، الا ان السير برسي كوكس رفض ان يرتبط بأي تعهد وأبدى استعداده فقط لارسال (هبات مالية)[٨١] .

---

(٧٥) المصادر نفسه .

(٧٦) ان المصادر البريطانية والعربية تختلف اختلافا شديداً حول هذه النقطة

(٧٧) ال فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ٤١ ، والناصري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ١٩٢٠ ، ص ٨٧

(٧٨) F.O. 882/26, «Arab Bulletin, no. 7, 30 June 1916.»

(٧٩) F.O. 882/26, «Arab Bulletin, no. 13, 1 August 1916.»

(٨٠) المصادر نفسه .

(٨١) Stephen Hemsley Longrigg, *Iraq 1900 to 1950. A Political, Social and Economic History* (London 1953) p. 85

ومع ذلك فقد ارسل وفد من اعيان ومجتهدي النجف الى المندوب المدني في بغداد برقية تعرب عن (تهانيهم) بمناسبة انتصار الحلفاء(٨٢) . وفي اليوم التالي تسلموا جواباً من ولسن يؤكد فيه ان بريطانيا سوف « تفي بوعودها لحلفائها العرب »(٨٣) .

وعليه ، فإن ابناء الفرات الاوسط ، خلافاً للكثير من الادعاءات ، لم يتخذوا موقفاً موحداً ازاء قدوم الانكليز، فإن فريقاً من المجتهدين عارض الغزو البريطاني بحزم وعاضد الاتراك . وكان هذا الفريق يتألف من الحبوبي (المتوفى عام ١٩١٥) والشهرستاني ، والجزائري ، والجواهري ، وبحر العلوم . وكان هؤلاء جميعاً من الاصلاحيين ، والدستوريين والعرب ، استمروا في مناوأة الانكليز كمسألة مبدئية . وقد اظهروا مناوأتهم مرة اخرى عام ١٩١٨ ، خلال اضطرابات النجف ، وكذلك عام ١٩٢٠ . وبدون التقليل من نفوذهم واهميتهم ، من المهم ان نلاحظ انهم لم يمثلوا كل ابناء الطائفة . ولم ينقلب معظم ابناء المنطقة على الانكليز الا بعد عام ١٩١٨ ، بسبب ادارة ولسن القاسية . وقد اتخذ (السادة) في الشامية والمشخاب موقفاً مماثلاً بسبب حسن معاملة الاتراك لهم .

اما الزعماء المحليون في النجف وكربلاء فقد غلب عليهم العداء للاتراك وقدموا العون للانكليز(٨٤) . الا ان هذا العون لم ينطو على رغبة في امتداد الحكم البريطاني الى مناطقهم . والواقع ان مثل هذه الخطوة قوبلت بسخط عنيف خلال عامي ١٩١٧ - ١٩١٨(٨٥) ، والشيء نفسه ينطبق على موقف اتحاد آل خزاعل(٨٦) .

ويجدر الذكر ان القوميين العرب من اصول فرات اوسطية كانوا ، شأن نظرائهم السنّة ، يقفون موقفاً متردداً تجاه الانكليز ، لاسيما بعد عام ١٩١٦ . وقد اعرب محمد رضا الشبيبي عن مرارة القوميين ازاء احتقار الاتراك للعرب في قصيدة مشهورة(٨٧) . وقد وقف هو واخوه باقر (موقفاً ودياً جداً) بعد الاحتلال مباشرة واوصى الكابتن مارشال (الحاكم السياسي) بتعيينهم مراسلين لجريدة (العرب) المحلية(٨٨) . الا ان الشبيبي نفسه في اوائل عام ١٩١٩ ، فاجأ الانكليز بشنه حملة (عنيفة) ضد ادارتهم ودعوته الى استقلال العراق (المطلق)(٨٩) .

---

(٨٢) العرب (بغداد) ، ٧ / ١٠ / ١٩١٨ . والبرقية مؤرخة في ٣ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٨ .

(٨٣) المصدر نفسه ، والبرقية مؤرخة في ٤ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٨ .

(٨٤) انظر الصفحات السابقة .

(٨٥) انظر الصفحات التالية .

(٨٦) F O 882 26. «Arab Bulletin, 38, December 1915, Communication Dated 5 June 1916, Euphrates Intelligence.».

(٨٧) محمد رضا الشبيبي ، ديوان الشبيبي (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠) ، ص ٢٦ - ٢٩

(٨٨) F O 371 5243 E 10272.

(٨٩) المصدر نفسه .

اما الزعماء العشائريون في الفرات الاوسط ، فقد وقف معظمهم موقف المتفرج . صحيح انهم انضموا الى حركة الجهاد، الا انهم فعلوا ذلك بدون حماس ، وتحت ضغط علمائهم ، وقد انتهزوا اول فرصة سنحت لهم للتخلي عن الاتراك . وخلال الفترة ما بين عامي ١٩١٥ - ١٩١٨ ، لم يظهروا اية بادرة عدائية ولكن بعد عام ١٩١٨ ، عندما فرض ولسن اجراءات ادارية على مناطقهم ، فإنهم انغمسوا في التيار المعادي للانكليز(٩٠) . وخلال حركة الجهاد كان بعض زعمائهم قد طوروا وعيهم السياسي واقاموا صلات مع فئة المجتهدين الاصلاحيين ، وهو امر كانت له اهميته خلال عامي ١٩١٩ -١٩٢٠ .

وملخص القول انه في عام ١٩١٤ ، كانت الحركة القومية العربية في العراق لا تزال في طورها التكويني ، وقد سمحت بظهورها سلسلة من التغيرات الاجتماعية - الاقتصادية . وكانت افكار الأصلاحيين الاسلاميين والقوميين العرب المنبعثة من سوريا ومصر ، تمارس تأثيرها على نخبة صاعدة . كما ان الصراع الدستوري في ايران وتركيا اثر على السكان ، وربط ما بين الطوائف العراقية الاسلامية ، وارهف الوعي السياسي لفئة المتعلمين . ومع ذلك فقد بقيت الحركة القومية محصورة في نطاق ضيق ، وتبلور نضجها النسبي ، ونموها ، وشعبيتها ، وعنفها خلال فترة الاحتلال البريطاني ، لاسيما بعد عام ١٩١٨ . ولعل سياسات المندوب المدني البريطاني كانت من جملة العوامل التي (شجعت موضوعياً) هذا النمو .

---

(٩٠) انظر الصفحات التالية

القسم الثاني

دور الضباط العسكريين في الحركة القوميّة
١٩١٢ - ١٩٢٠

مقدمـــة

شهدت فترة ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ نمواً ملحوظاً في الحركة القومية العراقيـة سواء في شعبيتهـا او في نضجهـا السياسي . ويعـود ذلك الى الجـو العام لـظروف ما بعـد الحرب والى الـوجـود التعسفي للادارة البريطانية في العراق .

انني اعني بالقوميين العرب اولئك الذين حملوا فكرة قيام ادارة عربية في عراق مستقل . الا انـه في هذه المجمـوعة الـواسعة ، ينبغي التمييـز بين مختلف التيـارات والمنظمـات لاولئك الذين حملوا هذه المطامح .

ففي الدرجة الاولى ، كانت هناك الحركة القومية العـاملة داخل العـراق نفسه . وكـان يمثل هذه الحركة حـزبا (العهـد) و(حرس الاستقـلال) ويقودهـا يوسف السـويدي ومحمـد مهدي الصدر وجعفر ابو التمن . الا انه بسبب ظروف الحرب والاحتلال وسياسات المنـدوب المدني ، كانت ثمة حركة اخرى نشطة خارج حـدود العراق ، الا انها لم تكن اقـل تأثيـراً على تطور العراق السياسي ، وتلك هي حركة الضباط العراقيين ، الذين هجروا الجيش التركي ، وانضموا الى ثورة الحجاز او خدموا فيصل خـلال حكمه العـربي القصير في سـوريا . وسـوف اتناول هذه الحركة اولاً .

وينبغي ايضاً التمييز بين مختلف التيارات السياسية المتفاعلة داخل الحركات التي اشرت اليها . كان استقلال العراق هو الهدف المشترك الذي يؤمن به القوميـون كافـة. الا ان درجة هذا الاستقلال واساليب تحقيقه كانت موضوع جدل كثـير . (فالمعتـدلون) كـانوا يتصـورون عراقاً مستقلاً يوجهه ويحميه الانكليز . وهذا الهـدف كان ينبغي تحقيقـه بمؤازرة الانكليز ، او على الاقل مؤازرة الجـزء (المتحرر) من بـين صانعي السيـاسية البـريطانيـة . اما الجـذريون فكـانوا يـدعون الى استقـلال تام او مـطلق غير مقيـد بأي شكـل من النفوذ او (المسـاعـدة)

البريطانية . وكانوا يؤمنون بأن العنف السياسي هو السبيل الوحيد لارغام الانكليز على القبول بأهدافهم .

وكان كل من التيارين واضحاً بين القوميين العراقيين خارج الوطن وداخله . وكان يتبنى الموقف الاول جماعة (العهد) في بغداد وطالب باشا ، وسليمان فيضي ، ونوري السعيد وجعفر العسكري . اما التيار الآخر فكان يؤيده جماعة (الحرس) ، و(العهد) في الموصل ، والسويدي وابو التمن وبعض زعماء العشائر . وبين الضباط العراقيين ، كان يؤيده ياسين الهاشمي ورمضان شلاش ، وحتى جميل المدفعي وعلي جودت ومولود مخلص الى حد ما .

وعلى الرغم من ان نوري السعيد كان يقول بأن ثمة « في كل صدر عزماً على عدم القبول بما هو اقل من حكومة وطنية ذات طابع مستقل » ، ويدعو الى « خلق حكومة مدنية وطنية على الفور » الا انه كان يشترط ذلك بالخضوع لـ (اشراف الاحتلال) . وفضلاً عن ذلك ، اكد نوري على ايمانه بـ « روح الزمالة مع الانكليز » ، وحرصه على « متابعة السير في طريق الولاء والتعاون مع الانكليز » . كما انه اعرب عن عزمه « على وضع حد لكافة النوايا التي تتجه الى تجديد الارتباط بالاتراك »[1] . ووصف جعفر العسكري بـ (الجنون) اية محاولة لـ (تضييع عطف الانكليز) باثارة العنف[2] . وعلى نقيض ذلك ، كان زعيم العهد في الموصل يؤمن بأن الاستقلال لن يتحقق الا بقوة السلاح . ودعا الى التحالف مع الكماليين والبلاشفة[3] . وكان كل من هذين الرأيين يقوم في داخل التنظيم السياسي نفسه . وقد كان لهذه الاختلافات مضامين ونتائج بعيدة الاثر ، لاسيما عندما ترجمت الى الممارسة السياسية .

وهذا الصراع لا يمكن عزله عن خلاف مماثل نشب بين صانعي السياسة الانكليزية بخصوص المستقبل السياسي للعراق . وكان هذا الخلاف يقوم بين اولئك الذين دعوا الى حكم بريطاني مباشر على العراق ، واولئك الذين رأوا ان من مصلحة بريطانيا ان تمنح العراق شيئاً من الاستقلال برئاسة حكومة عربية (صديقة) . وكان هذا الخلاف يستمد جذوره من النظرات والتركيزات المختلفة بين (المدرسة الهندية) و(المدرسة العربية)[4] . وبمرور الزمن فقد المصدر الاصلي للخلاف اهميته[5] . وفضلاً عن ذلك ، فإن تغير الظروف عدل من اراء

---

(١) Foreign Office [F O] 371/5226/E.2719

رسالة من نوري السعيد الى (الماجور) يونغ بتاريخ ٥ نيسان / ابريل ١٩٢٠ .

(٢) Gertrude Lowthian Bell, «Private Letters and Papers,» Newcastle-upon-Tyne University Library (unpublished), «Letter Dated 27 November 1920.»

(٣) رسالة مؤرخة في ٣٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٩ من فرع «العهد» في الموصل الى « المركز العام » ، في : صدى الاحرار (الموصل) ، ٣ / ٤ / ١٩٥٣ .

(٤) Bertram Thomas, *Alarms and Excursions in Arabia* (New York; Indianapolis. Bobbs-Merrill, 1931), pp. 60-61, and Lord Birdwood, *Nuri as-Said: A Study in Arab Leadership* (London. Cassel, 1959), pp. 24-26

(٥) الظاهر ان الخلاف الاصلي بين « المدرستين» كان اكثر تعلقاً بمسألة المصالح الاستراتيجية لبريطانيا في

معظم دعاة الرؤية (الهندية) . الا ان ولسن بقي ، حتى النهاية ، راسخ الايمان بالحكم المباشر .

لقد كانت الامنية الكبرى للمندوب المدني ان يكون العراق نموذجاً لمحمية بريطانية تدار بصورة كفوءة . وكان يقف بحزم ضد فكرة تشكيل حكومة عربية ، ناهيك عن استقلال العراق . وقد عارض حتى في تعيين موظفين عرب في حكومته لان ذلك « يؤدي الى الانحلال السريع للسلطة والقانون والنظام »[٦] . وقد ذُكر انه كان يضمر « عداء شديداً لكل ما هو (شريفي) » ، وانه « استفز المشاعر القومية ، واساء تقدير قوتها ، كما اساء فهمها تماماً »[٧] . وكان ولسن ينظر الى الفعاليات القومية كمجرد تحريض خارجي ينبعث من « اصدقائنا المدعومين بالمال » في دمشق[٨] . وكانت هذه الآراء تتناقض تماماً مع تلك التي كان يحملها فلبي ، الذي كان يدعو الى (الاستقلال التام)[٩] ، ويونك (مدير مكتب وزير الخارجية البريطانية آنئذٍ) ، وغيرترود بيل ، ولورنس ، الذين كانوا ، بدرجات متباينة ، يحبذون التعاون مع الوطنيين العراقيين ، وحتى هيرتزل[١٠] ، الذي كان يساير الزمن والذي حذر ولسن عام ١٩١٩ من « انك ستواجه قيام دولة عربية شئت ام ابيت »[١١] . ولذلك كان من الطبيعي ان يجد الوطنيون (المعتدلون) والليبراليون البريطانيون بمرور الزمن لغة وفهماً مشتركيْن ، مما أثّر على الاحداث السياسية وحدد نتيجتها الى درجة كبيرة .

إن مهمتي هنا هي مناقشة الفكرة الآنفة الذكر ، والتحدث باسهاب عن التطور السياسي لحركة الضباط العراقيين . وسوف اركز بعض الشيء على التيارين ، (المعتدل) و(الجذري) وقد لجأت الى هذا الاسلوب في البحث ليس فقط لأنه جديد ، بل كذلك

الشرق الاوسط . فقد اختلف الجانبان حول تفسيراتهما لهذه المصالح اكثر من اختلافهما حول المسألة الثانوية نسبياً لاستقلال العراق . فقد كانت الادارة الهندية تعتبر ان حماية الهند تستلزم السيطرة على الاجزاء الشرقية والجنوبية من الجزيرة العربية ، وعدن ، والخليج العربي ، وجنوب العراق . اما المكتب العربي فكان يؤكد على اهمية قناة السويس وبالتالي مصر وسورية والبحر الاحمر والحجاز . وبينما كانت المدرسة الاولى ، تعتبر ابن سعود، الحليف العربي الرئيسي وتسحط على الهاشميين ، كان الرأي الثاني يميل الى اعتبار الهاشميين الاسرة الاكثر صلاحية لقيادة الحجاز وسورية في ثورة « موالية » لبريطانيا .

Sir Ronald Wingate, *Not in the Limelight* (London: Hutchinson, 1959), p. 63, and Philip Graves, *The Life of Sir Percy Cox* (London: Hutchinson, 1914), p. 205.

(٦) F.O. 882/24/SY/19-no. 34436/75/19, «15 November 1919,».

(٧) F.O. 371/5129/E. 6324, «Young's Comment Dated 14 June 1920,».

(٨) Bell, «Private Letters and papers,» «Letter Dated 31 January 1920,».

(٩) F.O. 371/5130/E. 7219-no. R. 7392, «16 June 1920,» and Harry St. John Bridger Philby, in *Journal of Central Asia Society*, vol. 7 (1920), p. 114.

(١٠) احد كبار موظفي وزارة الهند وليس الصهيوني المعروف .

(١١) Cited in: John Marlowe, *Late Victorian: The Life of Sir Arnold Talbot Wilson* (London, Cresset, 1967), p. 165.

لأهيىء ادراكاً اكثر شمولاً للاحداث السياسية في العراق ، للقالب الذي اتخذته والطريقة التي اختتمت بها .

وسوف اشرح رأيي في ان الخط المتزمت للمندوب المدني قد خدم ـ موضوعياً ـ القوميين المتشددين واتاح لهم السيطرة على الحركة الاستقلالية بدلاً من العناصر الاكثر (اعتدالاً) . وقد عجل ذلك بالصدام وأدّى الى نشوب العنف السياسي . ان الثورة قد زعزعت خط ولسن بشكل عميق، واصبحت التغييرات السياسية امراً لا بد منه . الا ان الانـدحار العسكري للثورة وخوف الانكليز من (المتطرفين) حول الميزان مرة اخرى في مصلحة العناصر الاكثر (اعتدالاً) . وهكذا فإن (الليبراليين) الانكليز الذين كانت لهم الغلبة ، شجعوا (الجناح اليميني) على تزعم محاولة اقامة ادارة جديدة في العراق . وابرمت صفقة مع (المعتدلين) وشكل نظام جديد في العراق ، لبى بعض مطالب القوميين ولكنه احتفظ بنفوذ بريطاني طاغ .

كما سأركز بعض الشيء على دور فيصل ، الذي استطاع بدهاء كبير ان يحقق توازناً بين القوميين الجذريين وبين السلطات البريطانية ، وكان هذا التوازن عاملاً رئيسياً في نجاحه في الحصول على عرش العراق .

وليس ضمن نطاق هذا البحث القيام بدراسة تفصيلية للسياسة البريطانية وقواها المحركة . الا انه خلال معالجة الفعاليات القومية العربية ، سيكون من الضروري الاشارة الى بعض المواقف البريطانية .

الفصل الخامس

الاتجاهات السياسية للضباط العراقيين خلال ١٩١٢ ـ ١٩١٨

إن الحركة القومية هي في معظم الاحيان نتاج للتطور الاجتماعي ـ الاقتصادي ، والتأثيرات الفكرية والسيطرة الاجنبية . وقد سبق ان اشرنا الى انه ، بالرغم من ان العنصرين الاولين كانا واضحين في العراق ، فإنهما لم يكونا قد تطورا بشكل يكفي لتهيئة ارضية مناسبة للنمو المستقل للحركة القومية في العراق . الا انه كان ثمة قناة اخرى تسربت منها الافكار القومية الى اذهان العراقيين .

اولاً : نشوء الضباط العراقيين كفئة سياسية واجتماعية

في اواخر القرن التاسع عشر ، كان التوسع المحدود للمدارس في العراق قد شجع بعض الطلاب الطموحين على مواصلة التعليم كأفضل وسيلة للحصول على مراكز ذات نفوذ في الهيئة الاجتماعية . وفضلت الاسر الغنية والمتنورة ارسال اولادها الى الخارج للحصول على تعليم اعلى ، كما هيأت انظمة الجيش العثماني والمدارس العسكرية فرصة ذهبية للطلاب الاقل ثراء . وكانت هذه المدارس لا تتقاضى اجوراً ، بل تدفع راتباً مقبولاً لطلابها ، وتجهز لهم وسائل الراحة ، وتعدهم بمراكز ذات رواتب جيدة في الجيش العثماني بعد تخرجهم . وكانت هذه الفرصة متاحة لحوالى ستين طالباً كل عام ، يغادرون العراق الى الآستانة للدراسة العسكرية .

وفي تركيا ، اصبح الطلاب العراقيون يشعرون بكيانهم وتضامنهم القوميين ، فخلال عيشهم في مجتمع غير عربي ، يعكس بعض النزعات القومية التركية ، كان لا بد من ان يشعر العراقيون بعروبتهم ويسخطوا على السيطرة التركية . وفضلاً عن ذلك ، كانت الاستانة تعج بالعرب الذين كانوا نشطين في جمعياتهم العلنية الخاصة ومنظماتهم السرية . وقد تأثر العراقيون بهذه الفعاليات ، وانضموا اليها ، وقادوها فيما بعد .

ان النجاح السياسي الملحوظ الذي احرزته هذه الفئة من المتعلمين العراقيين[1] ، من ذوي المهن العسكرية بوجه خاص ، لا يمكن تفسيره فقط على اساس التعليم الذي حصلوا عليه . وذلك ان احراز السطوة السياسية يتطلب ، بالاضافة الى المعرفة ، النشاط الدينامي والتحالفات المناسبة ، وفي هذا المجال كانت هذه الفئة تملك مؤهلات جيدة بشكل خاص ، وذلك للاسباب التالية :

١ ـ انها اسست التنظيم السياسي والقومي الاول والاكثر فاعلية في العراق في فترة ما قبل الاستقلال (العهد) .

٢ ـ ان عدداً كبيراً من افرادها انضموا الى ثورة الحجاز وشغلوا مراكز قيادية في صفوفها . وبذلك احرزوا خبرة عسكرية وادارية ، وقاموا باتصالات مع الانكليز وكسبوا ثقتهم وتفهمهم النسبيين .

٣ ـ انهم اشتركوا مع فيصل في الحكم ابان (استقلال) سوريا القصير الامد. والواقع ان الضباط العراقيين كانت لهم حصة الاسد في الادارة العربية هناك ، مما ساهم فيما بعد في تفنيد ادعاء ولسن بأن العراقيين لم يكونوا ناضجين لتشكيل وقيادة حكومة محلية[2] .

٤ ـ خلال ايامهم في سوريا (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) ، كان الضباط العراقيون (لأسباب سنبحثها فيما بعد) نشطين جداً في إثارة حملة ضد الادارة البريطانية في العراق . وبحكم ذلك ، طرح الضباط العراقيون انفسهم باعتبارهم الهيئة الرئيسية التي تحل محل حكم ولسن .

ثمة دراسات عديدة عن التكوين الاجتماعي للعسكريين والمثقفين ودوافعهم للتدخل في سياسات الاقطار النامية عموماً[3] والاقطار العربية بوجه خاص[4] . الا ان اياً من هذه الدراسات لم يبلور تحليلاً نظرياً نهائياً لهذا التكوين او الدوافع[5] . وجميع هذه المؤلفات لا

---

(١) ان العراقيين الذين اتيحت لهم فرصة التعليم في الخارج ، ومتابعة دراساتهم الاكاديمية واحراز الخبرة السياسية ، اصبحوا رواد الحركة الوطنية العراقية وشكلوا العمود الفقري للحكومة العراقية بعد الاستقلال وحتى عام ١٩٥٨ .

(٢) Gertrude Lowthian Bell, «Private Letters and Papers,» Newcastle-upon-Tyne University Library (unpublished), «letter Dated 30 January 1920,».

(٣) Samuel P. Huntington, ed., *Changing Patterns of Military Politics* (New York: Free Press of Glencoe, 1962); Samuel Edward Finer, *The Man on Horseback: The Role of the Military in Politics* (London: Pall Mall Press, 1962); Morris Janowitz, *The Military in the Development of New Nations: An Essay in Comparative Analysis* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1964), and John J. Johnson, ed., *The Role of the Military in Underdeveloped Countries* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1967).

(٤) Eliezer Be'eri, *Army Officers in Arab Politics and Society* (London: 1970), and Sydney Nettleton Fisher, ed., *The Military in the Middle East: Problems in Society and Government*, Ohio State University, Coulombis, Graduate Institute for World Affairs, 1 (Coulombis, Ohio: Ohio State University Press, 1963).

(٥) يعترف كاتب ماركسي سوفياتي بأنه « ليس لدينا حتى الآن دراسة لتلك العناصر في المجتمع في الاقطار

تحول دون ابداء الملاحظات التي توضح الاسباب الكامنة وراء النشاط السياسي للضباط العراقيين ، وكذلك نطاق هذا النشاط .

ان الملاحظة الاولى التي يمكن ابداؤها بخصوص القوميين العراقيين الذين حصلوا على التعليم والتدريب السياسي في الخارج ، هي ان اغلبيتهم الساحقة كانت ، من وجهة النظر القومية ، عربية ، ومسلمة ، ومن وجهة النظر الاجتماعية ، منحدرة من خلفيات متواضعة وقد اختارت العمل في الجيش(٦) . وقد ذكر ان من بين (١١٣) قومياً عربياً نشطاً في عدة منظمات في الاستانة ، كان واحد فقط مصرياً ، و(١٨) عراقياً ، والبقية من سوريا (الكبرى) . ومن بين الـ (٩٤) سورياً (٥١ من سوريا و ٢٢ من فلسطين ، و٢١ من لبنان) كان عشرة فقط عسكريين ، في حين كان جميع العراقيين الثمانية عشر ضباطاً عسكريين(٧) .

وليس من الصعب ايضاح الاسباب لهذه الخصائص المشتركة . فإن سياسة التمييز العثمانية تفسر الغياب الواضح لليهود والمسيحيين وغيرهم من صفوف القوات المسلحة . كما ان المنشأ الاجتماعي المتواضع واختيار السلك العسكري هما وجهان لعملة واحدة . وقد كان العراقيون ، بالمقارنة مع السوريين ، فقراء سواء في التعليم او الدخل . وكان السلك العسكري ، ذاتياً وموضوعياً ، هو الخيار الممكن الوحيد لارضاء مطامحهم(٨) .

الا انهم عند اكمالهم دراساتهم وتعيينهم كضباط، كانوا ينفصلون عن قاعدتهم الاجتماعية الاصلية ويدخلون تشكيلة اجتماعية جديدة . ومع ذلك ، فقد استمرت هذه الفئة الجديدة تختلف عن الاقسام الاخرى من الطبقة الوسطى في ناحيتين مهمتين على الاقل : اولاً ، ان اعضاءها كانوا من غير ذوي الملكيات ومعتمدين كلياً على رواتبهم ، وثانياً ، انهم كانوا ملتزمين بالثقافة والتقاليد العسكرية .

المتخلفة ، والتي لا ينطبق عليها مفهوم « البرجوازية » الا انها تلعب في اقطار عديدة دوراً كبيراً ، بل وقيادياً واعني بذلك المثقفين والجيش » .

G. Mirski, *Creative Marxism and the Problem of National Revolution*, trans. into English by the Mizan News Letter (London: Mizan News Letter, 1964), p. 6.

(٦) من بين الاعضاء النشطين في حزب العهد خلال الفترة السابقة للحرب ، يمكن ذكر الاسماء التالية : ياسين الهاشمي ، جميل المدفعي ، علي جودت ، تحسين علي ، شريف الفاروقي ، مولود مخلص ، عبد الرحمن شرف ، عبد الغفار الشابجي ، عبد الحميد الشالجي ، نوري السعيد ، طه الهاشمي ، عبدالله الدليمي ، حمدي الباجه جي ، عبد الغفور البدري ، محمد حلمي ، علي رضا ، وموفق كامل . وباستثناء الباجه جي والفاروقي ، كان جميع المذكورين آنفاً يشتركون في كونهم مسلمين ومن خلفية اجتماعية متواضعة ، وضباطاً عسكريين .

(٧) C. Ernest Dawn, «The Rise of Arabism in Syria,» *Middle East Journal*, vol. 16, no 2 (1962)

(٨) جاء في احد الابحاث ان « طبقة الضباط تجند من مراتب المجتمع السلفي » .

Be'eri, *Army Officers in Arab Politics and Society*, p. 302.

إن هـذا التركيب الاجتماعي يلقي كثيراً من الضوء على السلوك السياسي للضباط العراقيين خلال اعوام ١٩١٤ ـ ١٩٢١ . وقد لعب دوراً مهماً في دفع الضباط ، من جهة ، الى الوقوف موقفاً عنيفاً من الادارة البريطانية التي حرمتهم ، في ظل خطط ولسن ، من مقومات حياتهم الاقتصادية . ومن جهة اخرى ، كان بعضهم مستعداً للمصادقة على حل ، اوحت به بريطانيا (غير الولسنية) وقدم له مراكز ورواتب في صيغة عراق (مستقل) . وقد اعلن (بيمباشي) عراقي سابق بعبارات صريحة الى حد الفجاجة : « في ظل الاتراك كنت اتقاضى كذا ليرات في الشهر ، والآن انا لا احصل على شيء والانكليز لن يعطوني شيئاً . لذلك اريد حكومة عربية ورواتباً »[٩] . وثمة مثال آخر ذو مدلول مهم : فقد رفض عدد كبير من الضباط العراقيين ، خلال مدة اسرهم في الحرب ، الانضمام الى ثورة الحجاز . ولم يكن هذا الرفض قائماً على الاستنكار السياسي ، بل على اسس مسلكية لا غير[١٠] .

وفضلاً عن ذلك ، فإن الضباط العراقيين ، لكونهم فئة غير متملكة ، قد تمتعوا بدرجة كبيرة من الاستقلال الاجتماعي تجاه الاقسام الاخرى من المجتمع ، وعندما يتعامل المرء مع العوائل الثرية في المدن العراقية ، ومع شيوخ العشائر وعلماء الدين ، يسهل عليه ملاحظة الاثر العميق ، المحلي والوطني ، لظروفهم الاجتماعية ـ الاقتصادية على سلوكهم السياسي[١١] . الا ان الامر لم يكن كذلك بالنسبة للنخبة العسكرية ، التي كان سلوكها السياسي غير خاضع للتفاعل الاقتصادي مع اية فئة اجتماعية اخرى . وقد انعكس هذا الاستقلال الاجتماعي الكبير في شكل مرونة سياسية ملحوظة . وقدمت (حرية العمل) هذه مزايا سياسية ضخمة للنخبة العسكرية ، لاسيما في مجتمع كالعراق يتسم بعدم تبلور الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية وتحكمه دولة اجنبية لم تكن تمانع في تغيير اساليبها في الادارة والسيطرة .

ومع ذلك ، فإن حرية العمل الملحوظة هذه لم تصل الى حد الاستقلال المطلق عن القوى الاجتماعية وغيرها[١٢] ، القائمة في الظروف الملموسة للعراق آنئذ . ولم يكن نشاط الضباط وحده هو الذي حدد ، في نهاية المطاف ، مجرى التطور السياسي في العراق . فلولا بروز التحالف القومي ـ العشائري ـ الديني ، لكانت جهود الضباط هامشية جداً في الواقع .

وفضلاً عن ذلك ، فإن علائق الاوساط الاخرى من المجتمع (اي شيوخ العشائر ، وعلماء الدين ، والعائلات الغنية) بالدولة لعبت دوراً مهماً في تحديد مواقفها السياسية . الا

---

(٩) Bell, «Private Letters and Papers,» «Letter Dated 24 May 1920,».

(١٠) ابراهيم حمدي الراوي ، من الثورة العربية الكبرى الى العراق الحديث (بيروت : مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٩) ، ص ٢٠ .

(١١) انظر المناقشة السابعة حول موقف طالب وكذلك المناقشة اللاحقة حول المواقف السياسية للعشائر .

(١٢) للحصول على مناقشة اكثر تفصيلاً للموضوع ، انظر :

Thomas Burton Bottomore, *Elites and Society* (Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1966), pp. 93-111.

ان هـذه العـلائق كـانت ، نسبيـاً ، ذات نـطاق ضيق . لم يكن اي من هـذه الفئـات يمتلك الوسائل او القدرات على احراز السيطرة الفعلية على الدولة ، والثاني ان مواقف كل من هـذه الاوساط تجاه الـدولة كـانت تتحدد بمـطالب ذات اهمية لا تنكـر ، الا انها لم تكن ذات طابـع حاسم[١٣] . اما بالنسبة للمثقفين والنخبة العسكرية ، فقد كان الامر يختلف تماماً .

فأولاً ، كان العسكريون والنخبة المثقفة قـادرين على السيـطرة على الـدولة ، وكـانوا في الواقع يطمحون الى ذلك ، وكان ادراكهم لثقـافتهم ومركـزهم المتقدم ، بـالمقارنـة مع فئـات المجتمع الاخرى ، ينمي فيهمْ هذه الرغبة ، وبالاضافة الى ذلك ، فإن تجربتهم في الحجاز وسوريا حيث كان الضباط العراقيون (يديرون كافة الشؤ ون العسكرية والمدنية بأكملها) زادت من ثقتهم وعزمهم على تحقيق هذا الهدف .

وفضـلاً عن ذلـك ، كـان الضبـاط يعتمـدون عـلى الـدولـة اعتمـاداً كلياً في مهنتهم وعيشهم . وبالنسبة لهمْ ، لم تكن مسألة السيطرة على الدولة، او بالاحرى تشكيلها ، مسألة اكاديمية او تافهة . انها كانت قضيتهم الاساسية والاكثر حسماً .

ومن الضروري في هذا الصدد الاشارة الى احدى السمات الخاصة التي كان يتصف بها الوضع في العراق . كان الضباط العراقيـون يخدمـون في الجيش العثماني الـذي لم يعد ، منـذ عام ١٩١٨ ، يملك اي سلطة على اي اقليم عراقي او عربي . وكان معظم هؤلاء الضباط اما قـد تركـوا صفوفهم في الجيش العثمـاني وانضموا الى ثـورة الحجاز او الحكـومـة السـوريـة او اصبحـوا عـاطلين ، او ظلوا في الجيش التـركي ولكنهم يتـوقـون الى العـودة الى اوطـانهم الاصلية . وبهذا الشكل وقعوا في ورطة تاريخية لا يحسدون عليهـا : ضباط عسكـريون بـدون قوات مسلحة . وبالنسبة لهم ، اصبحت الحاجة الى تأسيس جيش وحكومة عراقيين امراً عـلى اقصى درجة من الاهمية[١٤] .

ومن وجهـة النـظر الثقـافيـة ، كـان ثمـة اكـثر من عـامـل واحـد في تسييس الضبـاط العراقيين . فقد نشأوا على تقليد اسلامي لا يركز على اهمية الفصل بـين الوظـائف العسكريـة والمـدنية . وفضـلاً عن ذلك ، فـإن معظمهم تعلم في الجيش العثمـاني خلال الفتـرة مـا بـين

---

(١٣) على سبيل المثال ، كانت مصالح العشائر تنصب بالدرجة الرئيسية على الارض ونظام الضرائب ، وبالنسبة للملاكين الغائبين ، كانت مصلحتهم تكمن في ضمان المدخولات التي يطالبون بها ، وبالنسبة للعوائد التجارية ، كانت مصلحتهم تتعلق بتأمين حرية التجارة. وكانت جميع هذه المطالب ، في التحليل النهائي ، اما محلية (اي لا تشمل عموم القطر) ، او قابلة للحل (اي ضمن الاطار غير المتغير اساسياً للادارة القائمة) ، او كلا الامرين معاً .

(١٤) ان هذه الملاحظة لا يقصد بها اطلاقاً انكار الافكار الوطنية للضباط . انظر فيما يتعلق بالعلاقة بين الضباط والدولة :

Manfred Halpern, «Middle Eastern Armies and the Middle Class,» in: Johnson, ed., *The Role of the Military in Underdeveloped Countries*, p. 279.

١٨٨٠ ـ ١٩١٤ . وكان هذا الجيش آنئذٍ مركزاً لنشاط ومكائد الاتحاديين ، التي تمخضت فيما بعد عن سلسلة من الانقلابات العسكرية (١٩٠٨ ـ ١٩١٤) .

كانت المحصلة النهائية لهذه التطورات ان تركزت السلطة السياسية الحقيقية في ايدي الضباط العسكريين . وكانت قوة المثال ، والاشتراك الفعلي المحتمل ، ذات نتائج بعيدة الاثر ، دون شك ، في اذهان الضباط العراقيين .

إن مجموع هذه العوامل ، يفسر اشتداد النشاط السياسي بين الضباط العراقيين . وعندما ادّعى لورنس بأن « سبعة من كل عشرة ضباط مولودين في بلاد ما بين النهرين » ينتمون الى جمعية العهد[١٥] ، فلعله كان مدفوعاً بعامل المبالغة . الا انه لم يكن من الممكن اصدار اي ادعاء مماثل حول اية فئة اخرى من فئات المجتمع العراقي .

ثانياً : جمعية العهد ، دور التكوين : ١٩١٣ـ ١٩١٤

تأسست هذه الجمعية ، التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ العراق السياسي ، في الآستانة في ٢٨ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٣ على يد عزيز علي المصري وبعض الضباط العرب الآخرين ، معظمهم من اصل عراقي .

نشطت جمعية (العهد) في المطالبة بالحقوق العربية ودعت الى دولة فدرالية[١٦] ، يؤلف العرب في داخلها دولتهم الخاصة ذات الحكم الذاتي . ويكشف ذلك عن نقطتين مهمتين : اولاهما ، السرعة التي كانت تنضج بها المطامح القومية العربية . ومن ناحية اخرى ، وحتى عشية الحرب العالمية الاولى ، لم يكن القوميون العرب يطالبون بالاستقلال التام او الانفصال عن الامبراطورية العثمانية . الا ان التطور السريع من المطالبة بالحقوق ، الى اللامركزية، فالاتحاد الفدرالي ، كان يعكس وعياً قومياً متنامياً .

كان برنامج (العهد) يتضمن النقاط التالية الجديدة بالذكر :

«١ـ ان (العهد) جمعية سياسية سرية[١٧] . وهدفها هو الاستقلال الذاتي للبلاد العربية واتحادها مع الاستانة على اسس مماثلة لتلك القائمة بين النمسا والمجر .

---

(١٥) Thomas Edward Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph* (Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1969), p. 45.

(١٦) مما يجدر ذكره ان « جمعية الاخاء العربي العثماني » التي كانت ، من جوانب عديدة ، اول مجموعة سياسية عربية جدية ، قد دعت الى مساواة كافة رعايا الامبراطورية العثمانية بصرف النظر عن القومية او الدين، واعلنت تأييدها للاتحاديين ، انظر : محمد مهدي البصير ، نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر (بغداد : ١٩٤٧) ، ص ١٦ ـ ١٧ . اما حزب اللامركزية العثماني ، الذي تأسس عام ١٩١٠ ، فقد طالب باللامركزية في الامبراطورية بالاضافة الى ضمان بعض الحقوق السياسية للعرب .

(١٧) اعترف جمال باشا . . « بأن الحكومة التركية ، رغم كل جهودها ، لم تتوصل قط الى معرفة اي شيء عن هذه الجمعية [العهد] ما عدا اسمها » .
F.O. 882/24/SY/19/4, «Note by the Arab Bureau, Cairo Dated April 1919 on the Committee of Covenant,».

٢ ـ ينبغي الاحتفاظ بالخلافة الاسلامية في يد العثمانيين .

٣ ـ تولي الجمعية اهتماماً خاصاً بسلامة الاستانة وحمايتها من الدول الغربية الاستعمارية .

٤ ـ طيلة ستمائة عام ، ظل الاتراك يحتلون الحاميات الشرقية في وجه الغرب . وعلى الامة العربية ان تعد نفسها لتكون القوة الاحتياطية لهذه الحاميات »[١٨] .

كان مؤسسو هذه الجمعية هم بالدرجة الرئيسية ضباط عراقيون في الاستانة مع عدد قليل من الضباط السوريين . الا ان (العهد) كانت تعاصر جمعية قومية عربية اخرى يسيطر عليها سوريون مدنيون ، وهي (العربية الفتاة) ، التي تأسست في ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٩ . وكانت هذه الجمعية سرية هي الاخرى ، ومماثلة في اهدافها لـ (العهد) ، بقدر ما يتعلق بالحكم الذاتي العربي . وكان نشاطها يتركز حول المدنيين العرب في الاستانة وباريس[١٩] . ومن الجدير بالذكر ان هذه الجمعية كانت ذات نفوذ كبير بين السوريين ، ولكن تأثيرها كان محدوداً جداً على العراقيين[٢٠] . الا ان الاتصالات تمت بين المجموعتين قبل وخلال الحرب العالمية الاولى[٢١] .

إن برنامج (العهد) يعكس ثلاثة اتجاهات سياسية مهمة كانت قائمة بين الضباط العراقيين في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى مباشرة ، وهي : نزعتهم القومية العربية ، وعواطفهم الاسلامية والعثمانية ، ومناوأتهم للنفوذ الغربي ..

الا ان هذا يبرز مدى التأثر العميق للحركة القومية بنفوذ القوميين العرب غير العراقيين ، ذلك ان ظروف العراق الذاتية والداخلية لم يكن من الممكن ان تؤدي ، في حد ذاتها ، الى تطور موقف مناوىء للغرب بين الوطنيين العراقيين . ومن المؤكد ان النزعة الفدرالية العثمانية (العهد) (في مقابل المطالبة بالاستقلال العربي التام) قد اوحى بها عزيز المصري[٢٢] ، الذي كان له تأثيره ايضاً في موقف (العهد) الاصلي المناوىء للغرب[٢٣] .

---

(١٨) احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية : اسبابها ، مقدماتها ، تطورها ونتائجها ، ٦ج (بغداد : مطبعة الشعب ، ١٩٣١ ـ ١٩٣٤) ، ج٤ ، ص٥٣ .

(١٩) احمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى (دمشق : ١٩٥٦) ، ص ٦ ـ ١٣ .

(٢٠) سليمان موسى ، « جمعية العربية الفتاة ، » العربي (الكويت) ، العدد ١٥١ (١٩٧١) ، ص ٥٤ . وقد اورد المؤلف اسماء ٥٤ عضوا في هذه الجمعية ، ومن ضمنهم عراقي واحد هو توفيق السويدي .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٥٦ ، ومحمد عزة دروزة ، حول الحركة العربية الحديثة : تاريخ ومذكرات وتعليقات ، ٦ج في ٤ (صيدا : المكتبة العصرية ، ١٩٥٠ ـ ١٩٥١) ، ج١ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٢٢) F.O. 371/3396/11436, « Interview with Aziz Ali, Dated 14 January 1918, from A. Hardinge to Balfour,» and Hassan Saab, *The Arab Federalists of the Ottoman Empire* (Amsterdam: Djambatan, 1958?), p. 234.

(٢٣) ضعفت هذه النزعة بدرجة ملحوظة خلال ثورة الحجاز وحل محلها التحالف مع الانكليز إلا ان النزعة المعادية للغرب تجددت بشكل عنيف خلال الاعوام ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ .

كان عزيز علي المصري (١٨٨٠ - ١٩٦٤) دون شك ، الشخصية الاكثر نفوذاً وبروزاً بين الضباط العرب في الجيش العثماني(٢٤) . ويبدو ان حياة المصري ، التي امضاها في مصر والاستانة معاً ، قد ربت لديه تياراً قائماً بذاته ، يتألف من موقفين مزدوجين : نزعة قومية عربية ، وعداء ثابت لا هوادة فيه للسياسة والمصالح البريطانية . فقد نشأ وترعرع في مصر واكمل دراسته في مدرسة ثانوية في القاهرة ، خلال عهد كرومر (١٨٨٣- ١٩٠٧) . وقد كان العداء للانكليز ، و(الحنين) الى العثمانيين هما السمتان المميزتان للحركة الوطنية المصرية في تلك المرحلة التاريخية . وقد نشأ عداؤه للانكليز خلال تلك الفترة واستمر طيلة حياته السياسية(٢٥) ، وان كان هذا العداء قد خف بشكل مؤقت ومحدود خلال ١٩١٤ - ١٩١٧(٢٦) . ومن المرجح جداً ان نزعته الفدرالية العثمانية كانت ايضاً ثمرة تلك الفترة من حياته . وفي الآستانة ، حيث استهل المصري سيرة عسكرية لامعة ، اندمج مع العرب ، وتكونت لديه نظرة قومية عربية .

وفي ما بين عام ١٩٠٨ و١٩١٥ ، لعب المصري دوراً عسكرياً وسياسياً بارزاً في الشؤون العثمانية والعربية . وعززت منجزاته في اليمن (١٩١١) وفي ليبيا (١٩١٢) من مكانته . الا انه اعتقل في شباط / فبراير ١٩١٤ ، وحوكم وطرد من تركيا في نيسان / ابريل ١٩١٤ . وارجح الظن ان محاكمته كانت منبعثة عن عوامل سياسية اكثر منها شخصية(٢٧) .

وقد انعكس تأثير اعتقال المصري على العرب والحركة العربية في نتيجتين : (أ) استثير الرأي العام العربي بسبب الحادث بشكل حاد جداً(٢٨) ؛ (ب) ترك غياب المصري الضباط العراقيين في بلبلة سياسية ونزاع في القيادة في لحظة حاسمة ، وفضلاً عن ذلك ، انطلق

(٢٤) Ahmad Djemal Pasha, *Memoires of a Turkish Statesman, 1914-1919* (London: [n.p., n.d.]), p. 61; Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph*, p. 59;
البصير ، نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ، ص ٢٢ - ٣٥ ، و الراوي ، من الثورة العربية الكبرى الى العراق الحديث ، ص ٥٠ ، ٧٠ ، ٧٢ و ١٠٢ .

(٢٥) انور السادات ، اسرار الثورة المصرية : بواعثها الخفية واسبابها السيكولوجية ، تقديم جمال عبدالناصر ، كتب قومية ، ٣١١ (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٥٦) ، ص ٦١ ، ١١١ و ١١٥ - ١١٦ .

(٢٦) يبدو ان الضغط البريطاني لعب دوراً في منع اعدام المصري على يد الاتراك عام ١٩١٤ ، انظر : Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph*, p. 75, and Sir Ronald Storrs, *Orientations* (London: Nicholson and Watson, 1937), p. 179.

(٢٧) كان هذا هو الرأي الرسمي للسفير البريطاني ، في :
Majid Khadduri, *Middle Eastern Affairs, No. 4: Aziz Ali al-Misri and the Arab Nationalist Movement*, St. Antony's papers, no. 17 (Oxford: Oxford University, St Antony's College, 1965) p. 15, footnote

(٢٨) [اسعد داغر]، ثورة العرب : مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها ، بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية (القاهرة : مطبعة المقطم ، ١٩١٦) ، ص ١٠٨ ؛ البصير ، نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ، ص ٢٧ - ٣٢ ، وسليمان فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات (بغداد : عبد الحميد سليمان ، ١٩٥٢) ، ص ١٥ - ١٥١ .

الاتراك في سلسلة من الاجراءات السياسية القمعية بغية اخضاع الحركة العربية . وكان معظم هذه الاجراءات موجهاً ضد الضباط العراقيين(٢٩) .

ثالثاً : الاتصالات الاولى للضباط العراقيين بالانكليز

لم يكن من الغريب، عندما نشبت الحرب العالمية ، ان يفاجأ الضباط العراقيون ويفتقروا الى نظرة واضحة وخطة للعمل ، الا ان هذا كان جانباً واحداً فقط من المشكلة . اما الجانب الآخر فكان يكمن في شكوك الضباط العراقيين بأنه « عندما يتحدث الحلفاء عن التحرير ، فإنهم يضمرون في قلوبهم السيطرة »(٣٠) .

وعليه ، فما ان اصبح واضحاً ان تركيا على وشك الدخول في الحرب ، حتى ارسل عزيز علي من مصر رسالة قاطعة اللهجة الى الاعضاء القياديين في جمعية (العهد) ، نهاهم فيها عن اتخاذ اي عمل عدائي ضد تركيا ، بالنظر لان دخولها الحرب سيجعل مقاطعاتها العربية عرضة للغزو الاجنبي ؛ وحتى يتم تحقيق ضمانات فعالة ضد الاطماع الغربية ، فإن من واجبهم الوقوف الى جانب تركيا(٣١) .

الا انه يبدو ان فكرة التعاون مع الانكليز لتحقيق استقلال العرب كانت مغرية على الاقل بالنسبة لبعض الضباط العراقيين . ففي ايلول / سبتمبر ١٩١٥ ، ترك الملازم الاول محمد شريف الفاروقي(٣٢) صفوف العثمانيين وسلم نفسه الى السلطات البريطانية في مصر . وقد ادعى انه جاء بالنيابة عن ضباط (العهد) لكي يجري مفاوضات مع الانكليز. وقد جرى لقاء بينه وبين جهاز الاستخبارات التابع لوزارة الحربية البريطانية في القاهرة في ١٢ ايلول / سبتمبر ١٩١٥ . وادلى محمد الفاروقي بإفادة طويلة لخص فيها الاهداف والمبادىء العربية :
« تتألف دولة واحدة من العراق وسوريا والجزيرة العربية . . . وتقوم على الاسس التالية :

---

(٢٩) نقل طه الهاشمي الى اليمن واخوه ياسين الى ادرنة. اما محمود اديب (من العهد) فقد اعتقل. واستدعي رشيد الخوجة (آمر بغداد ، عضو جمعية الاتحاد والترقي ، ذو الميول القومية العربية) وعبد اللطيف الفلاحي (العهد) الى الأستانة للتحقيق معهم . الا انهما عند وصولهما الى بيروت هربا بمساعدة صبيح نشأت (آمر الشرطة ، العضو الاتحادي ذو الميول القومية العربية). وتحدى نوري السعيد وعبدالله الدملوجي (مدني من العهد) امر إلقاء القبض وهربا الى البصرة ، حيث احتميا بالسيد طالب. وبالنظر لكون نوري عسكرياً (ملازم اول) وانكشاف نشاطه خلال محاكمة المصري ، فقد حكم عليه بالاعدام لهروبه من الجيش وبقي في البصرة حتى الاحتلال البريطاني .

(٣٠) David Lloyd George, *Memoirs of the Peace Conference*, 2 vols. (Newhaven, Conn.: Yale University Press, 1939), vol. 2, p. 669.

(٣١) George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* (London: Hamilton, 1938), p. 155.

(٣٢) كان الفاروقي ينتمي الى عائلة غنية في الموصل .وكان عضواً في العهد . وبعد هربه الى مصر اصبح ممثل الملك حسين لدى الانكليز في القاهرة .

١ ـ عقد معاهدة صداقة مع الانكليز . .

٢ ـ تخضع الاقطار العربية لمبدأ اللامركزية . .

٣ ـ يكون حسين شريف مكة هو الخليفة والسلطان في الامبراطورية الجديدة التي قدمنا لها الولاء . . .

٤ ـ بالرغم من ان الامبراطورية الجديدة التي نرغب في تأسيسها ستكون مرؤوسة بخليفة ، الا ان اساسها سيكون قومياً وليس دينياً . وستكون امبراطورية عربية وليست اسلامية .

٥ ـ سيكون للعرب المسيحيين ، والدروز . . نفس الحقوق التي للمسلمين ، الا ان اليهود سيخضعون لقانون خاص »[٣٣] .

وبعد ذلك ببضعة اسابيع ، جرى لقاء بين الفاروقي ومدير الاستخبارات العسكرية البريطانية في مصر . وفي هذا اللقاء ادعى الفاروقي « ان تركيا والمانيا تدركان الوضع تماماً وقد فاتحتا فعلاً زعماء جمعية العربية الفتاة ، بل وذهبتا الى حد اعطائهم وعداً بتلبية كافة مطالبهم »[٣٤] . ومضى الفاروقي يقول : « الا ان الجمعية تميل ميلاً قوياً الى انكلترا ، التي تعتبرها الدولة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها . . . اننا نفضل ان نحصل على وعد من انكلترا بنصف ما تعدنا به تركيا والمانيا »[٣٥] .

لقد كانت الدوافع الذاتية لادعاءات الفاروقي واضحة تماماً . فقد كان الرجل يبذل كل ما في وسعه ليكون مقنعاً ، ولو على حساب الحقيقة . ومع ذلك ، فإن تصريحه السابق ، بالرغم من انه ربما كان قد حظي بتصديق الانكليز واثر على سياستهم اللاحقة ، فقد كان في الواقع لا اساس له من الصحة .

ومن الواضح ان الفاروقي قد ترك انطباعاً قوياً لدى السلطات البريطانية في مصر: فقد كتب مدير الاستخبارات العسكرية الى وزير الحربية : « ان جواباً مُرضياً على المقترحات العربية ، حتى ولو لم يلبِّ كافة مطامحهم ، سيؤدي على الارجح الى كسب صداقتهم . **ان القادة ذوي النفوذ يبدون متعقلين ومستعدين لقبول مشروع اقل طموحاً بكثير من ذلك الذي وضعوه. . . .ومن جهة اخرى، فإن رفض** المطاليب العربية برمتها او حتى السعي للتهرب من الموضوع ، سيؤدي الى ارتماء حزب العربية الفتاة في احضان العدو . وسوف تستخدم اجهزتهم على الفور ضدنا في جميع الاقطار العربية . . مما سيؤدي حتماً الى نتائج بعيدة الاثر ، وفي ظل الازمة الراهنة ، سيكون بمثابة كارثة »[٣٦] .

وفي برقية مهمة جداً من السير مارك سايكس الى السير برسي كوكس ، جرى بحث هذه الامور بمزيد من التفصيل : « انهم (الجمعية العربية) مضطرون لأسباب سياسية الى المطالبة

(٣٣) F.O. 882/15/PNA/15/6/9, «Intelligence Department, War Office, Cairo, 12 September 1915, Statement of Captain X (Farugi),».

(٣٤) F.O. 882/13/MES/15/13, «Cairo, 11 October 1915,».

(٣٥) المصدر نفسه .

(٣٦) المصدر نفسه . (التشديد من المؤلف) .

بـالاستقـلال المطلق ، وهـذا مـا يفسـر الى حـد مـا عـدم صـراحـة اعضـاء الجمعيـة من الاسـرى حـول الموضوع »[٣٧] . . . « ان طموحهم الحقيقي هو استقلال سوريا والحجاز ، وتـأليف دولة تقـدمية من ولايـات دمشق ، وبيـروت ، وحلب ، والمـوصـل ، وبغـداد وسنـاجق اورفـة ، وديـر الـزور، والقـدس ، تحت حكم الشريف . الا ان هذا مشروط بالاتفاق مع فرنسا وبريطانيـا العظمى . وتكـون لفرنسـا سيطرة تـامة عـلى كافـة المشاريع والمرافق التعليمية الخاصة في منطقة غربي الفرات وحتى دير الزور وفي فلسطين (كذا) ولا يستخدم اي اوروبيين ما عدا الفرنسيين من قبل الدولة العربية في تلك المنطقة ، الا ان الدولة العربية غـير ملزمة بـاستخدام المستشـارين الاوروبيين الا بمحض ارادتهـا . . وتكون لبـريطانيـا العـظمى بعض الحقـوق في العـراق والجـزيـرة العربية ، وتكون مدينة البصرة والاراضي الـواقعة جنـوبي الكويت وحتى الفـاو تحت السيطرة البـريطانيـة بشكل مطلق . اما الاراضي الواقعة شمالي خط الاسكندرونة ، وعينتاب ، واورفة فتكون فرنسية بشكل مطلق » .

ويختتم سايكس برقيته بلهجة ساخرة وغير اخلاقية بعض الشيء : « اذا اصبح لنـا احتكار دائمي للمشاريع وللمساعدات الاوروبية العسكرية والمدنية في مقاطعات الموصل وبغداد والبصرة ، واذا اصبحنا نـدير مقـاطعتي بغداد والبصـرة طيلة مدة الحـرب ، فأعتقـد اننـا لا يجب ان نخشى المستقبـل ، وسـواء نجحت العروبة ام لم تنجح ، فلن نكون قد خسرنا شيئاً »[٣٨] .

والظاهر ان الفاروقي قد بالغ في التوسع في اسلوبه (الاقناعي) بتقديمه تنازلات واسعة وغير مخول بها للانكليز ، ولاسيما وان ممثلي (العهد) و(الفتاة) كانوا قد قدموا في ٢٣ ايـار / مـايو ١٩١٥ ، في دمشق ، خـطة عمل الى فيصـل تحدد الشـروط التي يكون الـزعماء العـرب مستعدين بموجبها للتعاون مـع بريـطانيا العـظمى ضد تـركيا . وفي هـذا البروتـوكول طـالب القوميون العرب بما يـلي : « اعتراف بـريطانـا العظمى بـاستقلال الاقـطار العربيـة الواقعـة ضمن الحدود التالية :

شمـالاً : خط مرسين ـ ادنة الى خط عـرض ٣٧ ومن ثم على امتـداد خط بيريجيـك ـ اورفـة ـ مـاردين ـ ميديات ـ جزيرة (ابن عمر) ـ وحتى الحدود الفارسية .

شرقاً : الحدود الفارسية حتى الخليج العربي .

جنوباً : المحيط المندي (باستثناء عدن ، التي تبقى على وضعها) .

غرباً : البحر الاحمر والبحر المتوسط رجوعاً الى مرسين .

الغاء كافـة الامتيازات الممنوحة للاجانب بموجب المعاهدات .

عقد تحالف دفاعي بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة المقبلة .

---

(٣٧) اليس من الجائز ان هؤلاء الاسرى كانوا اما غير عالمين بتنازلات الفاروقي ، او غير مؤيدين لها ؟

(٣٨) F.O. 882/13/MES/15/18, «22 November 1915,».

منح بريطانيا العظمى الافضلية الاقتصادية »[39] .

وازاء هذه الخلفية ، يمكننا ان نذكر ان التنازلات التي قدمها الفاروقي ، وبعده الحسين ، لم تخرج وتنحرف فقط عن البرنامج الاساسي المتفق عليه بين القوميين العرب ، بل كذلك أعاقت وشوهت نمو القومية العربية والغمت العلائق الانكلو- عربية . اننا نواجه هنا تنازلات قدمها (ممثل) مفترض لحركة معينة بدون معرفة رفاقه المسبقة ، ناهيك عن موافقتهم . وقد توقعت الاغلبية الساحقة من القوميين العرب ، فيما بعد ، نظراً لعدم معرفتهم بالاتفاقات الحقيقية ، تحقيق الحد الاقصى من اهدافهم . ومن جانبهم ، غالى الانكليز في تقدير (تعقل) القوميين العرب واقنعوا انفسهم بالانطباع الزائف بأن الفاروقي ، او حسين او نوري السعيد كانوا الممثلين الحقيقيين للقوميين العرب . وعندما حلت (ساعة الصدق) ، كان من الصعب جداً تحاشي الاصطدام العنيف بين القوميين العرب ، بكل شعورهم بالمرارة والاحباط، وبين الوجود البريطاني في الوطن العربي .

الا ان الانكليز كانوا آنئذٍ يتفاوضون مع حسين شريف مكة . وكان نجاح هذا الحوار ، بالاضافة الى انعدام اية مرونة سياسية من جانب الاتراك[40] ، عاملين رئيسيين في قيام ثورة الحجاز عام ١٩١٦ . ان التأثير العام لهذه الحركة على العراقيين ، والمواقف التي اتخذها الوطنيون العراقيون تجاه الثورة الهاشمية تستحق بعض العناية .

رابعاً : الضباط العراقيون والثورة الهاشمية ١٩١٦- ١٩١٨

إن ثورة الحجاز ، التي ساعدتها الحكومة البريطانية عسكرياً وسياسياً ومالياً ، قد اعتبرت ، بحق عملاً موالياً لبريطانيا ، موضوعياً على الاقل . ولذلك فإن الحدث برمته قد طرح فيما بعد مسألة مدى الالتزام البريطاني تجاه القومية العربية . وبالنسبة للقوميين العرب ، كانت المسألة التي تواجههم تتعلق بما اذا كان هذا التحالف امراً مرغوباً فيه وجديراً بالثقة .

قامت حركة الحجاز مباشرة بعد شنق عدد من القوميين العرب السوريين ، بأمر من جمال باشا(الحاكم التركي واحد قادة الاتحاديين). واذا اخذنا ايضاً بنظر الاعتبار العداء المتأصل للاتراك بين الوطنيين السوريين ، كان من المنطقي ان تستقبل ثورة الحجاز بالترحيب في سوريا[41] . اما في مصر ، فقد كان رد الفعل هو الادانة العنيفة[42] . وحتى رشيد رضا ،

(٣٩) Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*, p. 157.

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٤١) في تشرين الاول / اكتوبر ذهب فيصل ، بالنيابة عن ابيه ، الى دمشق وعقد عدة اجتماعات مع القوميين العرب لبحث الوضع . ومن بين العناصر المهمة التي قابلها هناك ، علي رضا الركابي (ممثل « العربية الفتاة ») وياسين الهاشمي وعدة ممثلين آخرين للرأي العام السوري . وقد شجعت هذه الاتصالات فيصل على تبني فكرة القيام بثورة ضد الاتراك . وفي اواخر عام ١٩١٤ ارسلت « العربية الفتاة » فوزي البكري الى الحجاز للتباحث مع حسين حول ضرورة الثورة العربية .

(٤٢) اعتبرت حركة الحجاز في مصر مؤامرة بريطانية لكسر الوحدة الاسلامية . واصدر علماء الازهر فتوى =

الذي اشترك في الاتصالات مع الانكليز ، انتقد عمل حسين علانية[٤٣] .

وفي العراق خضع رد الفعل لعوامل متباينة : « ان انباء تمرد الشريف لم تثر اي انفعال خاص في العقول البطيئة الحركة للاناس المحليين (كذا) . والكثيرون ليس لديهم من المعلومات ما يكفي لادراك اهمية الحدث او حتى التصديق به على الاطلاق . والحزب الموالي للاتراك (الذي يرأسه عدد من الموظفين السابقين) يرون ان الشريف لم يكن محقاً باثارته مسألة الاستقلال العربي في الوقت الذي تخوض فيه تركيا حرباً . اما العرب الشيعة ، الذين يتعاطفون معنا بالطبع (كذا . . .) ، فيبدو انهم مسرورون ويأملون ان يشمل اعلان الشريف العراق . اما السنّة القلائل (وبينهم عدد من انصار العروبة) فهم فرحون . . »[٤٤] .

ويمكن تفسير الموقف المتعاطف للفرات الاوسط بعاملين : تحدر الهاشميين من سلالة علي ومركزهم الديني ، وكذلك تـوافق ثورة الحجاز مع عملين مماثلين قام بهما ابناء الفرات الاوسط في العراق ، وهما السيطرة على النجف في نيسان / ابريل ١٩١٥ وعلى كربلاء في ايار / مايو ١٩١٦ .

حقاً ، ان (انباء تمرد الشريف لم تثر اي انفعال خاص) في العراق . فالسلطات البريطانية في العراق ، التي كانت امتداداً لحكومة الهند، كانت في الواقع تعارض (مغامرة) الحجاز[٤٥] . ونتيجة لذلك ، فإن الانكليز في العراق هم الذين منعوا انتشار انباء الحركة الموالية لبريطانيا في الحجاز وقللوا من اهميتها السياسية .

ومع ذلك ، فقد كان ثمة عوامل اخرى وراء عدم قيام رد فعل ايجابي قوي ازاء الحركة الهاشمية بين الوطنيين العراقيين . فلم يكن الهاشميون ، قبل عام ١٩١٦ ، جزءاً فعالاً من الحركة القومية العربية . لقد تقلد حسين امارة الحجاز في عام ١٩٠٨ ، واصبح ولداه ،

---

* تدين « الخونة والمرتدين الذين يؤيدون صنيعة الانكليز الملك حسين بن علي » . انظر : محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، ٢ج (القاهرة : ١٩٥٦) ، ص ٣٩ .

(٤٣) المنار (القاهرة) ، السنة ١٩ (١٩١٦) ، ص ١٥٦ ، وشكيب ارسلان ، السيد رشيد رضا او اخاء اربعون سنة (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٧) ، ص ٢٠٣ و ٢٤٠ .

(٤٤) F.O. 882/25/15, «Arab Bureau Papers,».

(٤٥) كتب موبرلي : « لم ترحب سلطات الهند بالفكرة. ولم تكتم رأيها في ان هذا العمل سيعتبر من قبل عدد كبير جداً من المحمديين في داخل الهند وعلى حدودها ، مدفوعاً من قبلنا وبالنتيجة تدخلاً مسيحياً في شؤون دينهم ، وقد تكهن حاكم الهند بأن سلطة الشريف ستكون غير كافية لمنع العرب في ما بين النهرين من الانضمام الى الاتراك . وقد رفع الشريف راية الثورة في اوائل حزيران / يونيو ، وسرعان ما اصبح واضحاً ان اعداد كبيرة من المحمديين في الهند والحدود الشمالية الغربية اعتبروه وقومه العرب اعداءاً للاسلام . مما سبب للسلطات في الهند كثيراً من المتاعب والقلق » . انظر :

Frederick James Moberly, ed., *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918: History of the Great War Based on Official Documents*, 4 vols. (London: His Majesty's Stationary Office [H.M.S.O.], 1923-1927), vol. 3, pp. 26-27.

فيصل وعبدالله ، نواباً عن الحجاز في مجلس النواب العثماني . وخلال هذه الفترة لم يشترك اي واحد منهم في النشاط القومي العربي او يظهر اي تعاطف مع اهدافها . وقد اعترف فيصل لانطونيوس بأنه ، الى ما قبل عام ١٩١٥ ، لم ينتم الى اية جمعية عربية(٤٦) . وفي الواقع ، كان د. احمد قدري هو الذي عرف فيصل ، في ربيع ١٩١٥ ، بأهداف (الفتاة)(٤٧) . ومع ذلك ، فقد كان الهاشميون ، بفضل مركزهم الديني ، يتمتعون دائماً بمكانة طيبة بين الاوساط القومية العربية . ومنذ ايام الكواكبي وحتى محاولات السيد طالب و(الفتاة) ، كان الهاشميون يعتبرون افضل المرشحين للخلافة العربية . وبعد تثبيت هذه الحقيقة ، من المهم ملاحظة ما يلي : (أ) ان القوميين العرب لم يعرضوا ابداً القيادة السياسية على الهاشميين ، بل مجرد السلطة الدينية ؛ (ب) ان برنامج (العهد) قد اوضح ان الخلافة يجب ان تبقى في ايدي العثمانيين .

ان السلوك الاستبدادي لحسين نفسه في توجيه الشؤون السياسية ، والعسكرية لم يهيء طرازاً مقبولاً في القيادة السياسية . ويكفي ان نذكر في هذا الصدد ان فيصل نفسه قد ظل حتى عام ١٩١٩ ، في جهل تام بمضمون الاتفاقات التي عقدها ابوه مع الانكليز(٤٨) . كما قدم عبدالله صورة انتقادية جداً عن (معلومات) والده العسكرية ، او بالاحرى جهله ، والذي زاده سوءاً استياؤه من اية نصيحة تقدم اليه ، حتى من اقرب الناس اليه(٤٩) . ونجد مثل هذه الانطباعات لدى عرب آخرين ، مثل عزيز المصري ، ورشيد رضا وغيرهم .

ان البرنامج الهاشمي الذي اتسم بنظرة محافظة(٥٠) لم يكن مركز جذب للقوميين العرب الشبان . وقد اتهم بيان الثورة الاتحاديين بـ « تقليص سلطة السلطان العظيم مما يعد مخالفة للشرع . . . وجعل الصلاة والصيام امراً اختيارياً في القوات المسلحة . . . ومضايقة بعض العوائل الغنية . . . والدعوة للمساواة بين الذكور والاناث في الارث . . . واعطاء الحرية لبعض الصحف المناوئة للاسلام » . ووعد البيان بتحقيق الاستقلال التام للعرب وتشكيل حكومة تقوم على احكام الشرع الاسلامي . ومما تجدر الاشارة اليه بوجه خاص ان البيان لم يثبت حدود الدولة العربية الموعودة(٥١) .

---

(٤٦) Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*, p. 132.

(٤٧) قدوري ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، ص ٤٦ .

(٤٨) كشف فيصل لغروترود بيل عن انه خلال وجوده في باريس عام ١٩١٩ (لحضور مؤتمر الصلح) كان والده «يلح علي باستمرار ان اجبر الحلفاء على تحقيق وعودهم للعرب ، تلك الوعود التي لم اكن اعرف عنها شيئاً حيث اني لم اطلع قط على المراسلات مع مكماهون » . انظر : Bell, «Private Letters and Papers,» p. 6.

(٤٩) عبدالله بن الحسين ، مذكرات عبدالله بن الحسين (القدس : ١٩٤٥) ، ص ١٧٤ وما بعدها .

(٥٠) ذكر عبدالله في مذكراته ان العرب بدون خليفة عثماني كانوا « جسداً بلا رأس » ، وامتدح حكم عبد الحميد ، وهاجم اصلاحات الاتحاديين ، وحتى فكرة الخلافة العربية . انظر : المصدر نفسه ، ص ٢١ ـ ٢٦ ، ٣٤ ـ ٣٥ و ١٢٧ .

(٥١) اضيفت هذه النقطة من قبل السلطات البريطانية في القاهرة ، التي ادخلت بعض التعديلات على البيان الاصلي .

وقد سبق ان اشرنا في هذا البحث الى ان المصلحين الاسلاميين والقوميين العرب ، بالرغم من تمسكهم الشديد بالاسلام ، كانوا يعارضون الاشكال المحافظة للاسلام ، ويؤيدون الاصلاحات الدستورية ومحاولات تجديد الاسلام . وكان مفهوم (الاسلام) عند هذه الفئات يكمن في المحافظة على الخلافة ووحدة المسلمين ضد النفوذ الغربي ، وهي مهمات لم تكن تنسجم مع جهود حسين .

ويقودنا هذا مباشرة الى عامل مهم آخر ساهم في اضعاف شعبية حركة الحجازيين القوميين العرب ، واعني به العلائق الوثيقة للثورة بالحكومة البريطانية(٥٢) .

إن جميع هذه العوامل كانت مسؤولة عن الضعف الأولي لحركة الحجاز في اجتذاب حماسة الوطنيين العراقيين . وقد تجلى ذلك في التردد الذي ابداه القوميون العراقيون في قبول العرض البريطاني بالانضمام الى ثورة الحجاز(٥٣) . ولو تقصينا ظروف الضباط الذين التحقوا بالحركة ، لوجدنا ان جميعهم تقريباً كانوا اسرى لدى الانكليز . وكانوا مخيرين بين (التطوع) في خدمة الحجاز ، او البطالة ، او البقاء في معسكرات الاسر البريطانية . وحتى نوري السعيد ، الذي اصبح فيما بعد ابرز الدعاة الموالين للانكليز بين (القوميين) العرب آنئذٍ ، قد ابدى في الواقع تردداً ملحوظاً ، بالرغم من حكم الاعدام الصادر عليه ، قبل ان يقرر الانضمام نهائياً الى الثورة الهاشمية . كما ان جعفر العسكري(٥٤) (وهو ضابط وسياسي بارز آخر حاول فيما بعد ان يوفق بين ميوله الموالية للانكليز ومطامحه القومية العربية) لم ينضم الى خدمة الحجاز (حيث اصبح قائداً عاماً لقواتها) الا بعد وقوعه في الاسر بيد القوات البريطانية . الا انه من الجدير بالذكر ان المخابرات البريطانية ضبطت رسالة ذات مدلول معين ارسلها اليه جمال باشا . وقد طلب اليه فيها ان يتخلى عن خدمة الحجاز ويعود الى القوات العثمانية ويتذكر « الحماس والعزيمة الصادقة التي كنت تتطلع بهما الى تحرير مصر »(٥٥) . ومن الجدير بالذكر ان ضابطين واخوين لجعفر (علي رضا وتحسين) رفضا الانضمام الى الهاشميين الى ما بعد سقوط دمشق .

---

(٥٢) Lloyd George, *Memoirs of the Peace Conference*, vol. 2, p. 663.

(٥٣) Bell, «Private Letters and Papers,» «Memorandum, Aims,» [n.d.] , p. 3.

ذكرت غرترود بيل ان « الاحترام الذي يثيره اسمه [اي حسين] دون شك مبعثه مركزه الديني باعتباره الشخص الاول في الاسلام ، وليس زعيماً سياسياً . وفي الوقت نفسه ثمة شواهد متفرقة على كونه يعتبر مركز الوحدة العربية ، ليس بين سكان المدن الاكثر ثقافة ، بل بين العشائر و« السادة الريفيين » .

(٥٤) اكمل جعفر العسكري (١٨٨٤ـ ١٩٣٦) دراسته الثانوية في بغداد والموصل عام ١٩٠١ . وفي ١٩٠٤ تخرج ملازماً في الجيش العثماني وخدم في العراق . وفي عام ١٩١٠ ارسل الى المانيا للاشتراك في التعليم العسكري ، وربما كان غيابه في المانيا (١٩١٠ ـ ١٩١٤) يفسر عدم اشتراكه في « العهد » . وفي عام ١٩١٥ عين في ليبيا للمشاركة في الهجوم على مصر . وفي ٢٦ شباط / فبراير ١٩١٦ وقع في اسر الانكليز (وكان آنئذٍ برتبة عقيد) . وبعد شيء من التردد التحق بالحجاز في نهاية ١٩١٦ . كان ذا كفاءات ادارية وعسكرية عالية ، وربما كان الرجل الوحيد الذي احرز وسام الصليب الحديدي الالماني والـ C.M.G. البريطاني .

(٥٥) F.O. 371/3395/12077, «Dated 1917,».

والواقع ان اولى بذور الانقسام بين القوميين العراقيين ظهرت آنئذٍ حول مسألة الموقف الواجب اتخاذه ازاء حركة الحجاز في ضوء علائقها الوثيقة مع الانكليز . وقد رفض عدة ضباط قوميين ، حتى النهاية ، فكرة الانضمام للحركة[٥٦] . فقد امتنع طه الهاشمي[٥٧] (الذي وصل آنئذٍ الى اليمن) عن الالتحاق بالثورة الهاشمية . وبرر هذا الموقف بتخوفه من النوايا البريطانية وشكك في حكمة التعاون مع الانكليز[٥٨] . كما وقف ياسين الهاشمي (١٨٨٠-١٩٣٧) ، وهو زعيم بارز آخر في (العهد) (كان خلال الحرب يخدم في سوريا) موقفاً مماثلاً . وحتى عندما اصبح سقوط دمشق وشيكاً ، رفض عرض فيصل ، المرسل بواسطة مبعوث خاص ، للانضمام الى الجيش العربي . وقال ياسين للمبعوث « ان الانكليز ليسوا مخلصين لفيصل ولا لأبيه . فبعد ان وعدوا بتأسيس دولة عربية ، اتفقوا مع اليهود واصدروا وعد بلفور ، واتفقوا ايضاً مع الفرنسيين على اعطائهم سوريا ، كما ربطوا العراق بالهند . . . »[٥٩] . وعندما سقطت دمشق بيد القوات البريطانية والعربية (٣ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٨) توارى ياسين عن الانظار حتى زاره علي جودت ونوري السعيد وجميل المدفعي . وقرر ياسين ، بعد حديث طويل ، التخلي عن تردده بالانضمام الى زملائه[٦٠] .

ومن جهة اخرى ، قرر عدد كبير من الضباط العراقيين الانضمام الى ثورة الحجاز . وكانوا جميعاً اسرى حرب ، اقنعتهم السلطات البريطانية وبعض زملائهم العرب باستخدام معلوماتهم العسكرية في خدمة الهاشميين . ولا يعني ذلك ان حافزهم الوحيد كان الحصول على حريتهم . فقد كانت المخاطر التي تنطوي عليها حرب الحجاز ، لاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار كونهم ضباطاً عثمانيين سابقين ، ذات عواقب كبيرة . وكان العرب الذين ساهموا في تعبئة الضباط العرب هم اناس مثل نوري السعيد ، ومزاحم الباجچي ومحمد الشريف

---

(٥٦) رفض الضباط العراقيون التالية اسماؤهم الالتحاق بالحجاز (وكانوا جميعاً ذوي ميول قومية عربية) : محمود سامي ، سامي النقشلي ، جميل قبطان ، محمود رامز ، شاكر القرغولي ، محيي الدين السهروردي ، سليمان فتاح ، حسين علوان ، شاكر محمود (بغداد) وشاكر محمود (المسيب) .

(٥٧) تخرج طه الهاشمي (١٨٨٨ - ١٩٦١) من الاكاديمية العسكرية في الآستانة عام ١٩٠٦ ومن كلية الاركان عام ١٩٠٩ . وكان احد مؤسسي « العهد » وهو الذي كتب برنامجه ونظّم عدداً كبيراً من الضباط العراقيين في صفوفه ، وفي كانون الاول / ديسمبر عين في اليمن . وفي عام ١٩١٨ اصبح عقيداً وبقي على ولائه للعثمانيين . وفي عام ١٩١٩ وقع في الاسر في عدن وغادرها الى الآستانة .

(٥٨) اعترف الهاشمي ، بكل تواضع ، بأنه بعد نهاية الحرب استقبل ببرود من جانب فيصل في دمشق . وقد رفض فيصل اعطاءه وظيفة واخبره بخشونة : « اننا لا نحتاج اليك الآن ، لقد جئت بعد فوات الأوان » . انظر : طه الهاشمي ، مذكرات طه الهاشمي ، ١٩١٩- ١٩٤٣ ، مع تحقيق ومقدمة في تاريخ العراق الحديث بقلم خلدون ساطع الحصري (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٧) ، ص ٥٧ ، ٨ ايار / مايو ١٩١٩ .

(٥٩) امين محمد سعيد ، الثورة العربية الكبرى : تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن ، ٣ج (القاهرة : البابي ، ١٩٣٥ - ١٩٣٦) ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٦٠) علي جودت ، ذكريات علي جودت ، ١٩٠٠- ١٩٥٨ (بيروت : مطابع الوفاء ، ١٩٦٧) ، ص ٦٨-٦٩ .

الفاروقي ، وعلي جودت . وقد كانوا جميعاً ذوي سمعة طيبة بين القوميين العرب آنئذٍ ، وفي الواقع ، تشكلت لجنة من اعضاء (العهد) في القاهرة بهدف « أ ـ تنظيم شبكة تجسس ضد الاتراك بالتعاون مع السلطات العسكرية البريطانية ؛ ب ـ تجنيد العرب في فلسطين ومعسكرات الاسرى للجيش العربي الشمالي »(٦١) .

وعلى هذا الاساس ، وصلت اول دفعة من الضباط العرب الى الحجاز في تموز / يوليو ١٩١٦ . وكانت تتألف من ١١ ضابطاً ، منهم ثمانية عراقيين من ضمنهم نوري السعيد(٦٢) . وفي ٥ ايلول / سبتمبر ١٩١٦ ، وصل عزيز علي المصري الى الحجاز وعين رأساً وزيراً للدفاع . ووصلت الدفعة الثانية من الضباط العرب الى الحجاز في كانون الاول / ديسمبر ١٩١٦ . وكانت تتألف من ٣٥ ضابطاً ، بضمنهم ٢١ عراقياً هم : مولود مخلص ، وعلي جودت، وعبداللطيف نوري ، وجميل المدفعي ،وعبد الحميد الشالجي وعبدالله الدليمي وغيرهم(٦٣) . واستمر الضباط العراقيون في الذهاب الى الحجاز(٦٤) لخدمة (الثورة) .

ومن المفارقات (الطريفة) ان الضباط العراقيين الذين تحملوا عبء (الثورة) لم يسمح لهم الانكليز ، آنئذٍ ، بالبقاء في العراق او القيام بدور مماثل في قطرهم الاصلي . ففي اثناء الفترة العصيبة لحصار الكوت اقترحت وزارة الخارجية البريطانية على مكتب الهند ارسال المصري والفاروقي الى العراق للمساعدة في تنظيم مقاومة عربية ضد الاتراك . وفي ٣٠ آذار / مارس ١٩١٦ ، ابرقت البصرة الى وزارة الهند برفض الاقتراح وذكرت انه « يبدو لنا ان آراءهم السياسية متقدمة جداً وغير مأمونة . . . وان وجودهم في . . . العراق هو في رأينا امر غير مرغوب فيه وغير مريح »(٦٥) . وفي اليوم التالي ابلغ مكتب الهند وزارة الخارجية انه « يستنكر هذه البعثة مهما كانت الظروف »(٦٦) .

---

(٦١) F.O. 882/24/SY/19/4.

(٦٢) الآخرون هم : رشيد المدفعي ، سعيد المدفعي ، محمد حلمي ، راسم سردست ، داود صبري ، ابراهيم الراوي ، ورشيد الهاشمي .

(٦٣) شاكر الشيخلي ، رشيد الانكلري ، برقي العسكري ، عبد الكريم شاه ، حامد الوادي ، رشيد خماس ، شاكر الوادي، شاكر عبد الوهاب ، عبد الرزاق الخوجه ، شاكر النائب ، جمال علي ، رؤوف الشيخلي ، عبد الرؤوف الغلامي ، وعبد الكريم التاتار .

(٦٤) كان من ضمن الضباط العراقيين البارزين الذين وصلوا بعد ذلك : جعفر العسكري ، رمضان شلاش ، محمد الشهواني ، صبري العزاوي ، سامي صبري ، ثابت عبد النور ، تحسين علي ، ناجي شوكت ، عبد الغفور البدري ، ابراهيم كمال ، اسماعيل نامق ، سعيد يحيى ، حامد الهاشمي ، حامد القشطيني ، عبدالله صالح ، اسماعيل صابر ، سليمان مسرور ، عبد المجيد الشيخلي ، احمد ناجي الباجه جي ، وغيرهم .

(٦٥) F.O. 883/13/MES/16/7, «From General P. lake (Commander of the British Force in Mesopotamia)- no. 1040,».

(٦٦) F.O. 371/2768/61639.

وقد لعب هذا التناقض دوراً كبيراً في خلق نزعات متضاربة في نظرة الضباط السياسية ، وساد بينهم شعور بالعداء تجاه الادارة البريطانية في العراق . الا ان هذا العداء كان يلطفه احساس بالتحالف مع الانكليز في القاهرة والحجاز وسوريا . ولم يكن من الغريب ان نجد العداء السياسي تجاه الانكليز اكثر شدة وعنفاً بين الوطنيين العراقيين الذين كانوا داخل العراق ، او خارج صفوف حركة الحجاز ، منه بين اولئك الذين ساهموا فعلاً في الحركة الهاشمية . ومن الجدير بالذكر ايضاً ان الانكليز كانوا عرضة للظاهرة نفسها ، فالذين خدموا في العراق ، الذي خلا آنئذٍ من كوادره الادارية المحلية ، نشأت لديهم فكرة سيئة عن صفات العراقيين في الادارة الذاتية ، في حين ان الانكليز الذين عملوا في الحجاز وسوريا واحتكّوا بالنخبة العراقية كانوا اكثر اقتناعاً بكفاءات العراقيين الادارية والسياسية[٦٧] ، واستطاع (الوطنيون) العراقيون الاكثر دهاء (مثل السعيد والعسكري ، وبالدرجة الاولى فيصل) ان يفهموا هذا التناقض في السياسة البريطانية وان يتصرفوا وفق هذا الفهم .

الا انه من المهم الاشارة الى ان الضباط العراقيين الذين خدموا في الحجاز لم يصبحوا موالين للانكليز بصورة تامة . ولم تنطمس مطامحهم القومية بفعل تحالفهم الموضوعي[٦٨] . وقد ذكر نوري السعيد انه عندما وصلت انباء تصريح بلفور (٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧) الى الحجاز ، تكدر الضباط العراقيون كثيراً ورفضوا القيام بأية عمليات عسكرية ضد الاتراك ما لم يوضح الانكليز الامر[٦٩] . وبعد احتلال العقبة (تموز / يوليو ١٩١٧) نشب خلاف جدي . فقد اظهر الضباط العراقيون بقيادة مولود مخلص[٧٠] (قائد الفرقة العربية الاولى) استياءهم في الزحف شمالاً (نحو معان وبالتالي سوريا) ورفض الخطة التي رسمها الانكليز (لورنس وجويس) لابقائهم جنوب معان . وفي نيسان / ابريل ١٩١٨ ، كتب مخلص وزملاؤه رسالة شديدة اللهجة الى الامير فيصل : « اننا لم نلتحق بالجيش العربي الا لخدمة القضية العربية وتخليص وطننا من الاتراك ، وليس للحصول على رواتب من انكلترا . . ولسنا نرى سبباً في تأخير زحفنا نحو الشمال اللهم الا النوايا السيئة للانكليز وصنائعهم »[٧١] .

---

(٦٧) يجد المرء تناقضاً طريفاً وواضحاً في كتابات لورنس ويونغ من جهة (المدرسة الليبرالية)، وولسن وتوماس ومان ولايل (المدرسة الاستعمارية المتشددة) من جهة اخرى ، فيما يتعلق بالصفات الادارية للعراقيين .

(٦٨) Sir Hubert Young, *The Independent Arab* (London: Murray, 1933), pp. 196-198.

(٦٩) نوري السعيد ، خطاب في مؤتمر لندن عن فلسطين ، ١٩٣٩ (بغداد : ١٩٣٩) .

(٧٠) مولود مخلص (١٨٨٤- ١٩٥٤) نشأ في عائلة تكريتية تقطن الموصل، اكمل دراسته الثانوية والتحق بالاكاديمية العسكرية في الآستانة عام ١٩٠١ ، وفصل مرتين من الجيش بسبب انتقاده لعبد الحميد . كان عضواً فعالاً في جمعية الاتحاديين وساهم في انقلاباتهم . في عام ١٩١٣ انظم الى « العهد » ، ثم هرب من الجيش العثماني وذهب الى البصرة حيث التحق منها بالحجاز واعتقل هناك بعد فترة وجيزة من الحادث المشار اليه .

(٧١) محمد امين العمري ، تاريخ حرب العراق خلال الحرب العظمى ، سنة ١٩١٤- ١٩١٨ ، ٣ج (بغداد: المطبعة العربية، ١٩٣٥) ، ج٢ ، ص ٢٤٤ .

وكان اخطر هذه الحوادث واكثرها دلالة ما يتعلق بعزيز المصري . فعلى اثر وصوله الى الحجاز عين وزيراً للدفاع وقائداً للقوات العربية . وارجح الظن ان تعيينه، او حتى وصوله ، اللذين لم يكونا موضع ارتياح الملك حسين(٧٢) ، قد جاءا نتيجة الضغط البريطاني(٧٣) اكثر منهما بتأثير الضباط القوميين(٧٤) . الا انه على حين غرة (في كانون الاول / ديسمبر ١٩١٦) ، وفي ظروف غامضة ، غادر عزيز الحجاز الى مصر . والظاهر انه كان يدبر (مؤامرة) كبيرة ، كانت تؤدي ، في حال نجاحها ، الى تغيير جذري في مسيرة الحركة القومية العربية .

وقد كتب مجيد خدوري : « كان عزيز علي ، كما اخبرني هو ، قد اقترح انه عندما يصبح الهجوم على (المدينة) وشيكاً في تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٦ يقوم فريق من ثلاثة اشخاص بالاتصال سراً بالقيادة العثمانية في المدينة ويعرضوا عليها . . . تشكيل قوة عثمانية وعربية مشتركة ، تحت قيادته ، تتحرك فوراً نحو مكة ، وتسيطر على القيادة العامة بدلاً من الشريف حسين ، وتتفاوض حول تسوية سلمية مع الباب العثماني على اساس قيام حكم ذاتي عربي كامل ضمن الخلافة العثمانية . وفكّر عزيز علي ايضاً في التفاوض مباشرة مع السلطات الالمانية والعثمانية في سوريا بهدف الوصول الى اجراء مماثل بالنسبة للاراضي العربية الاخرى . . . الا ان ضباط الجيش الذين كانوا يحبذون التعاون مع الانكليز ابلغوا الشريف علي بخطط عزيز »(٧٥) .

وهذا يعكس حقيقة ان بعض القوميين العرب لم يكونوا كبيري الثقة في حلفائهم الانكليز او في قيادة حسين ، كما لم تكن ميولهم الموالية للعثمانيين قد زالت تماماً . ان القصة التي رواها المصري لخدوري قد اكدها ، بشكل غامض بعض الشيء ، مصدران موثوقان آخران(٧٦) وكذلك سلوكه اللاحق (المصري) . وقد سرد علي جودت في مذكراته ، روايتين متناقضتين عن هذه الحادثة فهو من جهة ، انكر ان يكون المصري قد نوى اجراء مثل هذه الاتصالات(٧٧) . الا انه اعترف من جهة اخرى بأنه ارسل خطاباً بالشِّفرة الى فخري باشا (آمر المدينة) لايصاله الى طلعت باشا في الآستانة، متضمناً افكاراً مماثلة لتلك المذكورة في قصة المصري ، وبدون معرفة الامير علي . وكان المصري هو الذي زود علي جودت بالشيفرة للاتصال بالاتراك في المدينة والآستانة وبه شخصياً في القاهرة(٧٨) ، الا ان علي جودت بدوره ، ابعده الانكليز من الحجاز الى مصر في اوائل عام ١٩١٧(٧٩) .

---

(٧٢) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٧٨ . « اعترض حسين على المصري بسبب حياته السياسية ومعتقداته الراسخة » .

(٧٣) Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph*, p. 75, and Storrs, *Orientations*, p. 184

(٧٤) انيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٦) ، ص ٩٨ .

(٧٥) مجيد خدوري ، نظام الحكم في العراق (بيروت : ١٩٦٥) ، ص ١٥٤ .

(٧٦) فائز الغصين ، مذكراتي عن الثورة العربية (دمشق : مطبعة الترقي ، ١٩٥٦) ، ص ٢٣٩ .

(٧٧) جودت ، ذكريات علي جودت ، ١٩٠٠-١٩٥٨ ، ص ٤٢ .

(٧٨) المصدر نفسه ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ص ٤٤ - ٤٧ .

الفصل السادس

الضباط العراقيون في موقف المعارضة للادارة البريطانية ١٩١٨ ـ ١٩٢٠

بالرغم من كل شيء ، بقيت الحوادث الآنفة الذكر مهمة من ناحيةولكن هامشية بوجه عام ، وهي تلقي ضوءاً على القلق الذي ساد اوساط القوميين العرب العراقيين ازاء مسألة التحالف مع بريطانيا وقطع الصلة مع العثمانيين . ومع ذلك ، وفي التحليل النهائي ، تبقى حقيقة ان الضباط العراقيين ، بحكم اشتراكهم الفعلي في الحركة الهاشمية ، قد دخلوا عملياً في تحالف مع سياسة بريطانيا ، ولذلك ، يكون من العدل القول انه خلال فترة ١٩١٦ ـ ١٩١٨ كان الخط السائد بين الضباط العراقيين ميالاً للانكليز .

وفي الثالث من تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٨ ، دخل فيصل دمشق التي كانت القوات التركية قد تخلت عنها . وقد صحب فيصل ضباطه العراقيون ، وانضم اليه فيها بعد فريق جديد منهم ، كان ابرزهم ياسين الهاشمي ، وفي تموز / يوليو ١٩٢٠ طُرد فيصل من سوريا على يد الجيش الفرنسي الغازي .

وفي الفترة ما بين تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٨ وتموز / يوليو ١٩٢٠ ، لم يسمح ولبسن للضباط العراقيين بالعودة الى العراق ، وهكذا بقوا في سوريا وخدموا تحت امرة فيصل . وشهدت هذه الفترة تطورين رئيسيين في المواقف السياسية للضباط العراقيين : (أ) اتساع كبير في الانقسام السياسي القائم في صفوف الضباط ؛ (ب) تدهور حاد في علائق الضباط العراقيين مع السلطات البريطانية في العراق .

اولاً : الانقسام السياسي بين الضباط العراقيين

ان جذور الانقسام السياسي بين الضباط العراقيين القوميين كانت قد ظهرت منذ

بعض الوقت بسبب اختلاف مواقفهم ازاء حركة الحجاز[1] . وكان من الطبيعي ان تتخذ هذه الخلافات شكلاً اكثر وضوحاً وحدة بعد دخول الضباط الى دمشق . ان مواجهة المهمات الجديدة المتعلقة بالدرجة الرئيسية بمستقبل العراق السياسي ، والاساليب الواجب اتباعها ، والعلاقات اللاحقة مع بريطانيا ، كانت مسائل حيوية عمقت الانقسام بين الضباط القوميين .

الا ان ثمة عوامل معينة لعبت دوراً مهماً في تأخير القطيعة النهائية بين الاوساط المتشددة او الجذرية وبين الاوساط المعتدلة او المساومة من الضباط العراقيين .

في الوقت الذي كانت فيه سياسات ولسن المتشددة مسؤولة عن نشوب الخلاف بين الضباط ، فإنها كانت ايضاً عاملاً على الحيلولة دون اتخاذ الخلاف شكل طلاق حاد ونهائي . فالجذريون رأوا في نهج ولسن تجسيداً لسياسة بريطانيا وخيانتها لالتزاماتها العربية . وطالبوا ، ومارسوا في الواقع ، اساليب عنيفة لمقاومة هذه الخطط . اما (المعتدلون) او المساومون فقد اعتبروا سياسة ولسن امراً مؤقتاً وانحرافاً عن السياسة البريطانية المرسومة . كما اعتبروا العنف امراً مثيراً للعداء وعدم الجدوى في آن واحد . وبدلاً من ذلك ، بشروا بالاساليب السياسية الاقناعية والسلبية التي بامكانها ، حسب رأيهم ، ان تغير او تعدل السياسة البريطانية . ومن جهة اخرى ، فإن سياسة ولسن ، التي لم تكن تميز بين (الاصدقاء) والاعداء العرب وتعامل الجانبين بشكل متماثل ، لعبت ، في النتيجة دوراً في تأخير القطيعة النهائية بين الجذريين والمعتدلين .

ثمة عامل آخر كان وراء المحافظة ، على الاقل ، على وحدة شكلية بين الضباط القوميين العراقيين ، وهو التكتيكات البارعة جداً للامير فيصل . فبالرغم من ان فيصل كان يتحاشى كثيراً ان يستفز الانكليز بأية صورة ، فإنه احتفظ مع ذلك بصلات قوية مع القوميين العرب المتشددين . فقد كان يدرك ان خسرانه تأييد المتشددين سيضعف مركزه التساومي ازاء الانكليز . ولكنه كان في الوقت نفسه مدركاً بدرجة مماثلة ان التورط العلني في خطط (متطرفة) سيحرمه من عطف الانكليز ، وهو العطف الذي كان يعول عليه كثيراً .

وخلال ايام الحجاز اعترف الميجر يونغ بجهود نوري السعيد في تخفيف استياء الضباط العراقيين من نظرائهم الانكليز[2] . ففي ايار / مايو ١٩٢٠ كان نوري في لندن . وفي ذلك الوقت كان الضباط العراقيون قد اصبحوا شديدي المعارضة للانكليز . ومع ذلك فقد ارسل

---

(١) بهذا الصدد يمكن التمييز بين ثلاث فئات مختلفة : ١ ـ اولئك الذين رفضوا تماماً الانضمام للحركة على اساس استيائهم من اي تعاون مع الانكليز (مثل ياسين وطه الهاشمي) ، ٢ ـ اولئك الذين اتخذوا ، منذ التحاقهم بالحركة ، خطاً واضحاً في موالاة الانكليز (مثل نوري السعيد وصهره جعفر العسكري) ، ٣ ـ وفي الوسط نجد الضباط الذين التحقوا بالحركة فعلاً ولكنهم ظلوا سياسياً متشككين في الانكليز (مثل جميل المدفعي ، علي جودت ، مولود مخلص ورمضان شلاش) .

(٢) Sir Hubert Young, *The Independent Arab* (London: Murray, 1933), pp. 197-198.

نوري البرقية التالية الى زملائه الضباط : «خلال وجودي في لندن اصبحت مقتنعاً بأن بريطانيا ، التي حررت (كذا. . .) الاقطار العربية ، لا تزال تعطف على القضية العراقية ، وخلال اسابيع قلائل ستتم تسوية المسألة في مؤتمر الصلح طبقاً لرغبات الشعب وذلك بتأسيس حكومة وطنية في جميع الاحوال . وبامكانكم اطلاع الجمهور على ذلك ليعبر عن شكره للحكومة البريطانية »(٣) .

الا ان ولسن لم يعجبه حتى ذلك ، بل ابرق غاضباً الى وزارة الهند ، يحثها على « عدم الادلاء بأية اقوال الى نوري السعيد في لندن فيما يتعلق ببلاد ما بين النهرين . ذلك انه لا يمثل مصالح هذه البلاد بأي شكل من الاشكال »(٤) .

وفي الاول من ايلول / سبتمبر ١٩٢٠ (خلال الثورة) ، وضع نوري نفسه ، للمرة الثانية ، (تحت تصرف المندوب السامي) وبقي (ينتظر التعليمات للذهاب الى العراق)(٥) . الا ان نوري ، الذي قوبل عرضه الاول للمساعدة بالرفض(٦) ، اشتكى قائلاً : « لا استطيع ان ادرك كيف يمكنني تقديم الخدمات التي تشيرون اليها في الوقت الذي انقطعت فيه صلتي ببلادي »(٧) .

ولم يكن نوري وحيداً في محاولاته . فإن ثابت عبد النور(٨) ، مدعياً النيابة عن جمعية العهد ، ارسل اقتراحاً غير رسمي الى وزارة الخارجية البريطانية مؤداه « ان الجمعية يمكن ان تقدم مساعدة قيمة لنا (الانكليز) في تهدئة الاوضاع في ما بين النهرين »(٩) . ومع ذلك، وبالرغم من اللحظات الدقيقة التي كانت تمر بها السلطات البريطانية في العراق ، فقد رفضت هذا العرض(١٠) .

والظاهر ان ولسن لم يعتبر هذه العروض مبادرات ودية ، بل (ابتزاز) فلقد كتب : « . . . ان الوضع الراهن على الفرات ناشىء الى درجة غير قليلة عن واقع ان هؤلاء السادة (الضباط العراقيين) يرغبون في جذب انتباه الحكومة البريطانية الى انفسهم بأمل ان تؤدي تهدئة الوضع الراهن الى حصولهم على مناصب جديدة في ظل الادارة العراقية »(١١) .

---

(٣) Foreign Office [F.O.] 371 / 5226 / E4539, «From Civil Commissioner, Baghdad, 5 May 1910, to India Office, Nuri's Telegrams to London,1 May 1920,».

(٤) المصدر نفسه .

(٥) F.O 371 / 5228 / E10766, «From Nuri al-Said to India Office, Dated 1 September 1920,».

(٦) F.O 371 / 5129 / E6324, «From Civil Commissioner, Baghdad, to Cairo, Dated 8 June 1920- no. 6806 I Regret that I Cannot Agree to Nuri Pasha Visiting Baghdad,»

(٧) F O. 371/5228/ E10766, «From Nuri al-Said to India Office, Dated 1 September1920,»

(٨) ثابت عبد النور مسيحي من الموصل ، ابن ملاك كبير . انضم الى « العهد » عام ١٩١٣ ونشط ابان محاكمة المصري . قاتل في الحجاز .

(٩) F.O. 371 / 5231 / E12620, «From Secretary of India Office to House of Commons , Baghdad , 13 October 1920,».

(١٠) F O 371 / 5231 / E13292, «Baghdad to India Office, 22 October 1920-no. 12708,».

(١١) F O 371 / 51 29 / E5005, «Baghdad to India Office, 27 March 1920-no. 10722,».

اما غرترود بيل فكان لها رأي مختلف : « ثمة جانب مضيء هو وصول برقية من (اللنبي) تحثنا على السماح لجعفر (العسكري) باشا بالقدوم هنا . . . ان وجود جعفر هنا ، وتعاونه معنا ، وهو امر لا بد منه ، سوف يفند الدعاية المناهضة لبريطانيا والتي كان فيصل دائماً يعترض عليها ، انه (جعفر) قد ظل يكتب لي طيلة الشتاء ، راجياً السماح له بالقدوم ، الا ان أ . ت . (ولسن) لم يسمح لي ان اظهر له اي تشجيع »[١٢] .

ومن الجدير بالملاحظة ان المس بيل لم تكن تحمل حباً مماثلاً لياسين الهاشمي . وقد ظلت حتى تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٠ تعرب عن معارضتها لعودته الى العراق[١٣] . ومنذ اوائل ١٩١٥ ، كانت المخابرات البريطانية قد شخصت ياسين باعتباره « العضو الرئيسي في (العهد)»[١٤] . وخلال اعوام ١٩١٦ - ١٩١٨ ، لم يرفض الهاشمي فقط الانضمام الى حركة الحجاز ، بل امتنع ايضاً عن استغلال فرصة كونه رئيساً لأركان القوات العثمانية المرابطة في سوريا[١٥] . وفي اواخر عام ١٩١٨ ، عين ياسين الهاشمي ، من قبل فيصل ، رئيساً لاركان الجيش العربي . ولا بد من ان استبدال جعفر بياسين قد اثار حسد الاول وخلق حزازة شخصية بينهما[١٦] . الا ان هذا التعيين لم يجعل ياسين اقل حذراً تجاه الانكليز . وفي اوائل ١٩١٩ ، وصفوه بأنه « مقتدر ، جندي كفؤ ، ذكي ، طموح ، متعصب نصير للاستقلال التام . يحتمل ان يكون خطراً »[١٧] . وفي اواخر ١٩١٩ ، تشكى ولسن الى وزارة الهند من ان ناجي السويدي وياسين الهاشمي كانا يعملان بنشاط لتأسيس حكومة عربية وضد جعفر العسكري « ولق نهج موال للاتراك »[١٨] . وفي آب / اغسطس ١٩١٩ ، عرضت القيادة العامة البريطانية على وزارة الحربية ان «من المرغوب فيه لاسباب سياسية اخراج ياسين باشا . . من سوريا »[١٩] . وخلال تشرين الثاني / نوفمبر وكانون الاول / ديسمبر ١٩١٩ ، نفد صبر الانكليز ازاء نشاط ياسين[٢٠] . فاعتقل في اواخر كانون الاول / ديسمبر ونفي الى فلسطين حيث وضع تحت الاقامة الجبرية ولم يسمح له بالعودة الى سوريا حتى ايار / مايو ١٩٢٠[٢١] .

---

(١٢) Gertrude Lowthian Bell, «Private Letters and Papers,» Newcastle-upon-Tyne University Library (unpublished), «Letter Dated 4 July 1920,».

(١٣) Ibid., «Letter Dated 29 November 1920,».

(١٤) F.O. 882/13/MES/15/13.

(١٥) George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*, 3rd Print (London: Hamilton, 1955), p. 156.

(١٦) F.O. 371/6350/116/3824, «Mesopotamia Intelligence Department- no. 6, 31 January 1920,».

(١٧) F.O. 882/24/SY/19/7, «Who Is Who in Damascus, 1919,».

(١٨) F.O. 882/23/MES/20/1, «25 Dcecember 1919-no. 15508,».

(١٩) F.O. 371/4235/120164/2, «1 August 1919- no. 2627,».

(٢٠) في تشرين الثاني / نوفمبر قرر الانكليز سحب قواتهم من بعض اجزاء سورية . وكان يعتقد ان قوات فرنسية ستحل محل البريطانية . واحبط ياسين هذه المحاولة لتهديده بالقيام بمقاومة مسلحة (انظر : ساطع الحصري ، يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث (بيروت : [د. ت.]) ، ص ١١٠-١١٥) . كما اعتقد الانكليز ان ياسين كان وراء الهجوم على دير الزور . وكانوا « محقين » في ذلك .

(٢١) المصدر نفسه .

ونقل جعفر الصراع الى مرحلة جديدة بتحريضه الانكليز ضد زملائه العرب . فقد نصح الانكليز بعدم السماح لمولود مخلص وياسين الهاشمي بالعودة الى العراق بسبب (تأثيرهما الضار)[٢٢] . والظاهر ان جعفر ونوري بقيا مخلصين لفكرة تأسيس حكومة عربية . الا ان رؤيتهما بقيت متأثرة بايمانهما بأن هذا الهدف لا يمكن تحقيقه الا بموافقة الانكليز انفسهم . وفضلاً عن ذلك « فإنهما اعتبرا بريطانيا الحليف الرئيسي للقضية العربية ، فبدون مساعدة بريطانيا ، لم يكن من الممكن تحقيق استقلال العرب ، ذلك ان العرب لوحدهم كانوا عاجزين عن تحقيق الاستقلال او تحمل اعبائه » ، وقد ذكر جعفر أن « أملنا الوحيد هو التأييد (البريطاني) وان من (الجنون)خسران(عطف الانكليز)»[٢٣]، ولخص الاتجاهات القائمة بين القوميين العراقيين كما يلي: « . . . ان قلة من المتطرفين الشباب يعتقدون انهم يستطيعون ادارة البلاد بدون مساعدة اجنبية ويعارضون كل انتداب على الاطلاق ، الا ان البقية مستعدون لقبول الانتداب شريطة ان تكون النوايا (البريطانية) مخلصة تجاه الدولة العربية »[٢٤] .

وعندما اكدت المس بيل لجعفر ان « الاستقلال التام هو ما ترغب (بريطانيا) في منحه في النهاية » ، اجابها جعفر ، « يا سيدتي ، ان الاستقلال التام يؤخذ دائماً ولا يعطى ابداً » . واوضح جعفر للمس بيل ان العراقيين هم في الواقع غير قادرين على تحقيق الاستقلال ، ومن ثم كان استنتاجه الغريب : « ان الاستقلال التام مستحيل »[٢٥] .

وفي برقية الى ابيه ، كشف فيصل بشكل واضح ومنتظم عن وجهة نظر المعتدلين او المساومين : « . . ان الوحدة والاستقلال هما هدفانا جميعاً . . . ولكن . . . بالنظر لانسحاب امريكا والاتفاقية الانكلو ـ فرنسية الاخيرة التي لا تعترف بأي ميثاق معقود بينها وبين العرب . لذلك فإن وضع عبدكم يتطلب معارضتنا لهذين الحليفين معاً اذا كنا نريد الحصول على هدفنا بسرعة ، وهو يعني كذلك اضطرار الامة الى الاعتماد على ماليتنا واسلحتنا الخاصة ، وهو امر صعب جداً في الوقت الحاضر ، ان خطتي السياسية هي نفس خطتكم ، ولكنها سلمية . . . »[٢٦] .

وفي حديث مع المس بيل ، اوضح فيصل جوهر نظرته السياسية : « اني انظر الى المسألة

---

(٢٢) F O. 371/6350/116/3824, «Mesopotamia Intelligence Department- no. 6, 31 January 1920,».

(٢٣) Bell, «Private Letters and Papers,» «Letter Dated 27 November 1920,».

(٢٤) F.O 371/5229/E 10858, «From Percy Cox to Secretary of State for India, 2 September 1920,».

(٢٥) Bell, Ibid.

ومن الجدير بالذكر ان خلاصة هذه الرسالة نفسها ، التي ظهرت في الكتاب المطبوع (انظر : Gertrude Lowthian Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, edited by Lady F. Bell, 2 vols. (New York: Boni and Liveright, 1927), vol. 2, p. 569).
لا تعطي الا فكرة مضللة عن فحواها . وان العودة الى النسخة الاصلية للرسالة تعطي صورة مختلفة جداً عن آراء جعفر العسكري .

(٢٦) F.O. 371/5216/E2896, «Telegram from Faisal to the King, Dated 24 February 1920,».

العربية بهذا الشكل ... بغض النظر عما يمكن ان يفعله أ . ت . ولسن ، فقد كنت متأكداً بأن سياسة حكومتكم هي اقامة حكومة وطنية في العراق . وكنت راضياً بالانتظار ... »[٢٧] .

وقد تعززت ثقة فيصل في النوايا البريطانية بايمانه الراسخ بأن السياسة البريطانية « بخصوص الاماني العربية تقوم على ادراك الترابط الذي لا ينفصم لهذه الاماني بالعائلة الشريفية (الهاشمية) »[٢٨] .

الا ان هذا السياسي العربي الذكي كان اعقل من ان يضع كل بيضه في السلة البريطانية وحدها . ومنذ ايام الحجاز ، كان فيصل يحمي ويرعى المتشددين من غضب والده والانكليز معاً[٢٩] . وخلال حكمه القصير في سوريا ، ابدى فيصل استحسانه الضمني لفعاليات القوميين الجذريين ضد الانكليز في العراق . ولكن امام السلطات البريطانية ، كان فيصل يتقمص شخصية (بيلاطس النبطي) معلناً براءته ومدعياً عجزه عن السيطرة على اتباعه الهائجين . وقد ساعدته شخصيته ومكانته على المحافظة على هذه السياسة . الا ان جعفر ونوري لم يكونا قادرين على الاحتفاظ بتوازنهما على هذا الحبل الرفيع .

وقد اعترف جعفر نفسه للسلطات البريطانية بأنه « قد فعل كل ما بوسعه لحمل المتطرفين على التعقل ولكن بدون جدوى ... وهو واثق بأن القوميين المتقدمين ينظرون اليه كشخص شديد الولاء للانكليز وان نصائحه لهذا السبب لا تؤخذ بنظر الاعتبار »[٣٠] .

ولم يكن نوري اوفر حظاً من جعفر بقدر ما يتعلق بثقة القوميين . وخلال الثورة نشرت صحيفة ثورية عراقية رسالة من (المؤتمر العراقي) في دمشق الى زعماء الحركة الاستقلالية في العراق ، تتضمن تحذيراً من خطط نوري ، وتصفه بالعميل البريطاني وتدعو الزعماء العراقيين ألى احباط محاولاته[٣١] .

ان هذا كله لا يترك مجالاً للشك في انه ، بفضل سياسة ولسن ، كانت العناصر (المعتدلة) بين القوميين تخسر مواقعها امام الفئات الاكثر جذرية في الحركة . ويمكن تفسير ذلك بالغموض طويل الامد الذي كان يغلف مستقبل العراق السياسي ، وكذلك بعض الخطوات التي اتخذها المفوض المدني تجاه الضباط .

---

(٢٧) Bell, «Private Letters and Papers,».

(٢٨) المصدر نفسه .

(٢٩) كان فيصل وراء عودة علي جودت واطلاق سراح مولود مخلص واعادة تعيينه . وقد عين ياسين الهاشمي قائداً عاماً خلال حكمه في سورية .

(٣٠) F.O. 371/6350/116/3824, «Mesopotamia Intelligence Department- no. 6, 31 January 1920,».

(٣١) الفرات (النجف) ، ٢٨ / ذو القعدة / ١٣٣٨هـ .

ثانياً : تدهور العلاقات بين الانكليز والقوميين العرب

ذكرنا في الصفحات السابقة ان بعض العراقيين قدموا تنازلات كبيرة للانكليز بخصوص الاهداف القومية العربية . الا ان هذا لا يعفي الانكليز من مسؤولية عدم الوفاء بوعودهم التي قدموها للعرب خلال الحرب ، ففي ٥ كانون الثاني / يناير ١٩١٨ ، ادلى رئيس وزراء بريطانيا بتصريح علني عن اهداف بريطانيا في الحرب ، ذكر فيه ان « الجزيرة العربية ، وارمينيا ، وما بين النهرين ، وسوريا ، وفلسطين تستحق ، في رأينا ، الاعتراف بأوضاعها الوطنية المستقلة »(٣٢) . وفي ٨ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٨ ، اذيع التصريح الانكلو- فرنسي ، بوعوده المتفائلة .

الا ان السلطات البريطانية في العراق كانت ترفض بشدة اتخاذ اية خطوات فعلية في هذا الاتجاه(٣٣) . وكان فيصل يدرك الحالة النفسية المقلقة لضباطه العراقيين ، فكتب الى السلطات البريطانية (الى اللورد اللنبي) معرباً عن حيرته ازاء التطورات في العراق التي كان من شأنها (اضعاف حب الشعب) لبريطانيا . وقد اشار الى ان القوميين العراقيين « يدركون تماماً انه ليس بامكان بلاد ما بين النهرين ان تقف لوحدها ، الا انهم يشعرون شعوراً قوياً جداً بضرورة الاسراع في تأسيس حكومة وطنية تمهد الطريق للسكان المحليين لكي يثبتوا مقدرتهم ـ مع الاعتماد في الوقت نفسه ـ على مساعدة بريطانيا العظمى ومشورتها وعطفها »(٣٤) .

وفي اشارة واضحة الى ولسن وامثاله ، ذكر فيصل : « اما اولئك الذين يرون ان من المستحيل تأسيس مثل هذه الحكومة بسبب الافتقار الى الاناس المدربين ، فإني اقول لهم انه لم يبذل حتى الآن ادنى جهد لجمع هؤلاء الناس »(٣٥) .

وختم فيصل رسالته بالقول : « من المرجح انه ليس بامكان بريطانيا العظمى ان تغير الحكومة ما لم يبت مؤتمر الصلح في مسألة « الانتداب » وفي هذا الصدد لست ادرى اي مانع من ان تقوم السلطات البريطانية بالتباحث مع الزعماء العرب في ما بين النهرين حول تحديد الدستور الواجب صدوره على اثر اتخاذ القرار النهائي . ان هذا . . . سيبدد كافة الشكوك في اذهانهم حول نوايا بريطانيا العظمى »(٣٦) .

---

(٣٢) David Lloyd George, *Memoirs of the Peace Conference*, 2 vols. (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1939), vol. 2, p. 264.

(٣٣) لقد وجهت آنذاك في مجلس العموم البريطاني اسئلة من هذا القبيل : « الم يقل الجنرال السير ستانلي مود للعرب في آذار / مارس ١٩١٧ ، بأن الانكليز قد جاؤوا محررين لا فاتحين ، ومن هو المسؤول عن كل هذا التأخير في اقامة الدولة العربية . . . ؟» انظر :
Great Britain, House of Commons, *Parliamentary Debates, 5th Series, Vols. 127-137* (London: His Majesty's Stationary Office [H.M.S.O.], 1920), «26 July 1920, p. 960.

(٣٤) F.O. 882/23/MES/19/9, «June 1919,».

(٣٥) Ibid.

(٣٦) Ibid.

الا ان رد الفعل البريطاني تجاه رسالة فيصل لم يكن ايجابياً . وقد كان ولسن منذ شباط / فبراير ١٩١٩ ، يشكو من نشاط (شريفي) في الشؤون العراقية[٣٧] . وبعد وصول رسالة فيصل بأيام قلائل تسلّم كلايتن البرقية التالية من اللورد كرزن : « ان دعاية فيصل للاستقلال التام للجزيرة العربية قد وصلت الى ما بين النهرين ، وهي تثير قلقاً شديداً في بغداد وهنا » . « إن وزارة الهند تخشى ان يكون هذا التحريض مستنداً الى بعض تشجيع من جانب الضباط البريطانيين في سوريا ، الواقعين تحت الاعتقاد الخاطىء بالطموح الى التأسيس الفوري في ما بين النهرين ، لحكومة عربية غير خاضعة للسيطرة ، ومتمتعة بتأييد (حكومة صاحب الجلالة) . ينبغي اصدار التعليمات من جانبكم الى الضباط البريطانيين المسؤولين ، لاحباط هذه الحركة بكل الوسائل التي تحت تصرفهم »[٣٨] . وربما كانت برقية كرزن مدفوعة برسالة تلقاها من هيرتزل ، ويشكو فيها من (تأثير لورنس الضار)[٣٩] .

وفي حزيران / يونيو ١٩١٩ ، رفع بعض الضباط العراقيين مذكرة تستند الى اسس مماثلة لما ورد في رسالة فيصل[٤٠] . وقد اقترح اللورد كرزن : « . . . ابلاغهم بان حكومة صاحب الجلالة تدرك تماماً الاعتراضات الكامنة في اي تبلور للاساليب البيروقراطية الغربية في بلاد ما بين النهرين ، وان ثمة خطوات معينة يجري اتخاذها لتشكيل مجالس للمقاطعات والوحدات ، لأجل ضمان هذا المقدار من المشاركة العربية . . . وانه في حالة اتخاذ قرار بوضع ما بين النهرين تحت الانتداب ، فإنّ لجنة بريطانية تتجه الى ذلك القطر في اسرع وقت ممكن لتبحث ، بالتشاور الوثيق مع كل طبقات الشعب ، في الشكل الذي ستتخذه الحكومة المقبلة »[٤١] .

الا انه ، بناء على اقتراح من وزارة الهند ، ارسل الجواب التالي الى الضباط العراقيين : « . . . ما لم يصدر قرار من مؤتمر الصلح بخصوص الدولة المنتدبة وطبيعة الانتداب ، فإنه من السابق لأوانه محاولة القيام بتجربة دستورية ، وليست لدى حكومة صاحب الجلالة اية رغبة في التأثير على ذلك القرار . . . وثمة خطوات معينة يجري اتخاذها ، مثل تشكيل مجالس للمقاطعات والوحدات[٤٢] . وان تعيين ناجي بك

---

(٣٧) F.O. 882 / 23 / MES / 1918, «From Civil Commissioner, Baghdad, to the Director of Arab Bureau, Cairo, Baghdad 23 February 1919.

(٣٨) F.O. 371 / 4140 95058 / 142, and F O. 882 / 23 / MES / 19 / 11, «From Curzon, White Hall, London, to Clayton, Egypt Force, 24 June 1919-no. 20724,».

التشديد من المؤلف ، والغرض منها التاكيد على ما يلي : ١ ـ ان فيصل قد اوضح انه لم يكن ينشد حكومة عربية « فورية » او « غير مقيدة » ، ٢ ـ ان ولسن كان يعارض اي شكل من اشكال الحكومة العربيه وحتى لو كانت « مقيدة » ، ٣ ـ ان موقف كرزن كان وسطياً بعض الشيء بين الوطنيين وولسن . الا ان كرزن تحت ضغط وزارة الهند ، كان اكثر ميلاً الى جانب ولسن منه الى اتخاذ موقف الحياد .

(٣٩) F.O. 371 / 4140, «Private Letter from Hirtzel to Curzon, 24 June 1919,».

(٤٠) F.O. 371 4149 91481, «From Clayton to the Secretary of State for Foreign Office, 8 June 1919,».

وكانت المذكرة موقعة من قبل العسكري والسويدي ومخلص وعلي جودت .

(٤١) F.O 371 5228 E9020, «A Summary of Correspondance in Regard to the Political Situation in Mesopotamia (by Major H Young), Foreign Office-no 91491, 8 July 1919,».

(٤٢) لقد جرى تكرار هذه النقطة مرتين . الا ان الامر لم يكن على هذه الشاكلة ، ففي ٢٩ تشرين الاول / ت.

(السويدي) في منصب اداري عـال في بغداد . . . هـو مثال عـلى رغبة (حكـومة صـاحب الجلالـة) في إعطاء العرب ذوي الشخصية والمقدرة المجربتين ، الفرصة الكاملة لاظهار مواهبهم »[٤٣] .

وبالرغم من وجود بعض التماثـل الظاهـر بين التصـريحين ، فـإن الاختلافـات العميقة بينهما واضحة جداً . وفي ايار / مايو ١٩١٩ ، قام ولسن بزيارة قصيرة لدمشـق حيث التقى به وفـد مؤلف من ياسـين الهاشمي ونـوري السعيد ونـاجي السويـدي لبحث مستقبـل العـراق السياسي . وقد ذكرت غرترود بيل ، التي حضرت الاجتماع ، بأنه كان « نقطة تحول » .

« لقد طرحوا امامه آراءهـم بخصوص مستقبل ما بـين النهرين وهي آراء معقـولة تمـاماً ، وتـدخل ضمن البرنامج الذي نتبعه الآن (كانون الثاني / يناير ١٩٢١) ، وقد اخبرهم بفظاظة بأن كل ذلك مجرد كلام فارغ ، وانهم يجب ان يعملوا من اجل المجالس البلدية قبل ان يأملوا باستلام زمام الامور . . . وكانـوا آنـذاك (ايـار / مايو ١٩١٩) يديرون الجهاز العسكري والمدني بكامله في سوريا . . . وكـان من السخف ابلاغ هؤلاء العمـداء والاداريـين المدربـين بأنهم يجب ان يقنعـوا بادارة المجـالس البلدية . ومن ذلـك اليوم يئسـوا من الحصـول عـلى مؤسسات وطنية في ما بين النهرين ، كما ان يـاسين العنيف ، والنشط ، حث (الـرابطة العـراقية) ، التي كـان بمثابة روحهـا الموجهـة ، على تشـديد دعـايتها المناهضة لبـريطانيـا . . . وبسبب كونـه (ولسن) استفز الشعـور القـومي ، واساء تقـديره وفهمـه بالمرة ، فإن أ . ت ولسن يقف مـداناً بـاحدى افـظع الاخطاء السيـاسيـة التي اقترفناها في آسيا ـ خطأ بلغ في فداحته ان قدرتنا على اصلاحه اصبحت مرهونة بالاقدار »[٤٤] .

وواضح ان هذه الرواية ترمي الى تقديم ولسن كبش فداء للسياسة البريطانية . الا انـه يبدو ان غرترود بيل كـانت ، منذ تشـرين الثاني / نـوفمبر ١٩١٩ ، قـد سجلت بصورة غـير مباشرة مخالفتها لنهج ولسن . كما ان ولسن لم يحاول ان يخفي خلافاته حتى مع اعلى السلطات البريطانية . ففي ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر ارسل برقية علق فيها على مذكرة مرفقة من المس بيل حول انطباعاتها في سوريا : « ان الافتراض الاساسي الوارد في هذه المذكرة ،وكـذلك في المـراسلات الرسمية الاخيـرة التي وصلتني من لندن، هـو ان قيام دولـة عربيـة في ما بين النهرين واماكن اخـرى خلال فتـرة قصيرة من الزمن امر ممكن . . . ان ملاحظاتي في هذا البلد وغيره قد اضطرتني الى الاعتقاد بـأن هذا الافتـراض مغلوط و . . . اني ادرك اني اختلف في ذلك مع السلطات والمراقبين سواء في داخل بلادي او خارجها »[٤٥] .

وقد علّق الميجر يونغ على رسالة ولسن بما يلي : « لم يكن ثمة سبب للافتراض. . . بـأن . . .

= اكتوبر ١٩١٩ ابلغ ولسون وزارة الهند انه قد شكل اربعة مجالس للوحدات (في البصرة وكركوك والديوانية والعمارة) وانه « لم يكن من الممكن تشكيل اية مجالس وحدات اخرى . . . اما بالنسبة لمجالس المقاطعات فـإنها لم تكن قد تشكلت ، كما لم يكن ولسن يفكر في التحرك في هذا الاتجاه في ذلك العام (١٩١٩)، انظر :

Ibid..- no. 148636.

(٤٣) Ibid..- no. 110324.

(٤٤) Bell, «Private Letters and Papers,» «30 January 1921,».

(٤٥) F O. 371 5228 E9020, «A Summary of Correspondance in Regard to the Political Situation in Mesopotamia (by Major H. Young), Foreign Office-no. 172818,».

ولسن قدعدل بأي شكل من الاشكال برأيه حول ضرورة الحكم البريطاني المباشر في ما بين النهرين ، وكان من المستحيل بشكل واضح تقديم اية مقترحات دستورية اليه طالما بقي متمسكاً بهذه الآراء »(٤٦) .

ثالثاً : مشكلة عودة الضباط العراقيين الى العراق

كان من الطبيعي ، بعد انتهاء الحرب ، ان يتوق الضباط العراقيون للعودة الى وطنهم . ومنذ ايام الحجاز ، كان النزاع بينهم وبين الضباط السوريين واضحاً جداً . وكان هذا النزاع ببساطة ووضوح ، مدفوعاً بعوامل اقليمية ويدور حول تسنم المناصب الرئيسية في الجيش العربي(٤٧) . وقد اشتد هذا النزاع الاقليمي بعد تحرير سوريا وتأسيس حكومة عربية . وانتهت هذه العملية بانقسام (العهد) الى فئتين منفصلتين : عراقية وسورية(٤٨) . وكان هذا التطور محرجاً لفيصل، ولذلك فإنه شجع العراقيين على العودة الى العراق سواء بموافقة ولسن ام بدون موافقته .

وقد قدم اللورد كرزن الشرح المتزن التالي بهذا الموضوع : « . . . ان من غير العملي تأجيل قرار بخصوص عودة هؤلاء الضباط . فقد ظلوا بعيدين عن وطنهم لمدة طويلة وهم يقاتلون الاتراك ، وان فخامة اللورد (كرزن) يستنكر اية بادرة من جانب (حكومة صاحب الجلالة) في وضع العراقيل في طريق العودة الى الوطن بالنسبة لرجال تطوعوا للخدمة في قضية الحلفاء وساعدوا عمليات الحلفاء في سوريا »(٤٩) .

وفضلاً عن ذلك يظهر ان ادارة العراق كانت في حاجة ماسة الى الضباط العراقيين الذين كانوا ، حسب تعبير المس بيل ، « اداريين مدربين » . ففي آذار / مارس ١٩٢٠ ، ابرق ولسن برقية طويلة الى وزارة الهند يشكو فيها من صغر حجم جهازه الاداري وعجزه بالتالي عن مواجهة المشاكل العراقية : « ان الوضع الناشىء في هذا البلد هو خطير الى اقصى الحدود ، انه يدمر الثقة العامة ويضع على عاتق الضباط الباقين في هذه الادارة عبئاً ثقيلاً لا يستطيعون احتماله »(٥٠) .

وفي نيسان / ابريل ١٩٢٠ ، ادعى ولسن في برقية اكثر تحديداً ، « ان البلاد هي بالنسبة لذلك الآن تكاد تخلو من العناصر المحلية التي تمتلك خبرة ادارية سابقة ذات قيمة . . . وتعاني الادارة الحالية اعظم الصعوبات في ايجاد المحمديين الصالحين لإشغال حتى أوطى الوظائف الادارية »(٥١) .

---

(٤٦) Ibid.

(٤٧) امين محمد سعيد ، الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن ، ٢ج (القاهرة : ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٣ ، و
Lord Birdwood, *Nuri as-Said: A Study in Arab Leadership* (London: Cassell, 1959), pp. 108-109.

(٤٨) محمد مهدي البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ٢ج (بغداد : ١٩٢٤) ، ص ٣٦ ، ٧٩ ـ ٨٠ و٩٩ ـ ١٠٠ .

(٤٩) F.O. 371/4146/86170/142, « A Minute by L. Mallet Summarizing the View of Lord Curzon, 16 June 1919,».

(٥٠) F.O. 882/23/MES/20/1, «10 March 1920-no.4394,».

(٥١) F.O. 371/5226/4811, «To Secretary of State for India, 26 April 1920- no. 5111,».

واستناداً الى الحقائق الآنفة الذكر ، كان المفترض ان الجو كان مهيّأً تماماً لعودة الضباط العراقيين . وفي اوائل ايار / مايو ١٩١٩ طلب فيصل من لورنس ان يرتب لعودة ضباطه العراقيين الى الوطن . فأجاب لورنس : « توافق (حكومة صاحب الجلالة) على عودة ضباطكم الى ما بين النهرين ، حيث يمكنهم ان يقولوا ما يشاءون طالما لم يكن ذلك مخالفاً لتعليمات الشرطة »(٥٢) .

وبعد ذلك باسبوع ، ابلغ لورنس وزارة الخارجية بطلب فيصل واحاطهم علماً بالمعلومات التالية : « ان اغلب الرجال مقتنعون بأن عبدالله يجب ان يصبح امير بغداد ، وسيقولون ذلك حتماً عند عودتهم . اما فيصل فإنه لن يرسل معهم ، بالطبع ، او يعبر عن رأيه الخاص حول الموضوع . . . انهم ضباط قدموا لنا خدمة جيدة جداً ومعظمهم موالون جداً لبريطانيا . . . لا اراني بحاجة للقول بأنهم يريدون انتداباً بريطانياً في ما بين النهرين »(٥٣) .

الا ان وزارة الهند استاءت من تصرف لورنس ، وسارعت الى الابراق الى وزارة الخارجية ، لافتة انتباهها الى « ان رسالة الكولونيل لورنس التي تخول الضباط البغداديين بـ (قول ما يشاءونه) عند عودتهم الى ما بين النهرين ، ستؤدي بطبيعة الحال الى تشجيع حماسهم الدعائي . . . »(٥٤) . وبالاضافة الى ذلك ، فقد حددت وزارة الهند موقفها بخصوص المسألة موضوع البحث بالشكل التالي : « يحثّ المستر مونتاكو على اصدار تعليمات برقية صريحة الى السلطات البريطانية في القاهرة ، مؤداها عدم السماح لأي شخص في الخدمة الشريفية ، سواء كان من اصل بغدادي ام غير ذلك ، بالتوجه الى ما بين النهرين بدون الموافقة المسبقة للمفوض المدني في بغداد »(٥٥) .

ومن سوء الحظ ان اللورد كرزن ، بالرغم من نظرته المتعاطفة ، وافق على هذه التحفظات من جانب وزارة الهند(٥٦) ، وبنتيجة ذلك اصدرت وزارة الخارجية تعليماتها الى اللورد كلايتن بهذا الاتجاه(٥٧) . وقد ترجم هذا التحفظ ، عملياً ، بعدم السماح لأي ضابط بالتوجه الى العراق اطلاقاً ، وكان من رأي ولسن ان « اشخاصاً مثل جعفر باشا ، ومولود ، ونوري السعيد وغيرهم قد كتبوا الى اصدقائهم واقاربهم في بغداد . . بأنهم قادمون الى بغداد بعد مدة قصيرة للقيام بحملة سياسية من اجل تأسيس حكومة عربية . . . وقد ارسلوا بالفعل عدداً من الممثلين الذين يقومون بدعاية سرية نشيطة على هذه الاسس ، وفي الوقت نفسه بتحيز شديد ضد الاجانب . . . نوصي . . . بابلاغهم هم وغيرهم من ذوي الميول المشابهة بعدم امكان السماح لهم في الوقت الحاضر بالعودة الى هذا البلد »(٥٨) .

---

(٥٢) F.O. 371/4145/79634/142, «July 1920,».

(٥٣) F.O. 371/4148/86170/142, «22 May 1919,».

(٥٤) F.O. 371/4145/79623/142, «26 May 1919,».

(٥٥) Ibid.

(٥٦) F.O. 371/4146/86170/142, «A Minute by L. Mallet Summarizing the View of Lord Curzon, 16 June 1919,».

(٥٧) F.O. 371/4146/86170/142, «From Foreign Office to General Clayton (Cairo), 13 June 1919-no. 195,».

(٥٨) F.O. 371/4145/79639/142, «Baghdad to India Office, 14 May 1919,».

وقد اعتبر تعيين ناجي السويدي[٥٩] بادرة على حسن النية من جانب الانكليز . غير ان الواقع ان هذا التعيين الذي انتهى بالفشل ، كان سبباً آخر لتدهور العلاقات الوطنية ـ البريطانية .

كان تعيين ناجي عملاً استثنائياً ، اكثر منه جزءاً من سياسة ثابتة لولسن . وهو يشجع الافتراض بأن ولسن كان يحاول مكافأة عائلة السويدي الغنية المتنفذة ، والمعادية للاتراك بشكل واضح . الا ان هذه الحسابات لم تكن دقيقة . فإن ناجي ، الذي تقلد منصبه (كمشاور للحاكم العسكري) في الثالث من تموز / يوليو عام ١٩١٩ ، قدم استقالته في اليوم الرابع عشر من الشهر نفسه . وبعد ايام قلائل غادر العراق الى سوريا[٦٠] . وقد صرح ناجي بأنه كان يعتقد انه قد طلب اليه المجيء الى بغداد لتقديم المساعدة والمشورة في اقامة حكومة وطنية . وقد استقال عندما اكتشف خطأه[٦١] .

كانت هاتان الحادثتان ضربة حقيقية للضباط العراقيين عموماً ولعناصرهم (المعتدلة) بوجه خاص ، « ان هذا الحرمان من الحق في المشاركة في الدفاع عن وطنهم وادارة شؤونه[٦٢]، قد كان لا بد من نص يغذي فكرة ان عراقاً متحرراً من السيطرة البريطانية هو وحده القادر على اعطائهم املاً في الحصول على وظائف »[٦٣] . وبصرف النظر عن آراء لورنس وبيل[٦٤] ، كان سلوك ولسن يثير القلق حتماً بين الذين شاطروه بعض افكاره . وبعد مرور يومين فقط على استقالة ناجي ، تلقى ولسن رسالة من هيرتزل ، وردت فيها العبارات التالية :

« اما فيما يخص القومية العربية ، فأعتقد انك ستجد نفسك قريباً واقعاً في مشكلة عويصة ، واصارحك القول بأني لا اعتقد انك تسير في الاتجاه الصحيح لمعالجتها . . . يبدو انك تحاول المستحيل بتغيير التيار بدلاً من توجيهه . انك ستواجه قيام دولة عربية سواء شئت ام ابيت، وسواء أكانت بلاد ما بين النهرين ترغب في ذلك ام لا . . . ان هذا امر لا مناص منه ، ومن الحكمة مواجهة هذه الحقيقة . وفضلاً عن ذلك ، فستجد كثيراً من

---

(٥٩) ناجي السويدي (١٨٨٣ ـ ١٩٤٥)، هو ابن يوسف السويدي . ولد في بغداد وتخرج من كلية القانون في الاستانة . وقد اصبح قوميا عربيا نشيطا منذ ايام دراسته في الاستانة . لم ينضم الى حركة الحجاز . عمل تحت امرة جعفر في حلب بعد عام ١٩١٨ .

(٦٠) Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers-Cmd.1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: H.M.S.O, 1920), p. 131

(٦١) Philip Willard Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (London: Jonathan Cape, 1937), p. 190.

(٦٢) Lawrence in: *The Times*, 23/7/1920.

(٦٣) Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers- Cmd. 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia*, p. 138.

(٦٤) كتبت مس بيل تقول : « ان المشكلة التي جسدوها [اي الضباط العراقيين] كان يمكن حلها جزئياً باقامة جيش محلي، يحصلون على عمل فيه بصرف النظر عن الصلح الذي تأخر طويلاً مع تركيا، ومنح الانتداب ، كما جرى في ظروف مختلفة تماماً في سورية . انظر : المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .

الناس في ما بين النهرين ملأى رؤوسهم بافكار سخيفة من سوريا واماكن اخرى لا يعلمها الا الله ، وينبغي عليك ان تجد لهم مكاناً وعملاً ، وعندما تحصل عليهم ، يجب ان لا تدعهم يستقيلون ، والا وجدنا انفسنا امام مصر اخرى . ان هذه الامور كلها ستكون معاكسة لآمالنا الغالية على انفسنا ، وليس هناك ما تستطيع انت او انا قوله او عمله لتغييرها . . ان فكرة تحويل ما بين النهرين الى نموذج لبلد تابع او محمية بريطانية تدار بصورة كفوءة ، هذه الفكرة قد ماتت . . يجب ان نكيف انفسنا واساليبنا وفق النمط الجديد للافكار ونجد طريقة اخرى للحصول على ما نريده »[٦٥] .

ويبدو انه في اواخر عام ١٩١٩ كانت الآراء (الجذرية) قد سيطرت على حركة الضباط . وقد ذكرت المس بيل في تقرير لها بعد زيارتها لسوريا « ان ياسين هو الروح المحركة لـ (العهد) العراقي . . . الذي يوجد حوالى ٣٠٠ من اعضائه في خدمة فيصل . وباستثناء . . . السويدي . . . الشاوي . . . لا علم لي بأحد ممن ينتمون الى العوائل ذات النفوذ . . . ان الرابطة تعمل . . . من اجل استقلال العرب بدون اية سيطرة اجنبية . . . . وربما كان البعض من انصارها الاكثر اعتدالاً لا يتفقون تماماً مع سياستها ، الا اني اشك فيما اذا كانت آراؤهم . . . ذات تأثير كبير . . . ان المتطرفين مقتنعون بأنه . . . في ظل الانتداب البريطاني لن تكون ثمة محاولة لاقامة حكومة عربية مسؤولة . . . والاعضاء الاكثر اعتدالاً . . . واثقون بدرجة مماثلة من ان ثمة استياء شديداً يعم كل الطبقات في العراق »[٦٦] .

وقد علق المفوض المدني على ذلك بما يلي: « . . . ان تأسيس حكومة عربية وفق الاسس التي يدعو لها ياسين . . وناجي . . . امر يتناقض مع . . اي نوع من السيطرة الفعالة . ولمدة من الزمن تستغرق بضع سنوات ، لن يؤدي تعيين موظفين . . . عرب (اللهم الا بصفة استشارية) الا الى انحلال سريع في السلطة ، والقانون ، والنظام . . . »[٦٧] .

رابعاً : المؤتمر العراقي في آذار / مارس ١٩٢٠

عندما انشق (العهد) الى فريقين سوري وعراقي ، تبنى العهد العراقي ، في اوائل عام ١٩١٨ ، الاهداف التالية :

«(أ) الاستقلال التام للعراق في اطار الوحدة العربية .

(ب) يكون العراق حراً في اختيار اي من الدول المتقدمة التي يرغب في الحصول على مساعدتها في الشؤون الاقتصادية والفنية بدون اي مساس باستقلاله »[٦٨] .

---

(٦٥) John Marlowe, *Late Victorian: The Life of Sir Arnold Talbot Wilson* (London: Cresset, 1967), p. 165, «Letter from Hirtzel to Wilson, 16 July 1919,».

(التشديد من المؤلف) .

(٦٦) «The Sudan Archives,» University of Durham, Library of School of Oriental Studies, (unpublished), Box 303, «Memo. Signed by G. Bell, 15 November 1919,».

(٦٧) F.O. 882/24/SY/19, «15 November 1919,».

(٦٨) البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ص ١٠٠-١٠١ .

الا ان (اللجنة المركزية) للعهد استعملت صلاحيتها الدستورية[٦٩]لتعديل الفقرة (ب) من الباب الاول على الشكل التالي : « تقوم بريطانيا العظمى بتزويد العراق بالمساعدة الاقتصادية والفنية . . . »[٧٠] .

وقد أُدخل هذا التعديل في محاولة واضحة للتوفيق بين اهداف العهد وبعض النوايا البريطانية ، وكان ذلك انعكاساً لآراء المعتدلين . الا انه من الجدير بالذكر ان هذا التعديل قد عكس رؤيا (اللجنة المركزية) للعهد اكثر منه رأي (الجمعية العامة) ، وفضلاً عن ذلك ، فإن هذا التعديل قد ادى الى انقسام جديد وعميق في صفوف القوميين العراقيين[٧١] .

وقد حصل تطور جديد في موقف العهد في اواسط عام ١٩١٩ ، واتضح خلال المناقشات التي دارت بين بعض اعضاء العهد ولجنة (كينك ـ كرين) . ففي ٢٠ آذار / مارس ١٩١٩ ، اتخذت الدول الاربع الكبرى قراراً بايفاد لجنة مشتركة من دول الحلفاء الى العراق وسوريا لتحري رغبات السكان بخصوص تطبيق نظام الانتداب[٧٢] . وفي ٢٧ آب / اغسطس اختتمت اللجنة تحرياتها ، وحسب تعبير اللورد بردوود ، « اوصت بكل الاشياء التي تم رفضها فيما بعد (من قبل الانكليز) »[٧٣] .

وبالرغم من ان اللجنة قد حيل بينها وبين التعرف على آراء العراقيين موضعياً ، الا انها عقدت عدة اجتماعات مع بعض اعضاء العهد في دمشق وحلب ، وقدم العراقيون في سوريا بياناً الى اللجنة ورد فيه المطلب التالي : « بعد الاعتراف بالاستقلال، يجري طلب المعونة الفنية والاقتصادية من الولايات المتحدة الامريكية »[٧٤] .

ان تردد فيصل الطويل في استفزاز الحلفاء قد خضع في النهاية للضغط القومي المتصاعد . وهكذا حدد يوم السابع من آذار / مارس ١٩٢٠ لانتخاب مؤتمر سوري لاعلان الاستقلال وتنصيب فيصل ملكاً . ولم يكن العراقيون (في سوريا) بحاجة الى التشجيع للتخطيط لعمل مماثل . الا ان القوميين العراقيين كانوا ايضاً مدفوعين بالحاجة الى اكتساب طابع هيئة تمثيلية لتعزيز موقفهم ازاء الانكليز . وفضلاً عن ذلك ، فإن فيصل نفسه كان يحثهم على عقد مؤتمر مماثل

---

(٦٩) كانت « اللجنة المركزية » هي اللجنة القيادية للعهد . وقد خولت صلاحية تعديل البرنامج (الفصل السادس المادتان (٤٢) و(٤٣)) ، انظر : المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

(٧١) انظر الصفحات التالية .

(٧٢) Ray S. Baker, *Woodrow Wilson and World Settlement, Written from His Unpublished and Personal Material*, 3 vols. (London: Heinemann, 1922), vol. 3, pp. 1-19.

(٧٣) Birdwood, *Nuri as-Said: A Study in Arab Leadership*, p. 106.

(٧٤) عبدالله فياض ، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٦٣) ، ص ١٥٦ . وللحصول على معلومات تفصيلية عن اللجنة ، انظر :

Howard Nicholas Howard, *The King-Crane Commission: An American Inquiry in the Middle East* (Beirut: Khayat's, 1963).

لاسباب سنوضحها فيما بعد . وعلى هذا الاساس ، عقد اجتماع تمهيدي للجالية العراقية في دمشق ، وانتخب فيه الممثلون الذين سيحضرون المؤتمر . وبالاضافة الى ذلك ، وصل عراقيون آخرون من بغداد للمشاركة في المؤتمر الذي عقد في السابع من آذار / مارس ١٩٢٠(٧٥) . واختتم المؤتمر اعماله بالتوقيع على بيان يعلن استقلال العراق وتنصيب عبدالله ملكاً عليه ، والاتحاد بين العراق وسوريا على اساس فدرالي .

وكان رد الفعل الرسمي البريطاني ازاء المؤتمر ونتائجه هو الرفض القاطع . وبالرغم من ان هذا الرد كان متوقعاً ، الا انه لم يكن ، حتى من وجهة النظر البريطانية ، مبرراً تماماً . نقول ذلك على ضوء الحقيقة التي مؤداها ان صانعي السياسة البريطانية كانوا ، في اوائل عام ١٩١٩ ، قد بحثوا امكانية تنصيب عبدالله اميراً على العراق ، وتوصلوا فعلاً الى نتيجة ايجابية حول الموضوع .

وفي ٢٣ كانون الثاني / يناير ١٩١٩ ابرق بلفور شخصياً الى المندوب السامي في مصر يبلغه بأن « من بين الخطط الخيارية لادارة ما بين النهرين سيتوجب (على حكومة صاحب الجلالة) ان تبحث امر الشريف عبدالله كأمير شرفي ، سيسرها الاطلاع على رأيكم وآراء اي ضابط ذي معرفة مباشرة بشخصية عبدالله فيما يتعلق بلياقته لهذا المنصب . نفترض انكم تدركون ما هو المطلوب من ملك يرضى بأن يسود ولا يحكم ، وتكون آراؤه الدينية مناسبة للشيعة بحيث يرضون بحكمه »(٧٦) .

وبعد ذلك بثلاثة ايام ، ابلغت وزارة الخارجية المندوب السامي في مصر بأنه « نظراً للانقسامات الدينية ، فإن الضابط السياسي في بغداد قد اشار في تقرير له الى اشتداد العداء ازاء اي رئيس دولة شريفي ، وفي الواقع . . . الى اي رئيس دولة عربي منفرد على الاطلاق . . . »(٧٧) .

وقد وزع المندوب السامي هذه البرقيات على الموظفين البريطانيين في المنطقة وطلب آراءهم . وفي ٢٨ كانون الثاني / يناير ابرق المقيم السياسي في جدة الى القاهرة ، معرباً عن تأييده ومشيراً الى ان عبدالله « يتعاطف بشكل خاص مع الطائفة الشيعية ، وهو واسع الافق في الامور الدينية »(٧٨) .

---

(٧٥) حضر المؤتمر العراقي في دمشق الشخصيات التالية : من بغداد ـ الفريق جعفر العسكري ، العقيد سعيد الشيخلي ، المقدم تحسين علي ، المقدم اسماعيل نامق ، المقدم سامي الاورفلي والنقيب فرج عمارة (عسكريون) ، ناجي السويدي ، توفيق السويدي ، يونس وهبي ، حمدي صدر الدين ، احمد رفيق ونوري القاضي (محامون) ، رشيد الهاشمي ، صبيح نجيب ، رضا الشبيبي ومحمود اديب (ادباء) ، عزت الكاظمي (اداري سابق) ، عبد اللطيف الفلاحي ، توفيق الهاشمي ومحمد بسام (تجار صغار) ، ومن الموصل ـ العقيد علي جودت ، العقيد عبدالله الدليمي والعقيد جميل المدفعي (عسكريون) ، مكي الشربتي ، ابراهيم كمال وثابت عبد النور (محامون) ، اسعد صاحب والحاج محمد خيري (تاجران صغيران) . اما اعضاء المؤتمر الآخرون الذين لم يستطيعوا الحضور فمنهم العميد نوري السعيد ، المقدم اسماعيل الصفار ، العقيد رشيد الخوجة وفائق عبدالله .

(٧٦) F.O. 191/944, «23 January 1919- no. 1,».

(٧٧) Ibid.

(٧٨) Ibid., «From Wilson, Jeddah, to Arbur, Cairo, 28 January 1919, .

كما ابرق كورنواليس من دمشق مؤيداً ترشيح عبدالله[٧٩] . وقد استنتج هوكارث بأن عبدالله « . . . سيكون حاكماً شريفياً مقبولاً . . . وفيما عداه ، لا ارى اي عربي بارز يصلح لما بين النهرين » . كما ذكر ستورز بأن « عبدالله مؤهل جداً من جوانب عديدة ، ليكون اميراً شرفياً على دولة عربية »[٨٠] .

ووفقاً لذلك ، بعث المندوب السامي في مصر جواباً الى وزارة الخارجية يبلغها فيه بالآراء الآنفة الذكر التي قدمها موظفون بريطانيون « ذوي معرفة مباشرة بعبدالله »[٨١] . ومضى المندوب السامي الى القول بأن « سمعة عبدالله من حيث ثقافته الدينية والاسلامية تضاهي سمعة ابيه » . وبعد ذلك باربعة ايام ابرق مرة اخرى الى وزارة الخارجية ، وفي رد واضح على آراء المندوب المدني في بغداد ، ذكر ان ستورز « يعتقد ان زعماء الشيعة ربما كانوا قد غيروا مشاعرهم الآن »[٨٢] .

ولم يحضر نوري السعيد[٨٣] المؤتمر بسبب غيابه في لندن ، الا انه انتهز فرصة اللقاء بصديقه القديم ، الميجر يونغ[٨٤] ، وقدم اليه رسالة طويلة تشرح تكوين المؤتمر واهدافه . واكد نوري ليونغ انه ليس هناك ، بين جميع من حضروا المؤتمر « اي شخص يحمل آراء غير ودية تجاه حلفائنا الانكليز . . بل بالعكس ، انهم ، منفردين ومجتمعين ، مشربون بروح الزمالة مع الانكليز وحريصون جداً على المضي في طريق الولاء والتعاون معهم »[٨٥] . غير ان نوري اشار الى الشعور الوطني العميق القائم في العراق[٨٦] .

وربما جاز لنا ان نشذ هنا قليلاً عن موضوع المؤتمر العراقي ، ولنتطرق الى ملاحظات نوري حول (عيوب) الادارة البريطانية ومطامح القوميين العراقيين . وهذه الآراء ليست بأية حال منفصلة عن الموضوع العام ، بل هي تساعد على تفهم الخلفية السياسية للمؤتمر . ففي ملحق برسالته ، ذكر نوري ان « ثمة اعتقاداً عاماً بين المراقبين الاذكياء في العراق بأن الادارة المحلية تنتهج . . . سياسة تختلف عن النوايا المعروفة للحكومة البريطانية . . . ويمكن ايراد النقاط التالية كشواهد على ذلك : « اولاً : في الموصل وبغداد لم يسمح برفع اي اعلام عربية او استخدامها في المواكب . . . ثانياً : منعت جميع الاتصالات بين العراق وسوريا . كما حظر على الصحف العربية دخول البلاد . . . ثالثاً : لم يسمح . . . للضباط العراقيين . . بدخول

---

(٧٩) Ibid., «From Briton, Damascus, to Arbur, Cairo, 27 January 1919 ,».

(٨٠) Ibid., «From R. Storrs to the Residency, Cairo,».

(٨١) Ibid., «From High Commissioner, Cairo, to Foreign Office, 30 Janaury 1919- no. 163,».

(٨٢) Ibid., «From High Commissioner, Cairo, to Foreign Office, 3 February 1919- no. 180,».

(٨٣) نوري السعيد (١٨٨٨ - ١٩٥٨) ، نشأ في عائلة بغدادية متواضعة . اكمل دراسته الثانوية عام ١٩٠٣ . تخرج من الاكاديمية العسكرية عام ١٩٠٦ . التقى بعزيز المصري ، وتأثر به ، عام ١٩١١ في كلية الاركان وهرب الى البصرة بعد اعتقال المصري ، حيث رعاه طالب النقيب . توصل ، بذكائه وادراكه لاتجاهات العصر ، الى الاقتناع بأن مصالح بلاده تكمن في الارتباط ببريطانيا العظمى . وقد اتاحت له هذه النظرة ان يكون الرجل الحاكم في العراق لمدة اربعين عاماً . ولعلها ايضاً كانت وراء نهايته الدامية .

(٨٤) كان الميجر يونغ يعمل آنذاك في وزارة الخارجية .

(٨٥) F.O. 371 / 5226 / E2719, «Letter to Major Young from Nuri al-Said, 5 April 1920,».

(٨٦) Ibid.

العراق . رابعاً : منعت الادارة العسكرية تشكيل اية منظمات لبحث المستقبل السياسي للبلاد او حاجاتها الاجتماعية » .

وذكر نوري انه بسبب هذه السياسات القمعية ، فإن ثمة رد فعل قوياً ضد الانكليز يتعاظم ويشتد في الاوساط العراقية . كما اشار الى خيبة امل المثقفين العرب . « انهم يجدون انفسهم يواجهون نفس الصعوبات ويعانون نفس المثبطات من سوء الظن والنفي الفعلي ، التي كانت قائمة في ايام الاتراك » .

واختتم نوري ملحقه بالقول : « . . . اعتقد انه بتأسيس ادارة وطنية ذات صفة دائمية ، سوف تخبو النزعات التآمرية ، ويتوقف النشاط التحريضي ، وتنصرف اذهان الناس بكليتها الى ممارسات الحياة الاعتيادية . وان شيوخ العشائر ، الذين يدخل ضمنهم كثير من زعماء الحركة القومية ، سوف ينقادون بسهولة للموظفين من السكان الوطنيين الذين هم على علم بتقاليدهم . . . ان اهم شيء يرغب شعب العراق في معرفته هو ما اذا كانت الحكومة البريطانية تنوي تقديم المساعدة اليه في التشكيل الفوري لحكومة وطنية مستقلة ذات مسؤولية كاملة عن ضمان الامن والنظام العامين ، وما اذا كانت ترغب في اجتذاب وامتلاك عطف السكان لخدمة المصالح المشتركة بشكل متناسق عن طريق تلبية رغباتهم المشروعة »(٨٧) .

وقد تأثر الميجر يونغ بحجج نوري وكتب : « خرجت من لقائي بنوري وانا اكثر اقتناعاً بأن من الضروري اجراء تغيير فوري في روح ادارتنا في ما بين النهرين . . . »(٨٨) .

واذا اخذنا بنظر الاعتبار ان الانكليز كانوا قد كونوا رأياً ايجابياً بعض الشيء حول صلاحية عبدالله للامارة على العراق ، وكذلك تأكيدات وايضاحات نوري السعيد المقنعة حسب الظاهر ، فقد كان المفروض ان يكون رد الفعل البريطاني هادئاً تجاه المؤتمر العراقي والقرارات التي تمخض عنها ، الا ان الامر لم يجر بهذا الشكل .

ففي ١٣ آذار / مارس ١٩٢٠ ، اصدرت وزارة الخارجية تعليماتها في برقية الى المندوب السامي في مصر بوجوب « ابلاغ فيصل على الفور بأن (حكومة صاحب الجلالة) لا تستطيع الاعتراف بحق مؤتمر دمشق . . . في تحديد مستقبل سوريا ، او فلسطين ، او الموصل او ما بين النهرين . ان هذه الاقطار قد انتزعت من الاتراك على يد الجيوش الحليفة ، وان مستقبلها ، الذي هو مطروح الآن امام مؤتمر الصلح ، لا يمكن ان تحدده الا الدول الحليفة بالاتفاق في ما بينها . . . ان (حكومة صاحب الجلالة) لا تستطيع بأي حال ان تعترف لهيئة تأسست من تلقاء ذاتها ، بالحق في تنظيم هذه الامور ، وان حكومة صاحب الجلالة سوية مع الحكومة الفرنسية ، مضطرة الى القول بأنها تعتبر هذه الاجراءات باطلة ولاغية . . . ينبغي عليكم تجديد الدعوة للامير فيصل للعودة الى اوروبا وطرح قضيته امام مؤتمر الصلح »(٨٩) .

---

(٨٧) F.O. 371/5226/E 3110, «Supplement to Nuri Said Statement of 5 April 1920,».

(٨٨) Young, *The Independent Arab*, p. 298.

(٨٩) F.O. 88/23/MES/20/1.

ارسل مضمون هذه البرقية الى المفوض المدني في بغداد من وزير الدولة لشؤون الهند في لندن .وهي مؤرخة في ١٣ اذار / مارس ١٩٢٠ وليست مرقمة .

والامر الذي كان مهماً ، بل وخطيراً ، بالنسبة لهذه البرقية ، ليس فقط لهجتها (غير الودية) ونكرانها الجهود الحربية العربية[٩٠] ، بل كذلك التحول الاكثر حسماً في السياسة البريطانية . وفضلاً عن ذلك ، فإنها اكدت بشكل صريح نية بريطانيا في تنسيق سياستها مع فرنسا . ولم يكن هناك ما يثير غضب القوميين العرب اكثر من ذلك .

وقد استطاع الملك حسين ان يدرك الطابع الخطير ، المشار اليه آنفاً ، والكامن وراء هذه السياسة . ففي الثالث من نيسان / ابريل ١٩٢٠ ، ابرق المكتب العربي في القاهرة الى (فيكري) في جدة ، بمؤدى برقية وزارة الخارجية الآنفة الذكر[٩١] . وكان جواب حسين ذا مغزى مهم : « . . . اسمحوا لي بالقول ، انا صديقكم المخلص ، ليست له اية علاقة او صلة بمؤتمر الصلح . . . ان علاقتي وارتباطاتي هي ، كما سبق ان اشرت عدة مرات ، مع بريطانيا العظمى وحدها . فهي التي اتصلت بي ، وهي التي حملتني على الثورة ، وهي التي قبلت كل شروطي بخصوص استقلال الوطن العربي وما يتعلق به ، بموجب توقيع المندوب السامي . . . »[٩٢] .

وابلغ حسين المندوب السامي بـ « تأييده لمقررات المؤتمر السوري والعراقي »[٩٣] . وارسل المندوب السامي الى وزارة الخارجية مضمون رسالة حسين الجديدة التي « يهيب فيها بنا (بريطانيا) بعدم تأييد آراء اولئك الذين يكرهون المصالح البريطانية . . . (والمقصود بالطبع هم الفرنسيون) »[٩٤] .

وكتب فيصل الى اللورد كرزن قائلاً : « ان جميع العرب في سوريا وما بين النهرين يرغبون في الاستقلال والوحدة » ، الا انه اكد لكرزن ان العرب « يرغبون في الاحتفاظ بعلاقاتهم الطيبة مع الحلفاء » . الا ان فيصل اشار الى انه « سيرد على الدعوة للقدوم الى اوروبا عندما تعلن (حكومة صاحب الجلالة) بصورة خاصة ، ان لم تكن رسمية ، اعترافها باستقلال العرب »[٩٥] .

ان عدم وصول الموظفين البريطانيين والقوميين العرب الى تفاهم حول مشاكل المؤتمر العراقي ومقرراته كان دون شك عاملاً مهماً في نفاد صبر القوميين العرب ونشوب العنف في العراق فيما بعد . ولم يكن من الحكمة من جانب الانكليز اعتبار المؤتمر العراقي كهيئة لا تمثل الا نفسها . ذلك ان ولسن نفسه كان قد اخبر السلطات العليا بأن اعضاء المؤتمر « يمتلكون دون شك وثائق من بعض الاحزاب ، ونجد في الواقع ان هذه الوثائق صادرة عن الفئات المعارضة الموجودة في ما بين النهرين . . . مثل رجال الدين في كربلاء ، وبعض زعماء العشائر قرب النجف ، وفريق صغير ، وذو نفوذ في الوقت نفسه ، من الساسة السنة

---

(٩٠) فيما يتعلق بالمساهمة العربية في المجهود الحربي البريطاني ، انظر :
Lloyd George, *Memoirs of the Peace Conference*, vol. 2, p. 667.

(٩١) F.O. 882 29 SY/20/7, «From Arbur to Vickery, Jeddah, 3/4/1920,».

(٩٢) F O. 882 23 MES, «To the High Commissioner, Cairo, 9 April 1920 - no. 376,».

(٩٣) F.O 882 24 SY 20 7, «From High Commissioner, Cairo,to Foreign Office, 27 March 1920,».

(٩٤) Ibid.

(٩٥) F O. 371 5034, «Letter from Faisal to Lord Curzon, 4 April1920,».

ي بعداد . . ويمكن ان نضيف الى هذه القائمة بعض زعماء العشائر في منطقة الموصل . . .»(٩٦) .

ومن الجدير بالذكر انه ، في الوقت الذي كانت فيه مواقف حسين وفيصل حازمة وملتزمة بعض الشيء ، اتخذ عبدالله موقفاً مغايراً : « . . . اني لست على صلة ، او ادراك للعوامل المختلفة ، السورية او العلنية ، للوضع السياسي الراهن ، كما اني لست مطلعاً على وضع المؤتمر العراقي ، فيما يتعلق بطبيعة صلاحياته . . .»(٩٧) .

إن هذه العبارة لم تكن صادقة تماماً لأن عبدالله كان قد كتب الى المؤتمر معرباً عن امتنانه لاقتراحه(٩٨) . وبعد ذلك بسنوات ، وفي حديث مع المس بيل ، ادلى فيصل بالملاحظات التالية التي تلقي بعض الضوء على المؤتمر العراقي وموقف فيصل ازاء عائلته والقوميين العرب .

« . . . اتعرفين لماذا شجعت العراقيين القلائل في سوريا في آذار / مارس ١٩٢٠ على ترشيح شقيقي عبدالله ملكاً على العراق؟ كنت اعرف ان المسألة كلها مضحكة ، ولكني تظاهرت بتأييدها لكي ارضي شقيقي . . . كانت مهمتي هي تسوية الخلافات العائلية ولذلك شجعت ترشيح . . . عبدالله للعراق . وكنت اعرف ان ذلك امر سخيف . . .»(٩٩) .

ويمكننا ان نذكر عاملاً آخر لتشجيع فيصل لترشيح عبدالله (وهو عامل لم يكن يستطيع كشفه للمس بيل) ، وهو رفضه الوقوع في شراك المشكلة العراقية الشائكة . وكان فيصل يدرك ان الصدام بين القوميين العراقيين والادارة البريطانية امر محتوم ومحرج ، وانه اذا اتخذ موقفاً في الصراع ، فعليه ان يختار بين فقدان عطف الوطنيين او خسران تأييد الانكليز .

ان الرفض البريطاني القاطع للمؤتمر العراقي ومقرراته يمكن تفسيره بثلاثة عوامل : (أ) لم تكن سلطة ولسن على العراق موضع تشكيك جدي من جانب كبار المسؤولين البريطانيين ؛ (ب) اعلن المؤتمر العراقي بصورة مستقلة تنصيب عبدالله ملكاً على عراق مستقل ، في حين كان الانكليز يحبذون تعيين عبدالله بواسطتهم وباعتباره رئيساً شرفياً ؛ (جـ) توافق القرار العراقي مع قرار سوري مماثل انطوى على خطة لاقامة اتحاد فدرالي مع سوريا ، وان الانكليز ، اخلاصاً منهم لالتزاماتهم تجاه فرنسا ، لم يكن بوسعهم الموافقة على ذلك .

---

(٩٦) F.O. 882/23/MES, «To Secretary of State for India, 18 March 1920- no. 3497,» and Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920-A Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), p. 237.

(٩٧) F.O. 882/23/MES/20/4, «To H.E. Vickery from Abdullah, 6 April1920 ,».

(٩٨) محمد امين العمري ، تاريخ حرب العراق خلال الحرب العظمى سنة ١٩١٤-١٩١٨ ، ٣ج (بغداد : المطبعة العربية ، ١٩٣٥) ، ج٣ ، ص ١٩٧ .

(٩٩) في مقابلة لها مع الملك فيصل .

الفصل السابع

نشوب العنف ١٩٢٠

لم يكن هناك ابداً سور صيني يفصل السياسة عن الحروب او اعمال العنف[١] . ومع ان العنف هو استمرار للسياسة ، الا انه ينبغي النظر اليه كمرحلة جديدة في التطور السياسي . ويمكن الافتراض بأن ضرورة العنف تنشأ مع ظهور شرطين : الاول ، فشل الوسائل والاساليب (الاعتيادية) في تحقيق اهداف هذا الجانب اوذاك . والثاني ، الاقتناع ، الصائب او الوهمي ، لأي من الجانبين اولكليهما بأن قوته العسكرية قادرة على ارغام خصمه على الرضوخ لمشيئته .

وعليه ، فإن طبيعة العنف السياسي بحد ذاتها تتطلب اتخاذ قرارات سياسية وانسانية ، وهي قرارات قد لا يكون متفقاً عليها بصورة اجماعية بسبب الخلافات المتعلقة بتقدير الموقف السياسي . وفي هذا الصدد ، لم يكن العراق حالة استثنائية . وكان من شأن العنف السياسي ان يرسم خطاً آخر بين العناصر (الجذرية والمعتدلة) في حركة الضباط .

ان شجب الانكليز للمؤتمر العراقي اقنع بعض الضباط العراقيين بعدم جدوى اية اجراءات سياسية ، ما عدا العنف . وقد اعترف ولسن نفسه بأنه « كان هناك ، في الواقع ، بعض المبررات لهذه الاراء . . . »[٢] . وهنا ، فيما يتعلق بالعنف ، ينبغي التمييز بوضوح بين مرحلتين . فقبل انعقاد المؤتمر ، كان استخدام العنف ضد الانكليز جارياً بالفعل من قبل بعض الضباط العراقيين ، ومن ضمنهم ياسين

---

(١) بموجب تعريف كلاوزفتز الكلاسيكي ، فإن العنف او الحرب هو « مجرد استمرار للسياسة بوسائل اخرى ، فالحرب ، اذن ، ليست مجرد عمل سياسي ، بل هي كذلك اداة سياسية حقيقية ، هي استمرار للتعامل السياسي ، هي تنفيذ للسياسة بوسائل اخرى» . انظر :

General Carl Von Clausewitz, *On War*, trans. into English by J.J. Graham, with introduction and notes by F.N. Maude, 3 vols. (London: Paul, Trench, Trubner, 1949), vol. 1, p. 23.

وقد رأى كلاوزفتز في الحرب « عملاً عنفياً يهدف الى ارغام خصمنا على تحقيق رغباتنا» ، انظر : المصدر نفسه ، ص ٢ .

(٢) Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), p. 237.

الهاشمي وشلاش . فقد جرى الهجوم على دير الزور في الحادي عشر من كانون الاول / ديسمبر ١٩١٩ . الا ان هذا الهجوم كان محدوداً في نطاقه ، وحصلت اعتراضات عليه من داخل المعسكر القومي ، وقد اتخذ طابعاً عشائرياً وعسكرياً محدداً . الا انه بعد فشل المؤتمر ، اصبحت اغلبية الضباط العراقيين تؤيد العنف ، الذي اتخذ بالتالي طابعاً عسكرياً وسياسيا اكثر فعّالية . وفي هذا البحث ، سيكون الاهتمام الاكبر منصباً على الدوافع ، والمواقف ، والعلائق ، والنتائج السياسية لهذا التيار الصاعد .

اولاً : الهجوم على دير الزور

في ١٥ كانون الاول / ديسمبر ، اعلمت صحيفة (العرب) الجمهور العراقي بأن (المدعو) رمضان شلاش قد هاجم دير الزور ، واسر موظفين عرباً وانكليز ، وان عمله هذا لم يكن مسنداً من قبل الحكومة العربية ، بل من الموظفين الاتراك[٣] .

عند توقيع الهدنة ، لم تكن الحدود بين سوريا والعراق قد حددت بعد . وفي الايام الاولى التي اعقبت الهدنة ، لم يمد الانكليز سلطتهم الى الدير . ولكن في اواخر تشرين الثاني / نوفمبر١٩١٨ ، ارسل الانكليز ضابطاً عسكرياً لادارة شؤون الدير . وقد اعربت الحكومة العربية في دمشق عن عدم ارتياحها وادعت بأن الدير ينبغي ان يدار من دمشق . الا انها لم تقم بعمل ما .

وفي شباط / فبراير ، وكذلك في تموز / يوليو١٩١٩ ، تلقت الادارة البريطانية تقارير مفادها ان رمضان شلاش قد كلف من قبل (العهد) بإثارة القبائل العربية في المنطقة . وكان ذلك جزءاً من حملة (العهد) في داخل العراق للمطالبة بالاستقلال التام . وقد وصل شلاش الى الرقة في اوائل كانون الاول / ديسمبر وبدأ ينشط بين العشائر ، مطلقاً على نفسه لقب حاكم الفرات والخابور[٤] . وفي ١١ كانون الاول / ديسمبر ، دخل الدير على رأس عدد من رجال العشائر . ووضع الضابط البريطاني في الدير ، الكابتن جاميير ، رهن الاعتقال المنزلي واحتفظ به كرهينة ، وتقول برقية بريطانية رسمية وسرية « وكان الامير فيصل في باريس ، ولكنه عندما سمع بانباء القتال في الدير ارسل برقية الى اخيه ونائبه في دمشق ، الاميرزيد ، شجب فيها بمنتهى الشدة تصرفات رمضان شلاش ، وامر الموظفين العرب بالانسحاب من الدير . واضاف ان كافة المسؤولين عن الحادث سيعاقبون كعصاة . وقد القيت هذه الرسالة فوق الدير بواسطة طائراتنا (البريطانية) في ٢٢ كانون الاول / ديسمبر . . »[٥] . « وفي ٢١ كانون الاول / ديسمبر ، وصل ضابطان (عربيان) من حلب ، . . . . يحملان رسالة من جعفر العسكري الى الكابتن جاميير . . . وقد طلب فيها جعفر من الضابط البريطاني التشاور مع الضابطين حول

---

(٣) العرب ، ١٥ / ١٢ / ١٩١٩ .

(٤) Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers-Cmd. 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: His Majesty's Stationary Office [H.M.S.O.], 1920), p. 134.

(٥) Ibid., p. 135

افصل الطرق لاعادة النظام . واخبر الضابط العراقي الكاتب حاميه بأن لديه تعليمات بعزل رمضان من منصبه كقائمقام للرقة وارساله مخفوراً الى حلب »[٦] . والتقى الضابط العراقي بولسن في البوكمال وطلب معونة بريطانيا لاخراج رمضان . واخبر ولسن الضابط العراقي بأن الحكومة البريطانية قررت اعتبار الخابور كحد مؤقت بين سوريا والعراق[٧] . وكان هذا القرار يعني ان الانكليز قد اعترفوا بـ(الاحتلال) العربي لدير الزور . وفي ٢٥ كانون الاول / ديسمبر اطلق رمضان شلاش سراح المعتقلين الانكليز كافة .

وفي ١٢ كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ ، احتجت الحكومة العربية على الحدود الجديدة وطالبت بادخال (الميادين) والبوكمال في المنطقة العربية ، واعلن رمضان ان الانكليز يجب ان ينسحبوا الى وادي حوران ، الواقع على بعد ٥٠ ميلاً من عانة . وكثف نشاطه بين العشائر ضد الوجود البريطاني ، وحصل على ولاء (العكيدات) ، وواصل حملاته ضد الحاميات البريطانية في المنطقة . وفي اواخر كانون الثاني / يناير استطاعت الحكومة العربية ان تحل مولود مخلص محل رمضان شلاش[٨] ، كخطوة تصالحية تجاه الانكليز .

الا ان التهديد الموجه ضد الانكليز بقي على حاله . وقد شدد مولود مخلص الدعاية القومية والمضايقات العسكرية . وفي اواسط شباط / فبراير ، قام رجال العشائر الذين كان يقودهم هذه المرة ضباط عراقيون ، بمهاجمة واحتلال البوكمال ، وتعرضت خطوط المواصلات البريطانية الممتدة جنوباً حتى القائم ، الى غارات متواصلة ، وفي اثناء ذلك استمر الانكليز في ارسال انذارات لا تدعمها اية افعال ، كما استمر فيصل في تقديم (اعتذاراته) للانكليز . وفي ٥ ايار / مايو ١٩٢٠ ، قدم الانكليز تنازلاً آخر باعترافهم بـ (الاحتلال) العربي لـ البوكمال .

وقد اعتبر الضباط العراقيون هذا التنازل دليلاً على الضعف العسكري من جانب الانكليز ، ونظراً لأن الاهداف الحقيقية للعراقيين كانت سياسية اكثر منها (جغرافية) ، فقد استمرت غاراتهم على المنشآت والحاميات وخطوط المواصلات البريطانية . واستطاع الضباط التغلغل في العراق الى حد الخط الواقع بين سامراء وشرقاط . وتلقى الانكليز تقارير مفادها ان قوات عربية يقودها ضباط عراقيون كانت تتجمع وتخطط لهجوم في منطقة الموصل . وقد جرى الهجوم في اوائل حزيران / يونيو ، وكان عاملاً جدياً في التعجيل بنشوب العنف السياسي .

وفيما يلي خلاصة للاحداث ، مستندة على رواية مقبولة لدى معظم الكتاب[٩] ، الا انها تعاني من بعض الافراط في التبسيط وتفتقر الى بعض التفاصيل المهمة التي لم تكتشف الا مؤخراً .

---

(٦) Ibid., p. 186.

(٧) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record,* pp. 233-234

(٨) رمضان شلاش ، مختار سابق لعشيرة البوسراي قرب دير الزور ، تخرج من « المدرسة العشائرية » في الاستانة ، عين ضابطاً في الجيش التركي . اثناء خدمته في « المدينة » تخلى عن الاتراك والتحق بالشريف حسين .

(٩) Sir James Aylmer Haldane, *The Insurrection in Mesopotamia, 1920* (London: Blackwood, 1922), pp. 33-44; Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers-Cmd. 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia*, pp. 132-140, and Wilson, Ibid., pp. 227-237.

١ ـ الموقف البريطانـي

كان الانكليز قد عالجوا المسألة ، اساسياً ، كنزاع على الحدود . وكان هذا في حد ذاته خطأ بالغاً في التقدير . ومن الواضح ان الضباط العراقيين استخدموا مسألة الحدود كمجرد ذريعة لتحقيق نواياهم السياسية في الدخول الى العراق بالقوة او الضغط على الادارة البريطانية لانتزاع تنازلات سياسية . ولم يكن لسلسلة (التنازلات الجغرافية) البريطانية تأثير ، ما عدا الكشف عن الضعف العسكري البريطاني وبالتالي زعزعة هيبة الانكليز في العراق . ومـا عدا تشجيع ياسين الهاشمي ، فإن شلاش قد اقدم على (مغامرته) منفرداً تقريباً . الا انه ما ان حقق نجاحاته الاولى ، حتى حذا حذوه ضباط عراقيون آخرون . وآتى العنف ثمراته . وكان جوهر المسألة هو وجوب اجراء اصلاحات سياسية وليس تعديلات ثانوية على الحدود . وقد رفض الانكليز الشروع باصلاحات سياسية فورية ، الا انهم من الجهة المقابلة ، اضطروا تحت تهديد السلاح الى انتهاج سياسة تراجعية فيما يخص مسألة الحدود ، وهو خطأ مزدوج لم يكن يمكن ان يؤدي الى اقل من دعوة مفتوحة الى انتفاضة مسلحة .

وقد جادل ولسن بأن : « احتلال دير الزور كان الخطوة الاولى في حملة تغلغل من سوريا الى ما بين النهرين . ان احتلال البوكمال ، عقب الاتفاق الاخير ، هو الخطوة الثانية . فخلال الاسبوع الماضي كانت قواتنا تقوم بفعاليات يومية ضد غارات جيدة التنظيم . واحتلال عانة هو الخطوة الثالثة ، واذا تم تحقيقها بصورة فعالة على يد الحكومة العربية ، فإنها ستهدد وضعنا في الموصل . وهناك دلائل تشير الى اننا قد نواجه في المستقبل القريب انفجاراً جديداً في النشاط العربي المتعصب »[١٠] .

ولعل هذا كان ادراكاً صائباً لنوايا القوميين الحقيقية . الا ان ولسن لم يؤمن بجدوى اية خطوات سياسية لتهدئة التوتر المتصاعد . وقد جادل بأن : « اعلان الدستور الذي نقترحه لهذه البلاد لن يكون له اي تأثير ملحوظ على هذا التحريض ، وان السكان يقودهم متطرفون ينادون بالاستقلال التام بعيداً عن اي نفوذ اجنبي . . . وان اية تنازلات اخرى في اتجاه دستوري لن يكون لها تأثير على هذه المسألة »[١١] .

ونتيجة لنكران اية قيمة للحلول السياسية ، فإن العلاج الوحيد المتبقي كان استخدام القوة المسلحة لاخماد هذه (الموجة من النشاط الفوضوي والتي ستغرق) الوجود البريطاني في العراق . وهذا بالضبط ما طلب ولسن من الحكومة البريطانية ان توفره له[١٢] . والغريب في الامر ان ولسن كان يدرك ان الوسائل العسكرية التي كانت تحت تصرفه كانت عقيمة في الواقع وان « النقص في النقليات والقوات ، الناجم عن التسريح ، كان يجعل العمليات العسكرية على هذا البعد عن قاعدتنا في بغداد امراً شبه مستحيل ، وانه في حالة قيام اية اضطرابات فسيكون من المستحيل المحافظة على الاتصال بين دير الزور وبغداد او الموصل »[١٣] .

---

(١٠) Foreign Office [F.O.] 371 / 5073, «To India Office, 15 May 1920,».

(١١) المصدر نفسه .

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 234.

وضمن اطار الحل العسكري ، كان الخيار الباقي الوحيد هو استخدام القوة الجوية البريطانية لضرب الحشود العراقية على الحدود . وقد الح ولسن وهالدن ، في عدة مناسبات ، على استخدام هذا السلاح . الا ان السلطات البريطانية العليا ، رفضت ، لاسباب فنية وسياسية ، السماح لهما باستخدام هذه الوسيلة . وفي اوائل آذار / مارس ١٩٢٠ ، حددت وزارة الحربية استخدام النشاط الجوي ضد العرب المناوئين في داخل نطاق الحدود العراقية(١٤) . وفي حزيران ، تلقت القيادة البريطانية العامة اشعاراً واضحاً من وزارة الحربية بأن : « وزارة الهند ووزارة الحربية تشجبان قصف دير الزور وجزيرة ابن عمر لاعتبارات سياسية وقد استشيرت وزارة الطيران ايضاً ، وهي ترى ، لاسباب فنية ، ان قصف دير الزور بشكل فعال هو امر غير وارد »(١٥) .

والغريب في الامر ان ولسن ذهب الى حد القبول بالنكسات العسكرية مع عواقبها الخطيرة بدلاً من محاولة الوصول الى تفاهم سياسي . ففي ايار / مايو ١٩٢٠ اقترح فيصل ارسال نوري السعيد الى بغداد للتباحث مع ولسن حول الوضع على الحدود(١٦) ، فأجاب ولسن بالرفض(١٧) . ولو كان ولسن يتصرف من موقع قوة ، لكان يمكن فهم موقفه ، الا انه بعد اسبوع من ارسال البرقية الآنفة الذكر ، منيت القوات البريطانية بانتكاسة اخرى بالانسحاب من القائم الى عانة(١٨) ، كما صدرت الاوامر باخلاء ودهوك وعقرة(١٩) .

ومن الطريف ان نلاحظ انه في الوقت الذي لم ير فيه ولسن وسيلة لمجابهة التهديد الوطني سوى القمع المسلح ، فإن وزارة الهند اعتبرت ان اجراء تغييرات سياسية فورية في العراق هو الحل الافضل . ففي مذكرة الى وزارة الخارجية ، اشار آرثر هيرتزل الى الوضع البالغ الخطورة في العراق ، واقترح الاعلان عن عودة السير برسي كوكس كمندوب سام الى العراق في خريف ١٩٢٠ . ومضى هيرتزل يقول : « . . . اما فيما يتعلق بالتغيرات الدستورية المقترحة ، فإن السيد مونتاكو يخشى انه قد اصبح من غير المأمون السماح بتأجيل القرار الى حين وضع صيغة الانتداب من جانب عصبة الامم ، حيث ان ذلك ينطوي على تأخير كبير ، وهو يفضل الايعاز الى الكولونيل ولسن بالقيام بعمل سريع على الفور . . . ويوصي السيد مونتاكو بالقيام فوراً بتعيين رئيس مجلس ، ومجلس دولة في العراق ، على ان يعقبهما تأسيس جمعية تشريعية حالما يصبح من الممكن سن قانون انتخابي »(٢٠) .

وقد طلب ولسن في برقيته مزيداً من الدعم العسكري وذكر بصراحة « . . . ان اية تنازلات اخرى في اتجاه دستوري لن يكون لها تأثير في المسألة » . في حين لم ترد في المذكرة آنفة الذكر اية عبارة تتعلق بالاساليب العسكرية ، وكانت فكرتها الرئيسية تقوم على ضرورة التصريحات والتغيرات الدستورية ، الامر الذي

---

(١٤) F.O. 371/5128/E. 1106, «To G.H.Q., Baghdad, 6 March 1920,».

(١٥) F.O. 371/5128/E. 6453, «From War Office to G.O.C., Mesopotamia, 15 March 1920,».

(١٦) F.O. 371/5128/E. 1646, «From G.H.Q., Cairo, to G.O.C., Mesopotamia, 8 March 1920,» and F.O. 371/5129/E. 6232, «27 March 1920,».

(١٧) F.O. 371/5129/E. 6342, «From Civil Commissioner, Baghdad, to Cairo, 8 June 1920,».

(١٨) F.O. 371/5130/E. 6798, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 14 June 1920,».

(١٩) F.O. 371/5129/E. 6439, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 9 June 1920,».

(٢٠) F.O. 371/5226/E. 5113, «From Hirtzel, India Office, to the Under-Secretary of State, Foreign Office, 20 May 1920,».

لا يترك الا قليلاً من الشك في ان سياسة ولسن كانت في الواقع تفقد حظوتها تدريجياً لدى الاوساط العليا حتى في وزارة الهند .

٢ ـ الموقف العربي وتأثيره على السلطات البريطانية

ابان الاحداث ، كان الدور الذي لعبه فيصل وحكومته والضباط العراقيون غبر بارز ، واصبح موضع جدل . وان اكتشاف الوثائق مؤخراً ، ومرور الزمن ، يسمحان لنا بتقديم صورة اقرب الى الواقع .

فعلى اثر انتهاء الحرب العالمية ، اعتبرت الحدود العراقية ـ السورية اضعف حلقة في السيطرة البريطانية على العراق ، وبالتالي اصبحت مركزاً لفعاليات القوميين العراقيين . ومنذ شباط / فبراير ١٩١٩ ، اصبحت السلطات البريطانية في العراق على علم ببعض الفعاليات (الشريفية) المنبعثة من سوريا والتي كانت « تبذر بذور الاضطرابات المستقبلية عن طريق اثارة بعض المطامح غير الممكنه التحقيق »[٢١] . وفي الشهر التالي ضبط الانكليز رسائل (تحريضية) من (وكلاء شريفيين) الى بعض العراقيين[٢٢] .

ومع ذلك ، فإن الهجوم المسلح الاول على الدير ، والذي كان خروجاً على التحريض السياسي الصرف ، قد خطط له في الواقع من قبل الهاشمي وشلاش بصورة كلية[٢٣] . وفي هذه المرحلة ، لم يكن الضباط العراقيون الآخرون مشتركين بصورة مباشرة . والظاهر ان الاغلبية كانت لا تزال تستحسن الاساليب (السياسية) الا ان الفترة الواقعة بين كانون الاول / ديسمبر ١٩١٩ وايار / مايو ١٩٢٠ شهدت تغيراً جذرياً في موقف الضباط العراقيين في اتجاه الاشتراك في الكفاح المسلح . واصبح هذا التحول واضحاً جداً في آذار / مارس ١٩٢٠ ، عندما استقالت الاغلبية الساحقة من الضباط من الخدمة في الجيش السوري وانضمت الى (الجيش العراقي) على الحدود السورية[٢٤] . وكان ثمة عاملان يكمنان خلف هذا التغير في الموقف : انكشاف الضعف العسكري البريطاني في العراق وعدم الوصول الى حل للخلاف مع المندوب المدني .

ان هذا يثير مسألة العلائق السياسية بين الضباط العراقيين . فعندما وصل رؤوف الكبيسي وعبدالله الدملوجي الى الدير ، اخبرا الكابتن جاميير بانهما يعارضان اعمال شلاش . وعندما حل مولود مخلص محل شلاش ، اكدت اوساط (العهد) للانكليز ان قائدا اكثر (تعقلا) قد حل محل (متطرف) . ومن جهة اخرى ، فمن المعروف ان الكبيسي كان في الواقع يشجع شلاش في موقفه المتصلب تجاه الانكليز[٢٥] . وفضلاً عن ذلك ، فإن سياسة مخلص لم تكن اقل عنفا تجاه الانكليز من سياسة سلفه .

---

(٢١) F O. 371 / 4144 / 17618, «Extract form Arab Bulletin, February 1919,».

(٢٢) F O. 371 / 4145 / 43823, «From Political Baghdad to India Office, London, 14 March 1919,».

(٢٣) علي جودت ، ذكريات علي جودت، ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨ (بيروت : مطابع الوفاء ، ١٩٦٧) ، ص ٩٤ .

(٢٤) محمد مهدي البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ٢ ج (بغداد : ١٩٢٤) ، ص ١٢٥ .

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ١٢١ .

ان هذا الوضع المتلبس سيتضح اذا ادركنا اهمية عنصرين : فأولاً ، ان المنافسات الشخصيه ، وعدم الارتياح لاساليب شلاش العشائرية والفردية ، لعبت دوراً في ازاحته عن منصبه . وفضلاً عن ذلك ، ففي المراحل الاولى من فترة العنف ، كان الضباط العراقيون يتعاطفون مع اساليب شلاش ، الا انهم كانوا في الوقت نفسه يخشون من نتائج هذه السياسة الاستفزازية تجاه الانكليز . الا ان التطورات اللاحقة قضت على ترددهم بصورة تامة وجرفتهم كلية الى الكفاح المسلح .

إن الوثائق المكتشفة حديثاً تؤكد الرأي المشار اليه آنفاً . ذلك ان مولود لم يكن عدواً (متعصباً) للانكليز . فعند سماعه نبأ انسحاب برسي كوكس « رغب باخلاص في تعيين الكولونيل لورنس في منصب عال ، بل وفي اعلى منصب في العراق »[٢٦] . الا ان استياءه الفعلي من سياسات الادارة البريطانية في العراق لم يكن يجعله يختلف جذرياً عن (المتطرفين) امثال شلاش . وعندما حل محل الاخير ، لم يؤثر ذلك في موقف ولسن ، الذي اخبر وزارة الهند بأن مولود « ليس فقط لا يقف موقفاً مختلفاً ، بل هو ايضاً يُنشط تحريض العشائر في انحاء ما بين النهرين على التمرد والعصيان . وقد وصلت رسائله الى العشائر الى حد العمارة »[٢٧] .

وبعد ذلك بشهر ، اخبر مولود ولسن بأنه سيحاول تسوية مسألة الحدود سلمياً ، « الا ان العشائر تستطيع ان تفعل ما تشاء الى ان يصدر وعد محدد بالنية (البريطانية) في الانسحاب »[٢٨] . وفي اثناء ذلك هدد مولود باستخدام العنف اذا تقدم الانكليز نحو الميادين[٢٩] . وفي اواخر شباط / فبراير ، اقترح ولسن على وزارة الهند « حمل الحكومة العربية على ازاحة مولود والاستعاضة عنه بشخصية اقل عناداً »[٣٠] . وفي ١٢ آذار / مارس ضبط الانكليز مزيداً من الرسائل التحريضية من مولود[٣١]. وفي ١١ شباط/فبراير ابلغ الجنرال هالدن وزارة الحربية بأن « مولود لا يزال يهدد »[٣٢] . كما وجه انتباهها الى تقارير عن « تجمع قوات عربية ، ورجال عشائر في الميادين ، وعن تحرك رمضان شلاش من دمشق مع تعزيزات »[٣٣] . وفي اواخر آذار / مارس ابرق ولسن بالمعلومات التالية المثيرة للاهتمام : « ان رمضان شلاش لم يعتقل قط ، وقد عاد الآن الى الميادين وهو يسمى زعيم الحزب العربي ، وذلك بالتواطؤ ، ان لم يكن بالمساعدة الفعالة ، من جانب مولود باشا في دير الزور ، الذي هو مرشح فيصل بالذات »[٣٤] .

وكان من رأي ولسن انه بدون (الاموال المتدفقة) من سوريا فإن « الدعاية الخارجية المعادية لن يكون لها سوى اهمية ضئيلة »[٣٥] . واشار الى ان : « ثمة سيل متواصل من المال والدعاية ، ويستخدم في الاخير اسم عبدالله

---

(٢٦) F.O. 371/6348/105 «From M. Palmer, Damascus - no. 66, Very Confidential to Secretary of State for Foreign Office, 30 April 1921,».

(٢٧) F.O. 371/5126/E. 115, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 30 June 1920,».

(٢٨) F.O. 371/5128/E.114, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 4 January 1920,».

(٢٩) المصدر نفسه .

(٣٠) F.O. 371/5128/E. 1393, «25 February 1920,».

(٣١) F.O. 371/5129/E. 1870, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 12 March 1920,».

(٣٢) F.O. 371/5128/E. 282, «To War Office, 11 February 1920,».

(٣٣) Ibid.

(٣٤) F.O. 371/5129/E. 2877, «From Civil Commissioner to India Office, 24 March 1920,».

(٣٥) F.O. 371/5130/E. 7219, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 18 June 1920,».

وكذلك اسم فيصل والدولة السورية ، وذلك من دير الزور الى هذا البلد ، ومن الصعب ان يكون هناك مصدر آخر لهذا السيل ، لاسيما الاموال ، غير حكومة دمشق او موظفيها »[٣٦] .

وقبل ذلك بشهر ، كان ولسن قد شكا بمرارة الى وزارة الهند من الفعاليات (التحريضية) لـ « اصدقائنا المموِلين في سوريا »[٣٧] . وقبل ذلك بعام كانت وزارة الخارجية قد استثيرت ، تحت إلحاح ولسن ، الى حد الابراق الى الجنرال كلايتن لابلاغه بالمخاوف القائمة لدى اوساط وزارة الهند من « احتمال تشجيع النشاط التحريضي من قبل الضباط العراقيين في سوريا »[٣٨] .

لقد كانت آراء ولسن دقيقة وصائبة . وقد اصبح من الواضح الان ان العمليات العسكرية كان ينظمها ويقودها ، بصورة كلية ، الضباط العراقيون وانصار (العهد) . ولكن المهم ليس الطريقة التي نفهم بها الاحداث الآن ، بل بالاحرى الكيفية التي جرى فهمها بها في الفترة نفسها موضوع البحث . ان العراقي الاعتيادي لم يكن يختلف عن ولسن او هالدن في النظر الى الاحداث كتحدٍ جزئي للسلطة البريطانية وتشجيع جدّي لمزيد من (التمرد) او بالاحرى الثورة . ومع ذلك ، فإن السلطات العليا البريطانية لم تكن في وضع ، وربما لم تكن تريد ، النظر اليها بطريقة مماثلة : ان جوهر هذا الوضع يجد جذوره في الافتراض بأن عداء الضباط العراقيين للسياسات (البريطانية) لم يكن بالضرورة تهديداً جذرياً للوجود الاستراتيجي البريطاني في المنطقة ، وبعبارة اخرى ، ان خطط ولسن لم تكن البديل البريطاني الوحيد . وفضلاً عن ذلك ، كان واضحاً ان الضباط العراقيين كانوا مهيأين لتأييد بديل اخر يحقق بعض اهداف الوطنيين ، بدون ان يهدد المصالح البريطانية الاساسية .

وقد وصف الميجر يونغ هذا الانقسام البريطاني : « ان سياستنا في الشرق الاوسط خلال السنوات الثلاث او الاربع الاخيرة قد تأثرت كثيراً جداً ـ ولا اقول خضعت ـ بشخصيتين قويتين . ففي الجانب السوري ، كان هناك الكولونيل لورنس ، الذي يشجع المطامح العربية بدوافع مناوئة لفرنسا . وفي الجانب العراقي ، نجد السير ارنولد ولسن الذي يكبح نفس المطامح ولا يبذل اي جهد لاخفاء اسباب عمله هذا »[٣٩] .

وكان موقف الضباط العراقيين عاملاً آخر في ارباك الصورة . فقد كان بعضهم يقف علناً وبشجاعة في الصف الاول من النضال . واتخذ اخرون موقفاً مزدوجاً ، ففي الوقت الذي كانوا يشجعون الحركة بتكتم ، كانوا ، امام الانكليز ، يظهرون الاعتدال والتنصل ، وقد ذكر الضابط السياسي البريطاني في الدير بذكاء : « . . . اعتقد انه ليس ثمة شك بأن حزب ياسين باشا لم يؤيد الحركة فقط ، بل شجعها ايضاً . فإذا ما كتب لها النجاح ، تزجى التهاني لرمضان . واذا لم تنجح ، يجري التنصل منها »[٤٠] .

---

(٣٦) Ibid

(٣٧) F O 371, 5074, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 18 May 1920,».

(٣٨) F.O 371 4146 05058 «24 June 1919.»

(٣٩) F O. 371 5228/E 8483, «British Policy in Mesopotamia, A Memo. by Major Young, 4 June 1920,».

(٤٠) F O. 371 5128 E./1284, «Report from P O., Dair-ez-Zor, January 1020,».

إن فيصل استطاع ، باخفاء دوره الحقيقي ، ان يزيد في بلبلة الوضع . وقد اظهر ذكاءه بقدرته على الاحتفاظ بروابط ودية مع الجانبين المتناحرين . فمن جهة ، كان تعيين رمضان ثم مولود بأمر من حكومته ، وانه شخصياً اعطى الضباط مبالغ كبيرة من المال لتغطية تكاليف عمليات الحدود[٤١] . ورفض فيصل مطالب الانكليز الملحة[٤٢] ، باقصاء الضباط العراقيين في منطقته ، الذين كانوا مسؤولين مباشرة عن الهجمات العسكرية .

ومن جهة اخرى ، ابلغ فيصل الضباط العراقيين بأنه غير قادر على تأييدهم علناً لأنه بحاجة الى المساعدة البريطانية في الاحتفاظ باستقلال سوريا . كما استخدم ايضاً الحجة « المضحكة ، عن كون العراق منطقة نفوذ عبدالله ، التي لا يستطيع التدخل فيها »[٤٣] . وقد ادان فيصل ، امام الانكليز ، اعمال الضباط وادعى عدم قدرته على السيطرة على اتباعه المتحمسين .

ولدى سماعه بالانباء الاولى عن الهجوم على الدير ، كتب فيصل ، في ١٨ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٩ ، رسالة الى رئيس الاركان العامة البريطانية تنصل فيها كلياً من عمل رمضان[٤٤] . وعندما اشتدت العمليات العسكرية ابرق وزير الخارجية السوري الى الانكليز في القاهرة مؤكداً لهم ان « الحكومة السورية لا علاقة لها اطلاقاً بهذه الامور »[٤٥] . ومضى الوزير الى القول بأن « فيصل يبذل كل جهده لتهدئة العرب في جميع الاحوال »[٤٦] . وبعد ذلك باسبوع ارسلت القيادة العامة البريطانية في القاهرة برقية الى وزارة الحربية وردت فيها العبارة التالية ، التي تثير اكبر قسط من الاهتمام .

« . . . من المؤكد ان الادارة العربية على علم ، وربما تكون قد شجعت الوضع الناشيء في دير الزور ، الا ان غفار

---

(٤١) تحسين العسكري ، ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية ، ٣ج (بغداد ؛ النجف ، ١٩٣٤ - ١٩٣٦) ، ج ٢ ، ص ٥٦ . وقد كان المؤلف مديراً لشرطة دير الزور ابان الحوادث . وانظر ايضاً : جودت ، ذكريات علي جودت ، ١٩٠٠ - ١٩٥٨ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٤٢) في ٢٥ شباط / فبراير ١٩٢٠ ، ابرق ولسن الى وزارة الهند يقترح عليها « حمل » الحكومة العربية على « ازاحة » الموظفين العراقيين الذين كانوا مسؤولين عن التحريض على الحدود (F.O. 371 / 5128 / 1392-no. 2497.) . وبعد ايام قلائل ابرقت وزارة الهند الى وزارة الخارجية تبلغها بأن « السيد السكرتير مونتاغو يدعو الايرل كرزن . . . الى دعوة الامير فيصل الى : ١ - الاستعاضة عن الموظفين في الجزء الشرقي من منطقته بآخرين اقل عداء « لحكومة صاحبة الجلالة » ، ٢ - تسليم بعض الافراد المعينين بالاسم لمحاكمتهم ،
F.O. 371 / 5130 / E. 8001, «From India Office to Under- Secretary of State, Foreign Office,».

(٤٣) Gertude Lowthian Bell, «Private Letters and Papers,» Newcastle-upon-Tyne University Library (un-published).

(٤٤) ارفقت بالرسالة برقية الى الامير زيد بن الحسين تطالبه بعمل سريع ضد تصرفات رمضان . وقد عممت السلطات البريطانية في العراق هذه البرقية على اوسع نطاق ممكن ، لاسيما في المناطق المحيطة بالدير .
War Office [W.O.] 33 / 969; F.O. 371 / 5129 / E. 2577, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 24 March,».

(٤٥) F.O. 371 / 5130 / D. 9297, «From Minister F.A., Damascus, to G.O.C., Egyptian Expeditionary Force, 2 / 7 / 1920,».

(٤٦) المصدر نفسه .

باشا يؤكد لي ان الامر ليس كذلك . كما يؤكد لي ان فيصل يفعل كل ما بوسعه للحيلولة دونه . ومع ذلك فقد كتبت الى فيصل ابلغه بالمعلومات الواردة اعلاه واطلب اليه اتخاذ الخطوات اللازمة لوقف كافة الاعمال العدائية . الا اني اشك فيما اذا كان يستطيع ذلك ، واعتقد ان افضل طريقة لتقوية مركزه هي الاستمرار في دفع الاعانات له »[٤٧] .

وقد ايد اللورد اللنبي الرأي الوارد اعلاه ، وخلال اشد الايام الحاسمة في العراق ، كان يجادل بأن « النقص في الموارد سيجعل من الصعب على فيصل المحافظة على النظام »[٤٨] . وكتب الضابط السياسي في الدير : « لست اشك في ان الامير فيصل صادق تماماً عندما يقول انه لم يؤيد هذه الحركة »[٤٩] .

وغني عن القول ان هذه الآراء كانت تتناقض تماماً مع (الاتهامات) التي وجهها ولسن وهالدن . ولا يمكننا الوثوق تماماً في جدية وزارة الهند عندما ابرقت الى ولسن في ١١ حزيران / يونيو تطلب منه « بيانا مختصراً عن التصرفات الشريفية العدائية وارتباطها بحكومة دمشق »[٥٠] . وقد اشار ولسن في جوابه « ان ارسال مجموعة متعاقبة من المتطرفين الى دير الزور بصفة رسمية من (عهد العراق) (الجمعية القومية العراقية في سوريا) وهو في حد ذاته دليل كاف على عدم رغبتهم في التعاون »[٥١] .

واقترح المندوب المدني حمل فيصل على ازاحة (الوطنيين العراقيين) الذين يمثلونه في الدير[٥٢] . وقبل ذلك بعشرة ايام ، كان ولسن قد ابلغ وزارة الهند بأن « حالة حرب فعلية تقوم بين القوات الشريفية وقوات حكومة صاحب الجلالة في ما بين النهرين »[٥٣] .

ومع ذلك ، فقد اعربت وزارة الحربية عن شكوكها الى وزارة الهند فيما يتعلق بمسؤولية « النفوذ الشريفي عن النشاط المعادي لبريطانيا للعرب على الفرات »[٥٤] ، وتساءلت عما « اذا لم يكن العداء موحى به من جانب حزب العربية الفتاة في دمشق »[٥٥] . وقد كتب الميجر يونغ : « اخبرني الكولونيل كريبون اليوم (١٤ حزيران / يونيو ١٩٢٠) تلفونياً بأن وزارة الحربية لم تكن مرتاحة كثيرا لاتهامات السير أ . ولسن المتكررة حول التواطؤ الشريفي في اضطرابات الحدود »[٥٦] .

اما وزارة الهند فقد اتخذت موقفاً (محايداً) . فقد ابرقت الى وزارتي الحربية والخارجية

---

(٤٧) F.O. 371/5129/E. 6715, «From G.H. Q., Egypt, to War Office, 14 June 1920.,»
(التشديد من المؤلف) .

(٤٨) F.O. 371/5130/E. 8561, «From Lord Allenbey to War Office, 19 July1920,».

(٤٩) F.O. 371/5128/E. 1264, «Report from P.O., Dair-ez-Zor, January1920,».

(٥٠) F.O. 371/5130/E. 6905, «From Secretary of State, India Office, to Civil Commissioner, Baghdad, 4 June 1920,».

(٥١) F.O. 371/5130/E. 7219, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 18 June 1920,».

(٥٢) Ibid.

(٥٣) F.O. 371/5129/E. 6324, «8 June1920,».

(٥٤) F.O. 371/5129/E. 6729, «From Army Council, War Office, to Secretary of India Office,».

(٥٥) Ibid.

(٥٦) F.O. 371/5129/E. 6324, «H. Young's Handwritten Comment (4/6/1920) on Wilson's Telegram, 8 June 1920,».

(تستفسر) منهما عما اذا كان بوسع ضباط المخابرات في سوريا ان يؤكدوا آراء ولسن . (وفي حالة ثبوت ذلك) ، اقترحت وزارة الهند دراسة موضوع قطع الاعانات(٥٧) .

ويصعب التصديق بأن السلطات البريطانية لم تكن قادرة حقاً على ادراك الدور الحقيقي للقوميين العراقيين والحكومة السورية في الاحداث ، ويمكن الافتراض بأن جوهر المسألة يكمن في كون الموقف البريطاني المفرط في (الاكاديمية) كان مدفوعاً بعدم ارتياحهم لسياسة ولسن . وقد كان الميجر يونغ اكثر دقة وصراحة عندما كتب : « إن رأيي الخاص - كما كان دائماً - هو انه من المؤسف بالنسبة لأي ضابط كان مع فيصل ان يتخذ موقفاً مضاداً لبريطانيا ، وان روح ادارتنا في ما بين النهرين هي مسؤولة الى حد كبير - ان لم يكن كلياً - عن ذلك . ان عداء ولسن الشديد لكل ما هو شريفي قد خلق لنا كثيراً من المتاعب في الماضي ، وسيسبب لنا المزيد منها في المستقبل . واني اعارض بشدة اقتراحه حول القيام باعمال هجومية بالطائرات فيما وراء حدود ما بين النهرين وآمل مخلصاً ان لا تتم المصادقة عليه »(٥٨) .

وقد بذلت الحكومة البريطانية كل جهودها حقاً لتبرئة فيصل من اية مسؤولية . وعندما سئل تشرشل « من اين جاء هؤلاء الضباط الشريفيون ؟» ، اعطى الجواب الغريب : « . . . لا اريد ان اوجه اتهامات لا استطيع اثباتها »(٥٩) . وفي الجلسة نفسها منح تشرشل فيصل علناً (صك الغفران) .

« . . . لقد اطلق لفظ (الشريفيين) على الضباط الذين قادوا الهجوم على تلعفر ، ولكن هذا التعبير قد لا يكون دقيقاً تماماً . ان الامير فيصل . . . قد اعطى تأكيدات متكررة بأنه سيشجب هذه الغارات . ويبدو الاحتمال الارجح ان عداء العرب للانكليز على الفرات موحى به من قبل حزب العربية الفتاة في دمشق اكثر منه من قبل ممثلي الاسرة الشريفية »(٦٠) .

وبعد ذلك بشهر تقريباً (اكد) تشرشل مرة اخرى لاعضاء مجلس العموم انه « ليس ثمة سبب لربط الثورة بالحكام العرب »(٦١) . واذا توخينا المزيد من الدقة ، فإن الموقف البريطاني ، في تلك المرحلة ، كان اميل الى الاضطراب منه الى الوضوح . فقد ترك ولسن ، موضوعياً ، لوحده ، ومقيداً برؤسائه ، في مواجهة حركة وطنية هجومية صاعدة ، استطاعت عن طريق الدهاء او قوة الظروف ان تستغل التناقضات القائمة بين الانكليز . ولو تصرف الانكليز بسرعة بازاحة ولسن واتباع سياسة مختلفة ، لكان بوسعهم السيطرة على التطورات اللاحقة . فبامتناعهم عن استخدام القوة وترددهم في تحقيق الاصلاحات السياسية ، فتحوا الباب واسعاً امام الانتفاضة المسلحة .

---

(٥٧) F.O. 371/5128/E. 95, «From India Office to War Office and Foreign Office, 12 February 1920,».

(٥٨) F.O. 371/5129/E. 6324, «H. Young's Handwritten Comment (4/6/1920) on Wilson's Telegram, 8 June 1920,».

(٥٩) Great Britain, House of Commons, *Parliamentary Debates: Fifth Series- Vols. 125-137* (London: H.M.S.O, 1920), vol. 130: *22 June 1920*, «Questions from Ormsley Gore,» p. 1991.

(٦٠) Ibid.

(٦١) عندما سئل تشرشل عن اشتراك العراقيين المقيمين في سورية في الهجمات اجاب : « اني احجم عن الاجابة على ذلك قبل الحصول على امكانية لتدقيق الوقائع » ، انظر :
Ibid., vol. 132: *27 July 1920*, p. 1191.

ثانياً : الهجوم على تلعفر

كان الهجوم على تلعفر يختلف عنه على الدير من النواحي التالية : (١) في الوقت الذي كانت العمليات في الدير تجري تحت قناع ما يسمى (مشكلة الحدود) ، كان هجوم الضباط العراقيين على تلعفر عملاً مكشوفاً ضد الانكليز ؛ (ب) ان الهجوم على تلعفر ، خلاف حوادث الدير ، تسبب في مقتل جنود بريطانيين ؛ (ج) كانت العمليات الاولى في الدير ذات طابع عشائري ، في حين كان الهجوم على تلعفر منظماً بصورة كلية بواسطة الضباط العراقيين اعضاء (العهد) ؛ (د) كانت العمليات في تلعفر منظمة بتعاون وثيق مع اعضاء (العهد) في الموصل وتلعفر وسوريا ، في خطة طموحة لاحتلال منطقة الموصل بكاملها وكجزء من التحضير لـ (الثورة) .

١ ـ القوميون العرب في الموصل

لقد تناولنا خلال هذا الفصل فعاليات واتجاهات القوميين العراقيين في الخارج . وثمة مبررات عديدة لذلك اولها ان العنصرين الاساسيين للحركة الاستقلالية العراقية كانا شبه مستقلين عن بعضهما الا ان تلعفر (اوبالاحرى الموصل) تمثل حالة استثنائية عن ذلك . ان فعاليات القوميين في تلك المنطقة كانت ثمرة الجهود المشتركة للقوميين العراقيين في داخل وخارج العراق .

لقد ذكرنا سابقاً ان جمعية قومية عربية (العلم) كانت قائمة خلال اواخر العهد التركي واوائل العهد البريطاني في الموصل[٦٢] . الا انه ، بسبب الروابط القوية بين الموصل وسوريا (مركز العهد) ، قررت جمعية (العلم) الانضمام الى العهد ، مشكلة فرعاً لها في الموصل ، وتلقي التوجيهات السياسية في المركز العام للعهد في دمشق ، وفيما بعد في دير الزور . وقد اتخذ هذا القرار في ايار / مايو ١٩١٩ ، وارسل الى سورية سوية مع اسماء (اللجنة الادارية) الجديدة التي كانت تتألف من السادة : محمد رؤوف الغلامي (المعتمد) ، ضياء يونس التلعفري (الكاتب) ، ابراهيم عطار باشي (امين الصندوق) ، الدكتور داود الجلبي ، مصطفى الجليلي ، سعيد الحاج ثابت ، محمد امين العمري ، ياسين العريبي ، عبدالله العمري[٦٣] . ومن الجدير بالذكر انه رغم اعتراف السلطات بعجزها عن كشف قادة هذه الجمعية[٦٤] ، فإنها استطاعت تشخيص الجلبي والجليلي وثابت كقادة فعالين للعهد[٦٥] .

---

(٦٢) في صفحات سابقة من هذا الكتاب .

(٦٣) رسالة من فرع « العهد » في الموصل الى « المركز العام » ، مؤرخة في ٢٤ ايار / مايو ١٩١٩ في : صدى الاحرار ، ١٠ / ١٠ / ١٩٥٢ .

(٦٤) F.O. 371 / 5130 / E. 9897, «Memo. from P.O., Mosul,to Civil Commissioner, Baghdad, 25 June 1920,».

(٦٥) F.O. 371/6349/171, «Personalities, Mosul, Arbil and Frontie's 1920,».

وفيما يتعلق بالتنظيم والاتصالات ، كانت الحركة العربية في الموصل ، على خلاف الامر في بغداد والفرات الاوسط ، تتفاعل تفاعلاً عميقاً مع الوطنيين العراقيين في سوريا ، الا انها ، في آرائها السياسية ، كانت تتسم بنزعة راديكالية حادة في العداء لبريطانيا ، واتجاه اسلامي قوي . وفي هذا الصدد ، كانت اقرب الى القوميين العراقيين في بغداد منها الى اولئك الذين كانوا موجودين في سوريا . ويمكن تفسير ذلك بقرب الموصل من تركيا ووجود عدد كبير من السكان غير العرب .

ان القرب الجغرافي للموصل من تركيا ، ومطالبة تركيا بالموصل ، ووجود جمعية فعالة موالية للاتراك[٦٦] ، كانت عوامل تكمن خلف ظهور موقف قومي عربي متميز في الموصل . فمن جهة ، كان (العهد) في الموصل مناوئاً بشدة للفريق الموالي للاتراك[٦٧] . وفضلاً عن ذلك ، فإن الخوف من اعادة احتلال الاتراك للموصل وفشل الانكليز في الدفاع عنها ، كان عاملاً رئيسياً في تحفيز الجمعية على المركز العام للعهد بخطة فورية لـ (احتلال عربي) للموصل[٦٨] .

ومن جهة اخرى ، فإن هذه العوامل نفسها دفعت (العهد) في الموصل الى افتراض ، بل وبحث ، امكانيات التعاون العربي ـ التركي للتخلص من الاحتلال البريطاني . ونجد انعكاساً لهذه الفكرة في مضمون رسالة مهمة ارسلت الى المركز العام لـ (العهد) من فرعه في الموصل . وتبدأ الرسالة بهجوم عنيف على الادارة البريطانية واساليبها المفرطة في (القسوة والتنكيل) . كما انها تعرب عن شكوكها في نوايا امريكا التي اعتبرتها (اداة بريطانية) ، اما فرنسا فقد اعتبرت عدواً صريحاً . وقد خانت بريطانيا التزاماتها تجاه العرب وهي تسعى لاحباط اية محاولة لتحقيق استقلالهم . ومع ادراك قيمة الاساليب السياسية والدبلوماسية ، الا انها غير مثمرة . وعلى ذلك ، فقد اقترحت الرسالة التخلي عن اي امل او ثقة في الحلفاء . والبديل الوحيد للعرب هو تحالفهم مع الاتراك والبلاشفة . الا ان الرسالة اشارت الى ان المبادىء البلشفية (ضارة) بالعراق والمطلوب هو التحالف مع قوة غير استعمارية متنامية وليس استيراد مبادئها . واكدت الرسالة على التأييد المتعاظم لمصطفى كمال في الموصل وازدياد تعسف الاحتلال البريطاني . وذكرت الرسالة « ان الانكليز لن يجلوا عن العراق الا بقوة السلاح » ، وان ذلك يتطلب

---

(٦٦) تشكلت هذه الجمعية في الموصل في ايار / مايو ١٩١٩ . وقد استغلت انتصارات اتاتورك ، وغموض مستقبل الموصل ، وعمق المشاعر الاسلامية ، للترويج لحركة موالية للاتراك . وكانت اغلبية اعضائها من الاتراك والتركمان والاكراد ، الذين كان معظمهم من الموظفين الاتراك سابقاً . ومع ذلك فقد كانت تضم عدداً من العرب . انظر : قحطان احمد عبوش التلعفري ، ثورة تلعفر، ١٩٢٠ ، والحركات الوطنية الاخرى في منطقة الجزيرة (بغداد : مطبعة الازهر ، ١٩٦٩) ، ص ٦٢ ـ ٦٤ .

(٦٧) المصدر نفسه .

(٦٨) رسالة من فرع « العهد » في الموصل الى « المركز العام » ، مؤرخة في ٢٤ ايار / مايو ١٩٥٢ في : صدى الاحرار ، ٢٤ / ١٠ / ١٩٥٢ ، كما وردت في : التلعفري ، المصدر نفسه ، ورسالة من فرع « العهد » في الموصل الى « المركز العام » ، مؤرخة في شباط / فبراير ١٩٢٠ في : صدى الاحرار، ٩ / ٤ / ١٩٥٤ ، كما وردت في : التلعفري ، المصدر نفسه .

شرطين : ارسال ضباط عراقيين الى المناطق العشائرية ، وعقد تحالف مع دول كبرى لمساعدة العراقيين(٦٩) .

وقد وضع فرع (العهد) في الموصل معتقداته النظرية موضع التطبيق . فأرسل محمد العمري الى ماردين للاتصال بالاتراك . وقد كشف في رسالة سرية من ماردين ، عن ان مهمته حظيت بتأييد مولود مخلص وعلي جودت والافكار (المعروفة) لياسين الهاشمي . وذكر انه تم الاتفاق مع الاتراك وفق الاسس التالية : عقد اتحاد كونفدرالي بين العرب والاتراك ، جعل الخلافة تركية ، (احتلال) العرب للعراق بما فيه الموصل وتشكيل حكومة وطنية ، ومساعدة الاتراك للقوميين العرب بالمعدات العسكرية(٧٠). وقد زود الاتراك العمري في ماردين ببعض الاسلحة ، ولكنهم رفضوا تزويده بالمدافع ، بسبب خوفهم من (احتلال) العرب للموصل(٧١) .

ان (المركز العام) لـ (العهد) قد اجرى بدوره اتصالات مع الاتراك : فقد ارسل رؤوف الشهواني ورشيد الخوجه الى الاستانة لاجراء مفاوضات(٧٢) . وجلب محمود السنوي بعض الاسلحة من ديار بكر(٧٣) . وكان علي جودت على اتصال دائم بعجمي السعدون والضباط الاتراك الذين زودوه بكميات كبيرة من المعدات العسكرية(٧٤) .

واتخذ تعاون القوميين العرب مع الاتراك ابعاداً جديدة عندما توصل فرع (العهد) في الموصل والجمعية الموالية للاتراك ، في اواسط ١٩٢٠ ، الى وضع خطة مشتركة للعمل ضد الانكليز(٧٥) . وقد استمر هذا التعاون حتى وصول فيصل الى العراق ، حيث انفصمت عراه بعد ذلك ، وكان لا بد لهذا التحالف الجديد مع الاتراك من ان يكتسب مغزى سياسياً مهماً ، الا ان النزاع الذي لم يحل حول الموصل ، والميول اللاعثمانية ، او اللااسلامية لمصطفى كمال ، وسوء الظن العميق بين العرب والاتراك ، كانت كلها عوامل عرقلت تطور هذا التحالف واكتسابه طابعاً اكثر جدية . وفي ايلول / سبتمبر ١٩٢٠ ، ارسلت المخابرات البريطانية التقرير التالي :

« (أ) ان العناصر القومية في سوريا وما بين النهرين تقوم بجهود منظمة منذ وقت طويل لتحقيق التلاحم فيما بينها بشكل يتيح لها ممارسة نفوذقوي على المشاعر المحلية في كلا القطرين ، وعلى الحكومة العربية في دمشق ؛ (ب) بعد تحقيق

---

(٦٩) رسالة من فرع « العهد » في الموصل الى « المركز العام » ، مؤرخة في ٣٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٩ في : صدى الاحرار ، ٣ / ٤ / ١٩٥٤ ، كما وردت في : التلعفري ، المصدر نفسه .

(٧٠) رسالة من مخزوم [محمد العمري] الى فرع « العهد » في الموصل في : صدى الاحرار ، ٢٣ / ١٠ / ١٩٥٤ ، كما وردت في : التلعفري ، المصدر نفسه .

(٧١) العسكري ، ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية ، ج٢ ، ص ٩٢ .

(٧٢) التلعفري ، ثورة تلعفر ، ١٩٢٠ ، والحركات الوطنية الاخرى في منطقة الجزيرة ، ص ٦٧ .

(٧٣) جودت ، ذكريات علي جودت ، ١٩٠٠ - ١٩٥٨ ، ص ١٣١ - ١٣٤ .

(٧٤) المصدر نفسه ، ص١٣٥ .

(٧٥) التلعفري، ثورة تلعفر ، ١٩٢٠ ، والحركات الوطنية الاخرى في منطقة الجزيرة ، ص ٧٠ - ٧١ و٣٩٦ - ٣٩٧ .

ذلك ، سوف تسعى الى الاتحاد مع القوميين الاتراك ، وقد ساعد على ذلك ، الى حد كبير ، فشل فيصل في السيطرة على المتطرفين في اوائل تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٩ . . . ؛ (ج) . . . ثمة خلافات واسعة ، وهناك دلائل على سوء ظن الاتراك بالعرب والعكس بالعكس ، ونأمل ان تستفيد من ذلك . . . ؛ (د) ان مصطفى كمال فاتر جداً في تأييده للسياسات الاسلامية . . . كما انه مناوىء للعرب (ولكنه مضطر . . . الى استخدامهم)»[٧٦] .

وفضلاً عن ذلك ، فقد ابرق الضابط السياسي في الموصل الى ولسن يخبره بأنه « يظهر ان الحركة لا تحظى بتأييد تركي فعال . لقد سمح لـ (الجيش العراقي) بشراء الطعام في نصيبين ، الا ان الحكومة هناك حاولت اسر ضابط انضم الى الحركة »[٧٧] .

ومن جهة اخرى ، يبدو ان هذا التحالف العربي ـ التركي المحتمل كان احد العوامل التي حفزت السلطات البريطانية على تشجيع فكرة الاستقلال العربي لقطع الطريق امام اي تقدم تركي . فبالنيابة عن اللورد كرزن ، ابلغت وزارة الهند بأن « احد الاخطار الرئيسية ، ليس فقط بالنسبة للسياسة البريطانية في ما بين النهرين ، بل للسياسة البريطانية في اماكن اخرى ، هو العلاقة بين مصطفى كمال والمتطرفين في ما بين النهرين . . . لذلك من الضروري البدء بأسرع وقت ممكن بالعمل من اجل استقلال عربي من النوع الذي سيؤدي الى الفرقة بين الاتراك والعرب والوئام بين العرب والبريطانيين »[٧٨] .

وكان ثمة عنصر آخر خلف النزعات الاسلامية القومية للقوميين العرب في الموصل ، وهو الطبيعة السكانية لشمال العراق عموماً والموصل بوجه خاص[٧٩] ، ان كون الموصل محاطة بفئات كبيرة غير عربية ، لعب دوراً في تكوين شعور عربي قومي حاد اولاً ، وثانياً ، ان هذا الشعور العربي كان مصحوباً بل وربما معدلاً ، بنزعة اسلامية واضحة . ويمكن تفسير العنصر الاخير ايضاً بعاملين آخرين يتعلقان بالعلائق العربية ـ التركية : فمن الناحية التاريخية ، لم يكن هناك تقريباً اي صراع عرقي او قومي بين العرب والاكراد[٨٠] .

كانت المهمة الاولى بالنسبة للقوميين العرب آنذاك هي المجابهة مع الانكليز . وقد علقت اهمية كبيرة على الاتصالات مع الاكراد والتركمان في محاولة اقامة جبهة مشتركة ضد الانكليز . وطيلة عام ١٩١٩، كانت المنطقة الكردية مسرحاً لسلسلة من الانتفاضات المعادية لبريطانيا[٨١] . وكان ذلك بحد ذاته عاملاً آخر في تشجيع تقرب الوطنيين العرب من الاكراد . وعندما قرر الوطنيون العرب توجيه ضربة

---

(٧٦) W.O. 106/2/34, «From Secretary of State to Civil Commissioner, Baghdad, 23 September 1920,».

(٧٧) F.O. 371 / 5130 / E. 9897, «Memo. from P.O., Mosul, to Civil Commissioner, Baghdad, 25 June 1920,».

(٧٨) F.O. 371 / 5229 / 10440, «Signed by J.A. Tilley, Secretary of Foreign Office to Secretary of India Office,».

(٧٩) انظر الصفحات السابقة من هذا الكتاب .

(٨٠) جلال الطالباني، كردستان والحركة القومية الكردية ، ط٢ مزيدة ومنقحة (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧١) .

(٨١) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920 - a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, pp. 147-155.

في الموصل ، كان هدفهم الاول هو تلعفر ، التي كان يسكنها العرب والتركمان معاً . وبالرغم ، من ان عشيرة (الاعافرة) ، التي لعبت دوراً مشهوداً في الانتفاضة ، كانت في الواقع عشيرة عربية[٨٢] ، الا ان الدور التركماني قبل الحركة وخلالها لم يكن اقل اهمية[٨٣] . وفي الواقع ، نجد ان بعض الاكراد انضموا فعلاً الى جمعية العهد في الموصل[٨٤] . وتجدر الاشارة الى ان (٣٢) شخصية كردية في الموصل كانت قد رفعت التماساً الى مؤتمر الصلح تطالب فيه بوحدة العراق واستقلاله وباقامة علاقات قوية مع الاقطار العربية الاخرى . وقد انتدبوا فيصل ومولود مخلص وعلي جودت لتمثيلهم في مؤتمر الصلح[٨٥] .

ومع ذلك ، وخلافاً لفكرة تاريخية مفرطة في التفاؤل ، ينبغي الاشارة الى ان هذه الاتصالات والمحاولات لم تتمخض عملياً الا عن نتائج محدودة ذات تأثير سياسي ضئيل . وقد كتب الضابط السياسي في الموصل : « يجب ان نهنىء انفسنا لأن كردستان بقيت هادئة . فقد كان قائمقام الجزيرة على اتصال بقادة الحركة ، وكان ثمة هجوم متوقع في زاخو ، وإبّان انفجار الحوادث كانت ثمة (بؤرة عواصف) تتجمع ، ولكن بالرغم من كل ذلك ، لم يتحرك الاكراد » .

ومع ذلك فقد اشار الى ان « منشورات العهد كانت توزع بحرية في المناطق العربية والكردية »[٨٦] .

كان الاتجاه العام في الحركة السياسية الكردية يصبو الى الحكم الذاتي الكردي اكثر منه الى الوحدة العربية . كما ان الحركة الوطنية العربية في العراق كانت في الاساس حركة عربية سواء في مطامحها او تكوينها الاجتماعي . ومع ذلك فإن هذه الاتصالات ، التي كانت مدفوعة برغبة قوية في كسب عطف الاكراد والتركمان على الحركة العربية المعادية لبريطانيا ، كان لا بد من ان تطبع اتجاهات رجال (العهد) في الموصل بطابع اسلامي واضح . وكان هذا الطابع واضحاً بشكل خاص في رسائل (العهد) المرسلة الى الزعيم الكردي رشيد برواري[٨٧] والزعيم التركماني نديم نفطجي[٨٨] ، وفي المناشير الموجهة الى المناطق الكردية[٨٩] ، وبالدرجة الاولى ، في داخل صفوف (العهد) نفسه ، ولم يكن ثمة تساهل بخصوص هدف وحدة العراق واستقلاله واتحاده مع الاقطار العربية (سوريا والحجاز) . الا انه كان ثمة اعتبار خاص لحقوق الاقليات ، وتشديد على الرابطة الاسلامية ، وفي اكثر من مرة كانت (الوطنية) ترجح على (القومية) .

---

(٨٢) محمد يونس عبدالله وهب ، تاريخ تلعفر قديماً وحديثاً (الموصل : مطبعة الجمهورية ، ١٩٦٧) ، ص٨٧ - ٨٨ .

(٨٣) شاكر صابر الضابط ، موجز تاريخ التركمان في العراق (بغداد : ١٩٥٨) ، ج١ ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٨٤) عبد المنعم الغلامي ، ثورتنا في شمال العراق (بغداد : ١٩٦٦) ، ص ٨ - ٢٩ .

(٨٥) المصدر نفسه ، ٢٧ - ٢٨ ، والملحق رقم (١) ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٨٦) F.O. 371/5130/E. 9897, «Report on Recent Attack on Tal Afar,».

(٨٧) الغلامي ، ثورتنا في شمال العراق ، ص ١١٥ - ١١٦ ، الملحق رقم (٢) .

(٨٨) المصدر نفسه ، ص ١١٩ - ١٢٢ ، الملحق رقم (٤) .

(٨٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ - ١٢٧ ، الملحق رقم (٥) .

وبقدر ما يتعلق بهذا البحث ، ليست ثمة ضرورة للدخول في سرد مفصل للانتفاضة في تلعفر والهجوم ويمكن سرد الحوادث بشكل سريع وموجز . ففي ايار / مايو وحزيران / يونيو ١٩٢٠ جرت حملة واسعة من الدعاية والتحريك السياسيين بقيادة العهد في الموصل وتلعفر وعبر الحدود . وفي ٢٦ ايار / مايو وصلت انباء عن وصول مجموعة من الضباط العراقيين الى فدعمي ، بقيادة جميل المدفعي الذي كان يتلقى الذخائر عبر نهر الخابور . وفي ٢ حزيران / يونيو ، نظم العهد اجتماعاً في تلعفر (دعا فيه الاغوات الى الاستعداد لقدوم الشريف ، الذي كانت قواته تتجمع على الطريق الواقع قرب عوينات) وفي اليوم نفسه ترك معاون ضابط الدرك ، جميل محمد ، وظيفته وقطعت اسلاك البرق . وفي ٤ حزيران / يونيو دخل بعض الفرسان العشائريين على تلعفر وانتفضت المدينة ، وقتل ضابط الدرك اللفتنانت ستيوارت ، من قبل احد ضباطه المحليين . ولم يبد الدركيون اية مقاومة . وبقي مرشد الدرك البريطاني ، والكاتب ، ومدفعي النيكرز صامدين على سطح الدار لبعض الوقت لحين وصول القوات العراقية ، حيث قتلوا بواسطة القذائف اليدوية . كما قتل معاون الضابط السياسي ، الميجر بارلو ، اثناء محاولته الهرب . وفي ٥ حزيران / يونيو وقع رتل (تأديبي) من السيارات المصفحة البريطانية في كمين قرب تلعفر، ولم ينج احد من افراده .

كان سقوط تلعفر اشارة لانتفاضة عامة لجميع القبائل في المنطقة وكان جميل المدفعي يحاول في البومريا ان يجمع قواته للزحف على الموصل نفسها . وكتب الضابط السياسي في الموصل : « لو كانت القوة العراقية قد وصلت اطراف الموصل ، فليس ثمة شك لديّ في وقوع عصيان في المدينة ، وفق الوعد الذي كان قد صدر بذلك » . الا ان الانكليز اسرعوا بارسال المزيد من القوات ضد جيش جميل المدفعي واجبروه على التراجع[٩٠] .

ان هناك ملاحظتين متعلقتين بالموضوع . ان الاستعدادات لتحرير تلعفر ، التي كانت قد خططت بعناية من قبل القوميين العراقيين داخل الموصل وعبر الحدود في سوريا ، كانت قد نظمت بصورة كلية بواسطة جماعة العهد . وكان الشيخ العشائري (سيد عبدالله سيد وهب) الذي نظّم انتفاضة عشيرة الاعافرة منتمياً الى (العهد)[٩٠]. كما ان ضابطي الشرطة العراقيين اللذين قادا (التمرد) داخل قوة الدرك الخاضعة للانكليز (وهما جميل محمد الخليل ومحمد علي) كانا عضوين في (العهد) . وكانت خطتهما قد نسقت بين الزعماء والعشائريين والقوة العراقية الزاحفة بواسطة عبد الحميد الدبوني (المساعد السابق لمعاون الضابط السياسي في تلعفر) والذي كان عضواً فعالاً في (العهد) . وقد استقال من وظيفته في الادارة البريطانية ليقوم بتنظيم الاتصالات مع جماعة العهد في سوريا . وغني عن البيان ان جميل المدفعي وزملاءه الضباط الذين دخلوا تلعفر وقضوا على آخر جيوب المقاومة البريطانية ، كانوا جميعاً اعضاء في العهد[٩١] .

---

(٩٠) «From Civil Commissioner to Foreign Office, June 1920-no. 6660»; no. 6712, «5 June 1920,»; no. 6942, «7 June 1920,» and F.O. 37/5130/E. 9897, «14 August 1920,».

(٩١) محمد يونس عبدالله وهب ، اهمية تلعفر في ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠ (الموصل : مطبعة الجمهورية ، ١٩٦٧) .

فبعد نجاحات رمضان شلاش وفشل آخر الجهود (الدبلوماسية) العراقية ، فلقد التقى علي جودت وجميل المدفعي بفيصل في ٨ آذار / مارس ١٩٢٠ وابلغاه بعزمهما على التحرك نحو الدير و(محاربة الانكليز الذين نكثوا بعهودهم) . لقد رفض فيصل السماح لأخيه زيد بالانضمام اليهم ، ولكنه وافق على تزويدهم بالمساعدة المالية .

بعد ذلك تم تشكيل (لجنة وطنية) من علي جودت (رئيساً) وتحسين علي ومولود مخلص (حاكماً عسكرياً للدير) وجميل المدفعي . وقام الاخير بتأليف الجيش العراقي الذي كان يتكون من ضباط عراقيين في سوريا والموصل ، وجند له الجنود من عشائر العكيدات وشمر والجبور[٩٢] .

٢ ـ تأثير الهجوم على تلعفر

بفضل سياسات ولسن ، اضطرت مجموعة غير راديكالية في الاساس الى اتباع خط (راديكالي) في استخدام العنف ضد بريطانيا . وكان تزمت ولسن غير منطقي الى درجة انه كان يفضل علناً الجلاء عن العراق على التفاهم مع الضباط . وقد كتب في ٩ حزيران / يونيو ١٩٢٠ : « اننا لا نستطيع المحافظة على مركزنا كدولة منتدبة بسياسة المصالحة مع المتطرفين . . . واذا كانت (حكومة صاحب الجلالة) تعتبر هذه السياسة غير عملية ، او فوق طاقتنا ، فإني ارى من الافضل بالنسبة لها مواجهة البديل الأخر ، مهما كان جسيماً ومخيفاً ، الا وهو الجلاء عن ما بين النهرين »[٩٣] .

وعلى النقيض التام من وجهة النظر هذه ، كتبت غروترود بيل في ١٠ نيسان / ابريل ١٩٢٠ : « اعتقد اننا على حافة تظاهرة قومية عربية كبيرة ، تحظى بقسط كبير من تعاطفي . الا انها ستفرض ارادتها علينا وستوجب علينا ان نرى اذا كانت ستترك لنا ما يكفي من السيطرة للبقاء هنا . . . »[٩٤] .

وكان ولسن يعلم بهذه الآراء ويكون آرائه الخاصة غير مقبولة لدى السلطات البريطانية العليا ، الا انه كان واثقاً من حسن تقديره الى درجة جعلته يكتب الى صديق له : « اني واثق تماماً من اني اسير في الاتجاه الصحيح وابذل كل ما في وسعي واذا كانت الحكومة لا ترى ذلك ، فاعتقد ان ذلك من سوء حظها هي . . . وطالما انا باق هنا ، فإني عازم على الاستمرار في طريقي بكل قواي ، ولا اعبأ مثقال ذرة بأحد . . إنه لاصعب جداً على حكومة صاحب الجلالة ان تحزم رأيها مما هو الأمر بالنسبة لي »[٩٥] .

---

(٩٢) جودت ، ذكريات علي جودت ، ١٩٠٠ـ ١٩٥٨ ، ص ٩٠ ـ ١٢٢ .

(٩٣) Sir Arnold Talbot Wilson, «Micellaneous Papers,» British Museum, Department of Manuscripts, no. 52455 / 6948 «From Civil Commissioner, Baghdad, to Secretary of State, India, London, 9 June 1920.,».

(٩٤) Gertrude Lowthian Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, edited by Lady F. Bell, 2 vols. (New York: Boni and Liveright, 1927), vol. 2, p. 486.

(٩٥) Wislon, «Micellaneous Papers,» no. 52456.
فقرة من رسالة الى الكابتن س. س. ستيفنسن ، مؤرخة في ١٦ / ٢ / ١٩٢٠ .

وفي عشية الانتفاضة ، كان من الواضح ان السلطات البريطانية كانت منقسمة حول موضوع العراق الى ثلاثة تيارات رئيسية . فمن جهة ، كان هناك اتجاه ولسن المطالب بسيطرة بريطانية مباشرة على العراق ، ومن جهة اخرى ، كان هناك تيار آخر يدعو الى حل وسط مع الوطنيين العراقيين . وكان يمثل هذا التيار ، رغم بعض الخلافات[٩٦] ، موظفون مثل لورنس ويونك وغروترود بيل . اما (الحكومة البريطانية) فكانت في موقع وسط بين التيارين ، اواذا اردنا المزيد من الدقة ، كانت مضطربة بسبب العوامل المتضاربة وبالتالي غير قادرة على وضع سياسة واضحة . وكان ذلك واضحاً من امتناع الحكومة البريطانية عن « التبني والتنفيذ الفعال للسياسة التي كان يحثها عليها المندوب المدني بالوكالة ، في الوقت نفسه امتناعها عن ضبط تصرفات المندوب المدني بالوكالة وعدم اصرارها على قيامه بتنفيذ سياستها »[٩٧] .

وفي ايار / مايو ١٩٢٠ ، كان الضباط العراقيون قد نظموا جيشاً فعالاً نسبياً ، يمثل خطراً جدياً[٩٨] للانكليز ويهدد وجودهم في الموصل[٩٩] . الا ان الغزو الفرنسي لسوريا في تموز / يوليو ١٩٢٠ بدد حلم الضباط بـ (تحرير) العراق بحرمانهم من مؤ ازرة دمشق ، ومع ذلك ، فقد كان الدير وتلعفر مقدمة لانتفاضة عامة . وقد افضى فهد بك ابن هذال ، شيخ عشيرة عنزة ، افضى للانكليز بالعبارة التنبؤية التالية : «لكم ان تصدقوني او لا تصدقوني ، ولكن اذا لم تعيدوا احتلال دير الزور فستكون هناك ثورة في الفرات الاسفل خلال ستة اشهر»[١٠٠] .

وفي ٣٠ حزيران / يونيو ١٩٢٠ ، لم تعد الثورة مادة مدرجة في جدول العمل ، بل اصبحت حقيقة واقعة . ان شرارة من الرميثة الهبت نيران العنف السياسي في منطقة الفرات الاوسط برمتها .

---

(٩٦) كتبت غروترود بيل تقول : «لا اعتقد ان ت . أ . [لورنس] يجهل الامر ، ولذلك فإني احمله تبعة الخطيئة التي لا تغتفر عن تقديم مشورة سيئة بصورة عمدية » ، انظر :
Bell, «Private Letters and Papers,» «19September 1920,».

(٩٧) John Marlowe, *Late Victorian: The Life of Sir Arnold Talbot Wilson* (London: Cresset, 1967), p. 125.

(٩٨) في ٩ حزيران / يونيو ابرق ولسن الى وزارة الهند قائلاً : « آمر بالجلاء عن زاخو . . . وهو يعتقد انه سيكون لا مفر من الجلاء عن دهوك وعقرة قبل مضي زمن طويل . . . قد يكون من الممكن الدفاع عن الموصل ، الا ان خطوط المواصلات تتعرض لمضايقات شديدة على ايدي العرب العاملين تحت امرة ضباط شريفيين » .
F.O. 371/5129/E. 6439 - no. 6950.

(٩٩) في ٢١ تموز / يوليو ابرق ولسن الى وزير الدولة لشؤ ون الهند يقترح الجلاء عن ولاية الموصل بكاملها .
F.O. 371/5130,« no.8785,» and Haldane, *The Insurrection in Mesopotamia*, p. 235.

(١٠٠) المصدر نفسه ، ص ٣٣٤ .

القِسمُ الثالث

العراق تحت الادارة البريطانية

١٩١٤ - ١٩٢٠

مقدمـــة

إن هذا القسم ، لطبيعة موقعه في هذا البحث ، لا بد من ان يفرض بعض التحديدات ، فهو يأتي ضمن بحث يتركز الاهتمام الرئيسي فيه حول الجوانب السياسية الاكثر من الادارية. وفضلاً عن ذلك ، فإنه يقع ضمن بحث ليس مكرساً ، في الاساس ، لدراسة الحكم البريطاني في العراق ، بل بالاحرى لدراسة تأثير هذا الحكم على الحركة الاستقلالية في العراق .

إن الكاتب يفترض قيام تفاعل عميق بين الادارة البريطانية والحركة الاستقلالية ، ان سياسات ومواقف الادارة ، بل وربما مجرد وجودها ، كانت لا بد من ان تمارس تأثيراً كبيراً على السكان فيما يتعلق بموقفهم ازاء القوميين ، وان (نواقص) الادارة قد عمقت سخط القوميين ، فضلاً عن ذلك اتاحت لهم كسب المزيد من التأييد ، وعقد المزيد من التحالفات وبالتالي اكتساب المزيد من الزخم والهجومية ، ومن جهة اخرى ، فإن (منجزات) الادارة ادت الى تحييد عناصر او فئات معينة وبالتالي عزلها عن المعسكر الوطني .

لذلك يبدو ان اهداف البحث تبرر اتباع اسلوب انتقائي وانتقادي ، لا اسلوب تفصيلي او سردي اووصفي ،ونعني بالانتقائية وجوب التركيز بوجه خاص على مناطق وجوانب معينة واهمال غيرها . وسوف نبحث مواضيع مثل الضرائب ، ونظام الاراضي ، والعلاقات العشائرية ، ومناطق مثل المدن المقدسة ، مع استبعاد جوانب اخرى من الادارة البريطانية مثل البريد ، والسجون ، والصحة. . . الخ .

من الواضح ان الادارة البريطانية كانت تتصف بمزايا كبيرة (مثل الكفاءة والنزاهة الادارية) . ولكن ، بالنظر لأن هذا البحث مكرس لدراسة الحركة الاستقلالية ، فإننا ملزمون بابراز سلبيات هذه الادارة ـ وبعد كل حساب ـ فإن هذه السلبيات هي التي اتاحت للقوميين

التغلغل بين الفئات والمناطق التي لم تكن (معجبة) بالاساليب البريطانية . وفي الواقع ان بعض (فضائل) الادارة كان لها تأثير عكسي في المدى البعيد . وفي هذا الصدد ، قد يكون من المفيد اقتباس العبارة التالية لـ س . هـ . لونغريغ :

« قليلون في الواقع هم الذين انكروا ارتفاع مستوى النزاهة والعدالة في الادارة (البريطانية) ، وما حققته من الامن ، وما انجزته وما كان ينتظر ان تحققه في الشؤون المادية ، بالمقارنة مع المستويات التركية المعهودة ، ومع ذلك ، فإن الاتهام القائل بأن طراز او اسلوب هذه الادارة كان من بين عوامل انفجار الاضطرابات ، التي تلت ذلك بسرعة وبشكل مخيب للآمال (كذا . .) ، هذا الاتهام لا يمكن انكاره بصورة كلية . . . فأولاً ، كانت هذه الادارة تابعة لدولة مسيحية . وهذه الحقيقة ، وان كانت لا تهم البعض ، الا انها كانت موضع اعتراض لدى الكثيرين ، وليس اقلهم شأناً علماء الدين الشيعة ، الذين كان مركزهم وسلطاتهم ستضيع الى الابد في حالة تنصيب سلطة دنيوية اجنبية . اما بالنسبة للسنة ، فقد كان الحنين للخلافة ، باعتبارها المصدر المشروع الحقيقي والوحيد للسلطة ، حتى في حالة اندحارها المؤقت ، كان هذا الحنين يكاد يقترن في اذهانهم بدينهم ، وكان الانغماس في هذه المشاعر امراً سهلاً ، كما ان النظام الجديد كان يبقى عديم الجذور وغير موثوق به ، طالما بقي الصلح مع تركيا مؤجلاً . فباستبعاد الدين والولاء العثماني ، كان النظام البريطاني اجنبياً وغير مألوف وكان (افراده) الضعفاء في العربية غالباً ، يختلفون عن اسلافهم ، الى حد التغرب ، في الملبس والسلوك والعادات الاجتماعية . . . كانوا يميلون الى التشدد في المقاييس ، ولا يخلطون الا القليل من التساهل بعدالتهم غير المريحة وغير المرغوب فيها دائماً (كذا) ، كما كانوا قساة ازاء التساهلات المعهودة القديمة العهد »[(١)] .

وفي الدرجة الاولى، كانت الظروف التي فرضتها الحرب نفسها صعبة جداً في الحقيقة . فعلى اية حال ، كان الهدف الرئيسي للقوات البريطانية الغازية هو دحر الاتراك وليس ارضاء العرب . وكان النهج الذي يسير بموجبه الانكليز خاضعاً لاعتبارات الضرورة العسكرية اكثر منه للفوائد السياسية[(٢)] . « ان النقص في النقليات ، سواء في البر او البحر ، جعل من الضرورة جداً تطوير كافة مصادر التموين للاحتياجات العسكرية الى الحد الاقصى »[(٣)] .

ان اعطاء الاولوية للجوانب العسكرية جعل ادخال العمل الاجباري بين العراقيين امراً لا مفر منه تقريباً ، وكان هؤلاء (العمال البؤساء) و(الفلاحون نصف العراة) مضطرين الى العمل تحت ظروف لا انسانية و(مثيرة للاسى)[(٤)] وذلك باعتراف قادة الانكليز انفسهم .

---

(١) Stephen Hemsley Longrigg, *Iraq, 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History* (New York: Oxford University Press, 1953), p. 113.

وقد خدم لونغريغ في الادارة العراقية خلال الاعوام ١٩١٨ - ١٩٣١ .

(٢) Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), p. 45.

(٣) Ibid.

(٤) Sir Hubert Young, *The Independent Arab* (London: Murray, 1933), pp. 51-52 and 65.

وفضلاً عن ذلك ، كان الطعام لا يصل الى الاسواق ، الا بعد تلبية حاجات السلطات العسكرية[٥] . وكانت هناك « المرابطة في المدن ، واجراءات الحصار لمنع التموين عن العدو ، وتقييدات الصحة البيطرية المزعجة ، والرقابة على التنقل والسفر ، وبناء الطرق عبر مجاري الاقنية »[٦] .

ومع ذلك ، فينبغي اعارة اهتمام اكثر للمسائل السياسية الجوهرية منه للآلام الانسانية التي ولدتها ظروف الحرب. ولذلك ، فإن هذا القسم قد تناول اولاً تركيب الإدارة البريطانية (اي عناصرها التكوينية القومية) وسياستها المالية ثم موقعها تجاه الفلاحين العراقيين ومسألة الارض . كما سيخصص فصل خاص لاستفتاء ١٩١٨ - ١٩١٩ .

ان الادارة البريطانية قد استثارت ، وعجلت في الواقع ، بقيام الحركة الاستقلالية . ومع ذلك ، فينبغي اعارة اهتمام خاص لتلك الاجزاء من المجتمع التي استثارتها السياسة البريطانية باقصى درجة من القوة . وسوف نشير الى ان هذه الاجزاء كانت تتألف من المثقفين والفلاحين . وسوف نناقش هذا الاستنتاج في هذا القسم .

---

(٥) Colonial Office [C.O.] 696, «Amarah Proclamation, no. 1, Section 14,».

(٦) Longrigg, *Iraq, 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History*, p. 82.

الفصل الثامن

التكوين القومي للادارة البريطانية في العراق

خلال العهد العثماني في العراق ، لم يكن العراقيون ممنوعين كلياً من اشغال مناصب في الادارة العثمانية في العراق ، فمن بين (الملاك الاداري) في ولاية بغداد والبالغ عدده ١٢٠ ، كان عشرون فقط من الاتراك ، والبقية عرباً[١] . ومن بين الموظفين التنفيذيين الرئيسيين (حوالى ٥٠) ، كان النصف اتراكاً ، والبقية عرباً[٢] . ومن بين الـ (١٠٤) موظفين رئيسيين والذين كانوا يشغلون مناصب في الهيئة القضائية العثمانية في العراق، كان ٤٨ تركياً ، و ٤٥ عربياً (من ضمنهم اربعة مسيحيين وستة يهود) و١١ كردياً[٣] . واستناداً الى لورنس ، كان ٧٠ بالمائة من موظفي الجهاز المدني التنفيذي من السكان المحليين (اي العراقيين) ، وبقدر ما يتعلق الامر بالجيش ، كان العرب يمثلون ٦٠ بالمائة من الضباط و٩٥ بالمائة من المراتب الاخرى[٤] . وفي عام ١٩١٤ ، وحده ، كان هناك ١,٣٣٨ طالباً عراقياً (من ضمنهم ١٢٨ كردياً والبقية من العرب) في المدارس العسكرية العثمانية ، تجري تهيئتهم ليكونوا ضباطاً عثمانيين[٥] .

اولاً : تركيب الادارة البريطانية في العراق

وازاء هذه الخلفية ، ينبغي تفحص تركيب الادارة البريطانية في العراق ، ففي ١٩١٧ ،

---

(١) Colonial Office [C.O.], 696/1, «Administration Reports, Baghdad Wilayat, 1917,» p. 3.

(٢) المصدر نفسه . والبيانات هي للسنة ١٩١٣ / ١٩١٤ .

(٣) Foreign Office [F.O.] 371 / 6369 / E. 14013, «Mesopotamia Judicial Department: Report on the Administration of Justice for the Year 1920,» p. 17.

البيانات هي للسنة ١٩١٤ .

(٤) *The Times*, 23/?/1920.

(٥) عبد الرزاق مجيد الهلالي ، تاريخ التعليم العراقي في العهد العثماني (بغداد : ١٩٥١) ، ص ٢٤٨ - ٢٥٢ .

ذكر ان ادارة بغداد كانت تتألف من ٢,٧٨١ شخصاً ، ومن بينهم ١,٨٩٠ عراقياً[٦] ، وفي ايار / مايو ١٩١٨ ، ذكر ان ادارة البصرة تتألف من ٥٤٨ شخصاً ، من بينهم ٢٥١ عراقياً[٧] . وفي آب / اغسطس ١٩٢٠ ، ذكر المندوب المدني البريطاني ان ادارته تضم ١١,٨٢٩ شخصاً ، بنهم ٨,٥٦٦ عراقياً و١,٠٤٧ بريطانياً و٢,١٢٦ هندياً[٨] .

جدول رقم (٨ - ١)

تركيب الادارة البريطانية في العراق ،
حسب الجنسية والدخل الشهري

اسم الدائرة	الدخل الشهري					
	اكثر من ٦٠٠ روبية (٤٥ دولاراً) (مناصب مهمة)			اقل من ٦٠٠ روبية (مناصب غير مهمة)		
	الانكليز	الهنود	العرب	الانكليز	الهنود	العرب
الادارة المركزية	٥	—	—	٥٥	٦٢	١٢٣
الواردات	٨	—	—	٢	١٣	٧
المالية	١٨	—	—	٢	١٣	٢٢
القضاء	١٤	—	١٠	١	٧	٢٣٨
الجمارك	١٢	—	—	٩	٢٣	٧٥
الجهاز التنفيذي (التقسيمات)	١٩٦	—	٤	٢٨	٣١٦	٨٦٢
الزراعة	١١	—	—	٤	٢٢	٧
التعليم	١١	—	—	١	٤	٤٧٩
الشرطة	٢٢	—	—	٥٦	١٧	٢٣٩٧
الميناء	٢٨	—	—	٨	٣٨٠	٣٩
الليفي	٣٧	—	—	٣٣	١٧٨	٢٩٨٧
الري	٤٢	٤	٣	١	—	١٧٨
الدوائر الاخرى(أ)	٢٠٣	٣	٣	٣١٥	١,١٠٩	١١١٢
المجموع	٥٠٧	٧	٢٠	٥١٥	٢٢٠٩	٨٥٤٦
المجموع الكلي	١١٨٠٤					

(أ) الدوائر الاخرى هي : السجون ، الصحة ، الهندسة ، اعادة المغتربين ، البريد والبرق ، الطباعة والنشر ، المخازن ، النقل ، الشيفرة ، المساحة والبيطرة . وكانت السكك الحديد مستثناة من هذه الدوائر .

المصدر : احتسبت من : Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers- Cmd. 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: His Majesty's Stationary Office, 1920), p. 122.

(٦) C.O. 696 / 1. «Administration Reports, 1917,» p.2.

(٧) F.O. 371 / 3397 / 21421. «Fortnightly Report no. 13 Ending 5 May 1918,».

(٨) F.O. 371 / 50781. «Baghdad Memorandum 23891, from Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 14 / 8 / 1920,».

الا ان الارقام الواردة اعلاه لا تميز بين المناصب السياسية والتنفيذية والمناصب التافهة . وفضلاً عن ذلك ، فإنها لا تبين الميادين التنفيذية التي كانت تشغلها اعلى نسبة من العراقيين . وفي هذا الصدد ، قد يكون الجدول رقم (٨ - ١) اكثر فائدة :

آن الجدول رقم (٨ - ١) يكشف عما يلي :

١ - ان العراقيين (على اختلاف طوائفهم وفئاتهم شغلوا نسبة مئوية واطئة (٣,٥ بالمائة فقط) من المناصب المهمة ، وكانوا غائبين كلياً عن عدة دوائر مهمة . وكانت جميع الدوائر تحت رئاسة موظفين بريطانيين . ما عدا ذلك ، كان العراق مقسماً الى وحدات ادارية تتألف من ١٤ منطقة ، كل واحدة منها تحت امرة ضابط سياسي ، ولم يكن بين هؤلاء اي عربي ، وكانت هذه المناطق بدورها مقسمة الى وحدات ادارية اصغر يديرها معاونو ضباط سياسيين . ومن مجموع (٩٠) معاون ضابط سياسي تقريباً ، كان هناك اربعة فقط من اصل محلي ، وكان البقية بريطانيين . ان هذا لا يترك اي شك في : (أ) ان عراقيين قلائل جداً فقط كانوا يشغلون مناصب مهمة في الادارة ؛ (ب) ان العراقيين كانوا محرومين من اية مساهمة فعلية في اتخاذ القرارات المتعلقة بالمسائل الادارية العامة .

٢ - في المناصب غير المهمة في الادارة ، والتي لم يكن لها اي تأثير ولا تتضمن اتخاذ اية قرارات ، وكانت رواتبها منخفضة ، نجد ان العراقيين كانوا يمثلون حوالى ٧٥ بالمائة . الا انه من الواضح ان اكثر من نصف هذه النسبة من العراقيين كانوا إما في سلك الشرطة (٢,٣٩٧) او في الليفي (٢,٩٨٧) . وكان السلك الاخير يضم عراقيين من غير العرب او المسلمين وفضلاً عن ذلك ، من الواضح ان جميع العراقيين تقريباً ، العاملين في دوائر الشرطة والليفي كانوا يشغلون رتباً غير ادارية . وهذا الاستنتاج يجد تبريره في برقية ولسن ، التي يذكر فيها ان الاداريين الهنود والبريطانيين كانوا لا يؤلفون سوى (٥٠,٥) بالمائة من مجموع الجهاز الاداري[٩] . ونجد مزيداً من الشواهد في تقرير السير برسي كوكس ، الذي يذكر فيه ان عدد العراقيين في الخدمة المدنية كان لا يتجاوز الـ ٤٠٠٠ (باستثناء السكك الحديدية)[١٠] . ومن المفارقات المهمة انه في الاول من نيسان / ابريل ١٩٢٠ كان ملاك السكك الحديدية في جميع الدرجات يبلغ ٢٤,٩٢٨ . وكان الهنود يؤلفون ٨٠ بالمائة ، والبريطانيون ٣ بالمائة ، والعراقيون (عرباً واكراداً ويهوداً) ما لا يزيد عن ١٧ بالمائة[١١] .

كان عدد الهنود المستخدمين في العراق ، في كانون الاول / ديسمبر ١٩٢٠ ، يبلغ

---

(٩) Sir Arnold Talbot Wilson, «Miscellaneous Papers,» British Museum, Department of Manuscripts, no. 52459, vol. 5, «Sir Percy Cox' Report, Dated July 1920,».

(١٠) Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers-Cmd. 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: His Majesty's Stationary Office [H.M.S.O.], 1920), p. 118.

(١١) Great Britain, House of Commons, *Parliamentary Debates-Fifth Series, vols. 138-148* (London: H.M.S.O., 1921), vol. 139, «22/3/1920,».

٥٣,٠٠٠ . وكان ٢٤,٠٠٠ منهم يعمل في دائرة العمل ، و١٠,٠٠٠ في النقليات النهرية ، وحوالى ١٩,٠٠٠ في السكك الحديدية[١٢]. وغني عن البيان ان جيش الاحتلال كان يتألف برمته من البريطانيين والهنود ولم يكن ضم في صفوفه اي عربي ، سواء أكانوا ضباطاً ام غير ذلك .

ثانياً : المضامين السياسية لتركيب الادارة البريطانية في العراق

١ ـ استبعاد المثقفين العراقيين

لا تتوفر لدينا لسوء الحظ ارقام تبين العدد الدقيق للخريجين العراقيين ، المتعلمين او المهيئين للمناصب الادارية . ومع ذلك ، فإذا صح انه في عام ١٩١٤ وحده كان ثمة حوالى ١,٣٣٨ عراقياً في المدارس العسكرية ، وحوالى ١٥,٣٩٨ طالباً (باستثناء البعثات) في المدارس المدنية ، وانه « في ايام الاتراك كان ٧٠ بالمائة في السلك المدني التنفيذي من السكان المحليين » ، فيكون من الواضح ان البريطانيين قد خلقوا مشكلة حادة لأنفسهم . فقد زودت طبقة متعلمة بالدوافع ، وكانت لديها الامكانية ، لإثارة حملة فعّالة من الدعاية المناهضة لبريطانيا . والواقع ان البريطانيين قدموا خدمة لا تقدر بثمن للوطنيين العراقيين بتجهيزهم بفئة من الناس سهلة التعبئة وعظيمة النفوذ .

ان افضل تبرير للسياسة البريطانية هو الذي اعطاه السير برسي كوكس . فقد اشار الى انه « بعد اختفاء ملاك الادارة التركية . . . مع القوات المنسحبة . . . لم يكن لدينا بديل . . . سوى خلق ادارة مؤقتة . . . من الملاكات البريطانية والبريطانية الهندية » . واشار كوكس الى ان (اوساطاً معينة) اقترحت بعد الهدنة اجراء « تعريق سريع في الادارة » . الا ان « جهود السلام كان يسير ببطء شديد . . . وفي اثناء ذلك كانت روح (تقرير المصير) تسود الشرق تدريجياً . . . وفي الوقت نفسه كان وضعنا العسكري . . . يضعف بسرعة » وتوصل كوكس الى الاستنتاج بأنه « كان من الخطورة ، الى جانب مجرد النقص في الكفاءة ، الشروع في اي تغيير حاسم في تركيب تلك الادارة »[١٣] .

ويبدو ان كوكس قد خلط بين موضوع استراتيجي مثل تشكيل حكومة عربية في العراق ومسألة تعيين العراقيين في بعض المناصب المهمة في الادارة البريطانية في العراق ، ومن الصعب الموافقة على القول بأن هذه الخطوة كان يجب ان تتم بعد عقد معاهدة الصلح ، والواقع ان الادارة كان يمكن ان تكون اكثر كفاءة واستقراراً لو انها فتحت صفوفها للعراقيين . ان هذا (الحرمان المرير) للمتعلمين العراقيين من المناصب الادارية في بلادهم كان العامل الاساسي في اثارة روح الوطنية و(تقرير المصير) فيما بينهم .

---

(١٢) الهلالي ، تاريخ التعليم العراقي في العهد العثماني ، ص ٢٥٢ .

(١٣) Sir Percy Cox, «Historical Summary,» in: Gertrude Lowthian Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, edited by Lady F. Bell, 2 vols. (New York: Boni and Liveright, 1927), vol. 2, pp. 521-523.

وقد كان هذا اشد ما يكون وضوحاً في بغداد ، حيث كان الناس، على خلاف الامر في البصرة ، اقل انغماساً في التجارة . وفضلاً عن ذلك ، فخلال العهد العثماني ، « كانت طبقة الموظفين تتألف بالدرجة الرئيسية من سكان بغداد والمدن الواقعة الى شمالها »(١٤) . والواقع ان ادارة ولسن لم تبذل اي جهد يذكر لاستخدام الخبرة والرغبة الكبيرتين للعراقيين المتوفرين في مناصب مهمة او حتى غير مهمة(١٥) . وبين ١٩١٦ و ١٩١٨ ، عينت الادارة ٢٨٢ مستخدماً في بغداد ، وكان ١٧ منهم فقط مسلمين(١٦) . ومما زاد الوضع سوءاً ، عودة اعداد كبيرة من الاداريين العراقيين من تركيا بعد عام ١٩١٨ .

وكان من الحتمي ان تؤدي ظروف البطالة وخيبة الامل في دفع معظمهم الى الحركة المناوئة لبريطانيا . وقد كونوا في الواقع نواة هذه الحركة في بغداد . وفي ١٩٢٠ ، ذكر كوكس انه ، بين سكان بغداد والموصل ، « ثمة رغبة عامة ومتلهفة جداً في الاسهام بقسط اعظم في الادارة وتشكيل حكومة وطنية في وقت مبكر . وان معظم المثقفين هم بلا شك قوميون متحمسون . . . »(١٧) .

وذكرت غروترود بيل، في تقريرها الرسمي ، الحقائق التالية : « الا انه في الوقت الحاضر (اوائل ١٩٢٠) ، انتقل مركز الدعاية (المناهضة لبريطانيا) من سوريا والفرات الى العراق . ان العنصر الساخط من المستخدمين الاتراك السابقين قد تعزز كثيراً خلال الـ (١٨) شهراً التي مرت منذ الهدنة . . . وسواء أكانوا موالين للعرب او للاتراك ، فإنهم عادة مناوئون للسيطرة الاجنبية . . . وقد خدم (هذا الوضع) شكاوى المتذمرين وساقهم الى عدم الايمان بصدق التصريحات الرسمية . فهم يجادلون بأن خلق الدولة السورية تم بفضل انتصار السلاح العربي ، وانه لا يمكن اكتساب حريات مماثلة في ما بين النهرين الا باستخدام السلاح بشكل ناجح »(١٨) .

ان هذا الوضع المتسم بالبطالة او الرواتب المنخفضة كان مصحوباً بزيادة عالية جداً في تكاليف المعيشة . فقد ذكر في اوائل ١٩١٧ ، ان الاسعار « ارتفعت بمقدار ثماني الى عشر مرات عنها فيما قبل الحرب »(١٩) . وقد شكت غروترود بيل لأبيها من (جسامة) تكاليف المعيشة في بغداد . وبالرغم من انها كانت تحصل على حصة ارزاق ثابتة ، فقد اشارت الى ان « ضروريات الحياة مثل الصابون ، والرز والبيض والسكر كانت تباع جميعاً بـ (اسعار فادحة) »(٢٠) .

---

(١٤) Bertram Thomas, *Alarms and Excursions in Arabia* (New York; Indianapolis, Bobbs-Merrill, 1931), p. 82.

(١٥) Sthephen Hemsley Longrigg, *Iraq, 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History* (London; New York: Oxford University Press, 1953), pp. 113-114.

(١٦) F.O. 371/3387, «The Future of Mesopotamia, Note by Sir Percy Cox, 22/4/1918,».

(١٧) F.O. 371/5231/E. 13471, «26/10/1920,».

(١٨) Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers-Cmd.1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia*, pp. 139-140.

(١٩) F.O. 371/3397/21421, «Fortnightly Report Ending 5/11/1917,» p. 3.

(٢٠) Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, vol. 2, «31/1/1918,» pp. 441-442.

/ كانت الكفاءة هي شعار كوكس وحجته الاخرى لتبرير عدم استخدام العراقيين في الادارة . وقد ذكر ولسن انه « كان من المستحيل استخدام الكتبة العرب في اغراض الادارة المدنية . . . ولم يكن لدينا اي خيار سوى استخدام نسبة عالية من الكتبة الهنود حتى في المقاطعات »(٢١) . وقد برر المندوب المدني سياسته على اساس ان الهنود في زمن الحرب ، كانوا اقل كلفة من العرب(٢٢) . وفي برقية الى وزارة الهند ، ادعى ولسن « ان الادارة الحالية قد واجهت اعظم الصعوبات في ايجاد محمديين صالحين لاشغال حتى اقل الوظائف شأناً »(٢٣) .

وجاء في تقرير اداري بريطاني : « . . . ان الذين بقوا (من الاداريين العراقيين) قد تبين انهم ، باستثناءات قليلة ، ليسوا ذوي فائدة كبيرة لنا نظراً :

- لميولهم الموالية للاتراك في حالات قليلة .
- لأنهم يواصلون التقاليد السيئة للحكومة السابقة ، والتي لا تنسجم مع اساليبنا .
- لانهم غير محبوبين لدى طبقات الملاكين والزعماء العشائريين »(٢٤) .

ان جميع هذه الحجج كانت ذات منحى اداري . الا ان المهم في الامر كان العواقب السياسية لهذه السياسة . وكان من الصعب جداً اقناع الاداريين العراقيين بأن مصلحة بلادهم تتطلب اخراجهم من ادارتها .

وفضلاً عن ذلك ، فثمة دلائل تشير الى ان الكفاءة الادارية العراقية لم تكن بهذا المستوى المتدني . ففي سوريا (١٩١٨- ١٩٢٠) ، كان الضباط العراقيون يديرون في الواقع الخدمة المدنية السورية بكاملها . كما ان التطورات اللاحقة في العراق اثبتت ان عدم الثقة في القابليات العراقية كان مبالغاً به بعض الشيء . وقد اعترف ولسن نفسه في ١٩٣١ بأن « المحصلة النهائية في العراق كانت اقل سوءاً مما كان يخشاه »(٢٥) .

وفي الواقع ، نجد ان بعض كبار الموظفين البريطانيين في الادارة العراقية في تلك الفترة لم يتفقوا مع آراء ولسن . ففي ١٩١٨ ، اثنى السيد بونام - كارتر ثناءً عالياً على الموظفين العرب في (دائرة العدل) التي كان يرأسها وعلى خدماتهم القيمة ، والتي لولاها « لكان من

---

(٢١) Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), pp. 88-89.

(٢٢) المصدر فسه ، ص ٨٨ . لذا نجد من الصعب فهم تصريح ولسن التالي : « لقد بذلت كل جهدي منذ البداية لحمل حكومة صاحب الجلالة على السماح لي بادخال عدد كبير جداً من العرب في الادارة المدنية . . . » (المصدر نفسه، ص ٣١٣) .

(٢٣) F.O. 371/5226/4811, «From Civil Commissioner, Baghdad, to Secretary of State of India, London, 25/4/1920,».

(٢٤) C.O. 696/1, «Administration Reports, Baghdad Wilayat, 1917,» p.3.

(٢٥) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 316.

الصعب جداً تنفيذ سياسة تطبيق القانون والاجراءات التركية »[٢٦] . وبـالنظر لهـذه الآراء ، لم يكن من الغريب ان نجد دائرة العدل تمثـل حالـة استثنائيـة من حيث النسبة العـالية نسبيـاً للموظفـين العرب[٢٧] .

والواقع ، انه بعد الهدنة بفتـرة قصيرة ، طـرح السيد بـونام ـ كـارتر مقتـرحات لـزيادة ارتباط العراقيين بالادارة ، واقترح ، من جملة ما اقترحه ، تعيـين عراقي كـوزير للعـدل ، او كبديل عن ذلك ، مستشاراً للوزارة[٢٨] ، الا ان اياً من هذين الاقتراحين لم يقبل .

٢ ـ تغرب الادارة

من جهة اخرى ، لم تكن كفاءة الادارة البريطانية في العراق فوق مستـوى النقد . ففي عدة مناسبات وجه المندوب المدني انتباه وزارة الهند الى النقص الكبير ، بل الخطير ، في مـلاكه الاداري وبالتالي الى « الصعوبات الجمة التي تواجه الاعضاء القلائل في الجهاز »[٢٩] . كان هذا النقص « يخلق وضعاً خطراً في مـا بين النهـرين ، ويدمـر الثقة العـامة » ، ويلقي عبئـاً على الضبـاط البـاقـين هو « اثقل مما يستطيعون تحمله »[٣٠] . وفي اواخر ١٩١٩ شكا ولسن قائلاً : « ان صعوبتي الكبرى لا تزال هي النقص في الملاك »[٣١] .

وفضـلاً عن ذلك ، كـان هؤلاء الموظفـون البريـطانيون (القـلائل والمثقلون بـالاعباء) يواجهون صعوبة اخرى ، هي قلة معرفتهم بـالبلاد وتقـاليدهـا . « لدى تعيينهم لاول مـرة ، كان قليلون نسبياً هم الذين يعرفون اي شيء حول العرب ، عـاداتهم او لغتهم »[٣٢] هكذا كتب السـير برسي كوكس . اما السير ايلمر هالدين ، فقد قسم الموظفين البريطانيين في الادارة العراقية الى اربع فئات ؛ طبقاً للمصادر التي كانت تجرى تعبئتهم منها . وكـانت الفئة الاولى تتـألف من الذين استخدموا الجيش بعد الهدنة ، واضيفوا الى الادارة المدنية « ووضعوا في مناطق بعيدة مثل الشـطرة ، وقلعة سكر ، والديوانية ، وعفك »[٣٣] . واستناداً الى هالدين ، « كان هؤلاء الضباط . . . بدون استثناء

(٢٦) C.O. 692/2AR, «Mesopotamia Judicial Department: Report on the Administration of Justice for the Year 1912,» pp. 2-6.

(٢٧) F.O. 371/6369/E. 14013, «Mesopotamia Judicial Department: Report on the Administration of Justice for the Year 1920,» p. 17.

وقد ورد في التقرير ان الدائرة استخدمت ١٠٤ اشخاص (مباشرة قبل الحرب) ، من بينهم ٤٥ عراقياً وفي عام ١٩٢٠ بلغ عدد المستخدمين ٢٨٩ بينهم ٢٧١ عراقياً .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٣ ، و

Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record,* «Tel. 22/12/1918,» p. 158.

(٢٩) F.O. 371/882/23 MES/20/1, «10/3/1920,».

(٣٠) Sir Arnold Talbot Wilson, «Private Letters, 1903-1921,» The London Library, vol. 2, «9/12/1919,».

(٣١) Sir Percy Cox' Report, July 1920 in: Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52459, vol. 5.

(٣٢) Sir James Aylmer L. Haldane, *The Insurrection in Mesopotamia, 1920* (London: Blackwood, 1922), p. 20.

(٣٣) المصدر نفسه .

تقريباً ، لا يملكون اية خبرة في العمل المطلوب منهم . . . »(٣٤) .

ومن الجدير بالذكر ان جميع هذه المناطق المذكورة اعلاه اصبحت مراكز لثورة العشرين . ان الكتب العراقية التي تبحث في هذه الفترة ملأى بالروايات الانتقادية عن السلوك (الفظ) للضباط البريطانيين في هذه المناطق، ولاسيما الميجر دالي ، الضابط السياسي للمنطقة العشائرية في الديوانية(٣٥) . وفي الواقع ، كان الضابط السياسي في البصرة قد كتب الى ولسن ، منذ نيسان / ابريل ١٩١٧ ، مشيراً الى اسلوب التشدد غير الضروري الذي كان يتبعه الميجر دالي(٣٦) . وبعد ذلك بثلاثة اعوام ، اصيب المندوب المدني بالذعر ازاء الوضع في الديوانية ، والفظاظة التي كان الميجر دالي يعامل بها العشائر العربية التي « كانت تود ان تعامل بعدالة اقل وعطف اكثر »(٣٧) . وفي تموز / يوليو ١٩٢٠ اضطر ولسن الى الكتابة الى دالي موجهاً انتباهه الى (الفظاظة) المتفاقمة التي كان يعامل بها العرب(٣٨) . وقد اعترف الميجر دالي ، في جوابه بهذه الحقيقة(٣٩) .

اما الفئة الثانية من الاداريين البريطانيين في العراق فكانت تتألف من بعض افراد الخدمة المدنية الهندية ، الذين كانوا يسيطرون بالدرجة الرئيسية على المقر العام للعمل الاداري . وكانت لديهم فترات مختلفة من الخبرة في الاساليب الهندية ، كما كان بعضهم ذوي قابليات متميزة . ومع ذلك ، واستناداً الى هالدين ، فإنهم « كانوا معتادين على نمط مستقر ومركز جداً في الادارة ، نمط يتميز بالتعلق بالانظمة والاجراءات الروتينية »(٤٠) . وكانت الخدمة المدنية البريطانية في السودان اكثر صلاحاً لتزويد العراق ببعض الاداريين البريطانيين . فقد كانت اساليبها اكثر مرونة ، وكان ضباطها يتمتعون بتجربة اكثر ، ومعظمهم يتمتع بمزية معرفة العربية . الا ان اربعة موظفين بريطانيين فقط قدموا الى العراق من هذا المصدر(٤١) .

اما بقية ضباط الادارة في العراق فقد اختيروا بالدرجة الرئيسية من بين ضباط (القوة الاقليمية) . في رأي هالدين « ان هؤلاء الضباط كانوا يعانون من عدم معرفتهم سابقاً بالبلاد وشعبها ،

---

(٣٤) عبد الرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ط ٢ منقحة (صيدا : مطبعة العرفان ، ١٩٦٥) ، ص ١٣٥ ، وعبد الشهيد الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ، ١٩٢٠ (النجف : ١٩٦٧) ، ص ١٧٢ .

(٣٥) Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52458, vol. 4, «Tel. from P.O., Basrah, to Civil Commissioner, Baghdad, 28/4/1917,».

(٣٦) Ibid., no. 52456, vol. 2, «Letter 24/4/1920,».

(٣٧) Ibid., no. 52456, vol. 4, «Letter to Major Daly, 14/7/1920,».

(٣٨) Ibid., no. 5248, vol. 4, «Letter, 20/7/1920,».

(٣٩) Haldane, *The Insurrection in Mesopotamia, 1920*, pp. 20-21.

(٤٠) Ibid., p. 21.

(٤١) Ibid.

وعدم خبرتهم في العمل الاداري »[٤٢] . وقد استنتج هالدين بأن نظام الادارة كان « يقوم بالاساس على الخبرة الهندية السابقة ، وكانت نتيجة ذلك ظهور نظام يتسم بالصرامة الشديدة ، نظام لم يكن الناس غير معتادين عليه فقط ، بل كانوا غير متهيئين له على الاطلاق »[٤٣] .

وفي كانون الاول / ديسمبر ١٩١٨ ، قدم الى العراق السير جون هيويت مع لجنة من كبار الموظفين البريطانيين في الهند ومصر ، في مهمة كلفوا بها من قبل (مجلس الجيش) للتحقيق في بعض الامور . وقد غادر العراق في آذار / مارس ١٩١٩ ونشر فيما بعد تقريرين ، لم يحرز اي منهما رضاء ولسن . وقد اكد هيويت ، بلهجة دبلوماسية ، ان الادارة البريطانية لم تكن ملائمة لظروف ما بعد الحرب في العراق، ولا مزودة بمعرفة كافية بشؤون البلاد[٤٤] . الا ان تقرير هيويت كان اكثر استفزازاً بالنسبة لخطط ولسن . فبعد تقدير المبلغ المطلوب لميزانية الجيش من الواردات المدنية ، بحوالى مليون باوند ذكر تقرير هيويت ان صافي المبالغ المحصلة فعلاً خلال السنوات الثلاث الاخيرة لم يزد عن ٥٠٠,٠٠٠ باوند[٤٥] واشار التقرير الى « ان من الواضح من هذه الارقام ان الادارة المدنية لن تكون قادرة على سداد الديون المشار اليها آنفاً في وقت قريب »[٤٦] .

ان مثل هذه العبارة ذات دلالة بليغة . ان ما كان هيويت يعنيه فعلاً هو ان العراق تحت الحكم البريطاني المباشر لم يكن ، في نهاية المطاف ، استثماراً اقتصادياً مغرياً بقدر ما يتعلق بالامبراطورية البريطانية[٤٧] . وقد اشار تقرير هيويت الى ان العراق كان في الواقع عبئاً مالياً على الامبراطورية . وان النشر العلني لهذا الرأي المسؤول في وسط الظروف والافكار التي سادت بريطانيا في فترة ما بعد الحرب ، لم يكن ينطوي على تشجيع لاستمرار الاحتلال[٤٨] .

---

(٤٢) Ibid.

(٤٣) Sir John P. Hewett, *Some Impressions of Mesopotamia in 1919* (London: Harrison and Sons for H.M.S.O., 1920), p. 13.

(٤٤) كان المبلغ الكلي موزعاً كما يلي ٣٠٠٠٠٠ باوند لعام ١٩١٥- ١٩١٦ ، ١٧٠٠٠٠٠ باوند لعام ١٩١٦ - ١٩١٧ و ١٠٠٠٠٠ باوند لعام ١٩١٧ - ١٩١٨ .

(٤٥) Sir John P. Hewett, *Report for the Army Council on Mesopotamia* (London: Harrison and Sons for H.M.S.O., 1919), p. 40.

(٤٦) لا نرغب في الدخول في مناقشة نظرية حول طبيعة « الامبريالية » او الدوافع التي تحدو امة ما الى اكتساب ، او في الواقع احتلال ، ارض بلد آخر ، اهو « الاستثمار » الاقتصادي البحت كما جادل هوبسن وبعده لينين :

John A. Hobson, *Imperialism: A Study* (London: 1947), and Vladimir Illich Lenin, *Imperialism, The Highest Stage of Capitalism: A Popular Outline* (Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1959).

ام هو السياسات الامبراطورية ، او المصالح الاستراتيجية ، او خليط من عدة عناصر ؟

(٤٧) سنبحث هذه المسألة فيما بعد بتفصيل اكثر .

(٤٨) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 167.

٣ ـ نمو مصالح ونظرة (مستقلة) في داخل الادارة البريطانية

الا ان ذلك لم يكن نهاية تأثير هيويت في شؤون العراق . ففي كانون الثاني / يناير ١٩١٩ ، اثناء وجوده في بغداد ، القى هيويت محاضرة دعي لحضورها الضباط ونواب الضباط البريطانيين كافة . وقد اعلن في هذه المحاضرة بصراحة عن رأيه في ان الادارة البريطانية في الهند مصيرها الزوال القريب(٤٩) . وبعد ذلك بشهور ، ازداد ولسن تعرفاً بوجهة النظر هذه عندما تلقى رسالة خاصة من هيرتزل يؤكد فيها على فكرة ان التبعية الادارية لبريطانيا كانت تضمحل في الهند وتضعف في مصر(٥٠) .

واذا اخذنا بنظر الاعتبار ان معظم الموظفين البريطانيين في العراق كانوا معارين ادارياً من الخدمة المدنية البريطانية في الهند ، او ما هو ادهى من ذلك ، مسرحين من القوات المسلحة ، وان هذا الرأي (المتشائم) كان صادراً عن جهة مسؤولة بارزة ، فسيكون لدينا المبرر للافتراض بأن المضامين المباشرة والمنطقية كانت تقود الجمهور الى الاستنتاج بأن العمل في العراق هو الملاذ الاخير. وبعبارة اخرى ، اذا لم يكن العراق استثماراً مربحاً للامبراطورية البريطانية ، فلعله كان اقتناء محتمل الفائدة بالنسبة للادارة البريطانية في العراق وملاكاتها . وقد شجع هيويت نفسه هذا الرأي ، اذ كتب : « ان عزم (حكومة صاحب الجلالة) ـ كما اعتقد ـ على استبعاد مشاركة الاشخاص من بريطانيا العظمى والدومنيونات في تطوير البلاد يبدو لي امراً مؤسفاً جداً . . . فإذا كان يراد لما بين النهرين ان يشغل الموقع الذي يستحقه في مشاريع مثل زراعة القطن ، وصناعة سكر البنجر ، وتربية الاغنام ، فإن الحافز لذلك ، في رأيي ، يجب ان يأتي من الرجل الابيض »(٥١) .

ان تأثير خطاب السير جون هيويت على مستمعيه من الموظفين البريطانيين ، كما اشرنا سابقاً ، قد اكده ولسن ، عندما كتب ان الخطاب « عزز عزم المتذبذبين على البقاء في العراق طالما كان ذلك ممكناً »(٥٢) . وكذلك : « ان السير جون هيويت ، في معالجته للاصلاحات الهندية ، قد استخدم مطرقة بلاغية ذات تأثير مدمر بالنسبة لمستمعيه ، وكانت آراؤه تنطبق بشكل واضح على الخطة المتعلقة بالحكومة المستقبلية في العراق . . . »(٥٣) .

ولم يذكر ولسن بوضوح او تحديد كيفية (انطباق) آراء هيويت . الا انه لا يترك مجالاً كبيراً للشك . بل انه ، في اوراقه الخاصة ، يبدد اية شكوك في هذا المجال . ففي اوائل

---

(٤٩) John Marlowe, *Late Victorian: The Life of Sir Arnold Talbot Wilson* (London: Cresset, 1967), p. 165.

(٥٠) Howett, *Some Impressions of Mesopotamia in 1919*, p. 19.

(٥١) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 167.

(٥٢) Ibid.

(٥٣) Wislon, «Miscellaneous Papers,» no. 52455, vol. 1 «Private, from Hirtzel to Wilson, 7/4/1920,».

نيسان / ابريل ١٩٢٠ ، عندما كتب هيرتزل الى ولسن ان الحكومة البريطانية « ملزمة بشكل لا يقبل النقض بتكوين حكومة عربية »(٥٤) ، اجاب ولسن بالعبارات التالية الكاشفة : « . . . عندما تصبح آراء حكومة صاحب الجلالة ، كما اوضحتها لي ، معروفة لضباطها ، فإنهم لن يلاموا اذا ما تركوا خدمة لا تحمل لأصحابها آفاقاً ببلوغ منزلة مشرفة ، ولا آمالاً دائمية في انجازات ناجحة . . . ذلك ان وزارة الحربية قد سرحت معظمهم ، كما ان وزارة المالية لا تقر بأية مسؤ ولية عنهم »(٥٥) .

ان المندوب المدني لم يكن يختلق هذا الخوف بين ضباطه ، او يبالغ فيه . فقد كان هذا التوجس سائداً وحقيقياً . وقد تجلى بوضوح في رسالة لجمن الى ولسن : « اني اتشرف باستلام عدد كبير من الرسائل من الضباط السياسيين ، الذين يقولون لي اموراً اشك فيها اذا كانوا يقولونها لك . ان الاغلبية . . . تسألني ما اذا كنت ارى من المحتمل انه سيتم التخلي عنهم . وبعضهم يرى ان ذلك قد جرى فعلاً بالنسبة لهم . . . »(٥٦) .

وقد اجاب ولسن : « يكاد يكون هدفي الوحيد في التمسك بوظيفتي هنا هو الحرص على انصاف الضباط الذين جلبتهم الى الخدمة وحفزتهم على البقاء . فلست انا ، بل الحكومة ، هي التي قد تتخلى عنهم ، واني اعتبر نفسي في الوقت الحاضر وسيطاً بينهم وبين الحكومة »(٥٧) .

وقد تجلت هذه البلبلة والقلق بشكل واضح في رسائل متبادلة بين الليفتانت ـ كولونيل هاول (نائب المندوب المدني) والميجر دكسن (الضابط السياسي في الناصرية) . فقد كتب الاول : « لا اعرف اكثر مما تعرفه انت عما سيجري في هذه البلاد » . وشكا الاخير من ان الموظفين البريطانيين كانوا « يجهلون بشكل محزن » حقيقة النوايا السياسية للحكومة(٥٨) . وخلال زيارته لبغداد ، شعر كوكس « شعوراً قوياً بضرورة اصدار بيان محدد . . . لازالة الشك . . . في اذهان ضباط الادارة المدنية فيما يتعلق بمستقبلهم »(٥٩) .

وباعلان الهدنة ، اصبح الشكل المستقبلي للادارة في العراق امراً ذا اهمية ملحة . الا ان بعض الموظفين البريطانيين اعتبروا انه ليس من الضروري صدور قرار مبكر حول هذه المسألة وكانت حجتهم قائمة على الافتراض التالي : « نستطيع ان نبدأ ببيروقراطية بريطانية ثم نخفضها بالتدريج بملاكات عربية حتى تصبح عربية » . وقد اعترض بونام ـ كارتر على هذه الفكرة واشار الى (الصعوبات الكأداء) التي تعترضها . وقد جادل بأنه « تقف في وجه هذا التغيير المصالح

---

(٥٤) Ibid., no. 52456, vol. 2, «Telegram from Civil Commissioner to Hirtzel , 10/4/1920,».

(٥٥) Ibid., no. 52458, vol. 4, «Letter from Lieut. Col. G.E. Leachman, Mosul, to A.T. Wilson, 20/9/1919,».

(٥٦) Ibid., «Letter from A.T. Wilson to G.E. Leachman, 26/9/1919,».

(٥٧) Major H. R.P. Dickson, «Letters and Papers,» Oxford University, Middle Eastern Centre, DS51/B/3, Box 2A, file II, «Letter Dated 28 April 1919,».

(٥٨) F.O. 371/5227/E. 7253, «Summary of Correspondance Regarding Political Situation in Mesopotamia, from Civil Commissioner, Baghdad, 22/6/1920,».

(٥٩) F.O. 882/23/3133, «Note on the Place of the Arabs in the Administration, Written by E. Bonham-Carter (Judicial Secretary), 5/2/1919,».

المتركزة القوية ، ليس فقط للموظفين بل للآخرين الذين ترفهوا في ظل النظام ، وكذلك الفئات المتمركزة الاشد قوة »(٦٠) .

وقد كانت هذه المصلحة (الاقتصادية) في محاولة تأبيد الادارة البريطانية في العراق ، مصحوبة ومعززة بايمان (ايديولوجي) مكشوف بالابوية البريطانية ، وبالاشتراك مع رجال آخرين ذوي تقاليد مماثلة ، كان ولسن يؤمن بأن الامبراطورية البريطانية قد قدر لها ان تؤدي رسالة تمدينية في الاقطار المتخلفة . وكان ولسن يعتبر نفسه رجلاً مكرساً لهذه المهمة ، مهمة حمل (عبء الرجل الابيض)(٦١) . ففي تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ ، كتب ولسن : « ان العالم باسره يعترف بأن واجبنا وامتيازنا الاسمى هو تأسيس محمية فعالة وادخال طراز من الحكم يجعل من الممكن تطوير هذه البلاد »(٦٢) .

وبعد ذلك بسنوات (في ١٩٣٠)، قدم ولسن شرحاً لمعتقداته ، خلال (تلك الايام العصيبة) التي امضاها في العراق . وقد كتب : « كنا نعتقد ان مساهمة بريطانيا في رفاهية البشرية تكمن في تشرب حكومتها بمبادىء المسيحية . . . وان العراق بحاجة الى ما هو اكثر من فوائد الحضارة المادية . . . كنا نعتقد انه ما لم يتشرب العراق بمبادىء المسيحية فإنه لم يكن صالحاً لممارسة الحرية . . . وكانت هذه الرغبة تلهم الكثيرين وتكمن بصورة لاشعورية في فعاليات جميع (الموظفين البريطانيين) تقريباً »(٦٣) .

ان هذه الوثائق جميعاً تهيء دلائل كافية لتأكيد الاستنتاج بأنه في الوقت الذي كانت الحكومة البريطانية تفتقر الى دافع اقتصادي مباشر في العراق ، كانت الادارة البريطانية تعتبر العراق استثماراً مهماً بالنسبة للوظائف والمنجزات الادارية على السواء . وكان هذا امر ذا اهمية كبرى . فالجانبان ، رغم انهما كانا ينتميان الى المؤسسات البريطانية ، كانا ينظران الى مسألة المستقبل السياسي للعراق من زاويتين مختلفتين تماماً . ففي الوقت الذي كانت الحكومة البريطانية تستجيب ، بدرجات متفاوتة من الحماس او الفتور ، لفكرة استقلال العراق وتأسيس ادارة عربية ، كانت الادارة البريطانية في العراق ذات مصلحة متركزة في معارضة هذا الهدف النهائي واحباط اية خطوات سياسية او ادارية قد تساعد على تحقيقه . ان ولسن بمجازفته بمستقبله السياسي وبالادارة، عن طريق معارضته رغبات حكومته واحياناً حتى تعليماتها ، لم يكن مدفوعاً فقط بمعتقداته الايديولوجية التي جعلته يوصف بـ (الفكتوري المتأخر) و(الامبراطوري المؤمن) ، بل كان في الواقع يعمل وبالذات وفق مصالح الهيكل الاداري الذي بناه والذي كان يترأسه ، ان وجود هذا الهيكل في حد ذاته ، ناهيك عن سيادة مصالحه ، كان معرضاً للخطر بتحقيق فكرة قيام ادارة عربية في العراق .

---

(٦٠) Marlowe, *Late Victorian: The Life of Sir Arnold Talbot Wilson*, p. 21.

(٦١) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, pp. 104-105.

(٦٢) Ibid., p. 114.

(٦٣) *Sunday Times*, (20 September 1920).

وفضلاً عن ذلك ، فإن هذا يفسر القدرة الاستثنائية للحكومة البريطانية على اتخاذ موقف المصالحة تجاه القوميين العراقيين بعد قيام الثورة . فقد وضع مؤتمر القاهرة صيغة سياسية جديدة ضمنت المصالح البريطانية في العراق ، وفي الوقت نفسه لبت بعض مطالب الوطنيين . ولو كانت الحكومة البريطانية جزءاً مباشراً من الصراع السياسي في العراق ، لكانت الحركة الوطنية العراقية قد اكتسبت شكلاً اكثر (راديكالية) في العداء للغرب ، ربما وفق الاسس التي دعا اليها الافغاني اولاً وتبناها عزيز علي المصري ، ثانياً . ولم يكن هذا الخط يفتقر الى انصار له في العراق : ياسين الهاشمي ، والشيرازي ، وابو التمن ، والسويدي ، والغلامي ، وغيرهم ، ممن كانوا دعاة متحمسين لوضع حد نهائي لأي شكل من الوجود البريطاني في العراق . الا ان ثمة عاملين اديا الى فشل هذا الخطر الجذري (الراديكالي) : الاندحار العسكري لقوة الثورة ، والتدخل السريع والحياد النسبي للحكومة البريطانية . فما ان بدأ تكوين الادارة العربية ، بما تحمله من آفاق وآمال، حتى اضمحلت (الراديكالية) وانتصر (الاعتدال) ولو مؤقتاً .

وفضلاً عن ذلك ، فقد قام اللورد كرزن بعمل ينطوي على دلالة مقصودة ، عندما سمح لـ (السنداي تايمز) بنشر بعض المراسلات بينه وبين السيد اورسبي ـ كور (الذي كان آنذاك عضواً في البرلمان واصبح فيما بعد وكيلاً برلمانياً لوزارة الدولة للمستعمرات) . وقد صرح اللورد كرزن في هذه المراسلات ان كافة تصرفاته وآرائه كانت تهدف الى تأسيس حكومة عربية في العراق في وقت مبكر . « ففي الوقت الذي دافع فيه باقصى جهده عن مجموعة الموظفين الانكلو ـ هنود في ما بين النهرين ، كان يرغب في ان يوضح بجلاء انه لا (حكومة صاحب الجلالة) ولا هو شخصياً يميل الى (تهنيد) او (انكلزة) بلاد ما بين النهرين ، او ادخال ادارة بيروقراطية فيها » .

وكان ولسن مدركاً تماماً لهذه الاتجاهات البريطانية ، الا انه كتب الى صديق له في ايلول / سبتمبر ١٩١٩ ، بروح فارس صليبي : « اني لست محبوباً في وزارة الهند ، كما اعتقد الآن ، سيتناقص الحب لي قبل مرور زمن طويل ، ويبدو انهم عازمون على التخلي عن هذه البلاد ، اذا وسعهم ذلك ، باجراء تدابير سياسية ملائمة ، اما انا فليست لديّ النية للسماح لهم بعمل ذلك ، وسوف احاول منعهم بكل ما في وسعي من كلام وعمل . . . »(٦٤) .

ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن تركيب الادارة في العراق بحد ذاته ، والذي كان يتألف من الملاكات البريطانية بصورة طاغية (١٩١٤ ـ ١٩٢٠) ، قد تسبب في ثلاث نتائج سلبية :

ـ انه استثار السخط في مشاعر وافكار ومصالح السكان المحليين المتعلمين ، وبذلك خلق جوا ملائما للنشاط التحريضي الوطني . ففي ايلول / سبتمبر ١٩٢٠ ، كتبت غروترود

---

(٦٤) Wilson. «Miscellaneous Papers,» no. 52456, vol. 2, «Dated 15 September 1919,».

بيل : « ان الحقيقة الكامنة وراء جميع الانتقادات هي مع ذلك ـ وهذا ما يجعل من الصعب جداً الرد على النقاد ـ اننا قد وعدنا باقامة مؤسسات ، ذات حكم ذاتي ، ولكننا لم نقم بأية خطوة نحوها ، بل لقد انهمكنا في اقامة شيء مختلف تماماً . وقد جاء في احدى الاوراق ، وهو امر صحيح تماماً ، اننا قد وعدنا باقامة حكومة عربية ذات مستشارين بريطانيين، واقمنا حكومة بريطانية ذات مستشارين عرب . وهذه عبارة منصفة تماماً . . . »(٦٥) .

ـ ان هذه الادارة ، بجهلها النسبي للغة البلاد وتقاليدها ، كانت عاجزة عن تقديم حلول سريعة وحاسمة للمشاكل الحادة والرئيسية في العراق .

ـ ان هذه الادارة قد اصبحت لها بمرور الزمن مصالحها شبه المستقلة ، وبالتالي نظراتها السياسية التي لم تكن تعكس دائماً نظرة الحكومة البريطانية . وفي عدة مناسبات ، تعاكست آراء ، بل وتصرفات الادارة مع رغبات الحكومة البريطانية .

---

(٦٥) Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, vol 2, « Letter Dated 27 September, 1920, » p. 502

الفصل التاسع

نظام الضرائب والسياسة المالية للادارة البريطانية في العراق

غني عن البيان ان احد اهم العوامل التي تحدد وضع الادارة ازاء السكان الذين تحكمهم هو السياسة المالية التي تتبعها هذه الادارة . ومهمة هذا الفصل هي البحث في السياسة المالية البريطانية ، اساليبها ودوافعها وعواقبها السياسية . وفضلاً عن ذلك ، سنحاول ان نبين ماهية الفئات الاجتماعية التي كان عبء الضرائب ثقيلاً عليها .

اولاً : منشأ الواردات

فأولاً ، من الواضح ان العراقيين كانوا يدفعون نسبة اعلى من الضرائب خلال العهد البريطاني منها في العهد التركي . ويتضح ذلك بجلاء من الجدول رقم (٩ ـ ١) :

بعبارة اخرى ، ان الواردات تضاعفت ثلاث مرات في الفترة ما بين العهدين . وقد دفعت ولاية بغداد[١] ، في ١٩٠٩ ، واردات عقارية تبلغ ٣٣,١١,٤١٢ روبية . وفي عام ١٩١٩ ، بلغت الواردات نفسها ١١٤,٤٥,٥٠٠ روبية ، اي انها تضاعفت كذلك ثلاث مرات[٢] .

ان هذه الزيادة الكبيرة في الضرائب بين العهدين التركي والبريطاني كانت مصحوبة بزيادة موازية في الضرائب والواردات خلال ذات فترة الحكم البريطاني المباشر في العراق (١٩١٤-١٩٢١) . ونجد اعترافاً مفصلاً بذلك في التقارير الادارية المتعلقة بتلك الفترة .

(١) كانت ولاية بغداد تضم الوحدات الادارية لسامراء وبغداد والكوت والديوانية والشامية والحلة والرمادي وبعقوبة وخانقين .

(٢) Colonial Office [C.O.] 696/3, «Administration Report of the Revenue Department, 1919,» p. 5.

لقد بررت هذه الزيادة في التقرير البريطاني بما يلي : ١ ـ توسيع وتحسين الري . ٢ ـ التوسع الناتج عن ذلك في الزراعة . ٣ ـ زيادة الامن . ٤ ـ الارتفاع في اسعار الحاصلات الزراعية . ٥ ـ جباية الضرائب بشكل اكثر عدلاً .

جدول رقم (٩ ـ ١)

مقارنة بين الواردات المجباة من العراق خلال الاحتلالين التركي والبريطاني،لسنوات مختارة (بالباوندات)

الاحتلال التركي			الاحتلال البريطاني	
السنة	الواردات		السنة	الواردات
١٨٨٩/ ١٨٩٠	٧٥٧١٢٥		١٩١٩/ ١٩٢٠	٣٧٩٥٥٠٠ او ٥٧٢٧١٩٤
١٩١٠/ ١٩١١	١٦٥٣٠٧٥		١٩٢٠/ ١٩٢١	٧١٠٥٢٠

(أ) ان الرقم ورد في الاصل بالروبيات ، التي كانت الاثنتان منها تعادل ما يتراوح بين شلن واحد وستة بنسات قديمة ، وشلنين . اي ان الروبيتين كانتا تعادلان ما بين ٧٥ و ١٠٠ فلس .

المصادر : احتسبت من :ـ بالنسبة للسنة ١٨٨٩/ ١٨٩٠ و ١٩١٠/ ١٩١١ :

S. Haider, «Land Problems of Iraq,» (Ph. D. dissertation, University of London, 1942), appendix x, p. 702.

ـ بالنسبة للسنة ١٩١٩/ ١٩٢٠ :

Colonial Office [C.O] 696/3, «Budget Estimates for the Year 1920-21,» p. vii.

ـ بالنسبة للسنة ١٩٢٠ / ١٩٢١ :

Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920 - a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London, New York Oxford University Press, 1930), p. 224.

فمثلاً ، ان الواردات المجباة من ارض السنية في البصرة في ١٩١٥ كانت تبلغ ١,٢٩,٩٨٤ روبية . وفي عام ١٩١٩ بلغت ٣,٢٧,٢٩٦ روبية[٣] . وتشير ارقام البصرة الى انه في ١٩١٧ ـ ١٩١٨ بلغت وارداتها (باستثناء الرسوم الجمركية) ١٧,٨٩,٢٦٥روبية. وفي ١٩١٨ـ ١٩١٩ ازدادت الى ٢١,٩٩,٣٠١ روبية[٤] ، اي بزيادة سنوية قدرها ٤,١٠,٠٣٦ روبية ، او ما يعادل ٢٢ بالمائة سنويا . وبالمقارنة مع انحاء العراق الاخرى ، كانت الزيادة في واردات البصرة معتدلة : فخلال عام واحد تضاعف مردود ضريبة الكودة وحدها اكثر من مرتين[٥] .

وفي الفترة ما بين ١٩١٨ـ ١٩١٩ ، تضاعفت واردات النخيل في قضاء الشامية ما يقرب من

---

(٣) C.O 696/2, «Basrah District Annual Report, 1919,» p 62

(٤) Ibid. p 58

(٥) C.O 696/2, «Koda Revenue Annual Report, 1919,» p 2

في عام ١٩١٧ / ١٩١٨ بلغت واردات « الكودة » ٩٩٨٧٣٩ روبية . وارتفعت عام ١٩١٨ / ١٩١٩ الى ٢٥٥٧٧٥٥ روبية . و« الكودة » هي ضريبة تجبى عن الحيوانات .

ثلاث مرات[٦] . وخلال ١٩١٧ - ١٩١٨ ، دفعت سامراء ما يبلغ مجموعه ٢٧٥ , ٣٩ روبية ، من ضمنها ٢٩,٧٥٤ روبية كواردات عقارية . وفي السنة التالية ، ١٩١٨ - ١٩١٩ ، تحملت سامراء تكاليف تبلغ ٢,٠٢,٣٩٧ روبية ، من ضمنها ١,٦٥,٤٤٩ روبية ناجمة عن ضرائب عقارية[٧] . وهكذا فقد اضطرت سامراء ان تزيد مدفوعاتها بنسبة ٥٥٠ بالمائة .

وقد ذكر معاون الضابط السياسي في الكوفة والنجف في تقرير له انه « قد حصل تقدم ملحوظ في بلدتي (النجف والكوفة) لهذا العام (١٩١٩). فقد بلغت واردات السنة الماضية ٣٨,٧٧٣ روبية في الكوفة مقابل ٤٨،٨٠٢ روبية هي المجموع الاجمالي لثمانية اشهر في ١٩١٩، اي من نيسان / ابريل الى تشرين الثاني / نوفمبر ، و٥٩،٢٩٩ روبية في النجف مقابل ٦٦،٧٥٠ روبية من نيسان / ابريل الى تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٩ . ويعود معظم الزيادة الى ادخال ضريبة الارصفة والمساكن في الكوفة ، وضريبة المساكن في النجف »[٨]. وكانت النجف في ١٩١٨ قد دفعت ضعفي ما دفعته في ١٩١٧، كما ان واردات الكوفة في ١٩١٨ بلغت ثلاثة اضعاف ما كانت عليه في ١٩١٧[٩] . وكانت زيادة الضرائب في منطقة المنتفك اكثر بروزاً كما يوضحها الجدول رقم (٩-٢) :

جدول رقم (٩ - ٢)

الضرائب المجباة من منطقة المنتفك ، للسنوات ١٩١٥ - ١٩٢٠ (بالروبيات)

المنطقة / السنة	١٩١٦/١٩١٥	١٩١٧/١٩١٦	١٩١٨/١٩١٧	١٩١٩/١٩١٨	١٩٢٠/١٩١٩
قلعة سكر	–	–	–	–	٢٧٦٧٩٤
الشطرة	–	–	–	٣٨٦٢٤	٣٦١٩١٠
الناصرية	١١٣٤١	١٥٤٠٣	٧٠٣٩٥	١٠١١٢٧	٢٤٥٠٤٤
سوق الشيوخ	٢٢٢١٦	٣٧٠٦١	٦٤٧٤٤	٣٢٦٢١٩	٤١٧٧٩١
المجموع	٣٣٥٥٧	٥٢٤٦٤	١٣٥١٣٩	٤٦٥٩٧٠	١٣٠١٥٣٩

(أ) هذا المبلغ لا يشمل واردات البلديات . وباضافتها يصل المبلغ الى ١٦٦١٨٢٣ روبية .

المصدر : احتسبت من : Colonial Office[C.O.]696/2, «Muntafiq Division Report, 1919,» appendix G, p. 31.

(٦) زادت هذه الصادرات من ٩٥٠٠٠ روبية الى ٢٥٠٠٠٠ روبية .

(٧) C.O. 696/1, «Administration Reports, 1918- Samara Division,» p.5.

(٨) C.O. 696/2, «Shamiyah Division Annual Report, 1919,» p. 18, and «Report of A.P.O , Kufah and Najaf in Original,».

(٩) C.O. 696/1, «Administration Reports, 1918- Kufah and Najaf,» p.89.

تجدر بنا الاشارة الى ان الحرب انتهت في اواخر ١٩١٨ . وهذه الحقيقة تقدم بعض التبرير الاقتصادي للادارة ، الا انها لا تنفي التأثير السياسي الذي كانت تنطوي عليه هذه الزيادة .

ثانياً : الاساليب المؤدية الى زيادة الواردات

من المستبعد جداً ان تكون هذه الزيادة الاستثنائية في الواردات مبررة بأي تحسن اقتصادي مزعوم في ظروف المناطق[١٠] ، ان هذا الارتفاع في الخط البياني للواردات كان « مرده الى واقع ان الضباط المسؤولين قد استطاعوا اكتساب خبرة اكثر باسعار التمور ، والمزادات ، والمعاملات التجارية ، المحلية بوجه عام »[١١] . فمن الواضح ان ازدياد الواردات لم يكن يعود لارتفاع سريع في الانتاجية او في الاسعار ، بقدر ما كان يعود الى (الكفاءة) الادارية المتنامية وازدياد القدرة على الاشراف المالي .

وقد عزا تقرير اداري بريطاني الزيادة في الواردات الى الواقع التالي : « . . . منذ حوالى جيلين قرر مدحت باشا الغاء اسلوب التخمين السنوي للحاصلات ، واستعاض عنه بنسبة ثابتة ، فكان يأخذ ارقام الواردات للسنوات العشر الماضية ويحدد ضريبة الارض على اساس معدل هذه الارقام . . . الا انه لسوء الحظ . . . كانت الارقام مبنية على سجلات زائفة بوجه عام لدائرة الواردات التركية . وان هدفنا في المستقبل مزدوج . اولاً ، زيادة الواردات . . . وثانياً ، تخمينها على اساس القيمة الانتاجية للاشجار ، ونوعية التربة ، واسعار الحاصلات »[١٢] .

ان هذ لا يترك مجالاً للشك في ان الزيادة في الواردات المجباة كان مبعثها الاساليب الجديدة المتبعة من قبل الادارة . وفضلاً عن ذلك فقد اشير الى ان ادخال ضرائب جديدة كان له دوره في تحسين الواردات[١٣] . وعلاوة على ذلك ، فمن الواضح ان هذه الزيادة الملحوظة في مبلغ الواردات كانت تعود ايضاً الى امتداد الجباية (الكفوءة) للواردات الى مناطق كانت في السابق تتهرب من الدفع . الا ان ما يلفت النظر هو القصور عن ادراك العواقب السياسية لهذه السياسة . ان قدرة الادارة على مد وتطبيق نظام الضرائب في المناطق العشائرية هو موضوع ذو اهمية بالغة ، وسوف نعالجه في الفصل التالي .

لقد اوضحنا في الصفحات السابقة ، الزيادة الكبيرة في الضرائب والواردات . الا ان هذه الظاهرة لم تكن مقصورة على المناطق آنفة الذكر فقط ، بل كانت تنطبق على جميع ارجاء العراق ، ويتضح ذلك بجلاء في الجدول رقم (٩-٣) :

---

(١٠) انخفضت واردات المنتفك عام ١٩٢٢ / ١٩٢٣ الى ٣٦٨٥٠٨ روبيات . انظر :
«Report of the Accountant General, 1922-1923,» Baghdad, 1924, pp. 11-12.

(١١) C.O. 696/2, «Basrah District Annual Report, 1919,» p.62.

(١٢) Ibid., p. 10

(١٣) C.O 696/1 «Administration Reports, 1918- Kufah and Najaf,» p 245.

جدول رقم (٩ - ٣)

الواردات السنوية من جميع انحاء العراق ، للسنوات ١٩١٥ـ ١٩٢٠(بالروبيات)

الأبواب الرئيسية / السنة	١٩١٦/١٩١٥	١٩١٧/١٩١٦	١٩١٨/١٩١٧	١٩١٩/١٩١٨	١٩٢٠/١٩١٩
واردات الارض والضرائب العامة على الحاصلات الزراعية[أ]	٢٢ ٥٥٩٦٧	٢١ ٨٦ ٥٥٥	٧٩ ٣٤ ٢٩٥	٢١٧ ٤٧ ٤٣٠	١٩٨ ٢٧ ٢٩٠
الرسوم الجمركية	١٨٣٤ ٤٩٧	٥٧٦٤٤٠٠	٦٧ ٣٨ ٠٠٠	٦٥ ٠٠ ٠٠٠	٢٢٠ ٢٤ ٠٠٠
المصادر الاخرى[ب]	١ ٧٨ ١٧٨	١ ٣٧ ٢٦٥	٥ ٧٩ ٧٥٣	١٠ ٦٥ ٧٥٠	٧٦ ٨٥ ٢٢٠
المجموع	٤٥ ٦٨ ٦٤٢	٨١ ٠٨ ٢٥٠	١٥٢ ٥٢ ٠٤٨	٢٩٣ ١٣ ١٨٠	٤٩٨٣٦٥١٠ او ٥٧٢٧١ ٩٤٠

(أ) بما فيه ضريبة التمور ، الكودة والطابو .

(ب) تشمل القضاء ، الصحة ، التعليم ، البريد ، البرق ، السجون ، تجهيزات العمل ، الصحف ، النقليات وغيرها .

(ج) البيانات الآنفة الذكر مستمدة من وصولات حقيقية مذكورة في :

C.O. 696/3, «Budget Estimates for the Year 1920-1921,» p.ii.

المصدر : احتسبت من: Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers- Cmd.1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: His Majesty's Stationary Office [H.M.S.O.], 1920), p. 119.

ان الارقام الواردة في الجدول رقم (٩ ـ ٣)[١٤] تكشف بجلاء عن حقيقتين :

١ ـ خلال خمسة اعوام من الاحتلال البريطاني ، ازدادت واردات الادارة بشكل كبير . وفي الاعوام التي اعقبت الهدنة ، كان مجموع الضرائب المجباة من العراقيين يزداد ايضاً .

٢ ـ تبين هذه الارقام ايضاً ان عبء الضرائب كان ثقيلاً على مادتين : الارض (الفلاحون والعشائر المتوطنة) والجمارك (طبقات التجار) ، اما الاخرى فكان دورها هامشياً جداً .

ثالثاً : اوجه الصرف

لقد جادل البعض بأن العراقيين كانوا يحصلون على خدمات ادارية تعادل ما يدفعونه من ضرائب . وان هذا يثير مسألة الاوجه التي كانت الادارة تعتبرها مناسبة لصرف وارداتها فيها . وقد كانت المصروفات السنوية للادارة كما يبينها الجدول رقم (٩ ـ ٤) .

وقبل تحليل ميزانية الادارة للواردات والمصروفات قد يكون من الانصاف والفائدة الاطلاع على ايضاحات ولسن لسياسته المالية ، اذ ان مناقشة الميزانية ستكتسب آنذاك طابعاً اكثر شمولاً ، ويمكن مقارنتها بتبريرات الادارة . فعلى اثر نشوب الثورة في العراق ، طرحت سياسة الضرائب في مقدمة العوامل المسؤولة عن نشوب العنف . وقد بذلت الادارة اقصى الجهد لنفي هذا الارتباط بين نظام الضرائب والثورة ، وارسل المندوب المدني برقية مطولة ، مؤرخة في ٢١ تموز / يوليو ١٩٢٠ ، الى وزارة الهند ، دافع فيها عن سياسته المالية .

وقد اشار ولسن ، اولاً ، الى ان بعض الضرائب التركية قد الغيت وانه « لم تفرض ضرائب جديدة» ، وشدد على ان معدلات الضرائب التركية قد حوفظ عليها بل وخفضت في حالات حدوث كوارث مثبتة . واشار الى ان المبالغ المطلوبة ، بالشكل الذي حددت فيه في جميع الاماكن ، كانت « تجبى عملياً بأكملها وبدون تأخير غير ضروري او صعوبة . . . وان الذين يعرفون العرب جيداً سيدركون ان هذه الحقيقة وحدها كافية لتفنيد الاتهامات القائلة بالافراط في فرض الضرائب » . ومن ثم مضى ولسن الى تبرير الزيادة في الواردات على اساس توسيع وتحسين الري ، وما نتج عن ذلك من توسع في الزراعة وزيادة ضخمة في اسعار المنتجات الزراعية . وقد جادل بأن « العنف بدا في منطقتين كانتا في ١٩١٩ والسنوات السابقة لم تتحملا الا ضرائب قليلة جداً . . . وقد كانت هذه المناطق في ايام الاتراك غير خاضعة للسيطرة ولم تدفع عملياً اية واردات »[١٥] .

---

(١٤) كان مجموع الواردات المحصلة عام ١٩٢٠ / ١٩٢١ هو ٦٦٦٨٧٤٠ روبية ، بضمنها ٢١٨١٦٢٩٠ روبية تم تحصيلها من حاصلات الارض ، و٢٥٧٨٢٠٠٠ روبية من الجمارك . انظر :
Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), p. 224 and Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers- Cmd. 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: His Majesty's Stationary Office [H.M.S.O.], 1920), p. 119.

(١٥) Foreign Office,[F.O.] 371/5076, «Tel. 21/7/1920.».

جدول رقم (٩ - ٤)

المصروفات الادارية في العراق ، للسنوات ١٩١٥ - ١٩٢٠ (بالروبيات)

الاوجه الرئيسية للانفاق / السنة	١٩١٥/ ١٩١٦	١٩١٦/ ١٩١٧	١٩١٧/ ١٩١٨	١٩١٨/ ١٩١٩	١٩١٩/ ١٩٢٠
مصروفات مقر الادارة العامة (أ)	٥ ٥٤ ٢٣٠	١١ ٨٣ ٤٢٥	٢٤١٨٢٥٣	٣٣ ٩٠ ١٠٠	٧٠ ٦٠ ٧١٤
مؤسسة واردات الضابط السياسي	٥ ٤٨ ٨٩٢	٩ ١٩ ٠٨٥	٥١ ٨٩ ٢٧٣	٩٣ ٢١ ٦٩	٧٠ ٦٧ ٤٢٠
الجمارك	١ ١١ ٨٩٣	٣ ٨٥ ٨٠٠	٥ ٨٠ ٣٥٠	٦ ٧٥ ٠٠٠	٢٩ ٦٤ ١٦٩
التقليات	—	—	—	—	٣٠ ٨٧ ٨٣٤
القضاء	١ ١٢٠ ٢٠٧	١ ٢٧ ٢٩٥	٢ ١٤ ٩٨٣	٣٧٣ ٠٠٠	٨ ٢١ ١٤٥
الصحة	٦١ ٦١ ٣٤٥	٨٧ ١٨٠	١ ٣٩ ٨٨٧	٤ ٦٣ ٧٥٠	٢٠ ٣١ ٥٤٢
التعليم	٦ ٥٠٠	٢٣ ٥٣٠	٣٥ ٥٠٠	١ ٨٠ ٠٠٠	٨ ٨٦ ٨٠٨
الشرطة	١ ٩٩ ١٤٦	٢ ٨٦ ٩٧٥	٨ ٩٠ ١٦٣	١٢ ٠٤ ٠٨٠	٢٢ ٧١ ٣٨٩
السجون	٢٠ ١٢٦	٤٤ ٤٦٠	٩٨ ٥١٧	١ ٦٧ ٤٠٠	٥ ٤٤ ٣٠٤
الأشغال العامة	—	١ ٠٥ ٤٥٠	٤ ٦١ ٤٠٠	٨ ٧٤ ٧٠٠	٤٩ ٦٣ ٢٩٢
البريد	—	—	—	—	٢٣ ٧٤ ٨٣١
البرق	—	—	—	—	٨ ١٩ ٨٦٨
المساحة	—	—	—	—	٩٤ ٨٩٥
الري	—	—	—	—	٣٨ ٧٨ ٦٠٥
الزراعة	—	—	—	—	٣ ٨١ ٧٣٨
الليفي	—	—	—	—	٦٦ ٤٩ ٤٩٠
المجموع	١٦ ٢٢٣٤٤	٣١ ٦٣ ٢٠٠	١٠٠ ٢٨ ٢٨٦	١٦٦ ٤٩ ٧٢٠	٤٦١٩٨ ٠٠٨

(أ) تشمل رواتب الضباط الواردة اسماؤهم في الجريدة الرسمية ، الخدمة السرية ، مخصصات المعيشة ، السفرات البحرية والبرقيات . . الخ .

(ب) البيانات الواردة في تخمينات الميزانية هي مصروفات فعلية لعام ١٩١٩/ ١٩٢٠ وهي تختلف عن البيانات الواردة في : Great Britain, House of Parliament, Ibid., p. 119.

المصدر : احتسبت من : Ibid., p. 19, and C.O. 696/3, «Budget Estimates for the Year 1920-1921,» p. iii.

وبعد ذلك بأيام قلائل ، ابرق المندوب المدني بـ (ملاحظات) اضافية حول الجوانب المالية لسياسته . وقد جادل بأن الزيادة الكبيرة في الواردات خلال ١٩٢٠ قد عزيت بصورة خاطئة الى الزيادة السريعة في الضرائب « في حين انها كانت تعود بدرجة كبيرة الى زيادة الخدمات المؤداة من قبل الادارة المدنية . . . للجيش » . ومقابل هذه المدفوعات ، كان العراقيون ، حسب ادعاء ولسن يحصلون على فوائد كبيرة ومباشرة من الادارة(١٦) .

ان دفاع ولسن عن سياسته الضريبية لا يخلو من حماس مفرط . فخلال اقل من شهر بعد ارسال البرقية الآنفة الذكر ، اعترف المندوب المدني بـ « فقدان الادارة المدنية لتلك الشعبية التي كانت تتمتع بها بادىء الامر »(١٧) . ولأجل تفسير (فقدان الشعبية) هذا ، والذي مهد الطريق لثورة ١٩٢٠ ، ذكر ولسن عدة عوامل ، من بينها « جباية واردات الارض وضرائب اخرى » ، و « الخوف من الاستغلال من قبل النزعة التجارية الغربية » و« استخدام الطائرات ضد المشاكسين » ، و« التكليف بالعمل على ضفاف الفيضانات . . . وبالنسبة لهذه المسألة ، فإن ظروف الاحتلال العسكري تتحمل مسؤولية جزئية . وقد تعرضنا طيلة الوقت ، ولا نزال نتعرض في الواقع ، لضغط مشروع كبير من جانب السلطات العسكرية . . . »(١٨) .

ان جوهر حجج ولسن يمكن تلخيصها في النقاط التالية : ان نسب الضرائب تحت الحكم البريطاني كانت مماثلة لتلك التي فرضت خلال العهد التركي . اما ازدياد الواردات فقد تحقق بسبب الكفاءة ، والعدالة ، وكذلك بفضل الرخاء الاقتصادي الذي تحقق في العراق . وفي اثناء ذلك ، حسب ادعاء ولسن ، كان العراقيون يحصلون على خدمات افضل لقاء ما يدفعونه .

وفي الدرجة الاولى ، من الواضح ان هيكل الحجج في حد ذاته يخضع لافكار معينة تزعزع عملياً منطق المناقشة ذاته . فقد خلط ولسن بين المسألتين السياسية والاخلاقية . وفيما يخص الاخيرة ، خلط ولسن ايضاً بين القيم الغربية والمبادىء الخلقية الشرقية . ذلك ان واجب كل مواطن في دفع الضرائب هو ، على العموم ، التزام ادبي ادخل الى اوروبا نتيجة لتطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية معينة(١٩) . ولم يكن ذلك ينطبق بالنسبة للمجتمع العثماني الشرقي . ذلك ان الدولة الشرقية لم تكن تعتبر ، في نظر رعاياها ، تجسيداً لارادة الشعب او مصالحه ، بل بالاحرى ، هو امر له بعض التبرير الذي لا يمكن انكاره ، كان ينظر اليها ككيان غريب ، طفيلي ، ظالم . وكانت تستخدم كل الاساليب ، بما فيها الخداع والرشوة ، للتحايل على القانون والتهرب من الضرائب . تلك كانت الشريعة الاخلاقية للمجتمع الشرقي . وان فرض مفاهيم اوروبية متقدمة من عهد ما بعد روسو ، فيما يتعلق بالواجب ، على مجتمع مختلف ، كان دعوة صريحة الى الاضطراب السياسي .

---

(١٦) F.O. 371 5077, «Tel.24/7/1920,».

(١٧) Wilson. *Mesopotamia, 1917 - 1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 312.

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) Lord Acton. *History of Freedom and Other Essays* (London: 1919), p. 19.

ومع ذلك، فقد كان بامكان الادارة البريطانية ان تخفف من هذه المعارضة لو كانت قد انتهجت سياسة صرفة موجهة نحو سد الحاجات الاجتماعية الملحة للعراق بوجه عام . وقد ادعى المندوب المدني انه قد فعل ذلك . الا ان ميزانية العراق لا تعزز هذا الادعاء .

فأولاً ، اننا نجد زيادة سنوية في وفر الميزانية لكل عام من اعوام الاحتلال البريطاني . (انظر الجدول رقم (٩-٥)) .

جدول رقم (٩-٥)

الوفر في الميزانية السنوية، للسنوات ١٩١٥ - ١٩٢٠ (بالروبيات)

السنة	الوفر
١٩١٦/١٩١٥	٢٩٤٦٢٩٨
١٩١٧/١٩١٦	٤٩٤٥٠٥٠
١٩١٨/١٩١٧	٥٢٢٣٧٦٢
١٩١٩/١٩١٨	١٧٦٦٣٧٤٥
١٩٢٠/١٩١٩	١١١٧٣٩٣٢

وفضلاً عن ذلك ، فإن نظرة فاحصة الى المصروفات السنوية من ١٩١٥ فصاعداً تكشف عن بعض الحقائق غير المريحة،فهي تبين ان معظم الواردات كان مخصصاً لـ (مصروفات ادارية) اكثر منها لدوائر ذات نفع مباشر وواضح للجمهور . كما ان المصروفات الادارية كانت تشهد كل عام زيادة حادة للغاية (انظر الجدول رقم (٩-٦)) :

جدول رقم (٩-٦)

مصروفات ادارة الاحتلال البريطاني في العراق، للسنوات ١٩١٥ - ١٩٢٠ (بالروبيات)

السنة	المصروفات الادارية(أ)	دوائر الصحة والتعليم والري والزراعة
١٩١٦/١٩١٥	١١٠٣١٢٢	٦٧٨٤٥
١٩١٧/١٩١٦	٢١٠٢٥١٠	١١١٧١٠
١٩١٨/١٩١٧	٧٦٠٧٤٨٦	١٧٥٣٨٧
١٩١٩/١٩١٨	١٢٧١١٧٩٠	٦٤٣٧٥٠
١٩٢٠/١٩١٩	١٤٤٢٨١٣٤	٧١٧٨٦٩٣

(أ) تشمل المصروفات الادارية للمقر العام ومؤسسة واردات الضباط السياسيين فقط .

إن عدم وجود اية مصروفات على شؤون الري والزراعة قبل ١٩١٩ يفسر بواقع ان هذه الدوائر كانت تحت الاشراف المباشر للسلطات العسكرية، الا ان هذا الواقع يشير الى ان كافة الخدمات المؤداة الى هذه الدوائر ، قبل ١٩١٩ ، كانت في التحليل النهائي ، تهدف الى تسهيل

وخدمة الاغراض العسكرية . ويعزز السير جون هيويت هذا الانطباع في تقريره الآنف الذكر :
« اننا نعتقد اعتقاداً اجماعياً وقوياً بأنه ليس ثمة اساس للقول بأن الاموال المخصصة للجيش كان مبعثها الرغبة في التهيؤ للتطورات التي ستعقب الصلح ، واننا نرى ان هذه الأموال قد انفقت في جميع الحالات لغرض اولي هو ضمان كفاءة وراحة القوات »[٢٠] .

وقد ادعى المندوب المدني في برقيته المشار اليها آنفاً ، ان الزيادة الكبيرة في الواردات خلال ١٩١٩ و١٩٢٠ قد عزيت بشكل خاطىء الى الزيادة السريعة في الضرائب . وقد جادل ولسن بأن هذه الزيادة كان « مبعثها الى حد كبير المدفوعات لقاء الخدمات المتعاظمة المؤدلة من قبل الادارة المدنية للدوائر الاخرى ، لاسيما الجيش » . وقد حددت اقوال السير جون هيويت طبيعة هذه الخدمات . وفضلاً عن ذلك ، فإن نظرة فاحصة الى ارقام ميزانية ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ، لا تقدم اي تبرير لحجج ولسن . فقد بلغ مجموع واردات تلك السنة ٦٦٦,٦٨,٧٤٠ روبية ، لم يقدم منها الجيش سوى ٥٦,٠٠,٠٠٠ روبية . وقد قسم هذا الرقم الى ٣٥,٠٠,٠٠٠ روبية كمدفوعات لقيمة حبوب مباعة الى الجيش ، و١٨,٠٠,٠٠٠ روبية كمساهمة من الجيش لواجبات شبه عسكرية لقوات الليفي والشرطة . ولم يقدم الجيش الا مساهمة قدرها ٣,٠٠,٠٠٠ روبية لغرض صيانة الطرق[٢١] .

وفي ١٩١٩ انتقلت دائرتا الري والزراعة الى سيطرة الادارة المدنية[٢٢] ، الا ان مصروفات هاتين الدائرتين المهمتين بقيت ضئيلة نوعاً ما . ففي ١٩١٩ـ ١٩٢٠ كانت مصروفات الري ٣٨,٧٨,٦٠٥ روبية ،ولم يخصص للزراعة سوى ٣,٨١,٧٣٨روبية . ولما كان هذا الرقم لا يعادل سوى ٢٢ بالمائة من واردات الارض ، و٩ بالمائة من مجموع المصروفات لتلك السنة ، وفي ١٩٢٠ـ ١٩٢١ ازدادت مصروفات الري الى ٥٧,١٧,٠٠٠ روبية ،وازدادت المصروفات الزراعية الى ٦,٧٧,٠٠٠ روبية[٢٣] . وبالرغم من هذه الزيادة بقيت مصروفات الري والزراعة تمثل النسبة المئوية المتواضعة السابقة نفسها من الواردات الزراعية ، التي بلغت ٢١٨,١٦,٢٩٠ روبية ومن مجموع المصروفات التي ازدادت الى ٧١٠,٥٢,١٠٠ روبية[٢٤] .

(٢٠) Sir John P. Hewett, *Report for the Army Council on Mesopotamia* (London: Harrison and Sons for H.M.S.O., 1919), p. 27.

(٢١) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 224.

(٢٢) Ibid., p. 158.

(٢٣) Ibid., p. 224.

(٢٤) Ibid.

إن حجة ولسن القائلة بأن الري قد توسع وتحسن خلال الاحتلال البريطاني لا تبررها مصروفات الري تماماً . ففي عام ١٩١٩ لم يصرف إلا ١٢٢٧٠٠٠ روبية على المنشآت الجديدة ، وصرف ٣٤٤٠٠٠ روبية على الوقاية من الفيضان ، وخصصت بقية المصروفات لصيانة المشاريع القديمة . انظر :
C.O. 696/2, «Administrative Reports- Department of Revenue , 1919,» p. 135, appendix L; C.O. 696/1, «Administrative Report (38) of Education, 1918,» p. 10, and C.O 696 / 2, «Administrative Reports- Department of Education, 1919,» p. 7.

وقد جرى ذلك كله في ظروف خاصة لم تكن فيها دوائر مهمة مثل التعليم والصحة تمثل اكثر من ٦ بالمائة من مجموع المصروفات لعام ١٩١٩ـ ١٩٢٠ . وفي السنوات السابقة كانت النسبة اقل من ذلك، ففي ١٩١٩ ، كانت مصروفات التعليم لا تمثل الا ١,٩ بالمائة من مجموع المصروفات . صحيح ان هذه الدائرة فتحت بعض المدارس(٢٥) ، الا انه صحيح ايضاً ان عدد الطلبة الذين ارتادوا المدارس في ١٩١٩ كان اقل منه في ١٩١٤(٢٦) . وينبغي ان لا يغيب عن الاذهان ان الانكليز قد ورثوا في الواقع « نظاماً تعليمياً شاملاً الى حد لا بأس به ، مرتكزاً على الاساليب الاوروبية »(٢٧) . وفيما يتعلق بالتعليم ، تكفي الاشارة الى ما ذكرته غروترود بيل في ايار / مايو ١٩٢٠ :

« . . . لقد تحدثنا (الكابتن أ . ليونيل سمث(٢٨) وك . بيل) حديثاً . . . طويلاً عن تعليم العرب . واني لست مسرورة جداً لما نقوم بعمله ، كما انه ليس مسروراً هو الآخر . انه لأمر حسن جداً ان نقول اننا يجب ان لا نفتح مدارس ثانوية قبل ان تتوفر لدينا مادة من الطراز الاول ، من المعلمين والتلامذة معاً ، الا اننا لا نستطيع الانتظار حتى يتحقق ذلك . . . ان الناس هنا حريصون جداً على التزود بالتعليم العالي بحيث اننا اذا توقفنا ، فسيعتقدون اننا نفعل ذلك عمداً لنسبب تأخرهم . فينبغي عليكم النظر الى الموضوع من الزاوية السياسية بالاضافة الى التعليمية »(٢٩) .

رابعاً : الدوافع الكامنة وراء هذه السياسة

ان هذا المسلك الاداري في فرض الضرائب الفادحة ، المقرون بالمصروفات غير الحكيمة او العادلة ، يثير التساؤل عن الدوافع الكامنة وراء هذه السياسة المالية . ويمكن تفسير ذلك بالتأثير الواضح للتقاليد الادارية الهندية ، ومحاولة اقامة ادارة استعمارية ، ومحاباة ملاكات الادارة. وبالاضافة الى ذلك وفي جوهر هذه السياسة ، كان ثمة عامل رئيسي آخر . وقد فضح ولسن جوهر سياسته الضريبية عندما اشار الى انه ، لولا هذه السياسة ، « لكان دافعو الضرائب البريطانيون قد تحملوا مزيداً من الاعباء لتغطية العجز »(٣٠) .

ولقد وقع ولسن في حلقة مفرغة : ففي بريطانيا اثر انتهاء الحرب ، ساد قلق حقيقي

---

(٢٥) C.O. 696/1, «Administrative Report of Education, 1918,» p. 10, and C.O. 696/2, «Administrative Reports-Department of Education, 1919,» p. 7.

(٢٦) كان عدد الطلبة العراقيين ، عام ١٩١٤ ، يبلغ ١٩٤٩٩ . بضمنهم ١٣٣٨ طالباً في المدارس العسكرية (عبد الرزاق مجيد الهلالي ، تاريخ التعليم العراقي في العهد العثماني (بغداد : ١٩٥١) ، ص ٢٤٨ - ٢٥٢) . وكان عدد الطلبة العراقيين عام ١٩١٩ يبلغ ٦٣١٧ ، من بينهم ٥٠٣٣ مسلماً و٩٣٧ مسيحياً و٣٣٠ يهودياً، انظر : (C.O. 696/2, «Administration Reports- Department of Education, 1919,» p. 8, appendix 1

(٢٧) Ibid., p. 1.

(٢٨) كان الكابتن أ . ل . سميث آنذاك مديراً للتعليم في بغداد .

(٢٩) Gertrude Lowthian Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, edited by Lady F. Bell, 2 vols. (New York: Boni and Liveright, 1927), vol. 2, p. 487, «Dated 9 May 1920,».

(٣٠) F.O. 371/5076, «21/7/1920,».

ازاء اية مصاريف غير ضرورية . وقد اثير موضوع الوضع المالي (العراقي) مراراً وتكراراً في مجلس العموم . وكانت الحكومة البريطانية حريصة على التأكيد للبرلمان بأن مالية العراق كانت تسند نفسها بنفسها وان ادارته لم تكن تحصل على اي دعم من الحكومة البريطانية او حكومة الهند(٣١) .

اننا نواجه هنا مرة اخرى ، المضامين الناشئة عن تناقض المصالح والآراء بين صانعي السياسة البريطانية ، الذين كان عدد كبير منهم يعارض العبء المالي المترتب على استمرار احتلال العراق . « ان لديّ شكاً قوياً بأنه لعدة مرات خلال الـ ١٢ شهراً الماضية ، كانت الاعتبارات المالية قد اغرتهم (اي حكومة صاحب الجلالة) على التخلي عن هذا المكان (العراق) »(٣٢) . فلولا هذا الضغط ، لكان من المحتمل ان لا يضطر ولسن الى انتهاج هذه السياسة المالية غير الحكيمة .

ويبدو ان هذه الضرائب الفادحة والفوائض السنوية الجسيمة كان الغرض منها تقديم تأكيدات قوية ، ان ولسن ، في محاولاته للتوفيق بين رغبته في السيطرة البريطانية على العراق من جهة ، والنفور البريطاني من اية اعباء مالية جديدة من جهة اخرى ، لم يكن لديه مناص من اعتصار العراقيين حتى آخر قطرة(٣٣) . الا ان هذه السياسة ارتدت على اصحابها . فقد كانت استفزازية جداً وشكلت عاملاً مهماً في انفجار ١٩٢٠ الذي كلف الانكليز ثمناً مالياً وسياسياً باهظاً جداً(٣٤) . وهذا بدوره كان عنصراً اساسياً في حث الحكومة البريطانية على اتباع حل افضل (اقل كلفة) ، اقتضى بالضرورة ابعاد ولسن والتخلي عن مشاريعه .

خامساً : المضمون الاجتماعي لسياسة الضرائب وتأثيرها السياسي

لقد قيل ان العراق ، خلال الاحتلال البريطاني ، مر بفترة من الرخاء والازدهار الاقتصادي . والمقصود من هذا القول تبرير الضرائب المالية وتقليل اهمية العامل الاقتصادي في الاضطراب السياسي في العراق . الا ان هذه الحجة تغفل بعض الامور الاساسية جداً . فالمفروض ان مفهوم الرخاء يجب ان لا يستخدم بشكل مطلق او تجريدي ، ذلك ان نعمه لا

---

(٣١) انظر مثلاً : Great Britain, House of Commons, *Parliamentary Debates, Fifth Series; vols. 112-121; 125-137* (London: H.M.S.O., 1919; 1920), vol. 119, «18/7/1919,» ; vol. 130, p. 2234; vol. 132, p. 1191, «27/7/1920,» and Hewett, *Report for the Army Council on Mesopotamia.*

(٣٢) Sir Arnold Talbot Wilson, «Letters, 1903-1921,» London Library, «Letter, 22/2/1920,».

(٣٣) كان الخيار الأخر لولسن هو « اغراء» الحكومة البريطانية بواقع « ان القيمة الرأسمالية لحقول النفط في ما بين النهرين كانت تبلغ ٥٠ مليون باوند . . . وإن الموانىء والبواخر والسكك الحديد والطرق والمباني المشيدة بالرأسمال البريطاني . . . تقدر هي الاخرى بعشرة ملايين باوند . والاستيرادات لهذه السنة تبلغ حوالى عشرة ملايين معظمها بريطاني . . . وان التصريح [الانكلو - فرنسي] بشكله الحالي لا يوفر ضمانة كافية لقيام حكومة مستقرة ، وهو الامر الذي لا بد منه للمحافظة على هذه المنشآت وتطويرها » . انظر : F.O. 371/4183, «From Civil Commissioner,Baghdad, to India Office, 21/7/191,».

(٣٤) كلفت ثورة العشرين الخزينة البريطانية حوالى ٤٠ مليون باوند .

يمكن ان تشمل مجتمعاً باسره يتألف من فئات اجتماعية ومناطق جغرافية مختلفة . ولأجل النظر في المسألة بطريقة واقعية ، ينبغي السؤال : من كان المستفيد ، ومن كان (يدفع الثمن) ؟

إن الواردات السنوية للادارة من ١٩١٥ الى ١٩٢٠ تكشف عن ان العبء الاكبر من الضرائب كان يقع على مادتين : الحاصلات الزراعية والجمارك . وكانت هاتان المادتان تؤلفان ، معاً ، بشكل تقريبي ، النسبة المئوية التي يبينها الجدول رقم (٩-٧) في مجموع الواردات :

جدول رقم (٩-٧)

النسبة المئوية للضرائب على الحاصلات الزراعية
والجمارك في العراق من مجموع الواردات ، للسنوات ١٩١٥ - ١٩٢١

السنة	النسبة
١٩١٥/١٩١٦	٩٥,٧
١٩١٦/١٩١٧	٩٨,٧
١٩١٧/١٩١٨	٩٦,٠
١٩١٨/١٩١٩	٩٦,٥
١٩١٩/١٩٢٠	٨٣,٤
١٩٢٠/١٩٢١	٧١,٥

المصدر : استناداً الى المؤلف .

وهكذا ، فقد كان عبء الضرائب يقع بالدرجة الرئيسية ، اذا اردنا التحدث بمفهوم اجتماعي ، على الفلاحين والتجار العراقيين ، ان هذا الاستنتاج العام قد دفع عدداً غير قليل من المثقفين العراقيين الى التنويه بأن الثورة العراقية قد حركتها وقادتها (البرجوازية) التجارية[٣٥] . وقد قبل د. محمد سلمان حسن ، وهو اقتصادي عراقي مرموق ، هذا الاستنتاج وبشر به[٣٦] . ان هذا الاستنتاج ، الذي ساد الادب العراقي المعاصر ، يستحق التحدي ، من وجهتي النظر الاقتصادية والتاريخية معاً .

ومع بالغ احترامنا لاصحاب هذا الاستنتاج ، فإننا نود ان يسمح لنا بمعارضة هذا الرأي الذي لا يخلو من عموميات اكثر منه عن دراسة عميقة لظروف العراق السياسية في

(٣٥) انظر مثلا لعلي الشيخ ابراهيم التلعفري : « الثورة العراقية الكبرى والتحليل العلمي ،» دراسات عربية ، السنه ٥ ، العدد ١٢ (تشرين الاول / اكتوبر ١٩٦٩) ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، و« عوامل اخفاق الثورة العراقية الكبرى ، ١٩٢٠ ،» دراسات عربية ، السنة ٧ ، العدد ٣ (كانون الثاني / يناير ١٩٧١) ، ص ٥٨ - ٥٩ ، وعلي النوري ، « تعليق حول طبيعة ثورة العشرين الوطنية في العراق ،» دراسات عربية ، السنة ٦ ، العدد ٤ (شباط / فبراير ١٩٧٠) ، ص ٨٩ - ٩٢ .

(٣٦) محمد سلمان حسن ، طلائع الثورة العراقية : العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الاولى (بغداد : مطابع جريدة الجمهورية ، ١٩٥٨) ، ص ١٤ و٢٣ - ٢٤ .

١٩٢٠ . لقد كان المثقفون العراقيون (الضباط السابقون والموظفون السابقون والرجال المتعلمون) وعشائر الفرات الاوسط وعلماء الدين ، هم قاعدة الثورة العراقية في ١٩٢٠ . ولا يمكننا ملاحظة اي دور (جهادي) لعبته ما تسمى بـ (البرجوازية) العراقية ، وفضلاً عن ذلك ، فإن (الاستنتاج) الآنف الذكر لا يبدو انه ثمرة تحليل عميق للمحتوى الاجتماعي لسياسة الضرائب ، ان الجدول رقم (٩-٨) يساعد على ايضاح ان عبء الضرائب كان في الواقع اثقل على الفلاحين منه على التجار ، وان الضرائب على التجارة كانت ضمن حدود معقولة ومقبولة .

جدول رقم (٩ - ٨)
قيمة الضرائب على الزراعة والجمارك في العراق ،
للسنتين ١٩١٠ و١٩١٨ (بالباوندات)

السنة	صادرات وواردات العراق	واردات الجمارك	واردات الارض والحاصلات الزراعية
١٩١٠ (الاتراك)	٢٢٩٢٥٠٠ او ٣٩٥٠٠٠٠	٣٨٠٦٢٤	٥٢٧١٧٥
١٩١٨ (الانكليز)	٨٣٢٥٠٠٠ او ١١١٠٠٠٠٠	٤٨٧٥٠٠ او ٦٥٠٠٠٠	١٦٣١٠٥٧ او ٢١٧٤٧٤٢

المصادر : احتسبت من : ـ بالنسبة لسنة ١٩١٠ : Halder, «Land Problems of Iraq,» p. 701.
ـ بالنسبة لسنة ١٩١٨ :
Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers-Cmd. 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia*, p. 118.

إن هذا الجدول يوضح انه ، خلال ثمانية اعوام ، تضاعفت الواردات الزراعية ثلاث مرات ، في حين بقيت واردات الجمارك على حالها تقريباً ، وذلك في الوقت الذي تضاعفت فيه القيمة التجارية ثلاث مرات تقريباً او بتعبير ادق ، ازدادت خلال ثمانية اعوام بنسبة ٢٨٥ بالمائة .

صحيح ان طبقة التجار العراقية اضطرت الى زيادة ما تدفعه من ضرائب الجمارك : ففي ١٩١٩ بلغ هذا الوارد ١,٦٥١,٨٠٠ باوند (او ٢,٢٠٢,٤٠٠ باوند) . ولكن في السنة نفسها ارتفعت قيمة البضائع المصدرة والمستوردة الى ١٣,٨٠٠,٠٠٠ باوند (او ١٨,٤٠٠,٠٠٠ باوند) . وفي الوقت نفسه ، كانت ارباح التجار العراقيين تزداد بنسبة تعادل ، وربما تزيد عما كانوا يدفعونه . وقد قدمت غرترود بيل الارقام التالية عن القيمة السنوية للبضائع المصدرة والمستوردة في البصرة وبغداد (لكات(*) الروبيات) .

(*) اللك: عملة هندية تساوي ١٠٠٠٠ باوند تقريباً .

السنـة	قيمة البضائع المستوردة والمصدرة
١٩١٠	٣٩٥
١٩١٢	٣٩٨٠
١٩١٥	٩٤
١٩١٧	٦٢٥
١٩١٨	١١١٠
١٩١٩	١٨٤٠

المصدر : احتسبت من : المصادر نفسها .

ويجب ان لا يغرب عن البال ايضاً ان الضرائب على التجار العراقيين كانت ، من وجهة النظر السياسية ، ذات عواقب اقل خطورة منها بالنسبة للضرائب على الارض . ذلك ان التركيب الاجتماعي للتجار لم يكن يسمح بقيام مقاومة ناجحة ، كما ان الطبيعة الاقتصادية للتجارة جعلت جباية الواردات امراً اكثر سهولة وانتظاماً الى حد كبير[٣٧] . وبالاضافة الى ذلك ، فإن قيام جيش محتل ضخم ، كان يمثل طاقة استهلاكية كبيرة ، وقد ساعد بالضرورة على ازدهار التجارة .

ولذلك ، كان الوضع العام ملائماً بالنسبة لطبقة التجار العراقيين ، ولاسيما المراتب العليا منهم ، ان هذا لا ينفي وجود بعض عوامل التذمر التي كانت مع ذلك ذات طبيعة ثانوية ولم تبلغ مستوى العملية التثويرية .

كان الاتراك يحاولون حماية الصناعة والتجارة المحليتين عن طريق فرض نسب عالية لرسوم الاستيراد[٣٨] . ولكن ما ان تم احتلال البصرة ، حتى اكتسح الاسواق العربية سيل جارف من البضائع المستوردة (لاسيما البريطانية)[٣٩] ، وكانت المادة المستوردة الرئيسية هي المنسوجات[٤٠] . وبسبب هذه المزاحمة التي لا تقاوم ، خنقت الصناعة والتجارة العراقيتان (المتواضعتان بحد ذاتهما)[٤١] . ويدل ذلك على ان السياسة البريطانية كان لها تأثير ضار

---

(٣٧) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 88.

(٣٨) انظر الفصل الاول من هذا الكتاب .

(٣٩) على سبيل المثال ، استوردت البصرة عام ١٩١٢ ، ما قيمته ٣٩٨١٠٠٠٠ روبية . وارتفع هذا الرقم الى ١١٠٢٦٨٥٤ روبية عام ١٩١٨ . انظر :
C.O., «Administrative Report, 1918 of Certain Departments of the Civil Administration of the Occupied Territories, vi- Basrah Customs Reports for the Year Ending 31 December 1918,».

(٤٠) على سبيل المثال كانت المنسوجات عام ١٩١٧ تؤلف ما قيمته ٢٨٣٠٠٠٠٠ روبية . وفي عام ١٩١٨ كانت تؤلف ما قيمته ٥٤٣٠٠٠٠٠ روبية .

(٤١) كان عدد الحائكين العراقيين في اواخر القرن التاسع عشر يبلغ ٣٥٠٠، وهبط هذا العدد عام ١٩٢٠ الى بضع مئات . ولم تستطع اي شركة عراقية للنسيج ان تقاوم الضغط وانتهى الامر بتصفيتها جميعاً ، انظر : محمد سلمان حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ، ١٨٦٤ - ١٩٥٨ (صيدا ؛ بيروت : المكتبة العصرية ، ١٩٦٠) (في الاصل رسالة دكتوراه قدمت الى جامعة اكسفورد) ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

بعض الشيء بالصناعة والتجارة العراقيتين . الا ان هذه الفعاليات الاقتصادية كانت متواضعة جداً من حيث نظامها وعدد العاملين فيها[٤٢] اما الاجزاء الاوسع المشتغلة بالتجارة ، فقد استفادت ، اقتصادياً ، من رفع رسوم الاستيراد العالية ، وكانت ، سياسياً ، تزداد تعاطفاً مع السياسة والوجود البريطانيين .

وفضلاً عن ذلك ، فقد صرح المندوب المدني بأنه قد اوقف جباية بعض الضرائب التركية الرئيسية ، وهي ضريبة الاملاك (الويركو) ، والضريبة المهنية (التمتع)، وبدل الخدمة العسكرية ، وضريبة المواصلات[٤٣] . وفي ١٩١٠ - ١٩١١ ، بلغت ضريبة الاملاك ٤٤,٨٥٠ باوند ، والضريبة المهنية ٢٩,٢٥ باوند وبدل الخدمة العسكرية ٥٢,١٢٥ باوند ، وضريبة المواصلات ٣٩,٩٠٠ باوند[٤٤] . وكانت هذه الضرائب بمجموعها تؤلف مبلغاً كبيراً يعادل التوسع من مجموع واردات تلك السنة (والبالغ ١,٦٥٣,٠٧٥ باوند) . ومن الواضح ان هذه الواردات كانت تجبى من العراقيين الاغنياء . وان الغاء هذه الضرائب يكشف عن بعض جوانب المحتوى الاجتماعي للسياسة المالية للادارة ، اي معاملتها اللينة للعوائل الغنية .

وكان لا بد لهذه السياسة الاقتصادية من ان تخلق سلسلة من ردود الفعل السياسية . فقد استثارت الادارة عداء المثقفين (المتمركزين بالدرجة الرئيسية في بغداد والموصل) ، الا انها كسبت امتنان التجار . ولذلك كان من المنطقي انه في الوقت الذي اتخذ فيه المثقفون العراقيون موقفاً وطنياً معادياً للانكليز ، تخلى التجار عن موقفهم (الوطني) الذي اتخذوه خلال العهد التركي وسلكوا منهجاً موالياً لبريطانيا . وفي ١٩١٨ ، وصف ولسن الاتجاهات السياسية السائدة في العراق : « ان التجار والملاكين . . . ينظرون الى موقف المثقفين في بغداد بارتياب ، وقد تنصلوا من اي تعاطف او اهتمام بالملك حسين والحزب الشريفي . . . »[٤٥] .

وفي اوائل ١٩١٩ ، عزا المندوب المدني موقف تجار البصرة الموالي للانكليز الى « ازدهار تجارتهم وثرائهم »[٤٦] . وفي اواخر ١٩١٩ ، كتب الضابط السياسي في البصرة : « لا اعتقد اننا نتمتع في بعض النواحي ، لاسيما بين بعض الطبقات ، بالشعبية نفسها التي كان يتمتع بها اسلافنا الاتراك » . ولكنه اشار الى انه « من جهة اخرى ، ترغب طبقات الملاكين والتجار في بقائنا وتشعر بأن الحكم البريطاني وحده هو الذي سيساعدها »[٤٧] . واشار معاون الضابط السياسي في سنجق البصرة الى « ان التوسع في الضرائب وازدياد عبئها يحملان بعض الناس ، بطبيعة الحال ، على التحسر على ايام الاتراك اللّيني

---

(٤٢) انظر الفصل الاول من هذا الكتاب .

(٤٣) F.O. 371/5076, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 21/7/1920,».

(٤٤) S. Haider, «Land Problems of Iraq,» (Ph. D. dissertation, University of London, 1942), p. 702.

(٤٥) Wilson, *Mesopotamia, 1917 - 1920- a Clash of Loyalties:* A Personal and Historical Record, p. 92.

(٤٦) F.O. 371/23/MES/1917, «26/1/1919,».

(٤٧) C.O. 696/2, «Administration Reports- Basrah, 1919,» pp. 25-26.

العـريكـة » . واشـار فضـلاً عن ذلـك الى « بعض الاستياء النـاجم عن عـدم مسـاهمة العـرب في ادارة البـلاد » . كما اشـار الى « الفريق المـوالي للشريف ، والـذي يقوم بنشـاط لا بأس بـه » . ولكنه اكـد انه « بالنسبة لهاتين الطبقتين معا (التجار والملاكين) ، تمثل الحكومة البريطانية رمزاً للامن والاستقرار »(٤٨) . وفي اواخر عام ١٩٢٠ ذكر كوكس في تقرير له ان تجار ومـلاكي البصرة « يتـوجسون خيفـة من احتمال قيام حكومة عربية ويعتبرون ذلك خيانة من جانبنا . . . »(٤٩) .

ان هذا كله يوضـح بجلاء ان كبـار التجار العـراقيين كـانوا يؤيـدون ، بقوة ، الادارة البريطانية التي (احسنت) معاملتهم(٥٠) . واذا كان الامر كذلك ، فمن الذي كان قد تحمل عبء الضـرائب اذن ؟ سنحاول في الفصـل التالي ان نبين ان الفـلاحـين العـراقيـين كـانـوا يتحملون هذا العبء وكانوا يمثلون الفئة الرئيسية الثانية (بالاضافة الى المثقفين) والتي دفعتها سياسة الادارة الى الانضمام للحركة الاستقلالية .

---

(٤٨) Ibid., p. 59.

(٤٩) F.O. 371 5231/13471, «26/10/1920,».

(٥٠) ان ذلك يجب الا يعني عدم اسهام بعض فئات التجار في الحركة الوطنية . فبعضهم كان يتحرك وطنياً بدوافع مثالية وقومية ولا مصلحية . والبعض الأخر كان قد اعتاد التجارة مع الامبراطورية العثمانية وسورية فجاء الانكليز ليقطعوا هذا الطريق . والبعض من صغار التجار لم ينالوا المكاسب ذاتها التي نالها كبار التجار .

الفصل العاشر

الادارة البريطانية والفلاحون العراقيون

من المعروف جيداً ان ثورة العشرين كانت في الاساس ثورة فلاحية نشبت في المنطقة المعروفة بالفرات الاوسط . الا انه ليس من المعروف ، بالدرجة نفسها ، الظروف التي ولّدت نقطة التحول هذه في تاريخ العراق الحديث . ان مغزى الاحداث كان ذا اهمية كبرى سواء بالنسبة للحركة الوطنية او لاشكال الفعاليات الفلاحية السياسية .

ان الحركة الاستقلالية العراقية ، التي اكتسبت زخماً سياسياً عالياً في ١٩٢٠ ، قد قادها وألهمها فريق من القوميين العرب العراقيين الذين كانوا يقطنون بالدرجة الرئيسية في مدن العراق الكبيرة او في الخارج . ومع ذلك ، فلولا المبادرة الفعلية لعشائر الفرات الاوسط في اشعال فتيل الثورة ، لافتقرت الحركة الاستقلالية الى القوة المؤثرة . كان المثقفون الساخطون سيبقون اسرى ضمن حدود العرائض ، والتحرشات على الحدود ، والمفاوضات المطولة مع ادارة غير متعاطفة . وباختصار ، كان هؤلاء الالوف من الفلاحين ، بانتفاضتهم العاصفة ، هم الذين زودوا الحركة الاستقلالية بذراعها الضاربة التي كانت ، في التحليل الاخير ، عتلتها الاشد تأثيراً .

ان هذا الاستنتاج يتحدى الافتراض القائل ، بأن الحركة كانت تمرداً عشوائياً من قبل عشائر فوضوية استثارها محرضون خارجيون . ان هذه الفكرة الاخيرة تقوم على الافتراض بأن العشائر العراقية كانت قوة اجتماعية هامشية قائمة خارج النظام الوطني . وهي تقلل من شأن الوعي السياسي للعشائر وتخلط بين الاضطرابات العشائرية السابقة وبين ثورة العشرين ، وسوف نحاول ان نبين (في هذا الفصل والذي يليه) ان العشائر العراقية قد انجذبت بالتدريج الى الاندماج بالهيكل العراقي ، الاجتماعي ـ السياسي ، الوطني . كما سنبحث في وعيها السياسي في فصل آخر[١] .

---

(١) انظر الصفحات التالية .

صحيح ان الصراعات الفلاحية لم تكن جديدة في العراق . الا ان العنصر الجديد في ثورة العشرين كان طابعها وإلهامها (القوميين) ، وقد اتضح هذا بجلاء في خمس حقائق وهي : ان الثورة كانت ثمرة اتحاد عشائري جماعي وواسع ، وانها كانت موجهة ضد السلطة المركزية ، وانها كانت تحمل مطالب وشعارات (الحركة الاستقلالية) نفسها ، وانها جرت بالتعاون مع القوميين والعلماء ، واخيراً انها اثرت على التطور السياسي القومي في العراق .

ومع ذلك ، تنبغي الاشارة الى ان الحركة الفلاحية والحركة (القومية الوطنية) لم تكونا بالضرورة متطابقتين . فقد احتفظت كل منهما بديناميتها واهدافها الخاصة . ونتيجة لتطورات اجتماعية ـ سياسية وتاريخية معينة حققت الحركتان بعض الوحدة والتفاعل . الا ان هذه العملية لم تصل حد التوحيد الكامل لهذين العنصرين المكونين للحركة الاستقلالية . وباختصار ، كان الفلاحون العراقيون يقتربون من مرحلة الوعي والنشاط الوطنيين والقوميين ، ولكنهم لم يتخطوا الجزء التمهيدي منهما .

ان الغرض من هذا هو ايضاح مصطلح (الفلاحين) ، ودراسة الدوافع الكامنة وراء انشغالهم بالسياسة ، وتقصّي العملية التاريخية لتدخلهم السياسي على النطاق الوطني . وسنبحث هذا الموضوع بمزيد من التفصيل في الفصل التالي . وسنبحث ذلك كله ازاء خلفية الخطوط العامة لسياسة الادارة البريطانية .

ان مساهمة الفلاحين في (السياسة) ، ودوافع هذه المساهمة ، واساليبها وابعادها ونتائجها ، قد اثارت اهتماماً وابحاثاً على نطاق واسع[٢] . الا ان الموضوع لا يزال ابعد من ان يكتسب نظرة موحدة . فبالنسبة لبعض الكتّاب ، وفي مقدمتهم فرانز فانون ، يعتبر الفلاحون رواد عهد انساني جديد . هم (وحدهم الثوريون) ، و(بروليتاريا عصرنا)[٣] . وبالنسبة لآخرين ، الفلاحون هم (البرابرة)[٤] ، هم (طبقة تمثل البربرية داخل الحضارة)[٥] . وحتى بعض المتعاطفين مع الفلاحين كانوا يعتبرونهم (فرامل للثورة)[٦] .

---

(٢) انظر مثلاً : Mehmet Beqiraj, *Peasantry in Revolution* (Ithaca, N.Y.: Cornell University, Centre for International Studies, 1966); Boguslaw Galeski, *Basic Concepts of Rural Sociology*, trans. from Polish by H.C. Stevens, edited by Teodor Shanin and Peter Worsley with the assistance of Ann Allen (Manchester, Eng.: Manchester University Press, 1971); J[ohn] A. Hobson, *Imperialism:A Study* (London: 1902); N.G. Ranga, *Revolutionary Peasants* (New Delhi: Amrit Book, 1949); Eric R. Wolf: «On Peasant Rebellions,» *International Social Science Journal*, vol. 21, no. 2 (1969); *Peasants* (London; Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1966), and Peter Worsley, *The Third World*, 2nd ed. (London: Weidenfeld and Nicolson, 1967).

(٣) Frantz Fanon, *The Wretched of the Earth*, trans. from French by Constance Farrington, Preface by Jean Paul Sartre (Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1967), p. 47.

(٤) Maxim Gorky, «The Barbarians,» in: Teodor Shanin, comp., *Peasants and Peasants Societies: Selected Readings* (Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1971), pp. 369-371.

(٥) Karl Marx and Frederick Engels, *Selected Works* (London: 1959), p. 159.

(٦) Fanon, *The Wretched of the Earth*, p. 47.

وجـادل كتاب آخـرون بأن الفـلاحـين يمتلكـون (روحـين) ، او (وضعـاً ازدواجياً) ، فهم ينزعون الى التقدم والتضامن الاجتماعي من جهة ، والى الجمود والفردية الانانيـة الضيقة من جهة اخرى(٧) .

وقد سبق ان اشرنا في هذا البحث ، في عدة مناسبات ، الى ان الحياة والواقع هما اغنى من اية تعميمات او مفاهيم تجريدية ، ويصـح هذا بـوجه خـاص على الفـلاحين العـراقيين ، الذين كانوا هيكلاً اجتماعياً معقـداً جداً ومليئـاً بالتنـاقضات الجسيمـة . ومن زوايا عـديدة ، يمكن التمييز بين الذين كانوا يعتمدون على الري والذين كانـوا يعتمدون عـلى مياه الامـطار ، وبين زراع الحبوب او التمور او الارز، وبين الفلاحين القريبين من النجف وكربلاء والبعيدين عنهما . ومن وجهة النـظر الاجتماعيـة ، يمكن ايضاً التمييـز بين المنـاطق التي كانت العـلائق الاجتمـاعية فيهـا تتمثل في التنـاقض بين الفـلاحين وحـائزي الاراضي، والمنـاطق التي كانت العلائق فيها تتمثل في التناقض بين الفلاحين من افراد العشائر والشيوخ .

الا ان هذا (الواقع) الحافل بالمتنـوعات لا يمكن ان يـطمس مصطلح (الفـلاحين) . فبـدون تحديـد مفهوم الفـلاحين ومجتمعـاتهم كهيكل اجتماعي، تتحـول هـذه الاطـروحـة الى (مطاردة للاشبـاح) . وفضلاً عن ذلـك ، فإن وجـود الفلاحـين كمفهوم واقعي (لا لفـظي بحت) يمكن تبريره والادعاء به لاسباب تجريـدية ومفـاهيمية معـاً . ويمكن الاشارة الى بعض الصفـات المشتركـة بين الفـلاحين العـراقيين : ويـرى تيـودور شـانـين ان بـالامكـان تحـديـد المجتمعات الفلاحية بتثبيت نمط عام ذي واجهات اساسية اربع :

« ١ ـ المزرعة الفلاحية العائلية (او القبليـة) باعتبـارها الـوحدة الاسـاسية للتنـظيم الاجتماعي المتعـدد الابعاد . . .

٢ ـ زراعة الارض باعتبـارها الـوسيلة الرئيسيـة للتعيش ، والتي توفـر بصورة مبـاشرة الجـزء الرئيسي من الحاجات الاستهلاكية . . .

٣ ـ الثقافة التقليدية الخاصة المتعلقة باسلوب حياة المجتمعات الصغيرة . . .

٤ ـ حالة القهر ـ اي خضوع الفلاحين للدخلاء »(٨) .

ويمكن القـول ، دون اي خروج عـلى الواقـع ، ان الشروط الآنفـة الذكـر كافـة كانت متوفرة بين الفلاحين العراقيين خلال الفترة موضـوع البحث . ومن وجهة النـظر المفاهيميـة ، فإن نزعة اعتبار الفلاحين كفكرة لا معنى لها ، هذه النزعة يمكن دحضها على اساس افتراضات متعلقـة بجوهـر علم الاجتماع . « ان التعميم السـوسيولـوجي لا يتضمن الادعاء بـالتجانس او محـاولة

---

(٧) V.G. Kiernan, «The Peasant Revolution,» *The Socialist Register* (London), (1970), pp.30-33.

(٨) Shanin, Comp., *Peasants and Peasants Societies: Selected Readings*, pp. 14-15.

افتراض التماثل . بل بالعكس ، ان الدراسة المقارنة تفترض ضمناً وجود التماثلات والاختلافات معاً ، والتي لا يمكن بدونها ان تكون ثمة فائدة في التعميم ، بطبيعة الحال »[٩] .

ما هي الدوافع الكامنة وراء اشتراك الفلاحين في (النضال) السياسي؟ لقد قيل ، على العكس من التفكير الرغبي Wishful Thinking لبعض الثوريين الرومانسيين ، انه من الصعب جداً على الفلاحين ان يخوضوا ثورة طويلة الامد . « ان الفلاحين يعانون مشقة خاصة في الانتقال من الاقرار السلبي بالمساوىء الى المساهمة السياسية كوسيلة لتقويمها »[١٠] . ويمكن الافتراض بأن الانخراط في نشاط سياسي على المستوى الوطني يشترط ، مسبقاً ، ادراكاً او نظرة مفاهيمية ذات طابع وطني . ان الفلاحين (في عهد ما قبل المواصلات وفي ظروف العراق الحسية) ، كانوا ، بحكم تركيبهم الاجتماعي ـ الاقتصادي ، يفتقرون الى هذه الرؤية . كان عالمهم محصوراً في حدود القرية والاسرة والعشيرة .

ان عزوف الفلاحين عن النشاط السياسي قد عُزي الى تركيبهم الاقتصادي والاجتماعي الفردي والتنافسي[١١] . وفضلاً عن ذلك ، فإن « طغيان العمل يثقل كاهل الفلاحين . . . وان التغيرات المؤقتة في الروتين تهدد قدرتهم على مواصلة الروتين فيما بعد »[١٢] . بالاضافة الى ذلك ، « فإن الفلاحين ، عادة ، قد ابعدوا عن المصادر الاجتماعية للقوة . ويرتبط قهرهم السياسي بخضوعهم الثقافي . . . »[١٣] . وعلى ذلك فقد قيل « ان فلاح الشرق الاوسط فقير ومستغل ، ولكن لا احد في المنطقة يتوقع منه التمرد . . »[١٤] .

ومع ذلك ، تبقى الحقيقة وهي ان الفلاحين العراقيين هبوا في انتفاضة مسلحة متواصلة كانت ذات اثر بعيد المدى . ومن هنا ، يكون من الانصاف القول بأن العوامل الآنفة الذكر قد تم تحييدها او نقضت بوجود عناصر مضادة اكثر فاعلية .

وقد جرت العادة ، عند تقويم الانتفاضات الفلاحية ، على اعطاء اهمية اساسية لوجود تقاليد تاريخية في العنف السياسي بين الفلاحين[١٥] . وكانت هذه التقاليد تفسر وتحدد تكرر الانتفاضات الفلاحية على حد تفسير ماوتسي تونغ[١٦] ، وقد قيل ايضاً انه في الاقطار

---

(٩) Ibid., p. 13.

(١٠) Wolf, «On Peasant Rebellions,».

(١١) Ibid., pp. 1-2.

(١٢) Ibid.

(١٣) Chanin, comp., *Peasants and Peasants Societies: Selected Readings*, pp. 14-15.

(١٤) Manfred Halpern, *The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963), pp. 87-88.

(١٥) James P. Harrison, *The Communists and Chinese Peasant Rebellions: A Study in the Re-writing of Chinese History* (London: Collancz, 1970), pp. 265 and 276.

(١٦) Mao Tse-Tung, *The Chinese Revolution and the Chinese Communist Party* (Peking: 1958), p. 78.

المستعمرة ، يكون الفلاحون ، الذين (وضعوا خارج النظام الطبقي) ، « هم اول من يكتشف ان العنف وحده الذي يجدي »[17] .

والواقع ان الفلاحين العراقيين كانوا ، اغنياء جداً بتقاليدهم في العنف السياسي والانتفاضات المتواصلة[18] . وقد لفت لوريمر الانتباه الى ثلاثة تمردات عشائرية مهمة جرت في القرن الثامن عشر بين بني لام (١٧٦٣) ، والخزاعل (١٧٦٣) والمنتفك (١٧٦٩)[19] . ويكفي ان نذكر ان فريق مزهر الفرعون سجل (١٥) انتفاضة فلاحية سياسية كبرى (في الفرات الاوسط)خلال القرنين الاخيرين من تاريخ العراق[20] .

كانت العوامل المحركة لهذه الاضطرابات الفلاحية المتواصلة تقريباً ، تكتسب شكلين اساسيين : الاول ، تمردات عشائرية موجهة ضد السياسات العقارية او الضريبية او التجنيدية للحكومة المركزية ، والثاني ، اصطدامات بين العشائر نفسها حول مشاكل الاراضي او المياه . وكانت الحكومة التركية غالباً ما تشجع الشكل الثاني من المصادمات ، التي كانت ذات طابع محلي واضح ، وتشكل عائقاً كبيراً امام نمو الوعي الوطني والقومي .

الا ان الشكل الاول للاضطرابات العشائرية ، بطبيعة كونه موجهاً ضد الحكومة المركزية،قد اتخذ بالضرورة طابعاً وطنياً (بدائياً) او (جنينياً) ، اما المراحل الاولى من هذه الحركات ، فإنها كانت محصورة غالباً ضمن حدودها المحلية ، الا انها اكتسبت في بعض الحالات ، شكل اتحاد عشائري اكثر سعة . فمثلاً ، ضمت انتفاضة عشائر المنتفك (١٩٠٩) اتحاداً بين العشائر ، وكانت موجهة ضد آل السعدون والاتراك على السواء . ان هذه الاشكال من الحركات العشائرية سمحت بظهور وعي وطني محدود تخطّى الحدود المحلية للنزاع واتجه الى التحالف مع القادة السياسيين في المدن البعيدة عن مسرح الصراع المباشر . ونود ان نعيد الى الاذهان انه في ١٩١٠ ظهر بعض التنسيق السياسي بين طالب باشا في البصرة وبعض الزعماء العشائريين في المنتفك والشامية والنجف ، وقد توصلوا جميعاً الى الاتحاد في صراعهم ضد الملاكين من بعض آل السعدون والحكم التركي .

وفي مطلع القرن الحالي ، اصبحت الاصطدامات العشائرية ـ الحكومية هي الشكل الطاغي ، في حين اخذ الصراع العشائري الداخلي في الاضمحلال . وكان هذا يعود الى حصول بعض التغيرات الاجتماعية ـ السياسية ، واهمها ادخال نظام الطابو والاجراءات الادارية لغرض المركزية .

---

(١٧) Fanon, *The Wretched of the Earth*, p. 48.

(١٨) حركة الزنج (٨٦٩ ـ ٨٨٣) والحركة القرمطية (٩٠١ ـ ٩٠٦) .

(١٩) John Gordon Lorimer, *Gazeteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia* (London: Holland, 1970), pp. 1127-1132.

(٢٠) فريق المزهر آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها (بغداد : مطبعة النجاح ، ١٩٥٢)، ص ٢٦ ـ ٣٥ .

وفي اجزاء كثيرة من العراق ، اخذت المنازعات العشائرية الداخلية حول الاراضي والماء تضمحل امام النزاع الاكثر صعوبة بكثير ، والدائر بين افراد العشائر والملاكين بموجب سندات الطابو . وهكذا نشب الصراع على ملكية الاراضي بين الفلاحين الذين زرع اسلافهم الارض منذ قرون ، والذين كانوا يكتفون بدفع الواردات الى الحكومة و« يمتنعون عن الدفع حين تواتيهم الجرأة على ذلك » ـ من جهة ، و« بعض الملاكين الغائبين المتنفذين الذين كانوا قادرين على ابراز سجل بسندات التملك ، المنظمة بشكل جيد ، والمرقمة بالتسلسل والتي يخص كل منها نفس المنطقة الواسعة . . . بدون ان تكون ثمة حدود مميزة ، او اية حيازة فعلية »(٢١) .

وغني عن القول ان الملاكين الغائبين لم يكونوا يفتقرون فقط الى الحيازة الفعلية للارض ، بل كانت تنقصهم ايضاً الوسائل والاساليب (باستثناء الدعم الحكومي) ، لوضع ادعاءاتهم موضع التطبيق ، ولذلك ، فليس من الدقة التحدث عن صراع بين الفلاحين والملاكين ، بل الاصح التحدث عن صراع بين الفلاحين والحكومة التي كانت تعمل بالنيابة عنهم (الملاكين) . ولولا الدعم الحكومي ، لبقيت سندات الطابو حبراً على ورق .

وبالاضافة الى ذلك ، فإن القوة المتعاظمة للاتراك ومركزيتهم العنيفة كانت مصحوبة بمطالبة متزايدة بالضرائب والمجندين . لذلك كان من المنطقي ان تكتشف العشائر ، خلال مقاومتها لهذه الاجراءات ، ان (نضالها) يجب ان يتجه ضد الحكومة المركزية ، وانه ليس بالامكان الصمود امام الضغط الحكومي المتصاعد الا باتخاذها موقفاً موحداً ، على الصعيد المحلي والوطني على السواء . ان هذا الاستنتاج اشر بداية الوعي الوطني والقومي ومهد الطريق امام المساهمة الفعلية للفلاحين العراقيين في السياسة القومية والوطنية .

ولاجل ايضاح الصورة ، ينبغي تقديم عرض تاريخي مختصر . ففي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، شهد العراق سلسلة من الانفجارات الفلاحية العنيفة ، الا ان هذه الحركات كانت ذات طابع فلاحي بحت ، بمعنى انها كانت محصورة ضمن مطاليب ومظاهر ودوافع فلاحية محلية ، ولم تكتسب اي من هذه الحركات طابعاً او دوراً (وطنياً) . الا ان هذا لا ينطبق على حركة ١٩٢٠ التي كانت مظاهرها واتصالاتها القومية بارزة للعيان . وكان هذا التغير جزءاً من عملية تاريخية بحيث ان ثورة العشرين كانت ثمرة سلسلة معينة من التطورات . ففي السنوات الاولى من القرن العشرين،طرأت تطورات سياسية جديدة ، فقد جرت اتصالات بين ساسة المدن والزعماء العشائريين واخذت السياسة العشائرية تكتسب دوراً يتخطى حدودها المحلية الى حد بعيد .

وفي خلفية هذا التحول ، تكمن تغيرات اجتماعية ـ اقتصادية معينة كانت تجري في العراق بالدرجة الرئيسية في مضمار علائق ملكية الارض . فقد كانت المنازعات العشائرية الداخلية تضمحل تدريجياً ليحل محلها شكل جديد في الصراع الاجتماعي الذي كان ، في

---

(٢١) Colonial Office [C.O.] 696/2 , «Administration Report of the Revenue Department, 1919,» p. 24.

الاساس ، نزاعاً حكومياً ـ عشائرياً . فلم تعد ملكية الارض ترتكز فقط على القوة القهرية ، واخذت القرارات الحكومية تكتسب اهمية متزايدة . ان نمو اقتصاد الربح (الذي كان يحل محل اقتصاد الكفاف) ، وتطور المواصلات النهرية والبرية ، والاجراءات الادارية لغرض المركزية ، كانت كلها عوامل اثرت في تقليص الفجوة بين المدينة والريف . كما ان انتشار الافكار الوطنية والزيادة العامة في الاهتمامات السياسية ، وهي ظواهر اتسم بها عهد الاتحاديين ، عززت هذا التطور .

وقد انعكست هذه العملية بين العناصر الاكثر ادراكاً من شيوخ العشائر، والذين فطنوا الى ان المساوىء التي كانوا يعانون منها سيكون بالامكان معالجتها بشكل افضل بالتنسيق مع (الساسة) في المدن . ومن هنا ، فلأجل الدفاع عن مطاليبهم الزراعية اساساً ، بدأوا بالبحث عن حلفاء بين ساسة المدن . ومن الجهة الاخرى ، ادرك السيد طالب النقيب ، بذكائه ، ان حماية وتعزيز سلطانه يتطلبان عقد محالفات معينة مع شيوخ العشائر . وعندما اسس طالب ، في ١٩١١ ، حزبه السياسي ، (حزب الحرية والائتلاف) حاول ان يكسب تأييد بعض الشخصيات العراقية والعربية . فكتب رسائل الى الشيخ عبدالله الفالح السعدون في المنتفك[٢٢] ، وعطية ابو كلل في النجف ، والسيد هادي زوين والسيد علوان الياسري في الشامية ، والشيخ مبدر الفرعون من عشيرة آل فتلة[٢٣] . واستناداً الى ما ذكره البصير ، اصبح الياسري والفرعون نصيرين قويين للافكار القومية . «لكن نشاطهما المناوىء للحكومة اتخذ شكلاً يتناسب مع الظروف الاجتماعية في منطقتهما . فقد شرعا بانتقاد الموظفين المحليين والتحريض ضد الضرائب والرسوم»[٢٤] . ان هذه الـ (لكن) تعكس اتجاه البصير الذي لم يكن يتصور التفاعل العميق بين تبني (الوطنية) واستنكار الضرائب . وان محاولة طالب ،والاستجابة العشائرية التي لقيها، وان كانت محدودة ، طرحت مثالاً رائداً .

ان العملية التاريخية التي بدأت خلال العهد التركي تعاظمت على نطاق واسع جداً خلال الحكم البريطاني ولاسيما بعد ١٩١٨ . وساهمت فعاليات القوميين وبعض المجتهدين في تعزيز هذه العملية .

ان هذا الفصل سيقتصر ، لاسباب كرونولوجية ، على بحث السياسة المالية للادارة في المناطق العشائرية . اما الفصل التالي فسيبحث مسألة اساسية هي موقف الادارة ازاء ملكية الارض والتركيب العشائري . وسيخصص قسم آخر لبحث مفصل في عواقب هذه السياسة وما ادت اليه ، بشكل غير مقصود ، من قيام التحالف القومي ـ الديني ـ العشائري .

---

(٢٢) كان فالح ينازع عجيمي السعدون على زعامة المنتفك . وقد انحاز الاخير الى جانب الاتراك في محاولة لوضع حد لنفوذ طالب المتعاظم .

(٢٣) سليمان فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات (بغداد : عبد الحميد سليمان ، ١٩٥٢) ، ص ٩٨ .

(٢٤) محمد مهدي البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ٢ ج (بغداد : ١٩٢٤) ، ص ٩٨ .

ويجدر بنا ، اولاً ، ان نلفت الانتباه الى حقيقة معينة ، وهي ان تقدم القوات البريطانية في العراق قد تم ، لاسباب عسكرية ، على امتداد نهر دجلة . ان عشائر دجلة لم تكن قد انهكت فقط في خضم الصراع العنيف، بل كانت ايضاً تدرك حقيقة الجبروت العسكري البريطاني . وهذا ما يلقي بعض الضوء على استكانة عشائر دجلة بالمقارنة مع عشائر الفرات التي لم تحنِ هامتها[٢٥] . وفضلاً عن ذلك ، فخلال ١٩١٤- ١٩١٨ ، تركت عشائر الفرات وشأنها لتتمتع بفترة طويلة من الحكم الذاتي معفاة من الضرائب والواردات الحكومية او الملاكية . ولم يحاول الانكليز اعادة سيطرة الادارة الا في ١٩١٨. وكان من المنطقي ان تجابه هذه المحاولة بسخط شديد . وقد ذكر انه « توجد في الظاهرة عدة اسباب لهذه الحالة النفسية (اي السخط على كافة اشكال الحكم) . فأولاً ، كانت هناك الحكومة السيئة، للاتراك قبلنا ، وطغيان آل السعدون قبلهم ، واخيراً كونها ، اي العشائر ، قد تمتعت بحلاوة التحرير التام تقريباً ، من اي نوع من الضغط الحكومي . . . »[٢٦] .

والواقع ان الادارة نفسها شجعت الاضطرابات العشائرية بسياستها التي كانت تمثل تحولاً لا يطاق من موقف متطرف الى آخر . فخلال الحرب كانت السياسة البريطانية تقوم على عدم إثارة العشائر . وقد تم ذلك « عن طريق تقديم الاعانات والمساعدات والاعفاء من الضرائب »[٢٧] . ولم يتم احتلال الفرات الا في ١٩١٨ ، وخلال الجزء الاعظم من تلك السنة « اضطر (معاون الضابط السياسي) الى البقاء ضمن اسوار تلك المدينة بسبب عداء العشائر »[٢٨] . وعلى اثر اعلان الهدنة ، قامت عشائر الفرات « بعد سنوات طويلة من التحرر من جمع الضرائب ، بدفع الواردات كاملة واعطاء الملاكين حصتهم من المحصول »[٢٩] .

الا ان هذه النقطة كانت ذات بعد اوسع . ذلك ان تقاليد الفلاحين في العنف السياسي قد عززتها وبررتها تجربتهم الحياتية التي صورت لهم ان (العنف يجدي) . وكانت المقاومة المتواصلة للفلاحين قد اقنعت الاتراك ، بمرور الزمن ، بـ « قبول مدفوعات اسمية فقط من حصة الحكومة »[٣٠] .

ان حجة ولسن القائلة بأن نسبة ضرائبه كانت مماثلة لما كانت عليه في ظل الاتراك ، هي فرضية سطحية ومضللة . فهي تتهرب من واقع ان « الواردات المطلوبة (للاتراك) لم تُجبَ ابداً بكاملها »[٣١] . وقد اعترف تقرير بريطاني رسمي بأنه « في عهد الاتراك كانت صرامة الشروط

---

(٢٥) انظر ايضاً الفصل الاول من هذا الكتاب .

(٢٦) Foreign Office [F.O.] 882/26, «Arab Bulletin, no. 36, September 18, 1917: Abstract from the Administration Report of the A.P.O., Suq al-Shuyukh,».

(٢٧) C.O. 696/4, «Administration Report, Muntafiq, 1921,» p. 18.

(٢٨) Ibid.

(٢٩) Ibid.

(٣٠) S. Haider, «Land Problems of Iraq,» (Ph.D. dissertation, University of London, 1942), p. 613.

(٣١) Ibid.

(الضريبية) مجمدة ازاء استحالة التنفيذ »[٣٢] . فمثلاً، كان شيوخ الشامية، تحت الحكم العثماني « يتبعون قوانينهم الخاصة ويدفعون الواردات او يمتنعون عن دفعها حسب رغبتهم (وفي حالة الدفع ، كانوا يدفعون مبالغ تقل كثيراً عن المطلوب)»[٣٣] . وفضلاً عن ذلك ، فقد ذكر ان اساليب الاتراك في تخمين الواردات « كانت تفسح مجالاً لسوء الاستعمال والفساد سواء في تقدير المحصول المتوسط . . . او (بالعين) . . . بحيث كان التخمين يقل كثيراً عن الحصة النظرية للدولة »[٣٤] .

وقد خلقت هذه الظروف بين الفلاحين الحالة الذهنية التالية : « ان واقع عدم دفع اية واردات عن الرز او التمور او الحنطة للاتراك لسنوات كثيرة ، قد كان له اثره ، لاسيما بين الجيل الفتي من افراد العشائر ، الذين اصبحوا بالنتيجة متعجرفين ، مغرورين ، متغطرسين . وان حججهم خشنة ولكنها منطقية ، وتجري على النحو التالي : اولاً ، ان عبارة (لاحكومة) تعني اننا نحتفظ بحاصلات او نقود يمكن ان تؤخذ منا ، في غير هذه الحالة ، على شكل واردات . وثانياً، اننا نحتفظ باراض اخرجنا منها مالكيها الشرعيين ، ولذلك لسنا مضطرين الى دفع (الملاكية) لأحد ، واصبحنا نملك رزاً واراضي جيدة مقابل لا شيء . ثالثاً ، اننا احياء ومستعدون للدفاع عن انفسنا بقوة سواعدنا ، وهو اسلوب في العيش محبب دائماً لدى المتوحشين (كذا) »[٣٥] .

ومع ذلك ، فيبدو ان مضامين هذه النظرة لم تكن موضع اعتبار جدي لدى اغلبية الموظفين البريطانيين،فإن اعادة فرض الضرائب في منطقة الفرات الاوسط قد اعتبرت من قبل معظم الضباط نصراً ادبياً وانجازاً ادارياً . وأن العواقب البعيدة لهذه الضرائب قد اغفلت ، او على الاقل انتقصت اهميتها .

وفي ١٩١٩ ، كتب معاون الضابط السياسي في قلعة سكر بلهجة متفاخرة : « ان هذه السنة كانت الاولى منذ ١٦ سنة ، والتي جبيت فيها اية واردات من المنطقة . ومن الجدير بالذكر ان الاتراك ، عندما ادركوا عقم جهودهم في تحصيل الواردات نظموا قبل الحرب (١٩١٤) بثمانية اعوام ، نظام جباية النصف من التجار المصدرين للحبوب في انحاء الكوت ، والقرنة ، وغيرها »[٣٦] .

اما التقرير السنوي لعام ١٩١٩ لمعاون الضابط السياسي في سوق الشيوخ فيكشف المزيد من الحقائق : « . . . ان حالة الاضطراب الشائعة بين عشائر المنتفك (ولاسيما تلك المحيطة بالسوق) ، وواقع انها لم تدفع ابداً اية واردات للاتراك خلال الـ ١٥ـ ٢٠ عاماً الماضية ، يجعلان اعادة فرضها امراً في غاية الحساسية في الواقع . ففي ١٩١٦ و١٩١٧،اصدر القائد العام لجبهة الفرات ، الجنرال السير

---

(٣٢) C.O. 696 1, «Hillah Administration Report, 1918,» p. 135.

(٣٣) C.O. 696 2, «Administration Report of Shamiyah, 1919,» p. 1.

(٣٤) Haider, «Land Problems of Iraq,» p. 613.

(٣٥) F.O. 882 26, «Arab Bulletin, no. 36, September 18, 1917, Abstracts from the Administration Report of the A.P.O., Suq al- Shuyukh,».

(٣٦) C.O. 696 2, «Muntafiq Division Annual Report for 1919, Qal'at Sikor,» p. 47.

جورج بروكنك ، اوامر بعدم جباية اية واردات بالنسبة للحبوب . وقد كان هذا تصرفاً حكيماً ، حيث من المرجح ان اية محاولات لجبايتها كانت ستؤدي الى مقاومة مسلحة وربما عصيان مكشوف . . . »[٣٧] .

لذلك نجد من الغريب ، مع مثل هذا الفهم للظروف التاريخية ، ان يمضي التقرير الى القول : « . . . خلال ١٩١٨ جرى احصاء دقيق لكافة نخيل السوق . . . وقد جبيت الواردات عن الحاصل الشتوي او الحنطة والشعير لعام ١٩١٨ بنسبة العشر . وستزداد هذه النسبة ايضاً خلال ١٩١٩ ، ولذلك فمن المرجح ان تتضاعف الواردات من هذا المصدر مرتين، او ثلاث مرات ، خلال العام القادم »[٣٨] .

وبالاضافة الى تقسيم المنتفك (الذي كان يضم الناصرية ، والسوق ، والشطرة ، وقلعة سكر) ، كانت ثمة مناطق عشائرية اخرى ، تضم الفرات الاوسط (الحلة والديوانية والرميثة والسماوة وعفك والدغارة والشامية وابو صخير والهندية والرستمية والكفل والكوفة) ، وتشترك جميعها في بعض الخصائص العامة التي سنبحثها في الموضع المناسب . الا انه ، بقدر ما يتعلق بالضرائب ، يجدر الذكر ان معظم العشائر المتوطنة في هذه المنطقة كانت تتهرب من دفعها، فقد قاومت كافة المحاولات التركية لجباية الضرائب ، وسمح لها بالاستمرار على ذلك في المرحلة الاولى من الاحتلال البريطاني . الا انه في اواخر ١٩١٨ واوائل ١٩١٩ ، تم (اخضاع) هذه المناطق ، مؤقتاً على الاقل ، من قبل البريطانيين : فقد فرضت الضرائب وتمت جبايتها .

وفي ١٩١٨، قدم الضابط السياسي في الحلة ، الشرح التالي للاوضاع في الديوانية : « لاسيما بالنسبة للديوانية ، حيث كانت العشائر شوكة دائمة في جنب الحكومة التركية . فقد كانت تدفع ضرائب قليلة او لا تدفع اية ضرائب على الاطلاق ، وحدث اكثر من مرة انها اضطرت القوات التركية ، المرسلة لجبايتها على الانسحاب بسرعة . . . ان التغير الذي احدثه الكابتن دالي في الشهور التسعة التي تولى خلالها المسؤولية في مناطق اخرى ، يمكن تقديره من حقيقة ان ١٠,٠٠٠ طن من حبوب الواردات قد تم تسليمها ، في حين ان العشائر نفسها قد أقنعت بوجوب تهديم الغالبية العظمى من حصونها »[٣٩] .

وقبل شباط / فبراير ١٩١٩، كان قضاء الديوانية داخلاً ضمن تقسيم الحلة . وكانت الرميثة والسماوة تؤلفان وحدة ادارية منفصلة تعرف بتقسيم السماوة . وخلال المراحل الاولى من احتلال الفرات الاوسط ، ارتأت الادارة ان (المصلحة) تقتضي تقديم اعانات لعشائر مختلفة . « كان كل شيخ تقريباً في تقسيم السماوة لقضاءي السماوة والرميثة يتلقى مخصصات شهرية »[٤٠] . وعليه ، فعندما دفعت الديوانية ، في ١٩١٨ ، (وارداً كبيراً) ، كان وضعها يتناقض بعض

---

(٣٧) C.O. 696/1, «Administration Reports, 1918 Suq al-Shuyukh,» p.382.
(التشديد من المؤلف) .
(٣٨) المصدر نفسه .
(٣٩) C.O. 696/2, «Administration Report of Diwaniyah Division for 1919,» p. 1.
(٤٠) المصدر نفسه ، ص ١ .

الشيء مع القضاء المجاور (الرميثة) التي لم تدفع شيئاً تقريباً ، بالرغم من ان الاوضاع الزراعية في القضاءين كانت متماثلة . ولأجل تغيير هذا الوضع ، قرر المندوب المدني اخراج قضاء الديوانية من تقسيم الحلة . وفي شباط / فبراير ١٩١٨ اسس تقسيم جديد يضم اقضية الديوانية ، وعفك والسماوة والرميثة وسمي بتقسيم الديوانية . اما دالي ، الذي رفّع الى رتبة ميجر ، والذي كانت جهوده الناجحة في قضاء الديوانية موضع التقدير ، في حين غض الطرف عن (خشونته) ، فقد عين ضابطاً سياسياً للتقسيم الجديد .

ولدى تعيينه ، قرر الميجر دالي اخضاع اتحاد بني حجيم الذين كانوا حتى ذلك الحين قد « دفعوا قليلاً من الواردات او لم يدفعوا شيئاً ، والذين كان سلوكهم على غير ما يرام »[٤١] . وكان هدف الميجر دالي هو حمل آل حجيم على (الطاعة) ليكونوا مثل عشائر الديوانية وعفك ، التي كانت ، (بفضل جهوده) ، « قد تصرفت في ١٩١٨ واوائل ١٩١٩، بشكل نموذجي . . ودفعت واردات ضخمة لاول مرة في التاريخ الحديث ، وهدمت تحصيناتها وسلمت اسلحتها طوعاً »[٤٢] .

وعليه ، استدعي شيوخ السماوة والرميثة الى الديوانية لمقابلة ضابطهم السياسي الجديد وشيوخ الديوانية وعفك (الذين كان المؤمل ان يحذوا حذوهم) . الا ان ذلك لم يتحقق ، وبدلاً من ذلك ، عزا شيوخ الرميثة والسماوة الطاعة التي ابداها شيوخ الديوانية وعفك الى الخوف ، وانبروا لادانة هؤلاء ووصموهم بـ (الجبن)[٤٣] . وفي طريق عودتهم الى الرميثة ، حلفوا اليمين امام ضريح الحمزة بمقاومة كل محاولات الادارة .

وقد قدم الميجر دالي الشرح التالي للوضع الدقيق الذي كان يواجهه : « لقد واجهت آنئذٍ مشكلة صعبة فقد كان بامكاننا ، من جهة ، ان نترك الرميثة وشأنها على اساس انه من الافضل عدم خلق وضع محرج ، او كان علينا ان نقبل التحدي باعتبارنا سلطة ، ان السبيل الاول كان من شأنه ان يؤدي الى نتائج خطيرة ، فقد كانت القبائل الاخرى برمتها تراقب الاحداث ، وكانت ستستأنف سلوكها الفوضوي السابق لو اننا تركنا الرميثة تتحدى الحكومة دونما عقاب . . . وقد ارسلت قوة صغيرة لحماية الرميثة من العشائر ، كما جرت غارات جوية لبضعة ايام . . . وكانت النتائج مرضية ، وقضت شروط الصلح ، التي تم عرضها ، بهدم الاستحكامات وتسليم الاسلحة . ومنذ ذلك الحين اخذت عشائر الرميثة تتصرف بشكل جيد للغاية ، واصبحت تدرك بنفسها مدى الفوائد والراحة المترتبة على الزراعة السلمية »[٤٤] .

ومن الغريب ان نجد الادارة قد خدّرت نفسها باحساس زائف بالامان . كانت الادارة مقتنعة بأن « العشائر كانت راضية عن الحكم البريطاني وانها مستعدة بشكل سريع لإطاعة الاوامر »[٤٥] .

---

(٤١) المصدر نفسه .
(٤٢) المصدر نفسه . (التشديد من المؤلف) .
(٤٣) المصدر نفسه .
(٤٤) المصدر نفسه .
(٤٥) C.O. 696/1, «Report of Administration for 1918, Samawah,» p. 55.

وحتى « في حالة قيام اية انتفاضة » ، كما كتب الضابط السياسي في السماوة والشنافية والرميثة ، « فإني اعتقد انها ستخمد بسهولة »(٤٦) . وفي كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ ، ابلغ الميجر دالي المندوب المدني بأن العشائر في منطقته مقتنعة اقتناعاً قوياً جداً بوجوب استمرار الشكل الحالي (للحكم) »(٤٧) . ولقد جادل الميجر دالي ايضاً بأن « منطقة الفرات الاوسط هي الاكثر رخاء في العراق ، وتوفر معظم واردات البلاد ، وهي تستحق ان يكون لها صوت في تقرير مقدراته - ان صوتها الآن ضعيف ، ولا يمكن مقارنته بضجيج هواة السياسة في بغداد ، وموظفي الاتراك السابقين ، السُّنّة ، المخيبي الآمال ولكن بعد عشر سنوات من الآن، ستكون لها ،(كلمة مسموعة) مسموعة جداً » . ويمكن الافتراض بأن الميجر دالي شعر بالخيبة والمرارة عندما ارتفعت (كلمة) عشائر الفرات الاوسط خلال اقل من عشرة شهور .

ويظهر ان هذا الرأي كان سائداً بين الموظفين البريطانيين في العراق . فخلال الاسبوع الاول من كانون الاول / ديسمبر ١٩١٧، زار المندوب المدني الحلة وطويريج والكوفة والنجف وكربلاء . وتوصل الى رأي مفاده انه « ليس هناك احتمال بقيام اية انتفاضة جدية من جانب عشائر الفرات ، حيث ان تسع عشائر يقدرون الاعمال التي يجري انجازها (من قبل الادارة)»(٤٨) . وفي شباط / فبراير ١٩١٨ ، طرح ولسن حجة غريبة مفادها « ان كل الشخصيات (العراقية) الرئيسية قد انزعجت كثيراً من البيان الاخير . . . الذي يشير الى ان مستقبل هذه البلاد . . . سوف يتقرر في مؤتمر الصلح ، او ستجرى تسويته مع احترام رغبات السكان »(٤٩) . ولا بد من ان هذا التفاؤل (المفرط) بالنسبة للميول الموالية لبريطانيا لدى العشائر العراقية ، كان مبعثه الخلط بين الميول الحقيقية والفعلية والتصريحات الصادرة بدافع الرياء .

وبعد اقل من شهر من صدور ملاحظة ولسن هذه ، ذكر رسمياً في آذار / مارس ١٩١٨، ان بني عارض، وهي عشيرة قوية تقيم على ضفة النهر من فرع الحلة للفرات (بين السماوة والرميثة) ، قد اتخذت (موقفاً تهديدياً)(٥٠) . وبعد ذلك بشهر ، ذكر ان العشيرة نفسها كانت تتهيأ لتكوين اتحاد ، « يهدف الى منع تخمين اراضيها لفرض جباية الواردات عن الحاصلات التي على وشك الحصاد »(٥١) . وفي اواخر ايام ١٩١٨ ، « قذف الضباط البريطانيون بالطين في شوارع

---

(٤٦) المصدر نفسه .

(٤٧) F O 371 / 5220 / E. 5723, «Baghdad Despatch, January 9, 1920, Enclosing a Copy of Letter Dated January 6, 1920, from P.O , Diwaniyah, Report on the Views of the Notables in His District.»

(٤٨) F.O. 371 / 3397 / 81648, «Fortnightly Report by P.O.S., Mesopotamia, no.3, Report Ending 95 December 1917.».

(٤٩) F O 371 / 3397 / 87149, «Fortnightly Report no. 7, Report for the Period between 1 to 15 February 1918.».

(٥٠) F O. 371 / 3397 / 165202, «Fortnightly Report no. 9, Dated 1 to 15 March 1918.» section A, paragraph 6.

(٥١) F.O. 371 / 3397 / 165202, «Fortnightly Report no. 9, for the Period 15 April to 1 May 1918.» section A, paragraph 2.

الرميثة »[٥٢] ، ورفض البوجريب « السماح بتخمين حاصلاتهم لجباية الواردات » . وفي ٣١ ايار / مايو ١٩١٨ ، تم قصف بعض القرى في قضاء الرميثة من قبل القوة الجوية الملكية[٥٣] .

وفي ايار / مايو ١٩١٩ ، تحدت عشائر الرميثة الادارة مرة اخرى « وجرت غارات جوية لبضعة ايام »[٥٤] ضد قرى هذه العشائر ، واستناداً الى اقوال الادارة البريطانية ، « كانت النتائج مرضية وتمت الموافقة . . . على تهديم الحصون وتسليم الاسلحة »[٥٥] . وذكر الضابط السياسي في الحلة في تقرير له عام ١٩١٩ ، ان بعض الفعاليات قد نشبت في الحلة والمسيب من قبل « الحزب المناهض لبريطانيا في العراق »[٥٦] . ووصلت زوارق مسلحة بريطانية من بغداد وقامت بدوريات بين (السدة وامام حمزة) ، و« اطلقت نيران مدافعها على اراضي العشائر المشتبه بها »[٥٧] . وفي السنة نفسها ، ذكر الميجر دالي ان الدعاية (الشريفية) قد انتشرت في انحاء الديوانية[٥٨] .

ذكر التقرير السنوي لدائرة الواردات لعام ١٩١٩ انه كانت ثمة صعوبات في جباية الواردات « في بعض اجزاء بعقوبة والناصرية وقضاء عفك في الديوانية . وفي قضاء الرميثة جرت محاولة للقيام بمقاومة منظمة ، الا انها انهارت . . . »[٥٩] .

ان السخط الواضح على نظام الضرائب ، والذي ابداه الفلاحون العراقيون ، يجب ان لا ينظر اليه كمجرد نتيجة لنزعات فوضوية ، فقد كانت شكاوى الفلاحين حقيقية ، ومبررة ، وعميقة الجذور . وقد قيل انه « لم يحدث في اي جزء من العالم ان تعرض الانتاج الزراعي لضرائب فادحة كالتي شهدتها منطقة الري (في العراق) خلال هذه الفترة (١٨٩٠- ١٩٣٧) »[٦٠] . ويمكن ان نضيف الى هذا القول المبرر انه لم يحدث في اي زمن ان اجبر الفلاحون العراقيون في الفرات الاوسط على دفع ضرائب كالتي دفعوها خلال الفترة ما بين ١٩١٨ و١٩٢١ ، كما يتضح من الجدول رقم (١٠ - ١) :

---

(٥٢) F.O. 371/3397/165202, «Fortnightly Report no.14, for the Period 15 May to 1 June 1918,» section A, paragraph 5.

(٥٣) المصدر نفسه .

(٥٤) C.O. 696/2, «Administration Report of Diwaniyah Division for 1919,» p.10.

(٥٥) المصدر نفسه .

(٥٦) C.O. 696/2, «Administration Report of Hillah Division for 1919,» p.27.

(٥٧) المصدر نفسه .

(٥٨) C.O. 696/2, «Administration Monthly Report of Diwaniyah Division for August 1919,» p.25.

(٥٩) C.O. 696/2, «Administration Report of the Revenue Department, 1919,» p.3.

(٦٠) Haider, «Land Problems of Iraq,» pp.615-616.

جدول رقم (١٠ ـ١)
واردات الارض السنوية المجباة في العراق

السنة	باوند	السنة	باوند
١٨٨٩/ ١٨٩٠	٣١١٩٢٩	١٩١٠/ ١٩١١	٥٢٧١٧٥
١٩١٨/ ١٩١٩	١٤٦١٧٢٥	١٩٢٠/ ١٩٢١	١٦٨٧٩٢٩
١٩٢٢/ ١٩٢٣	٨١٦٣٠٠	١٩٢٤/ ١٩٢٥	٩٤٦٣٥٠

المصادر : احتسبت من : ـ بالنسبة للسنة ١٨٨٩ / ١٨٩٠ :

S. Haider, «Land Problems of Iraq,» (Ph.D. dissertation, University of London, 1942), p. 702.

ـ بالنسبة للسنة ١٩١٠ / ١٩١١ : سعيد حمادة ، النظام الاقتصادي في العراق (بيروت : المطبعة الاميركية في بيروت ، ١٩٣٨) ، ص ٤٦١ .

ـ بالنسبة للسنة ١٩١٨ / ١٩١٩ :

Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers- Cmd. 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: His Majesty's Stationary Office, 1920), p. 118.

وقد ورد الرقم بالروبيات ٢١٧٤٧٤٣٠ ، بضمنها واردات الارض و« الكودة » . وقد بلغت « الكودة » عام ١٩١٨ / ١٩١٩ ما مجموعه ٢٢٥٧٧٥٥ روبية ؛ انظر : Colonial Office [C.O.] 696/, «Kodah Revenue Annual Report,» p. 2.

وقام المؤلف باحتساب بقية المبلغ بالباوندات .

ـ بالنسبة للسنة ١٩٢٠ / ١٩٢١ :

Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), p. 224.

ـ بالنسبة للسنة ١٩٢٢ / ١٩٢٣ :

Sir V.H.W. Ernest Dowson, *An Enquiry into Land Tenure and Related Questions: Proposals for the Initiation of Reform* (Lechworth, Eng.: Garden City Press for Iraq Government, 1931), p. 16.

وقد ورد الرقم في الاصل بالروبيات .

ـ بالنسبة للسنة ١٩٢٤ / ١٩٢٥ : المصدر نفسه ، المعدل السنوي .

يتضح من هذا الجدول ان واردات الارض تضاعفت ثلاث مرات خلال عشر سنوات . وبعد ادراك عواقب الزيادة ، جرى تخفيض الواردات بصورة حادة (حوالى ١٠٠ بالمائة) خلال عامين فقط .

وفي ١٩٢٠ ، دفعت المنتفك والديوانية والشامية ، معاً ، ٤١٤,٩٨٢ باوند[٦١] . الا

---

(٦١) C.O. 696/3, «Budget Estimates, 1920,» part 4.
الرقم بالروبيات .

ان المصروفات على المنطقة نفسها لم تتجاوز ١٤٣,٧٠٨ باوند[٦٢] . وفي ١٩١٩ دفعت المنتفك وارداً قدره ١٢٤,٦٣٦ باوند[٦٣] . وفي ١٩٢٦ ، لم يتوجب عليها ان تدفع سوى ٧٥,٢٠١ باوند[٦٤] .

ان الزيادة الكبيرة في الضرائب على الانتاج الزراعي لم يكن لها اي مبرر في ما يتعلق بتحسين الزراعة ، وذلك خلاف ما كان عليه الحال في التجارة . بل الواقع ان الوضع الزراعي تدهور بشكل خطير. ذلك ان ظروف الحرب سببت انخفاض انتاج الحبوب في ١٩١٨ الى ربع ما كان عليه في ١٩١٣[٦٥] . ولم يستعد هذا الانتاج مستوى ما قبل الحرب الا في اواسط العشرينات[٦٦] . وفي اواخر ١٩١٧ ، لخص تقرير بريطاني رسمي الوضع الزراعي بالعبارات التالية : « في خانقين يعاني الناس المجاعة ، وليس هناك اية زراعة . . . وقضاء سامراء يعاني من نقص في الغذاء والعلف . وفي اطراف بغداد . . . لم يكن ثمة ما يكفي من البذور للمجازفة بتحصيل غلة في الاراضي السيحية . . وعلى الفرات ، لم يتم الحصول على اذن بارسال البذور الى الفلوجة والرمادي الا في نهاية تشرين الثاني / نوفمبر ، واصبح من المتعذر ، لاسباب عسكرية ، تطوير المنطقة بشكل مكتمل »[٦٧] .

وفي اواخر ١٩١٧ حذر المندوب المدني في العراق من ان « المجاعة تهدد السكان المدنيين »[٦٨] . ووصف ولسن الاوضاع الزراعية بالعبارات التالية : « . . . كانت الحاصلات على فرع الهندية من الفرات . . . محرومة تماماً من الماء ، وفي قضاء الهندية لم يكن هناك اي محصول بالمرة . وعلى امتداد فرع الحلة من النهر . . . كانت غلة الحاصل الناضج ضئيلة جداً . وقد غمرت المياه مدينة كربلاء والاراضي المحيطة بها . . . كما ان محصول الرز المبذور في منطقة الشامية . . . كان فاشلاً الى حد كبير . وقد كانت هناك بضع مضخات في قضاء الديوانية ، الا انها تعطلت عن العمل لعدم توفر النفط ، كما ان القنوات قد امتلأت بالغرين منذ امد طويل . . . وعلى دجلة ، امتداداً من سامراء الى اطراف بغداد ، آلت جميع المزروعات الى التلف بسبب العمليات العسكرية . . . وبالقرب من بغداد ، انقطعت الامطار . . . وفي منطقة بعقوبة دمرت العمليات العسكرية عدة ايكرات من الحبوب . . . وقد تدهورت القنوات في كل مكان . ففي منطقة الحلة الغنية ، في فترة احتلالنا ، كانت هناك ٥٤ قناة ، وكلها في حالة سيئة جداً »[٦٩] .

---

(٦٢) المصدر نفسه ، الباب الخامس .

(٦٣) C.O. 696/4, «Administration Report, Muntafiq, 1921,» p. 13.

(٦٤) *Report on the Operations of the Revenue Department, Ministry of Finance, 1926-1927* (Baghdad: 1927), p. 23.

(٦٥) محمد سلمان حسن ، طلائع الثورة العراقية : العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الاولى (بغداد : مطابع جريدة الجمهورية ، ١٩٥٨) ، ص ١٤ .

(٦٦) المصدر نفسه .

(٦٧) F.O. 371/3406, «Administration Report, Department of Revenue, Baghdad, 1918,» p. 31.

(٦٨) Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1030), p. 56.

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٥٥ - ٥٦ .

واشار ولسن ايضاً ، الى انه خلال ١٩١٨ « عانت حتى بساتين النخيل من قلة الايدي العاملة . . . وقد تركت الاشجار دون تنظيف ، والارض بدون حراثة لمدة ثلاث او اربع سنوات ، ونتيجة ذلك تضاعفت الآفات الحشرية »[٧٠] .

والواقع ، انه في اواخر ١٩١٩ ذكر الضابط السياسي في الشامية في تقرير له : « . . . ان الغالبية العظمى من السكان قد غشيتها سحابة خيبة الامل لعدة اشهر ، بسبب تلف محاصيلها الشتوية ، بفعل الارادة الالهية واخطاء البشر معاً . . . ان الفيضانات ، والبرد ، والجراد ، واخفاقات المشاريع الاروائية ، قد لعبت كلها دورها في الامر ، حتى بلغ عبء الخسارة والخيبة حداً من شأنه ان يؤدي الى اضطرابات خطيرة ، في ظل اية ادارة غير الادارة البريطانية »[٧١] .

ومما زاد في تفاقم هذه الصعوبات المرهقة ، الارتفاع الحاد في اسعار المواد الضرورية بالنسبة للفلاحين العراقيين . ففي الفترة ما بين ١٩١٣ و١٩١٨ ، ارتفع سعر الارز بنسبة ١٥٠ بالمائة ، وتضاعف سعر الشاي ثلاث مرات ، وسعر السكر خمس مرات[٧٢] .

ان هذه الظروف لم تكن من صنع الانكليز مباشرة بقدر ما كانت نتيجة الاوضاع التي خلقتها الحرب . ومع ذلك فإن الادارة البريطانية ، في سياستها الضريبية ، قصرت كما يبدو عن تقدير المصاعب المالية للفلاحين . وعلى اية حال ، فإن الزيادة السنوية في الواردات الزراعية كانت على الدوام ترتبط وتفسر بكفاءة الضباط موضعياً ، اكثر منها بأية زيادة مفترضة في الانتاج الزراعي .

وقد ادرك المندوب المدني ، بعد فوات الاوان ، المخاطر الناجمة عن الوضع الذي خلقته السياسة المالية للادارة ، وقبل يوم واحد فقط من نشوب الثورة ، ابلغ ولسن وزارة الهند بـ« ضرورة تسوية في الاراضي بشكل ناجع وتنظيم الضرائب بشكل حكيم »[٧٣] . واشار الى ان الوضع في الناصرية « ليس مرضياً » . نظراً لأن « الاقضية التي ترويها مياه الحي لا يمكن ان تصلها القوات على الاطلاق » . ومع ذلك ، لم ينس ولسن ان يذكر رأيه في « ان الوصول الى حل دائم يقتضي منا البحث . . . لا عن تغيرات سياسية لا يطالب فيها احد . . . بل عن تسوية ناجعة للاراضي ، وهي مهمة لا تتوفر لدى الادارة حالياً الملاكات الخبيرة الضرورية لتنفيذها ، وكذلك عن اسلوب حصيف لتنظيم الضرائب »[٧٤] .

ولدى وصول برقية ولسن ، ادرج الميجر يونغ الملاحظة التالية : « لا اتفق مع الكولونيل ولسن في قوله ان التغيرات السياسية لن توفر الحل . وقد اخبرني الكولونيل كوردن ووكر ، ضابط البصرة ، ان

---

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٧١) C.O. 696/2, «Administration Report of Shamiyah, 1919,» p. 1-2.

(٧٢) حسن ، طلائع الثورة العراقية : العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الاولى ، ص ١٥ .

(٧٣) F.O. 371/5227/E. 7725, «Dated 20 June 1920, no.7825,».

(٧٤) المصدر نفسه .

ضرائبنا الفادحة ، التي لا تقابلها منافع مماثلة ، تثير استياء كبيراً لدى العشائر العربية ، التي لم ينجح الاتراك قط في اقتطاع اي واردات منها . . . ان الوضع يتفاقم في الحقيقة بشكل خطر . . . وهو بحاجة الى التهدئة . . . ان الالوية والبطاريات هي كل ما يتفتق عنه ذهن ولسن (وهي ليست العلاج الصحيح)»(٧٥) .

ان اهمية عبارات يونك لم تكن تكمن في معارضته لافكار ولسن فحسب، بل ان يونك كان يدعو الى اتباع سياسة جديدة مختلفة في العراق ، تعطي مؤشراً عن المستقبل ، وترتكز في الاساس على اقامة ادارة عربية وتخفيض الضرائب بنسبة كبيرة . ان الصراع لم يكن شخصياً او تافهاً ؛ كان صداماً بين نظريتين واسلوبين مختلفين ، بين رؤ ية (كولونيالية) عتيقة وغير واقعية ، ونظرة (امبريالية) (عصرية وعملية) .

وفي محاولة لاستبعاد العامل (الاقتصادي) في نشوب الثورة ، جادل ولسن بأن « الثورة نشبت في قضاءين كانا في ١٩١٩ والسنوات السابقة لا بد يتحملان اعباء خفيفة جداً . وباستثناء جزئي واحد ، فإنها منذ ذلك الحين بقيت محصورة في اقضية ينطبق عليها نفس الامر . . . وكانت هذه المناطق في (ايام) الاتراك لا تخضع لأي سيطرة ولا تدفع عملياً اي واردات . وهي لم تشهد اي جيوش بريطانية ولم تخضع لأحد قط . ان موقفها فيما يتعلق بنشوب الثورة ليس الاحتجاج على ضرائبنا ، بل بالاحرى التمرد على اي نوع من الحكومة المستقرة ، وذلك بوحي من الدعايات الحاقدة . . .»(٧٦) .

ان الظروف والاوضاع التي لخصها ولسن كانت صحيحة ، الا ان استنتاجه كان خطأ . فخلافاً لاستنتاجه ، كان من المنطقي بالنسبة للمناطق التي تهربت من الضرائب في الماضي ولم تخضع لاحد ، ان تبدي اشد المقاومة لمحاولات الادارة . وقد قيل ان الفلاحين المقيمين في المناطق المحيطة خارج ممتلكات الملاكين والسيطرة الحكومية كانوا ، اذا استعملنا التعبير الثقافي ، الحملة الرئيسيين لتقاليد الفلاحين ، وكانوا يشكلون مرتبة محافظة . الا ان المرتبة الفلاحية ، اذا نظرنا اليها من زاوية سياسية هي الاكثر فعالية في تفجير النظام الاجتماعي عندما تجري محاولة فرضه عليهم(٧٧) .

وبعد نشوب الثورة بأيام قلائل ، ابلغ ولسن وزارة الهند ان مطالب قادة الثورة هي « طرد البريطانيين نهائياً من ما بين النهرين واقامة مملكة اسلامية » . وان ذلك « يعني الدولة الثيوقراطية التي هي مثلهم الاعلى ، وهو يعني بالنسبة للعشائر ، عدم وجود حكومة على الاطلاق ، او حكومة يديرها رؤساء يمكن تجاهلهم ، وهو بالنسبة لاقلية صغيرة من اهل المدن ، يعني تنصيب امير»(٧٨) .

وربما كان تشخيص ولسن صحيحاً تماماً . فعلى اية حال ، وعلى حد قول إرك ولف ،

---

(٧٥) المصدر نفسه .

(٧٦) F.O. 371/5076- no. 8284, «Dated 21 July 1920,».

(٧٧) Eric R. Wolf, «The Peasantry as a Class,» in: Shanin, comp., *Peasants and Peasant Societies: Selected Readings*, pp. 262- 270.

(٧٨) F.O. 371/5228/E. 9849, «Dated 12 July 1920,».

« ان (المدينة الفاضلة) بالنسبة للفلاح هي القرية الحرة ، التي لا تخضع لجباة الضرائب او مجندي الايدي العاملة ، او الملاكين الكبار ، او الموظفين . . . وهم ايضاً يفتقرون الى اي معرفة بعمل الدولة كجهاز معقد ، ولا يشعرون نحوها الا شعورهم ازاء (وحش قاس) . . . ان الدولة بالنسبة للفلاحين هي كمية سالبة، هي شر ينبغي ابداله دون ابطاء بنظامهم الاجتماعي (المصنوع محلياً) . وهذا النظام ، حسب اعتقادهم ، يمكن ادارته من غير حاجة الى الدولة »(٧٩) .

وحجة ولسن الاخرى هي « ان العبء الفعلي لواردات الارض . . . يقع على الشيوخ والسراكيل وحاملي سندات الطابو . ومن المعترف به ان هذه الطبقات الثلاث ازدادت غنى بعد الاحتلال البريطاني»(٨٠) . وهذه الحجة تهدف الى استبعاد عامل (الافقار) كأحد اسباب الثورة . ومرة اخرى ، كان شرح ولسن صحيحاً الا ان استنتاجه كان خطأ .

ان الميل الى اطلاق صفة الجهادية السياسية على الفلاحين الفقراء الذين ليس لديهم ما يفقدونه) هو فكرة شائعة اوجدها الادب الماركسي ، خاصة بعيد الثورة الصينية ، الا ان هذه الفكرة ليست بالضرورة المرآة الوحيدة للحقيقة الاجتماعية . فقد لوحظ ان (الفلاحين المتوسطين) يؤلفون ، في بادىء الامر ، العنصر الاكثر جهادية بين الفلاحين ولاسيما في توليد الحافز الاولي لـ (الثورة الفلاحية)(٨١) . وقد برر حمزة علوي هذه الفكرة على اساس الافتراض بأن الفلاح المتوسط هو نسبياً ، الاكثر تأثراً بالتغيرات الاجتماعية التي تولدها النزعة التجارية ، في حين تبقى علائقه الاجتماعية محصورة ضمن الاطار التقليدي . كما ان الفلاحين المتوسطين هم الاقل استعداداً لتحمل النهب الذي يمارسه جباة الضرائب او الملاكون . وفضلاً عن ذلك ، فإن الفلاحين المتوسطين هم (ايضاً الاكثر تعرضاً لتأثيرات العالم الخارجي المتطور)(٨٢) .

لقد قاد ثورة العشرين ، بين الفلاحين ، الشيوخ غير المتملكين، والسراكيل والفلاحون (الاحرار) . وان سقوط نظام الاتحادات العشائرية الكبيرة قد اتاح لهذه الفئات الظهور باعتبارها الزعامة العشائرية الصاعدة القادرة على قيادة افراد العشائر الآخرين . وان سياسة الادارة في مايتعلق بالضرائب والاراضي والعشائر قد سرعت بعملية ادماج الفلاحين ضمن النظام الاجتماعي ـ السياسي الوطني واثارت السخط العميق لدى غالبيتهم . كما ان الفلاحين (المتوسطين) ، المحتكين بساسة المدن والعلماء ، ساعدوا على اضفاء طابع سياسي على الاضطراب الفلاحي . وقد اجتمعت هذه العوامل كافة ، في النهاية ، على نسف النظام الاجتماعي الذي كان يهدف اليه ولسن .

---

(٧٩) Wolf, «On Peasant Rebellions,» p. 10.

(٨٠) F.O. 371 5076- no. 8284, «Dated 21 July 1920,».

(٨١) **H. Alavi, «Peasants and Revolution,» *The Socialist Register* (London), (1965), pp. 241-277.**

(٨٢) Wolf, «The Peasantry as a Class,» pp. 269-270.

جدول رقم (١٠ ـ ٢)

حصة الحكومة من واردات الارض في العراق

القضاء	صنف الارض			
	الطابو		الاميرية	السنية
	حصة الحكومة	الملاكية	(بالنسبة المئوية)	
بغداد	٢٠	٢٠	٣٣ ١/٣	٣٦
ديالى	١٢ ١/٢	٢٠	٢٥	٣٦
الحلة	٢٠	٢٠	٤٤ ـ ٦٦	٣٦
الدليم	١٣ ١/٣	٢٠	—	٣٦
كربلاء	٢٠	٢٠	٢٤ ١/٣	٣٦
الديوانية	٢٠	٢٠	٤٠	٣٨ ٢/٣
الكوت	٢٠	٢٠	٢٠	٢٥
المنتفك	٢٠	٢٠	٤٠	٤٠
البصرة	٢٠	٢٠	٢٠	٤٠

المصادر : احتسبت من : C.O. 696/1, «Administration Report of the Revenue Department - Lt. Colonel E. B. Howell, Baghdad, 1918,».

ان هذا الجدول رقم (١٠ـ٢) يكشف بعض التفاصيل المفيدة ، اذ يبين ان الحلة والديوانية والمنتفك كانت المناطق التي تضررت اكثر من غيرها بالضرائب على الاراضي الاميرية . ومن مجموع الاصناف الثلاثة من الاراضي ، كانت المفوضة بالطابو هي التي تحملت افدح الضرائب في حالة تأييد الحكومة للحائزين الغائبين . وسيكون ذلك جزءاً من محتويات الفصل التالي .

الفصل الحادي عشر

السياسة البريطانية إزاء مسألة الاراضي والنظام العشائري

اولاً : اوضاع ملكية الاراضي قبل الاحتلال البريطاني

عندما تم طرد العثمانيين من العراق ، تركوا وراءهم مشكلة صعبة وبدون حل ، هي مشكلة ملكية الاراضي . وقد تناولنا في الفصل الاول من هذا الكتاب اصول وطبيعة هذه المسالة وقد اشرنا الى ان الاساليب البريطانية في معالجة هذه المسألة لعبت فيها بعد دوراً مهماً في تحديد الاحداث اللاحقة والهيكل الاجتماعي - الاقتصادي في العراق[1] . وفي هذا القسم من الكتاب ، سنحاول التحري عن تطورات هذه المشكلة ، والموقف البريطاني ازاءها وما ترتب عليه من عواقب سياسية .

ان ثمة (انطباعاً عاماً) بأن سياسة مدحت في مسألة الاراضي قد ادت الى نتيجتين : تفكك الروابط العشائرية وتأسيس الملكية (الاقطاعية) الغائبية للارض . وفي الواقع ان هذين الجانبين هما وجهان لعملة واحدة ، ان القوة الكامنة وراء الروح العشائرية هي الملكية المشتركة للارض او (الديرة) . ولو كان هذا الشكل من الملكية قد تلاشى حقاً ، لكان الهيكل العشائري قد تفكك بالنتيجة . الا ان هذا (الانطباع) هو وحيد الجانب ، ومبسط اكثر مما ينبغي ، ولا يعكس كافة التفاصيل في عملية معقدة، بل وربما متناقضة .

ان سياسة مدحت بخصوص الاراضي ، والتي كانت في الواقع محاولة لتطبيق قانون الاراضي العثماني لعام ١٨٥٨ على العراق ، قد استمرت لفترة تقل عن اثني عشر عاماً . ان قصر هذه الفترة ، بالاضافة الى عوامل اخرى ، لم يسمح باحداث انقلاب جذري في الهيكل

---

(١) انظر الفصل الاول من هذا الكتاب .

الاجتماعي ـ الاقتصادي في العراق . وفي ١٨٨٠ و١٨٨٢ ، عطل تنفيذ نظام الطابو الذي ادخله مدحت ، بموجب ارادتين (اي مرسومين)[٢] .

وبعد ذهاب مدحت ، كان العثمانيون يعتبرون ان تخصيص اراض للعشائر ، ولاسيما للشيوخ ، سيحرمهم (اي الاتراك) من موقع يستطيعون من خلاله السيطرة على العشائر . وانطلاقاً من هذا الافتراض ، لم يضيع الاتراك فرصة الاستفادة من مبدأ الملكية الحكومية للأرض لغرض تعيين الشيوخ (الموالين) و(المجتهدين) كمستأجرين . ومن جهة اخرى ، حجب الاتراك هذا الامتياز عن اية عشيرة او شيخ ذي ميول متمردة او مستقلة[٣] .

ومن الجدير بالملاحظة ، ان المراسيم التي عطلت نظام الطابو كانت موجهة نحو الجزء الجنوبي من العراق ، اكثر منها نحو الجزء الشمالي[٤] . وربما كانت هذه السياسة (التمييزية) مدفوعة بعاملين آخرين هما الاقتصاد والطائفية . وكان العنصر الاقتصادي يكمن في واقع ان الاراضي العراقية في منطقة السيح (الجنوب) كانت ، خلافاً للاجزاء الاخرى من الامبراطورية العثمانية ، تدفع اسمياً مبالغ تزيد كثيراً عن (العشر) الذي كان مستحقاً على اراضي الطابو[٥] . ولذلك فإن افراغ الارض طبقاً لنظام الطابو كان « سيؤدي الى تنازل الدولة عن حصتها الاضافية من المحصول ، الزائدة عن العشر ، في حين ان المبالغ المدفوعة كبدل لقيمة الطابو واجور التسجيل كانت مخيبة للآمال »[٦] .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد حرص السلاطين العثمانيون على جعل الاراضي الاميرية ذات صفة مؤقتة ، وذلك بإعادة توزيعها اغلب الاحيان ، وتشتيت الحيازات ، وتخصيصها

---

(٢) Sir V.H.W. Ernest Dowson, *An Enquiry into Land Tenure and Related Questions: Proposals for the Initiation of Reform* (Lechworth, Eng.: Garden City Press for Iraq Government, 1931), p. 21 and

محمد سلمان حسن ، طلائع الثورة العراقية : العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الاولى (بغداد : مطابع جريدة الجمهورية ، ١٩٥٨) ، ص ١٩ .

(٣) S. Haider, «Land Problems of Iraq,» (Ph. D. dissertation, University of London, 1982), p. 593.

(٤) حسن ، المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(٥) في الامبراطورية العثمانية ، وبالنسبة لاراضي الملك الصرف والطابو ، كان خراج الارض (العشر) هو مدة المستحق . وبالنسبة للاراضي الاميرية ، كان خراج الارض والملاكية (الخمس) مستحقين ، انظر :
Haidar, Ibid., pp. 597-598.

وقد طبق ذلك في العراق بطريقتين مختلفتين :

أ ـ قبل مدحت ، كان يؤخذ ١٠ بالمائة بالنسبة للمحاصيل المروية بالروافع او المصارف و٢٠ بالمائة للتمور والفاكهة ، و٣٠ بالمائة للحنطة والشعير ، و٥٠ بالمائة للارز في الاراضي المروية بالاقنية (المصدر نفسه ، ص ٣٠٨) .

ب ـ في زمن اصلاحات مدحت ، كانت الاراضي المروية بالمصارف والروافع لا تزال خاضعة لنسبة ١٠ بالمائة من المحصول الاجمالي . اما الاراضي المروية بمياه السيول والمفرغة في الطابو ، فكانت لنسبة مقطوعة قدرها ٢٠ بالمائة (المصدر نفسه ، ص ٥٩٩) .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٩٤ .

لمناطق يكون الحائزون غرباء عنها[٧] ، وكان من الواضح ان الغرض من ذلك هو منع تثبيت حق القرار بالنسبة لأي اراضٍ اميرية .

وقد قيل ايضاً ان عزوف الاتراك عن تمليك الاراضي في الجزء الجنوبي من العراق كان منبعثاً عن نزعة طائفية . ومن الصعب ان نعتبر من قبيل الصدفة كون الآغوات الاكراد في الشمال والمستفيدين العرب من الطابو في الموصل ، والذين حصلوا على مساحات واسعة من الارض كملك صرف . وكان الشيوخ الوحيدون في الفرات الاوسط ، الذين حصلوا على حصص كبيرة من الارض ، هم آل السعدون ، اما العشائر والشيوخ في الجنوب ، فقد خرجوا صفر اليدين من نظام الطابو .

ومع ذلك ، فتنبغي الاشارة الى حقيقة ان العشائر في الفرات الاوسط تتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية . فقد رفضت اغتنام الفرصة عندما سنحت لها ، بسبب خوفها من الضرائب ، والتجنيد ، وطبقاً لتقاليدها في الحصول على الارض بالقوة لا بـ (الورق) .

ولذلك ، لن نكون مجانبين كثيراً للحقيقة اذا ذكرنا انه في العراق ، حصل معظم (الاسياد الاقطاعيين) على الملكية المطلقة لاراضيهم في الثلاثينات والاربعينات « ذلك انه في ايام العثمانيين لم يكن لزراع[الاراضي العشائرية]اي حق قانوني على الاراضي التي كانوا يشغلونها،وقد تمكن الملاكون ، في عهد الانتداب ، من استغلال سلطانهم السياسي [والتأييد البريطاني][٨] لتأمين حقهم القانوني على الاراضي التي كانت ، بموجب العرف والتقاليد ، ملكاً للعشيرة »[٩] . وقد مضت وارنر الى القول : « ان العملية تتسارع بسبب المكننة ، التي تعطي الملاكين مزية على الزراع الصغار ، وكذلك بسبب التضخم المالي ، الذي يمدهم بالحافز الى الاستثمار »[١٠] .

وهكذا ، فخلال فترة الحكم البريطاني المباشر على العراق (١٩١٤ - ١٩٢١) ، كانت الادارة البريطانية تواجه عدة اشكال من اوضاع الاراضي وملكياتها . وقبل تقديم شرح تجريدي وعمومي لهذه الاشكال ، نجد من الحكمة الاعتراف بأننا لسنا ادق ادراكاً من الاخصائي الكفؤ ، السير ارنست داوسن ، الذي كتب : « ان هذه الاوضاع (لحيازة الارض) تتفاوت جداً ، ليس فقط بين مقاطعة واخرى ، بل مجموعة الى مجموعة ، بين موقع وآخر ، ومجموعة بشرية واخرى ، بحيث لا يمكن اعطاء صورة عنها تجمع بين دقة التفاصيل وشمول النظرة »[١١] .

---

(٧) A.N. Pollak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250-1900* (London: The Royal Asiatic Society, 1939), pp. 18, 23-25, 61 and 78.

(٨) الاضافة للمؤلف .

(٩) Doreen Warriner, *Land and Poverty in the Middle East* (London; New York: Royal Institute of International Affairs, 1948), p. 107.

(١٠) المصدر نفسه .

(١١) Dowson, *An Enquiry into Land Tenure and Related Questions: Proposals for the Initiation of Reform*, pp. 11-12.

ومع ذلك ، فليس من الممكن دراسة الوضع وآثاره بدون خطوط عامة على الاقل للظروف التي كانت سائدة . ويمكن النظر من زوايا مختلفة الى الاختلافات في حيازة الاراضي ، والتي نشأت عن ادخال نظام الطابو . ومع ذلك ، ففي هذا الميدان من الدراسة ، تثير الجوانب الاجتماعية ـ السياسية من المسألة اوفر قسط من الاهتمام . وفي هذا الصدد ، يمكن الاشارة الى ثلاثة اشكال من الملكية الاجتماعية للأرض كانت قائمة قبل دخول عهد الحكم البريطاني المباشر . وتنبغي ايضاً دراسة التأثيرات المختلفة للاشكال المختلفة لملكية الارض على النظام العشائري في كل منطقة .

ففي بعض المناطق لم يطبق نظام الطابو ،وبذلك حافظت الاراضي على طابعها الاميري . وغني عن البيان انه في هذه المناطق ، بقي النظام العشائري على حاله تقريباً واحتفظ بقوته السابقة . وهكذا كان الوضع في بعض اجزاء الفرات الاوسط .

وفي مناطق اخرى ، كان نظام الطابو قد فرض نفسه ، ولذلك كان نظام ملكية الارض قد مر بتغيرات معينة . الا انه في هذه المناطق ، من الضروري التفرقة بين ثلاثة اشكال متميزة على الاقل من تمليك الاراضي . ففي بعض المقاطعات ، خصصت الاراضي للشيوخ او الآغوات الذين كانوا يترأسون الزراع الحقيقيين لتلك الاراضي . ففي هذه المناطق[١٢] ، اصيب النظام العشائري بضربة في الصميم . ففي طريق تحويل الشيوخ الى ملاكين ، غرست بذور العداء بين الشيوخ وافراد العشائر الآخرين، واخذت العشيرة في التفكك كوحدة اجتماعية ، وبدأت عملية اضمحلال العشائرية . وفضلاً عن ذلك ، فإن الفلاحين في هذه الظروف، حرموا من اية قيادة معترف بها ، لتنظيم او قيادة (نضالهم) .

وفي اقضية اخرى ، كما في المنتفك ، خصصت الارض للشيوخ الكبار وللاتحادات العشائرية الكبيرة . وقد ضمن ذلك انهيار نظام الاتحادات وفقدان آل السعدون لشعبيتهم السابقة . ومع ذلك ، فقد عادت الوحدات العشائرية الى الظهور ، وقدر للشيوخ (الصغار) للعشائر المتحالفة ان يقودوا كفاح افراد عشائرهم ضد الشيوخ الكبار الذين خضعوا لاغراء التحول الى ملاكين . عليه ، ففي هذه الظروف ، مرت الاتحادات العشائرية بعملية انهيار ، في حين برزت وحدات عشائرية صغيرة على اسس اقوى بكثير .

وباختصار ، « فإن ما حصل عليه آل السعدون في الماضي باعتباره استحقاقهم الوراثي ، قد تم تحويله ، في ظل الاتراك ، الى حق قانوني ، ومنذ اليوم الذي استعانوا فيه بالحكومة لمؤازرتهم ضد العشائر ، فقدوا عطف هذه الاخيرة ، ولم يمض وقت طويل حتى خلعت العشائر نيرهم عنها ، وبذلك خلقوا وضعاً مماثلاً للصراع الراهن في النظام العشائري ، حيث خلع القادة الصغار سلطة الشيخ الكبير ، ويستعين الاخير بالحكومة لمؤازرته »[١٣] .

---

(١٢) كانت هذه الاوضاع قائمة بالدرجة الرئيسية في المناطق الكردية والموصل .

(١٣) Colonial Office [C.O.] 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1920,» p 60.

لقد كان آل السعدون ، في وقت ما ، القادة غير المنازعين والشيوخ الاكابر لاتحاد المنتفك . الا انهم ، بقبولهم التحول الى ملاكين ، مهدوا الطريق امام انحلالهم الخاص .

« كانت نتيجة هذا المسلك جعل افراد العشائر مستأجرين عند السعدون ، لا اتباعاً له ، وهذا بالتأكيد ما جعله يقف ضدهم ، وبالنتيجة ، فإن العشائر، بعد اضطرابات كثيرة ، قد ثارت في النهاية على آل السعدون ، وهي لحد هذا اليوم (١٩٢٠) لا تعترف بهم لا كملاكين ولا كشيوخ »[١٤] .

وفي مقاطعات اخرى جرى تجاهل الزراع الفعليين بصورة تامة . فقد اعطيت الاراضي لبعض التجار ووجهاء المدن . الا ان ذلك كان امراً نظرياً فقط ، ووفقاً لنظام الطابو . وفي الواقع ، بقي الزراع الفعليون (افراد العشائر) اسياداً على ارضهم ، في حين كان الحائزون الجدد غائبين ، معتمدين كلياً على الحكومة .

وفي مناطق من هذا القبيل ، ازداد النظام العشائري قوة عن ذي قبل . ان هذه الاوضاع اوضحت للفلاحين ان قوتهم الجماعية كأعضاء في العشيرة هي وحدها القادرة على حمايتهم من موظفي الحكومة وحاملي سندات الطابو على السواء . وبالنتيجة ، فقد ازداد افراد العشائر شعوراً بعشيرتهم كوحدة وبارضهم كديرة عشائرية مملوكة ومحمية بصورة جماعية من قبل العشيرة بأسرها . ومن هنا ، ففي هذه المناطق اكتسب النظام العشائري ، بمفهومه الاجتماعي ـ السياسي والكفاحي على السواء ، اقوى زخم له . وهكذا كان الامر بالنسبة لمعظم المقاطعات في الفرات الاوسط .

وبوجه عام ، يمكن اعطاء التفاصيل التالية المتعلقة بـ (اشكال) الاراضي والتي كانت سائدة في العراق خلال ١٩١٤ ـ ١٩٢١ : كانت اراضي منطقة الرمادي اميرية كلها باستثناء قناة العزيزية ، التي كانت سنية[١٥] . وفي الفلوجة كانت المنطقة كلها تقريباً مفوضة بالطابو[١٦] . وفي المسيب ، كانت نسبة كبيرة من الاراضي سنية ، وفي كربلاء كانت جميعها تقريباً مفوضة بالطابو ، وفي الهندية والديوانية ، كانت الاميرية هي الشائعة . وفي الحلة كانت الشائعة هي المفوضة بالطابو[١٧] . وكانت جميع الاراضي تقريباً في قضاء سامراء اميرية ، وكان غياب الطابو ملحوظاً[١٨] . وفي قضاء بعقوبة ، كان الجزء الاكبر مفوضاً بالطابو ، الا ان نسبة واسعة من الارض كانت وقفاً ، وكانت ثمة قطعتان كبيرتان[١٩] ، احداهما سنية والاخرى اميرية[٢٠] . وفي تقسيم المنتفك ، بما فيه الناصرية والشطرة وسوق الشيوخ وقلعة

---

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

(١٥) اي مملوكة من قبل السلطان .

(١٦) C.O. 696/1, «Baghdad Wilayat, Administration Report for the Year1917,» p.89.

(١٧) C.O. 696/1, «Administration Reports, Hillah Division, 1918,» p.121.

(١٨) C.O. 696/1, «Administration Reports, 1918, Samarrah District,» p.5.

(١٩) وهما مهروت والعثمانية .

(٢٠) C.O. 696/1, «Administration Reports, Baqubah District, 1918,» p.15.

سكر ، كانت الاراضي المفوضة بالطابو هي الشائعة[٢١] . وكذلك الامر بالنسبة للقرنة[٢٢] والعمارة[٢٣] .

الا ان الامر المهم بالنسبة لهذا البحث هو دراسة الصراع الاجتماعي الذي ترتب على ادخال نظام الطابو لملكية الارض ، وعواقبه السياسية . وفي هذه الدراسة ، سنعطي الاولوية للطابع الاجتماعي ـ السياسي للصراع ، من دون الدخول في الجوانب القانونية من المشكلة . اما الخطوة الثانية ، فستكون محاولة لدراسة الموقف الذي اتخذته الادارة البريطانية ازاء الصراع والآثار السياسية لهذا الموقف .

ان هذا التخطيط الاولي المقترح يتضمن استبعاد الاشكال الاخرى من ملكية الارض ، والتي لا تخضع لسلطة الطابو، وهو استبعاد مقصود : ذلك ان الاراضي الموات ، والمشاعة ، والاوقاف ، لم تكن تمثل اي مشاكل اساسية ، والامر نفسه يصح بالنسبة للاراضي المملوكة ملكاً صرفاً ، والتي كانت على اية حال ، نادرة الوجود .

كانت الاراضي السنية (اي التابعة للخليفة) والاميرية تمثل وضعاً مختلفاً . فلم تكن بدلات الملاكية مطلوبة من اي من الصنفين . وفضلاً عن ذلك ، فلم يكن ثمة نزاع حول ملكية هذه الاراضي ، التي كانت تعتبر عموماً ملكاً للحكومة . وكان الصراع الاساسي بالنسبة للاراضي الاميرية يتركز حول الضرائب : وهي مسألة سبق بحثها .

لقد اشير الى ان افراد العشائر العراقيين « كانوا يعتبرون دفع الضرائب شراً لا بد منه وكانوا مستعدين لدفع الخمس بدون تذمر . الا ان المتاعب كلها كانت تتركز حول دفع الملاكية . . . »[٢٤] . وقد وردت فكرة مماثلة في تقرير بريطاني رسمي آخر . فقد اكد التقرير ان افراد العشائر لم يكونوا يستندون في موقفهم على الملكية العشائرية ، بل على اساس ان الارض ملك للحكومة ، وان حاملي سندات الطابو « قد تحايلوا لسرقة الحقوق العشائرية »[٢٥] .

وفضلاً عن ذلك ، يبدو ان الاراضي السنية كانت تتمتع بمزية خضوعها لادارة كفؤة ، بالاضافة الى كون شروط التسليف والتأجير مقبولة لدى المزارع ، فقد ورد في تقارير الادارة البريطانية ان هذه الاراضي السنية (وهي ممتلكات خاصة للتاج) كانت تدار بطريقة فعّالة جداً . وكانت « تشغل نسبة غير قليلة من سطح الارض في العراق ، وتضم عدداً كبيراً من اجور الاراضي »[٢٦] . وكانت غالباً ما تكتسب بطرق مشبوهة ، « ولكن بعد الحصول عليها كانت توجه

---

(٢١) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1919,» pp.1-2.

(٢٢) Foreign Office [F.O.] 371/3049/178231, «Memorandum, Administration Report for Qurnah and District, Signed J.B. Mackie, A.P.O., Dated 23 July 1917,».

(٢٣) C.O. 696/3, «Administration Reports, Amarah Division, 1920,» p. 25-26.

(٢٤) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1919,» p. 31-32.

(٢٥) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p.80.

(٢٦) C.O. 696/2, «Administration Report of the Department of Revenue for the Year 1919,» p. 31.

اليهـا عنايـة فائقـة » وكان المستأجرون يشجعـون ، عن طـريق السلف واسـاليب اخـرى ، عـلى الشعور بأن المالك « كان مهتماً شخصياً برفـاهيتهم وانه في الـوقت الذي كـان يحصل عـلى حصة الاسـد من المحصـول ، فـإنـه كـان قـادراً ايضـاً عـلى اظهـار كـرم معقـول في بعض المنـاسبـات ، وكـان مـلاكـاً مجتهـداً ومتنـوراً »[٢٧] . ومضى التقريـر الى حد القـول بأن « الشعبية الشخصيـة التي يتمتع بهـا السلطان عبد الحميد في العراق والاجلال الذي لا يزال يحيط باسمـه ، يعودان الى حـد كبير الى الـطريقة التي كـانت تدار بهـا املاكه السنية »[٢٨] .

ولكن في ١٩٠٨ ، جاء اعلان الـدستور نهايـة النظام القـديم ، وتغير وضـع الاراضي السنيـة واصبحت تعرف بـ (الامـلاك المدورة) ، وكـان ذلك اشـارة ظاهـرية الى تـأميم هذه الاراضي . وبذلك كان الفرق بين الاراضي الاميرية والمدورة قـد تلاشى الى حـد كبير جـداً قبل الاحتلال البريطاني . ومع ذلك استمـرت الشروط المـلائمة للسلف الـزراعية والمسـاعدة الادارية بدون تغيير[٢٩] . ومن الواضح ان البدلات التي كان يدفعها الفلاحون كانت تبـررها تماماً الخدمات المقدمة لهم من قبل الادارة السنية[٣٠] .

ولذلك فإن البحث حول الصراع الاجتماعي المتعلق بملكية الارض سيكون محصوراً في نطاق الاراضي الخاضعة لنظام الطابو ، ونأمل ان يكون هذا الحصـر مبرراً من حيث النـظرية والتطبيق على السواء .

ثانياً : السياسة البريطانية ازاء مشاكل الارض

من الواضح جداً ان النزاع بين الزراع الفعليين (الفلاحين) وحاملي سندات الطابـو (سواء أكانوا غائبين ام لا) كان حاداً جداً في الواقع ، ويكمن في جوهر الاضطرابات الفلاحية في منـطقة الـري في العراق[٣١] . وفي ١٩١١ ، اضـطرت الحكومـة التركيـة الى تأليف (لجنـة تحقيق) للتحري عن اسباب الاضطرابات العشائرية . وقد ذكر ان « الاضطرابـات تعود الى واقـع ان الاراضي الزراعية للعشائر كانت محصورة في ايدي شيوخ اقوياء قلائل ، يضطهدون افراد عشائرهم ويثيرون المنازعات فيما بينهم ، وان العلاج الصحيح هو تقسيم الاراضي بشكل دقيق »[٣٢] .

---

(٢٧) المصدر نفسه .

(٢٨) المصدر نفسه .

(٢٩) المصدر نفسه .

(٣٠) Haider, «Land Problems of Iraq,» pp. 584-585.

(٣١) يكفي ان نذكر انه في قضاء الناصرية وحده ، كان على معاون الحاكم السياسي ان ينظر في ٦٤ نزاعاً بخصوص الماء ، ١٢٠ نزاعاً بخصوص حدود الاراضي ، و٣٤ عريضة بطلب دفع « السركلة » ، و٧٠ عريضة بطلب دفع «الملاكية» ، و٤٢ طلباً بتصديق سندات الطابو، وكان ذلك كله خلال سنة واحدة ، هي ١٩١٩ . انظر : C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, Nasiriyah District, 1919,» p. 39.

(٣٢) C.O. 696/2, «Administration Report of the Revenue Department for the Year 1919,» p. 24, paragraph 88.

وخلال عهد الاحتلال البريطاني ، اكد تقرير رسمي المعلومات الواردة آنفاً واضاف « ان الوضع اليوم (١٩٢١) لا يزال على حاله تقريباً . وقد ازدادت حدة المشاكل الزراعية ، واجلت تسوية الاراضي الى مستقبل غامض ، وبالاضافة الى ذلك ، فإن العشائر مطالبة بدفع واردات تفوق طاقتها »(٣٣) .

وللتأكيد على اهمية وحدة المشكلة ، يكفي ان نلفت الانتباه الى حقيقة انه خلال (السنوات الاولى) من الحكم البريطاني ، اعترفت الادارة بالصعوبات المتعلقة بايجار وملكية الاراضي الزراعية ، والتي هي احدى اضخم ما يواجهها من مهمات ، (ولعلها اضخمها على الاطلاق)(٣٤). الا ان هذا الادراك كان ، لسوء الحظ ، مشوباً بميل نحو تأجيل الحل . « ولكن بطبيعة الحال ، في اثناء استمرار الحرب ، لم يكن من الممكن عمل شيء لايجاد حل لهذه الصعوبة » ، هكذا جادل مسؤول بريطاني كبير(٣٥) .

ومع ذلك ، فإن الموظفين البريطانيين الموجودين موضعياً احتجوا على هذا الموقف المتراخي وأشاروا الى ان المشكلة بلغت من الالحاح والحدة ما لا يسمح بـ « تأجيلها حتى خلال فترة الحرب »(٣٦) .

وقد واجهت الادارة الجديدة جانبين رئيسيين من مشكلة الارض ، كانا يتطلبان حلا مرضياً . وكان الاول هو الجانب القانوني او الاداري للمسألة . وكان الثاني هو الجانب الاجتماعي - السياسي الذي يتطلب قرارات ذات طبيعة ونتائج سياسية . ولم يكن اي من هذين المظهرين للمشكلة واضح المعالم او سهل الحل . وبالرغم من ان الجانب السياسي للمسألة هو اكثر تعلقاً بهذا البحث، الا ان الجانب القانوني لا يمكن تجاهله كلياً .

١ - الجانب القانوني في مشكلة الارض

الظاهر ان الادارة العثمانية ، بسبب تخلفها وفسادها ، لم تكن قادرة على انجاز المشروع الطموح الذي سعت اليه من وراء تقسيم الاراضي . ولذلك ، فقد كانت النتيجة لهذه المحاولة هي قيام وضع (فوضوي) و(مضطرب تماماً) ،وهوالتركة التي آلت الى الادارة البريطانية .

كانت ظروف اجارة الارض تختلف في كل لواء طبقاً لدرجة السيطرة الفعالة التي كان يمارسها الاتراك ولعادات وتقاليد السكان : « لم يكن بالمستطاع وضع قواعد عامة ، ولم تتوفر الا في عام ١٩١٩ معطيات كافية لتمكين الادارة ، عن طريق مندوب الواردات ، في اعطاء بيانات مؤكدة عن حقوق كل من

---

(٣٣) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p. 18, paragraph J.

(٣٤) C.O. 696/2, «Administration Report of the Revenue Department for the Year 1919,» p. 21, paragraph 77.

(٣٥) وقد ذكر ايضاً ان السلم والاستقرار بين العشائر يعتمد على حل هذه المشكلة ، انظر : المصدر نفسه ، ص ٢٥ ، الفقرة ٨٩ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٣٢ ، الفقرة ٨٥ .

الحكومة ، ورؤساء العشائر، والملاكين ، واصحاب العقارات والمستأجرين في مختلف الاقضية »[٣٧] .

وبالرغم من النبرة المتشائمة لهذه العبارة ، فإن الواقع كان اكثر سوءاً . ومن المشكوك فيه كثيراً ما اذا كانت (معطيات كافية قد توفرت) في ١٩١٩ . وان تقرير داوسن الآنف الذكر (١٩٣١) وغيره من التقارير الرسمية تشير الى عكس ذلك .

فمثلاً، شرع الكابتن تي . سي . اوركل ، معاون الحاكم السياسي في الناصرية ، في دراسة دقيقة لسندات الملكية ، التي اصدرتها دائرة الطابو التركية في قضائه ، ولحقوق الملاكين المزعومة . وقد اتضح بنتيجة هذه الدراسة انه « لم تكن هناك حالتان متشابهتان ، بل اكتشفت كل الحالات المتنوعة الممكنة »[٣٨] .

وقد وصف الكابتن اوركل هذه الحالات :

« (أ) ملاكون يحملون سندات التملك ، ولم يكونوا في الواقع قادرين على الحصول على مدخولات من العشائر . . .

(ب) ملاكون يحملون سندات تملك وردت فيها الحدود بشكل ظاهر السخف . وبعض الحدود . . . يمكن ان تعتبر شاملة لجزء واسع من العراق .

(ج) ملاكون يحملون سندات تملك ، وردت فيها المساحات بارقام ضئيلة جداً ، في حين ان المساحة الحقيقية للملاك تمتد الى مئات الايكرات .

(د) ملاكون يحملون سندات تملك لم تذكر فيها اية مساحات على الاطلاق .

(هـ) ملاكون لا يحملون اي سندات تملك على الاطلاق »[٣٩] .

وفضلاً عن ذلك، فقد ذكر انه : « في اماكن عديدة تم الحصول على السندات بشكل غير اصولي ابداً ، وليس بموجب احكام قانون الطابو : اضف الى ذلك ان صياغة سندات التملك اشد ما تكون غموضاً . فثمة قطع تبلغ مساحتها آلاف الايكرات، وفي حين حددت مساحتها في السندات، دون حياء، بدونمين او ثلاثة، لمجرد التهرب من دفع اجور التسجيل كاملة للحكومة . كما ان الحدود . . . غير قابلة اطلاقاً للتنفيذ العملي موضعياً »[٤٠] .

ونود ان نضيف الى هذه الصورة ، البالغة التعقيد ، حقيقة ان بعض الملاكين ، ممن كانوا يحملون اردأ سندات التملك ، قد حصلوا فعلاً في الاعوام السابقة للاحتلال البريطاني على

---

(٣٧) Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), p. 78.

(٣٨) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, Nasiriyah District, 1919,» p. 37.

(٣٩) الايكر = حوالى ٤٠٠٠ م². انظر : المصدر نفسه .

(٤٠) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1919,» p.2.

مدفوعات لا بأس بها من العشائر ، ومن جهة اخرى ، فإن كثيرين من حملة السندات التي كانت اقرب الى المشروعية ، لم يستطيعوا ان يحصلوا حتى على جزء من مطالبهم . اضف الى كل ذلك حقيقة تاريخية هي ان المطالب الفادحة لبعض الملاكين في فترة معينة قد خلقت تمردات بين العشائر ، وجرى خلالها طرد هؤلاء الملاكين بقوة السلاح ، ولا شك ان استنتاج الكابتن اوركيل ، الذي ذكر فيه « ان هذا سيعطينا فكرة عن الوضع المعقد الذي ينبغي فيه لحاكم قضاء ، مثقل بالاعباء مسبقاً ، ان يعالجه ، وفقاً للاوامر الصادرة اليه » ـ ان هذا الاستنتاج منصف ومنطقي(٤١) .

وفضلاً عن ذلك ، فقد اتضح ان نظام الطابو في العراق لم يكن الا مهزلة بحتة . فطبقاً للمادة الاولى من قانون الطابو (الصادر في ٧ رمضان ١٢٧٤ هـ الموافق ٢١ نيسان / ابريل ١٨٥٨) « لا يجوز لأحد في المستقبل ، لأي سبب كان ، ان يتملك اراضي حكومية الا بموجب سند ملكية »(٤٢) . ومع ذلك فقد ورد في تقرير لعام ١٩١٩ انه « حتى بالنسبة للاراضي المحيطة ببغداد ، مثلاً ، والتي ليس ثمة نزاع حول تملكها عموماً ، ما عدا مسائل الحدود ، فإن الجزء الاعظم منها تمت حيازته بدون سندات في دائرة الطابو . . . وحتى دائرة الاوقاف لم تبرز سندات طابو بالنسبة للاملاك الواسعة التي تدعي عائديتها لها »(٤٣) .

ان قانون الطابو للتركات لم يكن يتفق تماماً مع الشرع . ويعتقد ان هذا هو السبب الذي حال بين كثير من الناس الذين كانوا يزرعون ويمتلكون اراضي اميرية منذ مدة طويلة ، وبين طلب تسجيل اراضيهم في دائرة الطابو . وكان ثمة سبب آخر هو الاحتيال الذي كان سائداً بين موظفي الطابو ، والرسوم العالية التي كانت تتطلبها المعاملات . وهناك سبب ثالث ، هو القيمة المنخفضة للسند ، كضمان حتى في حالة الحصول عليه(٤٤) .

٢ ـ الجانب الاجتماعي ـ السياسي في ملكية الارض

كان الجانب الاجتماعي ـ السياسي للصراع ذا طبيعة اشد تعقيداً بكثير . فقد كان ، عملياً ، نزاعاً غير قابل للحل اتخذ فيه الجانبان (الفلاح وحائز السند) مواقف لا تقبل المصالحة . وفضلاً عن ذلك ، فإن ظروف الصراع نفسها فرضت على الحكومة اتخاذ مقررات ذات طابع سياسي ، كان لا بد لها فيما بعد ان تخلق ردود فعل سياسية .

كان حامل سند الطابو يعتبر نفسه المالك الشرعي للارض ، وبالنسبة له ، كانت الملكية تتحدد بموجب السند الذي حصل عليه عن طريق دفع الرسوم المطلوبة ، وكانت الحكومة ، تركية ام بريطانية ، تتحمل مسؤولية (قانونية) نحوه ويفترض ان تساعده في جباية بدل الملاكية .

اما الفلاح ، فكان ينظر الى المسألة من زاوية مختلفة تماماً . فقد كان سند الطابو بدعة غير

---

(٤١) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, Nasiriyah District, 1919,» p. 37.

(٤٢) المصدر نفسه .

(٤٣) C.O. 696/2, «Administration Report of the Revenue Department for the Year 1919,» p. 23.

(٤٤) المصدر نفسه .

يعترف بها ، ولا تنبعث عن اي من مفاهيمه او تقاليده او واقع الزراعة الفعلية . ولذلك ، كان ينكر تماماً اهمية هذه (الورقة) ويشعر بالسخط العنيف ازاء اي حقوق مزعومة ناشئة عن هذا السند .

وقد اوضح شيخ عشيرة غير متملك ، لإداري بريطاني ، سبب عدم اكتراثه بالحصول على سند لأرضه : « ان سيفي هو حدي . . . اجل ، السيف هو المهم وليس الهراء المكتوب على الورق »[٤٥] . ومهما بدت هذه الحجة خشنة وعنيفة الا انها كانت تكشف عن نظرة حقيقية مسيطرة ومرتكزة على سنوات من التقاليد والممارسات . وبالاضافة الى ذلك ، فإن حجة من هذا النوع تجد جذورها ، وربما حتى تبريراتها ، في ظروف الحياة الفلاحية نفسها .

لقد قيل ان «الملاكين ليسوا ضروريين لتثبيت واقع وجود الفلاحين»[٤٦] . كما عرفت ملكية الارض « بأنها حق محصور ومقبول اجتماعياً ، في الحيازة والاستقلال ، حق مستقل عن الحقوق المكتسبة بتوظيف العمل والرأسمال »[٤٧] . وفضلاً عن ذلك ، فهناك تمايز واضح بين طرق حيازة ملكية الارض ، حسب التعريف التالي للاستاذ شانين : « هناك ، من جهة ، حيازة العائلة الفلاحية التي يحددها العرف ، ومن جهة اخرى ، الملكية القانونية المثبتة سياسياً »[٤٨] . ومن الواضح ان هذين الشكلين ليسا متطابقين بالضرورة . وفي ظروف العراق خلال سنوات ١٩١٤ - ١٩٢١ ، كان هذان الشكلان لملكية الارض متناقضين تماماً . ويشير شانين في الواقع الى ان تملك حائزي الارض الفعلي لجزء من محصول الفلاح ، وحتى سيطرتهم السياسية والادارية ، قد فشلا « فشلاً عمومياً في تحطيم السمات الاساسية لعلاقة الفلاح بالارض »[٤٩] ، ومع ذلك ، يجب ان نضيف ان مثل هذا التملك او السيطرة لم يكونا ظاهرين في تلك المرحلة من تاريخ العراق . وفيما يخص الظروف الحسية للشرق الاوسط ، فقد جادلت د. وارنر بأن « الملكية لم تؤثر ، بأي شكل من الاشكال ، على اساليب الزراعة ، ففي قرية عائدة للملاك ، يواصل الفلاحون زراعتهم على قطعهم (المستقلة) بل واحياناً بموجب نظام المشاعية ، بدون ان يغيروا بأي شكل من الاشكال ، اساليبهم ، او يعملوا بموجب توجيهات ، ان ملكية الارض هي عملية ائتمان ، لا اكثر »[٥٠] .

وربما كان استثمار الرأسمال في الارض من قبل الملاك سيساعد على قبول الفلاحين لملكية الملاك (القانونية او الرسمية) . الا انه قد ذكر انه في ظروف العراق في اعوام ١٩١٤- ١٩٢١ ،

---

(٤٥) James Saumarez Mann, *An Administrator in the Making* (London; New York: Longmans, Green, 1921), p. 202.

(٤٦) R. Redfield, *Peasant, Society and Culture* (Chicago: 1956), p. 28.

(٤٧) Teodor Shanin, comp., *Peasants and Peasant Societies: Selected Readings* (Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1971), p. 9.

(٤٨) المصدر نفسه . (التشديد من المؤلف) .

(٤٩) المصدر نفسه .

(٥٠) Warriner, *Land and Poverty in the Middle East*, p. 23.

تعمقت المشكلة الزراعية لأن معظم الملاكين كانوا غائبين ، يعيشون خارج الاراضي التي يدعون ملكيتها و« يطالبون بـ ٢٠ بالمائة من المحصول بدون ان ينفعوا الارض بأي شيء»(٥١) ، وكان اكثر ما يخشاه الفلاح هو « ان يظل متقلاً طيلة الوقت بالكدح لأجل ملاك يهتم بجماله اكثر مما يهتم بالعشائر المقيمة على الارض »(٥٢) ، وفضلاً عن ذلك فقد ورد في تقرير رسمي انه « . . . اذا خير (الفلاح) بين اهون الشرين ، اي بين السركال والملاك ، لاختار الاول دون شك ، وذلك لأن السركال يحتفظ ببيته مفتوحاً ، وينظم العمل ، ويوفر ، عند الضرورة ، الاموال اللازمة لشراء البذور ، وذلك عادة بطلب قرض من الحكومة والعمل كوسيط بين الفلاح والحكومة ، في حين ان الملاك الغائب يأنف في ان يبدي اهتماماً بأي شيء ما عدا جماله وبدل الملكية »(٥٣) .

ان ادخال نظام الطابو في العراق لم يكن ثمرة تطور داخلي في ظروف العراق . كما ان الفساد وعدم الكفاءة وسوء التصرف ، التي احاطت بتنفيذ هذا النظام ، اضافت تعقيدات اخرى الى الوضع ، وكانت هذه الحقيقة بالذات هي التي خلقت الجانب السياسي من مشكلة الارض . وباختصار ، كان القانون مفروضاً ، وكان من المستحيل تنفيذه بدون قوة الدولة نفسها . وكان من الصعب جداً على الملاكين والفلاحين التوصل الى اتفاق . كما كان من الصعب جداً بالنسبة لحاملي سندات الطابو الحصول على بدل الملاكية بدون مساعدة فعالة من جانب الدولة القوية . ومن هنا ، كان لا بد للحكومة من الانحياز الى احد الجانبين .

وقد تطور الوضع الى استقطاب سياسي واجتماعي حاد انفجر في الانتفاضة الفلاحية لعام ١٩٠٩ ، والتي عمت تقسيم المنتفك بأسره . كما جوبهت الادارة البريطانية بالنزاع منذ الايام الاولى لتأسيسها . ولم تكن الادارة قادرة على اتخاذ موقف الحياد ، بل كان عليها ان تنحاز الى احد الجانبين . وباختصار ، فإن المسألة السياسية الرئيسية ، التي خلقتها مشكلة الارض ، تجسدت في السؤال ، عما اذا كانت الادارة ستعترف وتنفذ (حقوق) حاملي سندات الطابو ام لا .

وقد لخص الكابتن ماكي المشكلة بالعبارات التالية : « لا شك ان اكبر مشكلة تواجهنا ، فيما يخص الواردات ، هي مشكلة الملاكين الغائبين ، المسلحين بسندات الطابو ، وغير القادرين في الوقت نفسه على جباية بدل الملاكية ما لم نكن نحن مستعدين لمساعدتهم في ذلك . . . وفي الوقت الحاضر (تموز / يوليو ١٩١٧) ليست لدينا سياسة نرتكز عليها . كل ما نستطيع عمله هو ان نوصيهم بالانتظار . وخلال ذلك فإن الحاجة الى قاعدة محددة ، لاسناد احد الجانبين : الحائزين الذين ليست لهم سندات تملك ، او اصحاب سندات التملك الذين ليست لديهم الحيازة ، هي امر ملح جداً ، وينبغي التأكيد عليه بمنتهى القوة . ان (الفلاحين) كانوا في معظم الحالات يزرعون الارض ويتمتعون بحاصلاتهم كاملة منذ سنوات كثيرة ، وهم يطالبون الآن بالارض كحق لهم ازاء الملاكين

---

(٥١) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,».

(٥٢) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1919,» p.2.

(٥٣) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p.61.

الغائبين ، وهم بدورهم يتطلعون الينا لاسناد قضيتهم ضد خصومهم »[٥٤] .

وفي آذار / مارس ١٩١٨ ، اكد الحاكم السياسي للناصرية الاقوال الآنفة الذكر ، واشار الى ان الادارة تواجه احد امرين :

« ١ ـ اذا كنا نريد السلم والهدوء في البلاد والتسوية السريعة لكل مشاكلنا ، فعلينا ان نساند العشائر العربية بغض النظر عن حقوق الملاكين . (ان ذلك سيجتذب جميع العشائر الى جانبنا بالتأكيد) .

٢ ـ اذا ساندنا (الملاكين) ، فيجب ان نساندهم على الفور وحتى النهاية ، الامر الذي اخشى ان يثير حفيظة افراد العشائر ، وستكون النتيجة المحتملة هي الاضطرابات الدائمة ، وتشكيل حاميات كبيرة ، وحملات تأديبية متكررة ، وكثير من المصاريف »[٥٥] .

الا ان الكابتن دكسن اشار بعد ذلك الى ان هناك (طريقين وسطين) آخرين ، كل منهما ، حسب رأيه ، يستحق الدراسة . والاول هو السماح « للملاك بالاحتفاظ بحقوقه فيما يتعلق بأرضه فقط ، ومنعه من التدخل في شؤونها على الاطلاق »[٥٦] . اما الطريق الثاني فكان يرتكز على اعتبارات قانونية وفقهية سليمة ومنطقية وذلك بـ « دراسة سند الطابو لكل ملاك . ففي حالة كون كافة الحدود الاربعة مثبتة بوضوح ، وكون عدد الدونمات متوافقا مع المساحة الايكرية ، يعتبر السند صحيحاً وتقوم الحكومة بتحصيل حقوق ذلك الملاك كاملة . اما اذا لم تكن الدونمات متوافقة مع المساحة الايكرية ، ولم تكن علامات الحدود مثبتة كلها ، فعلى الحكومة ان تتدخل وتقلص ملكية الملاك بما ترتئي ، حتى تقتصر على شريط من النخيل على امتداد شاطىء النهر ، مع مساحة ٣٠٠ دراع ، مثلا ، في عمق الارض البوار الواقعة خلفها . اما بقية الارض التي سحبت بهذا الشكل ، فتسلم الى افراد العشائر وتصدر لهم بها سندات الطابو »[٥٧] .

وهكذا ، فقد واجهت الادارة البريطانية خيارين : الاول كان سيمهد (الطريق الحقيقي الى السلام) ، ويكسب ولاء العشائر القوية للادارة ويخفف المظالم التي لحقت بالفلاحين على ايدي الادارة العثمانية الفاسدة. اما الثاني فكان سيخلق (متاعب دائمة ، حملات تأديبية متكررة) ، و(يثير نفور العشائر) و(استياءهم البالغ الشدة) . وكان ثمة (طريق وسط) ، فهي اكثر منه سياسي ، يعطي الادارة فرصة لالتقاط الانفاس ويسمح بتحقيق دقيق في الادعاءات المتعلقة بالارض . ووفقا لكافة الاعتبارات ، القانونية والسياسية والاقتصادية والانسانية ، لم يكن مفروضا على الادارة البريطانية ان تنحاز الى جانب الملاكين، ومع ذلك ، فإن هذا لم يكن (الطريق) الفعلي الذي سلكته الادارة .

---

(٥٤) F.O., 371/3049/178231, «Memorandum, Administration Report for Qurnah and District, Signed J.B.Mackie, A.P.O., Dated 23 July 1917,».

(٥٥) F.O. 371/3406/102207, «Report by Captain H.R.P. Dickson, A.P.O. of Suq-ash-Shuyukh, Dated 9 May 1917,» Included in the Report for Colonial Office, Nasiriyah, for the Year ending 31 March 1918, p 39

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

٣ ـ السياسة البريطانية

قبل كل شيء ، اود ان اعترف بأنه كان من الصعب جداً تحديد السياسة البريطانية الفعلية ازاء مشكلة الارض ، وذلك لاسباب تتعدى مسؤولياتي كمؤلف . وقد ورد اقرار رسمي بأنه « بالرغم من ان سجلات الكابتن ليفي الذي قام بتحقيقات اولية[٥٨] . . . اورد فيها ذكر كامل الاشخاص الذين لديهم الحق في امتلاك الارض ، والذين ليس لهم هذا الحق ، فإن الاساليب التي اقترح بها ترجمة هذه المقررات الى العمل ليست مذكورة في السجلات ، كما لم يرد في السجلات اي ذكر لخط سياسي ، في حالة وجود مثل هذا الخط المقرر فعلاً »[٥٩] .

ومع ذلك ، فقد كان من الضروري الاضطلاع بالمهمة الشاقة المعقدة لمحاولة تقصي الخط السياسي الذي اتبعته الادارة البريطانية . فخلال الحرب كانت سياسة الادارة هي المحافظة على الهدوء بين العشائر وذلك بواسطة « الاعانات الكبيرة والمساعدات وعدم جباية الضرائب »[٦٠] .

وبعد اعلان الهدنة وانهيار الامبراطورية التركية ، طرأ تحول تام في سياسة الادارة ، فمثلاً قامت عشائر الغراف لوحدها « بعد سنوات طويلة من التحرر من كافة الضرائب ، بدفع الواردات كاملة ، كما دفعت للملاك ايضاً حصته من المحصول . وفي ١٩١٩ ، تمت جباية حوالى ١٦ الى ١٧ (لك)[٦١]روبية من الواردات (فقط) »[٦٢]. ولم يكن من الغريب انه « في ١٩٢٠ ، نشبت الاضطرابات وعاد الوضع مرة اخرى الى الفوضى »[٦٣] .

وعلى هذا ، فمن الواضح انه قبل اعلان الهدنة ، لم تلتزم الادارة بأي من الطريقين . وكان هذا في النتيجة لمصلحة افراد العشائر و(غير المتملكين) . وقد ذكر الكابتن اوركيل في الناصرية انه لدى وصول البريطانيين ، وجدوا (طبقة من الملاكين) وصفهم بأنهم « حملة سندات تملك زائفة يطالبون بالواردات » . ومع ذلك ، فخلال العام او العامين الاولين (لم يعلن اي مبدأ) .. وبهذه الطريقة (احتفظ (الضباط البريطانيون) بكامل حريتهم) في معالجة المسألة[٦٤] ، وفي ١٨ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٧ صدر بيان قائد القوات العام يؤكد و « يتيح لحكام الاقضية الاحتفاظ بهذه الحرية »[٦٥] . الا ان هذا الخط السياسي لم يدم طويلاً . فقد جرى التخلي عن هذه الحرية .

---

(٥٨) في نهاية عام ١٩١٩ ، تشكلت « لجنة اراضي» ، ذات سلطات تشريعية مع كافة الاجهزة المطلوبة من المساحين ، وسنورد فيها بعد مزيداً من التفاصيل حول هذه اللجنة في سياق البحث .

(٥٩) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p.60.

(٦٠) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p.18.

(٦١) كانت ١٦ الى ١٧ لك روبية تعادل حوالى ١٦٠٠٠٠ الى ١٧٠٠٠٠ باوند .

(٦٢) المصدر نفسه .

(٦٣) المصدر نفسه .

(٦٤) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, Nasiriyah District, 1919,» p. 37.

(٦٥) المصدر نفسه .

وفي اواخر ١٩١٨ ، وجواباً عن المذكرة المرقمة ٢٤٩ والمؤرخة في ١٠ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٨ ، تقرر انه بالنسبة للاراضي التي لا يتوصل فيها الملاكون والحائزون الى اتفاق ، ينبغي تقسيم الحاصل على الشكل التالي : « ٥٠ بالمائة للفلاح ؛ ٢٠ بالمائة للحكومات كواردات ؛ ٢٠ بالمائة للملاك كبدل ؛ ١٠ بالمائة للشيخ او السركال »(٦٦) .

وعلى هذا فقد بلغ مجموع حصة الحكومة والملاك ٤٠ بالمائة من مجموع الحاصل « وقد كان ذلك بطبيعة الحال عبئاً ثقيلاً جداً على الارض الزراعية »(٦٧) . واحتجت العشائر على فداحة البدلات المطلوبة منها .

وفي تموز / يوليو ١٩١٩ ، قرر سكرتير الواردات ، بعد التشاور مع الحكام السياسيين موضعياً ، تخفيض الطلب الاجمالي الى ٣٠ بالمائة(٦٨) . « وصدرت الاوامر الى حكام الاقضية بجباية هذه الـ ٣٠ بالمائة ودفع حصة الـ ١٥ بالمائة للملاكين انفسهم »(٦٩) .

وقد وردت القرارات التي اعلنت في اجتماع عام من قبل سكرتير الواردات ، على الشكل التالي :

« ١ ـ ان الطلب الاعتيادي بـ ٤٠ بالمائة عال جداً . .

٢ ـ لذلك ينبغي تخفيض الطلب بالنسبة لجميع الاراضي التي لم يحصل ادعاء بحق ملكيتها الخاصة ، وذلك الى ٣٠ بالمائة .

٣ ـ اما بالنسبة للاراضي المملوكة ملكية خاصة :

أ ـ ففي حالة توصل المالك المزعوم الى اتفاق فيجب ان يكون مفهوماً ان هذا الاتفاق سواء أكان مصدقاً من قبل معاون الحاكم السياسي ام لا ، قد تم بموافقته واصبح واجب التنفيذ الا اذا كان جائراً بشكل جسيم وواضح ، اماعن طريق ممارسة نفوذ غير مشروع في وقت ابرامه او بسبب حصول كارثة لاحقة : ولا ينبغي السماح بنقض العقد الا في حالات نادرة جداً ، لاسيما اذا كان العقد مصدقاً من قبل (معاون الحاكم السياسي) .

ب ـ اما اذا لم يستطع الطرفان التوصل الى اتفاق ، فإن الحكومة ، التزاماً منها بتعهداتها المقطوعة ، يجب ان تجبي مقدار ٣٠ بالمائة وتسلم للمالك ، الذي اعترفت بملكيته سابقاً ، نفس المقدار الذي حصلت عليه . وفي مثل هذه الحالات لا يحق للمالك التدخل في ادارة الارض التي يدعي ملكيتها »(٧٠) .

وهكذا فإن الادارة البريطانية ، لأسباب سنناقشها فيما بعد سلكت سياسة كانت ، في جوهرها ، موالية للملاكين . ويمكن تبرير هذا الاستنتاج في ضوء عنصرين على الاقل .

(٦٦) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1919,» p.2.

(٦٧) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, Nasiriya District, 1919,» p. 37.

(٦٨) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1919,» p.2.

(٦٩) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, Nasiriyah District, 1919,» p. 37.

(٧٠) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1919,» p.25.

اولاً ، ان الحكومة اضطلعت بجباية الملاكية بالنيابة عن الملاكين . وعليه فإن « الواردات والملاكية مترابطة الآن (١٩١٩) ترابطاً وثيقاً وتمثل مبلغاً ضخماً في نظر افراد العشائر »[٧١] . وقبل ذلك ، لم يكن الملاك قادراً ابداً على الحصول على بدل بمقدار ٢٠ او ١٥ بالمائة ، وفي معظم الحالات ، كان يقنع بالحصول على مبلغ ، مهما كان ضئيلاً . وفي بعض الحالات ، عند تنظيم سند بين الشيخ او السركال والمدعي ، كان الاخير عادة يتنازل عن مبلغ كبير بصفة (سركلة) ، لمجرد حمل الشيخ او السركال على قبول ادعائه[٧٢] .

ومن جهة اخرى ، ذكر في تقارير رسمية ان مالكي الاراضي « الذين لم يتفقوا مع اصحاب الحيازة على مبلغ مقطوع كبدل ، اخذوا الآن (١٩١٩) يستردون البدل من الحكومة وفي معظم الحالات ادى ذلك الى حصولهم على مبالغ تزيد بكثير عما استطاعوا الحصول عليه حتى الآن . . . وقد ظهرت حالات كثيرة لملاكين لم يكونوا قادرين على جباية اية بدلات خلال السنوات العشر او الخمس عشرة الاخيرة ، الا انهم سيحصلون الآن على مبالغ تزيد كثيراً عن اقصى توقعاتهم »[٧٣] . وهكذا ، ففي الحالتين على السواء (أي بوجود سند او عدمه) ، اتيح للملاك ان يجبي بدلاً من « الزراع ولولا خوف الاخيرين من الحكومة البريطانية ، لأعربوا عن سخطهم على هذا العمل بقطع حنجرة الملاك والمأمور على السواء »[٧٤] . فضلاً عن ذلك ، فإن تدخل الادارة ادى الى فقدان الشيخ او السركال لـ (سركلته) .

ان الاجراء الثاني لسياسة الاراضي البريطانية في العراق يكشف عن تحيز ابعد واوضح لطبقات الملاكين وليس من الضروري ان نعيد وصف سخافة حدود الاراضي كما وردت في سندات الطابو التركية . ومع ذلك ، فإن هذه السخافة ذاتها كانت تستلزم فحصاً دقيقاً لكل سندات الطابو باعتبار ذلك شرطاً اولياً ضرورياً ومبرراً لتحديد صحة السند . وفضلاً عن ذلك ، يبدو لي انه لم يكن عدلاً القيام بمحاولة لجباية الملاكية قسراً بواسطة الحكومة وخاصة بدون اجراء تحقيق دقيق في الادعاءات المتعلقة بالارض .

والغريب في الامر ان الادارة البريطانية لم تتبع هذا (النهج) في سياستها المتعلقة بالأراضي ، بل ضربت مثالاً نادراً ساطعاً على اسلوب (وضع العربة امام الحصان) حيث ورد في تقرير رسمي : « بعد الاقرار بأن لدى آل السعدون بعض الحقوق في الارض ، فإن الخطوة التالية هي تصديق سندات ملكيتهم . ان كون آل السعدون لا يمتلكون ادلة وثائقية على ادعاءاتهم ، لا يقلل بأي حال من الاحوال ، من الضجيج الذي يخلقونه »[٧٥] .

---

(٧١) المصدر نفسه ، ص ١ .
(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٢ .
(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٤ .
(٧٤) C.O. 696/1, «Administration Reports, Hillah Division, 1918,» p.135.
(٧٥) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p.61.

وهكذا تم التوصل الى الاستنتاج بأن حائزي الاراضي الغائبين « يجب الاعتراف بكونهم نوعاً من الملاكين »[٧٦] .

ويجب ان لا يغرب عن الذهن ان العبارة الآنفة الذكر لم تكن مجرد آراء او اقتراحات ، بل كانت النهج الحقيقي للسياسة التي قررت الادارة اتباعها . وعلى اية حال ، فإن قرار الجباية الحكومية للملاكية اتخذ في اواخر ١٩١٨ ، في حين ان لجنة التحقيق تشكلت في اوائل ١٩٢٠ . وبالاضافة الى ذلك ، فقد حصل الاقرار في اواخر ١٩٢١ بأنه « لم تجر اي محاولة لمعالجة المشكلة الدقيقة لتخطيط الحدود التي يرتكز عليها موضوع ملكية الارض برمته »[٧٧] .

وهكذا يتضح ان الحكومة قررت اتباع النهج الغريب في جباية الملاكية من الزراع الفعليين عن اراض كان المدعون بملكيتها لا يملكون ادلة وثائقية عنها ، او حدوداً مثبتة بوضوح .

٤ ـ العواقب السياسية لسياسة الارض البريطانية

ان هذه السياسة (الغريبة) قد بررت (او كان المقصود منها) ، ان تكون وقتية فقط ، الى حين الانتهاء من تدقيق السندات ، وفي هذا الصدد ، من المهم جداً ان نلاحظ ان الحكومة لم تكسب رضاء الملاكين ولا استطاعت تفادي غضب الزراع الفعليين .

« . . . كان اصحاب المصالح المتركزة مثل الملاكين الغائبين وشيوخ العشائر ، ينظرون باستهجان الى عمليات المسح (الخارسيز) ، والتي من شأنها المساعدة على تثبيت الحقوق التقادمية للزراع . . . »[٧٨] .

ومن جهة اخرى ، كتب الحاكم السياسي للمنتفك في ١٩١٩ : « ان (افراد العشائر) ينظرون **بمنتهى الاستياء والقلق الى بدلات الملاكية العالية ، والتي يطلب منهم دفعها الآن . وليست ثمة جدوى من ابلاغهم بأن ذلك هو مجرد تدبير مؤقت . . . لقد انتهت الحرب العظمى ، وعم السلام ، واقترب اجل تسوية الاراضي ، وكل ما يخشونه هو ان يصبحوا مثقلين طيلة الوقت بالفراغ والبطالة . . .**»[٧٩] .

وقد اشير الى ان (الاخطاء الرئيسية) التي ارتكبت كانت ما يلي : « أ ـ ان جباية حصة من المحصول ، لمصلحة الملاك ، مساوية لحصة الحكومة ، قد اعطت الملاكين افكاراً ضخمة عن المطاليب التي يستطيعون فرضها على العشائر في المستقبل . . . ب ـ لقد خلقت الحكومة استياء شديداً جداً لدى العشائر بجبايتها للملاكية نيابة عن الملاكين » .

---

(٧٦) المصدر نفسه .

(٧٧) المصدر نفسه .

(٧٨) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1919,» p.2.

(٧٩) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, Nasiriyah District, 1919,» p. 37.

(التشديد من المؤلف) .

واشار معاون الحاكم السياسي للناصرية الى ان بالامكان تصحيح الخطأ الاول في حالة تخفيض الحكومة للحد الاقصى للملاكية الى رقم يتراوح بين (٥) و(١٠) بالمائة ، وفضلاً عن ذلك ، فقد جادل بأن « الحكومة يجب ان تكف تماماً عن جباية الملاكية نيابة عن الملاكين . . . »[٨٠] .

اما الحاكم السياسي للحلة فقد اعترف بأن « ما يسمى بالمطاليب المشروعة التي تترك للفلاح (٤٠) بالمائة فقط من المحصول الاجمالي ، بالاضافة الى خصم صغير للسركال، هي غير عادلة بشكل واضح »[٨١] . وفي مذكرة سرية مؤرخة في ٢٢ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٨ ، اشار الى انه « لا ينبغي لأي شخص او طبقة ان يحصل ، بنتيجة الاحتلال البريطاني ، على ارباح مفرطة على حساب شخص او طبقة اخرى »[٨٢] .

وعليه، فمن الواضح ان الحكام البريطانيين الموضعيين كانوا شاعرين بنشوء وضع متوتر محفوف بالاحتمالات الخطيرة ، وقد بلغ بعضهم من بعد النظر بحيث تنبأ بانفجار عوامل التذمر الزراعي على شكل اضطرابات سياسية . وقبل نشوب الانتفاضة بشهور ، حذر الميجر هيدكوك ، الحاكم السياسي للعمارة ، من وجود بوادر تشير الى « ان السراكيل سيرفعون راية الاستقلال في المستقبل القريب »[٨٣] . واشار الى انه بالرغم من ان السركال المتوسط الحال كان في وضع افضل منه في ايام الاتراك ، الا انه « يشعر بظلم وطغيان شيخه اكثر من ذي قبل »[٨٤]

ويعود هذا ، حسب رأي الميجر هيدكوك ، الى عاملين: ويتمثل الاول منهما في واقع انه « بالرغم من ان الشيخ كان يعتصر السركال بنفس الدرجة التي يفعلها الآن (١٩٢٠) ، الا ان الفرق يكمن في ان المال كان في السابق ضرورياً لتأمين مصاريف حوشية الشيخ ، ومصاريف اخرى تتناسب مع ازمة عدم الاستقرار، اما الآن فإن المال يبتز من السركال ليملأ الخزائن المكتظة فعلاً للشيخ الموفور الحال »[٨٥] .

ان هذا التفسير وارد، الا انه لم يشخص جوهر المسألة ، اي التغيرات الاجتماعية - الاقتصادية التي خلقها ادخال نظام الطابو وتطبيقه العملي بواسطة الادارة البريطانية . ان هذا النظام غيّر ، او أعاد تنظيم العلاقة بين الفلاح والشيخ . ففي السابق ، كان الارتباط الاجتماعي قائماً على اساس الائتلاف بين الشيخ وافراد العشيرة ، الا انه تعرض لتغيرات معينة حولته الى علاقة تنازعية بين ملاك وفلاحين ، ومما زاد في شدة الصراع تطور الاقتصاد من اقتصاد اعاشة ذاتية الى اقتصاد ربح وسوق .

ولم يكن الفلاح العراقي بطيئاً في ادراك التغيرات او الشعور بالسخط ازاءها . ولم يكن

---

(٨٠) المصدر نفسه .

(٨١) C.O. 696/1, «Administration Reports, Hillah Division, 1918,» p.135.

(٨٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٦ .

(٨٣) C.O. 696/3, «Administration Reports, Amarah Division, 1920,» p.26.

(التشديد للمؤلف) .

(٨٤) المصدر نفسه .

(٨٥) المصدر نفسه .

بحاجة الى (قراءات في علم الاجتماع)ليفهم ما كان يجري . ذلك ان الحياة نفسها كشفت له ذلك ، وكان رد الفعل لديه سريعاً وعنيفاً . ان الوضع المتدهور (المركز المتدني) لآل السعدون ، المحبوبين الاقوياء سابقاً ، بين انصارهم (السابقين) ، كان دلالة واضحة على هذا الوعي الطبقي النضالي .

وفضلاً عن ذلك ، لم يطل الامر بثامر الخطير (شيخ مشايخ آل ازيرج)[٨٦] اكثر من شهرين ، لكي يطرد ويقتل رمياً بالرصاص من قبل افراد عشيرته ، على تجرئه على جباية الملاكية ومن ثم الحاق الظلم بفلاحيه[٨٧] ، وبالاضافة الى ذلك فقد ذكر انه في اوائل كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ ، حاول الشيخ ثجيل الجناح (رئيس فرع آل جناح من اتحاد بني خيكان) ان يجبي بدل الملاكية من « زراعه بصفته ملاكهم ، وقد سخط الزراع عليه لذلك . . وقتلوه بوحشية »[٨٨] . وفي شباط / فبراير ١٩٢٠ ، قتل ايضاً الشيخ هاشم الحسون من عشائر الحضر لاسباب مماثلة[٨٩] .

وبعد ذلك بفترة قصيرة ، دعا الشيخ صيهود الصكر من عشيرة البو خليفة (افراد عشيرته الى التداول حول دفع واردات وضرائب الارض) . وقد قبل رجاله الدعوة ، الا انهم ، بدلاً من اجراء (مناقشة ودية) ، اطلقوا النار عليه فقتلوه (ومزقوا جسده بـالرصـاص)[٩٠] . وقد تم التوصل رسمياً الى الاستنتاج التالي : « في جميع هذه الحالات ، يبدو ان الدافع الوحيد للجرائم كان رغبة بعض افراد العشائر في التخلص من نير الشيخ »[٩١] .

وكان ثمة عامل آخر جعل السركال والفلاح ، في ظل الادارة البريطانية ، اكثر شعوراً بظلم الملاكين مما كان عليه الامر (سابقاً) ، فكما كان الامر بالنسبة للضرائب ، كانت قسوة الشروط تتجمد امام استحالة التنفيذ . وقد علق الحاكم السياسي للحلة قائلاً : « ان الشروط مرهقة بشكل واضح في اراضي الطابو » . ولكنه اشار الى انه « في العهد التركي ، كما ينبغي ان نتوقـع ، لم تكن الشروط تنفذ . . كان السركال يوقع بسرور على اي عقد ايجار ، مهما كانت الشروط ، لأنه كان عاقد العزم على ان لا يدفع اوقية واحدة اكثر مما يستطيع احتماله ، ولأنه كان عالماً بأنه ليس من المحتمل ان تستخدم الحكومة اي ضغط شديد . والواقع ان الايجار لم يكن يعني شيئاً من الناحية العملية ، فالامر المهم كان قوة كل من الطرفين عندما يتم حصاد

---

(٨٦) الازيرج : عشيرة كبيرة متوطنة في المنطقة الممتدة من العمارة على دجلة الى بعض اجزاء المنتفك على العراق .

(٨٧) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, Nasiriyah District, 1919,» p. 21.

(٨٨) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p.3.

بني خيكان : عشيرة متحدة متوطنة في قضاء السوق .

(٨٩) المصدر نفسه .

(٩٠) المصدر نفسه .

(٩١) المصدر نفسه ، ص ٤ .

المحصول . . . والامر الواضح تماماً هو انه ، باستثناءات قليلة جدا ، لم يستطع (الملاك) ابداً ان يجمع استحقاقه كاملاً طبقاً لقاعدة المحاصصة او طبقاً للايجار. . . »[٩٢] .

كانت الادارةالبريطانية فخورة بكفاءتها وعازمة على تطبيق (القانون والنظام) . ولم تكن تستطيع السماح باستمرار هذا الوضع . ولكن بدلا من تغيير (الشروط المرهقة بشكل واضح) ، قررت الادارة تطبيق هذه الشروط . وقد لخص الحاكم السياسي للعمارة ببراعة ، نتائج هذا (النهج) : « اما الآن (١٩٢٠) ، فإن الامبراطورية البريطانية جعلت من غير الضروري (بالنسبة للملاك) كسب النية الحسنة للسركال ، الذي اصبح بذلك كلياً تحت رحمة (الملاك) ، خصوصا وان الاخير يشعر بثقة لا بأس بها من ان الحكومة لن تتدخل بين السركال والشيخ »[٩٣] .

ان هذه النقطة بالذات يمكن ان تزودنا بفهم افضل للانتفاضة العشائرية في صيف ١٩٢٠ ، وللعوامل التي مكنت الانتفاضة العشائرية من اكتساب طابع ودور وطنيين . كانت الادارة التركية تسير على مبدأ (فرق تسد) وكانت عاجزة عن وضع سياستها الضرائبية او العقارية موضع التنفيذ . اما الادارة البريطانية فلم تكن مسؤولة عن ادخال نظام الطابو او الانظمة المتعلقة بالارض . ومع ذلك ، فقد اخذ الانكليز بالانظمة التركية على علاتها ، وفضلا عن ذلك ، حاولوا تطبيقها .

كان الصراع في الماضي ، ذا طابع عشائري ـ داخلي ، الامر الذي كان يناسب الاتراك ، الا ان الادارة البريطانية بتصرفها نيابة عن الملاكين ، ساعدت على تحويل الصراع الى عشائري ـ حكومي . وبذلك ، كانت الادارة مسؤولة ، الى حد ما ، عن الوحدة التي لم يسبق لها مثيل بين العشائر التي صبت جام غضبها وتمردها على الادارة .

وهكذا ، بدأت عملية تحول سلسلة متكررة من التمردات الفلاحية الى ثورة ذات هدف وطابع (وطنيين) كانت الانتفاضة العشائرية في ١٩٢٠ ثمرة الوحدة العشائرية الهادفة الى تصفية الوجود السياسي البريطاني ، وهو هدف كان يشاركها فيه قوميو المدن وبعض علماء الدين ، الذين لم يترددوا في استغلال تطور واتساع الجسور السياسية مع العشائر الساخطة[٩٤] .

لقد انكشفت الطبيعة الاجتماعية للثورة عندما ذكر في تقرير رسمي انه « خلال الثورة ، اعيد النظر في قرارات معاوني الحكام السياسيين ، والمتعلقه بالمنازعات على الاراضي ، وتمت تسويتها بالرصاص »[٩٥] .
ومن جهة اخرى ، ذكر ان طبقة الملاكين الغائبين لم تكن اقل قلقا من الادارة حول نتيجة الثورة[٩٦] . وقد اكدت غروترود بيل هذا الانطباع وذكرت ان بعض وجهاء بغداد ، الذين

---

(٩٢) C.O. 696/1, «Administration Reports, Hillah Division, 1918,» p. 135.

(٩٣) C.O. 696/3, «Administration Reports, Amarah Division, 1920,» p. 26.

(٩٤) انظر الفصلين الثالث عشر والرابع عشر من هذا الكتاب .

(٩٥) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p. 4.

(٩٦) Richard Coke, *The Heart of the Middle East* (London: Butterworth, 1925), p. 178.

شاركوا في النشاط التحريضي في البدء ، شعروا بعد ذلك بالرعب ازاء تطور الثورة[٩٧] .

لقد حاولنا خلال هذا الفصل ان نبين ان اغلبية الحكام البريطانيين الموضعيين لم يكونوا ، على اقل تقدير ، يؤيدون السياسة المتبعة . وان عدداً غير قليل منهم اعرب عن تعاطفه العلني مع الزراع الفعليين وازدرائهم المكشوف للملاكين . ومما يثير الاهتمام الكبير ان السلطات العليا في لندن كانت هي الاخرى حذرة ازاء تورط الادارة البريطانية في العراق في سياسة متسرعة فيما يتعلق بالاراضي . ففي تموز / يوليو١٩١٨ قامت وزارة الخارجية بابلاغ وزارة الهند بأن « المستر بلفور يقترح ان تتم تسوية الصعوبة الناشئة بواسطة الدولة العراقية ، في حالة تشكيلها . . . انه لمن الضروري بشكل واضح تحاشي اتخاذ سياسة دائمة عن جباية البدلات ، وفي الوقت نفسه تحاشي الحاق اي ظلم بطبقة الشيوخ »[٩٨] .

وفي اوائل ١٩٢٠ اوعزت وزارة الهند الى المندوب المدني بـ « وجوب امتناع حكام التسوية في هذه المرحلة عن قبول وتطبيق مبادىء تختلف مادياً عن المبادىء الاساسية لادارة الواردات التركية »[٩٩] .

ان التعليمات والأراء الانفة الذكر تشير بعض الاسئلة المهمة حول الدوافع والاهداف الحقيقية للسياسة الفعلية التي اتبعتها الادارة ، والتي كانت تختلف (مادياً) عن سياسة الاتراك . وهذا يؤدي بالبحث الى مرحلة جديدة .

ثالثاً : الادارة البريطانية والنظام العشائري في العراق

في مذكرة بالغة الاهمية ، تحمل عنوان (مستقبل ما بين النهرين)[١٠٠]، كشف السير كوكس، دون مواربة ، عن جوهر النظام الاجتماعي الذي كانت الادارة البريطانية تسعى لاقامته في العراق . كتب كوكس : « ان العناصر التي ينبغي علينا تشجيعها هي التالية : اولاً ، الطائفة اليهودية في بغداد . . . ثانياً ، الوجهاء والاشراف العرب من سكان مدينتي بغداد والبصرة . ان هؤلاء عنصر مفلس ومتأخر بعض الشيء ، الا انه من الضروري جداً تشجيعهم واخذ ارائهم قدر الامكان . ثالثاً ، عنصر الملاكين الاغنياء ، من العرب واليهود على السواء ، والشيوخ الاكابر للعشائر المتوطنة . . . »[١٠١] .

وانسجاماً مع هذا الخط ، كشف المندوب المدني عن ان هدف ادارته هو « ضمان الاستفادة التامة من التعاون من قبل زعماء العشائر وكبار الملاكين في ادارة هذه المناطق »[١٠٢] .

---

(٩٧) Gertrude Lowthian Bell, «Private Letters and Papers, » New Castle-upon-Tyne University Library. «Letter Dated Baghdad, 30 June 1920,».

(٩٨) F.O. 371/3406/68571, «From Foreign Office to the Under-Secretary of State of India Office. Dated 17 June 1918-no. 102207/W/44,».

(٩٩) F.O. 371/5070, «From Secretary of State of India Office to Civil Commissioner,Baghdad,Dated 25 February 1920,».
(التشديد للمؤلف) .

(١٠٠) F.O. 371/3387, «Dated London, 22 April 1918,».

(١٠١) المصدر نفسه .

(١٠٢) F.O. 371/4152, «To Secretary of State for India Office, 10 November 1918- no. 9696,»

اننا نواجه مثالاً آخر على (وضع العربة امام الحصان) فقد حدد خط سياسي معين ، ولم تعط الا اهمية ثانوية للعواقب وللاعتبارات السياسية والادارية والادبية . الا ان هذا يعني ان كوكس وولسن قد اهملا كلياً دراسة البدائل الاخرى . وسيتركز البحث التالي حول هذه العوامل ، وحول الاختيار البريطاني ونتائجه المفجعة .

ان تنفيذ هذا الخط (المقترح من قبل كوكس وولسن) كان يتطلب بالضرورة (انعاش) وتعزيز النظام العشائري المزعزع . ولم تكن هذه الضرورة غائبة عن نظر الادارة البريطانية . ففي اواخر ١٩١٩ ، اشار المندوب المدني الى « ان سياستنا تقوم على محافظة وتطوير (التنظيم العشائري في ما بين النهرين »[١٠٣] .

وغني عن البيان انه حالما تم اقرار هذا الخط السياسي من جانب رئيس الادارة ، اصبح من اللازم وضعه موضع التطبيق ، سواء أكان ذلك بموافقة صغار الحكام البريطانيين ام لا . وهكذا نجد الحاكم السياسي للحلة يذكر ، في تقريره السنوي لعام ١٩١٨ ، ان هدفه خلال ذلك العام كان « تقوية مركز الشيخ وتعزيز النظام العشائري »[١٠٤] . وذكر الميجر نالدر ، الحاكم السياسي للرمادي ، في تقريره في اواخر ١٩١٧ ، « اني اقوم بكل ما في وسعي لتثبيت هيبة الشيخ ضاري[١٠٥] . . . ويبدو انه يبذل جهده لتثبيت سيطرته ، وآمل ان استطيع بمرور الزمن بسط نفوذه على العشيرة كلها »[١٠٦] . وكتب الميجر دكسن حاكم تقسيم الناصرية في اواخر ١٩١٨ : « لقد حاولت خلال السنوات الثلاث والنصف الاخيرة ان اجعل السلطة في كل عشيرة مركزة في يدي شخص واحد . وهذا الشخص هو الشيخ ، وتقوم الحكومة باختياره في كل حالة »[١٠٧] . واشار الحاكم السياسي للحلة في تقريره السنوي لعام ١٩١٩ ، الى انه « خلال السنة اتبعت سياسة محافظة وتقوية سلطة الشيخ ، بشكل ثابت ، وان النظام العشائري لا يزال ، بوجه عام ، اساس ادارة القضاء »[١٠٨] .

ان النظام العشائري بوجه عام ، وسلطة الشيخ بوجه خاص ، لم يكن من الممكن اعادتها

---

(١٠٣) F.O. 371 / 4152, «From Political Baghdad to Secretary of State for India, Dated 10 November 1919» no. 9093,».

من الغريب ان نجد آ . ت . ولسن يكتب في عام ١٩٣٠ : « . . . ان الاقتناع بكون تفكيك النظام العشائري ضروري للتقدم المطرد . . . هذا الاقتناع كان ينعكس في التغيرات الوظيفية التدريجية في تنظيم الادارة خلال ١٩١٩ و١٩٢٠ . . . » ، انظر :

Wilson, *Mesopotamia, 1917 - 1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 76.

(١٠٤) C.O. 696/1, «Administration Reports, Hillah Division, 1918,» p. 121.

(١٠٥) اتخذ الشيخ ضاري بن محمود امين سليمان ، شيخ عشيرة زوبع ، موقفاً مناوئاً للانكليز في الايام الاولى من الاحتلال ، وبعد فترة من التعاون مع الادارة ، اشترك اشتراكاً باهراً في ثورة العشرين . انظر :

C.O. 696 / 1, «Baghdad Wilayat, Administration Report for the Year 1917,» pp. 43-44.

(١٠٦) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

(١٠٧) C.O. 696/1, «Administration Reports, Nasiriyah District, 1918,» p.351.

(١٠٨) F.O. 371 / 6348 / 99, «Administration Report of the Hillah Division for the Year 1919,».

بمجرد التمنيات او بالمراسيم الادارية ، مهما بلغ من قوة السلطة(١٠٩) . ان جوهر النظام العشائري العراقي كان يعتمد الى درجة كبيرة على الملكية الجماعية او المشاعية لأرض العشيرة او (الديرة) . ومن الصعب ان نتصور امكانية الغاء الملكية المشتركة للأرض والمحافظة في الوقت نفسه على النظام العشائري او هيبة الشيخ المالك .

الظاهر ان مرور حوالى عشرة اعوام قد بدل من آراء ولسن حول الموضوع وجعلها اكثر دقة ومسؤولية ، فقد كتب في ١٩٣١ ، بخصوص المسألة الآنفة الذكر : « . . انها كانت احدى المشاكل الرئيسية التي واجهتنا ، لأنها اثارت مسألة الشكل المقبل للحكم في العراق ، فهل كان يجب علينا ان نهدف الى شكل (بيروقراطي) في الادارة . . ينطوي على السيطرة المباشرة لحكومة مركزية والاستعاضة عن الاتحادات العشائرية القوية بوحدات اصغر ، عشائرية او ما دون العشائرية ، كمقدمة للملكية الفردية للارض ، بدلاً من الملكية المشاعية ، ام ان هدفنا كان يجب ان يكون محافظة وتعزيز سلطة رؤساء العشائر ، على ان تكون خاضعة لضمانات مناسبة ، وجعلهم الوكلاء والممثلين الرسميين للحكومة ضمن مناطقهم الخاصة . وكانت السياسة الاخيرة هي التي اتبعت فعلاً ، في حين اتبعت سياسة افضل منها في ولاية البصرة ولاسيما في تقسيم المنتفك . . . »(١١٠) .

الا ان هذا الوصف للخيارات الاجتماعية ـ السياسية التي واجهت الانكليز هو محدود بعض الشيء . ذلك ان الادارة لم تكن حرة تماماً في اتخاذ قراراتها، فقد كان النظام العشائري يتفكك فعلاً ، ويتجه الى الانحلال ، وقد اعترف ولسن نفسه بذلك : « لم تكن ايدينا ، بطبيعة الحال ، طليقة تماماً ، فمنذ حوالى خمسين عاماً ، كان الاتراك قد اتخذوا خطوات لتحطيم العشائر الاكبر حجماً في منطقة الشامية وذلك بتخصيص جزء من اراضيها لفئات عشائرية اصغر وللسادة . كما ان رؤساء العشائر الصغيرة بدورهم قسموا الاراضي المخصصة لهم بين رؤساء عائلاتهم ، محتفظين بجزء منها فقط لانفسهم . ان رؤساء العوائل الاصليين هؤلاء ، المعروفين الآن بالسراكلة ، لهم نفس الحقوق التي لرؤسائهم على ارضهم »(١١١) .

وقد كان لهذا التطور اثره على العشائر ، التي اخذت ، استناداً الى اقوال ولسن ، « تبدي استعداداً كبيراً للتخلي عن ولائها لرؤسائها وللتعامل مباشرة مع الموظفين المدنيين فيما يتعلق بالواردات والامور الاخرى . وقد تجلت هذه النزعة خلال ١٩١٨(١١٢) بدرجات مختلفة في كل قضاء في ما بين النهرين »(١١٣) .

---

(١٠٩) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 77.

إن هذه المهمة المطلوبة اصبحت اصعب تحقيقاً عند محاولة الادارة الجمع بين شرطين متناقضين وهما : الاعتراف بالملكية الخاصة للارض وتطبيقها من جهة ومحاولة انعاش القوة والمركز السابقين للنظام العشائري من جهة اخرى . ويبقى السؤال قائماً عن كيفية تصور الادارة لهذا الجمع .

(١١٠) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

(١١١) المصدر نفسه .

(١١٢) في اواخر عام ١٩١٨ ، قررت الادارة وضع ثقلها لصالح الملاكين ، انظر الصفحات السابقة .

(١١٣) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

الا ان الادارة البريطانية قررت عدم التعجيل بعملية انحلال العشائر ، بل وضع حد لها . ان دوافع هذه الخطة ، والاساليب التي استخدمت لتحقيقها ، ونتائج ذلك ، هي مواضيع سيتم بحثها تباعاً .

١ ـ الدوافع الكامنة وراء هذه السياسة

يبدو ان الادارة البريطانية قد اعتبرت ان سلطتها وهيبتها تتطابقان مع سلطة وهيبة الشيوخ . وعليه ، فقد افترض انه لغرض اعادة سيطرة الحكومة على عشائر الفرات ، من الضروري اعادة سلطة الشيوخ .

لقد ورد في تقرير رسمي منذ الايام الاولى لوصول البريطانيين الى المناطق العشائرية العراقية انه من البديهيات المسلم بها انه لأجل ادارة العشائر بشكل صحيح ، من الضروري ان يتم ذلك مباشرة عن طريق شيوخها[١١٤] . وقد واجهت هذه النية تحدياً متمثلاً في الظروف السائدة التي وصفت كما يلي :

« لسوء الحظ ، كان النظام التركي للادارة العشائرية يقوم على مبدأ معاكس تماماً هو مبدأ التفرقة اي الحرص على خلق الفوضى لأجل منع التآزر بين اجزاء العشيرة الواحدة ، وكانت قاعدة التفرقة قد طبقت بشكل واسع جداً ، بحيث كانت الفوضى تامة تقريباً في ارجاء منطقة الفرات ، وكانت العشائر تنقسم على سلطة شيوخها . . .الى درجة تقارب نقمتها حتى الآن . . . على سيادة الحكومة »[١١٥] .

وبدلاً من تحليل الجذور العميقة لهذه الظاهرة (اي ملكية الارض) ، قفزت الادارة الى استنتاج مختلف . فقد مضى الحاكم السياسي قائلاً : « ان الهدف الاول للادارة المدنية ، اذن ، هو احلال النظام محل هذه الفوضى وذلك باعادة سلطة الشيوخ واستخدامهم ، بعد دعمهم بالثقة المستوحاة من الهيبة البريطانية ، لاعادة سلطة الحكومة في ارجاء المنطقة »[١١٦] .

وكانت ثمة عوامل عديدة تملي هذا الخط السياسي . فأولا ، كان المفترض ان الشيوخ سيساعدون على تحمل بعض المهمات الادارية التي « من شأنها ان تستغرق كثيراً من وقت الحكام السياسيين المثقلين بالاعباء ، وتدر دخلاً وفيراً على المأمورين »[١١٧] .

وقد قدم الميجر ولسن ، الحاكم السياسي لكوت الامارة ، شرحا اكثر اسهاباً لنظرة الادارة وتوقعاتها من السياسة التي اجملناها آنفاً ، فقد كتب : « ان من الصعب المبالغة في تقدير قيمة مثل هذا الرجل

---

(١١٤) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p.2.

(١١٥) المصدر نفسه .

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ٣ .

(١١٧) C.O. 696/2, «Administration Reports, Hillah Division, 1919,» p.17.

(محمد صيهود ، امير ربيعة) ، وهو يستحق كل المساعدة التي نستطيع تقديمها اليه . كما ان مساعدتنا له تعتبر من باب (التعامل التجاري) . ان عشيرة كبيرة مثل آل ربيعة ، تفقد مبررات وجودها في ظل حكومة قوية ، في ظروف السلم ، وتصبح بالتالي عرضة للانحلال . وثمة اجزاء منها تبذل جهوداً حثيثة لتحقيق استقلالها . وما عدا الواقع المتمثل في ان نقص السكان والعمل يتطلبان المحافظة على تماسك العشيرة، فإن ذلك مفيد جداً لمصلحة الحكومة ، لاسيما الحكومة الراهنة ، التي تسعى الى تحقيق (الاقتصاد حتى على حساب الكفاءة) . ان هذا الامر ليس اقتصادياً فحسب ، بل ثبت انه اكثر كفاءة ايضاً . . . ان بامكان شيخ كبير واحد ان يبني طريقاً ولكن ليس بامكان (٢٠) شيخاً صغيراً ان يفعلوا ذلك . والى ان تصل الى مرحلة اكثر تقدماً بكثير من المرحلة الراهنة ، يبدو من المستحسن تأخير التفكك المحتوم »[١١٨] .

وقد اشار الميجر دكسن ، حاكم الناصرية ، الى عامل آخر يكمن خلف هذه السياسة ، فقد كتب : « في بداية احتلالنا للناصرية والسوق ، كان هناك ستة او سبعة شيوخ في كل عشيرة ، ولكنهم ذوو مراكز متساوية (دع عنك حشداً من المطالبين بالزعامة) ، اما الآن ، فنجد رجلاً قوياً واحداً ، يحصل ، كقاعدة عامة ، على عون مالي من الحكومة ويدرك ان مصلحته تقتضي التصرف باستقامة »[١١٩] .

ولقاء المساعدة المقدمة للشيوخ ، كانت الادارة تطلب منهم او تطالبهم بخدمات معينة : ويمكن تلخيص هذه المسؤوليات فيما يلي ، استقاء من تقارير ادارية مختلفة :[١٢٠]

- المحافظة على القانون والنظام في المناطق الخاضعة لسيطرتهم .
- (دفع الواردات بانتظام) والمساعدة في جبايتها .
- (جباية البدل السنوي وتسليمه للملاكين حيثما كان ذلك ممكناً) .
- حماية المسافرين والممتلكات الحكومية والمساعدة في صيانة المواصلات ، والبرق والهاتف . . الخ .
- اعتقال وتسليم المخالفين و(السيئين) .
- تقديم الخدمات الطيبة والولاء بوجه عام للحكومة .
- التصرف بشكل عادل في تسوية الخلافات .
- المساعدة في اقامة علاقات طيبة بين فروع العشائر وما يماثل ذلك من الامور .

---

(١١٨) C.O. 696/2, «Administration Reports, Kut al-Amarah, 1919,».

(١١٩) C.O. 696/1, «Administration Reports, Nasiriyah District, 1918,» p.351.

(١٢٠) المصدر نفسه ، انظر ايضاً :

C.O. 696/2, «Administration Reports, Hillah Division, 1919,» p. 18; C.O. 696/2, «Administration Report of Shamiyah, 1919,» p. 2, and C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p. 4.

ـ تسوية الخلافات الصغيرة بين افراد عشائرهم ، وكذلك الخلافات الكبيرة التي تحال اليهم من قبل معاوني الحكام السياسيين .

٢ ـ الاساليب المستخدمة لتنفيذ هذه السياسة

ان الادارة كانت تدرك ان سلطة الشيخ غير قادرة على تحقيق هذه المطاليب . ومن ثم فقد تقرر تعزيز هيبته ، عن طريق اسلوبين آخرين (ما عدا الاسناد الحكومي المباشر) وهما : المخصصات المالية ، وادخال (نظام دعاوى العشائر) . لقد اشير الى ان (الرأي العام) لم يكن في جانب الشيوخ و« ان من الصعب ايجاد قوة تجبر السراكلة ، الذين يؤلفون الاغلبية ، على الالتزام كلياً باوامرهم ، التي كانت ترتكز على الاوامر التي يتلقونها بدورهم من الحكومة »[١٢١] .

وعليه ، فقد اقترح الكابتن اوسليفان ، حاكم الرمادي ما يلي : « يبدو لنا ان ثمة علاجين لحل هذه الصعوبة . واولهما تمويل الشيخ ، وتمكينه من الاحتفاظ بحرس شخصي مسلح صغير على حسابه في الواقع ، يكفي لحث (السراكلة) على بذل جهود كافية ، وتوفير قوة دافعة وراء اوامره التي لا تحظى بـ (استحسان الجمهور)[١٢٢] .

اما العلاج الاخير فكان يتضمن متدرجاً من الغرامات التي تتناسب تناسباً طردياً مع عدم التزام عشيرته بالاوامر الصادرة اليها[١٢٣] . وفضلاً عن ذلك ، يبدو ان الادارة حاولت اعطاء الشيخ مصلحة مالية في جباية الواردات في منطقته[١٢٤] . « وبناء على هذه السياسة ، جرت اعفاءات معينة من حصة الحكومة (منذ اوائل ١٩١٧) بطريقة تعطي الشيخ حصة (في الواردات)»[١٢٥] .

وقد كتب السير ارنولد ولسن : « في هذه الاثناء (تموز / يوليو ١٩١٧) اصدرت تخويلاً بمنح تنازلات معينة من الواردات للشيوخ الاكابر في منطقة الفرات لقاء تعاونهم »[١٢٦] .

وكانت المخصصات المالية للشيوخ تتخذ اشكالاً متعددة : الاعانات والهبات ، الرواتب ، التنزيلات ، التنازلات ، وحصة من الواردات المجباة[١٢٧] . ولا نرى فائدة من الاسهاب في هذا الموضوع ، ما عدا الاشارة الى ان هذه المخصصات ، التي كان جزء غير يسير منها يستقطع من

---

(١٢١) C.O. 696/1, «Baghdad Wilayat, Administration Report for the Year 1917,» p.99.

(١٢٢) المصدر نفسه .

(١٢٣) المصدر نفسه.

(١٢٤) F.O. 371/3406/139231, «Administration Report of Revenue Department, Baghdad, 22 March-31 December 1917,».

(١٢٥) المصدر نفسه .

(١٢٦) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 57.

(١٢٧) C.O. 696/1, «Administration Reports, Nasiriyah District, 1918,» p.351.
أشار الميجر دكسن الى ان كل شيخ في تقسيمه كان يتقاضى ٢٠٠ روبية شهرياً (باستثناء رواتب المدير) ، انظر : C.O. 696/1, «Baghdad Wilayat, Administration Report for the Year 1917,» p. 91.

الضرائب المفروضة على الزراع ، كانت عملياً عديمة الفائدة قد شكلت عبئاً اضافياً على الزراع الفعليين . ويكفي في هذا الصدد الاشارة الى انه خلال ١٩١٩ ،وفي تقسيم المنتفك وحده ، تلقى شيوخ آل السعدون ٢٧,٨٤٠ روبية ، وتلقى شيوخ قضاء السوق (البو صالح والحمار الشرقي والغربي) ٩٩٥ روبية شهرياً ، وفي قضاء الناصرية ، تلقى شيوخ (آل حسن وبني خيكان والمجرة والسيد) ١,٢٠٠ روبية شهرياً . وكان شيوخ الشطرة يتسلمون مبلغ ١,٢٥٠ روبية شهرياً ، وخصص لقلعة سكر مبلغ ٢٠٠ روبية . وكان الشيخ خيون العبيد يتلقى ٥٠٠ روبية شهرياً[١٢٨] .

وبعد فترة قصيرة من الاحتلال البريطاني لبعض المناطق العشائرية في العراق ، اقتنعت الادارة بأن من الضروري اجراء تشريع محدد لتمكين الحكام السياسيين من تصريف الدعاوى المدنية والجنائية في اقضيتهم « بدون الرجوع الى المحاكم القائمة في البصرة والعمارة والناصرية »[١٢٩] . وعليه ، قام المستر دوبسن بوضع نظام دعاوى العشائر والمرافعات المدنية ، وشرع القانون في شباط / فبراير ١٩١٦ ، وذلك على اساس نظام الحدود الهندي (الشمالي - الغربي)والمعروف (بنظام ساندمان) .

وقد خول النظام الحكام السياسيين صلاحية عقد مجلس عشائري للنظر وفق الاسس والعادات العشائرية ، في جميع الدعاوى التي يكون احد اطرافها من افراد العشائر . وفي الوقت نفسه خول النظام الحكام السياسيين سلطات قضائية كاملة للنظر في الدعاوى التي قد يكون من الانسب احالتها للتحكيم[١٣٠] .

وما عدا الاهداف والاعتبارات العشائرية الحقيقية ، فإن النظام « رفع من اهمية الشيوخ باعطائهم مركزاً معترفاً به في النظام السياسي والقانوني . كما وجد الحكام السياسيون ، من جانبهم ، ان مهمة كبيرة قد ازيحت عن عواتقهم »[١٣١] .

وقد اثبت النظام فائدته الكبيرة للادارة وجهازها ، الا انه ، من جهة اخرى ، لم يخل من بعض النواقص . وقد ورد في تقرير رسمي : « ان قانون العشائر ليس رادعاً فعالاً للجريمة ، حيث ان مسؤولية العقوبة لا تقع على الفرد الذي ارتكب الجريمة ، بل على العائلة او الفرع او العشيرة التي ينتمي اليها . وعلى هذا ، فإن حصة غرامة الدم التي يدفعها المجرم في الواقع قد تكون تافهة »[١٣٢] .

---

(١٢٨) C.O. 696/2, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1919,» appendices C and D.

(١٢٩) F.O. 882/27, «Arab Bulletin no. 86, Dated 21 April 1918, Mesopotamia Tribal Disputes Regulation,».

(١٣٠) المصدر نفسه .

(١٣١) Philip Willard Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (London: Jonathan Cape, 1947), p. 66.

(١٣٢) C.O. 696/2, «Report on the Administration of Justice for the Year 1919,» p.6.

وفضلاً عن ذلك ، « كانت آراء افراد العشائر والحكام السياسيين غالبا ما تتصادم حول احدى نماط العدالة العشائرية . ففي حالات القتل بدافع الاخذ بالثأر ، كان افراد العشائر قد اعتادوا على اعتبار (الفصل) ، اي دفع مبلغ من المال ، او تقديم نساء امراً كافياً لتسوية الحساب وانهاء الخلاف . ولذلك ، كانت عقوبة الحبس او الاعدام تعتبر ليس فقط قاسية ، بل غير ضرورية »(١٣٣) .

وكانت ثمة طريقة اخرى استخدمتها الادارة لتعزيز مركزها بين العشائر ، وهي تجنيد بعض افراد العشائر في قوة امنية عرفت بـ (الشبانة) . وكان العدد الاجمالي لهذه القوة في اواخر ١٩١٧ يبلغ حوالى ١٥٠٠ . وفي نيسان / ابريل ١٩٢٠ بلغ عدد الشبانة ٤،٨٠٠ من بينهم ٨٠٠ كردي، وكان البقية عرباً ، مع عدد من الفرس(١٣٤) .

وكان لهذه الخطوة فوائدها ، سواء بالنسبة للادارة او لتطور العراق . الا انه من المفارقات ان نجد ، ان احدى نتائجها كانت احباط المحاولات البريطانية . « فقد كانت تتجه الى اضعاف سلطة الشيوخ على عشائرهم ، وحرمانهم قسماً من خيرة رجالهم ، وتحطيم الحاجز الصلب القائم بين العشائر . . . »(١٣٥) .

وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الخطوة لم تنجح في اعطاء الادارة الوجه المحبب الذي كانت ترغب في الظهور به بين العشائر . والواقع ان افراد الشبانة كانوا معزولين ومحتقرين ، ومكروهين بين العشائر . وقد كتب المندوب المدني : « كان الناس يسمونهم (اي الشبانة) جهاراً بالكفار في الشوارع ويرفضون تقديم الطعام لهم في الاسواق والمقاهي ، ويعطمون علناً الانية التي يشربون منها . وكانت نساؤ هم يتجمهرن حول الثكنات ، ويبادين على ازواجهن واولادهن ليأتوا لحمايتهن . وكان البقاء مع الليفي يعني بالنسبة للكثيرين نبرؤ عشائرهم منهم : وفي حالات عديدة كانت نساؤ هم عرضة للاغتصاب ، او الاختطاف او حتى القتل . . . (كذا) »(١٣٦) .

وكان العار الذي يقترن به اسم (الشبانة) كبيراً ، في وقت من الاوقات ، الى درجة ان الواحد منهم كان غالباً لا يتلقى رداً اذا قال (السلام عليكم) ، وذلك باعتباره كافراً(١٣٧).

ان سياسة الادارة البريطانية جعلت الشيخ (مركز موظف حكومي) وسمحت له بممارسة « مهمات لا تختلف كثيراً عن المهمات التحقيقية والقضائية »(١٣٨) . الا ان هذه السياسة كانت في النتيجة فاشلة وخطرة . فإنها فشلت في (احياء) النفوذ المتضائل للشيوخ ، واثارت سخط افراد العشائر .

---

(١٣٣) Ireland, *Iraq: A Study in Political Development*, p. 86.

(١٣٤) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 86.

(١٣٥) المصدر نفسه . ص ٦٩ .

(١٣٦) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

(١٣٧) C.O. 696/3, «Administration Reports, Arab and Kurdish Levies and Gendarmerie, 1915-1920,».

(١٣٨) F.O. 371/6348/99, «Administration Report of the Hillah Division for the Year1919,».

٣ ـ نتائج هذه السياسة

ان فشل مساعي الادارة قد تقرر سلفاً بسبب محاولتها التوفيق بين مواقف او مهمات متناقضة . فقد كان من الصعب على الشيخ ان يكون ، في وقت واحد ، ملاكاً وزعيماً مقبولاً للعشيرة ، كما كان من الصعب على الشيخ ان يحصل على احترام عشيرته في الوقت الذي كان يطلب منه جباية الضرائب من افراد عشيرته بالنيابة عن الحكومة ، وقد قدم الحاكم السياسي للمنتفك الشرح المتوازن التالي :

« ان الوضع اليوم (١٩٢١) هو ان الشيخ ، بالرغم من انه قد يكون راغباً في القيام بهذه الخدمات ، الا انه غير قادر على ذلك . انه لا يستطيع ان يخدم سيدين . فهو ، لكي يكون محبوباً بين عشيرته ، يجب ان يساير آراء افراد عشيرته وزعمائهم الفرعيين (السراكلة) الذين يمكن تلخيص وجهة نظرهم كما يلي : « اذا كانت الحكومة تستطيع ان تفرض علينا دفع الواردات فسندفع والا فلا » . الا ان تضاؤل نفوذ الشيخ لا يعود كلياً الى عدم اسناد الحكومة له . فإن سلطته قد فرضت على العشائر ، واستناداً على ذلك ، فإنه قد استغل كافة الفرص للحصول على ما يعتبره حقه الشرعي من افراد عشيرته رغماً عنهم . اما الآن فلم يعد يستطيع ذلك ، وعندما يطلب منه القيام بأي من الخدمات المنتظرة منه كشيخ للعشيرة ، فإن جوابه الفوري يكون طلب تزويده بالقوة .انه لا يرغب في تسديد الواردات المطلوبة منه ، وفي الوقت نفسه ، فإنه عاجز عن جباية اي ضرائب من افراد عشيرته »(١٣٩) .

ان العبارات الآنفة الذكر تشير الى ان السياسة البريطانية لم تكن فقط غير منتجة ، بل كان لها مفعول عكسي،ذلك ان الشيوخ اساءوا استخدام السلطة التي خولتها لهم الحكومة واستعملوها لاثراء انفسهم . كما ان الشيوخ الآخرين وافراد العشائر نقموا على القوة المتعاظمة للشيوخ الحكوميين وقد قرنوا قوتهم وسلوكهم بقوة وسلوك الحكومة نفسها . وحسب تعبير غروترود بيل ، « ان سياسة اسناد الشيوخ كان لها جوانبها السلبية ، فالشيخ طاغية صغير تنعكس مساوئه على الحكومة التي تسنده »(١٤٠) . ولذلك كان من المنطقي ان تتخذ النقمة على الشيوخ المتملكين طابعاً مناوئاً للحكومة وتصب في المجرى العريض للحركة الاستقلالية والوطنية والقومية .

لقد اتضح الطابع الاجتماعي والوطني لثورة العشرين في الحقيقة المهمة التالية وهي « انه عندما تم اجلاء معاوني الحكام السياسيين للاقضية ذهب معهم الشيوخ الكبار ـ الذين كانوا حتى ذلك الحين يعتمدون على الذهب البريطاني والحراب البريطانية . . . الى ان زحفت الارتال البريطانية مرة اخرى الى اقضيتهم »(١٤١) .

وقد ذكر الميجر هديكوك ، في تقويم متوازن للسياسة العشائرية البريطانية « انه (الشيخ) لا

---

(١٣٩) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p.4.

(١٤٠) Great Britain, *House of Parliament, Parliamentary Papers-Cmd. 1061: Reveiw of the Civil Aministration of Mesopotamia* (London:His Majesty's Stationary Office, 1920), p. 143.

(١٤١) C.O. 696/4, «Administation Reports, Muntafiq Dvision, 1921,» Df.4-5.

يزيد في الواقع عن كونه رئيساً صورياً ، لا يملك من القوة الا ما يزيد قليلاً جداً عما يحصل عليه من دعم حكومي . ان شخصية الشيخ هذه . . . لا تساوي الا قليلاً جداً »[١٤٢] .

وقد توصل الحاكم السياسي للعمارة الى الاستنتاج التالي : « لقد وقعنا في خطأ المبالغة في تقدير اهميته (اي الشيخ) واستشارته اكثر من اللازم ، على حساب الرجال المثقفين والبعيدي النظر من الطبقات الاخرى . فمثلاً ، نجد في مجلس وجهاء العمارة احد عشر شيخاً مقابل خمسة من اهل المدن في حين ان السراكلة والفلاحين ، الذين يؤلفون اكبر نسبة من سكان التقسيم ، غير ممثلين »[١٤٣] .

وحتى من وجهة النظر الزراعية ، يبدو ان الادارة « اغفلت حقيقة ان الشيخ لا يمثل المصالح الزراعية سواء من وجهة نظر السركال او الفلاح»[١٤٤]، وقد ذكر في الواقع ان(الشيخ)كان« . . . في العادة جاهلاً، ضيق التفكير ، وغير تقدمي ، انانياً جداً وجشعاً للمال الى حد فظيع . انه لا يوافق على اي مشروع يلحق ادنى ضرر بجيبه او هيبته ، مهما كان المشروع مفيداً لسائر المجتمع . وبالنتيجة ، فإن كون معظم الثروة والارض في التقسيم محصوراً في ايدي شيوخ عشائريين قلائل ، هو امر يثير بعض الاستياء »[١٤٥] .

ولا يسعنا الا ان نبدي قسطاً معيناً من الاهتمام بالموقف البريطاني المتسم بالمرونة ، والدهاء ، والبراغماتية . فإنهم ، في غمرة سياستهم (الضالة) كانوا قادرين على تحديد نهج بديل ، وهو الذي اتبعوه في نهاية الامر ، « مع تنامي الخبرة الرسمية ، كان يتنامى ايضاًالاقتناع بأن تفكك النظام العشائري امر ضروري بالنسبة للتقدم المطرد، مهما كان شكل الحكومة المنظمة التي ستتكون في المستقبل . وقد انعكس هذا الاعتقاد في التغيرات الوظيفية التجريدية في تنظيم الادارة . . »[١٤٦] . وقد جرى هذا التغير الجذري الجديد في السياسة البريطانية مباشرة بعد ثورة العشرين ، التي قدمت شواهد كثيرة على فشل السياسة القديمة .

كانت الادارة على علم بازدياد قوة السراكيل ورغبتهم العامة في التخلص من كل آثار سيطرة الشيوخ و « التعامل مباشرة مع الهيئات التنفيذية المحلية في كافة الامور المتعلقة بهم بالحكومة »[١٤٧] . وفي الواقع ، ان الادارة كانت تدرك منذ ١٩١٧ ، ضرورة « النزول في العمل على مستوى السركال »[١٤٨] . الا ان هذا الرأي استبعد بسبب (الخطر) الناجم عن تشجيع « التعجيل في عملية التفكك السريع

---

(١٤٢) C.O. 696/3, «Administration Reports, Amarah Division, 1920,» p.26.

(١٤٣) المصدر نفسه .

(١٤٤) المصدر نفسه .

(١٤٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(١٤٦) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 78.

(١٤٧) C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p.4.

(١٤٨) F.O. 371 / 3406 / 68571, «Administration Report, Revenue Board, Baghdad, 22 March- 31 December 1917,» p. 24.

واضعاف سلطة الشيخ »[149] . وفضلاً عن ذلك ، ذكرت المخابرات البريطانية في الفرات في تقرير لها ، منذ ١٩١٦ ، « ان عشيرة الخزاعل (التي تقيم في المنطقة الواقعة بين السماوة والكوفة) قد بعثت رسالة الى السلطات البريطانية تعرض فيها مساعدتها للقوات البريطانية عند وصولها السماوة »[150] . وقد اوردت المخابرات البريطانية التعليق التالي على هذا العرض .

« لم يكن بمقدورنا ، مع ذلك ، الاعتماد على كثير من التأييد من جانب العشائر العربية على الفرات . وبالرغم من انهم في الوقت الحاضر مناوئون للاتراك بشكل خاص الا انهم على الارجح ، كما يشير (الحاكم السياسي) للناصرية مناوئون لأي حكومة ، ويرغبون في البقاء مستقلين »[151] .

ومن الغريب ان هذه الافكار والتشخيصات كافة قد احيلت لمصلحة سياسة لم يكن لها ، في الاساس ، اي تبريرات موضوعية . فقد تمت التضحية بالقوة النامية والمنتجة للسراكيل والشيوخ غير المتملكين ، لمصلحة ملاكين ضعفاء وانانيين . واهملت الرغبة الحقيقية المثبتة لافراد العشائر والفلاحين في تحقيق حياة مستقلة ، وفرض بدلاً عنها شكل من الادارة الحكومية يتسم بالتشدد ، والضرائب الفادحة ، والمركزية المفرطة . ولذلك ليس من قبيل المبالغة القول بأن الادارة البريطانية كانت ، في التحليل النهائي ، تقوم بدور (حفار القبور) لجنازتها الخاصة .

ان (استياء) الفلاحين والسراكيل والشيوخ غير المتملكين وصل الى نقطة اللارجعة . وكان اعتقال الشيخ شعلان ابو الجون على يد الميجر دالي (في ٢٩ حزيران / يونيو ١٩٢٠) القشة الاخيرة التي قصمت ظهر الجمل . ففي صيف ١٩٢٠ ، هب الفرات الاوسط بأسره الى السلاح . واكتسحت الثورة الادارة وشيوخها (المدللين) واخرجتهم من المنطقة ، وانتشرت الى ديالي والرمادي . وخيّم على القوات البريطانية في بغداد شبح الوقوع في مصير مماثل لمصير الخرطوم ابان ثورة المهدي .

ان اشتراك الفلاحين في السياسة القومية كان نتيجة تغيرات اجتماعية ـ اقتصادية معينة وانظمة عقارية ادخلها الاتراك ، كما ان تطبيق الانكليز لهذه التدابير عمق اشتراك الفلاحين في السياسة . ومع ذلك فقد بقيت هذه المشاركة محصورة ضمن نطاق ضيق . لقد تطور (نضال) الفلاحين من النطاق العشائري ـ الداخلي الى مناهضة الحكومة ومن النطاق المحلي الى النطاق القطري . الا انه لم يكتسب شكل اتحاد او تطابق تام مع القوميين .

كان المطلب الاساسي للشيوخ غير المتملكين هو الحصول على الاراضي المزروعة . وكانوا على علم بأن الادارة قد توصلت الى الاستنتاج بأنه « عندما يستحوذ الشيخ على قطعة ضخمة من الارض ، ينتمي جميع زراعها الى عشيرة غير عشيرته . . (فينبغي) حمله على التخلي عنها لمزارعين مجربين قادرين على تحسين تلك

---

(١٤٩) المصدر نفسه .

(١٥٠) F.O. 882/26, «Arab Bulletin, no. 38, December 1916: Euphrates Intelligence,».

(١٥١) المصدر نفسه .

الارض »(١٥٢) . وكـان بعض الشيوخ غـير المتملكين مـطلعين عـلى وجهة نـظر للادارة تـدعـو البريطانيين الى « تحويل (افراد العشائر) الى ملاكين ، واعطائهم فرصة الحصول بانفسهم على اوراق الطابو بمرور الزمن »(١٥٣) . وباختصار ، كان بعض الشيوخ يدركون ان الادارة على وشـك اعادة النـظر في سياستها .

ان هذا الادراك قد ادى الى تمييع الصراع وتحييد وتغريب Alienation بعض الشيوخ ازاء الحركة (ثورة العشرين) . واتخذ شيوخ آخرون موقفاً مزدوجـاً . فمن جهة ، سمـحـوا لافراد عشائرهم بالثورة ، واحتلال البنايات الرسمية ورفع راية الاستقلال عليها . ومن جهة اخرى ، قاموا بحماية الموظفين البريطانيين وقاوموا كافة المحاولات الرامية الى انتشار الثورة الى المنـاطق المجاورة ورفضوا تقديم اي مساعدة ذات شأن لقوى الثورة في معاركها ضد الجيش البريطاني .

ان هذا الموقف يلقي بعض الضوء على الاسباب الكامنة وراء فشل الثورة في التحول الى قوة ضاربة خارج حدود المناطق العشائرية . وهو فضلاً عن ذلك اعطى الادارة وقتاً كافياً لتجميع قواها وبالتالي توجيه ضربة مضادة ادت الى اخماد الثورة . ان الادارة ، بعد تحقيق انتصارها ، كافأت (حصانها الطروادي) وقد اتخذ امتنانها شكل قطع واسعة من الارض اعطيت ، مثلاً ، للشيخ خيون(١٥٤) ، الذي وعدته الادارة بأنه « مهما كان شكل الحكم في المستقبل في هذه البلاد ، فإن خدمات الشيخ خيون لن تنسى »(١٥٥) . انها حقاً لم (تنس) . وتم توزيع الارض كهبات للشيوخ الذين لم يسهموا في كفاح الثورة .

ومع ذلك ، فإن الثورة الفلاحية قدمت للحركة الاستقلالية خدمة لا تقدر بثمن . فقد كانت الضربة النهائية التي اثبتت عقم خطط ولسن وحملت الحكومة البريطانية على اتباع سياسة

---

(١٥٢) C.O. 696/3, «Administration Reports, Amarah Division, 1920,» pp.26-27.

(١٥٣) F.O. 371/3406/102207, «Report by Captain H.R.P. Dickson, A.P.O. Suq-ash-Shuyukh, Dated 9 May 1917.».

(١٥٤) تأخر الشيخ خيون العبيد في تقديم خضوعه للسلطات البريطانية حتى عام ١٩١٨ . ولدى زيارتـه الاولى اضطر الحاكم السياسي للناصرية (الميجر دكسن) لتعيين خيون ممثلاً بريطانياً في الشطرة . « ان خيون هو الشخص الاقوى والاكثر نفوذاً في القضاء . وقد كان قائمقام الشطرة في زمن الاتراك . . انه مكروه جداً وموهوب الى درجة لا توصف ، وكان دائماً يحكم الشطرة بقضيب من حديد » . وفي عام ١٩٢١ ذكر في تقرير رسمي ان « التفكك العشائري الذي سعت اليه الحكومة التركية . . . هو امر واقع فعلاً » . انظر :

C.O. 696/1, «Administration Reports, Shetrah, 1918,» p. 381.

وهناك الآن ثلاث طبقات في المنتفك : ١ ـ الشيوخ الاقوياء والاكابر . ٢ ـ شيوخ العشائر الذين يعتمد نفـوذهم بالدرجة الرئيسية على الدعم الحكومي . ٣ ـ السراكيل او زعماء الفروع ، وفروع الفروع في العشائر . وبـالنسبة للحالة الاولى هناك فقط ثلاث شيوخ اكابر : سالم الخيون (من بني اسد) ؛ بدر الرميض (من البو صالح) ، وخيون العبيد (من عشيرة العبـودة في العراق) . انظر :

C.O. 696/4, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1921,» p. 5.

(١٥٥) C.O. 696/3, «Administration Reports, Muntafiq Division, 1920,» p.11.

جديدة ، واظهرت قوة الروح القومية العربية واعطت القوميين العراقيين مركزاً قوياً للتفاوض وقد كان تأسيس الدولة العراقية يعود الى حد كبير الى الانفجار السياسي الجماهيري للفلاحين العراقيين في صيف ١٩٢٠ .

ومع ذلك، تبقى الحقيقة وهي ان هؤلاء الفلاحين حصلوا على الحصة الاقل من ثمرات حركتهم . فالضباط والموظفون العراقيون هم الذين تسلموا مقاليد البلاد بعد ١٩٢٠ ، وحصل بعض الشيوخ غير المتملكين على الارض ، الا ان السواد الاعظم من الفلاحين والسراكيل بقوا غير متملكين ومحرومين من الامتيازات .

وبعد مرور سنوات على الاحداث ، نزل غلوب باشا ضيفاً على الشيخ شعلان . وشكا الشيخ من ان افراد عشيرته اراقوا دماءهم (بلا فائدة) فقال له الجنرال البريطاني : « ولكن لديكم الآن دولة مستقلة ، وملك ، وادارة عربية . فماذا تريدون اكثر من ذلك » . فأجابه شعلان : « نعم باشا ، كل هذا صحيح ، ولكنا نحن لم نحصل على شيء »(١٥٦) .

وقد كان تقويم شعلان دقيقاً جداً في الواقع . ومع ذلك ، فلعله لم يكن يدرك الفرق الفاصل بين ما هو عرضي ودائمي في السياسة . فعلى حد قول البروفسور شانين « ان امكانيات الفلاحين في التأثير على المضمار السياسي تزداد بشكل حاد في اوقات الازمات الوطنية . فعندما تتصادم قوى اجتماعية غير فلاحية ، عندما ينقسم الحكام او تقوم دول اجنبية بهجوم ، تكون مواقف الفلاحين واعمالهم ذات اهمية حاسمة . وتحقيق هذه الامكانية يعتمد بالدرجة الرئيسية على قدرة الفلاحين على العمل بشكل موحد ، سواء أكان ذلك في اطار تنظيم رسمي ام لا . وهذا بدوره يعتمد على تلاحم الفلاحين ، وتجانسهم وكذلك تفاعلهم اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، وانعكاسات ذلك في المجال الايديولوجي »(١٥٧) .

ان معظم الشروط الآنفة الذكر لتعزيز امكانيات الفلاحين في التأثير على محصلة السياسة العراقية كانت متوفرة الى حد ما . « ومع ذلك ، ففي المدى البعيد ، كان الضعف الاساسي للفلاحين هو الذي برز الى المقدمة . وقد برهن الفلاحون على عدم تكافئهم مع فئات اخرى صغيرة ، متماسكة ، متفوقة تنظيمياً وفنياً ، وكانوا ، المرة تلو الاخرى (يستغفلون) او يقمعون سياسياً وبقوة السلاح . . . »(١٥٨) .

والظاهر ان الفلاحين العراقيين ، بالرغم من كافة تضحياتهم ومساهمتهم الكبيرة في الحركة الاستقلالية ، لم يستطيعوا الخروج على القواعد (العامة) لعلم الاجتماع ـ السياسي الفلاحي . « ومرة اخرى يبدو ان مجرى التطور التاريخي يضعف النفوذ السياسي للفلاحين »(١٥٩) . ان الفلاحين العراقيين حرثوا الارض وغرسوا البذور ، ولكنهم لم يحصدوا الحاصل النهائي .

---

(١٥٦) حديث شخصي مؤرخ في ١٩٧٠ .

(١٥٧) T. Shanin, «The Peasantry as a Political Factor,» *Sociological Review*, vol. 14, no. 1 (1966), p. 21.

(١٥٨) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(١٥٩) المصدر نفسه .

الفصل الثاني عشر

الاستفتاء العام ١٩١٨ - ١٩١٩

اولاً : الاسباب الكامنة وراء الاستفتاء

لعب الاستفتاء العام في العراق في ١٩١٨ دوراً مهماً في التاريخ اللاحق لهذا البلد كما ان الدوافع الكامنة وراءه تلقي كثيراً من الضوء على الآراء المتضاربة لصانعي السياسة البريطانية فيما يتعلق بالعراق وان اجراءه عكس تناقضاً عميقاً بين الادارة البريطانية في العراق وحلفائها من جهة والحركة الاستقلالية الصاعدة من جهة اخرى . وقد عجل الاستفتاء بعملية الاستقطاب الى فريقين كبيرين وسرّع بتصادمهما .

ويميل بعض المؤرخين العراقيين الى تفسير عملية الاستفتاء بكونها خطوة (ليبرالية) من جانب الحكومة البريطانية للتعبير عن استيائها من سياسات ولسن في العراق[١] . وقد يكون هذا صحيحاً بعض الشيء[٢] . وبمقارنة النصين (الاقتراح[٣] والقبول[٤]) يسهل ادراك الخلافات العميقة بين الاهداف المنعكسة في النصين ، ومع ذلك ، تبقى الحقيقة وهي ان ولسن هو الذي بادر باقتراح اجراء الاستفتاء . ففي ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ ، ابرق ولسن الى وزارة الهند يقترح عليها فكرة الاستفتاء : « ان الجميع متفقون على وجوب اخذ رأي البلاد قبل التوصل الى اي قرار بصورة صحيحة . . . »[٥] .

---

(١) عبد الرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ط ٢ (صيدا : مطبعة العرفان ، ١٩٦٥) ، ص ٣٢ .

(٢) Sir Hubert Young, *The Independent Arab* (London: Murray, 1933),

لم يذكر يونغ في الصفحة ٢٨٠ ان ولسن هو الذي اقترح الاستفتاء .

(٣) Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), pp. 108-109.

(٤) Foreign Office [F.O.] 882/23/3133, «Telegram from Secretary of State for India to Political Baghdad, Dated 28th and Received 30 th November 1918,».

(٥) Wilson, Ibid., p. 108.

ومع ذلك ، فإن ولسن لم يترك اي مجال للاوهام حول حقيقة دوافعه ، فقد اكد هدفه بوضوح : « ينبغي اخذ رأي البلاد . . . على اساس الادراك الواضح للسكان انفسهم بأن الحماية ستعلن في الوقت المناسب وان الادارة العسكرية ستستمر في الوقت الحاضر » . واختتم ولسن برقيته بالاستنتاج التالي ذي الدلالة : « لست اشك في ان ثقتنا ستبررها النتائج »(٦) ، لماذا اذن اقترح ولسن الاستفتاء اذا كان قد قرر نتيجته سلفاً ؟

لقد ذكر معظم المؤرخين العراقيين ان ولسن قد (شوّه) و(زيف) الاستفتاء الذي لم يكن الا (سخفاً) و(خرافة) و(مهزلة مأساوية)(٧) . ومن جهة اخرى ، اقر مؤرخ ذو سمعة (جيدة) في الاوساط الجامعية البريطانية بأن ثقة ولسن كانت في محلها فكتب خضوري : « لقد كان (ولسن) يعتمد ، بصورة صائبة ، على حقيقة ان الشريفيين كانوا غير معروفين بالمرة في المنطقة ، وعلى التقليد السياسي لبلد مثل ما بين النهرين ، حيث يعتبر الاعراب عن كره الحاكم القائم امراً خطراً ، وبذلك كان ولسن يأمل في الحصول على دليل يسند به السياسة التي كان يحث الحكومة في لندن على اتباعها »(٨) .

ان اقوال المؤرخين (الوطنيين) العراقيين لا تقدم الا نصف الحقيقة . فبالرغم من التدخل العلني للسلطات في عملية الاستفتاء ، الا انه كان صحيحاً ايضاً ان عدداً من العراقيين كان يحبذ استمرار الادارة البريطانية .

اما بالنسبة لتفسير ايلي خضوري ، فنودّ ان نبدي اعتراضين : فأولاً ، ليس من الصحيح تماماً ان « الشريفيين كانوا غير معروفين بالمرة في المنطقة » . فقد نوه ولسن نفسه بأن « ابن الملك حسين سيلقى قبولاً واسعاً في بغداد وفي اماكن اخرى ايضاً على الارجح ، ولاسيما في جانب الشيعة في ما بين النهرين ، بسبب التساهل المعروف في الآراء الدينية للملك حسين »(٩) ، وفضلاً عن ذلك ، وبالاشارة الى الفترة نفسها التي نبحثها فإن خضوري ذكر بوضوح ان « الدعاية الشريفية في ما بين النهرين كانت جيدة التنظيم »(١٠) . وثانياً ، هناك مسألة (تفسير) (التقليد السياسي) في العراق . فمن الواضح ان ولسن لم يكن بأية حال من الاحوال مسؤولاً عن هذا التقليد . الا ان البروفسور خضوري نسي ان يذكر ان ولسن قد شجع هذا (التقليد السياسي) في التخويف والارهاب بسلسلة من الاوامر الادارية .

ولسبب او لآخر ، ظل ولسن يعتقد، حتى بعد التصريح الانكلو- فرنسي ، ان الحكومة البريطانية تشاطره آراءه بشكل عام . « كان كل شيء يدل على ان الفرنسيين في سوريا ، والبريطانيين في

---

(٦) المصدر نفسه .

(٧) محمد مهدي البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ٢ ج (بغداد : ١٩٢٤)، ص ٨١ ؛ الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٣٢ و٤٤ ، وفريق المزهر آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها (بغداد : مطبعة النجاح ، ١٩٥٢) ، ص ٦٩ .

(٨) Elie Kedourie, *England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire, 1914-1921* (London: Bowes and Bowes, 1956), p. 184.

(٩) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record,* p. 108.

(١٠) Kedourie, Ibid., p. 182.

العراق ، ينوون اقامة محميات فعّالة ، وان التصريح الانكلو- فرنسي لم يكن مقصوداً به ان يؤخذ بصورة حرفية »[١١] . وعلى اية حال ، فإن وزير الدولة لشؤون الهند كان قد اكد لولسن ان « الغرض من التصريح الانكلو- فرنسي كان بالدرجة الاولى توضيح الوضع الراهن في سوريا ، والذي خلقته الشكوك العربية بخصوص النوايا الفرنسية . وينبغي ان يكون مفهوماً لدى الجميع ان مؤتمر الصلح سيسوي الوضع النهائي لكافة المقاطعات العربية »[١٢] . الا ان فهم ولسن للبرقية كان انتقائياً . فقد ورد في البرقية نفسها « التصريح ثبّت في الوقت نفسه ان حكومة صاحب الجلالة ستساعد ، كجزء من سياستها على تأسيس حكومة اهلية في المنطقة المحررة ، ولا تنوي ان تفرض على السكان اي حكومة لا يرغبون فيها »[١٣] .

وبالاضافة الى ذلك ، كان صديقه هرتزل قد حذره منذ ١٢ آذار / مارس ١٩١٨ من ان « ثمة تيارات متباينة تماماً تجري الآن ، وعلينا ان نكيف مسيرتنا وفقاً لها اذا اردنا الحصول على ما نرغب فيه في العراق . ان الشعارات القديمة اصبحت بالية ، والمسألة هي كيف نضمن الحصول على ما هو اساسي في ظل الشعارات الجديدة ، وهذا امر ممكن التحقيق ، الا انه ينبغي اجراء بعض التغيير في الاتجاه . ولعل من الضروري ان تكون (الواجهة العربية) ، امراً اكثر جدية مما كنا نتصور في البدء »[١٤] .

ويمكن تلخيص خطط ولسن عن مستقبل العراق السياسي في هدفين: الاول، ان يكون العراق كياناً سياسياً موحداً (اي تؤلف الموصل وبغداد والبصرة وحدة سياسية)والثاني،ان يبقى العراق لمدة طويلة من الزمن تحت السيطرة البريطانية المباشرة.

وكانت ثمة تيارات وآراء عديدة تناهض هذه الفكرة ، وكان بعضها يتمتع بنفوذ كبير . فأولاً ، كان ثمة خلاف حول وحدة العراق ، لاسيما بالنسبة لمسألة الموصل ، وفضلاً عن ذلك ، كانت مشاريع ولسن بخصوص المستقبل السياسي للعراق تواجه تحدياً جدياً من جانب الجرأة المتزايدة لـ (القوميين) في داخل العراق وخارجه والنفوذ المتنامي لـ (المتعاطفين مع العرب) في داخل الاوساط الحكومية البريطانية . وكان ذلك يقترن ببعض الشكوك من جانب السلطات البريطانية العليا وبالاتجاهات (الانسحابية) لدى الصحافة البريطانية[١٥] . ان هذه الرياح الجديدة الهابة في العراق اثارت الذعر لدى ولسن الذي اصبح يدرك بالتدريج انه لم يكن الممثل الوحيد للسياسة الحكومية البريطانية تجاه العراق . وباختصار ، كان يريد تفويضاً عراقياً لدعم

---

(١١) Wilson, Ibid., p. 110.

(١٢) F.O. 882/23, «Telegram from Secretary of State for India to Political Baghdad, 28 November 1918,».

(١٣) ان البرقية ينبغي فهمها في مجموعها ، حيث انها تمثل موقفاً ازدواجياً للحكومة البريطانية ، يعكس حيرتها إزاء مستقبل العراق السياسي ، انظر : المصدر نفسه .

(١٤) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 116, footnote.

(١٥) F.O. 282/23/3133, «Telegram no. 10973, from Political Baghdad to Secretary of State for India (London), Dated 10 December 1918,».

كان ولسن يشكو من سلسلة من المقالات في التايمز .

موقفه ولارضاء الميول الليبرالية في بريطانيا وخارجها . اما بالنسبة للمعارضة العراقية ، التي كان دائماً يقلل من شأنها فقد اعتقد انه سيستطيع وضع حد لنموها المتزايد الذي كان يعزوه الى تشجيع بعض الاوساط البريطانية في دمشق والقاهرة ولندن .

وطبقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو ، كانت الموصل[١٦] تقع ضمن منطقة النفوذ الفرنسي[١٧] . وكان هذا يتعارض مع اتفاقية الحسين ـ مكماهون ، التي قضت بجعل الموصل جزءاً من الدولة العربية المقترحة[١٨] ، وفضلاً عن ذلك ، فإنه كان يتنافى مع الوقائع الفعلية للحياة السياسية . فقد تم احتلال الموصل بواسطة القوات البريطانية ، بدون اي مساعدة من العرب والفرنسيين في ١٩١٨ ، اضف الى ذلك ان التقارير التي بشرت بوجود موارد غزيرة للنفط في الموصل جعلت البريطانيين غير راغبين في التخلي عن هذه الارض الغنية . الا ان فرنسا تجاهلت الحقيقة الآنفة الذكر ، واصرت على حقوقها في الموصل . وكان على بريطانيا ، الموزعة بين (سياستها الاوروبية) و(مصلحتها الامبراطورية) ان تتصرف بمنتهى الحذر لئلا تثير فرنسا او تضحي بمصلحتها الامبراطورية الخاصة . ولذلك ، كانت فكرة الاستفتاء ، الذي يبدي فيه شعب العراق وسكان الموصل رغبتهم في الوحدة السياسية ، تبدو حلاً مناسباً لهذه المشكلة . وعلى اية حال ، فإن كليمنصو ، في زيارته الاولى الى انكلترا تخلى ، في لحظة كرم وامل ، عن مطالبة فرنسا بالموصل[١٩] .

وكان النزاع مع تركيا حول الموصل ذا طبيعة اكثر جدية . فعلى اية حال ، كانت فرنسا دولة حليفة ، في حين ان سيطرة الاتراك على الموصل « كان من شأنها ليس فقط قيام تهديد مستمر للانكليز في العراق (بغداد) وللفرنسيين في سوريا ، بل استحواذ الاتراك على كافة طرق الغزو المؤدية الى حلب وبغداد ودمشق »[٢٠] . وفضلاً عن ذلك ، كانت المطالبة التركية بالموصل (اكثر فعالية) من المطالبة الفرنسية . فبالنسبة للاتراك ، كان احتلال الموصل (خرقاً) لاتفاقية الهدنة . وكانت هدنة (مودروس) قد اعلنت في ٣٠ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٨ على اساس ان تتوقف كافة العمليات الحربية بين الاتراك والبريطانيين ابتداء من الظهر ، حسب التوقيت المحلي في ٣١ تشرين الاول /

---

(١٦) فاضل حسين ، مشكلة الموصل : دراسة في الدبلوماسية العراقية ـ الانكليزية ـ التركية وفي الرأي العام (بغداد : مطبعة الرابطة ، ١٩٥٥) . (في الاصل اطروحة دكتوراه ، قدمت الى جامعة انديانا ،الولايات المتحدة ، عام ١٩٥٢) .

(١٧) كانت الموصل جزءاً من المنطقة (آ) في اتفاقية سايكس ـ بيكو .

(١٨) انظر مراسلات الحسين ـ مكماهون ، ولاسيما رسالة مكماهون الثانية ، والمؤرخة في ٢٤ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٥ ، من القاهرة .

(١٩) David Lloyd George, *Memoirs of the Peace Conference,* 2 vols.(Newhaven,Conn.: Yale University Press, 1939), vol. 2, p. 673.

(٢٠) Harry N. Howard, *The Partition of Turkey: A Diplomatic History, 1913-1923* (Norman:Ok.: University of Oklahoma Press, 1931), p. 298.

اكتوبر ١٩١٨[٢١] . وفي ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ، تلقت بغداد اوامر من وزارة الحربية باحتلال الموصل ، وصدرت اوامر جديدة للجنرال مارشال ، الذي كان في ٣١ تشرين الاول / اكتوبر ، مرابطاً على مسافة اربعة عشر ميلاً جنوبي الموصل . وقد نفذ مارشال التعليمات واحتل الموصل[٢٢] . وبالرغم من ان القائد التركي لم يقاوم الزحف البريطاني ، الا انه سجل احتجاجه في وثيقة الاستسلام . وقد برر البريطانيون عملهم بالاشارة الى الفقرة السابعة من الهدنة[٢٣] . وسواء أكانت هذه الفقرة تبرر الاحتلال البريطاني للموصل ام لا، فلقد « كان من الواضح ان القوات البريطانية كانت مصممة على اجلاء الاتراك عن المنطقة باسرها »[٢٤] .

وقد رفضت تركيا الاعتراف بشرعية الاحتلال البريطاني للموصل . وقد لخص عصمت باشا مبررات الاتراك للمطالبة باسترجاع الموصل على اساس ان اكثرية سكانها لم يكونوا عرباً بل اكراداً واتراكاً ، وانها كانت ، جغرافياً وسياسياً ، جزءاً من الاناضول، وان حيازة الموصل كانت امراً ضرورياً بالنسبة لحياة تركيا الاقتصادية وعلاقاتها[٢٥]. واثار عصمت مسألة الاحتلال « غير الشرعي للموصل »[٢٦] . ومن الواضح ان هذه الادعاءات كافة واهية وغير مقنعة .

وكانت هذه النقاط جميعاً قابلة للنقاش ، الا ان الامر المهم حقيقة في دعوى عصمت باشا هو ادعاؤه بأن « سكان الولاية يطالبون بالعودة الى تركيا ، لأنهم يعلمون انهم في هذه الحالة سيضعون حداً لكونهم شعباً مستعمَراً ويصبحون مواطنين في دولة مستقلة »[٢٧] .

وكان رفض تركيا المستمر لقبول الاحتلال البريطاني للموصل مصدر ازعاج سياسي لولسن ، لاسيما وانه كان يدرك وجود تيار موالٍ للاتراك في الموصل ، خصوصاً بين العسكريين الاتراك السابقين في تلك المنطقة . وكان هذا الوضع غير المستقر يقلق ولسن ، الذي كان مقتنعاً بأنه « مهما كان شكل الحكم الذي سيقوم في النهاية في ما بين النهرين ، فإن من الضروري لاستمراره بشكل فعال ان يغطي الولايات الثلاث : البصرة وبغداد والموصل »[٢٨] . وكان ولسن في الوقت نفسه ، يدرك تماماً ان

---

(٢١) المادة الخامسة والعشرون من هدنة مودروس ، نقلاً عن :
H[arold]W. V. Temperley, ed., *A History of the Peace Conference of Paris*, 6 vols. (London: 1920-1924), vol. 6, p. 497.

(٢٢) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920-a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, pp. 16-21.

(٢٣) المادة السابعة من هدنة مودروس ، نقلاً عن : Temperley, Ibid., vol. 6, p. 496.

(٢٤) Harry N. Howard, «The Great Powers and Partition of Turkey,» (Ph.D. dissertation, University of California, 1929), cited by: Henry Albert Foster, *The Making of Modern Iraq: A Product of World Forces* (London: Williams and Norgate, 1936), p. 107.

(٢٥) Cmd. 1814, «Turkey,no. 1, 1923,» pp. 351-352, clauses 1, 3, 4 and5.

(٢٦) Ibid., clause 6.

(٢٧) Ibid., pp. 351-352, clause 2.

(٢٨) F.O. 371/5127, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, 18 November1918,».

هذا الرأي « يخالف النظريات الكامنة وراء اتفاقية سايكس - بيكو والتعليمات الاولية الصادرة فعلاً من (حكومة صاحب الجلالة) حول مستقبل الحكم في ولايتي البصرة وبغداد على التناظر »(٢٩) .

وبقدر ما يتعلق بمستقبل العراق السياسي ، كانت التحديات التي يواجهها ولسن ذات طابع خطير بالتأكيد ؛ ذلك ان توقف العمليات الحربية ترك الحكومة البريطانية ، كما يبدو ، بدون سياسة محددة وثابتة بالنسبة للعراق ، بالاضافة الى تركة من الالتزامات والمتطلبات المتناقضة التي كان ينبغي تنسيقها . وهكذا فتح الباب امام عدة مدارس وتيارات من الاراء السياسية لتفترح حلولاً مختلفة لم تكن بالضرورة متوافقة مع حلول ولسن .

وجاءت الاشارة الاولى في ٨ كانون الثاني / يناير ١٩١٨ ، مع اعلان الرئيس ولسن عن (النقاط الاربع عشرة) . وكانت المادة الثانية عشرة من هذه المبادىء ذات اهمية خاصة نظراً لانطباقها على الاقاليم التركية السابقة التي وعدت بحق تقرير المصير . وجاءت الضربة الحقيقية مع صدور التصريح الانكلو - فرنسي في ٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ ، والذي الزم فيه الحلفاء علناً وبدون تحفظات بـ « اقامة حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من ممارسة السكان المحليين لمبادرتهم واختيارهم بحرية » . ومضى التصريح الى القول : « ان فرنسا وبريطانيا العظمى توافقان على تشجيع ودعم اقامة حكومات وادارات وطنية في سوريا وما بين النهرين »(٣٠) .

وقد كتبت غرترود بيل : « اذا اخذنا قصر المدة بنظر الاعتبار ، فقد اثار التصريح في بغداد عاصفة منقطعة النظير من الصخب والعنف ، ناهيك عن السخط والدسائس . . . »(٣١) . وبالنسبة لولسن ، كان التصريح (خطأً مهلكاً)(٣٢) . « كان قنبلة حقيقية نسفت مقدماً الهيكل الامبراطوري العملاق الذي كان يحلم به طويلاً باقامته على امتداد منطقة الشرق الاوسط بأسرها »(٣٣) .

وقد وردت معارضة المندوب المدني للتصريح الانكلو - فرنسي بشكل واضح في برقيته الى وزارة الهند : « ساكون مقصراً في واجبي اذا لم اسجل قبل كل شيء اقتناعي بأن التصريح الانكلو - فرنسي . . . بقدر ما يتعلق بما بين النهرين ، من شأنه ان يورطنا في صعوبات . . . ويضع سلاحاً فتاكاً في ايدي اناس هم اقل ما يكونون لياقة للسيطرة على شؤون امنه . . . ان عرب ما بين النهرين لن يتحملوا تدخل عرب اجانب في شؤونهم . . . ان العربي الاعتيادي ، على الضد من حفنة من هواة السياسة في بغداد ، ينظر الى المستقبل باعتباره فترة تعامل منصف وتقدم مادي وادبي في ظل بريطانيا العظمى . . . وبالاستناد الى خبرة حكامي السياسيين استطيع ان

---

(٢٩) المصدر نفسه .

(٣٠) F.O. 371/5153/E.213.

(٣١) F.O. 371/4150/5394, «Memorandum no. 524, 22 February 1919: from Lt.- Col. A.T. Wilson to the Under - Secretary of State for India,» p. 7.

(٣٢) Wilson, *Mesopotamia, 1917- 1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 103.

(٣٣) Harry St. John Bridger Philby, *Arabian Days: An Autobiography* (London: Hale, 1948), p. 173.

اعلن بثقة انْ البلاد بمجموعها لا تتوقع ولا ترغب في اي مشروع شامل للاستقلال كالذي يشير اليه ، ان لم ينص عليه بوضوح ، التصريح الانكلو- فرنسي »[٣٤] .

وبعد ذلك بأيام قلائل ، في ١٨ تشرين الثاني/اكتوبر ، ابرق وزير الدولة لشؤون الهند بالمقترحات التالية الى ولسن[٣٥]: «لقدعرض الكولونيل لورنس اقتراحاًعلى حكومة صاحب الجلالة لمعالجة المسألة العربية . وهو يقترح وضع : (١) الجزء الاسفل من ما بين النهرين ؛ (٢) الجزءالاعلى من ما بين النهرين ؛و(٣) سوريا ، بالتناظر ، تحت حكم عبدالله وزيد وفيصل ابناء الملك حسين . . . . ومن المفهوم بطبيعة الحال ان الدول الثلاث ستكون ضمن المنطقة البريطانية وان الجزء الاسفل من ما بين النهرين سيخضع لسيطرة بريطانية فعالة » . وقد اختتمت البرقية بطلب ارسال آراء ولسن حول هذه المقترحات (بأقل ما يمكن من التأخير) .

وكانت هذه المقترحات تتعارض تماماً مع آراء ولسن ، كما انها عززت مخاوفه بخصوص مدى النفوذ الذي سمحت به الحكومة البريطانية لـ (المدرسة العربية) . ولذلك فقد بعث بجواب يطلب فيه من حكومته « استبعاد هذه البلاد بصورة محددة ونهائية من اية تسويات شريفية مقترحة »[٣٦] . وكتب ولسن : « لقد الححت ، كما فعل السير برسي كوكس في ١٩١٧ ، على اعتبار ولايات البصرة وبغداد والموصل كوحدة منفردة للاغراض الادارية ، تحت سيطرة بريطانية فعالة »[٣٧] . وبعد ذلك بايام قلائل اوضح ولسن اسباب معارضته لقيام دولة عربية (في ظل حاكم شريفي) في العراق . فأكد اولاً على ان الفئة الشيعية في العراق « تعارض بعنف فكرة الوحدة العربية في ظل السنة (كذا . . .) »[٣٨] . ثم اثار مسألة عداء ابن سعود للشريفيين . وذكر انه « اذا شجعنا فكرة السيطرة العربية ، بدلاً من الاوروبية ، في المناطق الناطقة باللغة العربية . . . فستثير دون شك احقاداً دينية كامنة في العراق ، وبذلك نحرم انفسنا من بعض المزايا الاستراتيجية التي يوفرها لنا احتلال هذا الموقع الحيوي »[٣٩] .

كما نوه ولسن بأن « الاستمرار في سياستنا العربية الراهنة قد يؤدي في ظروف معينة الى خلق سلسلة من الدول (المحمدية) التي لا يجمعها جامع سوى دينها وميولها العنصرية المعادية لاوروبا ، وستكون نتيجة ذلك وقف التقدم والقضاء على امل السلام خلال فترة معقولة في الشرق الاوسط »[٤٠] .

وازاء هذه الخلفية ، اقترح ولسن فكرة اجراء استفتاء لتبين اتجاه الرأي العام[٤١] . وعلى اية

---

(٣٤) Wilson, Ibid , p. 104.

(٣٥) Philip Willard Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (London: Jonathan Cape, 1937), p. 156.

(٣٦) Ibid., and F.O., «Telegram no. 10031, 20 November 1918,» p. 157.

(٣٧) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 107.

(٣٨) F.O. 882/23/3133, «From Political Baghdad, to Secretary of State for India- no. 10973, 10 December 1918,».

(٣٩) المصدر نفسه .

(٤٠) المصدر نفسه .

(٤١) Wislon, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 108.

حال ، فقد ذكر ان الرأي العام المثقف في العراق يتبنى الاتجاهات التالية : « ان فكرة قيام مملكة عربية بدون مشورة او مساعدة او سيطرة بريطانية ، قد استبعدت . . . ويعتبر قيام دولة عربية في ظل امير عربي ، وبضمنها البصرة وبغداد والموصل ، حلا نموذجياً . . . وثمة رغبة اجماعية في وجود مندوب سام بريطاني ومستشارين بريطانيين في كافة وزارات الدولة العربية وفي جميع ارجاء البلاد . . . والجميع متفقون في الرغبة في ان يكون السير برسي كوكس اول من يشغل هذا المنصب . وهذا الشعور، حسب معرفتي الشخصية منتشر في جميع انحاء العراق . لاسيما في النجف وكربلاء وفي المناطق الريفية ، حيث يحظى اسمه بمكانة كبرى » .

ثم مضى ولسن الى ذكر مزايا الاسماء المختلفة التي طرحت بصورة غير رسمية كمرشحين محتملين لامارة العراق . وكانت الاسماء التي ذكرها في تلك البرقية هي : (١) هادي باشا العمري ؛ (٢) احد اعضاء اسرة سلطان مصر ؛ (٣) ابن شريف مكة ؛ (٤) نقيب بغداد[٤٢] ، وفي برقية اخرى ، بحث ولسن ترشيح شيخ المحمرة كأمير محتمل على العراق[٤٣] ، وذكر ما يلي : « ان قضيته (اي شيخ المحمرة) يمكن طرحها بمنتهى الاختصار في عباراته الخاصة التالية . . . شيعي ، ومخلص . . . وبصفتي اميراً ، سأكون الرئيس الاسمي الضروري للدولة العربية وسأتصرف في جميع الامور طبقاً لرغبات واوامر (حكومة صاحب الجلالة)»[٤٤] .

الا ان ولسن ذكر ان « نجاحه من الوجهة السياسية العامة ، سيكون اشبه بكارثة » لأنه « سيثير في جميع انحاء العراق العداء الكامن . . .»[٤٥] . وبعد ذلك بايام قلائل تلقى المندوب المدني برقية من وزارة الهند تتضمن موافقتها على رأيه ، وتطلب منه « اتخاذ الخطوات اللازمة . . . للحيلولة دون ترشيحه »[٤٦] .

واستنتج ولسن ان جميع المرشحين الآنفي الذكر لم يكونوا مناسبين لامارة العراق ، واقترح لذلك ما يلي : « ثمة بديل ممكن لم يبحث بعد في بغداد ، ولكن اذا اجيز لي حق اقتراحه ، فإنه سيلقى على الارجح موافقة فورية في بغداد وسيكون اكثر قبولاً في المناطق الريفية ، وهذا البديل هو تعيين السير برسي كوكس مندوباً سامياً لمدة السنوات الخمس الاولى بدون ان يكون ثمة امير عربي او اي رئيس آخر للدولة ، على ان يكون هنالك وزراء عرب يسندهم مستشارون بريطانيون »[٤٧] . وقد درست (اللجنة المشتركة للدوائر)[٤٨] برقية ولسن في اجتماعها بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ، وقررت تخويله باجراء استفتاء في ما بين النهرين[٤٩] .

---

(٤٢) Ireland, *Iraq: A Study in Political Development*, p. 158.

(٤٣) F.O. 882/23/3133/MES/1917, «Telegram no. 11454, 22 November 1918,».

(٤٤) المصدر نفسه .

(٤٥) المصدر نفسه .

(٤٦) F.O. 141/444/File 12215, «From Secretary of State for India to Civil Commissioner, Baghdad, no. 11608, 27 November 1918,».

(٤٧) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 106.

(٤٨) من اجل تحاشي التصادم في السلطات ، تم تشكيل هذه الهيئة لتنسيق سياستي وزارة الخارجية ووزارة الهند حول العراق ، وكان ثمة ممثلون لحكومة الهند ووزارة الحربية والمكتب العربي في هذه اللجنة .

(٤٩) Young, *The Independent Arab*, p. 280.

ويبدو ان (اللجنة المشتركة للدوائر) لم تكن قد استطاعت ،حتى ذلك الحين ، صوغ سياسة محددة تجاه العراق . وان محضر الاجتماع الأنف الذكر يبين الخلافات الجذرية بين عدة تيارات فكرية بخصوص مستقبل العراق . وقد سبق ان اطلعنا على مقترحات الكولونيل لورنس التي تم بحثها في الاجتماع نفسه . وما عدا ذلك ، رفع الجنرال مكدونالد مذكرة في ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ يؤيد فيها قيام دولة واحدة من الولايات الثلاث ، واقترح ايضاً ان « يكون عبدالله رئيساً للدولة الجديدة مع ادارة بريطانية مباشرة يشرف عليها مقيم بريطاني »(٥٠) . ورفع القومندان هوكارث من المكتب العربي مذكرة في ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ يقترح فيها ان تكون الموصل دولة منفصلة(٥١) . ووافق السير برسي كوكس على فكرة تعيين مندوب سام ، واذا اقتضى الامر ، تشكيل مجلس وزراء يتألف نصفه من موظفين بريطانيين والنصف الآخر من العراقيين،على ان يكون مفهوماً ان المجلس ذو طبيعة ادارية ، وفي غير هذه الحالة ، ينبغي تأليف مجلس استشاري يتألف كله من العراقيين . واذا كانت ثمة حاجة الى رئيس اسمي ، فقد اقترح كوكس نقيب بغداد(٥٢) . وقد علق الميجر يونغ ، سكرتير اللجنة ، على مقترحات ولسن بما يلي:

« كان (ولسن) محقاً دون شك في التنويه منذ البدء بأن حرمان العراق من ولاية الموصل سيكون شؤماً على مستقبله . . . الا ان ما عجز (ولسن) عن ادراكه هو ان الامور كانت قد تطورت بشكل يجعل من المتعذر بالنسبة لأية ادارة بريطانية ، مهما كانت حسنة النية ، ان تضمن لمدة طويلة التأييد الطوعي لشعب ما بين النهرين »(٥٣) .

واعتبر كرزن ان من (التسرع الاحمق) ان تقرر اللجنة مستقبل العراق السياسي بدون اخذ آراء السكان بنظر الاعتبار(٥٤) . ولذلك ، قررت (اللجنة المشتركة ما بين الدوائر) في اجتماعها بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ ، تخويل ولسن صلاحية اجراء الاستفتاء المقترح . وابرق وزير الدولة لشؤون الهند الى ولسن يبلغه بهذا القرار(٥٥) . وقد وردت في البرقية فقرة اوضحت ان (اللجنة) كانت لا تزال غير قادرة على الوصول الى نتيجة محددة ما عدا الاتفاق على فكرة الاستفتاء : « في هذه الاثناء يتركز اهتمامنا على مسألة الشكل الافضل للحكومة التي ينبغي اقامتها »(٥٦) .

---

(٥٠) F.O. 371/4148/13298, «Eastern Committee, 39th Meeting, Secret, 27 November 1918,».

(٥١) في هذا الاجتماع ، وصف اللورد كرزن وعود مكماهون بأنها « محرجة » ، كما وصف التزامات سايكس بيكو بأنها « حجر ثقيل حول اعناقنا »، انظر : المصدر نفسه .

(٥٢) المصدر نفسه .

(٥٣) Young, *The Independent Arab*, p. 280.

(٥٤) F.O. 371/4148/13298, «Eastern Committee, 39 th Meeting, 27 November 1918,».

(٥٥) F.O. 882/23/3133, «Telegram from Secretary of State for India to Political Baghdad, Dated 28th and Received 30th November 1918,».

(٥٦) المصدر نفسه .

واستناداً الى البرقية ، كان على المندوب السياسي ان يطرح ثلاثة اسئلة محددة على سكان العراق :

« ١ ـ هل يحبذون قيام دولة عربية واحدة تحت الوصاية البريطانية ، تمتد من الحدود الشمالية لولاية الموصل الى الخليج ؟

٢ ـ وفي هذه الحالة ، هل يرون من اللازم تنصيب رئيس عربي اسمي على هذه الدولة ؟

٣ ـ واذا كان الامر كذلك ، فمن الذي يختارونه كرئيس ؟ »(٥٧) .

ويمكن القول بأن الطريقة التي صيغت بها هذه الاسئلة لم تكن عادلة . فأولاً ، كان تأسيس الدولة العربية الواحدة مرتبطاً مباشرة بقيام (الوصاية البريطانية) ، وثانياً ، كان الرئيس العربي في حالة القبول به (اسمياً) فقط . وان صوغ الاسئلة بهذه الطريقة كان ايحاء صريحاً الى العراقيين بالنتائج التي ترغب الحكومة البريطانية في الحصول عليها .

ومع ذلك ، وضمن هذا الاطار ، كانت الحكومة البريطانية تدرك « الاهمية العظيمة للحصول على تعبير صادق عن الرأي العام المحلي حول هذه النقاط ، بحيث يمكن عرضه امام العالم كتصريح غير متحيز من قبل سكان ما بين النهرين »(٥٨) .

والظاهر ان ولسن لم يكن راضياً حتى بهذه التقييدات وقد زاد الوضع سوءاً بأن أمر باجراء المزيد منها . ففي اليوم نفسه الذي تلقى فيه التخويل ، اي في ٣٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ ، اصدر التعليمات التالية الى الحكام السياسيين : « بخصوص النقطة الاولى ، يجب ان تتأكدوا مما اذا كان سكان منطقتكم يرغبون في ان يكونوا جزءاً من دولة عراقية تمتد من الرقة على الفرات وجزيرة ابن عمر على دجلة ، الى البصرة والمياه الرأسية للزاب الكبير والصغير . وهذه المسألة غير قائمة الا في كردستان وولاية الموصل ودير الزور . الا انها ذات اهمية عظمى . والبديل عنها هو تأسيس دولة منفصلة ، تتألف بصورة اجمالية من ولاية الموصل غير الخاضعة للحماية البريطانية . وفيما يتعلق بالنقطة الثانية فإن المراسلات الملحقة بالمذكرة تبين بشكل كاف الحجج المؤيدة والمعارضة للخيارات الممكنة . وفيما يتعلق بالنقطة الثالثة ، فإن الجواب بطبيعة الحال لا يمكن ان ينفصل عن القرار الوارد في النقطة الثانية . وهذه ايضاً تتسم بالمراسلات بوضوح كاف فيما يتعلق بالخيارات الممكنة . وينبغي التأكيد بشدة على اهمية تعميق الخلافات الدينية التي قد تنتج عن اختيار طائش في هذا الخصوص » . . . .

« وحالما تسنح لكم الفرصة بعد استلام هذه الرسالة ، ينبغي عليكم بحث المسائل المطروحة فيها بصورة سرية مع الشخصيات الرئيسية في منطقتكم ، والتوثق منهم حول الاتجاه المحتمل للرأي العام ، وابلاغي بالنتيجة . وعندما يظهر لكم ان الرأي العام ، تحت توجيه الاشخاص الذين تشاورتم معهم ، يحتمل ان يتجه اتجاهاً مرضياً بالتأكيد ، فإنكم مخولون بعقد اجتماع لكافة الوجهاء والشيوخ البارزين لغرض طرح الاسئلة الآنفة

---

(٥٧) المصدر نفسه .

(٥٨) المصدر نفسه .

الذكر عليهم ، وابلاغهم بأن اجوبتهم سترسل اليّ لغرض عرضها على الحكومة . واذا ظهر ان الرأي العام يحتمل ان ينقسم بشكل حاد ، او في الحالة المستبعدة لوقوفه موقفاً معارضاً ، فعليكم تأجيل عقد الاجتماع وابلاغي بالامر وانتظار تعليماتي . وفي مثل هذه الحالات ، يمكن التكهن بأن القرارات التأييدية للمناطق المجاورة سيكون لها تأثير ايجابي في تكييف الرأي العام . . . واذا كانت الآراء ايجابية ، فمن المستحسن تثبيتها خطياً وتذييلها بأكثر ما يمكن من التواقيع »(٥٩) .

إن هذه التعليمات لا تترك مجالاً للشك في ان ولسن كان ينوي بصورة متقصدة ، التدخل في نتائج الاستفتاء بحيث يجعلها تتوافق مع آرائه الخاصة والمعلنة . ويمكن التوصل الى هذا الاستنتاج من متضمنات تعليماته :

اولاً : انه جعل الاستفتاء مقصوراً على (الوجهاء والشيوخ البارزين) . ولم يكن هذا مذكوراً في برقية وزارة الهند . وفي برقية ولسن ، التي عرض فيها للمرة الاولى فكرة الاستفتاء ، اقترح اخذ آراء الناس (المتعلمين) ولم يكن (المتعلمون) و(الوجهاء البارزون) في العراق ينتمون بالضرورة الى صنف واحد . وفي الواقع العملي ، كان المندوب المدني يريد حرمان القسم الاعظم من السكان من فرصة التعبير عن آرائهم حول هذه المسألة المهمة . وكان الاناس المتعلمون في العراق آنئذٍ ، يتألفون بالدرجة الرئيسية من الموظفين والضباط السابقين ، الذين استبعدوا ، بموجب خطة ولسن ، من الاعراب عن آرائهم . وفي المناطق العشائرية ، كانت التعليمات لا تعترف الا بالشيوخ الاكابر ، الذين لم يكونوا ، بأية حال من الاحوال ، يمثلون جمهور العشائر ، لاسيما في تلك الفترة التي كانت فيها الاتحادات العشائرية آخذة بالتفكك ، في حين كان التيار الاجتماعي يسير في مصلحة الشيوخ الصغار والسراكيل . ومن جهة اخرى ، فإن قرار (الشيوخ الاكابر) كان معروفاً مسبقاً بالنظر للوحدة المصلحية العميقة التي كانت تربطهم بالادارة البريطانية ، التي كانت تمدهم بالمال وتعزز مركزهم السياسي . ويمكن هنا ملاحظة ان فئات التجار الصغار (والافندية) كانت خارج نطاق خطة ولسن ، مع العلم ان نفوذها ، من وجهة النظر السياسية لم يكن قابلاً للتجاهل .

ثانياً : لقد اوضح المندوب المدني بجلاء ان الاستفتاء يجب ان لا يُجرى الا عندما يكون اتجاه الرأي العام (مرضياً بشكل مؤكد) . وقد طلب من الحكام السياسيين الاتصال بالمندوب المدني عندما يكون الرأي العام « منقسماً بشكل واضح او متجهاً وجهة غير ايجابية » . وكانت هذه التعليمات تتناقض مع برقية وزارة الهند التي كانت تسعى الى الحصول على « تعبير صادق عن الرأي العام المحلي » .

ثالثاً : لقد ارسل المندوب المدني تعليماته الى الحكام السياسيين مصحوبة ببرقياته الى وزارة الهند ، والتي عرض فيها آراءه ومقترحاته بخصوص مستقبل العراق والرئيس الاسمي المقترح ، وضرورة فرض سيطرة بريطانية فعالة . ولا شك ان هذه البرقيات التي كانت تحتوي على عبارات

(٥٩) F.O. 882/13/3640, «Memorandum 27190, Civil Commissioner to Political Officers, Baghdad, 30 November 1918,».

(التشديد من المؤلف) .

مشددة واقتناع كامل ، كان القصد منها ان تستعمل للتوجيه كمرشد لتحديد المقصود من الاتجاهات (الايجابية) .

رابعاً : يمكن ايضاً انتقاد اجراءات الاستفتاء ، كما اقترحها ولسن على الحكام السياسيين ، حيث كان عليهم دعوة (الشخصيات الرئيسية) في مناطقهم للتباحث معهم في الامر بصورة فردية (وسرية) ، فعندئذٍ فقط يعقد اجتماع علني يضم كافة (الوجهاء والشيوخ الاكابر) بغية التعبير عن آرائهم ، بعد ابلاغهم بأن (آراءهم ستنقل الى المندوب المدني) . وباستخدام هذا التكتيك ، كان ولسن يستغل اسوأ مظاهر (التقاليد الشرقية) ، وكان احمد الصانع ، الذي اعلن بلا مواربة : « لا اريد سوى حكومة بريطانية صرف »[٦٠] ، كان قد همس ، محذراً ، في اذن الحاكم السياسي للبصرة : « لا تعقد اجتماعاً توجه فيه الاسئلة فقد يصوتون لك بسبب الخوف ، الا انهم قد يتفقون ايضاً ويقولون لك : نحن لا نريدكم ، اخرجوا من بلادنا »[٦١] . وقال عنصر آخر موال لبريطانيا ، للحاكم السياسي : « انكم تتبعون مسلكاً حكيماً جداً باستفساركم من كل رجل ، بصورة منفردة وسرية ، عن آرائه »[٦٢] .

وفي كانون الثاني / يناير ١٩١٩ ، ارسل ولسن الى لندن نتائج الاستفتاء مع تعليماته الآنفة الذكر . وكان رد الفعل الذي اثارته تعليماته واساليب اجراء الاستفتاء ، هو الانزعاج والغضب . وقد كتب اللورد كرزن ان « . . . ولسن قد يكون تصرف بمنتهى حسن النية . الا ان نواياه ليست اوامرنا »[٦٣] . وكتب الميجر يونغ ان هذه التعليمات قد اوضحت « ان الرأي العام لا ينبغي تشجيعه ، ولا حتى السماح له بالتعبير عن نفسه بشكل يتنافى مع آراء الكولونيل ولسن »[٦٤] .

ثانياً : الاستفتاء في التطبيق

١ ـ الاجوبة الايجابية

في البصرة ، حيث كانت الطبقات العليا تشعر بتحسن وضعها الاقتصادي بنتيجة الاحتلال البريطاني ، وبالنتيجة كانت اقل تأييداً لفكرة الاستقلال العربي[٦٥] ، وبالرغم من ان المندوب المدني زار البصرة للتشاور مع وجهائها في فترة الاستفتاء[٦٦] ، فيبدو انه كان « من الصعب تقدير الآراء

---

(٦٠) F.O. 882/13/5050, «Self-Determination in Iraq: Secret Compilation of Declarations and Telegrams,» p. 3.

(٦١) المصدر نفسه .

(٦٢) المصدر نفسه .

(٦٣) F.O. 371/4178, «Dated 29 January 1919,».

(٦٤) F.O. 371/4178, «Dated 24 January 1919,».

(٦٥) F.O. 371/5231/E/1347, «P. Cox Telegram Dated 26 October 1920,».

(٦٦) F.O. 882/23/3133, «Telegram no. 11453, 22 December 1918: From Political Baghdad to Secretary of State for India,».

في البصرة »(٦٧) . والظاهر ان الحاكم السياسي للبصرة اخذ بنصيحة بعض العناصر الموالية لبريطانيا ، فامتنع عن عقد اجتماع عام لوجهاء المدينة ، وبدلاً من ذلك ، تحدث مع الاشخاص « وسجل آراءهم الشخصية على انفراد »(٦٨) .

وقد اعتبر الحاكم السياسي للبصرة ان آراء الاشخاص السبعة عشر الذين تحدث معهم ، تمثل البصرة بأسرها . الا انه ذكر ، في برقية الى المندوب المدني ، ان (غالبية) مسلمي البصرة يؤيدون استقلال العراق ، الا انهم يعتبرون اختيار امير من عائلة الشريف امراً خارج الصدد . . . « حيث انه لا يوجد في العراق عائلة ورجل مناسبان ، كما ان اختيار شخص من الخارج امر غير مرغوب فيه »(٦٩) . وحسب اقوال الحاكم السياسي ، كان مسلمو البصرة ذوي آراء مختلطة . فبعضهم كان يؤيد الاستقلال التام ويعتبر البريطانيين كفاراً ، في حين كان البعض الآخر يرغب في استمرار الادارة البريطانية المدنية القائمة بشكل معدل يتناسب مع ظروف السلم ، « بحيث يتم استخدام السكان المحليين في العراق الى اقصى حد . . . »(٧٠) . وبعد اخذ آراء الطوائف والاجناس الاخرى في البصرة بنظر الاعتبار ، توصل الحاكم السياسي الى الاستنتاج التالي : « ثمة مطالبة باستمرار الادارة البريطانية ، مع التساهل ازاء المشاعر الوطنية ، وفي ظل مندوب سام بريطاني وبدون امير محلي ، على ان تضم دولة العراق ولاية الموصل »(٧١) .

وبالرغم من ان الحاكم السياسي نوه في برقيته بوجود فريق من (المحمديين) الذين كانوا يطالبون بالاستقلال التام ، الا انه ، لسوء الحظ ، لم يعط اي تفاصيل حول نظرتهم وفعالياتهم السياسية او وزنهم الاجتماعي باعتبارهم مجرد « متعصبين في مشاعرهم الدينية او في خوفهم من قيام حكومة عادلة تضع حداً للصوصية والفساد (كذا) اللذين يناسبان سجايا بعض الناس »(٧٢) . ومن مجموع الاشخاص السبعة عشر الذين تحدث معهم الحاكم السياسي كان الاستثناء الوحيد من الاتجاه العام هو سليمان فيضي ، وهو محام شاب نصير قوي للسيد طالب ، ابان الحكم التركي . وكان يطالب باستقلال العراق في ظل التوجيه البريطاني ، ويؤيد فكرة قيام امير عربي ويرى « ان من المناسب تنصيب احد افراد اسرة الشريف »(٧٣) .

---

(٦٧) المصدر نفسه .

(٦٨) F.O. 882 / 23 / 3505, «Self- Determination in Iraq: Secret Compilation of Declarations and Telegrams,» pp. 2 and 6.

كان عدد الحضور سبعة عشر شخصاً ، ضمنهم ثلاثة عشر عربياً مسلماً ، وكردي واحد ، ويهودي ومسيحي وارمني .

(٦٩) F.O. 882 / 23 / 3505, «Telegram from P.O., Basrah, to Civil Commissioner, Baghdad-no. 536, 21 December 1918,».

(٧٠) المصدر نفسه .

(٧١) المصدر نفسه .

(٧٢) المصدر نفسه .

(٧٣) F.O. 882 / 23 / MES / 19 / 7, «Telegram no. 1076, 26 January 1919: From Political Bahgdad to Secretary of State for India,».

ويجدر بنا ملاحظة الخلفية الاجتماعية والهيكل الاقتصادي اللذين لعبا دوراً حاسما في تكوين النظرة السياسية لمواطني البصرة . « في الوقت الذي ترغب فيه طبقتا التجار والملاكين ، بشكل عام ، في ادارة بريطانية مجهزة تجهيزا كاملا ، وعدم قيام امير ، فإن ثمة قسماً من المحمديين المتعلمين الذين يؤيدون التأسيس التدريجي لحكومة عربية في ظل امير »[٧٤] .

وفي القرنة ، وقّع ثلاثون من شيوخ العشائر ورؤساء القرى ووجهاء آخرون ، على عريضة اعلنوا فيها : « اننا نرغب في البقاء تحت حماية ورعاية هذه الامة العادلة (بريطانيا) ونرضى بالسير برسي كوكس حاكماً عاما على العراق »[٧٥] . وطلب سبعة من الموقعين استمرار مفعول قانون دعاوى العشائر[٧٦] ، كما وقع اربعة عشر من شيوخ العمارة على عريضة مماثلة يطالبون فيها « ان يكون حكامهم السياسيون ومساعدوهم من بين الانكليز الذين يتكلمون العربية » ، وأعلنوا عدم رغبتهم في تعيين (حكام عرب) ، وطلبوا تعيين قضاة شرعيين من الطائفة الجعفرية ، وايدوا عودة السير برسي كوكس، وطلبوا استمرار مفعول قانون دعاوى العشائر[٧٧] . وقد عرضوا مطالب مماثلة لما عرضه شيوخ القرنة ولكن بعبارات اوضح :

« . . . طالما ان الشيخ يؤدي واجباته تجاه الحكومة باخلاص ، فينبغي السماح له بالعيش في مقاطعته ومنطقته ، وعدم قبول عروض اعلى لمقاطعتنا من جانب اشخاص انانيين ، لكي نستطيع ان نبذل قصارى جهدنا لاعادة الرخاء الى الارض »[٧٨] .

وفي الكوت ، وُقّع بيانان يعبران عن المضمون نفسه بالضبط ، مع اختلاف لفظي فقط . وقد تضمنا المطالب التالية : وحدة العراق بما فيه الموصل ، عدم الحاجة الى امير عربي، واستمرار الادارة البريطانية[٧٩] . وفي العزيزية كان الوضع مماثلاً تماماً ، حيث ذكر معاون الحاكم السياسي ان « تعيين احد ابناء الشريف يلقى معارضة قوية في كل مكان »[٨٠] .

وكان البيان الصادر عن الناصرية موقعا من قبل ٢٧٠ من « شيوخ العشائر ووجهاء المدن وغيرهم من الاشخاص المهمين »[٨١] . وقد طلبوا عودة السير برسي كوكس ، مع المحافظة على الادارة

---

(٧٤) المصدر نفسه .

(٧٥) F.O. 882 / 23 / 3605, «Self- Determination in Iraq: Secret Compilation of Declarations and Telegrams- no. 2,» p. 7.

(٧٦) المصدر نفسه .

(٧٧) Ibid., - no. 3, p. 8.

(٧٨) المصدر نفسه .

(٧٩) Ibid, - no. 4 (b), p. 9.

وقّع التصريح الاول ، شخص واحد فقط ، والثاني تسعة اشخاص .

(٨٠) المصدر نفسه .

(٨١) Ibid., - no. 5, p. 11.

البريطانية . وكانت فكرة تنصيب امير عربي مقبولة ، ولكن ليس في الوقت الحاضر ، كما ذكر ان هذا الامير يجب ان لا يكون عراقياً ، « لأنّ العراقيين منقسمون جداً فيما بينهم »(٨٢) . وطالبت العريضة باعتبار الموصل جزءاً لا يتجزأ من العراق(٨٣) .

وفي قضاء السماوة ، صدرت اربعة بيانات موقعة من قبل ٣٣ و١٤ و٩ و٢٧ شخصاً على التناظر . وقد ايدوا كلهم استمرار الادارة البريطانية(٨٤) . وفي الرميثة ، مركز الثورة المسلحة عام ١٩٢٠ ، كانت النتيجة مختلفة بعض الشيء ، حيث كان وجود معارضة قوية امراً ملحوظاً جداً(٨٥) . وسنتطرق الى ذلك بالتفصيل فيما بعد ، في هذا الفصل .

وفي الحلة والهندية والمسيّب والديوانية ، صدرت خمسة بيانات موقعة من قبل ٤٠٠ ، و٢٠ ، و٦ ، و١٥٩ شخصاً على التناظر ، وهي تطلب استمرار الادارة البريطانية(٨٦) . وقد طلبت العرائض الثلاث الاولى عودة السير برسي كوكس ، واعتبرت مضبطة الديوانية ان تعيين امير « امر يتفق مع المنطق ، ومع ديانتنا التي تدعونا الى تعيين امام » ، الا انها استنتجت ان ذلك « امر مستحيل في الوقت الحاضر »(٨٧) .

اما بيان خانقين ، الذي وقع عليه ١٥٠ شخصاً ، فكان يتميز عن البيانات الاخرى بمقدمة طويلة تشرح نواقص الادارة التركية بالمقارنة مع الانجازات (العظيمة) للبريطانيين . وبعد الاعراب عن الشكر والامتنان ، يختتم البيان بدعوة قوية الى استمرار النظام القائم(٨٨) . واعربت مندلي ، من خلال ١٢ توقيعاً ، عن رغبتها في وحدة العراق في ظل السيطرة البريطانية المباشرة(٨٩) . وفي كفرى ، اعلن (جميع) شيوخ العشائر (الكردية والعربية) ، مع بعض ممثلي وجهاء المدن ، عن رغبتهم في امير عربي ، الا انهم طلبوا من البريطانيين تأجيل تعيينه حتى الوقت الذي يتبلور فيه رأي محدد حول المسألة(٩٠) . وطالبت مضبطة كركوك التي ضمت ١٧ توقيعاً ، بوحدة العراق في ظل الحماية والمساعدة البريطانيتين(٩١) .

---

(٨٢) المصدر نفسه . وقد قدموا سبباً غريباً جداً لرفضهم تنصيب امير ، وهو : « اننا اكثر الامم تقلباً ونفاقاً » .

(٨٣) المصدر نفسه . وقد وردت في البيانات عبارات بليغة ، جاء فيها : « منذ طفولتنا ، كنا نسمع ان العراق يتألف من ثلاث ولايات : بغداد ، البصرة والموصل . . . ان الموصل مرتبطة ببغداد ، وبغداد تسقى بمياه الموصل ، والموصل تحصل على البضائع من بغداد عن طريق التجارة البحرية . . . » .

(٨٤) Ibid.,- no. 6, p. 12.

(٨٥) Ibid., - no. 6, pp. 12-13.

(٨٦) Ibid.,- no. 8, pp. 17-18.

(٨٧) المصدر نفسه .

(٨٨) Ibid., - no. 10, p. 20.

(٨٩) المصدر نفسه .

(٩٠) Ibid.,- no. 11, p. 21.

(٩١) Ibid.,- no. 12, p. 21.

هكذا كان موقف الاشخاص والمناطق التي ايدت البريطانيين ابان الاستفتاء . ومن خلال نظرة فاحصة الى بياناتهم وهيكلهم الاقتصادي او الاجتماعي ، يمكن تصنيفهم الى الفئات التالية : (أ) الاقليات الدينية ؛ (ب) طبقتا التجار والملاكين ؛ (ج) معظم شيوخ العشائر ؛ (د) اولئك الذين يؤيدون كل سلطة قائمة .

لم يكن غريباً ان الجزء الاعظم من التجار ايدوا البريطانيين . فمن جهة ، كانت تجارتهم تتدفق الى الامبراطورية البريطانية ، ومن جهة اخرى ، كان يجري نقلها وتسويقها بواسطة الشركات التجارية البريطانية . وبالاضافة الى ذلك ، فإن سلامة الطرق وسيادة (القانون والنظام) كانا امرين ضروريين بالنسبة لتجارتهم ، وقد تحققا بشكل معقول على ايدي السلطات البريطانية . وكان تأييد طبقة الملاكين للبريطانيين امراً محتوماً . فلكونهم ملاكين غائبين ، كانت الحكومة هي الجهة الوحيدة القادرة على جباية مدخولاتهم بالنيابة عنهم . اما بالنسبة لشيوخ العشائر ، فقد كان موقفهم ازدواجياً : فقد كان ولاؤهم للبريطانيين مرتبطاً بسلسلة من الاجراءات التي اتخذها البريطانيون لتقوية سلطانهم وهيبتهم (اي الشيوخ) ، وكان في مقدمتها قانون دعاوى العشائر وتمليك الاراضي . وكان صراع الشيوخ مع الملاكين الغائبين هو الآخر مدرجاً في جدول العمل ، كما يتضح بجلاء من عريضة العمارة بشكل خاص . ولذلك فقد كان تأييد الشيوخ ، الى حد ما ، مشروطاً اكثر منه مطلقاً .

٢ ـ المعارضة

ان اجراءات الاستفتاء لم تسر بسهولة تامة بالرغم من جميع التدابير الاحتياطية التي اتخذها المندوب المدني . فقد استغلت (الحركة الاستقلالية) هذا الحدث كفرصة لتعزيز صفوفها ، وعقد محالفات متعددة ، ونشر الدعاية السياسية التحريضية ، واظهار قوتها بطريقة حازمة ولافتة للنظر ، لاول مرة منذ الاحتلال البريطاني .

وقد ظهرت البادرة الاولى للمعارضة في قضاء الرميثة ، فقد ايد ١٣ شيخاً من عشائر تلك المنطقة ، استمرار الادارة البريطانية ، في حين طالب ٧ شيوخ بتنصيب ابن الشريف ملكاً . وبين وجهاء الرميثة ، اختار عشرون استمرار الادارة البريطانية ، مقابل ثمانية عشر اعربوا عن رغبتهم في ملك عربي من عائلة الشريف[٩٢] .

وبسبب الاهمية الاستثنائية للنجف ، فقد زارها المندوب المدني ، وترأس اجتماعاً دعي اليه نقيب النجف ، ممثلاً رجال الدين ، وشيوخ العشائر والرجال المتعلمين ، لبحث المسألة المطروحة في الاستفتاء ، وذلك في ١١ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٨ . وقد حضر الاجتماع ايضاً الميجر نيوبري الحاكم السياسي للشامية والنجف . واستناداً الى المصادر البريطانية ، « ايد المجتمعون

(٩٢) Ibid., - no. 6, p. 12-13.

بالاجتماع استمرار الحماية البريطانية من الموصل الى الخليج بدون امير»[٩٣] . الا ان مصادر عديدة قد انكرت صحة الرواية السابقة ، وادعت بأن الاجتماع انفض دون الوصول الى اي نتائج محددة وان الجو كان يسوده الخلاف والتحدي اكثر من التأييد[٩٤] .

ويبدو ان السيد هادي الرفيعي ، نقيب الاشراف ، قد اعلن في الاجتماع : « لا نريد احداً غير الانكليز » . وقد استفز ذلك الشيخ عبد الواحد الحاج سكر ، وهو احد شيوخ آل فتلة البارزين من ذوي الادراك السياسي فشجب هذا الرأي ، وقال : « اننا نطالب بحكومة عربية وطنية » . واضاف الشيخ محمد رضا الشبيبي ، وهو رجل متعلم وقومي متحمس : « ان الشعب العراقي يعتبر الموصل جزءاً لا يتجزأ من العراق . ويعتبر العراقيون ان من حقهم تشكيل حكومة وطنية مستقلة استقلالاً تاماً . ولا يوجد بيننا من يرغب في اختبار حاكم اجنبي (اي بريطاني)»[٩٥] .

وقد طلب السيد علوان الياسري تأجيل الاجتماع ليتيح للحضور التوصل الى رأي ثابت . واختتم ولسن الاجتماع بالموافقة على ذلك وطلب منهم ارسال آرائهم بواسطة الميجر نيوبري[٩٦] .

وبعد انتهاء الاجتماع ، ذهب بعض الذين حضروه الى السيد كاظم اليزدي (المجتهد الاول آنئذٍ) لأخذ رأيه . وكان جواب اليزدي : « ان الامر خطيراً جداً . ومن حق الجميع ابتداء من ارفع الناس شاناً وحتى اقلهم منزلة مناقشة الموضوع » . وطلب اليهم الاجتماع ، وبحث المسألة وابلاغه بالنتيجة لكي يصادق عليها[٩٧] .

---

(٩٣) F.O. 311 / 4150 / 5394, «Self-Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 1919, Baghdad: From A.T. Wilson to Under - Secretary of State for India,».

(٩٤) البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ص ٨٢ - ٨٤ ؛ الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٤٠ ، وآل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ٧٤ - ٧٨ .

(٩٥) جعفر آل محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها (النجف : ١٩٥٨) ، ج١ ، ص ٢٥٨ .

(٩٦) المصدر نفسه . وكان من بين الحاضرين في هذا الاجتماع الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد جواد صاحب الجواهر ، وكلاهما من المجتهدين العرب البارزين . (انظر : علي آل بازركان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية : رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما الصق بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء (بغداد : مطبعة اللواء ، ١٩٥٤) ، ص ٧٢ - ٧٥) . وكان من جملة الحاضرين ايضاً : السيد محسن ابو طبيخ ، والسيد نور الياسري ، وهادي زوين ، ومحمد العبطان ، والحاج محسن شلاش ، والسيد عباس كليدار ، والشيخ باقر الشبيبي ، (انظر : آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص٧٤) . وقد وصف الحاكم السياسي في تقريره السيد هادي نقيب الاشراف بأنه : « في الحقيقة من اشد انصار الحكومة ، الا انه ضعيف ومتذبذب بشكل مزر ، وبالنتيجة فإنه عديم الفائدة عندما نكون في اشد الحاجة اليه ، وهو لا يملك قسطاً كبيراً من الذكاء » . انظر :
Colonial Office [C.O.] 961 / 11, «Administrative Reports of Shamiyah and Najaf, 1918,» appendix 2, p. 108.
ومن جهة اخرى ، ينبغي الاشارة الى ان نقيب الشيعة لا يتمتع بمنزلة كبيرة ، لانه يفتقر الى السلطة الدينية التي تنحصر في ايدي المجتهدين .

(٩٧) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٤٢ .

وقد عقد الاجتماع الذي اقترحه اليزدي في دار الشيخ محمد جواد الجواهر . والظاهر انه كان ثمة قدر كبير من النقاش والبلبلة . وقد حاول عبد الواحد سكر ان يضع حداً للبلبلة بالقاء كلمة قصيرة بليغة جاء فيها : « اننا لم ننضج بعد الى حد اعلان نظام جمهوري ، ونحن لسنا فرساً ، او اتراكاً او بريطانيين ، بحيث نختار حاكماً من هذه الامم . ولكننا عرب ، ولذلك يجب ان يكون حاكمنا عربياً . ولما كان البيت الشريفي هو اعلى البيوتات شأناً في العالم العربي ، لذلك يجب ان نطالب بحكومة عربية مستقلة ، برأسها احد انجال الشريف »[٩٨] . وقد حازت هذه الكلمة الحاسمة استحسان الحاضرين وانتهى الاجتماع[٩٩] .

وذهب زعماء الاجتماع الى الكوفة لابلاغ اليزدي بقرارهم ، والحصول على موافقته . الا ان الاخير امتنع عن البر بوعوده بحجة انه رجل متدين . وادعى اليزدي انه لا يعرف شيئاً عن السياسة وان معلوماته محصورة في « الحلال والحرام »[١٠٠] .

ولم يفت البريطانيين الاعتراف بالخدمة التي اداها لهم اليزدي . وقد كتبت المس بيل : « ان اولئك الذين شاركوا منا في الدراما لن ينسوا المساندة التي تلقيناها من النقيب (في بغداد) والسيد محمد كاظم اليزدي »[١٠١] . الا ان هذا الاسناد كان في الحقيقة ذا طابع سلبي . « بالرغم من الضغط الشديد فإنه (اليزدي) رفض الاعراب عن عدم استحسانه للتدخل الاجنبي في العراق . بل انه سمح بأن تكون معروفاً ان عواطفه كانت مع الجانب الآخر »[١٠٢] . ومع ذلك ، فإن اليزدي لم يجاهر قط بتأييد للبريطانيين . وقد كتبت المس بيل ، في محاولة لتفسير وتبرير موقفه هذا : « لو انه تجاوز هذا الحد ، لكان نفوذه كزعيم ديني قد تزعزع ، ولكانت قيمته بالنسبة لنا كمؤيد ضمني قد تناقصت بنفس الدرجة »[١٠٣] .

ان هذه العبارة الاخيرة ، والحادثة كلها ، ذات مغزى كبير . فهي اولا ، تبين بجلاء ان الحركة الاستقلالية كانت قد بلغت من القوة حداً ارغم اعلى مرجع ديني على الامتناع عن اذاعة افكاره وآرائه . وفضلاً عن ذلك ، فإنها تكشف ضعف الرأي السائد بين بعض المؤرخين وبعض اوساط الادارة البريطانية في العراق ، حول كون الحركة الاستقلالية العراقية مجرد استجابة دينية لدعوات المجتهدين . ذلك ان الحركة الاستقلالية ، بالرغم من موقف اليزدي ، استمرت في التأكيد على آرائها ، متحدية بذلك البريطانيين واليزدي[١٠٤] .

---

(٩٨) امين محمد سعيد ، الثورة العربية الكبرى : تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن ، ٣ج (القاهرة : مطبعة مصطفى البابي ، ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) ، ج٢ ، ص ١١ ، وعبد الشهيد الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ١٩٢٠ (النجف : مطبعة النعمان ، ١٩٦٦) ، ص ١١٢ ـ ١١٥ .

(٩٩) المصدر نفسه .

(١٠٠) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٤٢ .

(١٠١) F.O. 371 / 4150 / 5394, «Self- Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 1919, Baghdad: From A. T. Wilson to Under- Secretary of State for India,» p. 7.

(١٠٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ٣ . (التشديد من المؤلف) .

(١٠٣) المصدر نفسه ، ص ٣ .

(١٠٤) ينبغي عدم ارتكاب الخطأ « المعاكس » في التقليل من اهمية نفوذ المجتهدين . فلو كان اليزدي قد وقف الى جانب المعارضة ، لأصبح البريطانيون في وضع حرج جداً في الواقع .

وقد تابع زعماء النجف والشامية جهودهم للتوقيع على مضبطة تعبر عن رغبتهم في استقلال العراق . وعقدوا اجتماعاً آخر في دار السيد نور الياسري ، احد السادة البارزين في الشامية ، لبلورة اهدافهم . وقد داهمت الشرطة الاجتماع واضطر المجتمعون الى الاحتماء بين عشائرهم . وبعد ذلك بيومين دعاهم الحاكم السياسي للكوفة ، وحاول اقناعهم بالموافقة على مضبطة تؤيد الادارة . الا انهم رفضوا ، وبدلاً من ذلك ، وقعوا على بيان يطالب بوحدة العراق في ظل حكومة عربية ، يرأسها احد انجال الشريف وتخضع لرقابة مجلس تشريعي[١٠٥] .

ومع ذلك ، لم يسلّم البريطانيون بالهزيمة التامة في هذا المركز المهم . وقد اتصل الحاكم السياسي ببعض العناصر (المعتدلة) ، بمن فيهم اليزدي والنقيب ، وشجعهم على تقديم مضابط (ايجابية) . وبذلك استطاع الحاكم السياسي الحصول على اربعة عشر بياناً اعترف بها رسمياً . وكانت تسع من هذه المضابط موقعة من قبل شخص واحد لكل منها ، ووقع ثلاثة اشخاص فقط على اخرى . ويمكن استنتاج الامور التالية من دراسة هذه المضابط[١٠٦] .

أ ـ كان جميع الموقعين ذوي مراكز محدودة ، سياسياً او دينياً .

ب ـ في الوقت الذي كان البريطانيون يشكون بمرارة من المجتهدين (الفارسيين) الذين يقومون بنشاط تحريضي ضدهم[١٠٧] ، نجد ان عدداً كبيراً من الاشخاص الذين طلب الحاكم السياسي تقديم آرائهم كانوا اما (فارسيين) او رعايا هنوداً تابعين للحكومة البريطانية .

ج ـ وبالرغم من ذلك ، فإن النتائج التي تم الحصول عليها لم تكن بالتأكيد في مصلحة البريطانيين[١٠٨] .

إن المضبطة التي وقع عليها واحد وعشرون شخصاً ، تجاهلت فكرة الوصاية البريطانية وطالبت بأمير عربي من دون تحديد هويته ، الا انها اشترطت ان يكون محمدياً[١٠٩] . اما المضبطة التي وقعها ستة وثلاثون من الوجهاء والتجار وخدم الجامع فقد دعت صراحة الى استمرار الادارة

---

(١٠٥) آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ٨٢ ـ ٨٤ ، والحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(١٠٦) F.O. 882/23/3505, «Self - Determination in Iraq : Secret Compilation of Declarations and Telegrams- no. 7 (2-13),» pp. 15-16.

اما بخصوص المضابط الاربع الباقية ، فقد كانت اثنتان منها موقعتين من قبل واحد وعشرين شخصاً لكل منها ، والاخريان من قبل ستة وثلاثين شخصاً وعشرة اشخاص على التناظر .

(١٠٧) F.O. 311/4150/5394, «Self- Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 1919, Baghdad: From A. T. Wilson to Under - Secretary of State for India,» p.3.

(١٠٨) ان خمسة من المضابط العشر تهربت من الاسئلة المطروحة ، متحججة بالجهل او التدين . اما الذين ايدوا البريطانيين فهم : السيد هاشم الهندي ، ومحمد آغا الشيخ علي ، والشيخ محمد رضا كاشف الغطاء ، والسيد جعفر بحر العلوم الطباطبائي .

(١٠٩) F.O. 882/23/3305, «Self- Determination in Iraq: Secret Compilation of Declarations and Telegrams - no. 7 (10),» p. 14.

البريطانية وتأجيل تعيين امير[١١٠] . وأعقبت ذلك مضبطة موقعة من قبل النقيب وواحد وعشرين من وجهاء وتجار النجف ، وتحمل اتجاه المضبطة السابقة نفسه[١١١] . وفي ٢٨ كانون الاول / ديسمبر ، وصلت مضبطة من الشامية ، تحمل تواقيع عشرة من الشيوخ ، وتطالب باستقلال العراق في ظل امير عربي من عائلة الشريف[١١٢] .

وفي كربلاء ، واجه البريطانيون اول هزيمة تامة . فقد دعا الميجر تيلر ، الحاكم السياسي ، بعض الوجهاء والتجار الى اجتماع عرض فيه عليهم الاسئلة الثلاثة التي يدور حولها الاستفتاء ، وطلب آراءهم . وقد جادل السيد عبد الوهاب بأن اللجنة لا تمثل كربلاء تمثيلاً كافياً ، وبالاضافة الى انه من الضروري توفير الوقت الكافي للوصول الى نتيجة تحمل طابع المسؤولية . ووافق الميجر تايلر على تأجيل الاجتماع لمدة ثلاثة ايام[١١٣] . وقد اثبتت الاحداث اللاحقة ان ذلك كان خطأ كبيراً من جانبه . فقد هرع مؤيدو الاستقلال الى الشيرازي ، الذي كانت آراؤه المناهضة لبريطانيا معروفة جيداً لديهم ، وطلبوا منه ان يدرج خطياً ، آراءه بخصوص المسألة . ولم يتردد الشيرازي ، الذي كان من كبار المجتهدين ، ويلي اليزدي مباشرة في المنزلة ، فأصدر فتوى جاء فيها : « لا يجوز للمسلم ان ينتخب او يختار شخصاً غير مسلم للحكم على المسلمين »[١١٤] .

وكانت لهذه الفتوى آثار بعيدة المدى ، ففي كربلاء لم يكن انصار البريطانيين راغبين في تحدي الامر الديني للشيرازي . ولذلك لم توقع ولا مضبطة واحدة في كربلاء تأييداً للبريطانيين ، وكانت المضبطة الوحيدة التي صدرت تنسجم مع اهداف الحركة الاستقلالية[١١٥] . اما انصار البريطانيين ، كما ذكرت المس بيل « فقد ترددوا ، ازاء هذا البيان (الفتوى) في الاعراب عن آرائهم تحريرياً ، في الوقت الذي اكدوا فيه (لمعاون الحاكم السياسي) تمسكهم بنا »[١١٦] . ومع ذلك ، فإن السلطات التي

---

(١١٠) Ibid., - no. 7 (9), p. 15.

(١١١) Ibid.,- no. 7 (10).

(١١٢) Ibid., - no. 7 (14), p. 16.

بالرغم من كون النتائج « غير مرضية » ، فقد اعترف الحاكم السياسي بأن السلطات مارست ضغطاً مباشراً ورسمياً للحصول على النتائج المطلوبة . انظر :

C.O. 961/2, «Administration Reports, Shamiyah, 1919,» p. 34.

(١١٣) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٣٤ .

(١١٤) آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ٨٠ (نسخة مصورة من الفتوى) .

(١١٥) عبد الرزاق الوهب ، تاريخ كربلاء (بغداد : ١٩٣٥) ، ص ٣٥ ، نسخة مصورة من المضبطة . استشهدت المضبطة بالتصريح الانكلو- فرنسي ، ثم مضت الى المطالبة باستقلال العراق في ظل حكومة عربية ، وذكرت ان الموقعين قد اختاروا فعلاً ابن الشريف ليكون ملكاً عليهم ، على ان يكون خاضعاً لرقابة مجلس تشريعي منتخب .

(١١٦) F O. 311/4150/5394, «Self- Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 191, Baghdad: From A. T. Wilson to Under- Secretary of State for India,» p. 3.

انـزعجت من مضمون مضبـطة كربـلاء ، رفضت ادراجهـا في النشـرة الـرسميـة عن نتـائـج الاستفتاء(١١٧) .

ومن جهة اخرى ، فلا شك ان فتوى الشيرازي اعطت قوة دافعة للقضية الوطنية في جميع ارجاء العراق . وقد استنسخ القوميون فتواه بالعشرات ووزعوها في جميع انحاء البلاد(١١٨) . وكانت الصلات بين الشيرازي والوطنيين تعود الى زمن ابعد ، والواقع ان مغادرته سامراء واقامته في كربلاء ، كانت جزءاً من الخطة الدينية ـ القومية(١١٩) . الا ان خطوته الجديدة قوت مـركز القوميين بتزويدهم بسند ديني وبذلك عززت التنسيق بين الشيرازي والقوميين .

وفي المركز الديني الثالث ، الكاظمية ، واجـه البريـطانيون تحـدياً جـدياً آخـر . وكانت الكاظمية متأثرة بمركزين بوجه خاص : اولاً ، بالنجف وكربلاء ، لأنها كانت تشاطرهما المذهب ، وثانياً ، ببغداد ، بسبب قربها منها ، وكانت بغداد ، في ذلك الحين مسرحاً لنشاط الوطنيين . واذا اخذنا ايضاً بنظر الاعتبار موقف مجتهدي النجف وفتوى الشيرازي ، لما استغـربنا من النتيجـة العدائية للاستفتاء في الكاظمية ، الا ان ما يلفت النظر هو سلوك بعض رجال الدين البارزين . فقد كان السيد اسماعيل الصدر ، وهو احد اكثر المجتهدين نفوذاً ، وقريبه السيد حسن الصدر ، من بين علماء الدين القلائل جداً الذين رفضوا المصادقة على فتوى الجهاد ضد البريطانيين في الايام الاولى من الحرب . الا انهما إبّان الاستفتاء ، بدّلا موقفهما بصـورة كلية ، واصبحـا في طليعة معارضي الادارة البريطانية(١٢٠) . وان هـذا التغير يعكس الضغط المتـزايد للمشـاعر المناوئة للادارة ، وفضلاً عن ذلك ، فإنه يبرز تدهور العلاقات بين المجتهدين والسلطات البريطانية . وقد جرت الحملة المناهضة لبريطانيا في الكاظمية تحت قيادة السيد محمد مهدي ، نجل حسن الصدر ، ومحمد بن مهـدي الخالصي(١٢١) . وان الاخير لم يحاول خلال حياته السياسية ، ان يخفي معتقداته الاسلامية القوية التي جعلته يعارض الاحتلال البريطاني ويناصر الدولة الاسلامية للعثمانيين(١٢٢) .

وقد بلغت الحمية المعادية للبريطانيين من الشدة بحيث ان العلماء هددوا بالتحريم والاقصاء عن الجوامع كل من يصوت لمصلحة السيطرة البريطانية(١٢٣) . وكانت نتيجة ذلك صدور بيان موقع من مائة وثلاثة واربعين شخصاً ، اكدوا فيه : « نحن ، الامة العراقية العربية المحلية ، نختار حكومة

---

(١١٧) C.O. 691/2, «Administration Reports, Shamiyah, 1919,» p.30.

(١١٨) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٣٥ .

(١١٩) محمد الخالصي ، «بطل الاسلام : سيرة حياة والد ،» الكاظمية ، ١٩٣٩ ، ص ١١٤ (مخطوط) .

(١٢٠) F.O. 311/4150/5394, «Self- Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 1919, Baghdad: From A.T. Wilson to Under - Secretary of State for India,» p. 4.

(١٢١) المصدر نفسه .

(١٢٢) محمد الخالصي ، « كتاب في سبيل الله ، » ص ٧ ، مذكرات غير مؤرخة (مخطوط) .

(١٢٣) F.O. 882/23/MES/19/7, «Telegram no. 1077, Dated 25 January 1919: From Political Baghdad to Secretary of State for India (London),».

مسلمة عربية جديدة يحكمها ملك محمدي هو احد انجال مولانا الشريف . ويكون مقيداً بمجلس محلي »[١٢٤] .

وقد نظمت العناصر الموالية لبريطانيا مضبطة معاكسة ، تطلب استمرار الادارة البريطانية . وعودة كوكس ، وتعلن عدم امكانية قيام امير عربي ، وقد وقع على المضبطة خمسة وعشرون شخصاً[١٢٥] ، من ضمنهم بعض الوجهاء والتجار ، والشيوخ المحليون ، والرعايا الهنود البريطانيون . وقد تصدر هذه المحاولة رئيس البلدية الذي كان ايضاً التاجر الرئيسي في البلدة[١٢٦] .

٣ ـ الاستفتاء في بغداد

كان المندوب المدني يدرك ان بغداد ذات اهمية حيوية بالنسبة للاستفتاء ، وذلك للعوامل التالية : كونها العاصمة ، ومركز الفعاليات السياسية ، واكبر المدن العراقية من حيث عدد السكان ، ومحل اقامة الرجال الاكثر نفوذاً ، وكان ولسن يدرك ايضاً قوة الاتجاهات القومية بين الرجال ذوي النفوذ في بغداد ولذلك قرر ان تكون بغداد المكان الاخير النهائي الذي يجري فيه الاستفتاء ، مفترضاً ، كما يظهر ، ان النتائج (المرضية) في الاجزاء الاخرى من البلاد ستؤثر تأثيراً ايجابياً على آراء وجهاء بغداد[١٢٧] .

وقد كتب المندوب المدني الى نقيب بغداد ، والقاضي الشيعي (الشيخ شكر الله) ، والحاخام الاكبر ، والى رؤساء الطوائف المسيحية ، طالباً منهم خمسة وعشرين مندوباً سنياً ، وخمسة وعشرين شيعياً ، وعشرين يهودياً ، وعشرة مسيحيين على التناظر[١٢٨] . ويبدو ان هذه كانت خطوة مدروسة من جانب ولسن للحصول على نتائج ايجابية من بغداد . وكان ولسن واثقاً من تأييد اليهود والمسيحيين . وكان القاضي الشيعي يدين بمنصبه للادارة البريطانية ، حيث ان هذا المنصب لم يكن معترفاً به لدى الاتراك[١٢٩] . ونظراً لمعرفة ولسن بآراء النقيب ، فإنه كان يأمل ان المندوبين السنّة الذين يختارهم النقيب سيبررون توقعاته .

ان آراء النقيب تستحق المزيد من الاهتمام بسبب نفوذه القوي ، ولكونه اصبح فيما بعد اول

(١٢٤) F.O. 882/23/3505, «Self - Determination in Iraq: Secret Compilation of Declarations and Telegrams - no. 13 (8),» p. 25.

(١٢٥) Ibid., - no. 13 (9), p. 25.

(١٢٦) F.O. 882/23/MES/19/7, «Telegram no. 1077, Dated 25 January 1919: From Political Baghdad to Secretary of State for India (London),».

(١٢٧) المصدر نفسه . وقد ذكر المندوب المدني في هذه البرقية ان « كل مندوب (من بغداد) مزود ببيان يذكر الآراء الواردة حتى ذلك التاريخ من الاجزاء الاخرى من ما بين النهرين » .

(١٢٨) المصدر نفسه . كان عدد سكان بغداد في تموز / يوليو ١٩١٧ ، يبلغ حوالى ٢١٠٢٠٠ ، بينهم ١٠٩٤٠٠ مسلم عربي ، و ٨٠٠٠٠ يهودي ، و ١٢٠٠٠ مسيحي ، و٨٠٠٠ كردي ، و٨٠٠ فارسي . انظر : F.O. 882/26, «Arab Bureau Bulletin- no. 66, 21 October 1917,» p. 4.

(١٢٩) وقد وصفت المس بيل القاضي الشيعي بأنه : « شخص ضعيف لا يملك شخصية متميزة ، فضيلته الاساسية هي تقواه وتواضعه » .

رئيس وزراء عراقي . « انه (النقيب) يعارض كلياً قيام حكومة عربية . . . ويعتبر ان بحث الاستقلال العربي امراً لا يستحق الاهتمام . . . وهو يرغب في ادخال الموصل ضمن ادارة ما بين النهرين . وهو يرى انه لا يمكن ابداً لأي رجل محلي ان يصبح رئيساً للدولة العراقية ، الا انه يمكن تعيين رجل عربي لهذا المنصب بعد فترة طويلة من الزمن . وهو يرفض فكرة تعيين احد انجال الشريف ، سواء في الوقت الحاضر ام في المستقبل »(١٣٠) .

وكان النقيب يرغب في ان يرى العراق تحت حكم ادارة بريطانية قوية ، « يسندها جيش احتلال لا يقل عدد افراده عن الاربعين الفاً »(١٣١) . ومن الجدير بالذكر ان النقيب « كان مثل معظم الوجهاء الاكبر سناً في المدينة ، ان لم يكن كلهم ، يخشى كثيراً من انتعاش الجمعيات السياسية العربية ، التي كانت تسير على خطى منظمة (الاتحاد والترقي) ، وكان هذا الاحتمال اشبه بكابوس بالنسبة لهم »(١٣٢) . وعلاوة على ذلك ، كان النقيب يشعر شعوراً عميقاً بالعجز السياسي ، وكان الآخرون بالتأكيد يشاطرونه هذا الشعور ، حيث قال مخاطباً المس بيل : « خاتون ، ان امتكم عظيمة ، وغنية ، وجبارة ، اما نحن فأين قوتنا؟ اذا قلت اني ارغب في حكم الانكليز ولم يوافق الانكليز على حكمنا ، فكيف استطيع ان اجبرهم على ذلك ، واذا كنت ارغب في حكم آخر ، وقرر الانكليز البقاء فكيف استطيع اخراجهم ؟ اني اعترف بانتصاركم . انتم الحاكمون وانا المحكوم . واذا سئلت عن رأيي في استمرار الحكم البريطاني فإن جوابي هو اني خاضع للمنتصر »(١٣٣) .

إن النقيب ، الذي لم يستحسن فكرة الاستفتاء برمتها(١٣٤) ، بقي مخلصاً لنفسه فرفض المشاركة فيها ، الا انه وافق على ان يحل محله قاضي السنة ، الحاج علي الالوسي(١٣٥) . واستناداً الى اقوال المس بيل ، كان القاضي السني خاضعاً ، الى درجة كبيرة جداً ، لتأثير الاخوين المناهضين لبريطانيا(١٣٦) ، وهما عبد الوهاب النائب ، حاكم محكمة الصلح في ظل الادارة البريطانية(١٣٧) ، والشيخ سعيد النقشبندي ، زعيم فرع بغداد لحزب (العهد) السري(١٣٨) .

---

(١٣٠) F.O. 882/23/MES/19/7, «Telegram no. 11669, Dated 29 December 1918: From Political Baghdad to Retanndum, London,».

وقد اعرب النقيب عن هذه الأراء في حديث مع غرترود بيل .

(١٣١) المصدر نفسه .

(١٣٢) المصدر نفسه .

(١٣٣) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, appendix 3, annex 1, p. 338.

وقد اعرب النقيب عن ارائه في مقابلة ثانية مع المس بيل ، بتاريخ ٦ شباط / فبراير ١٩١٩ .

(١٣٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ .

(١٣٥) F.O. 311/4150/5394, «Self-Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 1919,Baghdad:From A.T. Wilson to Under - Secretary of State for India,» p. 4-5.

وقد وصفت المس بل القاضي السني بأنه : « مسلم متدين جداً ، تربطة صداقة حميمة مع الموظفين البريطانيين منذ الاحتلال . الا ان شخصيته ليست من القوة بحيث تجعله قادراً على مقاومة المجادلات لاستثارة مشاعره الدينية » .

(١٣٦) المصدر نفسه .

(١٣٧) المصدر نفسه ، ص ٥ . وقد ذكرت المس بيل ان النائب كان « يؤدي واجباته كحاكم لمحكمة الصلح ، بشكل مرض للجميع » .

(١٣٨) البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

مـا عدا هذين الاخوين ، كانت حملة الدعاية المناوئة لبريطانيا ، بين السنة ، تجري تحت قيادة رجال وصفتهم المس بيل كما يلي : « ان اعمارهم تقل عن الثلاثين ، واثنان منهم (حمدي الباججي[١٣٩] وسعدون الشاوي) ينتميان الى عوائل معروفة . اما البقية فلم يكن لديهم اي مركز اجتماعي او اقتصادي[١٤٠] . وبين الشيعة في بغداد ، كان يبدو ان ابرز شخصية في الحركة المعادية لبريطانيا هو السيد جعفر ابو التمن . وبالرغم من كونه تاجراً صغيراً ، فإنه كان يتمتع بمكانة كبيرة لدى الشيعة ، مما جعله ممثلاً لهم في اللجان البلدية والتعليمية في بغداد »[١٤١] .

الا ان القاضيين ، بدلاً من اختيار الممثلين ، كما طلب منهما ، دعيا الى عقد اجتماعات لطائفتيهما لغرض الانتخاب . وفي كلا الاجتماعين ، كانت الكفة الراجحة والمسيطرة للوطنيين . وانتهت الاجتماعات باختيار خمسة وعشرين ممثلاً لكل طائفة ، شريطة ان يتقيدوا بارادة الاجتماع العام في المطالبة بحكومة عربية ، متحررة من اية حماية اوروبية[١٤٢] .

وعقد اجتماع السنة في المحكمة الشرعية ببغداد في ١٧ كانون الثاني / يناير ١٩١٩ . ووقعت الاغلبية العظمى على مضبطة ، ذكروا فيها انهم قد انتدبوا قاضيهم لاختيار ممثليهم ، على ان يكون مفهوماً بوضوح ان هؤلاء المندوبين مقيدون بالمبادىء التي اقرها الاجتماع ، وهي :

« اولاً : ان العراق من شمال الموصل الى الخليج آهل تماماً لحكم نفسه .

ثانياً : يطالب العراقيون بحكومة عربية خالصة .

ثالثاً : ان اعظم نصير ومجاهد لاجل الكرامة العربية هو الشريف . ولذلك ، ينبغي ان يكون احد انجاله ، ولا احد سواه ، اميراً على العراق، على ان يكون مقيداً بمجلس تشريعي كما هو الحال في جميع الحكومات المتمدنة »[١٤٣] .

ويبدو ان مقررات المؤتمر لم تحصل على الموافقة التامة لجميع الحاضرين فقد انسحب موسى الجلبي الباججي من الاجتماع بصورة احتجاجية ، واستقال سبعة من المندوبين السنة الخمسة والعشرين ، واضيفت خمسة اسماء جديدة الى القائمة السنية . وفي مؤتمر الشيعة ، تم الوصول الى قرار مماثل ، وكان الشخص الوحيد الذي رفض قبول قرار الاكثرية هو الحاج ملا رضا[١٤٤] .

وهنا تجدر الاشارة الى نقطتين تتعلقان بالفئة الموالية لبريطانيا ، هما تركيبها الاجتماعي

---

(١٣٩) كان حمدي الباجه جي آنذاك محاضراً في الاقتصاد والقانون الدولي في كلية الحقوق ببغداد .

(١٤٠) F.O. 311/4150/5394, «Self- Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 1919, Baghdad: From A.T. Wilson to Under- Secretary of State for India,» p. 5.

(١٤١) المصدر نفسه .

(١٤٢) F.O. 882/23/MES/19/7, «Telegram no. 1077, Dated 25 January 1919: From Political Baghdad to Secretary of State for India (London),».

(١٤٣) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٣٩ .

(١٤٤) F.O. 311/4150/5394, «Self- Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 1919, Baghdad: From A.T. Wilson to Under- Secretary of State for India,» p. 5.

والعمل السياسي الذي كان المفروض ان تعبر به عن رأيها . فقد كان موسى الجلبي الباججي « رئيس احدى العوائل البارزة ذات الملكيات العقارية الضخمة في المدينة »(١٤٥) . وكان ايضاً « يشغل مناصب رسمية عالية في ظل الاتراك ، الا انه استقال بعد اعلان الدستور ، وهو يكره الاتحاديين ويخشاهم »(١٤٦). وكان اربعة من الذين استقالوا من القائمة السنية بسبب ميولهم الموالية لبريطانيا هم من عائلتي نقيب زادة وجميل زادة ، وكانت هاتان العائلتان تحتلان « المركز الاول من حيث الثروة والجاه في بغداد »(١٤٧) . وافرادهما « ملاكون اغنياء جداً »(١٤٨) . وكان السبعة الذين انسحبوا من القائمة السنية « يمثلون نسبة كبيرة جداً من ملكيات المندوبين الخمسين »(١٤٩) . اما الشيعي الوحيد الذي سحب تأييده ، وهو الحاج ملا رضا ، فقد كان ايضاً (ملاكاً معروفاً) وقد وقع بعض السنة في بغداد على مضبطتين تعربان عن تأييدهم للادارة البريطانية ومعارضتهم للوطنيين ، وقد وقع على المضبطة الاولى عشرة اشخاص ، وعلى الثانية سبعة اشخاص(١٥٠) . وكان خمسة من هؤلاء الموقعين يعملون للادارة نفسها ، في الاوقاف او دائرة التعليم ، وكان آخرون من بين اكبر التجار ، وثلاثة من اغنى الملاكين(١٥١) .

والظاهرة الاخرى الجديرة بالذكر بالنسبة للعناصر الموالية لبريطانيا في بغداد ، هي الاساليب التي استعملوها في التعبير (او عدم التعبير) عن آرائهم . فالنقيب ، بالرغم من نفوذه القوي ومعتقداته الراسخة ، ابدى قدراً كبيراً من الممانعة في الاعلان عن معتقداته . كما ان قريبي النقيب اللذين انسحبا من القائمة السنية لم يقدما اي تفسير لاستقالتهما . وقد قال الملا رضا للحاكم العسكري البريطاني انه « لم يستطع مواجهة الحرج الديني بدون تقديم اي تفسير »(١٥٢) . وابرق المندوب المدني الى وزارة الهند قائلاً : « ان معظمهم (اي السبعة) يؤيدون الحكم البريطاني بصورة مطلقة . . . الا انهم لم يكونوا مستعدين لمواجهة الاحراج الديني الناجم عن التعبير العلني عن آرائهم »(١٥٣) . ومن الجدير بالذكر ان بعض الذين وقعوا على البيان الوطني كانوا ، في مجالسهم الخاصة ، يعارضونه بشدة . وقام بعضهم بزيارة الحاكم العسكري وفسروا موقفهم بأنه نتيجة الضغط السياسي(١٥٤) . والشيء المهم هنا هو ظهور ما كان يبدو شكلاً جنينياً من (السلطة الثنائية) ،

---

(١٤٥) المصدر نفسه .

(١٤٦) Ibid., appendix D., no. 5, p. 50.

(١٤٧) المصدر نفسه ، ص ٥ .

(١٤٨) Ibid., appendix D., no. 1, p. 50.

(١٤٩) F.O. 882/23/MES/19/7, «Telegram no. 1077, Dated 25 January 1919: From Political Baghdad to Secretary of State for India (London),».

(١٥٠) F.O. 311/4150/5394, «Self- Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 1919, Baghdad: From A.T. Wilson to Under- Secretary of State for India,» p. 5.

(١٥١) F.O. 882/23/3505, «Self- Determination in Iraq: Secret Compilation of Declarations and Telegrams,- no. 13 (1 and 3),» p. 23.

(١٥٢) F.O. 311/4150/5394, Ibid., pp. 49-50.

(١٥٣) المصدر نفسه ، ص ٥ .

(١٥٤) F.O. 882/23/MES/19/7, «Telegram no. 1077, Dated 25 January 1919: From Political Baghdad to Secretary of State for India (London),».

فإننا نجد فريقاً من الناس ، ممن كانوا يؤ يدون الادارة العسكرية بصورة تامة ، الا انهم عاجزون عن التعبير عن افكارهم الخاصة بحرية بسبب الضغط السياسي المؤثر للمعارضة ، في حين ان المعارضة التي لم تكن لها اية سيطرة على جهاز الدولة كانت قادرة مع ذلك على اخماد وتهديد اي تأييد علني للسلطة القائمة .

وبعد الاجتماعات التمهيدية التي تم فيها اختيار المندوبين ، عقد اجتماع عام في ٢٢ كانون الثاني / يناير ١٩١٩ ، حضره سبعة وسبعون شخصاً يمثلون المسلمين ، شيعة وسنة ، واليهود والمسيحيين . ووافق المندوبون المسلمون بالاجماع على المضبطة التالية : « . . . نحن ، ابناء الامة العربية المسلمة ، وممثلي المسلمين من الطائفتين الشيعية والسنية ، الساكنين في بغداد وضواحيها ، نعرب عن قرارنا بأن تكون البلاد الممتدة من شمال الموصل وحتى الخليج ، دولة عربية واحدة ، يرأسها ملك مسلم ، من انجال شريفنا الحسين ، على ان يكون مقيداً بمجلس تشريعي محلي مقره بغداد ، عاصمة العراق »(١٥٥) .

وقد وقع على هذه المضبطة سبعة واربعون شخصاً ، منهم اربعة وعشرون شيعياً وثلاثة وعشرون سنياً . ومن المهم ملاحظة مدى اختلافهم الجذري ، من حيث الطبقة الاجتماعية ، عن العناصر الموالية لبريطانيا . فقد كان معظمهم من صغار التجار ، وصغار الملاكين ، والمعلمين ، والعسكريين السابقين والحرفيين وبعض سدنة الجوامع(١٥٦) .

اما العناصر الموالية لبريطانيا فقد وقعت على مضبطتين معاكستين وكانت الاولى تحمل تواقيع ثمانية من السنة ، يطالبون بحكومة عربية على ان تكون خاضعة لاشراف السير برسي كوكس ، وانسجاماً مع مصالحهم ، فقد طلبوا « الحرية التامة في الشؤون الداخلية والمالية » . ووقع على المضبطة الثانية احد عشر شخصاً ، يطلبون الحكم البريطاني ، وفي حالة عدم تحقق ذلك ، اعتبارهم رعايا بريطانيين(١٥٧) . وفي الوقت الذي كانت المضبطة القومية من اناس منتخبين مباشرة من قبل طوائفهم ، وجرى توزيعها علناً ، فإن موقعي المضبطتين الاخريين لم يكونوا يتمتعون بأي صفة تمثيلية ، كما لم يكونوا قادرين على التعبير علانية عن آرائهم .

وكانت الهزيمة الوحيدة التي مني بها القوميون في بغداد هي على يد الاقليات . وبالرغم من ان القوميين حاولوا التقرب اليها وكسب تأييدها ، الا انهم لم ينجحوا في ذلك . وقد اتصل عبد الوهاب النائب ببعض المندوبين اليهود والمسيحيين وحاول كسب تأييدهم عن طريق تطمينهم حول تمثيلهم في (مجلس مقترح) . وقام حمدي الباججي بمحاولة مماثلة ، الا ان الاثنين فشلا ، وفي الواقع اثارا مزيداً من الشكوك ، وقد ذكر احد المندوبين اليهود بقلق : « لقد اصبح واضحاً لدينا انه قد

---

(١٥٥) F.O. 311 / 4150 / 5394, «Self- Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 1919, Baghdad: From A.T. Wilson to Under- Secretary of State for India,» p. 5.

(١٥٦) F.O. 882 / 23 / 3505, «Self- Determination in Iraq: Secret Compilation of Declarations andTele- grams- no. B. (3),» p. 23.

(١٥٧) Ibid., - no. 13 (1), p. 23.

تم وضع خطة كاملة لاقامة حكومة مسلمة »[158] . ورفض المندوبون اليهود والمسيحيون وضع تواقيعهم على المضبطة التي نظمها المسلمون وقرروا الانسحاب من المؤتمر بعد ان اتضحت سيطرة الوطنيين عليه[159] . ومقابل ذلك قدموا ثلاث مضابط . وقد اعلن ثمانية عشر يهودياً ان تنصيب امير على ما بين النهرين امر « غير مسموح به » ، في حين ان قيام حكم بريطاني مباشر امر « لا بد منه »[160] . ورفع ثلاثة مسيحيين يمثلون الارمن في بغداد ، مضبطة تنصلوا فيها علناً من الانتماء للعراق ، وطلبوا مع ذلك قيام حكم بريطاني مباشر في العراق « انسجاماً مع رغبات فخامتكم »[161] . ووقع ثمانية ممثلين عن الطوائف المسيحية في بغداد على مضبطة يعربون فيها عن رغبتهم في « وجود حاكم بريطاني عام مع حكومة بريطانية ذات علاقة مباشرة بلندن »[162] .

ثالثاً : آثار الاستفتاء

في ٢٧ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٨ ، كتبت المس بيل الى والدها : « بخصوص الحكم العربي في ما بين النهرين ، لا يريدون احداً غيرنا . . . وهم يدركون ان فكرة تنصيب امير عربي ، وان كانت مستحبة لديهم نظرياً ، الا انها مستحيلة من الناحية العملية ، لأنهم لا يمكنهم ابداً ان يتفقوا على الشخص »[163] . « بعد ذلك باسبوعين ، كتبت مرة اخرى ، مشيرة الى الوضع السياسي الذي خلقه الاستفتاء : « اننا نمر بوقت صعب بعض الشيء هنا »[164] . ان هذا التحول من موقف الثقة الى القلق الجدي كان افضل انعكاس لما ولّده الاستفتاء على المسرح السياسي العراقي .

ومن الناحية الظاهرية ، جاءت نتائج الاستفتاء تأكيداً لتوقعات ولسن ، ففي نهاية المطاف ، طلبت عشرة تقسيمات من مجموع اربعة عشر ، استمرار الادارة البريطانية[165] ، كما ان بعضها ايد عودة كوكس . كما ان بعض المناطق التي اعربت عن رغبتها في تنصيب امير عربي ، اعترفت في الوقت نفسه بأن الحماية البريطانية ضرورية في الوقت الراهن . وفيما يتعلق بالموصل ، اتفقت جميع التقسيمات تقريباً على وجوب ادخالها ضمن الدولة المقترحة ، ولكن بالرغم من كل ذلك ، لم تسمح المس بيل لنفسها بالانجراف وراء هذه المظاهر السطحية . فقد ادركت ، بدقة ،

---

(١٥٨) Ibid., - no. 13 (3), p. 25.

(١٥٩) Ibid., p. 23.

(١٦٠) المصدر نفسه .

(١٦١) Ibid., - no. 13 (6), p. 24.

(١٦٢) Ibid., p. 24.

(١٦٣) Gertrude Lowthian Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, edited by Lady F. Bell, 2 vols. (New York: Boni and Liveright, 1927), vo. 2, p. 464.

(١٦٤) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٤٦٥ .

(١٦٥) F.O. 882/23/3505, «Self- Determination in Iraq: Secret Compilation of Declarations and Tele-grams, Basrah, Qurnah, -وهذه التقسيمات هي: البصرة ، القرنة ، العمارة ، الكوت ، الناصرية ، سامراء ، الحلة ، كركوك ، خانقين ، الموصل .

ان الاستفتاء دشن نقطة تحول في تاريخ العراق ، وانه خلق صراعاً عنيفاً بين الادارة و« الشرق الذي فقد صوابه » . ويمكن القول ، بانصاف ، ان الاستفتاء لعب دوراً بارزاً في التطور السياسي للعراق ، وانه مهد الطريق ، من نواح عديدة ، للثورة المسلحة في ١٩٢٠ .

ان عدم التساهل وعدم الاكتراث من جانب الادارة عمق بين العراقيين شعوراً بالعجز السياسي ، وهذا ما جعل الناس يبدأون بالتفكير جدياً في وسائل التخلص من ادارة الاحتلال(١٦٦) . ولم تجر محاولة لأخذ رأي الاكراد ، الذين يمثلون خمس سكان العراق ، في هذا الامر الحيوي . وفضلاً عن ذلك ، فإن قضاء الدليم بأسره ، بما فيه الفلوجة والرمادي ، حرم كلياً من التعبير عن رأيه . وفي الحلة ، ثارت ضجة من الاستياء بسبب قرار الحاكم السياسي في تكليف السيد محمد القزويني وحده بجمع التواقيع على مضبطة موالية لبريطانيا . وقد ذكر البصير ، وهو مؤرخ عراقي نابه وشاهد عيان ، ان الحاكم السياسي رفض مضبطة موقعة من قبل رئيس البلدية وعدة اشخاص مهمين آخرين(١٦٧) .

وكان من المحتم ان يؤدي انعدام التساهل والمرونة من جانب المندوب المدني ، بانصار الاستقلال ، في اعماق شعورهم بالخيبة ، الى التفكير في اساليب اخرى غير الاساليب الدستورية والسلبية ، لمواجهة سياسة ولسن .

والظاهرة المهمة الثانية التي كشف عنها الاستفتاء هي قيام شكل جنيني من (السلطة الثنائية) . فإذا كانت الادارة البريطانية قادرة ، لكونها الهيئة الحاكمة ، على ممارسة اساليب مباشرة وغير مباشرة للتأثير على نتائج الاستفتاء واجبار الناس على التعبير عن آراء معينة ، فإن الحركة الاستقلالية ، بعنصريها الرئيسيين كانت قادرة بدورها على ممارسة ضغوط معاكسة لفرض ارادتها على اقسام معينة من السكان . وان الخوف الذي شعرت به الاطراف الموالية للادارة في الاعلان عن آرائها ، جعل من المنطقي الافتراض بأن الحركة الاستقلالية قد سيطرت على اذهان وقلوب المسلمين العرب في مناطق معينة على الاقل ، وبذلك جعلت من الصعب جداً على خصومها التعبير عن آرائهم الحقيقية . وثمة ادلة اخرى تشير الى ان الاساليب المستخدمة كانت تتعدى الضغط الادبي الى التهديد بالعنف الجسدي من جانب منظمات وطنية سرية(١٦٨) . وعلى اية حال فإن هذا الوضع (اي السلطة الثنائية) يفسر رفض وجهاء البصرة التعبير علانية عن آرائهم الموالية لبريطانيا . وهو ايضاً يفسر الدوافع الكامنة وراء التوقيع على مضبطة مناوئة لبريطانيا مع الاعتذار خفية للحاكم البريطاني . كما كان الامر بالنسبة لبعض البغداديين .

---

(١٦٦) محمد امين العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ٣ ج (بغداد : المكتبة العصرية ، ١٩٢٥) ، ج٣ ، ص ٩ - ١٢ .

(١٦٧) البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(١٦٨) حوكم عبد المجيد كنه وحُكم بالاعدام من قبل محكمة عسكرية بريطانية لأنه ، كما ادعت المحكمة ، شكل جماعة « ارهابية » ، هددت بقتل كل من يتعاون مع السلطات البريطانية . وقد اعدم شنقاً في ٢٥ ايلول / سبتمبر ١٩٢٠ . انظر : العراق، ٢٦ / ٩ / ١٩٢٠ .

وفضلاً عن ذلك ، فإن الانقسام بين الفئات المناهضة والموالية لبريطانيا كان عميقاً جداً . ومما زاد في اهمية الصراع انه لم يكن عشوائياً ، بل كان يستقطب في موقعين متبلورين . وان نظرة سريعة الى المضابط تبين ان المضابط الموالية للاستقلال كانت متطابقة تقريباً في مطالبها وحتى في صياغتها . وبالمثل، كانت المضابط الموالية لبريطانيا متطابقة ايضاً في اهدافها وتتشابه فيما بينها تشابهاً قوياً . ان هذا الاستقطاب الواضح ، مقروناً بغياب القنوات المؤسساتية لحله ، كان دعوة مكشوفة الى صراع مصيري .

وعليه ، فإن الاستفتاء لم يفشل فقط في التعبير عن الرأي العام المحلي بشكله الصحيح ، بل غذى ايضاً عملية(ثورية) ، ادت الى احداث ١٩٢٠ . وقد تنبأت المس بيل بذلك بصورة لامعة منذ ٢٢ شباط / فبراير ١٩١٩ ، اذ كتبت : « . . . ليس ثمة شك في انه ، عاجلاً او آجلاً ، سيظهر الى الوجود حزب قومي ذو مطامح ضخمة بقيادة رجال مثل حمدي الباججي وجعفر ابو التمن ، وان الاجراءات الاخيرة (الاستفتاء) قد عجلت بولادته »(١٦٩) .

---

(١٦٩) F.O. 311/4150/5394, «Self- Determination in Mesopotamia, Memorandum no. 5, 24, Dated 22 February 1919, Baghdad: From A. T. Wilson to Under- Secretary of State for India,» p. 7.

القسم الرابع
الثورة

الفصل الثالث عشر

التحالف الكبير على طريق الثورة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠

منذ ١٩١٤ وحتى اواخر ١٩١٨ ، مرت الحركة الاستقلالية العراقية بفترة سكون سياسي . وحتى اواخر ١٩١٨ ، كان يقال « ان السواد الاعظم من شعب ما بين النهرين قد رضخ للادارة البريطانية ورضي بها » وانه « يعتقد ان الله وحده هو القادر على زحزحة البريطانيين »[١] ، ومع ذلك ، ففي تموز / يوليو ١٩٢٠ ، كتب ولسن ان ظروفا معينة « قد خلقت حالة من عدم الاستقرار لدى الرأي العام ، ولا يمكن ازالتها بمجرد الكلمات »[٢] .

لقد كان هدفي من البحث في سياسات الادارة البريطانية بخصوص الضرائب ، والاستخدام ، ومسائل الارض ، هو ايضاح الاسباب الكامنة وراء استياء المثقفين والفلاحين العراقيين ، وهذا الاستياء امدّ القوميين ، الذين اصبحوا بؤرة التوتر ، بسند اجتماعي واسع . الا ان القوميين كانوا مهتمين ، بالدرجة الاساسية ، بتأسيس ادارة وطنية ، اكثر منهم بمعالجة شكاوى الفلاحين ، وكان فشل القوميين في الحصول على هذه الادارة هو الدافع الاول وراء محاولتهم المثابرة الناجحة في تشكيل حلف قومي ـ ديني ـ عشائري . لذلك ، فمن المنطقي ان نقوم بدراسة مسألة الادارة البريطانية قبل البحث في نمو الحركة الوطنية وتحالفاتها .

لقد كان من العوامل البارزة التي غذت(حالة عدم الاستقرار في العراق) الخلاف الذي لم يحل بين صانعي السياسة البريطانية حول مستقبل العراق السياسي . وقد سبب هذا النزاع كثيراً من البلبلة واضعف مركز المندوب المدني، وكان تأثيره على القوميين عميقاً . فمن جهة ، كانوا مطمئنين الى انهم يعملون ضمن المفاهيم المعلنة للحكومة البريطانية ، وكانوا يحصلون على تشجيع

---

(١) Bertram Thomas, *Alarms and Excursions in Arabia* (New York; Indianapolis: Bobbs- Merill, 1931), pp. 68-69.

(٢) Sir Arnold Talbot Wilson, «Miscellaneous Papers,» British Museum, Department of Manuscripts, no. 52457, vol. 3, «Dated 5 July 1920,».

كبير من جانب الصحافة والبرلمان البريطانيين . ومن جهة اخرى ، كان صبرهم ينفد ازاء ممانعة المندوب المدني وتلكؤاته .

وعندما دخل الجنرال مود بغداد (في آذار / مارس ١٩١٧) ، كان اول عمل قام به تقريباً هو اصدار بيان انعش الآمال الوردية بقيام حكومة عربية وشيكة : « . . ان جيوشنا لم تأت . . . كفاتحة . . بل كمحررة . . . ان الشعب . . . سيزدهر . . في ظل مؤسسات تتوافق مع قوانينه المقدسة ومثله العرقية . . . »[٣] . وفي ذلك الحين لم يكن الجمهور العراقي يدرك ان « مجلس الوزراء البريطاني ، خلافاً لنصيحة حكامه السياسيين الموضعيين (كوكس ، ولسن ، بيل) ، اصر على اصدار قطعة منمقة من حماسيات سايكس »[٤] . الا ان ولسن لم تكن لديه اية نية اطلاقاً لتنفيذ البيان .

وقد دفعت الهدنة بمسألة مستقبل العراق السياسي الى الصدارة . فبمناسبة « الاختتام الناجح للعمليات الحربية ضد الجيوش التركية » اعلن القائد العام لقوات الاحتلال في ما بين النهرين عن اجراءات لم تتعد العموميات بخصوص « تخفيف القيود على الحرية الشخصية . . . ونقل الجثث لدفنها في كربلاء والنجف . . . واطلاق سراح بعض السجناء . . . وتقديم الطعام للفقراء . . . »[٥] . ولم يتطرق البيان على الاطلاق الى مسائل تتعلق بمستقبل العراق السياسي .

وعلاوة على ذلك ، فبعد ايام قلائل ، صدر التصريح الانكلو ـ فرنسي ، فإلى جانب اهميته ، اشارت اليزابث مونرو الى مغزى توقيته : « ان الوعد الذي يعطيه المنتصر لحظة انتصاره هو من نوع آخر تماماً ، حيث انه يكون في وضع يتيح له الوفاء بوعده »[٦] . وقد جاء هذا التصريح متناقضا تماما مع السياسات الفعلية للبريطانيين في العراق . « لقد وعدنا باقامة مؤسسة للحكم الذاتي ، الا اننا لم نكتف بعدم القيام بأية خطوة الى الامام ، بل انهمكنا في اقامة شيء مختلف تماماً »[٧] .

اولاً : مسألة الادارة العربية

ان هذا التناقض الظاهر يمكن ايضاحه ، عند ربطه بمنشئه الحقيقي كصراع بين صانعي السياسة البريطانية و(الرجل الموضعي) . وليس غرضي هنا تقديم شرح كامل لهذا الصراع ، الا اني سأقتصر في بحثي على المواضيع التي اثرت فعلياً على الحركة الاستقلالية .

---

(٣) «Compilation of Proclamations, Notices Relating to Mesopotamia,» «31 October 1914 to 31 August 1919, Baghdad, Dated 19 March 1917,».

(٤) Elizabeth Monroe, *Britain's Moment in the Middle East,1914-1956* (London: 1956), pp. 41-42.

(٥) «Compilation of Proclamations, Notices Relating to Mesopotamia,» «31October 1914 to 31 August 1919, Baghdad, Dated 2 November 1919,».

(٦) Elizabeth Monroe, *Philby of Arabia* (London: Faber and Faber, 1973), p. 96, «Dated 7 November 1918,».

(٧) Gertrude Lowthian Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell,* 2 vols., edited by Lady F. Bell (New York: Boni and Liveright, 1927), vol. 2, p. 502, «Dated 10 October 1920,».

من الواضح ان ولسن رفض بصورة قاطعة تنفيذ السياسات التي اقرها رؤساؤه . ففي ١٩٢٠ كتب ولسن انه منذ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ لم تؤدِ سياسات وزارة الخارجية « الا الى الكوارث »(٨) . وكان يعتقد ان (النفوذ الكبير) ليونغ كان يستخدم « بصورة كلية تقريباً في اتجاه مناوىء للادارة الراهنة في ما بين النهرين »(٩) ، وقبل الثورة بايام قلائل ، اعترف ولسن بأنه « لا يستطيع الاستمرار بنزاهة في العمل لمدة اطول كثيراً هنا بصفته ممثلاً لـ (حكومة صاحب الجلالة)»(١٠) .

وكان الخلاف يتركز حول مسألة الادارة المستقبلية في العراق . وفي آذار / مارس ١٩٢٠ ، كتب ولسن الى هيرتزل : « لا ارغب في ان ابدو كمن يتخلى عن سفينة غارقة . . . اني مستعد . . لمحاولة ايجاد شيء بنّاء لمواجهة الضرورات الراهنة ، ربما على اساس قيام مجلس تشريعي مركزي يرأسه (المندوب السامي) ، مع قيام اعضاء محليين بترؤس الدوائر مع امناء بريطانيين »(١١) .

الا ان هذا الاساس لم يعد مقبولاً ، كما اكد هيرتزل لولسن . « كما قلت لك دائماً ، ان (حكومة صاحب الجلالة) ملتزمة باقامة حكومة عربية وهي تنوي تحقيق ذلك فعلاً لازوراً »(١٢) . الا ان ولسن لم يوافق على ذلك في جوابه أنه (هووكوكس) « قد اكـدا دائماً انه ليس في امكان (حكومة صاحب الجلالة) ان تنفذ نواياها المعلنة في وقت مبكر »(١٣) . وفي آذار / مارس ١٩٢٠ ، اعلن تشرشل ـ بالاشارة الى العراق ـ عن النظرية المتطورة المهمة للاستخدام الاستراتيجي للقوة الجوية(١٤) . وفضلاً عن ذلك اشار تشرشل الى انه « ينبغي استنباط وسائل اخرى (غير العسكرية) اذا كنا نريد المحافظة على ما بين النهرين »(١٥) . وبدلاً من ادراك اهمية هذا التصريح ، فإن ولسن اعتبره « انه سيكون له اسوأ الاثر ، وانه سيستخدم حتماً بصورة واسعة لأغراض الدعاية »(١٦)

وقد اتخذت هذه المواجهة بعدها الحقيقي عندما كتب ولسن : « . . . ثمة اتجاه ، في بعض المناسبات ، من جانب الحكومة (البريطانية) للتدخل بشكل غير مبرر كلياً في الشؤون المحلية . . . ويكاد يكون من

---

(٨) Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52455, vol. 1, «From Civil Commissioner, Baghdad, to Secretary of State for India Office, no. 9180, 29 July 1920,».

(٩) Ibid., «To P. Cox, 2 January 1920,».

(١٠) Ibid., «To Montagu, 3 June 1920,».

(١١) Ibid., no. 52456, vol. 2, «To Hirtzel, no. 3517A, 19 March 1920,».

(١٢) Ibid., no. 52455, vol. 1, «7 April 1920,».

(١٣) Ibid., no. 52456, vol. 2, «To Hirtzel, no. 4386, 10 April 1920,».

(١٤) كان جوهر هذه النظرية هو الاحتفاظ بما بين النهرين عن طريق الجو اكثر منه بواسطة القوة العسكرية وقد تبنى مؤتمر القاهرة (آذار / مارس ١٩٢١) هذا المفهوم . انظر :

Air Ministry 5/829, pp. 5 and 37, and appendix 13.

(١٥) Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52455, vol., «Copy Deleted from Revters, 26 March 1920,».

(١٦) Ibid., «To India Office, 27 March 1920,».

نافلة القول اني لم اقبل اوامرهم ، الا اننا يجب ان لا نوضع في هذا الموقف »[١٧] .

والواقع ان ولسن سمح لنفسه بتغيير البيانات التي اوعزت (لندن) اليه باذاعتها ، وفي هذا الصدد ، من المفيد مقارنة البيان الفعلي الصادر في العراق في ٢٠ تموز / يوليو ، بذلك الذي ارسلته وزارة الهند في برقيتها بتاريخ ٧ حزيران / يونيو والمعدل ببرقيتها في ١٨ حزيران / يونيو . فقد جاء في البيان الاصلي لوزارة الهند : « ان (حكومة صاحب الجلالة) . . تتوقع ان الانتداب سوف . . . يتطلب منها صياغة قانون اساسي ضمن فترة محددة ، لا تتجاوز سنتين على الارجح ، على ان يتم وضعه بالتشاور مع السلطات الاهلية . . . ان (حكومة صاحب الجلالة) ، آخذة بنظر الاعتبار الرغبات المعلنة لشعب ما بين النهرين في اعادة السير برسي كوكس ، قد قررت تكليفه . . . بالدعوة الى تشكيل (١) مجلس دولة ذي طابع عربي غالب يرأسه عربي ؛ (٢) جمعية عامة تمثل شعوب ما بين النهرين كمجموع ، وسيكون من واجبه تهيئة قانون اساسي دائم ، بالتشاور مع هاتين الهيئتين المؤقتتين »[١٨] .

اما البيان الفعلي الذي صدر في العراق فقد اغفل تماماً ذكر العبارات المؤشرة بالخطوط ، وفي برقية مؤرخة في ٩ حزيران / يونيو ١٩٢٠ ، ذكر المندوب المدني : « يجب ان نكون مستعدين ، بغض النظر عن عصبة الامم ، للسير ببطء شديد في اقامة المؤسسات الدستورية او الديمقراطية »[١٩] . وقد تجلى هذا الرأي بوضوح فيما يتعلق بمسألة مجالس البلديات والتقسيمات المقترحة .

فبنتيجة اجتماع (اللجنة المشتركة ما بين الدوائر) عقد في ١٧ نيسان / ابريل ١٩١٩ ، وحضره المندوب المدني ، تقرر تخويله باتخاذ الخطوات اللازمة لتشكيل خمس مقاطعات في العراق .

« لقد اقر التشكيل المؤقت لمجالس المقاطعات ومجالس الاعمار واعتبر المؤتمر هذه الخطوات كاجراءات ضرورية نحو تكوين دستور في ما بين النهرين تم ارسال التخويل الرسمي في برقية وزارة الهند المؤرخة في التاسع من ايار / مايو (١٩١٩) »[٢٠] .

ومع ذلك ، ففي ٢٩ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٩ ، كتب ولسن : « . . . ثمة مجلس تقسيم في البصرة يمارس اعماله بنشاط . . . اما مجالس المقاطعات (البلديات) فلم يتم تشكيلها بعد ، كما انه لا ينوي القيام بذلك في هذه السنة »[٢١] .

---

(١٧) Ibid., «To P. Cox, 2 January 1920,».

(التشديد من المؤلف) .

(١٨) Foreign Office [F.O.] 371 / 5228, «29 July 1920,» including the two announcements.

(التشديد من المؤلف) .

(١٩) F.O. 371 / 5227, «Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, no. 6948, Dated 19 June 1920,».

(٢٠) F.O. 371 / 5228 / E. 9020.

ويتضمن ذلك تلخيصاً للمراسلات المتعلقة بالوضع السياسي في ما بين النهرين (على يد الميجر يونغ) .

(٢١) F.O. 371 / 5228 / E. 148638.

وفضلاً عن ذلك ، ينبغي الاشارة الى ان مجالس التقسيمات التي لم تكن قائمة الا في البصرة والعمارة وكركوك والديوانية[٢٢] ، كانت تهدف « الى ضمان اقصى فوائد التعاون من قبل الزعماء العشائريين وكبار الملاكين في ادارة هذه المناطق . . وهي (المجالس) ستتألف في عدد لا يزيد عن (١٢) عضواً تتم تسميتهم جميعاً ، في الوقت الحاضر ، من قبل الحكام السياسيين في التقسيمات »[٢٣] .

وفضلاً عن ذلك ، « فإنها ستكون في بادىء الامر استشارية محضة »[٢٤] . لذلك لم يكن غريباً ان « ظهور هذه المجالس لم يثر الا قليلاً من الاهتمام لدى الجماهير ، كما ان النخبة ذات التوجه السيء لم تسهم في مشاوراتها . فهي لم تستسغ نظام التسمية بالرغم من انه طبق بحياد تام »[٢٥] .

الا ان احدى افتتاحيات (البصرة تايمس) اوردت رأياً مختلفاً : « لم يكن من المتوقع ان يتخذ المجلس موقفاً محايداً من بعض القضايا التي طرحت للمناقشة . . . حيث ان كافة الاعضاء ملاكون »[٢٦] . وعليه ، فحسب تعبير ولسن ، « كان بالامكان ظهور دولة عربية وفق الاسس التي ترغب فيها (حكومة صاحب الجلالة) ، الا ان ذلك سيكون عن طريق الثورة ، لا التطور »[٢٧] .

كان عدد كبير من المنفيين السياسيين ، والموظفين والضباط السابقين قد عاد الى العراق بعد الهدنة . وكانوا يأملون في تحقيق الوعود البريطانية الا ان سياسات ولسن دفعتهم الى المعارضة الشديدة للادارة . وقد اكدت المخابرات البريطانية انه « ليس ثمة كثير من الشك في ان الموظفين الاتراك السابقين يلهبون شرارات الاضطراب والهياج ويتطلعون الى تظاهرة علنيـة ، ان لم يكن تمرداً علنياً ، في المستقبـل القريب »[٢٨] .

وقد زار برسي كوكس العراق قبيل انفجار العنف . واعترف بأن الوضع « صعب جداً بدون شك » . وكان الامر الآتي الاكثر الحاحاً هو الاحتفاظ بالسيطرة عليه ، وتفادي اي انفجار منظم خلال الشهور الثلاثة او الاربعة القادمة ، وفي الوقت نفسه « اتخاذ الاجراءات التي ستكسب المعتدلين الى جانبنا بصورة علنية » . وذكر كوكس « ان هذا الهدف لا يمكن تحقيقه الا بعرض بعض المواضيع للمناقشة وتقديم براهين على حسن نيتنا . . . وقد يكون من الضروري السماح لولد بالتوجه الى لندن لغرض كسب الوقت »[٢٩] .

---

(٢٢) اعترف ولسن بأنه « لـم تتخذ خطوات نحو ذلك في الدير وبغداد والحلة والنجف والناصرية والرمادي وسامراء وبعقوبة وخانقين . . . كما اني لا انوي القيام بذلك في هذه السنة » . انظر : F.O. 371/4152/14836.

(٢٣) Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), p. 211.

(٢٤) المصدر نفسه .

(٢٥) المصدر نفسه .

(٢٦) *The Basrah Times*, (10 January 1920).

(٢٧) Briton Cooper Busch, *Britain, India and the Arabs, 1914-1921* (London: 1971), p. 412.

(٢٨) F.O. 371/5074, «Mesopotamia Police, Abstracts of Intelligence, no. 14, Dated 3 April 1920,».

(٢٩) F.O. 371/5227/E. 7253, «Summary of Correspondence Regarding Political Situation in Mesopotamia,».

وفي ظل هذه الظروف خولت وزارة الهند المندوب المدني باعلان البيان الآنف الذكر الا ان هذه الخطوة جاءت بعد فوات الاوان . فقبل ذلك بثلاثة ايام كان ولسن قد ابلغ وزارة الهند انه قد علم ان الوطنيين سوف « يقترحون في المستقبل التفاوض معي للاصرار على حرية الشعب في اختيار الدولة المنتدبة »[٣٠] . والواقع ان ولسن كان قد اوضح ، في وقت سابق ، اقتناعه بأنه لم تعد ثمة جسور بين ادارته والقوميين العراقيين[٣١] . وكان هؤلاء العراقيون قد رفضوا الانتداب منذ نيسان / ابريل ١٩٢٠[٣٢] . وقدم الوفد الحجازي مذكرة الى مؤتمر الصلح اشار فيها الى ان الانتدابات كانت تفرض بدون اعتبار لرغبات السكان « الذين انعكست مطامحهم في مؤتمر دمشق »[٣٣] في آذار / مارس ١٩٢٠ .

وهكذا يبدو واضحاً ان البيان ، حتى بصيغته (الهندية) لم يكن مقبولاً لدى القوميين العراقيين . والواقع انه حتى الصيغة النهائية لبيان وزارة الهند لم تكن مقبولة لدى اعضاء وزارة الخارجية ، فلقد علق يونغ : « ان النقاط الجديدة الوحيدة في البيان المخول من قبل وزارة الهند هي الآتية :

١ ـ الاشارة الى القانون الاساسي ، وهي لا تضيف شيئاً جديداً في الواقع .

٢ ـ وصف مجلس الدولة بكونه ذا طابع عربي غالب . . . »[٣٤] .

وقد وافق السير أ . ج . تيلي على ملاحظات يونغ واضاف ان « بامكان كوكس ، اثناء وجوده في بغداد ، ان يبين اننا لن نعارض اطلاقاً في تنصيب امير شريفي »[٣٥] .

وفضلاً عن ذلك ، فقد اصدر ولسن ، في الوقت نفسه ، بياناً آخر اكد فيه ان القوات البريطانية لن تنسحب ، وانه لن يتردد عند الضرورة ، في دعوة السلطات العسكرية الى تقديم المساندة الكاملة للدولة الحاكمة[٣٦] . وفي بيانه الثاني ، لم يقم ولسن حتى باستشارة سلطاته العليا[٣٧] . وغني عن القول ان هذه البيانات (المتشددة) لم يكن من شأنها الحصول على رد فعل ايجابي من القوميين ولا تشجيع المعتدلين على (الخروج الى العلن) ومجابهة (ارهاب) الوطنيين .

وقد اوضح المندوب المدني لوزارة الهند الغاية من اقتراحه بحذف بعض الفقرات في بيانها :
« ان احالة الاسئلة مجدداً الى مجالس التقسيمات و (الرأي العام المحلي) لا يمكن ان تؤدي الا الى نتيجة واحدة . وهي

---

(٣٠) F.O. 371/5227/E. 6800, «From Civil Commissioner, Baghdad, no. 7199, Dated 15 June 1920,».

(٣١) F.O. 371/5227/E. 6060, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, no. 6584, Dated 3 June 1920,».

(٣٢) انظر الصفحات التالية .

(٣٣) F.O. 371/5035, «From Vansittant, Paris, Dated 3 May 1920,».

(٣٤) F.O. 371/5227/E. 6509, «Dated 16 June 1920,».

(٣٥) المصدر نفسه .

(٣٦) العراق ، ٢١ / ٦ / ١٩٢٠ .

(٣٧) F.O. 371/5227/E. 7459.

ان المتطرفين الذين . . . يطالبون بالاستقلال المطلق . . . سيكسبون الى جانبهم . . . عن طريق التهديدات والنداءات . . الرجال المعتدلين الذين كانوا حتى الآن يتطلعون الى (حكومة صاحب الجلالة) لتحقيق خطة تتضمن فرصة معقولة للنجاح ويمكن ان تحصل على تأييدهم »(٣٨) .

وقد علق الميجر يونغ : « ان هذه النداءات (المتطرفة) ستكون مقاومتها اكثر صعوبة اذا استطاع المتطرفون التنويه بحقيقة ان (حكومة صاحب الجلالة) قد فرضت على البلاد دستوراً ذا طابع بريطاني غالب . واني مقتنع بأن الدستور يجب ان يكون عربياً بحتاً »(٣٩) .

ومع ذلك فقد اذاع ولسن البيان بـ (الطريقة التي ارادها) . فكتب الميجر يونغ : « ليس عندي الا قليل من الشك في ان عبارة (الطابع العربي الغالب) هي التي يعترض عليها الكولونيل ولسن . وهويفضل قيام اغلبية بريطانية في مجلس الدولة »(٤٠) .

وكان الاقتراح الثاني لكوكس هو السماح لوفد عراقي بالتوجه الى انكلترا . ولو كان قد سمح للوفد المناسب بالسفر ، لكان ذلك خفف من المجابهة الحادة التي كانت تتصاعد . وكان يوسف السويدي ومحمد مهدي الصدر يأملان في « السفر الى لندن ، حيث كانا ينويان طرح قضيتهما امام (حكومة صاحب الجلالة) »(٤١) . وقد صدرت هذه الفكرة عن ناجي بن يوسف السويدي ، الذي كتب الى والده في اوائل ١٩٢٠ رسالة (وقعت في ايدي البريطانيين) يقترح فيها تشكيل وفد للتوجه الى لندن(٤٢) .

الا ان هذه المحاولة لم تنجح . ففي اجتماع مشترك ما بين الدوائر ، اكد هيرتزل ان « ولسن يعارض بشدة فكرة اجراء المزيد من المشاورات مع شعب البلاد »(٤٣) . وفي اجتماع آخر ، كشف اللورد كرزن عن اقتراح ولسن الداعي الى تشكيل « وفد من ثمانية اشخاص » . ونوه كرزن ، بطريقة لا تخلو من دلالة ، بأن ولسن « يرغب دون شك في اختيار (هؤلاء الاشخاص) بنفسه بعناية » . ومضى كرزن الى القول بأنه « في برقية سابقة ، مرقمة ٦٧٩١ ومؤرخة في السابع من حزيران / يونيو ، ذكر (ولسن) انه ليست ثمة فائدة ترتجى من مقابلته للمتطرفين » . وكشف كرزن عن ان هذه البرقيات تركت لديه (انطباعاً سيئاً)

---

(٣٨) F.O. 371/5226/E. 4789, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office,no. 5559, Dated 8 May 1920,».

(٣٩) المصدر نفسه .

(٤٠) F.O. 371/5227/E. 6509, «Dated 16 June 1920,».

(٤١) F.O. 371/6349/2172, «Mesopotamia Intelligence Report, no. 3, Dated 15 December 1920,».

(٤٢) اقترح ناجي ، العراقيين التالية اسماؤهم ، والقاطنين في سورية ، لمرافقة الوفد : نوري السعيد ؛ طه الهاشمي ؛ رشيد الخوجه ؛ علي جودت ؛ فهمي المدرس ؛ جميل المدفعي ؛ رؤوف الجيبه جي ؛ تحسين علي ؛ رؤوف الكبيسي ، وشاكر الشيخلي . انظر : F.O. 371/5082.

(٤٣) F.O. 371/5225/4811, «Minutes of I.D.C.E., 26 May 1920,».

بعدم قدرة ولسن على معالجة الوضع(٤٤) . وقد تطرق يونغ الى الموضوع بمزيد من الاسهاب ، فيما يتعلق بالعوامل الكامنة وراء رفض وزارة الخارجية للوفد العراقي :

« ان اعتراضي على هذا الاقتراح هو انه لا يمكن لأي وفد من ما بين النهرين يرشحه الكولونيل ولسن ، ان يمثل آراء البغداديين المنفيين الذين هم العلة الكامنة وراء الاضطرابات . . . ان المحركين الاساسيين هم الاشخاص التسعة والعشرون من ما بين النهرين الذين اجتمعوا في دمشق للمناداة بعبدالله ملكاً على ما بين النهرين . وفي رأيي ، ان من الافضل جداً ان يدعى هؤلاء الرجال الى بغداد لشرح وجهة نظرهم للسير برسي كوكس ، من ان يتوجه الى انكلترا وفد منتقى بواسطة ولسن ، لتكرار الآراء التي سبق الاعراب عنها خلال استقصاء تحقيق المصير الذي جرى في العام الماضي »(٤٥) .

وفي هذه المرة اعترف مونتاغو بأنه لم يكن يعتقد ابداً بأن « من الانصاف الطلب (من ولسن) بميله الواضح الى تركيز السلطة في يديه ، تنفيذ سياسة (حكومة صاحب الجلالة)»(٤٦) . ومع ذلك فقد اشار مونتاغو الى انه « يجب عدم اغفال النتيجة المحتملة لرفض السماح لولسن بارسال الوفد الذي يقترحه » . ويجب ان يضم هذا الوفد حتى « اولئك البغداديين غير المقيمين في ما بين النهرين »(٤٧) . وقد جادل كرزن بأن « المستر مونتاغو . . يشير الى قضية زغلول ولكن هل هناك مبرر للافتراض بأن الكولونيل ولسن سيرسل رجلاً من هذا الطراز؟ اننا اردنا زغلولاً محلياً ، لا وفداً منتقى من المعجبين الطيعين »(٤٨) .

كان هذان التياران بين صانعي السياسة البريطانية يصدران عن مصالح ووجهات نظر مختلفة(٤٩) . وكان من الصعب جداً التوفيق بين السياسات العملية التي يتطلبها كل من التيارين . وكان التأخر غير الحكيم في انتهاج احد الخطين بشكل ثابت هو المسؤول الى حد كبير عن انفجار العنف(٥٠) . وفي آذار / مارس ١٩٢٠ ، توقع ولسن ، من جملة اشياء اخرى ، حدوث (اضطرابات) في الفرات خلال الصيف ، وابلغ رؤساءه بأن الشامية والنجف قد « اختيرتا بواسطة الحزب السوري (كذا) كأفضل تربة ملائمة لدعايته »(٥١) . وفي حزيران / يونيو اكدت بيل(٥٢)

---

(٤٤) F.O. 371/5225/4811, «Minutes of I.D.C.E., 27 June 1920,» p.3.

(٤٥) F.O. 371/5227/E. 6507, «Dated 10 June 1920,».

(٤٦) F.O. 371/5226/4811, «Minutes of I.D.C.E., 27 June 1920,».

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٤ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٥ ـ ٦ .

(٤٩) انظر الفصلين الثامن والخامس عشر من هذا الكتاب .

(٥٠) كتب ولسن الى والدته ان حكومة صاحب الجلالة « تجد من المناسب الزعم بأني انا المسؤول ، وليست هي ، عن الاحداث التي جرت » ، انظر :

Sir Arnold Talbot Wilson, «Letters, 1903-1921,» London Library, vol. 2, «Dated 6 September 1920,».

(٥١) Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52457, vol. 3, «To Secretary of State for India Office, no. 6948, 9 June 1920,».

(٥٢) Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, vol. 2, p. 489, «14 June 1920,».

وكوكس[٥٣] على خطورة الموقف .

ولأجل مواجهة الوضع ، كان هناك خياران : اتخاذ خطوات للتفاهم مع القوميين ، او استخدام القوة ، وقد رفض ولسن النهج الاول : « لا يمكننا المحافظة على وضعنا كدولة منتدبة بسياسة تصالحية ازاء المتطرفين »[٥٤] . في حين رفضت (لندن) النهج الثاني ، لأنها كانت ترى « اننا لا نستطيع المحافظة (على ما بين النهرين) بانفاق ما يتراوح بين ١٥ و٢٩ مليوناً عليها سنوياً»[٥٥]، وكانت ترى ايضاً « ان الاتجاه الذهني لولسن خاطىء برمته وان وجوده على رأس الادارة . . . ليس امراً عملياً »[٥٦] . وهكذا نشأ وضع غير معقول : فقد سمح لمندوب مدني (متشدد) بمواصلة سياسته في استفزاز القوميين من دون السماح له باستخدام الوسائل اللازمة لحماية سياسته . ومن جهة اخرى ، كانت الحكومة البريطانية « الميالة الى التصالح ، عاجزة عن اظهار اعتدالها ، لأن (رجلها الموضعي) كان يرفض تنفيذ (سياساتها التصالحية) » .

ان بعض الكتاب ، من ذوي الخبرة الادارية في العراق ، قد عزوا قيام الحركة الاستقلالية الى البيان التصالحي الذي اعلنه الحلفاء[٥٧] . الا ان هذا لا يمثل الا جزءاً من الحقيقة . اذ ينبغي ان لا يغيب عن الاذهان ان الوطنيين العراقيين كانوا قد طالبوا بـ (تعريب) الادارة منذ ١٩١٢-١٩١٤[٥٨] . وفي الواقع ، كان طالب النقيب في البصرة قد عقد اتفاقاً بهذا المعنى مع الاتراك ، في شباط / فبراير ١٩١٣[٥٩] . الا ان هذا الاتفاق اثار قلق القوميين في بغداد[٦٠] . وقد شكلت السياسة البريطانية الفعلية في العراق (خلال عهد ولسن) تحولاً سلبياً في الواقع ، وهذا ما اثار القوميين : « هل قاتلنا للتخلص من الاتراك . . لكي يحل محلهم البريطانيون؟»[٦١] . كما اندفع المتعلمون ، بالجملة ، الى تأييد قضية الاستقلال بحماس .

وكان النموذج السوري لحكومة عربية مستقلة بكل بشائره وتناقضه الواضح مع ظروف العراق ، عاملاً آخر وراء القلق السياسي للقوميين العراقيين[٦٢] . وكان العراقيون (يراقبون عن

---

(٥٣) F.O. 371/5227/E. 7253, «From Civil Commissioner, Baghdad, no. 7696, 22 June 1920,».

(٥٤) Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52457, vol. 3, «To Secretary of State for India Office, no. 6946, 9 June 1920,».

(٥٥) Ibid., vol.1, «Churchill Speech, 26 March 1920,».

(٥٦) F.O. 371/5226/4811, «Minutes of I.D.C.E., 27 June 1920 (LordCurzon),».

(٥٧) Thomas, *Alarms and Excursions in Arabia,* pp. 68-69, and James Saumarez Mann, *An Administrator in the Making* (London; New York: Longmans; Green, 1921), p. 292.

(٥٨) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٥٩) سليمان فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات (بغداد : عبد الحميد سليمان ، ١٩٥٢)، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٦٠) محمد مهدي البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ٢ ج (بغداد : ١٩٢٤) ، ص ٤٦ -٤٧ .

(٦١) Zeine N. Zeine, *The Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom in Syria* (Beirut: Khayat's, 1960), p. 146.

(٦٢) F.O. 371/5227/E. 606, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, no. 6564, Dated 3 =

كثب) تقدم الحركة الوطنية في تركيا وانتصارات مصطفى كمال(٦٣) . كما كان للاضطرابات في ايرلندا وقعها هي الاخرى وساهمت الثورة المصرية في ١٩١٩ في غرس المشاعر المناوئة لبريطانيا وعززت مطامح القوميين(٦٤) .

إن تأثير الثورة الروسية على الحركة العراقية يستحق وقفة قصيرة . وقد افترض ان الاحداث العراقية في ١٩٢٠ قد اثر فيها البلاشفة الى حد كبير ، وفي تموز / يوليو ١٩٢٠ كان المندوب المدني يعتقد ان مرزا محمد رضا (نجل المجتهد الاول الشيرازي) « يعمل لصالح البلشفية في كربلاء »(٦٥) . وفي اواسط تشرين الثاني / نوفمبر ، افاد المندوب السامي بوجود وكيلين بلشفيين في بغداد ، احدهما (قوميسار سابق في موسكو)(٦٦) . وفي اواخر تشرين الثاني / نوفمبر افادت المخابرات البريطانية بوجود جماعة سرية تدعى (الحق) « تلقت رسالة من الحكومة البلشفية » تعدها فيها بالمساعدة(٦٧) . وفي ١٥ كانون الاول / ديسمبر ، تلقت المخابرات البريطانية « معلومات مفادها ان مرزا محمد رضا . . . يدعو الى التفاهم مع البلاشفة »(٦٨) . وجاء في التقرير ايضاً ان (اربعة وكلاء بلاشفة) قد « مروا دون شك (حاملين) توصيات الى شيخ الشريعة (الاصفهاني) »(٦٩) . وفي كانون الثاني / يناير ١٩٢١ افادت المخابرات عن تكوين جيش من الف مقاتل عربي في باكو(٧٠) . وقد بلغ هذا التجسيم اللامنطقي لـ (الخطر البلشفي) ذروته عندما توصلت وزارة الحربية الى الاستنتاج بأن الثورة العراقية ليست الا جزءاً من « تأثير موسكو الخبيث »(٧١) . وطبقاً لـ (استخبارات الشرطة) في بغداد ، كان محمد مهدي الصدر بلشفياً !(٧٢) .

ويميل بعض الكتاب العرب المعاصرين ايضاً الى المبالغة في تقويم تأثير النظام السوفياتي على

June 1920,» and Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920-a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, pp. 212 and 251. =

(٦٣) Wilson, Ibid., p. 212.

(٦٤) محمد امين العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ٣ ج (بغداد : المكتبة العصرية ، ١٩٢٥) ، ج ٣ ، ص ٩٩ .

(٦٥) F.O. 371 / 5078, «Baghdad Memorandum no. 20760, 14 July 1920: Report by A.P.O., Karbala, on Activities of Anti-Government Party and Precis of Evidence against Each Deportee,».

(٦٦) F.O. 371 / 5292 / E. 14660, «From House of Commons, Baghdad, 16 November 1920, no. 13946, Very Secret,».

(٦٧) F.O. 371/6349/2172, «Mesopotamia Intelligence Report, no. 2, 30 November 1920,» p.4.

(٦٨) Ibid., «Mesopotamia Intelligence Roport, no. 3, 15 December 1920,» p.7.

(٦٩) المصدر نفسه .

(٧٠) F.O. 371/6350/3824, «Mesopotamia Intelligence Report, no. 6, 31, Junuary1920,».

(٧١) War Office [W.O.] 33/33/969, «Causes of the Outbreak in Mesopotamia, October 1920,».

(٧٢) F.O. 371/5081, «Baghdad Police Reports, Prepared by the India Office, November 1920, Dated 27 March 1920,» pp. 86, 95 and 207.

احداث العراق في ١٩٢٠[٧٣] . وقد ذهب اميل توما الى حد القول بأن قيام الحكم الوطني في العراق كان إحدى نتائج ثورة اكتوبر (البلشفية)[٧٤] .

الا انه ليس ثمة دليل يؤيد كل ذلك . بل يبدو ان البلاشفة كانوا يعتبرون « ما بين النهرين منطقة متخلفة بشكل استثنائي » . وما عدا بياناً قصيراً موجهاً الى (فلاحي ما بين النهرين)[٧٥] ، ولم يصل العراق على الارجح ، ليس ثمة ما يشير الى اي تأثير مباشر .

وفضلاً عن ذلك ، فإن موقف القوميين العراقيين ازاء البلشفية يعكس محدودية الصلات بين الحركتين . وقد ميزت جريدة (الفرات) ، الناطقة بلسان الثورة ، ميزت بوضوح بين اهداف الحركتين (حيث ان الاولى اجتماعية وعالمية ، والاخرى سياسية ووطنية) . وفي هذا الصدد ، قرنت (الفرات) الحركة العراقية بـ (شقيقتيها) ، (الثورتين) المصرية والايرلندية[٧٦] . وبعد سقوط (انزلي)، توقعت الفرات زحفاً روسياً على العراق وحثت القوميين على اتخاذ قرار نهائي حول الجهة التي « ينبغي على العراقيين ان يحاربوا الى جانبها »[٧٧] . وفي العدد نفسه لم تكتم الجريدة شكوكها بخصوص نوايا البلاشفة[٧٨]. على انه من المؤكد وجود تأثير غير مباشر يتمثل بفضح البلاشفة لمعاهدة سايكس ـ بيكو وتأثير ثورتهم في اضعاف الامبريالية البريطانية عالمياً .

ثانياً : نشوء احزاب سياسية جديدة

ان البحث هنا سيقتصر على بغداد، ذلك ان البصرة لم تعد تلعب اي دور (قومي) فعال . كما اننا سبق ان بحثنا الفعاليات السياسية في الموصل، الا ان من المفيد اعطاء تقويم مختصر عن اوضاعها السياسية .

في اواخر ١٩١٩ ، نوّه الحاكم السياسي بالوضع (المضطرب) في الموصل ، والذي عزاه الى (تأثيرات) خارجية[٧٩] . واكد ان غير المسلمين لا يتعاطفون مع القوميين[٨٠] . وكان المندوب

---

(٧٣) انظر على سبيل المثال : النوري ، « ثورات العراق الوطنية ، » الثقافة الجديدة (بغداد) ، العدد ١٤ (حزيران / يونيو ١٩٧٠) ، ص ٣٠ ـ ٣١ ، وسعاد خيري ، « الثورة العراقية الاولى ،» الثقافة الجديدة ، العدد ٣٨ (تموز / يوليو ١٩٧٢) ، ص ٧٧ ـ ٨٩ .

(٧٤) اميل توما ، الوحدة العربية في تطورها التاريخي (حيفا : ١٩٧٠) ، ص ١٢ (في الاصل اطروحة للدكتوراه قدمت الى جامعة موسكو) .

(٧٥) Dementrio Boersner, *The Bolsheviks and the National and Colonial Question, 1917-1928* (Geneva; Paris: 1957), pp. 98 and 127.

(٧٦) الفرات ، ٢٨ / ذي القعدة / ١٣٣٨هـ .

(٧٧) الفرات ، ٥ / ذي الحجة / ١٣٣٨هـ .

(٧٨) الفرات ، ٢٨ / ذي القعدة / ١٣٣٨هـ .

(٧٩) انظر على سبيل المثال : تصريح الرئيس ولسن ؛ وتأخر عقد معاهدة الصلح مع تركيا ، وقيام الدولة العربية في سورية .

(٨٠) Colonial Office [C.O.] 696/2, «Administration Reports, Mosul Division, 1919,» p.7.

المدني قد اعرب عن هذا الرأي قبل ذلك بعام[٨١] . وحتى في اواخر ١٩٢٠ ورد في احد التقارير ان الانباء عن قرب قيام حكومة عربية قد « خلقت حالة شبيهة جداً بالذعر » بين الاقليات الدينية[٨٢] .

(اما فيما يخص المحمديين) ، فقد كتب الحاكم السياسي في اواخر ١٩١٩ : « ان وجهاء المدن ، والملاكين والمثقفين ، لا يشعرون على العموم بمساوىء الادارة التركية . . . وتجد الدعاية الشريفية تاييداً كبيراً من جانب اولئك الذين . . يأملون بأن يحصلوا في ظل حكومة عربية على المناصب الحكومية التي يشغلها الاجانب الآن . . . ومن المتوقع قيام اتجاه في صالح تركيا»[٨٣] .

الا ان هذه الاتجاهات كانت قصيرة الاجل ، نظراً لأن مصطفى كمال نفسه ، كما سبق ان اشرنا ، لم تكن لديه اي مطامح عربية : « ان اعتراضه لا ينصب على استقلال العرب ، بل على حكم بريطانيا للعراق »[٨٤] .

وفي اواخر ١٩٢٠ ، كتب الحاكم السياسي للموصل : « فيما يتعلق بالعرب انفسهم ، فإن العشائر على الارجح تحبذ (قيام حكومة عربية) على اساس ان ذلك من شأنه اضعاف الحكم . . . والمزارعون يعارضون ذلك على الارجح لنفس السبب بالضبط . اما بالنسبة لموقف سكان المدن الصغيرة . . . فإن فكرة كون العرب قادرين تماماً على ادارة شؤونهم الخاصة بدون اي مساعدة او اشراف من احد ، لم تعد قوية كما كانت في السابق »[٨٥] .

وبالرغم من الطابع السري للحركة الوطنية في الموصل ، فقد استطاعت الادارة البريطانية الحصول على المعلومات التالية :

« امين العمري : كان مستخدماً لدينا (في الادارة) في ١٩١٩ ، ثم استقال وذهب الى سوريا . . . وظهر كضابط ارتباط بين الكماليين والقوة الشريفية التي هاجمت تلعفر . . . من جماعة العهد . . . .

عزيز عرب : تاجر شاب ، يشتبه منذ زمن طويل بكونه عضواً فعالاً في العهد . . . اعتقل تمهيداً لمحاكمته بتهمة المشاغبة .

عزيز اسماعيل العمري : معلم شاب . تشير التقارير الى انه يستخدم دروسه لغرض الدعاية ، وانه واسطة لاتصالات العهد ببغداد ، وانه مكلف بصورة خاصة باكتشاف وكلائنا السريين .

الدكتور داود الجلبي : طبيب مثقف ، يعتقد انه رئيس لجنة العهد في الموصل . . .

حمدي جلميران : تاجر شاب عضو في العهد . سجن لفترة قصيرة في ايار / مايو ١٩٢٠ . . . .

---

(٨١) F.O. 371/4147/146, «Political Baghdad Report to India Office, 26 December1918,».

(٨٢) C.O. 696/3, «Administration Report, Mosul Division, 1920,» p.25.

(٨٣) C.O. 696/2, «Administration Report, Mosul Division, 1919,» p.7.

(٨٤) F.O. 371/6353/71, «From High Commissioner, Iraq, to Secretary of State for the Colonies,».

(٨٥) C.O. 696/3, «Administration Report, Mosul Division, 1920,» p.26.

الملا محمد عرب : امام جامع النبي جرجيس . . . يعتقد انه متعصب جداً وشديد العداء لبريطانيا . لعب دوراً بارزاً في (مولـد) آب / اغسطس ١٩٢٠[٨٦] .

مصطفى ابن الحاج حسين اغا : (محامٍ شاب) ، عضو في العهد ، اصبح في بغداد عضواً في (الحرس) وهو الرئيس المحلي لهذه الجمعية في الموصل .

مصطفى احمد العمري : (طالب حقوق) في بغداد ، قومي متطرف . . كان عضواً في اللجنة الفرعية للمندوبين الاربعين[٨٧] . . . مراسل العهد في بغداد .

سعيد ابن الحاج ثابت : تاجر في (الخامسة والثلاثين) . عضو بارز في العهد دون شك ، نجا من الاعتقال في ماردين . . . »[٨٨] .

في اواخر ١٩١٨ ، كانت قد تشكلت في بغداد لجنة ادارية لقيادة العهد . وكانت تتألف من الشيخ سعيد النقشبندي (معتمداً)، واخيه علاء النائب، وابنه بهاء النقشبندي، ونوري فتاح (ضابط سابق ومسؤول عن الاتصال بـ (المركز العام) في دمشق ، وحسن رضا (محامٍ) ، وامين زكي (ضابط سابق) ، والاخوين سامي وانور النقشلي (ضابطان سابقان) ، وعزت الاعظمي (كاتب). وبدأ فرع بغداد بإصدار مجلته (اللسان) ، في حين اصدر المركز في دمشق صحيفة (العُقاب)[٨٩] .

وخلافاً لجناحيه في سوريا والموصل ، لم يستطع فرع العهـد في بغداد ان يبـرز كمركـز استقطاب للفعاليات السياسية . وفي اواخر ١٩١٩ وما يليها اسس القوميون العراقيون حزباً آخر باسم (حرس الاستقلال) للتعبير عن اهدافهم وتنظيم جهودهم .

ان هذه الحقيقة ليست معروفة على نطاق واسع ولم تجر اي محاولة لتفسيرها وفي هذا الصدد ، يجدر بنا ان نستعيد الى الاذهان التعديل الآنف الذكر في دستور العهد ، والذي كان ينص على اعتبار بريطانيا المصدر الوحيد للمساعدة . ان هذا النهج لم يكن موضـع ترحيب لـدى الفئات الوطنية في داخل العراق . ذلك ان الحركة في الداخل كانت اكثر عداء للبريطانيين واقل شعوراً بـالاتجاهـات (المناوئـة لولسن) و(الليبـرالية) ، والمتفـاعلة داخل صفـوف صانعي السيـاسة البريطانية . واغلب الظن ان ارتباط فرع بغداد بالمركز (السوري) قد جرده من المبادرة والمرونة السياسيتين الضروريتين . كما ان الطابع العسكري الغالب على العهد قد يكون عاملاً آخر في ضعفه بين المدنيين .

---

(٨٦) انظر الصفحات التالية .

(٨٧) انظر الصفحات التالية .

(٨٨) F.O. 371/6349/171, «Personalities in Mosul,».

(٨٩) عبد الرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ط ٢ (صيدا : مطبعة العرفان، ١٩٦٥) ، ص ٥٦ .

ان نظرة اكثر تمعناً في التاريخ السياسي والفكري لسعيد النقشبندي (زعيم العهد في بغداد) يمكن ان تساعدنا في تفهم اسباب فشله السياسي . فقد كانت آراؤه الطائفية والمحافظة عائقاً جدياً امام تسنمه زعامة القوميين . وفي الوقت الذي كان فيه الشيرازي (الاب) يلعب دوره (التقدمي) في تأييد الحركة الدستورية ومقاومة امتياز التبغ سافر النقشبندي ، باذن من الوالي ، الى سامراء في ١٨٩٣ ليكافح شعبية الشيرازي المتصاعدة . وانفجر الصراع في سامراء ، بشكل هدد العراق بأسره ، وكاد يؤدي الى التدخل الاجنبي لولا الحكمة التي ابداها البعض[٩٠] .

وفي ١٩١٠ ، نشرت مجلة عراقية تدعى (تنوير الافكار) مقالاً بقلم الزهاوي ، دعا فيه الى اعطاء بعض الحقوق للنساء . واثار المقال عاصفة من الاحتجاج بين بعض العلماء ، انتهت باعفاء الزهاوي من وظيفته في كلية الحقوق . واضطر الزهاوي الى الهرب من بغداد لإنقاذ حياته من الغوغاء المتعصبين[٩١] . وخلال هذه المناسبة كشف النقشبندي عن المزيد من ميوله المحافظة المتطرفة ، فنشر كراساً بعنوان (السيف البارق في عنق المارق) .

وكان النقشبندي ايضاً عضواً بارزاً في جماعة (المشورة) العراقية (المحافظة) التي تأسست لمعارضة الاتحاديين في العراق[٩٢] . ومن الجدير بالذكر ان معظم القوميين العراقيين كانوا خلال سنوات ١٩٠٨ - ١٩١٢ ، انصاراً متحمسين للشعارات الدستورية والاصلاحية للاتحاديين ، ولم ينقلبوا عليهم الا عندما كشف الاخيرون عن تعصبهم التركي واساليبهم الاستبدادية .

وهكذا ، فقد تأسست في شباط ١٩١٩ ، مجموعة جديدة باسم (حرس الاستقلال) . وكان الذين بادروا بتأسيسها فئة من القوميين الشباب في العقد الثالث من العمر : شاكر محمود ، محمود رامز ، عارف حكمت (ضباط سابقون) ، علي افندي البازركان (معلم) ، جلال بابان (محام) ، وباقر الشبيبي (كاتب)[٩٣] . وعلى اثر تأسيس هذا الحزب ، اجتذب طابعه (الاندفاعي) تأييد مجموعات اوسع . فانضم اليه ناجي شوكت ، والدكتور سامي شوكت ، وحمدي الباججي (وكانوا جميعاً من الاعضاء النشطين في العهد سابقاً) ، وجعفر ابو التمن ،

---

(٩٠) أ . ب . الطهراني ، المجدد الشيرازي (النجف : [د . ت .])، ص ١٩ - ٢٣ ؛ يونس الشيخ ابراهيم السامرائي : تاريخ علماء سامراء (بغداد : دار البصرى ، ١٩٦٦) ، ص ٢١ - ٢٤ ، وتاريخ مدينة سامراء (بغداد : ١٩٧١)، ج٢ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٩١) عبد الرزاق مجيد الهلالي ، الزهاوي بين الثورة والسكوت (بيروت : دار الثقافة ، [د.ت.])، ص ٤٣ .

(٩٢) كان الاعضاء القياديون في هذه الفئة هم : عبد الرحمن النقيب ، عيسى افندي الجميل ، عبد الرحمن باشا الحيدري ، محمد فاضل الداغستاني ، الملا نجم الواعظ ، ومصطفى الشهرباني . وكانوا جميعاً من السنة ، واغنياء ، ومحافظين . انظر : علي حسين الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ٧ج (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٦٩ - ١٩٧٦) ، ج٣ ، ص ١٦٤ . كان الشهرباني من الشيعة.

(٩٣) البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ص ١٣٧ .

وبهجت زينل (محامي)، وعبد الغفور البدري ضابط سابق وصاحب جريدة (الاستقلال) وعبد المجيد كنه (زعيم شعبي محلي)[٩٤].

كما ان يأس بعض العراقيين الشباب من (اعتدال) فرع العهد في بغداد دفعهم الى تشكيل جمعية سرية باسم (جمعية الشبيبة العراقية) . وكان هؤلاء : جعفر حمندي ، وصادق حبه ، وسامي خوندة ، وصادق الشهرباني وعباس مهدي ، وقاسم العلوي ، وسعد صالح[٩٥] . وكانوا خليطاً من الخريجين (السنة والشيعة) الشباب ، وقد اتضح (تطرفهم) في التقرير التالي للمخابرات البريطانية :

« اخبر عارف حكمت جابون احد الوكلاء بأن هناك جمعية سرية (يظهر انها فرع لـ (الشبيبة القومية) ولها فروع في البصرة وبغداد والموصل وغيرها من المدن الكبيرة ، وغايتها التخلص من الاشخاص الذين يفترض انهم معادون لأهدافها (في الاستقلال والوحدة العربية)»[٩٦] .

ان ظهور (الحرس) ببرنامجهم المتشدد وتركيبهم اللاطائفي الواضح شجع اعضاء (الشبيبة) على دمج جمعيتهم بـ (الحرس)[٩٧] .

واحرزت جماعة (الحرس) انتصاراً حقيقياً عندما حصلت على تأييد ورعاية يوسف السويدي ومحمد مهدي الصدر . وكان مركز السويدي بين وجهاء بغداد لا يعلو عليه الا مركز النقيب . وكان قد عاد الى العراق من منفاه في تركيا بعد اعلان الهدنة . وقد فوجئت الادارة مفاجأة شديدة بوقوف السويدي موقفاً متشدداً وانضمامه الى المعسكر القومي المعادي لبريطانيا[٩٨] . اما بالنسبة للصدر، فقد كان يحتل المركز الاول بين ابناء الكاظمية في بغداد .

وقد التقت غرترود بيل بالسيد حسن الصدر (والد محمد) في ١٣ آذار / مارس ١٩٢٠ :

« قلت له . . . ان فيصل سيتوّج . فسألني ، باهتمام مفاجىء : « على سورية كلها ، حتى البحر ؟ » . . فأجبته : « كلا ، ان الفرنسيين سيبقون في بيروت » . فقال : « اذن لا فائدة»»[٩٩] .

وقد ارسلت المخابرات البريطانية التقرير التالي الذي يشير الى الاتجاهات السياسية للسويدي والصدر : « التقى تحسين بك (العسكري) . . . بيوسف السويدي والسيد محمد الصدر في عانة (حيث كانا قد غادرا العراق لتفادي الاعتقال) ، وقد صرحا بأنه ليس في نيتها الانضمام الى الاتراك الذين كانوا يناهضون القومية العربية الا انهما ينويان شق طريقهما . . . الى لندن ، حيث كانا يرغبان في طرح قضيتهما امام (حكومة صاحب الجلالة) »[١٠٠] .

---

(٩٤) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٥٧ .

(٩٥) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(٩٦) F.O. 371/6352/8635, «Mesopotamia Intelligence Report, no. 14, Baghdad, 1 June1921,»

(٩٧) البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ص ١٤٢ .

(٩٨) طه الراوي ، ذكرى يوسف السويدي (بغداد : مطبعة دار السلام ، ١٩٣٠) .

(٩٩) Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, vol. 2, p. 485.

(١٠٠) F.O. 371/6349/2172, «Mesopotamia Intelligence Report, no. 3, 15 December1920,».

وقد نوّه كاتب سيرة محمد الصدر بأنه كان متأثراً تأثراً عميقاً بالافكار الاصلاحية للافغاني ومحمد عبده[101] ، وفضلاً عن ذلك ، فقد تأثر ايضاً بالافكار (القومية العربية) المنبعثة من سوريا ومصر والمنعكسة في جماعة العهد والنادي الوطني في بغداد[102] . ولذلك ، فقد ايد محمد الصدر الحركة الدستورية والاتحاديين في السنوات الاولى ، الا ان امله خاب فيهم بعد ذلك[103] . وقد اعتبره البريطانيون (عروبياً صادقاً)[104] .

وكان منهاج الحرس يتضمن النقاط التالية :

« ـ هدف الجمعية هو الاستقلال المطلق للعراق .

ـ تعترف الجمعية باحد انجال الملك حسين كملك ديمقراطي دستوري على العراق .

ـ تتعهد الجمعية بالقيام بكل الاعمال الضرورية ، ضمن عملية التطور ، لتحقيق الهدف السياسي الوارد في الفقرة الثانية .

ـ سوف تبذل الجمعية قصارى جهدها لإدخال العراق ضمن الوحدة العربية .

ـ تعتبر الجمعية واجبها الاول توحيد كافة العراقيين بصرف النظر عن طوائفهم ومللهم ، وسوف تبذل قصارى جهدها لإنهاء كافة الخلافات الناشئة عن اختلاف الاديان والطوائف »[105] .

ان هذا البرنامج يستحق بعض الملاحظات ، ذلك ان الحركة القومية العراقية لم تتبنّ مطلب الاستقلال التام الا في اواخر ١٩١٨ واوائل ١٩١٩ . فما ان حل البريطانيون محل الاتراك ، حتى اصبح الطريق مفتوحاً امام مطالب جديدة لم تكن موضع بحث قبل ذلك . وبالاضافة الى ذلك ، فإن البرنامج الجديد اعتبر العراق وحدة سياسية في حد ذاته ، ولم يطرح اي مطالب اقليمية . الا ان هدف الوحدة العربية بقي قائماً .

ان بعض المؤرخين العرب ، في عملية اسقاط ذاتي على التاريخ ، قد قللوا من شأن المطلب العراقي بتنصيب ملك هاشمي . الا ان الحقيقة التاريخية تبقى ، وهي ان هذه الفقرة كانت احد الشروط الاساسية التي وضعتها الحركة الاستقلالية خلال تلك الفترة . وقد انعكست هذه الحقيقة خلال الاستفتاء ، والاحداث التي سبقت الثورة ، وخلال الثورة نفسها . وقد عكست نفوذ الحجاز وسوريا والقوميين العراقيين في الخارج .

---

(١٠١) عباس علي ، زعيم الثورة العراقية : يتضمن حياة الزعيم العظيم السيد الصدر (بغداد : مكتبة الاحرار العلمية ، ١٩٥٠) ، ص ١٩ ـ ٢٣ و ٢٥ ـ ٢٧ .

(١٠٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ ـ ٢٣ .

(١٠٣) المصدر نفسه ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(١٠٤) وقد ميزه ذلك عن الاسلاميين الموالين للعثمانيين . انظر :

F.O. 371 / 6353 / 279, «Mesopotamia Intelligence Report, no. 17, 15 July 1921,».

(١٠٥) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٥٨ ـ ٥٩ .

والنقطة الثالثة الجديرة بالذكر هي ان الهدف المعلن للحرس كان توحيد العراقيين كافة بصرف النظر عن اختلافاتهم الدينية او الطائفية . وقد كرست جهود مشددة لتحقيق هذه الوحدة ، واقيمت اتصالات واسعة لتحقيق ذلك .

ان نجاح (الحرس) وعدم كفاءة (العهد) في بغداد اثارا قلقاً لدى الضباط العراقيين في سوريا . وفضلاً عن ذلك ، فإن الصراع بين المجموعتين بدأ يتخذ اشكالاً خطيرة . ولذلك ارسل (العهد) العراقي في سوريا ، في تموز / يوليو ١٩١٩ ، جميل المدفعي وابراهيم كمال لغرض تسوية الخلافات[١٠٦] . وقد كتب علي آل بازركان ، وهو احد مؤسسي (الحرس) ، ان « اللجنة الادارية رفضت بالاجماع خطة المدفعي لتوحيد الجمعيتين ، وذلك لسببين : اولاً ، رفض (الحرس) الخضوع لقيادة دمشق ، وثانياً ، استنكارهم لفكرة كون بريطانيا المصدر الوحيد للمساعدة ، على اساس ان ذلك (انتهاك لاستقلالنا)»[١٠٧] .

وبنتيجة التطور اللاحق برز (الحرس) كمركز للحركة القومية وبالتالي كقوة محركة لثورة ١٩٢٠ . ومع ذلك ، فمن المهم التأكيد على انه حتى اواخر ١٩١٨ ، كانت الحركة القومية منحصرة بين اوساط المثقفين . وان العامل الذي اتاح للحركة التأثير على جمهور السكان ، في الفرات الاوسط واماكن اخرى ، هو السياسة (العشائرية والضريبية) التي انتهجتها الادارة ، والتي اثارت سخط السكان الشديد . فالادارة ، التي عزلت نفسها عن اوساط واسعة من المجتمع ، قامت بدور (الحانوتي) لجنازتها الخاصة . وكان القوميون من جهة اخرى ، يدركون انهم ، اذا فشلوا في التحالف مع العشائر والفلاحين فسيحكمون على انفسهم بالموت . ان (الاخطاء الفادحة) للادارة مقترنة باستثمار الوطنيين الذكي لهذه الاخطاء ، هي التي اتاحت للحركة القومية الحصول على التأييد الشعبي ، الذي كان ، في التحليل النهائي ، ركيزتها الحقيقية .

ثالثاً : التحالف القومي - الديني - العشائري

من الواضح ان ابناء الفرات الاوسط لعبوا دوراً بارزاً في النضال من اجل استقلال العراق . وكانت الثورة ذاتها قد قامت بالدرجة الرئيسية في مناطقهم وكان للفتاوى اثرها في خلق وضع متوتر وقلق . وباختصار ، فإن ابناء الفرات الاوسط كانوا « في معظم الحالات مناوئين جداً لـ (الادارة)»[١٠٨] . وقد اقر المندوب المدني ، بشكل واضح ، بتنامي التحالف القومي - الديني

---

(١٠٦) البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ص ١٣٩ - ١٤١ .

(١٠٧) علي آل بازركان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية : رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما الصق بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء (بغداد : مطبعة اللواء ، ١٩٥٤) ، ص ١٨٠ - ١٨٣ .

(١٠٨) Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, vol. 2, p. 483, «14 March 1920,».

وتأثيره : « لقد اصدر المجتهد الاول في كربلاء (الشيرازي) في الآونة الاخيرة فتوى مؤداها ان الخدمة لحساب الادارة البريطانية امر غير مشروع . وقد تجلى اثر ذلك في الاستقالات المتزايدة في تقسيم الديوانية . . . وقد صدرت هذه الفتوى . . . لغرض اثارة الاضطرابات في ما بين النهرين . . . (من قبل) الحزب العروبي الذي يضم حاشية المجتهد المذكور . . . ان جثمان احد افراد (الليفي) العرب . . . لم يحصل على مراسيم الدفن الاعتيادية من قبل رجل الدين المحلي . وهذا الامر قد اثار كثيراً من النقاش بين العشائر ، واذا تكرر في مناطق اخرى ، فإنه قد يؤثر بصورة خطيرة على سير حركة التجنيد »(١٠٩) .

وعندما نشبت الاضطرابات ، كتب ولسن الى هرتزل : « انهم هم الذين يسببون كل هذه المتاعب . ولا شك انهم بلشفيو النزعة ، اي انهم يناوئون كل نوع من انواع الحكومات »(١١٠) .

وقبل بحث الدوافع الكامنة وراء هذا الموقف الفرات الاوسطي ، ينبغي التمييز بين اربع فئات منهم : القوميين ، والمجتهدين ، والسادة ، وشيوخ العشائر . وقد كانت الفئة الاولى في الواقع جزءاً عضوياً من الحركة القومية . الا انهم بحكم كونهم من الفرات الاوسط وارتباطهم بمناطق او تقاليد دينية ، كانوا قادرين على مد جسور سياسية تربطهم بالحركة القومية . وكان ابرز شخصياتهم محمد مهدي الصدر ، وأبا التمن ، والاخوين الشبيبي ، والبصير .

اما المجتهدون فكانوا من رجال الدين المتفرغين للدراسات الدينية . الا انهم ، كما حاولنا ان نبين في فصل سابق ، كان من المتعذر عليهم البقاء بمعزل عن المشاكل السياسية . وكان ابرز المجتهدين في الفترة ما بين ١٩١٦ - ١٩٢٠ : اليزدي (الكوفة) ، والشيرازي (سامراء ثم كربلاء) والاصفهاني (النجف) ، وحسن الصدر والخالصي (الكاظمية) . ومن المفيد في هذا الصدد تقديم بعض المعلومات (كما وردت في التقارير البريطانية) حول بعض المجتهدين ذوي التوجه السياسي(١١١) :

« السيد محمد كاظم اليزدي : اكبر مجتهدي الشيعة في ايامنا (١٩١٩) . . . انه في قرارة نفسه موالٍ لبريطانيا ومناوىء جداً للاتراك ، ولا شك انه في قرارة نفسه يكره الدستوريين ، ويؤيد الملكية بشدة . . . وقد ادلى بملاحظة ذات مدلول للكولونيل ستوكس ، عندما قال الاخير انه كان في فارس في وقت الدستور ، فأجابه ، « نعم ، عندما بدأت فارس ترجع للوراء » . ان (احكامه) في القضايا الشرعية نهائية ، الا انه لن يصدر قراراً ضد قرار (الشيرازي) .

شيخ الشريعة الاصفهاني : المجتهد الثاني من حيث الاهمية في النجف والرابع في العالم الشيعي . . . (ايد الدستوريين) . . . ميال للتدخل في الشؤون السياسية وحبك الدسائس سراً ضد (اليزدي) . . . لعب دوراً بارزاً في (الجهاد) ، ولكن تحت الضغط . . . من المتعذر القول بما اذا كان يؤيد شيئاً في قرارة نفسه . . . وهو من المجتهدين الموزعين لوقف اوده . . .

(١٠٩) F.O. 882/23/MES/, «To Secretary of State for India, no. 3496, 18 March 1920,».

(١١٠) Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52455, vol. 1, «Letter Dated 26 July 1920,».

(١١١) C.O. 696/1, «Administration Reports of Shamiyah and Najaf, 1918,» appendix 2, pp. 106-108.

الشيخ علي الشيخ محمود كاشف الغطاء : له نفوذ كبير بين العشائر ، بالنظر لمزاياه الشخصية وعائلته معاً . شديد العداء للاتراك . موال لبريطانيا بصورة علنية . . . له تأثير كبير جداً على (اليزدي) .

الشيخ حسن صاحب الجواهر : من موزعي وقف عودة . شديد الولاء لبريطانيا ، ولكن ليس له نفوذ .

الشيخ جواد صاحب الجواهر : اذكى رجل في النجف . . . يتدخل باستمرار في السياسة ، ولا يمكن تنفيذ اي مكيدة بدون علمه .

الشيخ عبد الكريم الجزائري : لعب دوراً بارزاً جداً كدعاية للعدو قبل سقوط بغداد . اعتقل اخوه ، الشيخ محمد جواد ، بخصوص الوثائق التي تم ضبطها لدى الحاكم السياسي الالماني في عانة[١١٢] .

الحاج اغا محمود الهندي : من موزعي وقف عودة . . . موال لبريطانيا بصورة علنية . . . يعمل كسكرتير لـ(اليزدي) . . . قدم خدمات جليلة ، في ايلول / سبتمبر ١٩١٧ وكذلك خلال الحصار[١١٣] . . . وليس له نفوذ .

الشيخ مهدي الشيخ اسد الله : من موزعي وقف عودة . . . ليس له نفوذ . من اشد المعجبين والمؤيدين للحكومة البريطانية .

السيد جعفر بحر العلوم : من عائلة مشهورة . . . ومحترم لهذا السبب . من موزعي وقف عودة . موال لبريطانيا واحد القلائل جداً الذين يبدو انهم لديهم الشجاعة للتمسك بمعتقداتهم . ويجدر بالذكر ان ابن عمه ، السيد محمد علي ، كانت له علاقة بقضية الوثيقة المضبوطة ، وقد تعرض لبعض المتاعب بسببها .

الشيخ مهدي الكشميري : من موزعي وقف عودة . . . موال لبريطانيا ولكن ليس لديه نفوذ على الاطلاق .

السيد ابو القاسم الكاشاني : يقيم الآن في الكاظمية . متآمر وشديد الولاء للاتراك .

السيد احمد البهبهاني : معروف بميوله الملكية . . . استغنى الدستوريون عن خدماته . موال لبريطانيا بشدة وبشكل علني ، الا انه مجنون على الارجح . . . .»[١١٤] .

ويتبين من هذا ان عدد المجتهدين الموالين لبريطانيا لم يكن قليلاً . الا ان التيار الغالب بينهم كان مناوئاً للادارة بشكل ظاهر . ويبين التقرير المذكور ايضاً العلاقة بين وقف عودة وتأييد الادارة ، كما يكشف التعاطف المتبادل الحقيقي بين اليزدي والسلطات البريطانية .

---

(١١٢) عثرت القوات البريطانية على بعض الوثائق التي تفيد بأن المجموعة المناوئة لبريطانيا في النجف كانت على صلة بالقوات العثمانية . انظر : Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers: Cmd. 1061*: *Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: His Majesty's Stationary Office, 1920), p. 124.

(١١٣) انظر الصفحات التالية .

(١١٤) كان اليزدي فارسياً ، وقد توفي في ٣٠ نيسان / ابريل ١٩١٩ . اما الاصفهاني فكان كذلك من اصل فارسي ، واصبح المجتهد الاول في ١٣ آب / اغسطس ١٩٢٠ بعد وفاة الشيرازي . اما كاشف الغطاء والجزائري وبحر العلوم ، فكانوا عرباً جميعهم . وكان الجواهري والكاشاني والبهبهاني من اصل فارسي . اما اسد الله والكشميري فكانا من اصل هندي .

اما الفريق الثالث منهم فهم السادة الذين يدعون الانحدار من سلالة النبي ، وكانوا لذلك يتمتعون باحترام كبير . وقد خصص العثمانيون قطعاً من الارض لبعض السادة ، وبذلك اصبحوا مزارعين وملاكين وموالين للاتراك . وقد جعلهم ذلك على احتكاك مع افراد العشائر وخلق لهم مركزاً محترماً بينهم . كما انهم كانوا ، من اوجه عديدة ، يؤلفون حلقة وصل بين المجتهدين وافراد العشائر .

وكانت الشخصيات السياسية البارزة بين السادة هم التالية اسماؤهم :

« السيد نور الياسري : اكثر السادة غنى ومنزلة في القضاء . . يملك مساحة واسعة من الارض (الابراهيمية والمشخاب) . . .

السيد حسن المكوطر : يملك اراضي كبيرة في جنوب غماس . . . عمره حوالى ٣٤ سنة . . . اشتبه بكونه هو والسيد هادي (عمه) متآمرين مع عجمي السعدون (الموالي للاتراك) احتجزا في الهند في تموز ١٩١٨ .

السيد هادي المكوطر : من الشنافية ، ملاك (له اراضي واسعة جداً) كان لآل المكوطر حظوة لدى الحكومة العثمانية وساعدوا الاتراك بصورة فعالة الى ان حققنا السيطرة الفعالة على الفرات الاوسط في تشرين الثاني١٩١٧ . . ورد في التقارير ان نفوذه العظيم في الشنافية موجه ضدنا . . . وكان ذا علاقة بكافة الاضطرابات في النجف .

السيد محسن ابو طبيخ : اكبر ملاك في غماس . . . عمره حوالى ٣٦ سنة . له نفوذ كبير . . . موال للاتراك في قرارة نفسه ، وقد اشتبه باشتراكه في مؤامرة اغتيال الحاكم السياسي في الشامية في شباط ١٩١٨ .

السيد هادي زوين : (في حوالى الاربعين ، رئيس عائلته) . كان يمثل مصالح الحكومة (البريطانية) في الشامية قبل الاحتلال السياسي للقضاء الا انه شديد الميل الى التامر . . . لا يمكن الوثوق به .

السيد علوان السيد عباس: عمره حوالى ٣٤ سنة . . . يملك اراضي كبيرة بين آل فتلة وآل ابراهيم على الضفة اليسرى للمشخاب . . . ويعبر السيد نور عن افكاره . لا يمكن الوثوق به » .

وقد قدم التقرير نفسه معلومات اخرى عن شيوخ الشامية :

« مجبل الفرعون : رئيس عشيرة آل فتلة في المشخاب . . . خلفاً لاخيه مبدر ، الذي توفي في ايلول / سبتمبر ١٩١٨(١١٥) . . . وقد افادنا مجبل كثيراً بعد الاحتلال مباشرة .

عبد الواحد الحاج سكر : له ارض زراعية واسعة على الضفة اليسرى للمشخاب من ابو صخير الى الابراهيم . ذو مؤهلات كبيرة . نظره ابعد مما لدى الاشخاص الاعتياديين . . . انه بالتأكيد اقوى رجل في آل فتلة ، ويلي السيد علوان من حيث سعة نفوذه في المشخاب . رجل ذو شخصية قوية . . . ينبغي مراقبته دائماً بدقة .

محمد العبطان ، الخزاعل : رجل ذو نفوذ محلي كبير ، عززته منحة قدرها ١٠٠٠ روبية من الحكومة قبل

---

(١١٥) كان مبدر الفرعون شيخاً ذا توجه سياسي . وقد تأثر بالنزعة « القومية العربية » من خلال اتصالاته بالسيد طالب .

احتلالنا للبلاد بشكل فعال . . . مناوىء لبريطانيا بالتأكيد . . . سجن في ٢٣ كانون الاول / ديسمبر بتهمة العصيان العام . اقوى شيخ في الشامية (يبلغ حوالى الاربعين) .

سلمان العبطان : شقيق الأنف الذكر . كان هو الآخر يتقاضى مخصصات قدرها ١٠٠٠ روبية من الحكومة ، قطعت عنه فيما بعد . . . لا يؤمن جانبه .

علوان الحاج سعدون : من بيت بني حسن . يسيطر على فرع بني حسن جنوبي الكفل . اما الفرع الشمالي فيتبع اخاه عمران . . . في الايام التي لم تكن فيها ثمة حكومة . . . كان مسيطراً على الوضع في الكوفة . . .»[116] .

يمكن تقسيم العوامل الكامنة وراء عداء الفرات الأوسط للحكم البريطاني الى عامة وخاصة . ويمكن تقسيم العوامل العامة الى سياسية ـ اجتماعية وفكرية . فقد كانت تلك المناطق هي الاكثر تضرراً من السياسة الضريبية والعقارية للادارة . وقد اقترن ذلك بواقع ان هذه المناطق تمتعت بفترة من انعدام السيطرة الحكومية ، بالاضافة الى الاعانات والمخصصات وان الانتقال المفاجىء الى اعادة فرض سيطرة ادارية صارمة قد اثار الاستياء .

اما الدافع الفكري فيمكن العثور عليه بسهولة في طبيعة العقيدة نفسها ، التي كانت (تعارض كل الحكومات) ، من باب اولى ، اذا كانت الحكومة الزمنية مسيحية . وبالرغم من بعض الاجراءات التي اتخذها البريطانيون لتلبية بعض مطالبهم[117] ، الا اننا يجب ان نتذكر انهم كانوا يميزون دائماً بين (السلطان الجائر) و(السلطان الكافر) . وكان الاخير بالنسبة لهم ، اسوأ بكثير من الاول . وبالاضافة الى ذلك ، فإن الحكم التركي منذ ١٩٠٨ كان قد ابدى قدراً اكبر من التساهل نسبياً ازاءهم[118] .

اما الاسباب الخاصة التي حددت استياءهم من الادارة البريطانية فيمكن العثور عليها في حدثين مهمين : اضطرابات النجف (١٩١٨) ووفاة السيد كاظم اليزدي (١٩١٩) .

١ ـ التطورات السياسية في النجف منذ الحرب

ينبغي بحث الوضع في النجف في ضوء عاملين : اولاً ، القوى الاجتماعية ـ السياسية المختلفة في المنطقة ، وهي الشيوخ المحليون في الاحياء الاربعة في النجف ، والمجتهدون ،

---

(١١٦) Great Britain, House of Parliament, Ibid., 110-111.

(١١٧) لغرض معالجة بعض عوامل التذمر ، عين البريطانيون بعض القانونيين الشيعة باسم « نيابة الجعفرية » للنظر في قضايا الاحوال الشخصية لدى الشيعة . انظر :
Great Britain, Mesopotamia Judicial Department, *Report on the Administration of Justice for the Year 1920* (Baghdad: Government Press, 1921), paragraph 7 (F.O. 371/6369/E. 14013).

(١١٨) كامل الجادرجي ، من اوراق كامل الجادرجي ، ٢ ج (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩ ـ ١٩٧١) ، ص ٨٤٨ ـ ٨٨٧ .

والعائلات الثرية ، وشيوخ العشائر . ومن وجهة النظر التاريخية ، ينبغي التمييز بين ثلاث مراحل مختلفة ، وهي : من ايار / مايو ١٩١٥ الى آب / اغسطس ١٩١٧ . ومن آب / اغسطس ١٩١٧ الى ايار / مايو ١٩١٨ . ومن التاريخ الاخير حتى حزيران / يونيو ١٩٢٠ . وقد شهدت كل فترة من هذه الفترات قيام وسقوط قوى سياسية مختلفة ذات تحالفات ومواقف سياسية مختلفة .

في ايار / مايو ١٩١٥ ، استطاع سكان النجف بقيادة الشيوخ المحليين ، اخراج العثمانيين بصورة نهائية . ومنذ ذلك الحين وحتى آب / اغسطس ١٩١٧ (تمتعت) النجف والمناطق المجاورة بفترة من الاستقلال الذاتي . وتركزت السلطة ، من داخل النجف ، في ايدي اربعة شيوخ ، يمثلون الاحياء الاربعة على التناظر وهم : السيد مهدي بن السيد سلمان (الرئيس الاسمي لقطاع زقرت) ، وعطية ابو كلل ، وكاظم صبي (زقرت) والحاج سعد بن الحاج راضي (رئيس شمرت)[١١٩] . وقد تقاسموا فيما بينهم السلطة المطلقة وانشأوا (دستوراً) و(اتحاداً) لتنظيم شؤون المدينة[١٢٠] .

وبالاضافة الى السلطة السياسية ، حصل هؤلاء الرؤساء على (ثروة طائلة) . فمثلاً ، كان الحاج عطية ابو كلل « في ربيع ١٩١٧ ، قد جمع ثروة طائلة من الاتاوات البلدية ، (و) . . . المبالغ التي كان يحصل عليها ، هو وبعض الشيوخ الرئيسيين ، من (البريطانيين) لغرض ادامة مقاومة النجف للسيطرة التركية »[١٢١] .

« إن المجتهدين . . . والعائلات مثل آل كليدار ، والرجال الاثرياء والمتعلمين ، لم يقبلوا بسيطرة شيوخ العشائر الا لأن البديل عنهم كان السيطرة التركية الاكثر ازعاجاً ، كما ان طبقة التجار كانت تعاني من تصرفاتهم . . . . »[١٢٢] .

وفيما يلي نبذة مأخوذة عن مصادر الادارة البريطانية عن بعض العائلات ذات الاهمية بالنسبة لهذا البحث :

« السيد عباس الكليدار : (عائلة الرفيعي) . . اغنى عائلة في النجف . قدم خدمات ممتازة منذ سقوط بغداد وهو بالتأكيد موالٍ لبريطانيا . . .

السيد هادي نقيب الاشراف : من اشد انصار الحكومة في الواقع ، الا انه ضعيف ومتذبذب بشكل مزرٍ ، وبالنتيجة عديم الفائدة في الوقت الذي تكون في اشد الحاجة اليه . .

الحاج محسن شلاش : اغنى رجال المال والتجارة في النجف . قام بعمل لا يقدر بثمن خلال الحصار (الحصار البريطاني للنجف) . . الا انه في الامور السياسية لا يمكن الاعتماد عليه . . . »[١٢٣] .

---

(١١٩) C.O. 696/1, «Baghdad Administration Report, 1917,» p.142.

(١٢٠) C.O. 696/1, «Administration Reports of Shamiyah and Najaf, 1918,» p.111.

(١٢١) F.O. 882/27/3171, «Mesopotamia, Affairs in Najaf,» p.115.

(١٢٢) المصدر نفسه .

(١٢٣) C.O. 696/1, «Administration Reports of Shamiyah and Najaf, 1918,» appendix 3, p. 108.

ولم يكن في نية الادارة البريطانية ، وربما لم يكن في مقدورها ، فرض سلطتها على النجف والمناطق المجاورة لها ، في وقت مبكر(١٢٤) . وخلال فترة (اللاحكومة) كانت العلاقات بين حكام النجف والادارة البريطانية ودية للغاية . وبعد ايار / مايو ١٩١٥ بأشهر قلائل، كان زعماء النجف يتبادلون الرسائل مع السلطات البريطانية(١٢٥) . وفي اوائل ١٩١٧ ، ارسل الحاج عطية رسالة الى البريطانيين يدعوهم فيها الى « الزحف على الفرات والانضمام الى قواته العشائرية »(١٢٦) . وعلى اثر احتلال بغداد ، حضر شيوخ المدن لمقابلة السير برسي كوكس وقدموا تهانيهم(١٢٧) .

الا ان الوئام البريطاني ـ النجفي لم يدم طويلاً . ففي آب / اغسطس ١٩١٧ ، ارسلت الحكومة وكيلاً لها هو السيد حميد خان الذي كان ينحدر من عائلة اسماعيلية هندية . وقد قيل ان اليزدي كان يقف وراء هذا الاختيار والتعيين(١٢٨) . وكانت الادارة قد بدأت تنتقل الى (مرحلة جديدة) تتجلى في تعيين (وكلاء حكوميين) منظمين مع اجهزة بوليسية ومالية(١٢٩) . وفي ايلول / سبتمبر ١٩١٧ ، قامت الحكومة البريطانية بنفي فخري كمونة الكربلائي الى الهند وابعاد محمد علي كمونة الى بغداد ، وبذلك تم القضاء على (استقلال) كربلاء . وفي تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٧ ، عيّن الكابتن بلفور حاكماً سياسياً للشامية ، على ان يكون مقره في الكوفة .

وسرعان ما تجلى عداء شيوخ النجف في الاسبوع الاول من تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧ . فقد ارتفعت الاسعار وشحت المواد المعيشية مع وصول عشيرة (العنزة) البدوية ، وادى ذلك الى اول خرق علني للسلام . وكانت نتيجة ذلك ان قام السكان باستعادة الحنطة المباعة لرجال العشائر ، بالعنف . فأمر الكابتن بلفور الشيوخ المحليين باسترجاع الاموال المأخوذة من آل عنزة خلال ١٥ يوماً(١٣٠) . وفي ٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر ، عند انتهاء المدة المقررة نظم الحاج عطية ابو كلل اعمال عنف ادت الى تدمير (السراي) في النجف والكوفة وابو صخير .

وفي كانون الثاني / يناير ١٩١٨ ، اطلقت النيران على القوات البريطانية وعلى احدى الطائرات . فأرسلت قوات بريطانية اخرى لمواجهة الموقف، الا ان الشيوخ تراجعوا هذه المرة تحت الضغط المحلي ، وبالدرجة الرئيسية من جانب اليزدي ، فدفعوا غرامة وغادر عطية النجف .

---

(١٢٤) « على اثر احتلال بغداد . . . لم يكن « البريطانيون » آنذاك في وضع يسمح لهم باحلال اي سلطة محل تلك التي كان يمارسها « الشيوخ الاربعة »» . انظر :

F.O. 882/27/7171, «Mesopotamia, Affairs in Najaf,» p. 110.

(١٢٥) المصدر نفسه .

(١٢٦) F.O. 882/26, «Arab Bulletin, no. 41, February 1917,».

(١٢٧) F.O. 882/27/3171, «Mesopotamia, Affairs in Najaf,».

(١٢٨) جعفر الخليلي ، هكذا عرفتهم (بغداد : [د.ت.])، ج١ ، ص ٤٧ .

(١٢٩) C.O. 696/1, «Administration Reports of Shamiyah and Najaf, 1918,» p.69.

(١٣٠) المصدر نفسه ، ص ٦٩ . اصدر الكابتن بلفور هذا الامر بالرغم من انه كان من المعروف « ان مخزون الحنطة كان قد اصبح منخفضاً بشكل خطير » . انظر :

F.O. 882/27/3171, «Mesopotamia, Affairs in Najaf,» p. 116.

ومن المهم ملاحظة الموقف السياسي الذي اتخذه زعماء العشائر والمجتهدون خلال هذه الاحداث : « ان شيوخ بني حسن ، الذين هم اكثر رجال العشائر نفوذاً في المناطق المحيطة بالكوفة . . . ساعدوا على اخماد الاضطرابات . ولم يكن هنا ، ولا بين آل فتلة ، في المناطق الاخرى على امتداد مجرى الفرات ، ما يدل على اي رغبة . . . في الاشتراك في اعمال معادية لنا . . . » .

اما بالنسبة للمجتهدين والتجار في النجف ، فقد ورد في التقارير : « قدم الكليدار مساعدة مالية للحاكم السياسي خلال الاضطرابات . . . في حين . . وافق اليزدي فوراً على طلب الحاكم السياسي بأن يقوم بدور الوسيط . وبناء على نصيحته ، طلب عطية وكاظم صبّي العفو وحصلا عليه . . . وقد اظهر السيد هادي الزوين ، الرجل الاول في الجعارة . . . ولاءه الثابت لبريطانيا »[131] .

الا ان هذا الخضوع لم يكن تاماً : « لقد رفض الحاج عطية ابو كلل زيارة القائد العام في بغداد ، واتخذ هو وكاظم صبّي ، موقفاً مشاكساً ازاء الحاكم السياسي . وقد بقي وكيل الحكومة عاجزاً كما كان في السابق ، وبقيت الطوائف الدينية والتجارية تعاني من انعدام الامن ، وهو امر حتمي طالما بقيت النجف تحت رحمة شيوخ المدينة »[132] .

وفي الصباح الباكر من يوم ١٩ آذار / مارس ، تمكن عدد من النجفيين ، متنكرين بملابس الشبانة ، من الدخول الى خان عطية (وهو محل اقامة مارشال) ، وبعد التخلص من الحارس ، قتلوا الكابتن مارشال ، وجرحوا ضابطاً آخر كان معه ، جرحاً بليغاً . وفرض حصار شديد على المدينة من قبل لواء ، وطرح القائد البريطاني شروطاً صارمة[133] .

وفي ١٧ نيسان / ابريل ، استسلمت المدينة ، وفي الرابع من ايار / مايو كان الاشخاص المهمون كافة قد اعتقلوا . وانعقدت محكمة عسكرية في الكوفة ، وحكم على ثلاثة عشر شخصاً بالاعدام ، الا ان اثنين منهم ، وهما محمد علي بحر العلوم ، وابراهيم البهبهاني ، خففت عقوبتهما بأمر القائد العسكري الى الابعاد « نزولاً عند الطلب الذي قدمه السيد اليزدي بالنسبة للشخص الاول » وقد نفذت احكام الأعدام في الكوفة في صباح ٣٠ ايار / مايو[134] . وهكذا وُضع حد لسلطة الشيوخ وفرض البريطانيون سيطرتهم على النجف والكوفة .

وفي عصر يوم الاعدام : « . . . عقد اجتماع في دار كليدار النجف . . . وحضره العلماء جميعاً

---

(١٣١) المصدر نفسه ، ص ١١٨ .

(١٣٢) المصدر نفسه ، ص ١١٧ ، وم . الموسوي ، الحاج عطية ابو كلل (النجف : [د . ت .] .) .

(١٣٣) C.O. 696/1, «Administration Reports of Shamiyah and Najaf, 1918,» p.70.

(١٣٤) الاشخاص الذين تم اعدامهم هم : كريم واحمد ومحسن اولاد الحاج سعد ، وعباس وعلوان ولدا علي الرماحي ، وسعيد مملوك الحاج سعد ، وكاظم صبي ، ومحسن ابو غنيم ، والحاج نجم البقال ، وجوري ناجي ، ومجيد الحاج دعيبل . ونفي ١٢٢ شخصاً بضمنهم الجزائري ، وستة من آل كلل ، وعدد كبير من المثقفين الشباب . انظر : عبد الرزاق الحسني ، ثورة النجف (بغداد : ١٩٧٢) ، ص ٧٨ و ٨٣ - ٨٦ .

(كذا)[١٣٥] . . . وكان اليزدي . . . ممثلاً في شخص مساعده محمود اغا هندي الذي كان المبادر لعقد الاحتفال . وبعد خطبة بليغة القاها الحاج محسن شلاش[١٣٦] ، قدم سيف الدين شرف هدية الى الكابتن بلفور . . . وكان الاجتماع يمثل اقراراً علنياً بالارتياح من جانب اكثر الرجال نفوذاً في القضاء . . . »[١٣٧] .

في حين ان علي الشرقي كتب قصيدة ـ مؤثرة ـ بهذه المناسبة :

نيف وعشرون صليباً لنا	اذا النصارى افتخرت في صليب
لعظمهم قد رفعوا فوقنا	اهكذا يرفع قدر الاديب؟

إن هذا الاحتفال ، باستخفافه الفظ بالمواطنين المشنوقين ، يكشف عن الاتجاهات السياسية الحقيقية للنجف آنئذٍ . فقد كانت الانتفاضة تفتقر الى تأييد غالبية سكان المدينة . وتؤكد هذا الاستنتاج مذكرات محمد رضا الشبيبي . ومما له دلالة بالغة في هذا الشأن ، ان الشبيبي ، الذي كان شاهد عيان على الاحداث ، لم يسمح بالاطلاع على اوراقه الا بعد وفاته (١٩٦٦) . وقد ذكر فيها انه خلال الحصار ، كان مجتهدو النجف وبعض اقسام السكان قد اظهروا عدم ارتياحهم (للعصاة)[١٣٨] . وقد تبادل اليزدي رسائل مع ولسن يطلب فيها من (بريطانيا الرحيمة) العفو عن النجفيين[١٣٩] .

وفضلاً عن ذلك ، اشار الشبيبي الى ان السيد سلمان (شيخ آل حويش) ساعد البريطانيين في اعادة احتلال النجف . وقد تم اعتقال زعماء المتمردين بواسطة النجفيين انفسهم . وكشف الشبيبي النقاب عن ان اليزدي رفض مساعدة بعض هؤلاء بامتناعه عن ايوائهم او التوسط لتخفيف احكام الاعدام . وكان موقف العشائر المجاورة مماثلاً ، فإنها لم تساعد الحركة[١٤٠] بل عرضت مساعدتها للبريطانيين (ضد العصاة)[١٤١] . وقد كتب الشبيبي ان جميع الشهود ، بمن فيهم حميد خان ، رفضوا تجريم بحر العلوم ، وكان الوحيد الذي شهد ضده هو شلاش[١٤٢] . اليس من العجيب جداً ، اذن ، ان نرى عشائر بني حسن ، وفتلة ، ورجالاً مثل شلاش ، وابو

---

(١٣٥) كان من بين الحاضرين : السيد هادي ، وجواد صاحب الجواهر ، والسيد مهدي السلمان ، والسيد محسن ابو طبيخ ، والشيخ علوان الحاج سعدون ، وغيرهم .

(١٣٦) قال محسن شلاس : « ان الفاعلين الآثمين قد قاموا بمأساتهم المحزنة في النجف . . . ونحن نود اليوم ، بصورة خاصة ، ان نعرب عن امتناننا لحكومتنا البريطانية . . » . انظر:
F.O. 371/3397/165202, «Fortnightly Report, no. 14, 15 May-1 June 1918,».

(١٣٧) Ibid., and Wilson, *Mesopotamia,1917-1920-a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 76.

(١٣٨) محمد رضا الشبيبي ، « ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني ، ١٩١٧ ـ ١٩١٨ ، » (مخطوط غير مؤرخ) .

(١٣٩) العرب (بغداد) ، ٩ / ٤ / ١٩١٨ .

(١٤٠) الشبيبي ، المصدر نفسه .

(١٤١) F.O. 371/3397/110224, « Fortnightly Report, no. 10, 15 March-1 April1920,».

(١٤٢) الشبيبي ، المصدر نفسه .

طبيخ ، وزوين ، ومكوطر[١٤٣] ، يقفون في مقدمة الثورة المناوئة لبريطانيا في حزيران / يونيو ١٩٢٠[١٤٤] ؟ وسيزداد عجبنا اذا اكتشفنا انه حتى القوميون العرب في المنطقة (الشبيبي ، البصير ، عبد المهدي وغيرهم) لم يشتركوا في حركة النجف[١٤٥] .

ولغرض ازالة هذه الحيرة ، ينبغي اخذ عاملين بنظر الاعتبار ، احدهما اجتماعي والاخر سياسي . فيجب ان نعيد الى الاذهان انه ، في اواخر ١٩١٨ واوائل ١٩١٩ ، شرعت الادارة في اتخاذ اجراءاتها الاستفزازية بخصوص جباية الضرائب وتسوية الاراضي . ولذلك ، ففي صيف ١٩١٨ ، لم يكن المجتهدون ، والعوائل الغنية ، وشيوخ العشائر قد تضرروا مباشرة بمحاولة بريطانيا تدعيم سلطتها في المنطقة . وباختصار ، فإن انتفاضة ايار / مايو ١٩١٨ ، كانت معزولة لأن الاقسام الاخرى من المجتمع لم تكن تشعر بتهديد بريطانيا لمصالحها الخاصة .

ومن الناحية السياسية ، من المرجح جداً ان استفتاء ١٩١٨- ١٩١٩ هو الذي اقنع الوطنيين بمعارضة الادارة للحكم العربي . فقبل ذلك التاريخ كان عدد كبير من الوطنيين العرب يعلقون الآمال على مساعدة بريطانيا لهم في تحقيق الاستقلال[١٤٦] . وفضلاً عن ذلك ، فإن حركة النجف قد نظمها وقادها فريق من المصلحين الاسلاميين الموالين للعثمانيين . وخلال الفترة ما بين ١٩١٢ و١٩١٥ ، كان الحبوبي يقود هذا الفريق ، الا انه بعد ١٩١٦[١٤٧] ، يمكن القول ان العروبيين والاسلاميين افترقوا عن بعضهم . ثم عادوا فاتحدوا في ١٩٢٠ .

وقد ورد في احد التقارير : « ان اجراءات المحكمة العسكرية قد كشفت النقاب عن ان اضطرابات النجف . . . لم تكن الا جزءاً من مؤامرة لقتل كافة (الحكام السياسيين) في تلك المنطقة وهي مؤامرة كان يمكن ان تنجح بسهولة لولا تسرع النجفيين »[١٤٨] .

والواقع ان جمعية سرية تسمى (جمعية النهضة الاسلامية) كانت قد تشكلت في النجف في اواخر ١٩١٧ بهدف مقاومة الادارة البريطانية . وكان يقودها السيد محمد علي بحر العلوم ، والشيخ محمد جواد الجزائري ، والشيخ محمد علي الدنشقي ، والسيد ابراهيم البهبهاني (وهؤلاء من المجتهدين) وكان من بين اعضائها الحاج نجم البقال ، واحمد ومحسن وكريم اولاد

---

(١٤٣) توسط مكوطر لدى السلطات لقبول استسلام ابو كلل . انظر : الموسوي ، الحاج عطية ابو كلل ، ص ٢٧ .

(١٤٤) انضم زوين ومكوطر الى « الحرس » ، وقاد الثاني الثورة في الديوانية . و« انتخب » شلاس « محافظاً » للنجف ، وابو طبيخ متصرفاً لكربلاء خلال الثورة . وقاد سعدون عشيرته ، وكان بنو حسن وآل فتلة من بين اولى القبائل التي اعلنت الثورة .

(١٤٥) على اثر حوادث النجف اعدم ١٣ شخصا ونفي ١٢٢ . ولم يكن بين هؤلاء اي شخص عرف بميوله القومية العربية . الا ان هادي وحسين مكوطر قد تم ابعادهما ايضاً بعد ذلك بفترة قصيرة .

(١٤٦) العرب ، ١٩١٧-١٩١٨ .

(١٤٧) عام ١٩١٦ ، جرت الاعدامات في سوريا ، ومذبحة الحلة ، وثورة الحجاز .

(١٤٨) C.O. 696/1, «Administration Reports of Shamiyah and Najaf, 1918,» p.70.

الحاج راضي ، وكاظم صبي ، وعباس علي الرماحي (وهم من الزعماء الشعبيين) ، وعبد الرزاق وتومان ولدا عدوة (من الخريجين)[١٤٩] . وقد استطعت الاطلاع على بعض اهداف الجمعية :

« ـ تشكيل (عصبة اسلامية) لتحقيق التضامن الاسلامي . .

ـ بذل كافة الجهود لتحقيق مجد الاسلام . . . وتبني الشرع الاسلامي . ونبذ كافة التقاليد الغربية . . . ومحاكاة الامم المتقدمة في خصائصها وسياساتها بما يخدم الاسلام . . .

ـ تأييد الاستقلال المطلق للحكومات الاسلامية بوجه عام والعراق بوجه خاص . . .

ـ التأييد الروحي والمادي للمجتمع العربي اذا كانت مبادئه تهدف الى الاستقلال العربي التام . . .

ـ حماية حقوق كافة الملل غير الاسلامية » .

ان انعزالية الحركة اتاحت للسلطات وضع حد لها بسرعة الا ان الادارة اساءت فهم الوضع تماماً . فإنها تبنت وجهة النظر القائلة بأن « الاحداث في النجف ، على كل حال ، كشفت بسرعة عن ضرورة فرض المزيد من السيطرة »[١٥٠] . وكان قمع (التحدي) هـو « تأكيد لحقّنا وواجبنا ونيتنا في الحكم . . . وكان للاعدام وقع عميق في كافة ارجاء ما بين النهرين »[١٥١] . وفي ظل مثل هذه الآراء لم يكن من المستغرب ان الادارة ، التي انتقلت من الاستقلال المحلي في ظل شيوخ مموليـن ، الى السيطرة المباشرة بواسطة وكلاء الحكومة ، انتقلت بعد ذلك الى « المرحلة الثالثة ـ وهي السيطرة المباشرة بواسطة الحكام السياسيين البريطانيين »[١٥٢] . وان هذه المرحلة التي بدأت في اواسط ١٩١٨ كانت تتسم ، فضلاً عن ذلك ، بتطبيق اجراءات جباية الضرائب ، وتسوية الاراضي ، والسياسة العشائرية ، والتي وصفناها في الفصول السابقة . وقد اثار هذا النهج استياء شديداً بين العشائر والسادة ، وهكذا ، فإن النزعة المناهضة لبريطانيا ، والتي كانت معزولة حتى اواسط ١٩١٨ ، بـدأت في التصاعد ، حتى فرضت سيطرتها التامة في صيف ١٩٢٠ . وكانت منـاطق الشاميـة والنجف وكربلاء هي من مراكز ثورة ١٩٢٠ .

وهناك بعض النقاط المتعلقة بصورة خاصة بالمنطقة ، قد تساعدنا على تفهم الوضع بشكل افضل . ففي ١٩١٨ كان الخزاعل يمرون في عملية انحلال نهائي . وقبل ذلك بحوالى ٥٠ عاماً كانوا اصحاب السيطرة المطلقة في الفرات الاوسط (معفيين من دفع الواردات) بصورة كلية . الا ان قناة الحلة بدأت في الاضمحلال ، كما ان زيادة تدفق الماء من مجرى قناة الهندية سرعان ما بدأت تعكس آثارها في « اتجاه عشائر الفرات نحو الهجرة من الحلة والهندية العليا الى الشامية . وسرعان ما انتهز الاتراك

---

(١٤٩) الحسني ، ثورة النجف ، ص ٨٣ ـ ٨٦ .

(١٥٠) C.O. 696/1, «Administration Reports of Shamiyah and Najaf, 1918,» p.20.

(١٥١) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, pp. 74-76.

(١٥٢) C.O. 696/1, «Administration Reports of Shamiyah and Najaf, 1918,» p.70.

هذه الفرصة الثمينة لكسر شوكة الخزاعل عن طريق ادخال عشائر غريبة ومعادية »(١٥٣) .

واستخدم الاتراك طريقة اخرى لتحقيق الغاية نفسها ، وهي اعطاء الاراضي لطبقة السادة ، « ولا شك ان الغلبية (ادعاءات السادة) قد نشأت عن طريق الاتراك ، وكانت الحكومة العثمانية تقف الى جانب هذه الادعاءات »(١٥٤) .

وكانت النتيجة الوحيدة للجهود التركية هي ايجاد عدد كبير من ملاكي الاراضي ، شيوخاً كانوا ام سادة ، ويتمتعون باستقلال محلي تام تقريباً ، و « ينظرون باحتقار مبرر الى المحاولات الضعيفة للموظفين الفاسدين لجباية واحد بالمائة من الواردات المطلوبة . ان الملكيات المتزايدة بسرعة في الشامية ، وبعد المسافة عن بغداد ، والقرب من النجف ، باعتبارها مركزاً دائماً للدسائس والتمردات ، كل هذه العوامل ساهمت في خلق شعور بالاستقلال والثقة في قدراتهم الخاصة ، مما جعل شيوخ الشامية مصدر رعب وبأس معاً للحكومة العثمانية »(١٥٥) .

ان تضافر الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية والجغرافية كان لا بد من ان ينعكس في وعي سياسي ناضج نسبياً . وفي ١٩١٠ـ ١٩١٢ ساند شيوخ آل فتلة محاولة طالب النقيب في تحقيق استقلال ذاتي عربي(١٥٦) ، وعند نشوب الحرب اجرى شيوخ الشامية « اتصالات مع شريف مكة لغرض تشكيل حكومة عربية مستقلة »(١٥٧) .

ان آل فتلة ، وهي العشيرة الاكثر وعياً سياسياً ازدادت قوة خلال فترة الاحتلال البريطاني . وكان الخزاعل (بقيادة محمد وسلمان العبطان) يسيرون نحو الاضمحلال وشهد عام ١٩١٩ (استمرار هذه الحالة)(١٥٨) . وكان ذلك لسببين ، اولهما ان شيوخ آل فتلة كانوا يديرون شؤون عشيرتهم ، بكفاءة عالية ، والثاني ، ان آل فتلة كانت من العشائر التي تزرع الارز. « وفي مثل هذه الحالة . . . فإن سلطة الشيوخ على الزراع تكون مطلقة . . . وذلك بسبب الضرورة المطلقة للعمل المنظم والعناية المستمرة »(١٥٩) . اذ ان النجاح في زراعة الارز لا يتحقق الا بالتعاون الوثيق بين رب العمل والمستخدم . « ان رجال العشائر يدركون ذلك تماماً ولذلك فقد وضعوا انفسهم ، عن طيبة خاطر ، تحت سيطرة شيوخهم »(١٦٠) .

---

(١٥٣) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

(١٥٤) المصدر نفسه .

(١٥٥) ورد ايضاً في احد التقارير : « ان محاولة جمع وارد الرز كان دائماً مقدمة لمناورات خريفية واسعة النطاق من جانب عدة كتائب ، وان قتل الموظفين المكروهين كان احد الاساليب المفضلة للتسلية » . انظر : المصدر نفسه .

(١٥٦) انظر الصفحات السابقة .

(١٥٧) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

(١٥٨) C.O. 696/2, «Administration Report of Shamiyah, 1919,» p.1.

(١٥٩) C.O. 696/1, «Administration Reports of Shamiyah and Najaf, 1918,» p.67.

(١٦٠) C.O. 696/2, «Administration Report of Shamiyah, 1919,» p.2.

اما (بني) حسن فكانوا لا يزرعون الا الحنطة والشعير ،وهو عمل اقل مشقة ،ولذلك كان الانضباط فيها بينهم اقل قوة بكثير .وكان (بني) حسن « الفقر الزراع الفقراء، ويفضلون الحياة المتنقلة لرعاة المواشي على اي شيء آخر »[161] . ويعود ذلك الى كون اراضيهم اعلى من مستوى النهر بكثير ، مما يعيق الري بطريقة السيح . وقد حذر الحاكم السياسي من « ان بني حسن قد بلغوا اليوم (اواخر ١٩١٩) مرحلة من الفقر والاهمال ستؤدي ، ان لم يوضع حد لها الآن ، الى انحلال سريع جداً وبالتالي فوضى تامة »[162] . كما ذكر ايضاً انه « لا يمكن توقع فائدة كبيرة من علوان السعدون (شيخ بني حسن) . فهو يفضل السكنى في مدينة الكوفة على العيش بين افراد عشيرته »[163] . وقد اثبتت التطورات اللاحقة ، بعد نظر الحاكم السياسي . فقد سيطرت (فوضى) على زعامة(بني) حسن ، التي تقلدها عمران (المناوىء لبريطانيا) .

وقد تجلت اولى بوادر السخط العشائري خلال استفتاء ١٩١٨- ١٩١٩ ، عندما صوت بعض شيوخ العشائر في المنطقة لصالح حكومة عربية مستقلة[164] . وفي اوائل ١٩٢٠ ، شكل البريطانيون بعض مجالس التقسيمات في العراق . وعقد الاجتماع الاول لمجلس الشامية في ٢٥ كانون الثاني / يناير . وبعد ذلك بيومين انتهز عبد الواحد الحاج سكر فرصة لقائه بحميد خان وعرض عليه ما يلي : « لقد سمعنا . . . بأن احد انجال الشريف سيعين ملكاً على العراق وان حكومة عربية ستحل محل الانكليز . . . . وبالنظر لذلك ، فإننا نشعر بعدم الرغبة في دفع اي واردات اخرى عن محصول الرز لدينا »[165] .

ومن الواضح ان (الحكومة العربية) كانت تعني بالنسبة للحاج سكر : (لا ضرائب) ضمن اشياء اخرى . وبعد ذلك بأيام قلائل قدم جميع اعضاء المجلس[166] استقالتهم الى الحاكم السياسي للشامية ، مبينين انه « بالنظر لعدم تحديد مستقبل وطننا العراق حتى الآن . . . لذلك لا نستطيع اعطاء اي رأي قبل ان نعرف مستقبل عراقنا الحبيب » . وقد اوضح الحاكم السياسي للمندوب المدني انهم « يعتقدون . . . ان اي تعبير عن الرأي من جانبهم كهيئة رسمية سوف : (أ) يفسر كدليل على رغبتهم في الاحتلال البريطاني ؛ (ب) يقوي سيطرة الحكومة البريطانية على البلاد . . . وبالرغم من التأكيدات السابقة ، فإن وجهاء الشامية لا يبذلون جهداً كبيراً لاخفاء رغبتهم في حكومة عربية ، وعليه ، فإن موقفهم الراهن من مسألة مجلس التقسيم لا يبدو غير منطقي »[167] .

---

(١٦١) المصدر نفسه .

(١٦٢) المصدر نفسه .

(١٦٣) المصدر نفسه .

(١٦٤) انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب .

(١٦٥) F.O. 371/5022, «Memorandum no. 545/C/20, Dated 5 February 1920: From P.O. Shamiyah to Civil Commissioner Baghdad,».

(١٦٦) كان اعضاء المجلس هم : عباس كليدار ؛ هادي نقيب الاشراف ؛ محسن شلاش ؛ عبد الرحيم البشري (النجف) ؛ هادي الزوين (الجعارة) ؛ محسن ابو طبيخ (ام البعرور) ؛ علوان الحاج سعدون (بني حسن) ؛ عبد الواحد الحاج سكر ؛ عبادي الحسين (آل فتلة) ؛ نور السيد عزيز ؛ علوان عباس (سادة من الشامية) ؛ لفته شمخي (الجعارة) ؛ مرزوق العواد (العوابد) ، وسلمان الظاهر (الخزاعل) .

(١٦٧) المصدر نفسه .

وقد توافقت هذه الاستقالة الاجماعية مع انسحاب ابي التمن من مجلس بغداد(١٦٨) .

٢ ـ موت اليزدي وبروز الشيرازي

ان ادعاء عبدالله النفيسي بأن اليزدي « بذل جهوداً كبيرة في السير لزعزعة السلطة البريطانية »(١٦٩)، هو ادعاء غير مؤكد . ويكفي ان نعيد الى الذهن كلمات غرترود بيل : « ان احداً منا ، من الذين شاركوا في الدراما (الاستفتاء) ، لن ينسى الاسناد الذي تلقيناه من . . . السيد محمد كاظم اليزدي »(١٧٠) .

وفي ايار / مايو ١٩١٨ ورد في احد التقارير ان الحاكم السياسي للشامية زار اليزدي . « وفي الزيارة الثالثة (٢٨ نيسان / ابريل ١٩١٨) شكا (اليزدي) بمرارة من المحاولات التي يقوم بها بعض العلماء لجره الى موقف مناوىء لبريطانيا »(١٧١) . واختتم التقرير بالقول : « ان من الصعب تقدير المساندة المتواصلة (لليزدي) حق قدرها بالنسبة لنا »(١٧٢) .

ان موقف اليزدي لم يبحث بشكل واسع في الادب العراقي ، وربما كان ذلك بسبب منزلته الدينية . الا ان هناك الكثير من الدلائل التي تبين ان الزعماء العراقيين كانوا على علم بهذا الموقف منذ ١٩١٨ . فقد كتب الشيخ محمد الخالصي في اوراقه غير المنشورة ان مغادرة الشيرازي سامراء الى كربلاء كان سببها قرب المدينة الاخيرة من عشائر الفرات ، حيث كان بامكانه تحريضها ضد البريطانيين . وفضلاً عن ذلك ، فقد كان بامكان الشيرازي في كربلاء ان يوازن تأثير اليزدي(١٧٣) . وفي الواقع ، اعتبر الخالصي ان وفاة اليزدي كانت عوناً للحركة الاستقلالية(١٧٤) .

وفي اواخر ١٩١٨ اقام حزب (الحرس) صلات مع السيد محمد بحر العلوم(١٧٥) . وقد

---

(١٦٨) ال بارزكان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية : رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما الصق بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء ، ص ٨٩ .

(١٦٩) A.F. al Nafeesi, «The Role of the Shi'ah in the Political Development of Modern Iraq, 1914-1921,» (Ph.D. dissertation, Cambridge University, 1972), p. 200.

(١٧٠) F.O. 371/4150/6294, «Self-Determination in Mesopotamia, Memorandum, no. 5, 24, Dated 22 February 1919, Baghdad: From A.T. Wilson to Under-Secretary of State for India.»

(١٧١) F.O. 371/3397/21421, «Fortnightly Report, Ending 1 May 1918.»

اشتبه الحاكم السياسي بكون جواد صاحب الجواهر ، هو الذي يقوم بالضغط على اليزدي .

(١٧٢) المصدر نفسه .

(١٧٣) محمد الخالصي ، بطل الاسلام : سيرة حياة والد (الكاظمية : ١٩٣٩) ، ص ١٠٠-١٠٢ (مخطوط) .

(١٧٤) محمد الخالصي ، « كتاب في سبيل الله ، » ص ١ ـ ٢ (مذكرات غير مؤرخة ومخطوطات غير منشورة) .

(١٧٥) عاد بحر العلوم والجزائري الى العراق من منفاهما في المحمرة بعد الهدنة .

اخبرهم الاخير ان النجف والفرات الاوسط كانا عديمي الفائدة للحركة الوطنية بسبب موقف اليزدي(١٧٦) . وتم الاتفاق على ان الشيرازي قد يستطيع اذكاء (الروح الوطنية) اذا قرر الانتقال الى كربلاء . وخلال السنة نفسها قدم محمد رضا (ابن الشيرازي) الى بغداد حيث اقام بعض الصلات مع القوميين امثال محمد مهدي الصدر وجعفر ابو التمن وعلي آل بازركان. وتم الاتفاق بين محمد مهدي الصدر والخالصي ورضا على ان وجود الشيرازي في كربلاء امر ضروري لنمو الحركة المناهضة لبريطانيا(١٧٧) .

وبعد ان استقر رضا الشيرازي في كربلاء ، كون فريقاً ، من المثقفين يضم ، بالاضافة اليه ، الجزائري ، والشهرستاني ، وصاحب الجواهر ، وبحر العلوم والاخوين الشبيبيين . واقام صلات قوية مع (الحرس) من خلال جهود باقر الشبيبي وجعفر ابو التمن . وكان اول تحرك للشيرازي اصدار الفتوى الآنفة الذكر ، والتي احبطت قيام استجابات موالية لبريطانيا خلال الاستفتاء(١٧٨) . وفضلاً عن ذلك ، فقد قام القوميون (الحرس) بتوزيع فتواه بالآلاف في جميع انحاء العراق(١٧٩) . وفي اوائل ١٩١٩ ارسل الشيرازي الشبيبي الى الحجاز وسوريا مع رسائل الى حسين وفيصل ، تتضمن احتجاجاً على الحكم البريطاني(١٨٠) . وكان محمد رضا الشبيبي ، وهو « رجل ذو شخصية اخاذة ، وبلاغة فائقة وموهبة ادبية كبيرة »(١٨١) قد اظهر مشاعر ودية تجاه البريطانيين بعد الاحتلال . وفي ايلول / سبتمبر ١٩١٨ ، قام بتحرير جريدة (العرب) التي اصدرتها الادارة . الا انه بعد اشهر قلائل ترك عمله وفي كانون الثاني / يناير ١٩١٩ قاد حملة مناوئة لبريطانيا واخذ يدعو الى الاستقلال التام(١٨٢) .

وبعد الاستفتاء مباشرة ، ارسل (الحرس) حسن فهمي وصبيح نجيب(١٨٣) (وكلاهما من الضباط السابقين) الى سوريا مع نسخ من مضابط بغداد . وارسل الشيرازي رضا الشبيبي مع رسائل الى حسين وولديه فيصل وعلي(١٨٤) . واعرب الشيرازي لفيصل عن تأييده لـ « الجامعة

---

(١٧٦) آل بازركان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية : رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما الصق بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء ، ص ٧٨ .

(١٧٧) الخالصي ، بطل الاسلام : سيرة حياة والد ، ص ١٠٤ .

(١٧٨) انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب .

(١٧٩) آل بازركان ، المصدر نفسه ، ص ٧٩ ـ ٨٠ ، والحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٣٥ .

(١٨٠) F.O. 371/5242/E. 5616, «Baghdad Despatch no. 7594, 23 March 1920, E. 3800,» and فريق المزهر آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها (بغداد : مطبعة النجاح ، ١٩٥٢) ، ص ٩١ ـ ٩٤ .

(١٨١) F.O. 371/5243/E. 10272.

(١٨٢) المصدر نفسه .

(١٨٣) آل بازركان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية : رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما الصق بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(١٨٤) الشبيبي ، « ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني ، ١٩١٧ ـ ١٩١٨ » .

العربية التي هي جوهر المجد الاسلامي » ، ودعاه الى رفع صوته تأييداً لنضال العراق من اجل (الاستقلال) . وكانت رسالة رضا (الابن الاكبر للشيرازي) ذات مغزى اكثر اهمية . فقد كتب الى علي ان يتوجه بالدعاء الى الله للمحافظة على التاج الهاشمي الذي هو « جوهر حياة الامة العربية وبقاؤها» . واكد رضا :

« ان العراق ، شأن سائر الاقطار العربية ، قد اعلن مبايعته لوالدك . ويمكنني ان اضيف ان العراق اكثر حماساً للاستقلال المطلق . ان العراق اكثر قومية واقرب الى الوحدة العربية . . . وقد عانى العراقيون الكثير من المصاعب والاضطهاد بسبب انتخابهم احد اخوتك . . . » . وطلب رضا من علي تقديم المساعدة لنضال العراق ضد الاحتلال[١٨٥] . ان هاتين الرسالتين تكشفان عن مدى عمق التحالف من حيث المفاهيم والاهداف والتنظيم .

وقد برهن فريق المجتهدين والمثقفين على فعاليته وتأثيره : « ان تاريخ الدعاية المناهضة للحكومة في هذه المدينة يعود الى حوالى عامين ، عندما قدم المجتهد الاول الحالي . . . الشيرازي ، الى كربلاء . . . مع نجله رضا وان موقف الاخير . . . كان عدائياً ومتشدداً على الدوام ، ولم يكن من الممكن حمله على تعديل آرائه ، بأي خطوة ، مهما كانت ودية . وان والده ، الذي ينوف عمره على التسعين ، هو مجرد آلة في يده . . . »[١٨٦] .

ان موت اليزدي في ٢٩ نيسان / ابريل ١٩١٩ كان ضربة حقيقية للادارة البريطانية لأنه ترك الميدان خالياً امام نفوذ الشيرازي وولده . ولم تستطع الادارة تحمل فعاليات رضا وقررت ابعاده مع بعض اتباعه .

« لقد لعب رضا دوراً بارزاً في الدعاية المناهضة لبريطانيا . . . ويعود الفضل بدرجة كبيرة الى مكائد رضا في كون الدعاية المناهضة لبريطانيا قد اتخذت ابعاداً جعلت من المستحسن ابعاده »[١٨٧] .

الا ان هذا القرار اثار احتجاجاً واسعاً بين العشائر[١٨٨] . وهدد الشيرازي بمغادرة العراق . واصبح من المحتمل حصول (عواقب سياسية) ، خطيرة ، « ولذلك قرر (المندوب المدني) في النهاية ، في اواخر السنة (١٩١٩) تسهيل قرار المرزا بالبقاء في كربلاء عن طريق السماح بعودة المبعدين »[١٨٩] .

---

(١٨٥) آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ٩١ ـ ٩٥ . كانت كلتا الرسالتين مؤرختين في ٧ رمضان ١٣٣٧ هـ (ايار / مايو ـ حزيران / يونيو ١٩١٩) .

(١٨٦) F.O. 371 / 5078, «Baghdad Memorandum no. 20760, 14 July 1920: Report by A.P.O. Karbala on Activities of Anti-Government, Party and Precis of Evidence against Each Deportee,».

وقد اتهم المندوب المدني رضا الشيرازي بالعمل لصالح البلاشفة . كما اتهمه التقرير بتحريض العشائر ، وتشكيل جمعية سرية ذات صلة بالقوميين في بغداد .

(١٨٧) F.O. 371 / 6348 / 99, «Administration Report, Hillah Division, 1919,».

(١٨٨) F.O. 371 / 5230 / E. 12038, «Baghdad Memorandum, Confidential, S / 724, 9 July 1920,».

(١٨٩) F.O. 371 / 6348 / 99, «Administration Reports, Hillah Division, 1919: Wilson's Letter to Shiroz, 9 August 1919,».

لقد قام القوميون الاسلاميون في بغداد بحركة بارعة حينما اقنعوا الشيرازي بالاقامة في كربلاء فقد اتاح لهم ذلك توفير القيادة التي كانت ضرورية جداً في تلك المنطقة ، وجعل من الممكن اعادة توحيد القوميين والاسلاميين . وكانت هذه الوحدة قد تضررت كثيراً بعد وفاة الحبوبي وقبول القوميين ببيان الجنرال مود على علاته ، وان الشهرستاني ، الذي اعتزل السياسة لبعض الوقت ، عاد وجدد اتصالاته مع الاصلاحيين الاسلاميين (الجزائري وبحر العلوم) والقوميون العرب (الشبيبي) . وقد تلقى الشهرستاني رسالة من الاخير تعهد فيها بمواصلة الكفاح (المشترك) الى ان « يرتفع العلم العربي فوق العراق وينصب احد ابناء الشريف ملكاً » . ونوه الشبيبي بأهمية (زيادة وتقوية) الصلات التنظيمية مع (بغداد)، وابلغ الشهرستاني ان بعض (الشباب البغداديين) سيصلون قريباً لتشكيل فرع في النجف لـ (الحزب العربي) . واختتم رسالته بالسؤال عن مضبطة كربلاء والاعراب عن احترامه للجزائري(١٩٠) .

وقد كشفت رسالة الشيرازي الى ابي التمن عن المزيد من الصلات التنظيمية : « ان حركتكم الاسلامية في بغداد قد افعمت قلوبنا غبطة . . . اننا نضم اصواتنا اليكم في الهتاف : « نطالب بالاستقلال التام بدون تدخل اجنبي » . . . وينبغي عليكم ايضاً المحافظة على حقوق المسيحيين واليهود (و) . . . الاجانب . . . لئلا تعطوا العدو حجة حول سوء معاملتكم للاقليات »(١٩١) .

كان زعماء (الحرس) يدركون اهمية الفرات الاوسط بالنسبة لقضيتهم . وكانوا على علم بتدهور العلاقات بين زعماء تلك المنطقة والادارة . ولذلك بذل (الحرس) جهوداً كبيرة جداً لتعزيز صلاتهم مع هؤلاء الزعماء . وفي النجف ، نظم رضا الشبيبي حلقة سياسية ضمت محمد باقر الشبيبي (محرر جريدة (الفرات)) وحسين وسعيد كمال الدين (معلمان) ، وسعد صالح (معلم) ، ومحمد عبد الحسين (محرر جريدة (الاستقلال)) ومحمد رضا الصافي (تاجر صغير) ، وعبد الرزاق اوده (معلم) ابعد في ايار / مايو ١٩١٩ ، واحمد الصافي ومحمد باقر الحلي (شاعران) . وفي المنتفك ، جند باقر الشبيبي كلا من السيد عبد المهدي (شيخ صغير) ، وعلي الشرقي (شاعر) ، وعبد الكريم السبتي ومحمد حسن حيدر (معلمان) . وكانت مجموعة (الحرس) في الحلة تتألف من خيري الهنداوي (شاعر ومعاون حاكم سياسي) ، ومحسن ابو المحاسن (شاعر) ، ورؤوف الامين (ملّاك) ، ومحمد مهدي البصير . وفي ديالي كانت تتألف من سعيد سارة ، وحبيب العيد روسي ، ومحمود المتولي ، ومكي الاورفلي ، وعبداللطيف الفارسي . وفي كربلاء ، كانت الفروق بين الاسلاميين والقوميين اقل وضوحاً : فقد كانت المجموعة التي كونها الشهرستاني ، تضم احمد (ابن الخراساني) والكاشاني (الذي انتقل الى بغداد) ، ومرزا عبد الحسين (ابن الشيرازي) ، والسيد عبد الوهاب (معلم) . وقد انضم

---

(١٩٠) محمد رضا الشبيبي ، رسالة مؤرخة في ٢١ ربيع الاول ١٣٣٧ (٢٦ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٨) .

(١٩١) F.O. 371/5076, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, 5 June 1920,».

السيد هادي زوين الى الحرس وعمل من اجل قضيتهم بين سادة الشامية والنجف . وانضم زعيمان عشائريان ايضاً الى الحرس وهما : كاطع العوادي (من عفك والدغارة) ومرزوق العواد (شيخ العوابد ـ بين الحلة والشامية) . واصبح زوين والعوادي والعواد يؤلفون حلقة الوصل بين الحرس والشيوخ العشائر في المنطقة . وقام الشبيبي بالدور نفسه بين الحرس والمجتهدين[١٩٢] .

نشط القوميون العرب في استثمار بواعث التذمر في الريف وفي اضفاء صفة وطنية على الاستياء العشائري . وفي نيسان / ابريل ١٩٢٠ ، حققوا نجاحاً سياسياً مهماً بتنظيم مضابط وقعها معظم زعماء الفرات الاوسط . واعترفوا بعبدالله ملكاً على عراق « مستقل استقلالاً تاماً» . وقد اطلعت على مضبطة واحدة فقط وقعها تسعة زعماء من السماوة والرميثة ، وكانت موجهة الى عبدالله ، تطلب اليه القدوم الى العراق وتعلن رفضها المطلق لأي وصاية[١٩٣] ، وقد اوردت الادارة ذكر هذه الحملة الموالية لعبدالله في تقرير لها كما يلي : « . . . انها (المضابط) مؤرخة كلها . . . (١٢ نيسان / ابريل ١٩٢٠) . . . لتؤكد للشريف عبدالله ان رعاياه المخلصين ينتظرون قدومه بلهفة . وهي موقعة من قبل : (١) رؤساء وسادة عشائر الشامية ؛ (٢) . . . . عشائر السماوة والرميثة (بني حجيم) ؛ (٣) رؤساء المنتفك ؛ (٤) رؤساء وسادة النجف والكوفة والشامية ؛ (٥) وجهاء وشيوخ عشائر الحلة . وقد لعب كل من الموقعين دوراً رئيسياً في التمرد اللاحق باستثناء خيون العبيد (المنتفك) وسلمان الظاهر (الخزاعل)»[١٩٤] .

وكانت هذه المضابط ذات اهمية جدية فقد اظهرت قوة الصلات بين مختلف فئات الوطنيين العراقيين ، وقد تم التوقيع عليها في نيسان / ابريل ١٩٢٠ ، في حين عقد المؤتمر العراقي في دمشق في آذار / مارس من السنة نفسها . والامر الاكثر اهمية ، هو ان هذه المضابط كانت بمثابة اعلان لاستقلال العراق من جانب عشائر ومجتهدي ومثقفي الفرات الاوسط . وكانت الادارة تدرك جدية المضامين التي تنطوي عليها :

« . . . كان مفهوماً في كربلاء ان ١٥,٠٠٠ ليرة قد تم استلامها في العراق (بواسطة الشيخ سعيد النقشبندي) من الحكومة العربية لتوزيعها بين عشائر الشامية والدغارة والهندية وكربلاء و(كلمات غير مفهومة) والشطرة والسماوة . . . ان باقر الشبيبي ، والشيخ علي الشرقي . . . وعمر افندي ، ويونس افندي ابن الحاج خلف

---

(١٩٢) قمت بجمع وتنسيق المعلومات الواردة اعلاه من اوراق الخالصي والشبيبي ، ومؤلفات البصير وال بارزكان وآل عون والحسني ، المشار اليها آنفاً ، وكذلك عبد الرزاق الهلالي ، الشاعر الثائر : سيرة محمد باقر الشبيبي (بغداد : ١٩٦٥) ؛ يوسف عز الدين ، خيري الهنداوي (القاهرة : ١٩٦٥) ، ومحمد علي كمال الدين ، سعد صالح (بغداد : ١٩٤٩) .

(١٩٣) كان من بين الشيوخ البارزين الذين وقعوا عليها : شعلان ابو الجون ، وغثيث الحرجان . ولم تكن المضبطة مؤرخة .

(١٩٤) F.O. 371/6350/116, «Mesopotamia Intelligence, Report no. 6, 31 January 1921.».
ارسلت رسائل من قبل باقر الشبيبي « الذي كان يعمل مراسلاً للحزب القومي المتطرف في العراق » . على حد قول المخابرات البريطانية في العراق .

(من الضباط السابقين) ، قد اجتمعوا في كربلاء وقالوا انهم يقومون بجولة في الحلة والمسيب لابلاغ العشائر بخصوص الحركة التركية ـ العربية . . . .»(١٩٥) .

وارسل الميجر تايلر ، الحاكم السياسي للحلة ، تقريراً الى ولسن جاء فيه : « يقال ان مضبطتين قد ارسلتا من كربلاء . . . وفي حالة استلام رد ايجابي على الدعوة الموجهة الى الامير عبدالله ، فإن بعض زعماء الحركة قد قرروا القيام بعمل . . . واذا لم نقم بعمل ما . . . فيمكن توقع قيام بعض الاعمال المناوئة للحكومة البريطانية . . . والرأي السائد هو ان تحطيم حلقة الديوانية اسهل منه بالنسبة للشامية . . . . وان شيوخ الحلة . . . يشعرون بالقلق ازاء انتشار الاضطرابات المحتملة الى عشائرهم الخاصة . . .»(١٩٦) .

ان هذه الرسائل تكشف عن التبدل السياسي المهم الذي طرأ على المنطقة في الفترة ما بين ايار / مايو ١٩١٨ ونيسان / ابريل ١٩٢٠ . ففي نيسان / ابريل لم يكن التحالف بين القوميين ، وعلماء الدين ، وشيوخ العشائر مجرد مطمح ، بل تحول الى حقيقة واقعة . ففي خلال اضطرابات النجف ، كانت الفئة المناوئة لبريطانيا من علماء الدين (الجزائري وبحر العلوم) معزولة وعديمة الفاعلية . اما في اوائل ١٩٢٠ ، فإن معظم المنطقة اصبح جزءاً من الحركة الصاعدة التي كانت تهدف الى الاستقلال والحكم العربي . وقد اصبح هذا التطور ، وانعقاد هذا التحالف المهم ، ممكناً بسبب (الاخطاء الفادحة) للادارة نفسها ، ووفاة اليزدي ، ونفوذ الشيرازي وولده رضا ، وتنامي الحركة القومية العربية داخل بغداد نفسها . ان جميع هذه العوامل شكلت الخلفية الموضوعية الملائمة للتحالف ، وان اشتداد هذا التحالف فيما بعد اصبح العمود الفقري للثورة .

(١٩٥) F.O. 371/5074, «Abstract of Intelligence, Dated 27 March 1920, no. 13,».

(١٩٦) F.O. 371/5226/E. 7284, «Tuerij, 14 May 1920, no.2430-2614,».

الفصل الرابع عشر

ثـــــورة ١٩٢٠

اولاً : مقدمات الثورة

١ ـ فشل التيار (المعتدل او المساوم) بين القوميين

إني اعني (بالمعتدلين) اولئك الذين سعوا الى اقامة ادارة عربية في العراق ، الا انهم قبلوا بالمساعدة او التوجيه البريطاني ، وعارضوا ، لاسباب ستتضح فيها بعد ، استخدام الاساليب العنيفة ، لاسيما عندما كان ذلك ينطوي على تسييس العشائر . وكان ابرز دعاة هذا التيار ، داخل العراق ، هم الوجهاء الملاكون ، وجماعة العهد في بغداد (بقيادة النقشبندي) ، وسليمان فيضي وطالب باشا في البصرة . وقد فشل هذا التيار (المعتدل) فشلاً تاماً . ففي الفترة ما بين ١٩١٩ و١٩٢١ ، انسحق بين قطبين متضادين : الادارة البريطانية والقوميين المخيبي الامل . وكان هذا الفشل من بين العوامل الرئيسية وراء انفجار العنف .

كان سليمان فيضي يمثل حيرة المعتدلين احسن تمثيل[١] . ففي المكان الاول ، و(مثل الكثيرين منهم) ، كان فيضي يعرب عن نفوره من كلمة (الوصاية) كترجمة لـ (Mandate) ويفضل (الحماية). وقد بيّن موقفه للمس بيل ، هذا على الاسس التالية . منذ استيلاء البريطانيين على بغداد ، وهم يتحدثون عن حكومة عربية ، الا ان اكثر من ثلاثة اعوام مرت ، دون ان تتمخض عن شيء ، « ومع ذلك فإنكم شرعتم بوضع خطة دون استشارة احد »[٢] . « اني اخشى كثيراً من

(١) اجرت غرترود بل لقاء مع فيضي ، وسجلته في مذكرة معنونه « حديث مع سليمان فيضي » . وارسل ولسن نسخة منه الى لندن مع الملاحظة التالية : « يمكن اعتبار هذا عرضاً واضحاً للرأي المعتدل الراهن الذي تطور خلال الاسبوع الماضي » . انظر :
«The Sudan Archives,» Durham University, School of Oriental Studies Library, Box 303, «Memorandum, no. 17756, Dated 14 June 1920,».

(٢) كان فيضي يشير الى لجنة بونام ـ كارتر ، التي لم تكن تضم اي عراقي .

نشوب اضطرابات علنية ، ربما ليس في بغداد ولكن في المقاطعات ، لان جميع العشائر متأثرة . . . اني اعتبر اقتران الدين بالسياسة امراً خطراً بوجه خاص ، لأنه يكاد يكون من المستحيل الوقوف بوجهه . وبالرغم من اني اكره (الموالد)[٣] بشدة ، الا اني اجد نفسي مضطراً للذهاب اليها . . . »[٤] .

كان احمد الداود رئيس مجلس علماء الاوقاف . وقد انضم الى الحركة الوطنية واصبح احد قادتها المعترف بهم[٥] . ولعب دوراً بارزاً في حركة (الموالد)[٦] . وفي ١١ آب / اغسطس ١٩٢٠ ، اعتقل ، ونفي الى هنجام[٧] ثم سمح له بالعودة في شباط / فبراير ١٩٢١ . « وبعد عودته اعترف بصراحة للمندوب السامي . . . بأن سبب ارتباطه بالحركة القومية المتطرفة كان بالدرجة الرئيسية استياؤه الشخصي (من الادارة) »[٨] . واصدر مذكرة (الى جميع القوميين في انحاء العراق) دعاهم فيها الى « نبذ الجهالات الضارة وتأييد النوايا الحسنة للحكومة »[٩] . وقد جاء بيان الداود في فترة كانت الحركة الوطنية تعاني فيها اندحاراً مؤلماً ، ومع ذلك فقد ورد في احد التقارير البريطانية « ان سمعته سيئة . . . وان عودته لم يكن لها ، كما يظهر ، الا تأثير ضئيل »[١٠] .

وفي نيسان / ابريل ١٩٢٠ ورد في احد التقارير للمخابرات البريطانية في العراق : « . . . ان الحكومة تنوي تعيين لجنة استشارية من ثمانية محمديين ويهوديين . . . ويقال ان السويدي نصح برفض التعيين ، الا ان (النقشبندي) اقترح ان يوافق الجميع ثم يطرحوا على الحكومة مطالب يكون مصيرها الرفض ، ومن ثم يكون بمقدورهم الاستقالة »[١١] .

وبالرغم من ان رأي النقشبندي لم يكن (معتدلاً) ، الا ان معظم القوميين رفضوه وايدوا موقف السويدي الاكثر تشدداً . وفضلاً عن ذلك ، فقد ورد في احد التقارير ـ للمخابرات البريطانية ـ في تموز / يوليو ١٩٢٠ ان النقشبندي قد اعلن تنصله من بعض تصرفات الوطنيين و(ادان سياستهم علناً) . وقال ان الوطنيين ارسلوا اليه مضبطتين للتوقيع عليهما . وكانت الاولى تتضمن تعيين بعض العراقيين وهم هاشم باشا العمري ، ناجي السويدي ، عبد الكريم الجزائري ، رشيد الخوجة ، محمد رضا الشبيبي ، ياسين الهاشمي ، كمندوبين عن العراق للسفر الى اوروبا . اما الثانية فكانت احتجاجاً على اقتراح الحكومة بعقد مجلس للنواب السابقين لدراسة اسلوب الانتخاب . وقال النقشبندي انه رفض كلا المضبطتين واعلن « انهما قد هيئتا من قبل رجال لا

---

(٣) انظر الصفحات التالية .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) Foreign Office [F.O.] 371 / 5076, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 21, Dated 22 May 1920,».

(٦) Ibid., and «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 22, Dated 29 May 1920,».

(٧) F.O. 371 / 5081, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 33, Dated 14 August 1920,» paragraph 678.

(٨) F.O. 371 / 6350, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 7, Dated 14 February 1921,».

(٩) العراق (بغداد) ، ٢٣ / ٢ / ١٩٢١ .

(١٠) F.O. 371 / 6350, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 8, Dated 1 March 1921,».

(١١) F.O. 371/5074, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 14, Dated 3 April 1920,».

تهمهم الا مصالحهم الشخصية ، ولهذا السبب بالذات كانوا يريقون الآن بحاراً من الدم على الفرات »[١٢] .

وبالاضافة الى التقارير ، فقد اشير الى وجود دلائل متزايدة على قيام حزب معتدل ، بين الساسة المحليين « يتركز على الارجح حول آل النقيب ، وآل الحيدري ، وآل النائب (آل النقشبندي) ، وآل الزهاوي ، وآل الجميل . . . الخ »[١٣] ، وأعربت هذه العائلات في مناسبات متعددة عن (اشمئزازها) من سياسة القادة القوميين وحملتهم مسؤولية التجاوزات الجارية على الفرات ، واختتم التقرير بالعبارات التالية : « لو لقي هذا الحزب التشجيع ، ووجد له داعية صريحا ، يتزعمه ، لاصبح من السهل تقلبص نفوذ يوسف السويدي ومحمد الصدر واضرابهما »[١٤] .

وفي الموصل ، جرى تطور مماثل . فقد ذكر الحاكم السياسي ان (العهد) الذي كان يضم في السابق عددا كبيراً من الاشراف الاكبر سناً والاكثر نفوذا ، اصبح واقعاً تحت التأثير المتزايد للقوميين الاصغر سنا والاكثر تطرفاً . ففي تموز / يوليو ١٩٢٠ ، قرر سكان الموصل ، تحت تأثير الانباء والرسائل الواردة من بغداد ، انتخاب (مندوبيهم) (انظر الصفحات التالية) ، وقد (انتخبت) قائمة تضم اربعين شخصاً ، من بينهم كثير من الاشراف « اسرع بعضهم اليّ (الحاكم السياسي) لابلاغي بأنهم لم يكونوا على علم مسبق بهذا الامر ، وان الشعور الشعبي كان اقوى من ان يستطيعوا مقاومته ، الا انهم ينوون استخدام نفوذهم لكسر الحركة بالتدريج »[١٥] .

ان جميع هذه المواقف (المعتدلة) كانت تعكس المشاعر العلنية او المكتومة لقطاع كبير من (الوطنيين) العراقيين . وكانت بطبيعة الحال ، اكثر قوة بين العراقيين المحافظين والموالين لبريطانيا ، وقد ذكر الميجر بلفور انه ابلغ النقيب (نقيب بغداد) « اننا اقترحنا تأجيل القرار حول الامارة لمدة سنتين . فاقترح (النقيب الكيلاني) جعلها اربع سنوات لا اثنتين . . . وكان شديد الاستياء من المحاولة السورية لفرض امير على هذه البلاد . . » . وابلغ النقيب السير برسي كوكس انه ليس من مصلحة بريطانيا سحب قواتها من العراق . « وفي الوقت نفسه ، كان من الصعب على (النقيب) ان يفهم كيف يمكن السماح باستمرار هذا الكلام المزعج »[١٦] . (كان يشير بذلك الى الحملة الصحافية في بريطانيا) .

إن اقتراح كرزن بضرورة تعامل البريطانيين مع (زغلول) عراقي كان يمثل رأياً حكيماً وعملياً . ولكن يبدو ان الادارة في العراق قررت (ايجاد) زغلول عراقي في شخص طالب باشا النقيب. وان غرترود بيل ، التي ذكرت ان « طالب لا يتورع عن اي شيء » ، عادت فنوهت بأن « مصالحه ومصالحنا متطابقة »[١٧] . ولذلك اقترحت « اننا يجب ان نحمله هو وامثاله على سلوك طرق محترمة »[١٨] . واثار مونتاغو الاحتمال التالي : « ضمان تأييد القوميين الموالين لبريطانيا ، لا عن طريق زعيم

---

(١٢) F.O. 371/5078, «Secret Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 29, Dated 7 July 1920,» paragraph 561.

(١٣) المصدر نفسه ، الفقرة ٥٦٦ .

(١٤) المصدر نفسه .

(١٥) Colonial Office [C.O.] 696/3, «Administration Reports, Mosul Division, 1920,» p.3.

(١٦) F.O. 371/6349 /4280, «From House of Commons, Baghdad, Dated 15 January 1921,».

(١٧) Gertrude Lowthian Bell, «Private Letters and Papers,» Newcastle-upon-Tyne University Library, «Letter Dated 26 July 1920,».

(١٨) Ibid., «Letter Dated 30 August 1920,».

واحد ، بل زعيمين محتملين ، وبالامكان استخدامهما معاً . . . طالب، كمحافظ للبصرة وفيصل كملك عربي في بغداد »[19] .

وقد كان طالب راغباً جداً في تأدية هذا الدور . وكانت دوافعه هي : الطموح الملتهب، والموقف السائد الموالي لبريطانيا في البصرة ، وخوفه من الهياج الشعبي ، والنهوض الفلاحي . وقد عاد طالب الى البصرة من منفاه في الثامن من شباط / فبراير ١٩٢٠ . وبعد ذلك بايام قلائل دعي الى بغداد حيث امضى بضعة ايام في ضيافة أ . ت . ولسن[20] . وقد ابرق المندوب المدني ان طالب « ليس رجلاً يمكن ان ينسجم بسهولة مع المؤسسات التمثيلية المحلية ، الا انه يبدو حسن النوايا وحريصاً على التعاون بشكل صادق »[21] . وفي اواخر ايار / مايو ، ابرق ولسن ان طالب يطمح في منصب لا يقل عن امارة ما بين النهرين او على الاقل رئاسة المجلس . واضاف ولسن ان طالب قادر على ملء المنصب الاخير ، الا « انه شرير جداً ، ومكروه جداً ، بحيث ان الحكومة لن ترشحه »[22] .

وفي اواخر حزيران / يونيو كشف طالب للبريطانيين عن اقتناعه بأن الانتداب والتوجيه البريطانيين ضروريان لتقدم البلاد في المستقبل و« اعرب عن استعداده لمساندة (السياسة البريطانية) بأية طريقة ممكنة »[23] . وكان طالب مستعداً « للمجازفة بحياته بالقيام بدور رئيسي في السياسة المحلية وفق الاسس التي ترغب فيها ، على شرط ان تضمن له الحماية الشخصية والمساندة لنفسه ولاولاده ، وفق الاسس نفسها ، تقريباً ، للضمان الذي اعطيناه لشيوخ المحمرة ، مصحوبة ، كما استنتجت ، بوعد بالمساندة المالية ، نظراً لأنه رجل ليست له عملياً موارد خاصة »[24] .

وكما اجرى الكابتن أ . ن . كلايتن حديثاً طويلاً مع طالب :

« قال لي (طالب) بصراحة تامة انه يستطيع ادارة البلاد ، ولكنه يرغب في عمل ذلك بناء على طلبنا ، وليس باعتباره منتخبا عن الشعب . واعتقد ان فكرته هي اننا اذا نصبناه بأنفسنا فسنضطر الى مساندته . . . وقال انه قد يكون من الضروري . . في ظروف معينة . . . . فصل البصرة عن بغداد والموصل . وقد يكون ذلك مقصوداً فقط لاظهار ولائه لنا باستعداده للذهاب الى اقصى الحدود . . . او قد يكون مدفوعاً بعدم تأكده من نفوذه في الولايتين الشماليتين »[25] .

وقد اوضح طالب اسباب تأييده للبريطانيين : « اني مقتنع تماما بأن ما بين النهرين لكافة سكانها ، ستسير نحو الدمار (خلال اضطرابات صيف ١٩٢٠) اذا عملت بالمشورة السيئة للمتامرين . . . وقد بدات مهمتي

---

(١٩) F.O. 371/5229/E. 10440, «Dated 25 August1920,».

(٢٠) F.O.371/5231/E.1454.

(٢١) F.O. 371/52161, «From Civil Commissioner, Baghdad, no. 2481, Dated February 1920,».

(٢٢) F.O.371/5231/E.5461.

(٢٣) F.O. 371/5227/E. 7395, «Dated 29 June1920,».

(٢٤) F.O. 371 / 5228 / E. 9368, «From Civil Commissioner, Baghdad, no. 6976, Dated 25 February 1920,».

(٢٥) F.O.371/5230/E. 12461, «Dated 22 August1920,».

بقطع كافة الاتصالات بين العشائر والمدن ، ونجحت في اقناع الاخيرة بأن مشورة المتآمرين السيئة لا يمكن ان تؤدي الا الى عواقب وخيمة »[٢٦] .

وفي ايلول / سبتمبر ١٩٢٠ ، وجه طالب رسالة مفتوحة الى الجمهور العراقي : « عندما رجعت الى دار السلام ، وجدتها لسوء الحظ في وضع مؤسف . . . ثمة من جهة ، مطالبة بالاستقلال ، ومن جهة اخرى ، نهب الاموال . . . . وقد بحثت الوضع الخطير مع المسؤولين البريطانيين ووجدتهم مستعدين للوصول الى تفاهم حول عدة مسائل . . . ولكني عندما بحثت الوضع مع زعماء الحركة في بغداد ، وجدتهم لا أباليين . . . بل بالعكس ، كانوا يبذلون قصارى جهودهم لاحداث الهياج والثورة وتحريض العشائر على الفوضى ، دون النظر الى العواقب الوخيمة »[٢٧] .

وفي اواخر تموز / يوليو ١٩٢٠ ، عقد طالب اجتماعاً طويلاً مع السويدي ، وقدم عنه تقريراً كاملاً الى السلطات . وكان السويدي يشعر بخيبة الامل ازاء موقف وجهاء البصرة . وكان القوميون قد كتبوا مرتين الى طالب بدون ان يحصلوا على جواب منه . وكان القوميون مستعدين للقبول بزعامة طالب في حالة تأييده لقضيتهم (حسب روايته) . ثم مضى السويدي فأبلغ طالب بقوة القوميين . فقد كان الشيعة والسنة متحدين ، والعشائر منضوية تحت القيادة الوطنية . « كثير زين . انا عربي ومن اهل العراق اشرح لي آراءك » . فأجاب السويدي : « لا اجانب ، لا انتداب ، لا تدخل خارجي » . وأبلغ طالب البريطانيين بأن السويدي يعتمد على فؤاد الدفتري ، وجعفر ابو التمن والسيد محمد الصدر. وطرح طالب المطالب التالية على السويدي كشروط اولية لانضمامه الى الحركة :

« ١ ـ ان يكون رئيس الدولة العراقية عراقياً ، وشريفاً من اعرق دم وعائلة في العراق .

٢ ـ تأليف لجنة من اناس شرفاء وذوي سمعة طيبة .

٣ ـ الكف فوراً عن الدعاية السياسية والتحريض على الثورة .

٤ ـ دعوة اشراف بغداد والاماكن الاخرى ، الذين لم ينضموا الى حزب يوسف افندي ، للاشتراك في اللجنة »[٢٨] .

ان هذه الشروط اكدت انطباعات بيل عن طالب : « لم اصادف ابداً انساناً مثل طالب يتركز العالم كله في شخصه . . . وكل افكاره تدور حول تحسين اوضاعه الخاصة ، انه الشغل الشاغل الفريد لنفسه »[٢٩] .

وغني عن البيان ، ان جميع شروط طالب رُفضت من قبل يوسف السويدي والقوميين . وفي تشرين الاول / اكتوبر ١٩٢٠ ، ورد في التقارير « ان القوميين يعارضون بشدة تعيين السيد طالب رئيساً

---

(٢٦) Harry St. John Bridger Philby, «Papers,» Oxford University, St. Antony's College, M.E.C. (DS 79.8 T2), «Letter Dated January 1923, to Secretary of State for Colonies,».

(٢٧) الشرق ، ٢١ / ٩ / ١٩٢٠ .

(٢٨) F.O. 371/5230/E. 1/753, «Dated 28 July1920,».

(٢٩) Bell, «Private Letters and Papers,» «letter Dated 25 April 1921,».

للوزراء في الحكومة الجديدة ويؤيدون يوسف السويدي »[٣٠] . ومن الواضح انه حتى ذلك الحين كان السويدي محافظاً على موقفه (المتطرف) او بالاحرى الجذري ازاء الادارة ، حتى عندما اصبح السير برسي كوكس على رأسها . وقد كتب الى فريق من القوميين العراقيين ، بمن فيهم يحيى الشاوي وفتاح باشا « ينصحهم بعدم الالتقاء مع المندوب السامي ، او مساعدته بأي شكل كان . . . وقد وافق جميع الحضور على اتباع نصيحة يوسف وارسلوا اليه رسالة بهذا المعنى »[٣١] .

وقد اوضحت غيرترود بيل بشكل منطقي اسباب فشل طالب : «ان الاناس الجدد(القوميين) ينظرون اليه (طالب) بارتياب ، من جهة لانهم يشتبهون ، عن حق ، بكونه يهدف الى السيطرة على السلطة التي يريدونها لانفسهم ، ومن جهة اخرى ، لانهم يعلمون ان علاقاته جيدة جداً معنا ، وانه ليس من المحتمل ان يؤيد قيام حكومة عربية حرة ، بدون انتداب »[٣٢] .

وقد اعترف المندوب المدني بفشل طالب باشا في برقية مؤرخة في ٢٩ تموز / يوليو ١٩٢٠[٣٣] ، واكد ذلك في برقية اخرى مؤرخة في ١٧ آب / اغسطس ١٩٢٠[٣٤] .

الا ان طالب لم يكن الوحيد الذي شعر بالذعر ازاء التحول الذي طرأ على الحركة الوطنية . بل ان موقفه كان يعكس وجهة نظر ومصالح فئة اوسع . وقد اشارت المس بيل ، في عدة مناسبات ، الى انه حتى بعض (القوميين المتقدمين) كانوا مهتمين بتهدئة العشائر[٣٥] ، وان القلق كان يتزايد ازاء (الارهاب العشائري)[٣٦] . وقد كتبت ، في خضم الثورة : « . . . ان موقف . . . وجهاء بغداد . . . ليحملني على الضحك ـ فانهم جميعاً لديهم املاك في الديوانية ، وقد كانوا مستعدين جداً للمشاركة في اعمال التحريض في البداية ، الا انهم الآن لا يجدون الشتائم الكافية لوصفها »[٣٧] .

ومن الواضح ان (المعتدلين) او بالاحرى (المساومين) استنكروا ثلاثة جوانب من الحركة القومية . تحالفها مع علماء الدين في الفرات الاوسط ، ونشاطها التحريضي بين العشائر ومحاولاتها لجر العشائر الى السياسة ، واخيراً تشجيعها للعنف . وقد كانت هذه المواقف الثلاثية تشكل تهديداً لوجهات النظر السياسية لـ (المعتدلين) او مصالحهم العقارية ، او كليهما معاً .

---

(٣٠) F.O. 371/5082, «Secret Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 42, Baghdad, 16 October 1920,».

(٣١) المصدر نفسه .

(٣٢) Bell, «Private Letters and Papers,» «Letter Dated 26 July 1920,».

(٣٣) Sir Arnold Talbot Wilson, «Miscellaneous Papers,» British Museum, Department of Manuscripts, no. 52455, vol. 1, «From Civil Commissioner, Baghdad, to Secretary of State for India Office, no. 9180, 29 July 1920,».

(٣٤) F.O. 371/5229/E. 10109, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, no. 9006, 17 August 1920,».

(٣٥) Gertrude Lowthian Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, edited by Lady F. Bell, 2 vols. (New York: Boni and Liveright, 1927), vol. 2., p. 493, «Letter Dated 20 July 1920,»

(٣٦) Ibid., «Letter Dated 2 August 1920,».

(٣٧) Bell, «Private Letters and Papers,» «Letter Dated 30 August 1920,».

الا ان موقف طالب كان مع ذلك دراماتيكياً . فهو ، على اية حال ، كان مؤسس الحركة العربية في العراق ، ولعله كان السياسي العراقي الوحيد الذي اقام صلات مع العشائر وشجع اشتراكها في السياسة ، وفي ١٩١٤ آثر النفي على التعاون مع البريطانيين . الا ان عام ١٩٢٠ حمل معه تغيرات كثيرة، فقد كانت ظروف البصرة في مصلحة البريطانيين ، وكان الزعيم قد تعب من الكفاح . وقد تخلى طالب عن حذره السابق وساند البريطانيين بدون تحفظ : « لقد خدمت بريطانيا العظمى بحياتي واموالي في الوقت الذى كان جميع الناس يحاربونها . ووقفت الى جانب الحكومة في الوقت الذي كان الجميع يطالبون بالاستقلال التام . . . » ـ هكذا كتب طالب الى فلبي[٣٨] . وخلال ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ، وافق طالب على ان يكون الذراع الضاربة ضد الحركة الوطنية ومكافحة نشاطاتها وقادتها ، بصفته وزيرا للداخلية[٣٩] . ومع ذلك ، فقد كتب له الفشل مرة اخرى . فإن انفصاله عن القوميين ، اضعف مركزه بالذات . وبعد درس الثورة الكبير ، اخذ البريطانيون يبحثون عن (زغلول عراقي) يستطيع تهدئة الوضع . ولم يكونوا بحاجة الى (معجب) . وكان نفيه مجدداً بمثابة رصاصة الرحمة في الواقع ، كان نهاية مأساوية لحياة سياسية عاصفة .

إن فشل التيار (المعتدل) يثير مسألة العوامل التي سمحت بانطلاق و(تصاعد) النهج (المتطرف) او بالاحرى الجذري .

كانت الظروف الموضوعية في خدمة النهج (الراديكالي) وان تلكؤ المندوب المدني في اجراء اي تغييرات مرضية ، ومسألة الارض ، وسياسة الضرائب ، والمثقفين العراقيين العاطلين ـ كل هذه العوامل كانت سنداً للحركة القومية الصاعدة . وكان (الجذريون) حريصين على الاستفادة من الظروف الموضوعية الناجمة عن تعقيدات الادارة . وفي الواقع ، بذل القوميون العراقيون خلال ١٩١٩ ـ ١٩٢١ جهوداً هائلة لاسقاط الادارة البريطانية[٤٠] .

وفي باديء الامر ، كانت مطامح القوميين (معقولة) وتدخل ضمن الوعود التي قطعها الحلفاء والبريطانيون انفسهم . وكانت مطالبهم هي نفس ما اورده الجنرال مود والرئيس ولسن والتصريح الانكلو ـ فرنسي . وبهذه الطريقة اصبح موقف ولسن والعراقيين الموالين لبريطانيا في غاية الضعف . وقد كتبت المس بيل في مذكرة بالغة الاهمية :

« ان الحركة في هذه البلاد هي مظهر واحد لشعور قومي قوي جداً . . . وقد ازدادت قوة وتحديداً الى درجة عظيمة بسبب نفس المبادىء التي حاربنا دفاعاً عنها . . . اننا ازاء شعور تمتد جذوره بعيداً وعميقاً ، وتتصل ان صح

---

(٣٨) رسالة بالعربية مؤرخة في ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢١ في : Philby, «Papers,» .

(٣٩) انذر طالب ، بصفته وزيراً للداخلية ، « كل من يشكل احزاباً سرية او يعقد اجتماعات سرية او يروج إشاعات كاذبة . . . بالعقاب الشديد » . انظر : العراق (بغداد) ، ٢٤ / ٢ / ١٩٢٠ . وقد عطل جريدة الاستقلال ، واعتقل عدداً من محرريها ، من جملتهم البصير والبدري وقاسم العلوي .

(٤٠) حتى سليمان فيضي « المعتدل » وصديق العمر لطالب ، تخلى عنه بسبب موقفه « التساومي » مع البريطانيين .

القول بجذور نشاطنا بالذات في اعظم تجربة عرفناها كأمة »[٤١] . (تقصد الحرب العالمية الاولى) .

الا ان قول المس بيل لا يترك اي شك ان موقف القوميين كسب الجولة الاولى . وقد اعترف ولسن نفسه بذلك : « اننا نتساءل ، لماذا نشبت (الثورة)؟ . . ان نهاية القرن التاسع عشر قد شهدت انبعاث القومية في اوروبا وآسيا - وهي رد فعل من جانب رجل الحقل والشارع ازاء نشوء وقيام امبراطوريات عظمى . . . لقد أخرس منتقدو القومية كسياسة بناءة . . . وسيطرت القومية على الميدان ، وشددت كل التصريحات الرسمية للحلفاء ، وللقادة المختارين للامم المتحالفة ، على ذلك ، كأساس للسياسة المستقبلية . . . »[٤٢] .

٢ - جهود القوميين لتحقيق الوحدة الوطنية

كانت الخطوة الثانية التي خطاها الوطنيون هي محاولتهم تحقيق الوحدة الوطنية . وكانت هذه الوحدة ذات شقين : وحدة المسلمين مع غير المسلمين ، ووحدة المسلمين انفسهم . وفي هذا الصدد ، اقدم الوطنيون العراقيون على خطوة مبتكرة لم يكن لها نظير في تاريخ العراق الحديث . حيث جاء « المشهد الذي لا سابق له » على حد قول المخابرات البريطانية ، عندما كان المسيحيون البغداديون يمارسون بعض طقوسهم الدينية[٤٣] . فقد قام وفد من المحمديين (يتألف من ابو التمن والداود وآل بازركان وغيرهم بجمع فريق من شباب السنة والشيعة (المتنورين) الذين اخذوا يرمون الورود والماء المعطر على الموكب اثناء مروره ، ويهتفون : « عاش مجد سيدنا المسيح . . . عاش اخواننا المسيحيون . عاشت الوحدة العراقية . . . عاشت الوحدة الوطنية » . وقد اجاب المسيحيون ، بمن فيهم القساوسة : « عاش اخواننا المحمديون . عاش العرب » . ودخل المسلمون الى الكنيسة وبقوا الى نهاية الموكب . وقد اختتم تقرير المخابرات البريطانية بالعبارات التالية : « لقد جرى قدر كبير من الحديث العاطفي حول هذا المشهد الذي لا سابق له ، وقال الكثيرون انه تم (بفضل) البريطانيين لانهم كانوا السبب في هذا الاتحاد ، بدون ان يرغبوا فيه »[٤٤] .

وقبل ذلك بأيام قلائل نظم (مولد) في ٣١ ايار / مايو في جامع الشيخ صندل برعاية السويدي . وكانت الخطب والقصائد (حماسية كالعادة وسياسية بصورة تامة تقريبا) . ودعا الملا عثمان الى وحدة المسلمين والمسيحيين واليهود من اجل استقلال العراق[٤٥] . وجاء في تقرير للمخابرات في ٢٩ ايار / مايو ، ان مناشير ورسائل وجهت الى اليهود والمسيحيين تؤكد على وحدة

---

(٤١) Bell, «Private Letters and Papers,» «Note Dated July 1920,» appendix.

(٤٢) «The Sudan Archives,» Box 303, «Speech by the A.C.C. at Railway Directorate Dinner, 20 September 1920,».

كان ذلك خطابه « الوداعي » للعراق .

(٤٣) عيد الجسد .

(٤٤) F.O. 371/5076, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 23, Dated 5 June 1920,» paragraph 442.

(٤٥) المصدر نفسه ، الفقرة ٤٢١ .

واخوة كافة الطوائف العراقية وتدعوها ، باسم الوطن الواحد والمصير الواحد ، الى الاتحاد مع المسلمين لتحقيق استقلال العراق[٤٦] . وصدرت مناشير ونداءات مماثلة في الموصل[٤٧] . ولم تكن هذه المحاولات عديمة الجدوى .

« لقد توجه المطارنة السريان والكلدان في بغداد سوية مع القساوسة والوجهاء الكلدان اللاتين والارمن ، الى الكاظمية في ١٨ حزيران / يونيو ١٩٢٠ ، لتهنئة العلماء ـ السيد محمد الصدر وغيره (بمناسبة عيد الفطر) كما قام وفد يهودي برئاسة الحاخام الاكبر بزيارة العلماء ايضاً »[٤٨] .

وبذلك تفادى القوميون اي صراع طائفي من شأنه ان يخل بسمعة كفاحهم داخلياً او دولياً . وفي اكثر من مناسبة مهمة ، ابدى اليهود والمسيحيون تأييدهم للنهج الذي دعا اليه الوطنيون ، كما سيتضح فيما بعد . والظاهر ان الفترة التي انقضت ما بين استفتاء ١٩١٨ ـ ١٩١٩ وصيف ١٩٢٠ شهدت تغيراً مهماً في موقف الاقليات في مصلحة الحركة الاستقلالية .

وكانت البادرة الاولى على التقارب الوطني قد ظهرت في صيف ١٩١٩ ، عندما حضر السنة ، بأعداد كبيرة ، مجالس الفواتح التي اقيمت على روح المجتهد اليزدي[٤٩] . وفي ايار / مايو ١٩٢٠ ، وبمبادرة من (الحرس) ، جرى حدث لا سابق له ، وهو عقد احتفالين مختلفين تماماً بصورة مجتمعة وهما التعزية (لاحياء ذكرى استشهاد الحسين) والمولد (للاحتفال بذكرى مولد النبي) . ولم يكن ثمة شك في ان هذه الخطوة كانت مدفوعة ببواعث سياسية[٥٠] ، وقد ورد في احد التقارير البريطانية : « في يوم الجمعة الماضي ، امام حشد من العباد قرىء (المولد) من قبل الملا عثمان ، وقرئت التعزية من قبل الشيخ محمد مهدي البصير الحلي ، بمشاركة الشيعة والسنة معاً . ان مثل هذا الشيء لم يحدث ابداً في الاسلام . وقد تم اسكات الاشخاص الذين اعترضوا على ذلك ، وقيل لهم ان الجميع يجب ان يتحدوا طالما بقي العدو المشترك ـ بريطانيا ـ في مواجهتهم »[٥١] .

ومنذ ذلك الحين ، وحتى منع (الموالد) رسمياً من قبل الحكومة ، (في ١٤ آب / اغسطس ١٩٢٠) ، استمرت هذه الاجتماعات باعداد متزايدة ، عاكسة وحدة وطنية ذات دلائل كبيرة .

---

(٤٦) Ibid., «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 22, Dated 27 May 1920,» paragraph 418.

(٤٧) C.O. 696/3, «Administration Report of Mosul Division, 1920,» p.2.

(٤٨) F.O. 371 / 5077, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 24, Dated 19 June 1920,» paragraph 484.

(٤٩) محمد مهدي البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ٢ج (بغداد: ١٩٢٤) ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ، و Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), p. 253.

(٥٠) اصدر الشيرازي والخالصي فتاوى تشجع الشيعة على الصلاة في جوامع السنّة (حديث مع مهدي الخالصي) .

(٥١) F.O. 371 / 5076, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 21, Dated 22 May 1920,» paragraph 388.

إن المنافع السياسية التي حققتها القضية القومية بهذه الاجتماعات واضحة تماماً : وقد ورد في التقارير البريطانية ان « . . . احمد (الداود) وجعفر ابو التمن وعلي البازركان قد قرروا عقد (الموالد) مرتين في الاسبوع على الاقل لغرض استمرار السيطرة على الشعب »(٥٢) . ونوهت المس بيل بأن الوطنيين ، عن طريق هذا (الحدث المنقطع النظير) ، « انتهجوا مسلكاً تصعب مقاومته في حد ذاته »(٥٣) . وكتب ولسن : « ان رجال الدين في كربلاء والنجف والكاظمية ، كانوا باستثناء بارز ، مناوئين بشكل صريح . . . وقد تحالفوا مع الحركة القومية . . . وعززوا سلطتهم (الدينية) اقوالاً يفهمها اكثر الناس جهلاً »(٥٤) .

وقد ورد ايضاً في احد التقارير للمخابرات البريطانية : « ان من الصعب الجزم بطول المدة التي سيتعاون فيها الاثنان . . . ان الامور السياسية تناقش الآن في كل مكان ومن قبل الجميع وبتحفظ قليل . وقد ازدادوا ثقة بفضل هذا الاتحاد . . . وهم ينتقدون الحكومة بحرية اكبر كثيراً مما في السابق . والهدف الاخير من هذه (الموالد) هو الوصول الى الطبقات السفلى (كذا . . .) واثارة الاهتمام لديها بالشؤون السياسية . « ان الخطر ينبعث من هذه الطبقة بالذات »(٥٥) .

٣ ـ انتخاب المندوبين

في اواخر ايار / مايو ، اصبح الوطنيون مقتنعين بأن الوقت قد حان لتنشيط حملتهم عن طريق انتخاب لجنة تمثل الشعب وتطرح ، علناً ورسميا ، قضية الاستقلال امام السلطات . وعليه ، فقد نظم (مولد) كبير في السابع من رمضان ، الموافق (٢٦ ايار / مايو ١٩٢٠) ، انتهى باصطدام عنيف مع الشرطة(٥٦) ، وقد انتخب فيه الاشخاص التالية اسماؤهم كمندوبين يمثلون (قضية الامة) : يوسف السويدي ، محمد الصدر ، احمد الداود ، جعفر ابو التمن ، علي آل بازركان ، احمد الظاهر ، ابو القاسم الكاشاني ، رفعت الجادرجي ، عبد الرحمن الحيدري ، سعيد النقشبندي ، عبد الوهاب النائب ، فؤاد الدفتري ، الحاج ياسين الخضيري ، محمد مصطفى الخليل ، وعبد الكريم السيد حيدر(٥٧) . وقد شكل الخمسة الاوائل لجنة تنفيذية

---

(٥٢) F O. 371 5078, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 29, Dated 17 July 1920,» paragraph 584

(٥٣) Bell, «Private Letters and Papers,» «Letter Dated 1 June 1920,».

(٥٤) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p 253

(٥٥) F.O 371 5076, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 21, Dated 22 May 1920,».

(٥٦) F O. 371 5076, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 22, Dated 29 May 1920,»

(٥٧) كان عدد المندوبين ١٥ شخصاً منهم : الظاهر (اديب) ؛ الكاشاني (مجتهد ، مقرب الى الشيرازي) ؛ الجادرجي (٧٠ سنة ، من الوجهاء والملاكين ، رئيس بلدية بغداد خلال العهد التركي) ؛ الحيدري والخضيري (كلاهما من عائلة غنية ومعروفة ، شديد الاعتدال) ؛ الخليل (من الحرس) ، وحيدر (من عائلة دينية) .

للوفد[٥٨] . وفي الواقع ، اعتبرتهم الادارة رؤوس الحركة الوطنية في بغداد[٥٩] .

وقد اجتمع المندوبون وكتبوا رسالة الى المندوب المدني يطلبون فيها مقابلته . وقد اعلنوا عن انفسهم كمندوبين عن بغداد والكاظمية[٦٠] . ووافق ولسن على مقابلتهم ، الا انه ، لغرض معاكسة مطلبهم ، وجه الدعوة الى (٢٠) من وجهاء بغداد الآخرين ممن كان واثقاً من تأييدهم له[٦١] . واستناداً الى اوراق المرحوم كامل الجادرجي ، تطوع مستخدم يهودي في مكتب الحاكم العسكري في بغداد بنقل الخبر الى كامل[٦٢] . ووصل الخبر الى السويدي بسرعة[٦٣] . وعقد القوميون اجتماعاً ، وقال السويدي : « يجب ان نكتب الى رؤساء العشائر واهل المدن ، ونطلب منهم التهيؤ للثورة في حالة رفض مطالبينا »[٦٤] . ولغرض احباط خطة ولسن في شق صفوف العراقيين ، تقرر دعوة الوجهاء الآخرين الى اجتماع . وعقد الاجتماع في بيت الجادرجي . وحث الوطنيون الوجهاء المدعوين الآخرين على توحيد المواقف في مواجهة ولسن . وعرضوا مطاليبهم التي كانت اميل الى الاعتدال ، وبذلك كسبوا تأييد الوجهاء الآخرين[٦٥] . وقد كانت هذه ضربة موجعة لخطط ولسن ونصراً سياسياً مهماً للقوميين . وفي اليوم التالي ، قام الزعيم اليهودي المعروف ، ساسون حسقيل ، بزيارة السويدي واتفق معه على اتخاذ موقف موحد في مواجهة المندوب المدني[٦٦] .

وقد تم الاجتماع في (السراي) الحكومي في الثاني من حزيران / يونيو . وكانت تظاهرة كبيرة قد تجمعت حول السراي ، واستقبلت المندوبين بهتافات تطالب بالاستقلال[٦٧] . وافتتح ولسن الجلسة بخطاب طويل القاه حسين افنان : « . . . ان (حكومة صاحب الجلالة) ترغب في اقامة حكومة وطنية في هذه البلاد . . . وان التأخير الذي حصل . . . يعود الى اسباب خارجة عن ارادتنا . . . ان من

---

(٥٨) البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ص ١٥٦ .

(٥٩) F.O. 371 / 5078, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 29, Dated 17 July 1920,» paragraph 569.

(٦٠) عبد الرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ط ٢ (صيدا : مطبعة العرفان ، ١٩٦٥) ، ص ٦٤ . وكانت رسالتهم مؤرخة في ٢٨ ايار / مايو ١٩٢٠ .

(٦١) وهم : محمود وداود الكيلاني ؛ عبد المجيد الشاوي ؛ عبد القادر الخضيري؛ محمد حسن الجواهر ؛ الشيخ شكر ؛ صالح العلي؛ علي الألوسي ؛ خسرو فيوبجيان ؛ ساسون حسقيل ؛ عزرا دانيال ؛ يهودا زلوف ؛ محمود الشابندر؛ محمود الاطرقجي ؛ جعفر عطيفة ؛ جميل الزهاوي ؛ عبد الكريم الجلبي ؛ محمود الاستربادي ، وعبد الحسين الجلبي .

(٦٢) الاوراق الخاصة لكامل الجادرجي .

(٦٣) F.O. 371 / 5076, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 23, Dated 5 June 1920,» paragraph 421.

(٦٤) المصدر نفسه .

(٦٥) اوراق الجادرجي ، وقد عقد الاجتماع في ٣٠ ايار / مايو .

(٦٦) F.O. 371/5076, Ibid., paragraph 422.

(٦٧) المصدر نفسه ، الفقرة ٤٤٨ .

واجبي ان احذركم من ان اي تحريض في المستقبل على العنف واي اثارة للعنفيات ستواجه باجراءات شديدة . . .
سانتقل الآن الى مسألة شكل الحكومة القادمة . . . وبامكاني القول ، بوجه عام ، ان الاسس التي سرنا عليها هي التالية : اننا نرغب في اقامة مجلس دولة برئاسة رئيس عربي ، لادارة شؤون البلاد الى حين طرح مسألة الدستور النهائي لما بين النهرين على الجمعية التشريعية التي ينوى تشكيلها . . . »[٦٨] .

ثم قام السويدي ، نيابة عن الوفد ، بطرح المطاليب :

« ١ ـ تشكيل مجلس عراقي يمثل البلاد ويقرر شكل الحكومة العراقية القادمة .

٢ ـ حرية الصحافة .

٣ ـ رفع القيود عن الاتصالات البريدية والبرقية في داخل البلاد مع العالم الخارجي »[٦٩] .

واكد الصدر على الطابع السلمي للحركة التي (لا تتعارض مع وعود الحلفاء) . وذكر السويدي ان مطاليبهم تنسجم مع ما قاله ولسن نفسه . الا انه تساءل : « ولكن لماذا التأخير في تشكيل الحكومة الوطنية ؟» ، وحذر من « ان صبر الامة قد بدأ بالنفاد » . وايد الفريق (الموالي لبريطانيا) اقوال الوطنيين ولم تصدر عنه اية معارضة[٧٠] . وقد نصحهم المندوب المدني : بـ « ان لا ينخدعوا بالمظاهر. فقد بقيت بلاد ما بين النهرين تحت الحكم الاجنبي لمدة ٤٠٠ عام ، ولا يمكن اقامة حكومة وطنية اهلية على الفور ، حتى مع توفر احسن النوايا في العالم. يجب ان تكون العملية تدريجية ، والا فالكارثة واقعة لا محالة »[٧١] .

ولم يكن من الممكن في الاجتماع اخفاء الخلافات العميقة بين الجانبين . فقد كان هدف القوميين هو تأسيس جمعية وطنية على الفور لتحديد شكل الحكومة القادمة في العراق . اما موقف ولسن فكان يقوم على تأجيل هذه الخطوة الى امد غير محدد . وقد كان في الاساس يعارض فكرة تشكيل هذه الجمعية في حد ذاتها : « اذ لم يكن سراً ان نية المندوبين كانت التهيئة لبيان يصدره المؤتمر عن استقلال العراق ، ويعقبه رفض الانتداب البريطاني . . . »[٧٢] .

اما ما كان يريده ولسن حقاً فهو : « ان يتولى الحكم ، في ظل الدستور المؤقت ، مجلس دولة وجمعية تشريعية . ويكون مجلس الدولة : (١) السلطة التنفيذية الرئيسية ومجلساً تشريعياً ثانياً ؛ (٢) يتألف من ١١ عضواً ورئيس ، يتم تعيينهم جميعهم من قبل المندوب السامي ؛ (٣) يكون الرئيس عربياً ذا مكانة وسمعة طيبتين ؛ (٤) يجب ان لا يحدد الدستور نسبة معينة من الاعضاء البريطانيين والعرب (وان كان يستطيع ذلك من الناحية

---

(٦٨) F.O. 371/5228/5093, «Dated 2 June 1920,» and «Al Iraq, no. 3, Dated 3 June 1920,».

(٦٩) البصير ، تاريخ القضية العراقية، ص ١٧٠ ، و
Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 257.

(٧٠) العراق ، ٣ ، ٤ / ٦ / ١٩٢٠ ، والبصير ، المصدر نفسه ، ص ١٦٩ ـ ١٧٢ .

(٧١) F.O. 371/5228/50935, and
العراق ، ٣ / ٦ / ١٩٢٠ .

(٧٢) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p.257.

العملية) . وفي البداية ، تكون ثمة اغلبية انكليزية ، مثلاً ، ستة مقابل خمسة ؛ (٥) يكون للمندوب السامي سلطة على القرارات الصادرة عن مجلس الدولة »[٧٣] .

وفي محاولة اخيرة لمعالجة الوضع ، اعلن ولسن في ١٢ تموز / يوليو : « ان (حكومة صاحب الجلالة) قد خولت المندوب المدني بالوكالة سلطة دعوة الممثلين الرئيسيين للمناطق المختلفة الى التعاون مع الادارة المدنية في صوغ مقترحات يتم بموجبها انتخاب الجمعية العامة في الوقت المناسب ، وفي وضع الترتيبات الضرورية بالنسبة للمناطق الانتخابية ، تمهيداً لتسجيل الناخبين والامور الاخرى الممهدة لانتخاب الجمعية العامة . وبقدر ما يتعلق بالافراد العراقيين الذين كانوا يمثلون العراق في مجالس الاعيان التركي او مجلس النواب التركي . . . فقد تمت دعوة كافة هؤلاء الاعيان والنواب السابقين من قبل المندوب المدني للغرض المبين اعلاه . . . »[٧٤] .

كانت اهداف ولسن واضحة ، وحسب تعبير غيرترود بيل ، « وجد المتطرفون ان البساط قد سحب من تحت اقدامهم بتشكيل حزب دستوري معتدل حول هيئة النواب السابقين ، ولم تبق لديهم اية ورقة لتوجيه نداء الى الغوغاء »[٧٥] .

والواقع ان خطوة ولسن خلقت بعض الانقسام في صفوف القادة العراقيين وقد وزعت الدعوة الى هذه (الهيئة) في ١٠ تموز / يوليو ونشرت في الصحافة المحلية في الثاني عشر منه . وقد عارضها الوطنيون (المتطرفون الجذريون) على الفور ، وطرح السويدي الحجج التالية :

« ١ - ان المندوبين السابقين قد انتخبوا لفترة عامين فقط ، وهذه الفترة قد انقضت منذ زمن طويل ، ولذلك لم يعد لديهم الآن اي مركز شرعي .

٢ - ان المندوبين السابقين كانوا جميعاً من الاتحاديين الذين ثبتت خيانتهم للبلاد .

٣ - ان بعضهم اتراك صرف ، مدفوعون بالنفوذ التركي .

٤ - ان النظام التركي لانتخاب النواب لا يزال معروضاً في المكتبات ويمكن اقتباسه من قبل الحكومة بمساعدة الوفد الوطني .

٥ - ان معظم هؤلاء النواب السابقين هم الآن موظفون حكوميون او موالون للحكومة ، وهم ليسوا موضع تأييد الشعب ، ولذلك لا يمكن ان ينتخبوا بدلاء مناسبين عن النواب الغائبين او المتوفين »[٧٦] .

وفضلاً عن ذلك ، فإنهم (انصار السويدي) دعوا بعض النواب السابقين (طالب

---

(٧٣) F.O. 371 / 5226 / E. 3982, «From Civil Commissioner, Baghdad, no. 5112, Dated 27 April 1920,».

(٧٤) Great Britain, House of Parliament, *Parliamentary Papers- Cmd.1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: His Majesty's Stationary Office [H.M.S.O.], 1920), p. 142.
العراق ، ١٢ / ٧ / ١٩٢٠ .

(٧٥) Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, vol. 2, p. 495, «Letter Dated 16 August 1920,».

(٧٦) F.O. 371 / 5078, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 29, Dated 17 July 1920,» paragraph 567.

والشاوي وفيضي وغيرهم) الى عقد اجتماع لغرض احباط محاولة ولسن . وقد جادل يوسف السويدي ومحمد الصدر بأن قبول هذه اللجنة هو خيانة لـ (الثورة المسلحة) التي كان الشعب العراقي يخوض غمارها . ورأى آخرون ان (مطالب الامة) لا يمكن تحقيقها الا عن طريق جمعية تشريعية منتخبة ، تستطيع لوحدها تحديد شكل الحكومة القادمة والتفاوض مع البريطانيين . وان غياب هذه الهيئة لا يمكن الا ان (يخدم التأجيلات البريطانية) . وقد اجتمع سليمان فيضي بأبو التمن وحسن رضا وعبد الله ثنيان وحذرهم من ان نجاح (الثورة المسلحة) لم يكن مضموناً ، وان فشلها سوف يؤدي الى اوخم العواقب . وجادل فيضي بأن (الهيئة) هي افضل فرصة للوطنيين لتوحيد صفوفهم ومجابهة البريطانيين بمطالبهم . وفي حالة رفض البريطانيين لهذه المطالب ، فإنهم سينفضحون وتصبح (الثورة) اكثر فعالية . الا ان الجانبين لم ينجحا في التوصل الى اتفاق(٧٧) . وقد عارض النقشبندي ايضاً ، في هذه المسألة ، سياسة السويدي في مقاطعة (الهيئة)(٧٨) .

عقدت (هيئة النواب السابقين) اجتماعها الاول في ٦ آب /اغسطس ١٩٢٠ . وقد حضره (١٧) من الوجهاء(٧٩) وانتخبوا طالب رئيساً ، واختاروا (١٩) عراقياً ليحلوا محل المتوفين والغائبين(٨٠) . وباستثناء القوميين (الصدر والسويدي وابو التمن) ، قبل الآخرون الدعوة وحضروا الاجتماع الثاني بـ (الهيئة)(٨١) .

اعتبر القوميون قيام هذه الهيئة تحدياً لـ (ارادة الامة التي انتخبتهم) وهددوا كل من يقبل عضويتها (بالموت) ، على حد زعم المخابرات البريطانية في العراق(٨٢) .

وتوجه القوميون الى الجماهير . فجرت (موالد) مفاجئة وتظاهرات ضخمة في بغداد. ومنذ اوائل تموز / يوليو ، كانت الثورة قد اجتاحت الفرات ، ووصلت بغداد انباء عن انتكاسات بريطانية خطيرة ، وانتخبت كربلاء والنجف والشامية والموصل مندوبيها . وقد ردت الادارة على (موالد) بغداد باعتقال وحجز عدة اشخاص وقتل شخص واحد واشارت تقارير المخابرات الى

---

(٧٧) سليمان فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات (بغداد : عبد الحميد سليمان ، ١٩٥٢) ، ص ٢٤٧ - ٢٥٧ .

(٧٨) F.O. 371/5078, Ibid., paragraph 566.

(٧٩) كان ابرزهم : فؤاد الدفتري ؛ مراد سليمان (شقيق حكمت وشوكت باشا ، زعيم الاتحاديين في العراق) ؛ الدكتور سامي سليمان ؛ الزهاوي ؛ ساسون حسقيل ، وطالب النقيب .

(٨٠) كان ابرزهم : السويدي ؛ الصدر ؛ ابو التمن ؛ داود النقيب ؛ مزاحم الباجه جي ، وناجي شوكت .

(٨١) فيضي ، في غمرة النضال : مذكرات ، ص ٢٥٤ .

(٨٢) F.O. 371/5081, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 33, Dated 14 August 1920,» paragraph 682.

كان هؤلاء الاعضاء هم : عبد الجبار الخياط ؛ عبد المجيد الشاوي ؛ الدفتري ، والنقيب .

وجود خطة وطنية تقضي بالسماح للعشائر بدخول بغداد ، و(احتلال واستخدام) مراكز الشرطة في الكاظمية[٨٣].

وعليه ، ففي ١١ آب / اغسطس امر المندوب المدني باعتقال السويدي ، والصدر ، وابو التمن ، والداود[٨٤] . ومنعت السلطة اقامة الموالد او اي شكل آخر من التجمعات السياسية[٨٥] . ومن بين الزعماء الخمسة لم يعتقل سوى الداود ، اما البقية فقد استطاعت الفرار عن طريق البيوت المجاورة بـ (التواطؤ مع اصحابها) . وفي دار السويدي جرى تبادل اطلاق النار و(جرت عدة اعتقالات)[٨٦] ، و« حكمت المحكمة العسكرية على ستة من المعتقلين بالاعدام »[٨٧] . وشنق مجيد كنة ، وهو عضو مؤسس في (الحرس)[٨٨] ، في ٢٥ ايلول / سبتمبر . وفي الاسبوع التالي كان معظم مندوبي بغداد والزعماء الوطنيين قد اعتقلوا او نفوا ، او فروا الى منطقة الفرات[٨٩] ، وقد كانت تلك ضربة جدية الى الحركة ، الا انها لم تكن قاتلة .

إن هذه الموالد قد هيئت ونظمت لاغراض سياسية ، اي لتعزيز الوحدة الوطنية وتحريض الجمهور على المطالبة بالاستقلال . ومنذ اوائل ايار / مايو وحتى اواسط آب / اغسطس كانت تعقد بانتظام مساء كل يوم . وقد نظمها (الحرس) الذين شخصت السلطات من بينهم اربعة منظمين بارزين : ابو التمن ، والداود ،وآل بارزكان، والبصير ، الا ان عدداً كبيراً من ابناء الطائفتين على السواء كانوا يحضرونها . وفي مناسبات عديدة كانت تنتهي بمصادمات عنيفة مع الشرطة ، وقد جرت عدة اعتقالات وورد تقرير عن مقتل شخص واحد . وكانت الموالد تقام ايضاً في الموصل ، كما كانت التعازي تقام في كربلاء والنجف . وفي كل اجتماع كانت ترفع شعارات مناوئة للانتداب و (هيئة النواب السابقين) بعد تشكيلها ، وكذلك هتافات بحياة عبدالله ، والشيرازي ، والاستقلال العربي التام[٩٠].

وكان عيسى عبدالقادر ، وهو مستخدم في الادارة ، اول المعتقلين ، بسبب قصيدة

---

(٨٣) المصدر نفسه ، الفقرة ٦٨١ .

(٨٤) المصدر نفسه ، الفقرة ٦٧٨ .

(٨٥) العراق ، ١٣ / ٨ / ١٩٢٠ .

(٨٦) F.O. 371/5081, Ibid., paragraph 678.

(٨٧) العراق ، ٢١ / ٨ / ١٩٢٠ ، وقد اعدموا رمياً بالرصاص في ١٧ آب / اغسطس .

(٨٨) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٥٧ .

(٨٩) كان من بين المعتقلين : عارف السويدي ؛ الخليل (مندوب) ؛ نوري فتاح ؛ الجادرجي ؛الدفتري ونجله محمود؛ جلال بابان ، وغيرهم . انظر :
F O. 371/5080, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 36,Dated 28 August 1920,» paragraph 698.

(٩٠) F.O. 371/5076/5081, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 20, Dated 15 May to no. 33, Dated 21 August 1920,».

(تحريضية) نوّه فيها بأن العراقيين قد تعرضوا للذل بسبب انقسامهم دون مبرر الى طوائف دينية ، ودعا فيها الى الوحدة[٩١] :

تفرقنا طوائف واختلفنا	فاصبحنا جميعاً صاغرينا
لنا ابناء دجلة غير عرب	كأبناء الفرات موحدينا
لكل قائل ويقول : ما من	اله غير رب العالمينا

وقد دعا الجواهري الى وحدة المسلمين والمسيحيين من اجل احياء مجد العرب[٩٢] .

وقد خبروني ان في الشرق وحدة	كنائسه تدعو فتبكي الجوامع
وقد خبروني ان للعرب نهضة	بشائر قد لاحت لها وطلائع

وقد كانت قصائد البصير في (الموالد) تعبيراً متجدداً عن (حيرة) المثقفين العرب . ففي الثلاثين من ايار / مايو ، حيا (العلم) الذي اعلى شأن الغرب وبإمكانه ان يبعث مجد الشرق . وفي لهجة حزينة ، عبر عن خيبة امله في الغرب الذي (تنكر) لحضارته ومبادئه وكشف عن جوهره القائم على الظلم . واعلن البصير ان الهدف من (الموالد) هو تحريض الشعب على النهوض[٩٣] .

يا علم عش واعش فعصرك راق	لتعيد شمس الشرق للاشراق
فيأت اهل الغرب ظل حضارة	ضربت على العيون اي رواق
لكنهم كفروا بنعمتك التي	جلّت فلجوا في عمى وشقاق
علمتهم ان ينقذوا ويحرروا	لكنهم جبلوا على استرقاق
خطب تهز الشعب هاتفة به	ليهب هبة ناهضٍ سباق

واتهم البصير الغرب بالجحود لانه اكتسب (فضائله) الحضارية من العرب الا انه لم (يحررهم)[٩٤] .

لو انصفوك لحرروك لانهم	ربحوا فضيلتهم بظل لواكا

٤ ـ الروابط السياسية والتنظيمية بين القوميين والزعماء الدينيين والعشائريين في الفرات الاوسط[٩٥]

خلال ما يقارب عقداً من السنين ، اصبح القوميون العراقيون ـ من المدن الكبيرة ـ يدركون

---

(٩١) محمد علي كمال الدين ، ثورة العشرين في ذكراها الخمسين : معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ ، منشورات دار البيان ، ٥٢ (النجف : مطبعة التضامن ، ١٩٧١) ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .

(٩٢) الجواهري ، ديوان الجواهري (صيدا : ١٩٦٧) ، ج٢ ، ص ١٨٩ .

(٩٣) كمال الدين ، المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ .

(٩٤) رفائيل بطي ، الادب العصري في العراق العربي، ٢ج (القاهرة : ١٩٢٣) ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٩٥) اعتمدنا في هذه الفقرة الى حد كبير على مؤلفات البصير وآل فرعون والحسني والياسري ، المدرجة في لائحة المراجع .

بالتدريج ضرورة توثيق الصلة بالعشائر العراقية ، في حين ان الظروف الاجتماعية ـ السياسية والانتشار النسبي للتعليم جعـلا زعماء العشائر يدركون ان مشاكلهم الزراعية قد اصبحت جزءاً من الحياة السياسية الوطنية العامة ، وقد ظهرت اولى بوادر التنسيق خلال ١٩١٠ ـ ١٩١٤ ، عندما اقام طالب النقيب اتصالات مع بعض زعماء الفرات الاوسط . وقد اعتبر الشيخ كاطع العوادي والمعلم سعيد كمال الدين ان حركة ١٩٢٠ كانت استمراراً للحركة التي بدأها طالب وجادل هبة الدين الشهرستاني بأن (الحركة) بدأت بالمطالبة بحكم دستوري في ايران وتركيا . و« عندما بدأ الاتراك باضطهاد العرب ، كان علينا ان ندافع عن الحقوق العربية »[٩٦] . وفي ١٩١٤ ، اتصل شيوخ الشامية بالشريف حسين واعربوا عن رغبتهم في قيام دولة عربية مستقلة[٩٧] . وكانت الفترة ما بين ١٩١٤ و١٩١٨ تتسم بالاضطراب . وبعد ذلك التاريخ، بسط البريطانيون حكمهم المباشر على المنطقة كلها وشرعوا بتطبيق سياستهم الخاصة بالضرائب وتسوية الاراضي وقد ساعدت هذه السياسة على انتشار السخط وجددت النزعة الى الارتباط بالقوميين . وفي اوائل ١٩١٩ كشف الاستفتاء عن وجود مشاعر قومية بين عشائر الرميثة ،والسماوة، والكوفة ، والشامية ، والنجف . وفي شباط / فبراير ١٩١٩ ، تشكل (الحرس) في بغداد ، واستطاع بجهود اعضائه المتحدرين من الفرات الاوسط ، اقامة خلايا سياسية في كافة مدن المنطقة تقريباً . وكانت هذه الخلايا تضم شباباً اذكياء ومخلصين ، وكان لبعضهم نفوذ اجتماعي . والظاهر ان هذه المنطقة كانت مرتعاً خصباً للشعراء : فقد قام عبد المطلب الحلي بتنظيم اتصالات عشائرية لمصلحة طالب النقيب ، قبل الحرب ، وبعد ذلك ، قامت الموجة القومية الجديدة بقيادة الاخوين الشبيبيين ، والبصير ، وابو المحاسن ، والنجفي ، وسعد صالح ، وباقر الحلي . واستطاع (الحرس) ايضاً كسب التأييد المباشر لبعض زعماء العشائر (العوادي والعواد) وبعض السادة ذوي النفوذ مثل الزوين .

وقد اتصل بحر العلوم ببغداد في اواسط ١٩١٨ واوضح الوضع للصدر والخالصي وابو التمن . وتم الاتفاق على ان انتقال الشيرازي الى كربلاء سيكون ذا فائدة كبيرة ، وهذا ما تم فعلاً . ان وصول الشيرازي ورضا امدّ (الحركة) بسند قوي . الا ان نفوذ الشيرازي اضعف الطابع (القومي) للحركة واكسبها سمات (دينية) . واتفق القوميون والاسلاميون على برنامج مشترك يمكن تلخيصه في « استقلال العراق التام ، في ظل ملك دستوري من انجال حسين » . وقد اتاح هذا المنبر المشترك قيام الوحدة الى درجة طمست الخط الفاصل ، كما كان الامر في كربلاء مثلاً . ولكن يجدر القول بأن (الاسلاميين) كانوا قد قبلوا فعلياً بشعارات واهداف القوميين العرب .

وفي كانون الثاني / يناير ـ شباط / فبراير ١٩٢٠ ، استقال جميع اعضاء مجلس الشامية ـ النجف من مناصبهم واوضحوا بجلاء انهم يريدون قراراً نهائياً باستقلال العراق . وفي الوقت

---

(٩٦) فريق المزهر آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها (بغداد : مطبعة النجاح ، ١٩٥٢) ، ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨ ، ٥٦٧ ـ ٥٦٨ و ٥٥٣ ـ ٥٥٤ ، رسائل من العوادي وكمال الدين والشهرستاني .

(٩٧) C.O. 696/1, «Administration Reports of Shamiya and Najaf, 1918,» p.67.

نفسه قدم عبد الغني كبه وابو التمن استقالتيهما من مجلس بغداد. وقد سجل ذلك تقدماً بعد الاستفتاء نحو توحيد التكتيكات السياسية لمختلف اجزاء الحركة . وكشفت الاستقالة الجماعية عن ان الحركة الوطنية كانت تضم عدداً كبيراً من زعماء المنطقة .

وفي ١٩٢٠ ، اعلن المؤتمر العراقي في دمشق ، استقلال العراق . ووقع (معظم) زعماء المنطقة على عدد كبير من المضابط في تأييد اعلان دمشق . وارسلت المضابط الى الحجاز وسوريا في نيسان / ابريل ١٩٢٠ .

وفي الاول من شعبان ١٣٣٨ (٢٠ نيسان / ابريل ١٩٢٠) عقد اجتماع واسع جداً في النجف . وكان يضم بحر العلوم ، والجزائري ، والجواهر (من المجتهدين) ، والعوادي ، وعبد الواحد الحاج سكر ، ومحمد عبطان ، وعلوان الحاج سعدون ، والعواد ، وشعلان ابو الجون ، وسلمان الظاهر ، ولفتة شمخي ، ووداي العطية ، ومجبل الفرعون (من شيوخ العشائر) والسيد نور الياسري ، والمكوطر ، وزوين ، وابو طبيخ ، وعلوان الياسري (من السادة) ، وشلاش (من النجف) [٩٨] . وقرر المجتمعون ارسال زوين وشلاش لبحث الوضع السياسي في بغداد ، وفي٢٢ نيسان/ابريل، عقد اجتماع واسع في بغداد، وقد حضره، بالاضافة الى مندوبي الفرات، السويدي ، والصدر ، والنقشبندي ،وآل بازركان، وابو التمن ، ورفعت الجادرجي ، والداود ، والنائب ، والدفتري ، وباقر الشبيبي ، وبابان ، وصادق حبة ، وصادق الشهربلي[٩٩] . وقد وافق المجتمعون على تنسيق جهودهم وتشديد فعالياتهم . وقرر وطنيو بغداد ارسال ابو التمن لدراسة الوضع على الفرات . ووصل الاخير في اليوم الاول من ايار / مايو وعقد اجتماعاً مع زعماء الفرات المذكورين آنفاً ، وآخرين بضمنهم شعلان ابو الجون وغثيث الحرجان .

وفي الثالث من ايار / مايو ، عقد ابو التمن ، بصحبة عدد من زعماء الشامية والنجف والرميثة (اجتماعاً سرياً للغاية) في كربلاء ، ترأسه الشيرازي بنفسه . وقد ابلغوه باهدافهم المشتركة وخططهم المستقبلية . فبارك الشيرازي تحالفهم واهدافهم ، الا انه اصر على انتهاج الطرق السلمية ، فأكدوا له انهم ينوون ذلك ، ولكنهم اشاروا الى ان (الثورة) قد تصبح امراً لا مفر منه فلم يرغب في مسايرتهم : « ان الانكليز اقوياء ، وارواح العراقيين غالية ، والقانون والنظام مهمان » . فأكد له الزعماء وحدتهم وطاقتهم ، وقدرتهم على المحافظة على النظام . وازاء هذا الاصرار ، اجاب : « اذا كانت هذه نواياكم ووعودكم ، فليكن الله معكم »[١٠٠] . وكان هذا الاجتماع ذا اهمية بالغة ، لقد كان بمثابة التصديق الرسمي على التحالف القومي ـ الديني ـ العشائري . ولغرض تقوية الصلات التنظيمية ، عين باقر الشبيبي مراسلاً بين الشيرازي و (بغداد) ، ورحوم

---

(٩٨) من الآن فصاعداً سأشير الى هؤلاء باعتبارهم زعماء الفرات .

(٩٩) من الآن فصاعداً سأشير الى هؤلاء باعتبارهم القوميين .

(١٠٠) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٩٥ ـ ٩٧ . مثلت في هذا الاجتماع عدة فئات وهي : القوميون من بغداد وكربلاء ، وسادة النجف وكربلاء ومجتهدوها ، وشيوخ العشائر من بني حسن ، وفتلة ، والرميثة ، والسماوه .

الدليمي (من الشيوخ) كحلقة وصل بين الشيرازي والرميثة (ابو الجون والحرجان) .

وفي التاسع من ايار / مايو عقد اجتماع واسع للقوميين في بغداد ، قدم فيه ابو التمن تقريراً عن نتائج زيارته وطمأن الوطنيين بخصوص التأييد الديني ـ العشائري وقرر الاجتماع تشديد النشاط التحريضي واقامة (الموالد)، وقد حضر هذه الموالد بعض زعماء الفرات(١٠١) . وبعد ذلك بوقت قصير ، جرت تجمعات مماثلة في كربلاء والحلة والنجف والموصل . وفي ٢٦ ايار / مايو اقيم مولد كبير في (الحيدرخانة) ، (انتخب) فيه ١٥ مندوباً لتمثيل بغداد والكاظمية . وارسل ابو التمن ، بالنيابة عن المندوبين ، رسالة الى الشيرازي ، يبلغه فيها بالتطورات الاخيرة ويطلب منه ابداء مساندته على نطاق واسع ، وقد جاهر الشيرازي بتأييده للمندوبين وكتب عدة رسائل الى شيوخ العشائر : « إن اخوتكم المسلمين في بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء . . . قد اتفقوا واتحدوا ونظموا مظاهرات سلمية يطالبون فيها بحقوقهم الشرعية فيما يخص استقلال العراق . . . ان من واجب كل مسلم في الوقت الحاضر الاتحاد . . . وينبغي على كل قضاء وكل منطقة ارسال مطالبها الى بغداد »(١٠٢) .

وكان التأييد هذا له تأثير عميق ، ففي الرابع من حزيران / يونيو ، (انتخبت) كربلاء مندوبيها ، وهم : عبد الحسين (الشيرازي) ، ومحمد الخالصي ، ومحمد علي بحر العلوم ، وصدر الدين المازندراني (مجتهد) ، وعبد الوهاب الوهب ، ومحسن ابو المحاسن (من الحرس) ، وعمر الحاج علوان (شيخ) وكانت المضبطة موقعة من (٩٥) شخصاً ، من ضمنهم الشيرازي (مؤرخة في ١٦ رمضان ١٣٣٨ ، ٤ حزيران / يونيو ١٩٢٠)(١٠٣) . وقد كلفت مضبطتا كربلاء والنجف المندوبين « بتمثيلنا امام حكومة الاحتلال . . . للمطالبة باستقلال العراق بدون اي تدخل اجنبي . . . وتشكيل دولة عربية يتزعمها ملك دستوري مسلم وعربي » .

واجتمع مندوبو النجف في الثامن من حزيران / يونيو ووضعوا مسودة مذكرة الى المندوب المدني ، وقد طالبوا فيها مقابلته لبحث مطاليب « كافة سكان النجف والشامية » .

« اولاً : تشكيل جمعية عراقية ، ينتخبها الشعب ، وتجتمع في بغداد بمهمة تأليف حكومة عربية ، مستقلة تماماً عن اي نفوذ اجنبي ويرأسها ملك عربي ومسلم .

ثانياً : رفع كافة القيود على اتصال الشعب العربي العراقي بالامم الاخرى .

ثالثاً : حرية الصحافة والاجتماعات والاحزاب في كافة انحاء العراق »(١٠٤) .

---

(١٠١) F.O. 371/5076, «M.P., A.I. no. 21, 22 May 1920,» paragraph 386.

(١٠٢) F.O. 371/5229/E. 10430.
صورة من الرسالة المرسلة الى الحاج مخيف والمؤرخة في ١٠ رمضان (٢٩ ايار / مايو) .

(١٠٣) اوراق الشيخ محمد الخالصي . صورة من المضبطة .

(١٠٤) آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها، ص ١١١ ـ ١١٥ . قارن ذلك بمطاليب بغداد .

وقد وقع المذكرة ستة مندوبين . وفي كربلاء ارسلت مضبطة مماثلة الى المندوب المدني عن طريق الحاكم السياسي[١٠٥] .

وسافر رحوم الدليمي على الفور الى الرميثة والتقى بزعماء عشائرها ، وابرزهم الجون والحرجان ، واطلعهم على قرار مندوبي النجف وكربلاء . وسلمهم رسالة الشيرازي الآنفة الذكر ، والتي تدعو العراقيين الى انتخاب ممثليهم . واتخذ زعماء الرميثة خطوة مهمة ، فقد كتبوا مضبطة الى المندوبين الستة للنجف والشامية يرجونهم فيها تمثيل الرميثة كذلك : « نحن الموقعين ادناه ، زعماء الرميثة ورؤساء عشائرها وممثلي رأيها العام . . . كلفناكم بأن تنوبوا عنا امام حكومة الاحتلال ، في المطالبة بتحقيق الاستقلال المطلق للبلاد و(رفض) اي شكل من اشكال التدخل الاجنبي . . . ونحن مستعدون لمؤازرتكم بكل الطرق الممكنة . . . »[١٠٦] .

واغلب الظن ان ولسن اعتبر الاجابة عن هذه المضابط بمثابة اعتراف رسمي خطر ، ولذلك لم يرد عليها . وخلال الفترة ما بين الثامن من حزيران والثلاثين منه اصر مندوبو النجف والشامية وكربلاء على مقابلة المندوب المدني ، ولكن دون جدوى . وفي النجف والشامية ، التقى الحاكم السياسي بالمندوبين عدة مرات ولكنه اخبرهم انه « ليس من صلاحيته بحث مثل هذه المواضيع الهامة »[١٠٧] .

وفي ٢٠ حزيران / يونيو حصل تجمع كبير في الحلة استعداداً لـ(انتخاب) مندوبيها . وارسل معاون الحاكم السياسي نائبه ، خيري الهنداوي ، ليأمر المجتمعين بالتفرق .. الا ان الهنداوي ، حال وصوله ، اثار مشاعر الجمهور بتلاوة بعض اشعاره الوطنية الحماسية ، ودعا الى وحدة المسلمين والمسيحيين واليهود . وابلغ الجمهور ان البريطانيين قد نكثوا بوعودهم . وذكر الهنداوي ان (العنف) وحده هو الذي يمكن ان يحقق الاستقلال ويأتي بـ (ابن الحسين) الى العراق . ودعا الهنداوي علانية الى وحدة المسلمين والمسيحيين واليهود[١٠٨] .

وبدأ صبر السلطات ينفد ازاء استمرار التظاهرات والموالد والهجمات العلنية على الحكومة . وفي ٢١ حزيران / يونيو اعتقل الهنداوي ورؤوف الامين (زعيم الحرس) في الحلة وأُبعدا الى

---

(١٠٥) النسخة الاصلية في مكتبة سعيد كمال الدين في كربلاء .

(١٠٦) النسخة الاصلية في مكتبة حسن شعبان في النجف .

(١٠٧) اورد آل فرعون عرضاً تفصيلياً لهذه المفاوضات غير المجدية في : المصدر نفسه ، ص ١ ـ ١٧ و١٦٦ ـ ١٧١ .

(١٠٨) علي الخاقاني ، شعراء الغـرى او النجفيات ، ١٢ ج (النجف : ١٩٥٥) ، ج ٧ ، ص ١٧٣ ـ ١٩٣ .

وقل القوم اخلفوا الوعد والعهـ	ـد فهبي وحلقي تحليقا
وامطريهم عزماً وبأساً شديدا	والدليهم رأيا وفكرا سديدا
قبلي قبلة السواد الحا هو	د جهارا وعانقي البطريقا
ليت شعري هل يبصر الناس يوما	علم « ابن الحسين » فيها خفوقا

هنجام . . . وفي اليوم التالي ، وصلت القوات الى كربلاء واوضح حاكمها السياسي للشيرازي انه عازم على اعادة القانون والنظام واعتقال كافة (الانذال) وقد رد الشيرازي برسالة احتج فيها على كون الحاكم السياسي قد رفض، في عدة مناسبات ، زيارته ومقابلة مندوبي كربلاء . ومع ذلك ، جدد الشيرازي دعوته للحاكم السياسي ، وحذره من انه اذا استخدم القوة ضد (مطاليب البلاد) ، فإنه « هو وامثاله سيتحملون مسؤولية اراقة الدماء »(١٠٩) .

وبدلاً من قبول (الدعوة) ، امر الحاكم السياسي باعتقال ١٢ شخصاً من كربلاء بمن فيهم رضا الشيرازي والشهرستاني ، وبحر العلوم ، وعمر علوان . وتم ابعادهم جميعاً باستثناء الشهرستاني بسبب مرضه . واثار اعتقال وابعاد رضا والآخرين عاصفة من الاحتجاج السياسي ، فعقدت الاجتماعات ، ورفعت العرائض ، واستمرت التظاهرات بشكل اقوى من السابق ، وارسل زعماء الشامية طلباً (مؤرخاً في ٢٨ حزيران / يونيو) الى الحاكم السياسي باطلاق سراح رضا واخوته فوراً « لئلا يتخلى الناس عن مطاليبهم السلمية الى غيرها »(١١٠) . وكتب زعماء كربلاء الى الشيرازي يطيبون خاطره ويطلبون تعليماته(١١١) .

وفي ٢٩ حزيران / يونيو ، ارسل زعماء الشامية والنجف رسالة مهمة الى مندوبي بغداد . وقد ابلغوهم فيها بأنباء الاعتقالات وبأن السلطات كانت تستخدم القوة ضد اناس مسالمين يطالبون بالاستقلال . اعترفت الرسالة بمندوبي بغداد (كنواب وممثلين عن الامة) . والمحت الرسالة الى ان العنف هو الاسلوب الوحيد لتحقيق استقلال العراق(١١٢) .

وارسل الزعماء انفسهم رسالة مماثلة الى شيوخ عشائر الرميثة يبلغونهم فيها باعتقال رضا ويطلبون تضامنهم في (حملة سلمية) لإطلاق سراحه وتحقيق استقلال العراق . وفي حالة فشل هذه الحملة ، فإن « السيف اصدق انباء من الكتب »(١١٣) . وفي اليوم نفسه ، امر الميجر دالي في الديوانية باعتقال ابو الجون ، وتم ذلك على يد اللفتانت هايات . وعند تلقي هذه الانباء ، قاد غثيث الحرجان من جماعة آل ظوالم من بني حجيم وحرر ابو الجون بالقوة وهكذا بدأت الثورة في الفرات الاوسط .

---

(١٠٩) محمد علي كمال الدين ، الثورة العراقية الكبرى (بغداد : ١٩٧١) ، ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(١١٠) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ١١٠ .

(١١١) آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ١٧٤ . كانت الرسالة موقعة من قبل سعيد وحسين كمال الدين ، الشبيبي ، الصافي ، وسعد صالح .

(١١٢) علي آل بازركان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية : رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما ألصق بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء (بغداد : مطبعة اللواء ، ١٩٥٤) ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(١١٣) آل فرعون ، المصدر نفسه ، ص ١٨١ - ١٨٣ .

ثانياً : طابع الثورة وسماتها

إن الاحداث الفعلية للثورة ، وتفاصيلها العسكرية ، والاحداث السياسية التي صاحبتها ، قد جرى بحثها في عدد كبير من الابحاث والكتابات . الا ان طابع الثورة لا يزال مسألة مفتوحة وبؤرة للاهتمام الفكري والتاريخي . ولذلك فإني سأقدم سرداً موجزاً لاحداث الثورة ، مع التأكيد على النقاط التي من شأنها ان تساعد على ايضاح طبيعتها بشكل اكمل ، وبعد ذلك ، سأقوم بتلخيص آرء عدة كتّاب حول الثورة ، وسوف انهي البحث برأيي الخاص في طبيعتها .

١ ـ خلاصة لاحداث الثورة

كان اعتقال شعلان ابو الجون ثم اطلاق سراحه بالقوة هو القشة التي قصمت ظهر الجمل . وقد قيل ان هذا الاعتقال كان نتيجة لخلاف حول قرض زراعي[١١٤] . الا انه ثمة شواهد رسمية تشير الى ان هذا الاجراء كان مدفوعاً بعوامل سياسية . فلقد كتب الحاكم السياسي البريطاني :

« في الثاني من تموز / يوليو ، قامت العشائر المقيمة قرب الرميثة ، والتي كانت منذ بعض الوقت هدفاً لنشاط عناصر من النجف ، تحرضها على العصيان ، قامت بمهاجمة مبنى الحكومة في الرميثة ، وقتلت حارساً عربياً ، واطلقت بالقوة سراح احد الشيوخ ، الذي كان قد سجن بموافقتي في اليوم السابق لتحريضه الناس على العصيان »[١١٥] .

وقد قبل تشرشل هذا الرأي تماماً وطرحه كايضاح رسمي امام مجلس العموم ، واضاف ان « الثورة تبدو ذات طابع محلي »[١١٦] .

كان الهدف من الهجوم الاول للظوالم على الرميثة هو تحرير شيخهم . الا انهم بدأوا في اليوم التالي بمهاجمة السكة الحديدية حول السماوة والرميثة والخضر . وفي الاول والثاني والثالث من تموز / يوليو ، ارسلت قوات بريطانية اضافية ، الا انها لم تف بالغرض . وفي الرابع من تموز / يوليو حاصرت العشائر حامية الرميثة . وفي السابع من تموز / يوليو صدت العشائر بنجاح هجوماً بريطانياً كبيراً لفك الحصار عن الحامية وبذلك عزلت الحامية بصورة تامة واستطاعت العشائر قطع السكة الحديدية شمالي وجنوبي الرميثة . وبعد ذلك ، بأيام قلائل اعلنت عشائر السماوة الجهاد ، وهاجمت القطارات البريطانية ، وقطعت السكك الحديدية وحاصرت المدينة نفسها ، ولم يستطع البريطانيون فك الحصار الا في ١٤ تشرين الاول / اكتوبر .

---

(١١٤) Philip Willard Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (London: Jonathan Cape, 1937), p. 266.

(١١٥) F.O. 371/5227/E. 7826, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office-no. 8042, Dated 4 July 1920,».

(١١٦) Ibid., «-no. 8279, Dated 13 July 1920, Reply to Mr. Ormsby-Gore,».

ويبدو واضحاً ان شرارة الثورة كانت : (أ) مدفوعة بعوامل سياسية ؛ (ب) ليست محلية تماماً . وفضلاً عن ذلك ، فإنها نشبت قبل صدور اي فتوى . وكان شيوخ الشامية والنجف لا يزالون يبحثون الوضع عندما وصلتهم انباء الرميثة والسماوة، وقد انقسمت آراؤهم ، وكانوا مترددين . واقترح اهم شيوخ الخزاعل (سلمان ومحمد العبطان)(١١٧) وفتلة (مزهر الفرعون) وبني حسن (علوان الحاج سعدون) اجراء المزيد من المفاوضات مع البريطانيين . اما الشيوخ (الاقل شأنا من الناحية الطبقية) مثل سكر (فتلة) ، وعمران الحاج سعدون (بني حسن) وشيوخ الفروع العشائرية الصغيرة مثل عواد (خفاجة وفتلة) والغازي (الجراح وحسن) والعطية (الحميدات وفتلة) ، والسماوي (خفاجة وفتلة) وجلوب (فتلة آل هندية) فقد دعوا الى عمل سريع وعنيف . وكان السادة بشكل عام ، ذوي نزعة جهادية ، لاسيما المكوطر ، ونور ، وزوين . وقد مارسوا ضغطاً قوياً على عشائر الشامية والنجف(١١٨) . وكان رجال الدين مترددين ومضطربين ايضاً . ففي ٢٥ حزيران / يونيو ابرق الاصفهاني الى ولسن محتجاً على الاعتقال ومؤكداً له ان الحركة سلمية . الا ان الاصفهاني نوه بأن عمل الحكومة سيزيد الوضع سوءاً وطلب من ولسن التدخل وتهدئة الوضع(١١٩) . وحسب رواية الكتاب العراقيين ، كان جواب ولسن يعكس شخصيته تماماً ، اي كان رقيقاً الا انه ذو طابع ابوي واستعماري مفرط، وقد وصف العراقيين بأنهم يفتقرون الى الثقافة ويتأثرون بالمشورة السيئة كما دافع عن الاعتقال ولم يعط اي وعد بشأنه(١٢٠) . وفي الثامن من تموز / يوليو ، كتب الاصفهاني رسالتين ، وكانت الاولى موجهة الى زعماء الشامية والرميثة . وقد ذكر فيها بصراحة ان المصادمات « تتنافى مع المصلحة العامة » وطلب منهم «وقف الاعمال الحربية واتباع الطرق السلمية»(١٢١). وكانت رسالته الثانية موجهة الى ولسن، وقد اكد فيها على الصداقة مع (الحكومة العظمى) الا انه دافع عن زعماء الرميثة وكربلاء وطلب الى ولسن ، للمرة الثانية ، تخفيف اجراءاته(١٢٢) .

وكلف الشيرازي الشهرستاني والخراساني بالذهاب الى بغداد لايضاح طابع الحركة السلمي لولسن وحثه على المزيد من الاعتدال ، الا انهما لم يتمكنا من مقابلة ولسن وعادا الى كربلاء(١٢٣) .

---

(١١٧) في الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر ، استسلم هؤلاء للحكومة وصدر عفو عام عنهم واطلق سراحهم . انظر : العراق ، ٦ / ١١ / ١٩٢٠ . اما سكر فقد وصفته الادارة بأنه « زعيم القوات المتمردة » ، انظر : العراق ، ٩ / ١١ / ١٩٢٠ .

(١١٨) استطعت الحصول على هذه المعلومات من قراءة « دقيقة » لكتاب : آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ولنتائجها ، ص ٢٠٥ - ٢٠٧ و٢٦٦ - ٢٧٣ ؛ الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ١١٣ و ١٤٣ - ١٥٢ ، وعبد الشهيد الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ١٩٢٠ (النجف : ١٩٦٧) ، ص ١٨٦ - ١٩٣ ؛ ١٩٦ - ٢٠٠ ، ٢٠٨ و٢١٨ - ٢١٩ .

(١١٩) الحسني ، المصدر نفسه ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(١٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ - ١٠٨ . كانت الرسالة مؤرخة في ٢ تموز / يوليو .

(١٢١) صورة منها في مكتبة حسن شعبان (النجف) ، مؤرخة في ٢١ شوال ١٣٣٨هـ .

(١٢٢) الحسني ، المصدر نفسه ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(١٢٣) المصدر نفسه ، ص ١١٦، رسالة من الشهرستاني الى الحسين .

واصدر الشيرازي فتوى سمح فيها للعراقيين باستعمال (القوة الدفاعية) ضد الحكومة[١٢٤] ، واعرب عن غضبه ازاء تردد عشائر الشامية في الدفاع عن عشائر الرميثة[١٢٥] . وفي حلول العاشر من تموز / يوليو ، كان المزيد من صغار العشائر والشيوخ يقومون بعمليات عسكرية ضد الادارة ، وفي كثير من العشائر جرت مصادمات حول هذه المسألة واتخذت في بعض الاحيان طابعاً عنيفاً . فمثلاً ، استولى عبد الواحد سكر وعمران الحاج سعدون على زعامة آل فتلة وبني حسن على التناظر ، وقام سعدون الرسن وكاطع العوادي بقتل الشيخ المسيطر علوان الجوحلي ، الموالي لبريطانيا ، واستوليا على زعامة عشائر عفك والدغارة ، وفي الحلة جرت مصادمات عديدة بين فروع مختلفة لعشيرة واحدة او اتحاد واحد ، للسبب نفسه[١٢٦] .

وفي السابع من تموز / يوليو عقد اجتماع في مضيف مرزوق العواد ، وحضره السيد نور الياسري وعلوان الياسري ، ومحسن ابو طبيخ ، وعبد الواحد سكر ، ومجبل الفرعون (فتلة) ، وعلوان الحاج سعدون (بني حسن) ، وسلمان الظاهر ، ومحمد العبطان (الخزاعل) ، وكان يمثل البريطانيين الكابتن مان في الشامية . وقد عرضوا عليه مطاليبهم وهي : الاستقلال التام للعراق ، وانهاء القتال حول الرميثة ، واجلاء كافة الضباط العسكريين والحكام السياسيين البريطانيين عن الفرات ، واطلاق سراح كافة المعتقلين في الحلة وكربلاء[١٢٧] .

وفي ١١ تموز / يوليو اعلن الجهاد في المشخاب . وتحرك (بني) حسن ، بقيادة عمران ، نحو الكوفة ، كما قام فتلة الشامية بمهاجمة الكفل وبدأوا بالتحرك نحو الحلة[١٢٨] . وشهد الجزء الاخير من تموز / يوليو اعنف العمليات الحربية ، وقد مني فيها البريطانيون بنكسات كبيرة . وفي ١٨ تموز / يوليو ، وفي منطقة تعرف بالعارضيات ، اشتبكت العشائر ، بزعامة ابو الجون ، بالقوات المتقدمة . وبعد قتال عنيف. وخسائر كبيرة من الطرفين، تم احتلال الرميثة في ٢٠ تموز / يوليو[١٢٩]. الا ان المقاومة العشائرية كانت من الشدة بحيث قرر البريطانيون اخلاء المدينة في اليوم

---

(١٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، من المهم ان نلاحظ انه لم يؤ يد هذه الفتوى اي مجتهد معروف في النجف او كربلاء .

(١٢٥) الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ، ١٩٢٠ ، ص ١٩٣ .

(١٢٦) مثلاً ، تزعم شخير الهيمص انقلاباً داخلياً في عشيرة ابو سلطان ضد الشيخ الاخير ، عداي الجريان ، انظر : آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٥ . كما قامت الفروع الصغيرة من فتلة ، مثل ابراهيم ، والبوجاسم ، والبوموسى ، وكريت ، وطفيل ، وخفاجة بانتزاع السيطرة من الخزاعل ، انظر : الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ١٤٨ ـ ١٥٢ . وجرت اعمال مماثلة في عفك ، انظر : ال فرعون ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(١٢٧) الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ، ١٩٢٠ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٦ ، والحسني ، المصدر نفسه ، ص ١١٥ـ١١٧ .

(١٢٨) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(١٢٩) العراق ، ٢٣ / ٧ / ١٩٢٠ .

التالي لاحتلالها . وكان انسحابهم صعباً جداً بسبب الغارات المستمرة للعشائر(١٣٠) .

وقد اوضح المندوب المدني سبب اصراره على ارسال الارتال الى تلك المنطقة : « لقد منيت القوات في الرميثة بخسائر فادحة ، كما ان المفرزة التي ارسلت لنجدتها قد اصيبت هي الاخرى بخسائر جسيمة . . ان الوضع في تقسيم الشامية دقيق وثمة خطر من فقدان السيطرة على الفرات الاوسط ما لم يتم تحقيق نجاح محسوس في الرميثة »(١٣١) .

وجاء في مذكرة للميجر يونغ : « إن هذه البرقية يجب ان تقرأ بالارتباط مع برقية بغداد المرقمة ٧٨٢٥ والمؤرخة في ٢٨ حزيران / يونيو ، والتي ذكر فيها أ . ولسن ان الواردات تصل بانتظام والوضع قد عاد الى طبيعته تقريباً في الفرات الاوسط . وقد اخبرني الكولونيل كوردون وذكر ان اضطرابات الرميثة بدأت بصورة كلية نتيجة رفض العناصر الثائرة دفع الواردات في ذلك القضاء »(١٣٢) .

وفي ٢٣ تموز / يوليو ارسل البريطانيون رتلاً كبيراً وقوياً لاعادة احتلال الكفل . وتحركت القوة من الحلة وجابهتها العشائر الثائرة في منطقة تدعى الرستمية . وكانت هذه العشائر تتألف من فتلة الهندية (جلوب) ، والجبور ، والبوسلطان (وكلاهما بقيادة الهيمص) ، والعوابد (العواد) . وحققت العشائر التي كان يتزعمها سكر (نجاحاً كبيراً) ضد القوات البريطانية ، التي استطاع نصفها فقط العودة الى الحلة . واستناداً الى ولسن ، فإن الانسحاب « كلفنا ١٨٠ قتيلاً ، و٦٠ جريحاً ، وحوالى ١٦٠ اسيراً ، مع خسائر فادحة في وسائط النقل والحيوانات . ولم تكن معاملة الاسرى سيئة ، ولم يمت من الاسرى البريطانيين التسعة والسبعين سوى واحد في ايدي العرب »(١٣٣) . ان حسن معاملة العرب للاسرى قد اكده الجنرال هالدن نفسه في برقية الى وزارة الحربية(١٣٤) . وكتب هالدن عن معركة الرستمية : « ان هذا الامر المؤسف قد جرى في اسوأ وقت ممكن »(١٣٥) . ووصفت المس بيل التأثير النفسي للهزيمة : « اذا جرى حادث آخر مثل ما جرى للمانجستر ، فإن عشائر دجلة ستصل على الفور الى حدود بغداد »(١٣٦) .

وكان لا بد لهذا الحدث ان يؤدي الى عواقب خطيرة ، فإزاء هبوط سمعة السلطة البريطانية ، انتفض الفرات الاوسط برمته تقريباً . وبالنتيجة اضطر البريطانيون الى الجلاء عن المسيب وسدة الهندية . واصبح من الضروري انسحاب القوات البريطانية من الديوانية الى

---

(١٣٠) المصدر نفسه ، ٢٦ / ٧ / ١٩٢٠ .

(١٣١) F.O. 371 / 5227 / E. 8268, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, Dated 8 July 1920,».

(١٣٢) المصدر نفسه .

(١٣٣) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, p. 279.

(١٣٤) F.O. 371 / 5079, «From Civil Commissioner, Baghdad, to War Office, Dated 21 September 1920,».

(١٣٥) Sir James Aylmer L. Haldane, *The Insurrection in Mesopotamia, 1920* (Edinburgh; London: Blackwood, 1920), p. 96.

(١٣٦) Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, vol. 2, p. 494.

الحلة . وفي السادس من آب / اغسطس اعلنت كربلاء الجهاد وجلا عنها البريطانيون . وتشكلت ادارة عربية ، على رأسها السيد محسن ابو طبيخ كمتصرف[١٣٧] . وفي اوائل آب / اغسطس تمكن السيد هادي المكوطر واتباعه من فرض سلطتهم في الخضر والغراف والشطرة[١٣٨] . وعندما جلا البريطانيون عن كربلاء ، تولى المندوبون شؤون الادارة وتشكلت لجنة لهذا الغرض . وفي ايلول / سبتمبر وصل بعض البغداديين ورفع البازركان العلم العربي (للحجاز) فوق كربلاء[١٣٩] .

وفي ١٣ آب / اغسطس ذكر ولسن قيام هجمات على الموظفين البريطانيين في تلعفر ، واربيل، والرمادي ، وجلاء الموظفين عن قلعة سكر ، والحي ، والشطرة . « ان الوضع في السماوة ينذر بالخطر »[١٤٠] . وفي اواسط آب / اغسطس ، اعاد الجيش احتلال المسيب (في ١٢ منه) والهندية (في ١٣ منه) .

ولكن في الثامن من آب / اغسطس بدأت الثورة في تقسيم ديالي . وقد قامت بالمبادرة الاولى عشيرة الكرخية والبوهيازع (بزعامة محمد ابو خشيم) . والتي اغارت على دائرة واردات مهروت ، الا انها سرعان ما انتشرت الى جميع انحاء التقسيم . وفي ١٢ آب / اغسطس اخليت دلتاوة ، وفي اليوم التالي تخلت القوات البريطانية عن بعقوبة . وقد قام سعيد النقشبندي (زعيم العهد) بتحريض العشائر ، وكان ينتمي في الواقع الى العشيرة الثانية . وفي بعقوبة تشكلت ادارة مدنية ، على رأسها سعيد سارة ، وحبيب العيدروسي ، ومحمود المتولي (حاكم) وامين زكي (ضابط سابق) وكانوا كلهم من القوميين العرب واعضاء في حرس الاستقلال . وعين ضابط سابق آخر ، هو حسين علي ، مسؤولاً عن الشرطة ، وقام برفع العلم العربي هناك[١٤١] .

وفي ١٣ آب / اغسطس سقطت شهربان في ايدي العشائر الثائرة . وتشكلت حكومة عربية مؤقتة . وسقطت قزرباط وخانقين في ١٤ آب / اغسطس في ايدي عشيرة الدلو الكردية . وفي ٢٦ آب / اغسطس سقطت كفرى (من تقسيم كركوك) في ايدي العشائر . وفي مندلي ، تشكلت حكومة محلية ، الا انها سيطرت على البلدة بدون اراقة دماء ، وكانت الثورة في ديالي ذات اهمية خاصة لأنها كانت تعني ضغطاً اضافياً على بغداد وقطع الاتصالات مع ايران .

---

(١٣٧) آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(١٣٨) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ١١٧ - ١٢٠ .

(١٣٩) آل بارزكان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية : رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما الصق بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء ، ص ١٥٦ و ١٩١- ١٩٤ .

(١٤٠) كتب كرزن مذكرة حول هذا الموضوع ، ولكن للانطباع السيء الذي تولد عن الادارة التي دفعت الامور الى هذا الموقف . انظر :
F.O. 371/5229/E. 10161, «From Civil Commissioner, Baghdad, no. 9571, Dated 18 August, 1920.».

(١٤١) البصير، تاريخ القضية العراقية ، ص ٢٣٤ - ٢٤٠ ؛ آل بارزكان ، المصدر نفسه ، ص ١٧٢ - ١٧٣ ، والحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ١٧٤ - ١٨٠ .

وذكر المندوب المدني قيام انفجارات اخرى في بعقوبة وكفرى وكركوك(١٤٢) ، واعتبر ان الجلاء عن الموصل « قد يصبح ضرورياً بعد فترة قصيرة . ان الثورة لم تعد سياسية ، بل اصبحت فوضوية (كذا . . .) »(١٤٣) . وقد اعتبرت السلطات العليا في لندن هذه البرقية « اخطر ما وصلنا حتى الآن . . . لاسيما فيما يتعلق بالجلاء عن الموصل ، الذي اصبح الآن مرة اخرى ، كما يظهر ، امراً محتملاً »(١٤٤) . ورفع تيلي مذكرة جاء فيها : « يمكن دراسة احتمال اتصال زعيم عربي ما بالحكومة على الفور ، حتى بدون انتظار السير برسي كوكس ، الا انه يجب ان يكون من داخل ما بين النهرين ، لا ان يستدعى من الخارج »(١٤٥) .

وفي ١٨ آب / اغسطس كتب ولسن تقريراً عن القتال في شهربان . وفي اليوم التالي كتب ما يلي : « سيتم ترحيل النساء والاطفال من كركوك في ١٩ آب / اغسطس . كما اتخذت التدابير للجلاء ، عند الضرورة ، عن اربيل والسليمانية وكركوك . وقد تم الجلاء عن عانة (في الدليم) ، ومن المرجح ان يضطر البريطانيون الى مغادرة هيت بعد فترة قصيرة »(١٤٦) .

واعتبر الوضع من الخطورة بحيث اقترحت البنوك البريطانية احراق عملتها الهندية(١٤٧) .

وكتب الحاكم السياسي في ديالي : « ان التحريض يأتي كله من بغداد حيث . . . ان الصدر و . . . السويدي قد جعلا هذا الوعد من اختصاصهما الخاص . . . ويتمتع السويدي بسمعة جيدة ، اكتسبها خلال ايام الاتراك عن طريق معارضته القوية للظلم التركي ، في حين ان الصدر يخاطب المشاعر الدينية . . . »(١٤٨) .

وكان النشاط (التحريضي) موجهاً نحو الشيخين (المعتدلين) حبيب الخيزران من عشيرة العزة وحميد الحسن من بني تميم ، ثم انتقل الحاكم السياسي الى وصف الوضع بالعبارات التالية : « لقد كانت بعقوبة دائماً معادية للبريطانيين ، وفي شهربان زمرة صغيرة الا انها قوية النفوذ ، من المشاغبين الذين اقاموا صلات ، منذ فترة من الزمن ، مع المتطرفين في بغداد ، اما دلتاوة فإنها ، باكثريتها ، خضعت منذ البداية بصورة تامة لنفوذ محمد الصدر . وفي مندلي يختلف الوضع بعض الشيء . . . لقد كانت الثورة في مندلي من صنع سكان المدينة بصورة كلية ، في حين بقيت العشائر بعيدة عنها تماماً . وبنتيجة ذلك ، لم تحدث اعمال نهب ، وان الحكومة المؤقتة التي تم تشكيلها ، سيطرت على الامور بصورة نظامية واعطت وصولات باموال الخزينة ، ولم تحدث اي من الحوادث المشينة (كذا) التي اتسمت بها الثورة في اقضية اخرى »(١٤٩) .

وسقطت قرة تبة في ايدي العشائر في ١٥ آب / اغسطس . وسقطت طوز خرماتو بعدها

---

(١٤٢) F.O. 371 / 5229 / E. 10175, «From Civil Commissioner, Baghdad, Dated 18 August 1920,».

(١٤٣) المصدر نفسه .

(١٤٤) Ibid., «Dated 19 August 1920,».

(١٤٥) المصدر نفسه .

(١٤٦) F.O. 371 / 5228 / E. 10109, «From Civil Commissioner, Baghdad, no. 9990, Dated 19 August 1920,».

(١٤٧) F.O. 371 / 5078, «From the Eastern Bank Ltd., London, Dated 23 August 1920,».

(١٤٨) C.O. 696/3, «Administration Reports, Diyalah Division, 1920,» p. 2.

(١٤٩) المصدر نفسه .

بثلاثة ايام ، « ان كركوك ، ابتدأت من السابع عشر منه ، كانت متوترة الاعصاب واقرب الى الهلع »[١٥٠] . واحتلت العشائر بلدة كفرى في ٢٦ آب / اغسطس . واورد الحاكم السياسي في كركوك (الميجر لونغريغ) الاسباب التالية :

« أ ـ . . . . ضعفنا العسكري . . . .

ب ـ يضاف الى ذلك شهور من الدعاية القوية ، الصادرة عن مصادر مختلفة (آسيا الصغرى ، بغداد ، سوريا) ومصالح مختلفة ، الا انها الحدث ، بشكل قوي ومقنع بالنسبة للذكاء العشائري البسيط ، حول خطوط رئيسية معينة . كان المسلمون يتحدون وينتصرون في كل مكان ، ويطردون الكفار من العراق، وكان الالتحاق بالثورة المجيدة واجباً دينياً .

ج ـ (التضامن العشائري) . . . »[١٥١] .

وقد اعطى البريطانيون الاولوية لديالي في عملية (التهدئة) ففي ٢٧ آب / اغسطس احتلت قوة بريطانية بعقوبة . وقامت قوة اخرى، بمساعدة عشائر موالية ، باعادة سيطرة الادارة على كفرى في ١٨ آب / اغسطس . واعاد البريطانيون احتلال قزل رباط في ٦ ايلول / سبتمبر ، واستعادوا شهربان بعد ذلك بيومين . واضمحلت مقاومة ديلتاوة في ٢٤ ايلول / سبتمبر ، في حين استمرت الحكومة المؤقتة في مندلي[١٥٢] . الا انه ينبغي ملاحظة ان الهدف الاول كان اعادة فتح الخط المؤدي من بغداد الى الحدود الايرانية . وقد كرّس الرتل البريطاني جهوده بالدرجة الاولى لهذا الغرض ، ولم يهتم الا بصورة ثانوية بـ (معاقبة) العشائر . وقد ورد في احد التقارير : « إن القيام بعمليات اخرى . . . امر ضروري ، وهي جارية على الضفة اليسرى . اما على الضفة اليمنى فإننا نعتمد على العزة ، الذين كان شيخهم حبيب من الفطنة بحيث تخلى عن قضية الثورة في وقت مبكر وبشروط مؤاتية . وقد عين في الوقت الحاضر معاوناً للحاكم السياسي في ديلتاوة ، ويقوم المعاون السابق بدور المستشار له »[١٥٣] .

وفي تموز / يوليو ١٩٢٠ ذكر الحاكم السياسي في سامراء قيام اضطرابات عشائرية . « اني واثق من انه لولا جهود يوسف السويدي والسيد محمد الصدر . . . لما عانينا اي متاعب في الجزء الجنوبي من التقسيم »[١٥٤] . وقد طرحت عشائر سامراء المطاليب التالية :

(١٥٠) C O. 696/3, «Administration Reports, Kirkuk Divison, 1920,» p. 8.

(١٥١) المصدر نفسه ، ص ٦ ـ ٧ .

(١٥٢) كان يتزعم « الحكومة » شخص يدعى الياس آغا ، وهو من اتباع طالب باشا سابقاً « يظهر انه قد حرّف بسهولة ، الوطنية المعتدلة التي تلقاها من السيد طالب ، الى اكثر الاشكال تطرفاً » ، على حد قول الادارة البريطانية . انظر :

C O. 696 3, «Administration Reports, Diyalah Division, 1920,» appendix E., p. 11.

(١٥٣) «The Sudan Archives.» Box no. 303, «Memorandum, Secret, no. 31323 / 54 / 102, Dated 10 November 1920, E.B. Howell, Lieutnant Colonel P.S. to High Commissioner for Mesopotamia,» p. 4.

(١٥٤) C.O. 696 3, «Administration Reports,Samarra Division, 1920,». p. 1.

« أ ـ اقامة حكومة عربية في سامراء . . .

ب ـ تسليم كافة الموظفين والجهاز السياسي والمدني . . .

ج ـ تسليم كافة اموال الحكومة في سامراء اليهم (اي المهاجين) . . . »[155] .

وفي تقسيم الدليم ، كان البريطانيون ، قبل الثورة ، قد واجهوا في ۱۹۱۹ غارات من سوريا ـ من قبل ضباط عراقيين بمساعدة افراد عشيرة العكيدات . وقد تم انسحاب البريطانيين من البوكمال في ايار / مايو ۱۹۲۰ كما ان نقص القوات ادى الى الجلاء عن عانة في الخامس من آب / اغسطس[156] . وبعد ذلك بأيام قلائل ، قتل اللفتنانت كولونيل ليجمان ، الحاكم السياسي في الدليم ، في خان نقطة ، على يد ضاري بن ظاهر ، بمشاركة ولديه سلمان وخميس . وقد ادى ذلك الى قيام انتفاضة عامة تقريباً بين آل زوبع . « طيلة حوالى اسبوعين بعد ذلك ، كان الوضع حرجاً للغاية . . . فقد طوقت مفارز القوات في الفلوجة والرمادي ، بل وحوصرت الى حد ما لبعض الوقت »[157] . واضطر علي السليمان ، كبير شيوخ اتحاد الدليم ، الى مغادرة المنطقة[158] . الا انه بعد عدة اشتباكات عسكرية ، وقصف جوي مستمر لمواقع ضاري ، ومساعدة قوية من علي السليمان ومحروث الهذال (شيخ عنزة) خف التوتر في الوضع . اما في عانة ، وفي نقطة تبعد حوالى عشرة اميال عن هيت ، (فقد بقيت الفوضى سائدة)[159] . وقد اعترف البريطانيون بأن « علي السليمان صاحب فضل عظيم جداً عليهم »[160] .

ولم تقم الموصل بدور فعال في الثورة : وكتب الحاكم السياسي البريطاني : « إن انعدام التعاون بين مختلف العناصر المناوئة لبريطانيا هو ايضاً امر جدير بالذكر . . . لقد فشلت الحركة السورية (العهد) ، الى اللحظة الاخيرة ، في الحصول على اية مساعدة من الاتراك . في حين ان التمرد في جنوب العراق لم يثر الا حماساً ضئيلاً بشكل غريب . ولعل درس تلعفر كان لا يزال طرياً في ذاكرة العشائر ، ولذلك لم تخلق اية متاعب تذكر خلال تلك الفترة الحرجة . . . اما في الموصل نفسها ، فإن الاستجابة للامر الصادر من بغداد حول انتخاب (المندوبين) الاربعين جاءت متأخرة جداً ، بحيث لم تسبب لنا اي احراج جدّي »[161] .

والواقع ان الهدوء النسبي في الموصل جعل من الممكن نقل قوات من تلك المنطقة الى

---

(١٥٥) المصدر نفسه ، ص ٢ .

(١٥٦) C.O. 696/3, «Administration Reports, Dulaim Division, 1920,» p.1.

(١٥٧) «The Sudan Archives,» Box no. 303, «Memerandum,Secret,no.31323 / 54 / 102, Dated 10 November 1920, E. B. Howell, Lieutnant Colonel P.S. to High Commissioner for Mesopotamia,» p. 6.

(١٥٨) المصدر نفسه ، وفيما يتعلق بضاري ، انظر : العلوجي والحجية ، الشيخ ضاري (بغداد : ١٩٦٨) .

(١٥٩) C.O. 696/3, «Administration Reports, Dulaim Division, 1920,» p.2.

(١٦٠) «The Sudan Archives,» Box no. 303, «Memorandum,Secret,no. 31323 / 54 / 102, Dated 10 November 1920, E.B. Howell, Lieutnant Colonel P.S. to High Commissioner for Mesopotamia,» p. 5.

(١٦١) C.O. 696/3, «Administration Report of Mosul Division, 1920,» p.3.

الفرات(١٦٢) . وقد اشير الى انه « لولا هذه المساعدة الطارئة تماماً (من جانب الاشوريين) لكان تقسيم الموصل برمته قد غرق على الارجح في تيار الفوضى »(١٦٣) .

وفي السليمانية لم يرد ذكر لأي انفجار علني . ولقد عزي ذلك الى « ذكريات احداث السنة الماضية (فشل انتفاضة الشيخ محمود)، والحصاد الوفير ، والادارة القوية للميجر ولسون »(١٦٤) . وفي الاول من ايلول / سبتمبر قام السرجية من عقرة (الموصل) باحتلال باتاسين في اربيل . واضطر البريطانيون الى الجلاء عن راوندوز التي احتلها السرجية بالنتيجة . « وقد كانت الفترة من اول ايلول / سبتمبر الى الرابع عشر منه ، عندما وصلت القوات الى اربيل ، واندحر السرجية على ايدي الآشوريين، كانت فترة حرجة للغاية في مدينة اربيل »(١٦٥) .

كانت الساحة الرئيسية للثورة هي الفرات الاوسط . وقد مني البريطانيون بانتكاسة اخرى في ١٢ آب / اغسطس عندما اضطروا الى الجلاء عن قلعة سكر تحت الضغط العشائري القوي . وقد كان لذلك اثر فوري على مزاج الغراف الاسفل . كان التحرك العشائري نحو الشطرة ملحوظاً ، «وكان السيد عبد المهدي (من الحرس) والشيخ موحان الخيرالله هما الروح المحركة ، وقد نجحا في الحصول على تأييد مشفوع بحلف يمين ، من عشائر قلعة سكر لمؤامرتهما »(١٦٦) . وكان هدفهم هو الزحف على الناصرية وكان نجاحهم مضموناً بالنظر الى ان حامية الناصرية كانت تتألف من سرية او سريتين فقط من المشاة المحليين . الا ان خيون احبط هذه المحاولة . فإنه لم يلتزم بتقديم المساعدة الا عند سقوط الناصرية وادّى قراره هذا الى اتخاذ عشائر الشطرة موقفاً محايداً لبضعة ايام . الا ان معاون الحاكم السياسي (برترام توماس) فقد كل سلطة لديه واصبح من الناحية العملية اسيراً في داره ، وقد كتب : « ان خيون ، الذي بقي مشاوري الدائم ، اخبرني بأنه ، طالما انا باق في الشطرة ، فإن العلم سيكون محترماً ولن تتحرك العشائر نحو الناصرية ، ولذلك اصبح بقائي مفيداً »(١٦٧) .

الا انه ، في ٢٥ آب / اغسطس ، بلغ التوتر ذروته بوصول المرزا محمد الشيرازي . « كان هذا الرجل يتنقل على ضفاف الغراف ، مبشراً بالجهاد . وقد هبت المدينة كلها لاستقباله » . واضطر معاون الحاكم السياسي الى مغادرة الشطرة ، وقد تحقق ذلك بفضل حماية خيون(١٦٨) . ان اهمية خيون لم تتجل فقط في حمايته للضباط البريطانيين في الشطرة ، بل كذلك في رفضه المستمر مهاجمة

---

(١٦٢) «The Sudan Archives,» Ibid., p. 1.

(١٦٣) المصدر نفسه ، ص ٢ .

(١٦٤) المصدر نفسه ، ص ٤ .

(١٦٥) المصدر نفسه ، ص ٣ .

(١٦٦) F.O. 371 / 5231, «Memorandum, 27 August 1920: From A.P.O., Shatrah, to Civil Commissioner, Baghdad, through P.O. Muntafiq Division,».

(١٦٧) المصدر نفسه .

(١٦٨) المصدر نفسه .

الناصرية . وفي الواقع ، كان المندوب المدني قد اصدر تعليماته باخلاء الناصرية ، وفي الثاني من ايلول / سبتمبر ابرق ما يلي :

« لقد كان من الضروري لمعاون الحاكم السياسي مغادرة السوق بسبب انتشار الجهاد، ومن المرجح ان يصبح من الضروري اخلاء سامراء قريباً . ان القائد البريطاني . . . ينوي اخلاء الناصرية حالما يتمكن من انتشار مفرزته . . وسوف يركز كل قواته على دجلة »[١٦٩] . وقد تم اخلاء سوق الشيوخ في الاول من ايلول / سبتمبر . وقد ذكرت الاسباب التالية للتمرد في السوق :

« أ ـ الرغبة في التهرب من دفع وارد الرز لعام ١٩٢٠ . . .

ب ـ الرغبة الطبيعية في التهرب من الحكومة . . .

ج ـ السياسة العشائرية التي فرضت ، الى حد كبير جداً ، لاسباب عسكرية ونفذت بشكل تجاوز نتائجها المنطقة .

د ـ التحريض السياسي المنطلق من مراكز التعصب (كذا) الدينية ، والذي استخدم كعذر لإشعال فتيل الثورة »[١٧٠] .

وذكر المندوب المدني في تقرير له في ٢٧ آب / اغسطس : « إن عجز قواتنا المسلحة عن احراز نجاح عسكري ملحوظ في اي موقع هو امر يشجع اعداءنا . . . وآخر مثال على ذلك هو الشطرة ، حيث ادى التبشير النشيط بالجهاد من قبل مبعوثين من النجف وكربلاء ، مدعوماً برسالة من المجتهد الاول الجديد (الاصفهاني) ، ادى في النهاية الى اثارة رجال العشائر . . . وقد وجد (خيون) نفسه عاجزاً عن صد الانتشار المتعاظم للتعصب (كذا) بين افراد عشيرته »[١٧١] .

وبعد ثلاثة ايام ذكر ولسن « ان لمجرى الاحداث تأثيراً سلبياً على هور الحمار والفرات الاسفل »[١٧٢] . وعندما سقطت قلعة سكر ، عقد زعماء المنطقة اجتماعاً وابرموا ميثاق الـ (المصيفي) الذي تضمن النقاط التالية :

« ١ ـ المطالبة باستقلال العراق التام وانتخاب عبدالله ملكاً .

٢ ـ حماية المؤسسات الحكومية المفيدة . . .

٣ ـ اطاعة المجتهدين . . .

٤ ـ تأليف لجنة محلية في كل منطقة تحت اشرافهم لادارة شؤونها » .

---

(١٦٩) F.O. 371/5229/E. 10870, «From Civil Commissioner, Baghdad, Dated 2 September 1920,»

(١٧٠) C.O. 696/4, «Administration Report of Suq al-Shuyukh District, 1921,» p.1.

(١٧١) F.O. 371/5229/E. 10625, «From Civil Commissioner, Baghdad, no. 10384, Dated 27August 1920,».

(١٧٢) F.O. 371/5229/E. 10743, «From Civil Commissioner, Baghdad, Dated 30 August 1920,».

ومن بين الموقعين على الميثاق موحان الخيرالله ، وعبد المهدي وخيون العبيد وغيرهم[١٧٣] .

وبعد ان نجحت عشائر الشامية في الدفاع عن الكفل والحقت هزيمة (مانجستر) بالبريطانيين، قررت التحرك نحو الحلة . وفي ٢٧ تموز / يوليو تم احتلال طويريج من قبل بني حسن ، وفي ٢٧ و٢٨ منه ، جرت هجمات صغيرة على الحلة وفي ٣٠ تموز / يوليو جرى هجوم كبير (قدر بـ ١٠٠٠٠ مقاتل) على الحلة . وكان المهاجمون يتألفون من بني حسن ، وفتلة ، وعشائر الشامية الاخرى . وقد تمكن البريطانيون من الدفاع عن الحلة وصد العشائر ، عندما ادركوا انهم قد فشلوا ، بدأت قضيتهم بالانحلال . ومن تلك اللحظة بالرغم من ان الزعماء ظلوا ثابتين ، بدأ الرجال الاقل شأناً يفكرون بالاستسلام . . .[١٧٤] .

وقد جرى القتال الاشد عنفاً في قضاء السماوة ، وكان يقود الحركة هناك ابو الجون ، وغثيث الحرجان والسيد هادي المكوطر (من الشنافية) . واضطر البريطانيون الى اخلاء الخضر في ١٣ آب / اغسطس . وفي ٢٨ آب / اغسطس اسرت العشائر سفينة حربية على الفرات ، مع كافة افرادها . وفي الثالث من ايلول / سبتمبر حاولت قوة بريطانية الجلاء عن السماوة الا انها ابيدت بكاملها على يد العشائر . وفي ٢٢ ايلول / سبتمبر تم اسقاط طائرة . وبعد ايام قلائل اضطر طاقم المدرعة النهرية البريطانية (غرينفلاي) الى الاستسلام للعشائر .

وبعد الهجوم البريطاني المضاد ، وصل رتل نجدة الى السماوة في ١٤ تشرين الاول / اكتوبر . وقبل ذلك بيومين ، تم احتلال طويريج . واستسلمت كربلاء على الفور ، واعقبتها المسيب . وتم احتلال الكفل في ١٤ تشرين الاول / اكتوبر ، الا ان الرتل البريطاني القوي كان لا يزال يواجه مقاومة كبيرة . وتم الدخول الى الكوفة في السابع عشر منه ، وفك الحصار عن الحامية ، والذي استمر ٩٢ يوماً . وادّى ذلك الى استسلام النجف[١٧٥] .

وهكذا ، اصبح انهيار الثورة العشائرية واضحاً في منتصف تشرين الاول / اكتوبر . ومنذ اوائل آب / اغسطس ١٩٢٠ ، كان المندوب المدني قد ابلغ وزارة الهند انه « ثمة حالة حرب في جميع انحاء ما بين النهرين »[١٧٦] . ولم يتمكن الجنرال هالدن من ابلاغ وزارة الحربية بتوقف العمليات العسكرية الا في شباط / فبراير ١٩٢١[١٧٧] .

---

(١٧٣) صورة من « الميثاق » في مكتبة السيد عبد المهدي المنتفكي في بغداد .

(١٧٤) «The Sudan Archives,» Box no. 303, Memorandum, Secret, no. 31323 / 54 / 102, Dated 10 November 1920, E.B. Howell, Lieutnant Colonel P.S. to High Commissioner for Mesopotamia,» p. 6.

(١٧٥) المصدر نفسه .

(١٧٦) F.O. 371/5229/E. 10172, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, Dated 7 August 1920,».

(١٧٧) Sir James Aylmer L. Haldane, *A Soldier's Saga: The Autobiography, of General Sir Aylmer Haldane* (Edinburgh; London: Blackwood, 1948), p. 379.

وبعد مرور عام ، حلل مسؤول بريطاني اسباب الانفجار . فأشار اولاً الى وجود (سلطة ثنائية) في الريف العراقي . « ان ارتكاز الحكومة على رجال العشائر المسلحين هو من الهشاشة ، وعدم الاستقرار . . . (بحيث) يمكن الشعور على الفور بأي ضعف يطرأ على مركز الحكومة ، مهما كان ضئيلاً »(١٧٨) . وفي مثل هذه الظروف ، كان فرض ضرائب عالية امراً غير مناسب « ان عدم دفع الضرائب هو امر مستحب لدى الناس في جميع الامم ، وهو يصبح اقرب الى التسلية عندما يكون دافع الضرائب قائداً لجيش »(١٧٩) . ثم مضى يتحدث بمزيد من التفصيل عن محاولة (وقف) التطورات الاجتماعية ـ السياسية : « لا شك في ان الشيخ الاعلى ، اذا ترك ليتدبر اموره بنفسه ، سيفقد علوه بسرعة » . وقد جادل « بأن رجال العشائر . . . يعترضون على فرض الحكم الاوتوقراطي » لا سيما « من قبل اشخاص هم اعداؤهم في معظم الحالات، ويكادون في جميع الحالات يطمعون في جزء من اراضيهم »(١٨٠) . ومن الواضح ان سياسة اعادة سلطة الشيخ كانت تتعارض مع مصالح العشائر ، وكانت تتناقض مع تطور المؤسسات السياسية ، ولا يمكن ان تنجح في المدى البعيد .

« لقد طالما تبجح البريطانيون في ما بين النهرين بأنه ، في الوقت الذي قسم فيه الاتراك العشائر وجعلوها في حالة حرب دائمة مع بعضها ، باعتبار ذلك اسهل طريقة للسيطرة عليها ، فإن البريطانيين اعادوا تلاحمها والحكم الابوي لشيوخها . لقد كان هذا الحكم من الابوية (البطريقية) . . بحيث كان احد اسباب التمرد . قد يكون للآباء مكانهم في الصحراء، الا انهم لا مكان لهم بين مصدري الرز والتمور »(١٨١) .

٢ ـ طبيعة الثـــورة

ان الثورة العراقية ، بسبب اهميتها وتأثيرها وجديتها ، قد اثارت تفسيرات مختلفة لدوافعها وقواها وطبيعتها . وقد ادعى رئيس الادارة البريطانية : ابان الاحداث ، بأنها كانت تمرداً عشوائياً من جانب عشائر فوضوية بتحريض من وكلاء الهاشميين و(العلماء) المتعصبين(١٨٢) . ان رأي ولسن بسبب كونه احادي الجانب ، كان لا بد من ان يقع في تناقض داخلي ، ففي ٢٨ حزيران / يونيو اعترف بوجود بعض الاستياء الريفي ، الا انه سارع الى التأكيد بـ « اننا يجب ان لا نبحث . . . عن تغيرات سياسية ليست موضع طلب . . . بل عن تسوية ناجعة للاراضي . . . ونظام معقول . . . للضرائب »(١٨٣) .

---

(١٧٨) C.O. 696/4, «Administration Report of Suq al-Shuyukh District, 1921,» p. 56.

(١٧٩) المصدر نفسه .

(١٨٠) المصدر نفسه .

(١٨١) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

(١٨٢) Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record*, pp. 273-276.

(١٨٣) F.O. 371/5227/E. 7725, «From Civil Commissioner, Baghdad, to India Office, no. 7825,».

اما الحاكم السياسي في الشطرة فقد كتب : « . . . ان الاضطراب هو ، بشكل عام ، زراعي وليس سياسياً بالدرجة الاولى . لقد كانت ثمة فعاليات سياسية ولا يمكن التقليل من جديتها ، ولكن . . الناس ذوي التوجه السياسي ، والمكونين من . . . مثقفي المدن ، يشكلون . . . . خمسة بالمائة من السكان . وليست النزعة القومية معروفة بين العشائر . . . ان السبب الجذري للاضطرابات هو الاعتراض على الضرائب »(١٨٤) .

ومع ذلك ، فقد كتب ولسن بعد مرور شهر : « لا اعتقد ان للمتمردين اية شكاوى زراعية . . . ولو كانت ثمة مثل هذه الشكاوى ، لما اقتصرت منطقة الاضطرابات ، كما هو الامر الآن ، على الاقضية القريبة من النجف وكربلاء »(١٨٥) .

إن هذا الفصل المصطنع بين السياسة والاقتصاد ، بين الوطنية والقومية من جهة ، والضرائب وسياسة الارض من جهة اخرى ، يتجلى ايضاً في كتابات القوميين والوطنيين العراقيين . فإن البصيروالحسني والفرعون يعتبرون شيوخ العشائر وطنيين متحمسين همهم الوحيد هو استقلال العراق(١٨٦) . وآل بازركان وحده هو الذي نوه باهمية العامل (الاقتصادي) . فقد اثنى على الوطنية (الخالصة) للبغداديين واشار بازدراء الى المساهمة العشائرية باعتبارها مدفوعة بمشاكل الارض والضرائب وتحريض العلماء(١٨٧) .

ان العيب الاساسي في معظم الآراء الآنفة الذكر هو الفصل غير المبرر بين الشكاوى الزراعية والمسألة القومية والوطنية . وفي اعتقادي ان الثورة كانت تعبر بشكل بدائي ، ولكنه حقيقي ، عن الروح الوطنية والقومية . وقد حاولت ان ابين مدى عمق ومشروعية الشكاوى التي ساعد الاحتلال البريطاني على انضاجها واشرت الى انه لولا هذه الشكاوى الزراعية لما تأثرت العشائر هذا التأثر العميق بالنداءات القومية او الدينية . ذلك ان التغيرات في الهيكل الاجتماعي ـ الاقتصادي وانتشار التعليم والمواصلات ، كانت تقرب بين اجزاء البلاد بالتدريج وتدمج العشائر في المجتمع العراقي . ان السياسة المركزية للبريطانيين عجلت في عملية الاندماج ، الا انها خلقت ردود فعل عكسية . وقد خلقت السياسة الضريبية والعشائرية للادارة سخطاً واسعاً موجهاً ضد السلطة المركزية . وبذلك توصلت عشائر عراقية مختلفة الى تنسيق جهودها ، وتجاوز الخلافات العشائرية ، وتوجيه ضربة مشتركة ضد الادارة . وفضلاً عن ذلك ، فإنها تحالفت مع قوى اخرى كانت تسعى الى تصفية الادارة البريطانية ، وهي القوميون وبعض المجتهدين .

(١٨٤) Bertram Thomas, *Alarms and Excursions in Arabia* (New York; Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1931), pp. 93-94.

(١٨٥) F.O. 371/5228/E. 9849, «Dated (29?) July 1920.».

(١٨٦) آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ٢٤ ؛ البصير ، تاريخ القضية العراقية ، ص ٥١ ـ ٥٤ ، والحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٤ .

(١٨٧) آل بازركان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية : رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما ألصق بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء ، ص ١٤ ، ١٤٤ ـ ١٤٦ و١٧٠ .

وقد حاولت ان ابين ان التحالف القومي - الديني - العشائري كان صادقاً وفعالاً . وقد تبنت معظم العشائر اهداف القوميين من الاستقلال وتنصيب ملك هاشمي . وكانت الروابط التنظيمية والعسكرية بين العشائر واضحة(١٨٨) ، كما ان الروابط بين العشائر والوطنيين والمجتهدين لم تكن ضعيفة او عقيمة . وكان القتال الحقيقي هو المظهر الاكثر عشائرية للثورة . ومع ذلك ، فقد جرى تسليم كافة (اسرى الحرب) البريطانيين والهنود الى الادارة العربية في النجف(١٨٩) . وبالاضافة الى ذلك ، غادر ما لا يقل عن ١٥ ضابطاً سابقاً اماكن سكناهم واشتركوا في القتال على الفرات وفي ديالي . وكانوا إما مرسلين من الحرس ، او تطوعوا بشكل فردي ، او كانوا قاطنين في مناطق القتال . وفضلاً عن ذلك ، فقد اشارت السلطات الى الدور المباشر للسويدي والصدر في ديالي وسامراء ، وفي كربلاء والنجف اخذ المندوبون زمام السلطة على اثر انسحاب البريطانيين(١٩٠) . وفي بعقوبة ومندلي والخالص شكل قوميو المدن (حكومة) مؤقتة . وكانت العشائر التي هاجمت الحلة مصحوبة من قبل الجزائري والكاشاني والشهرستاني(١٩١) . وسمحت (السلطات المحلية) باصدار جريدتين في المنطقة ، وهما (الاستقلال) و(الفرات) ، وكان يحررها اثنان من القوميين العرب (محمد عبد الحسين وباقر الشبيبي) . وكانت الصحيفتان لا تعبّران عن المشاعر القومية العربية فحسب ، بل تعكسان ايضاً تفهماً واسعاً للصراع الداخلي في السياسة البريطانية وتطورات المنطقة وقد هاجم الشبيبي الغزو الفرنسي لسوريا ، والتواطؤ البريطاني معه ، باعتباره محاولة للحيلولة دون وحدة العراق وسوريا(١٩٢) . وفي ٣٠ تموز / يوليو اصدر الشبيبي منشوراً في النجف (طالب) فيه زعماء العشائر بـ (تثقيف) افراد عشائرهم بكون الثورة تهدف الى الاستقلال ، وبوجوب المحافظة على اموال الحكومة والتغلب على الحزازات العشائرية(١٩٣) . وكان فيصل المغير (زعيم الثورة في احدى المناطق) يتراسل مع السويدي والشهرستاني(١٩٤) .

---

(١٨٨) مثال على ذلك ، الحلقات الثمان التي كانت تربط عشائر الرميثة والسماوة بعشائر النجف والشامية ، وجرى الهجوم على الحلة بالتنسيق بين عدة عشائر كانت العلاقات فيها بينها سيئة في السابق . وحتى عام ١٩١٨ ، لم يكن الخلاف حول الارض قد سوي بين فتلة ، والابراهيم ، والحميدات ، والعوابد ، والخفاجة ، وعشائر اخرى . (انظر: الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ١٩٢٠ ، ص ٦٩ - ٧٢). وفي عام ١٩٢٠ قامت جميع هذه العشائر وغيرها بمهاجمة الحلة سوية . انظر : يوسف كركوش الحلي ، تاريخ الحلة (النجف : ١٩٦٥) ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(١٨٩) كان شلاش مسؤولاً عن الاسرى . انظر : رسالة من الاصفهاني الى شلاش ، في : الفرات (النجف) ، ١٦ / ٩ / ١٩٢٠ .

(١٩٠) F.O. 371 / 5089-1, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 33-7, Dated August to 14 September 1920,».

(١٩١) الياسري ، البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق ، ١٩٢٠ ، ص ٢١٨ .

(١٩٢) الفرات ، ٢١ / ٨ / ١٩٢٠ .

(١٩٣) في مكتبة حسن شعبان بالنجف .

(١٩٤) F.O. 371 / 5081, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 33, 14 August 1921, Suwaidi,» and كمال الدين ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ (رسالة من الشهرستاني) .

ومع ذلك ، فقد كان الطابع (الجنيني) للقومية واضحاً هو الآخر . ان الفلاحين لم يصبحوا ابداً اعضاء في (جيش تحرير) موحد . وغالباً ما يتولد الانطباع بأن زعماء العشائر كانوا قانعين بالاستقلال المحلي لمقاطعتهم : فلم تجر ، مثلاً ، اية محاولة جدية لمهاجمة بغداد[١٩٥] ، وكانت العشائر تفتقر الى تنسيق منظم بشكل جيد . وفضلاً عن ذلك ، فإن احتمال استجابة البريطانيين للشكاوى الزراعية كان عاملاً مهماً في تردد عدد كبير من الشيوخ ومواقفهم الازدواجية . فإن بعضهم رفض المشاركة (عـداي الجريـان ـ البوسلطان) في حين اشترك آخـرون على مضض (العبطان وخيون) . وعقد بعضهم صلحاً منفرداً مع الادارة (الخيزران) . وباختصـار ، يمكن القول ان الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية المتخلفة في العراق كان لا بد ان تخلق ، سياسياً ، (ثورة) وطنية بدائية فقط.

وثمة تفسير آخر للثورة . فقد شدد النفيسي على الطابـع الشيعي للثورة ، واستشهـد ، لتعزيز رأيه ، بهوكارث الذي جادل بأن الثورة « كانت بالدرجة الرئيسية من عمل الشيعة ، وجرى تنظيمها من النجف وكربلاء »[١٩٦] . وقد طور ايلي خضوري اليهودي العراقي المتأنكلز هذه الفكرة بشكل متطرف : « لعل هناك عاملاً آخر ساعد على تحقيق تحالف وقتي (كذا) بين الشيعة والسنة . فعندما ظهر احتمال الاستقلال ، اخذ زعماء الشيعة يأملون في ان يصبحوا اسياد البلاد ، ووافقوا على التحالف مع السنة ، على اعتبار ان الآخرين ، حسب تقدير الشيعة ، لن يكونوا قادرين على فرض سيطرتهم في دولة عراقية مستقلة »[١٩٧] .

وعلاوة على ذلك ، فإن خضوري يفسر الثورة باعتبارها حركة انفصالية اوحى بها الشيعة وسيطروا عليها ، لغرض انتزاع السلطة من السنة ، سواء أكانوا عثمانيين ام عرباً . ولذلك فإنها لم تكن حدثاً اقليمياً فحسب ، بل طائفياً ايضاً ، يهدف ، حسب رأي خضوري ، الى اقامة دولة شيعية ثيوقراطية مستقلة عن اجزاء العراق الاخرى[١٩٨] .

ان رأي خضوري هذا متناقض في حد ذاته ، وغير مدعم بالوثائق ، وبالاضافة الى ذلك ، ضعيف الحجة على مستويين : الواقع والتفسير الفكري . فمن الواضح تماماً ان مـا يسميـه بـ(الجهاد الشيعي) كان موجهاً ضد الادارة البريطانية ، وليس ضد السنة العراقيين الذين كان قسم كبير منهم يشارك في (الجهاد) ذاته . وقد بلغ التحالف الوطني ، في تلك الفترة ، ذروة القوة

---

(١٩٥) ومع ذلك ، ربما كان السبب الحقيقي لذلك هو ضخامة القوة البريطانية ، وفشل الهجوم على الحلة ، وتلكؤ خيون في مهاجمة الناصرية ، وتردد الخيزران ، والفشل في الفلوجة .

(١٩٦) A.F.a. Nafeesi, «The Role of the Shi'ah in the Political Development of Modern Iraq, 1914-1921,» (Ph.D dissertation, Cambridge University, 1972), p. 247.

(١٩٧) Elie Kedourie, *England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire, 1914-1921* (Lonodn: Bowes and Bowes, 1956), p. 190.

قارن ذلك باقوال خدوري المقتبسة .

(١٩٨) Elie Kedourie, «Reflexions sur l'histoire du Royaume d'Irak, 1921-1952,» *Orient*, no. 11 (1959), pp. 55-79, cited by, A. Vinogradov, «The 1920 Revolt in Iraq Reconsidered: The Role of the Tribes in National Politics,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 3, no. 2 (April 1973), pp. 123-139.

والانسجام . وكان الطرفان يبشران بوحدة وطنية اوسع تضم المسيحيين واليهود العراقيين . وفيما يخص القيادة القومية (الحرس) ، ليس من الدقة حتى الاشارة الى قيام تحالف، بل كانت ثمة وحدة عضوية بين القوميين والوطنيين (المتنورين) استمرت حتى بعد انتهاء الثورة وذيولها(١٩٩) .

وليس هناك اي دليل على (نية) الشيعة في تشكيل دولة مستقلة ، بل ثمة شواهد كثيرة تشير الى العكس . فقد كان الشيعة العراقيون الذين ساهموا في الثورة ، سواء من العشائر او المجتهدين ، مصرين على مطلبهم في اقامة عراق مستقل وموحد في ظل ملك عربي هاشمي . اكثر من ذلك ، ان هدف الوحدة العربية كان جلياً ، لا في برامج القوميين (الحرس والعهد) فحسب ، بل حتى في برنامج جماعة (النهضة الاسلامية) التي قادها الجزائري وبحر العلوم وبعض الزعماء المحليين في النجف ، والتي قامت (بالثورة) هناك في ١٩١٨ .

ان استخدام عبارة الشيعة هو ، الى حد ما ، مبالغة في التبسيط لا مبرر لها . ذلك ان الشيعة ، مثل معظم الجماعات الاخرى ، ليسوا مجتمعاً غير قابل للتجزئة . وقد سبق ان قسمنا الشيعة العراقيين في هذا البحث الى قوميين (يؤلفون جزءاً عضوياً من القوميين العراقيين العرب) ، وعشائر وفلاحين ، وسادة (في الشامية والمشخاب) ، ووجهاء وتجار ، ومجتهدين . واغلب الظن ان هذه الكلمة كانت بالنسبة لولسن وهوكارث والنفيسي ، تعني المجتهدين بالدرجة الرئيسية كما ان خدوري لا يحدد استخدامه لهذه الكلمة .

ان من الخطأ ، بطبيعة الحال ، الاقلال من شأن السلطة الادبية للعلماء بين افراد العشائر ، اذ من الحقائق الثابتة ان العشائر كانت ـ آنئذٍ ـ تعير آذاناً صاغية لعلماء الدين ، الذين لعب بعضهم دوراً اساسياً في النشاط (التحريضي) . ومع ذلك ، يمكن القول ان هذا التحريض لا يمكن ان يكتسب تأثيراً فعالاً ما لم تكن التربة مهيأة لذلك بوجود اسباب حقيقية للشكوى . وقد سبق ان ذكرنا ان الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية والزراعية للفلاحين تجعل من الصعب عليهم الانتقال من الاقرار السلبي بالمظالم الى المساهمة السياسية في العمل لازالتها(٢٠٠) . وان القول بأن الانتفاضة الضخمة للفلاحين العراقيين كان مردها الوحيد الفتاوى الدينية او الدعاية القومية(٢٠١) ، هو ، على اقل تقدير ، ضعف في الرؤية(٢٠٢) . ثم لماذا يتجاهل خضوري وامثاله

---

(١٩٩) بعد الثورة تشكل حزبان وطنيان هما : الحزب الوطني وحزب النهضة ، وكان كلاهما يضم اعضاء من السنة والشيعة على السواء . انظر : البصير ، تاريخ القضية العراقية، ص ٤٠٤ ـ ٤٣٠ .

(٢٠٠) Theodor Shanin, comp., *Peasants and Peasant Societies: Selected Readings* (Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1971), pp. 14-16, and Eric R. Wolf, «On Peasant Rebellions,» *International Social Science Journal*, vol. 21, no. 2 (1969), pp. 286-287

(٢٠١) كتبت المس بيل : « ان هذه الدعاية (القومية) كانت السبب الاوحد والوحيد لنشوب الثورة هنا » . انظر : Bell. «Private Letters and Papers,» Letter Dated 30 January 1921,».

(٢٠٢) كتب الميجر يونغ : « اني لا اتفق مع الكولونيل ولسون في ان التغيرات السياسية لا توفر العلاج . وقد اخبرني الكولونيل غوردن ووكر، من البصرة ، ان ضرائبنا الفادحة ، التي لم تكن ترافقها فوائد تتناسب معها هي مكروهة جداً لدى العشائر العربية . . . » . انظر :

الدور البارز الذي لعبه القوميون ـ سواء في بغداد والفرات الاوسط او ديالي ـ في (التحريض) على الثورة ؟

وعلاوة على ذلك ، فإن استعراض التطور السياسي في العراق ما بين ١٩١٤ و١٩٢١ يمكن ان يعطي لدور المجتهدين بعده الصحيح وغير المبالغ فيه . كما انه يكشف عن ضحالة النظرة الى الشيعة باعتبارهم فئة موحدة بصورة كلية . ففي ١٩١٤ دعا جميع العلماء تقريباً الى الجهاد ضد بريطانيا ، الا ان استجابة العشائر كانت تتسم بتحفظ ذهني وتلكؤ عملي واضحين . وفي ١٩١٥ ـ ١٩١٦ ، كان (سكان) النجف وكربلاء والحلة يقومون بانتفاضات ضد الاتراك في حين كان بعض المجتهدين والمثقفين الشيعة يعربون عن الاسف لسقوط العثمانيين . وفي ايار / مايو ١٩١٨، جرت اضطرابات النجف خلافاً لارادة المجتهد الاكبر (اليزدي) ، ولم تكن حماسة الجزائري وبحر العلوم قادرة على اقناع العشائر الراضية بوضعها آنئذٍ ، بالتحرك ضد الادارة . وفي اواخر ١٩١٨ (صوّت) زعماء الشامية والنجف ، خلال الاستفتاء ، لمصلحة استقلال العراق وانتخاب ملك عربي ، وقد تم ذلك بدون موافقة اليزدي ، بل تقريباً خلافاً لصمته البالغ الدلالة . وبدأت الثورة في الرميثة والسماوة قبل صدور فتوى الشيرازي ، كما ان فتوى الشيرازي بخصوص (القوة الدفاعية) وضغطه على زعماء الشامية والنجف (لعدم السماح للرميثة بالغرق لوحدها) ، لم يكن لهما ، كما يظهر تأثير قوي على العبطان ، وعلوان السعدون ، وخيون ، وغيرهم . الا انهما (أثّرا) على زعماء عشائريين آخرين كانت لهم ظروف وآراء اجتماعية ـ سياسية مختلفة . وقد توفي الشيرازي في ١٤ آب / اغسطس ، ونفي ولده رضا وبحر العلوم قبل ذلك . الا ان الحركة استمرت دون انقطاع .

وجاء بعد الشيرازي ، الاصفهاني الذي شجب العنف علناً ولم يؤيد فتوى الشيرازي بالدعوة الى الجهاد . وفي ٢ آب / اغسطس تلقى رسالة مفتوحة من المندوب المدني تتراوح بين التهديدات وعروض السلام[٢٠٣] . وكان الجزائري ، والجواهر ، وراضي ، والاصفهاني يؤيدون التفاوض حول الصلح[٢٠٤] . اما القوميون (بقيادة محمد باقر الشبيبي) والعشائر ، بقيادة سكر ، فقد دعوا الى رفض عرض ولسن وكتبوا (القوميون) عدة مقالات في هذا المعنى . وتحت الضغط الشعبي ، ارسل الاصفهاني رداً الى ولسن انتقد فيه ، بعنف ، الادارة وتصرفاتها . واختتم رسالته برفض التفاوض[٢٠٥]. وفي نهاية الامر ، كان وصول قوات بريطانية جديدة هو الذي (اقنع) العشائر بتسليم اسلحتها ، وليس رغبة الاصفهاني في السلم .

F.O. 371 / 5227 / E. 7725. «Minutes by H. Young on a Telegram no. 7825: From Civil Commissioner, Baghdad. Dated 28 June 1920.»

(٢٠٣) العراق ، ٣١ /٨ / ١٩٢٠ .

(٢٠٤) الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ١٢٥ .

(٢٠٥) آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

ان المجتهدين البارزين الذين عملوا من اجل الثورة كانت لديهم في معظم الاحيان ، باستثناء الصدر ، ميول (عثمانية) . وهذه الحقيقة تنقض الرأي القائل بأن حركتهم كانت طائفية . ولذلك يمكن الاستنتاج بأن افتراضات خضوري اعتباطية ، وان كثيراً من الآراء المزعومة الاخرى حول الثورة ينبغي اعادة النظر فيها .

لقد اشرنا في هذا البحث الى الدور البارز لمثقفي الفرات الاوسط العراقيين في نهوض الحركة القومية العربية والحركة الاستقلالية . وقد ذكرنا ان هذا الدور اصبح ممكناً بفعل التزاوج بين تركيبهم القومي (كونهم عرباً ولكنهم اقلية في داخل الهيكل العثماني) وتراثهم الفكري . الا انه لا ينتج عن ذلك ان هذا (الدور الخاص) كان ينم عن رغبة في قيام دولة خاصة ، بل ان العكس تماماً هو الصحيح . فإلى جانب النخبة الصاعدة من سكان المدن والريف الآخرين ، كانت تلهم مثقفي الفرات الاوسط رؤ يا قيام دولة مستقلة موحدة وعربية يزدهر فيها العلم والتقدم . ولا يمكن أن نتوقع اختفاء الطائفية بمعجزة في مجتمع كالعراق في ١٩٢٠ . الا ان هؤلاء القوميين وجدوا في الاسلام مظلة مفيدة ومشتركة، لاسيما وان الاحتلال البريطاني قد ساعد على طمس التمايز المتعاظم بين الاسلام كدولة والقومية . الا ان الاسلام كان بالنسبة للقوميين في ١٩٢٠ ، دعوة سياسية لا ثيوقراطية ، وفضلاً عن ذلك ، فإنه كان ، عملياً ، اسلامياً (افغانوياً) ، ان صح التعبير ، يدعو الى الاتحاد مع المسيحيين واليهود[٢٠٦] . وقد لخص محمود حبيب العبيدي (مفتي الموصل) التزاوج الفكري بين التيارات المختلفة المتفاعلة ضمن الحركة في قصيدة طريفة . وقد حلف بالانجيل والقرآن ان العراق لن يقبل ابداً بالانتداب[٢٠٧] .

قسماً بالقرآن والانجيل	ليس نرضى وصاية لقبيل
اشهدوا يا اهل الثرى والثريا	قد ابت شيعة الوصيّ وصيّا
في سبيل استقلالنا قد نكثنا	عهد اخوان لنا يوم ثرنا
كم دماء منا ومنهم سفكنا	غير نجم استقلالنا ما رصدنا
لا تقل جعفرية حنفية	لا تقل شافعية زيدية
جمعتنا الشريعة الاحمدية	وهي تأبى الوصاية الغربية

ولقد بدأ العبيدي قصيدته بالقول :

لم تكن يا بن لندن علوياً	هاشمياً ولم تكن قرشيا
لا ولا مسلماً ولا عربياً	من بني قومنا ولا مشرقيا

فلماذا تكون فينا وصيا

---

(٢٠٦) خلال الثورة ، عرض اقتراح باطلاق سراح المسلمين والهنود الذين أسرتهم العشائر . وقد عارض عبد الرزاق عدوة في ذلك على اساس ان الحركة قومية وليست اسلامية . ويبدو ان رأيه اقنع زعماء النجف ، فقد تم اطلاق سراح الجنود الهنود (٨٨) والبريطانيين (٧٩) سوية . وكانوا قد عوملوا معاملة طيبة . انظر : العراق ، ٢٢ / ١٠ / ١٩٢٠ .

(٢٠٧) ابراهيم الوائلي ، الشعر العراقي في ثورة العشرين (بغداد : ١٩٦٠) ، ص ٧٣ - ٧٧ .

وتبقى هناك حقيقة اخرى : ان معظم رجال الدين الذين اسهموا في الحركة (الشيرازي وابنه ، الخالصي والصدر ، الجزائري وبحر العلوم)، كانوا قد قبلوا بشكل جلي برنامج الحركة القومية العربية : عراق موحد ، ومستقل تماماً ، ملك عربي ، وتطلع الى وحدة مع الاقطار العربية المجاورة(٢٠٨) .

وقد قدم كتاب مختلفون شروحاً مختلفة للطبيعة الاجتماعية للثورة . وينسب معظم الماركسيين العراقيين دوراً كبيراً لـ (البرجوازية العراقية) . وقد سبق ان ذكرنا ان هذا الرأي لا يقوم على اساس قوي(٢٠٩) ، واعربنا عن رأينا في ان الحركة جرت بصورة اساسية بزعامة مثقفي المدن والعشائر ، وقد جادل كوتلوف ، وهو ماركسي روسي وبروفسور مستشرق ، بأن الثورة قام بها الفلاحون الفقراء ضد نظام الضرائب ، والملاّكين والحكم البريطاني(٢١٠) . ورأى آخرون انها حركة تزعمها الوجهاء العقاريون . واذا كان كوتلوف يعني ان الفلاحين الفقراء كانوا الاشد تأثراً بالاحداث ، فإن صحة هذا القول واضحة تماماً . اما اذا كان ـ وهو الامر الاكثر احتمالاً ـ ينسب قيادة الثورة اليهم ، فإن افتراضاته بحاجة ماسة الى البراهين . وليس هناك ما يشير الى ان الفلاحين الفقراء قد تخطوا زعماءهم من الشيوخ الصغار او السراكيل او زعماء الفروع . وكانت الفئة الوحيدة من الوجهاء العقاريين ، التي تحالفت مع الثورة هي السادة . اما بالنسبة للوجهاء العقاريين الآخرين ، فقد كانت الثورة موجهة ، بشكل عام ، ضد مطاليبهم وكانت تمثل تحدياً اجتماعياً قوياً لمصالحهم . ولقد ورد في تقرير بريطاني رسمي :

« في تقسيم المنتفك ادت احداث (الثورة) الى دفع كافة الملاكين الى تأييد الحكومة البريطانية . وليس فقط آل سعدون ، بل كذلك تجار المدن الذين استثمروا اموالهم في تملك البساتين والاراضي الزراعية ، قد وجدوا املاكهم قد انتزعت ، الى هذا الحد او ذاك ، من قبل العشائر باسم الاستقلال او الجهاد . . . ان صرخة الاستقلال ، لا الحكومة العربية ، هي التي اجتذبت بصورة خاصة الشيوخ الصغار ، رؤساء الفروع . فهي تمثل بالنسبة لهم امل التحرر من نير الشيوخ الكبار للعشائر ، الذين كانت اعمال الادارة تمارس بواسطتهم ، وكذلك التحرر من عبء الايجارات والضرائب . . . »(٢١١) .

ان هذا التقويم المتوازن يرتكز على شواهد قوية من الاحداث الفعلية للثورة .

---

(٢٠٨) انظر بهذا الصدد : برنامج جمعية النهضة الاسلامية في النجف ؛ قرارات الاستفتاء في ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ؛ رسائل الشيرازي وابنه الى الملك حسين في الحجاز ؛ تأييد قرارات المؤتمر العراقي المنعقد في دمشق ، آذار / مارس ١٩٢٠ ؛ التحاق الصدر بالملك فيصل ؛ مبايعة الخالصي لفيصل . . . الخ . وبعد ذلك كله الا يحق لنا ان نتساءل عن نصيب الموضوعية التي تحتويها كتابات حضوري وامثاله !؟

(٢٠٩) انظر ما سبق .

(٢١٠) ل. ن . كوتلوف ، ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق ، تعريب عبد الواحد كرم ، مراجعة عبد الرزاق الحسني (بغداد : ١٩٧١) (في الاصل اطروحه دكتوراه قدمت الى جامعة موسكو ، ١٩٥٨) .

(٢١١) F.O. 371/6348/54, «Mesopotamia Police, Abstract of Intelligence, Report no. 4, Dated 31 December 1921,» paragraph 190-220.

لقد تمكنت قوات بريطانية ضخمة وقوية من وضع حد للثورة في نهاية الامر . واعلن هالدن بزهو ان قواته « علمت رجال العشائر ماذا يعني التبارز مع الامبراطورية البريطانية »[٢١٢]. وقد وصل كوكس الى البصرة في الاول من تشرين الاول / اكتوبر والى بغداد في الحادي عشر منه . وفي ٢٣ تشرين الاول / اكتوبر ترأس عبد الرحمن النقيب اول حكومة عراقية ، وكانت تضم طالب النقيب ، وجعفر العسكري ، وساسون حسقيل وغيرهم[٢١٣] .

ومع ذلك ، فقد كان من الواضح ان الوضع ابعد ما يكون عن الاستقرار . وكتبت جريدة (الاستقلال) القومية : « صرح لويد جورج بأن السير برسي كوكس قد اعطي حرية واسعة في التصرف ، وهذا يعني ان سياسة (بريطانيا العظمى) في العراق لم تتحدد بعد . وعليه ينبغي على الامة العراقية ان لا تتردد في عرض مطاليبها »[٢١٤] .

وبعد ايام قلائل ، كتبت (الاستقلال) : « لم يطرأ اي تغير جوهري : ان الامة تريد عفواً عاماً ، وعودة المبعدين واعادة الضباط المحتجزين في سوريا وغيرها ، واجراء تغير كبير في الادارة (احلال العراقيين محل الاجانب) . ان اللغة العربية ليست اللغة الرسمية حتى الآن » .

وتنبأت الجريدة بحصول انفجار آخر اذا « لم يتم معالجة الوضع »[٢١٥] . وتابعت (الاستقلال) حملتها وذكرت : « لم يظهر حتى الآن اي شكل من اشكال الحكم الوطني ، كما انه ليس ثمة ما يدل على ان الحكومة البريطانية قد غيرت سياستها المناهضة لأماني الشعب . الا ان الوطنيين سينتصرون . . . ولا بد من ان يحرز العراقيون في النهاية نصراً للقضية الوطنية »[٢١٦] .

ونشر حمدي الباجه جي بياناً اعلن فيه انه « لن يقبل على الاطلاق اية وظيفة في ظل الحكومة المؤقتة »[٢١٧] . وقد فسرت السلطات البريطانية موقفه على الشكل التالي .

ان ذلك « يعكس موقف حزب العربية الفتاة الذي ينتمي اليه ، بالرغم من انه لا يمكن ادراجه ضمن الاشخاص الاكثر تطرفاً . . . انه لا ينظر الى الحكومة الحالية كمؤسسة وطنية ، ولا يرغب في تقديم ولائه لها . . . وحتى رشيد بك الخوجة (متصرف بغداد) اعرب في مجالسه الخاصة عن عدم ايمانه باخلاص النوايا البريطانية » .

ومضى التقرير الى القول بأنه « لا يمكن ان يزيل هذه الشكوك الا تشكيل الادارة العربية » .

---

(٢١٢) Haldane, *A Soldier's Saga: The Autobiography of General Sir Aylmer Haldane*, p. 383.

(٢١٣) كان الوزراء الآخرون هم : مصطفى الآلوسي ؛ عزت باشا (من كركوك) محمد بحر العلوم (من كربلاء) ؛ عبد اللطيف المنديل (من البصرة) ، ومحمد فاضل (من الموصل) . وعين ١٢ وجيهاً وشيخاً آخرون وزراء بلا وزارات .

(٢١٤) الاستقلال (بغداد) ، ١٧ / ١٢ / ١٩٢٠ .

(٢١٥) المصدر نفسه ، ٥ / ١٢ / ١٩٢٠ .

(٢١٦) المصدر نفسه ، ١٩ / ١ / ١٩٢١ .

(٢١٧) المصدر نفسه ، ٣٠ / ١ / ١٩٢١ .

والـواقع ان الجـانب الاكثر (قـومية) في تفسـير ثـورة العشـرين كـان يكمن في تحليـل البريطانيين ، في العراق وانكلترا معاً، لقواها واهدافها . ومن خلال هذا التفسير تم استنباط العلاج وتنفيذه . ومع ذلك ، فقد غالى البريطانيون في تقدير نفوذ الفئة التي كانت ، في الواقع ، ذات التأثير الاقل على (ثورة الفرات) ، اي الضباط العراقيين من حزب العهد . وكان جوهر السياسة البريطانية الجديدة يقوم على تبني نصيحة الميجر دكسن التالية « تعيين الرجال ذوي الاراء المعتدلة ، دون غيرهم ، في المناصب السياسية ، وضرب واضطهاد عناصر الثورة في حالة وجودها »[٢١٨] .

وكان هذا ما حدث فعلاً بعد ١٩٢١ ، وهذا ما عبر عنه ـ بأسى ـ محمد باقر الشبيبي :

بنينـا وأنشـأنـا ولكـن غـيـرنـا   يخـرب مـا كنـا بنينـا وأنشـأنـا[٢١٩]

---

(٢١٨) Major H R P Dickson, «Letters and Papers.» Oxford University, St. Antony's College, M.E.C. (DS77 ,SD61 53), Box 2A, File 61, p. 18.

(٢١٩) عبد الرزاق عبد الهلالي ، الشاعر الثائر : سيرة محمد باقر الشبيبي (بغداد : ١٩٥٧) ، ص ٩٦ .

الفصل الخامس عشر

الاستراتيجية البريطانية بعد الثورة: من الاستعمار المباشر الى الاستعمار غير المباشر

في اواخر ١٩١٤ ، كتب أ . ت . ولسن « اود ان اعلن انه من الضروري ضم ما بين النهرين الى الهند كمستعمرة للهند والهنود ، بحيث تقوم حكومة الهند بادارتها وزراعة سهولها الواسعة بالتدريج ، وتوطين اجناس البنجاب المحاربة فيها »[1] .

وقد اثبتت التطورات والاحداث اللاحقة ان هذه الرغبة لم يكتب لها التحقق قط . ومما لا شك فيه ان احد الاسباب الرئيسية لفشل سياسات الضم والالحاق كانت المقاومة الصلبة التي ابداها الوطنيون والقوميون العراقيون ، ولقد اعترفت غيرترود بيل بأنه « لم يكن يدور بخلد احد ، ولا حتى (حكومة صاحبة الجلالة) ان يمنح العرب مثل الحرية التي سنمنحهم اياها الآن ـ كنتيجة للثورة (ثورة ١٩٢٠)»[2] .

وقد ذكر أ . س . كلايتن بأنه « . . يمكن القول بأن الانتفاضة كانت ثورية حقاً ، وذلك نظراً لتأثيرها على الجهاز الصانع للسياسة البريطانية »[3] .

لقد كلفت الثورة البريطانيين ٩٠٦ قتلى ، و٢٤٧٦ مفقوداً و٦٧١ جريحاً[4]. ولأجل اخمادها كان عليهم ان يكبدوا العراقيين حوالى ٨٢٠٠ اصابة[5] . كما انها كلفت

---

(١) Inida Office [I.O.] L/P and S/10, 3136/14, no. 4717/14.
رسالة من أ . ولسن الى الكولونيل س . أ . بيتس ، عضو البرلمان ، في ٢٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٤ .

(٢) Gertrude Lowthian Bell, «Private Letters and Papers,» Newcastle-upon-Tyne University Library, «Letter Dated 19 September 1920,».

(٣) Aaron S. Klieman, *Foundations of British Policy in the Arab World: The Cairo Conference of 1921* (Baltimore; London: Johns Hopkins University Press, 1970), p. 59.

(٤) Foreign Office [F.O.] 371/5231/E. 13302, «Dated 25 October 1920,».

(٥) F.O. 371/5081, «Dated 16 November 1920,».

الخزينة البريطانية اكثر بكثير مما كلفته الحركة الحجازية . وفضلاً عن ذلك ، ففي بريطانيا نفسها جرت مطالبة عنيفة بالجلاء مع ازدياد وتصاعد العبء على البريطانيين .

« بدأ الناس بالتساؤل . . عما اذا كانت ما بين النهرين تستحق كل هذه التكاليف »[٦] . وعليه ، فثمة براهين كافية للتدليل على ان الثورة ساهمت مساهمة كبيرة في تغيير السياسة البريطانية . ومع ذلك ، فثمة حقيقة لا تقل اهمية ، وهي ان الحركة منيت بهزيمة عسكرية تامة . ولو كانت لدى الانكليز نية صادقة لضم العراق ، لكانوا استطاعوا تحقيق ذلك . الا ان هنالك الكثير من الادلة التي تشير الى ان الضم لم يكن الهدف البريطاني الاستراتيجي . فمثلاً اعلن تشرشل في ١٩١٤ وفي البرلمان البريطاني : « لا استطيع القول بأنه لبريطانية مصالح استراتيجية مباشرة ، واولية ، في ما بين النهرين . . . ان سياستنا في ما بين النهرين هي تقليص التزاماتنا والتخلص من اعبائنا ، وفي الوقت نفسه ، تنفيذ التزاماتنا بشرف وبناء حكومة عربية قوية وفعالة ، ذات علاقة ودية مع بريطانيا »[٧] .

ان قول تشرشل هذا تدعمه جزئياً ، مذكرة لوزارة الحربية تؤكد على : « . . . ان وجودنا هناك (في ما بين النهرين) ليس مدفوعاً بأي عامل عسكري . . . ان فكرة الاحتفاظ بقوات في ما بين النهرين او فارس لأجل الدفاع عن الهند هي خاطئة بصورة جذرية ، ولم تدر ابداً بخلد (حكومة صاحبة الجلالة)»[٨] .

اولاً : اهداف بريطانيا الحربية

ان هذه الاقوال لا بد من ان تثير على الفور مسألة الدوافع الكامنة وراء الاحتلال البريطاني للعراق وقمع الانكليز للثورة . لقد كانت ثمة افكار ووجهات نظر مختلفة بين الانكليز . ان العراق ، بقدر ما يتعلق بالمصالح الاستراتيجية البريطانية ، لم يكن كياناً موحداً غير قابل للتجزئة . فقد كان الجنوب (البصرة وما يحيط بها) ذا اهمية حيوية للبريطانيين . اما القسم الشمالي (بغداد والموصل) فلم يكن يمثل الاهمية الاستراتيجية للامبراطورية وقد كان هذا التقسيم للعراق واضحاً في اذهان البريطانيين منذ ١٨٩٨[٩] . حيث كان النصف الجنوبي من العراق (يؤلف جزءاً من الخليج) ، وهو المنطقة « التي خلفت فيها الدبلوماسية البريطانية لمدة قرنين ، وضعاً فريداً . . . تتداخل فيه المصالح التجارية ، والملاحة المحيطية ، والطريق الاستراتيجي الى الهند جميعاً »[١٠] . ولم

---

(٦) Elizabeth Monroe, *Britain's Moment in the Middle East, 1914-1956* (London: Chatto and Windus, 1965), p. 61

(٧) Great Britain, House of Commons, *Parliamentary Debates: Fifth Series, vols. 138-148* (London: His Majesty's Stationary Office [H.M S.O], 1921), vol. 143, «Dated June 1914, p. 276.

(٨) F.O. 371 / 5232 / E. 15721, «Memorandum by the Secretary of State for War, Dated 10 December 1920,».

(٩) George Peabody Gooch and Harold Temperley, eds., *British Documents on the Origins of the War, 1898-1914* (London H.M.S.O . 1928), vol. 1, p 8.

(١٠) Stephan Hemsley Longrigg, *Iraq, 1900 to 1950. A Political, Social and Economic History* (London; New York. Oxford University Press, 1953), p. 3.

يكن من الغريب ان تنظر بريطانيا الى « التنازل من قبل اية دولة عن جزء واقع على الخليج . . . الى روسيا (او المانيا)[١١] بصفته استفزازاً دولياً مؤدياً الى الحرب »[١٢] . وفي الواقع ، فلقد ذكر ان احتلال الجزء الجنوبي من العراق كان قد خطط له منذ سنوات قبل وقوعه[١٣] .

وقد كتب لويد جورج (رئيس وزراء بريطانيا) : « في اواخر ايلول / سبتمبر ١٩١٤ اصبح واضحاً ان تركيا ستنضم الى الدول العدوة على الارجح . وهذا الامر جعل من المهم ، على الفور ، اتخاذ خطوات للمحافظة على تجهيزات النفط في الخليج ، والتي كانت مملوكة (لشركة النفط الانكلو فارسية) . . . كوسيلة لتأمين تجهيزات الوقود النفطي للبحرية »[١٤] . وفي اوائل ١٩١٤ ، كان خط انابيب النفط (في عربستان) قد وسع الى ضعفيه ، وازداد عدد المصافي في عبادان الى درجة كبيرة[١٥] . وكان من الواضح ان بامكان القوات التركية الوصول بسهولة الى هذه المصافي من البصرة . وفضلاً عن ذلك ، كانت حكومة الهند تريد الحيلولة دون تغلغل الوكلاء الالمان شرقاً ، وحماية شيخي الكويت والمحمرة الصديقين[١٦] .

ولذلك ، يمكن الاستنتاج بأن الهدف البريطاني الاصلي لم يكن احتلال العراق بقدر ما كان ضمان المصالح البريطانية في الخليج ، وربما البصرة . ويدل ذلك على ان الغاية الاساسية للاستراتيجية البريطانية كان يمكن تحقيقها بقيام سلطة (صديقة) في العراق ، تضمن المصالح الاساسية للامبراطورية . ولكن في ١٩١٤ ، عندما كتب ولسن العبارة التي اقتبسناها في مطلع هذا الفصل ، كانت ثمة اطماع باستعمار او ضم العراق ، وقد اشتدت هذه الاطماع بعد ان اصبح الاحتلال حقيقة واقعة .

وفي الوقت الذي كان احتلال البصرة ، بشكل واضح ، امراً متفقاً عليه ، فإن التقدم اللاحق للبريطانيين نحو بغداد والموصل كان موضع خلاف بين صانعي السياسة البريطانية . وفي الواقع ، اعتبر لويد جورج ان الاستمرار في الحملة (مسألة جانبية) و(ينبغي سحبها)[١٧] . ان قراءة دقيقة لكتاب (الحملة في ما بين النهرين) (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وهو الكتاب الرسمي البريطاني ، لا بد من ان تؤدي الى الاستنتاج الآنف الذكر . ففي تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٤ ،

---

(١١) Great Britain, House of Commons, *Parliamentary Debates: Fifth Series*, vol. 7, «March 1911,» pp. 583-589, and vol. 21, «1911,» pp. 241-242.

(١٢) George Eden Kirk, *A Short History of the Middle East: From the Rise of Islam to Modern Times*, 7th ed. (London: Methuen, 1964), pp. 88-89.

(١٣) Philip Willard Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (London: Jonathan Cape, 1937), p. 22, and Longrigg, *Iraq, 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History*, p. 77.

(١٤) David Lloyd George, *War Memoirs*, 6 vols.(London: Nicholson and Watson, 1933-1946), p. 803.

(١٥) Henry Albert Foster, *The Making of Modern Iraq: A Product of World Forces* (London: Williams and Norgate, 1936), p. 37.

(١٦) Monroe, *Britain's Moment in the Middle East, 1914-1956*, p. 38.

(١٧) Lloyd George, *War Memoirs*, p. 802.

ابرق برسي كوكس (الحاكم السياسي في العراق) الى نائب الملك في الهند يقترح الاستيلاء على بغداد[١٨] . وقد ارسل نائب الملك برقية كوكس الى وزير الدولة لشؤون الهند واضاف انه يعتقد ان القيمة الاستراتيجية النهائية لبغداد (مشكوك فيها) ، و« حتى النجاح سيؤدي الى إضعاف مركزنا الاستراتيجي العام بدلاً من تقويته »[١٩] .

وفي آب / اغسطس ١٩١٥ ، اقترح السير جون نكسن (الذي تقلد قيادة حملة مـا بين النهرين في ٩ نيسان / ابريل) التقدم الى بغداد باعتباره افضل طريقة لمواجهة الاضطرابات في ايران . وفي ايلول / سبتمبر ١٩١٥ ، كتب اللورد هاردنغ الى المستر جامبرلين منـوهاً بـالاثر العظيم الذي سيتركه في الشرق الاحتلال البريطاني لبغداد[٢٠] . إلا ان الجنرال بارو (في وزارة الهند) دعا الى سياسة حذرة واصدار اوامر محددة الى الجنرال نكسن بعدم التقدم[٢١] . وفي ٤ تشرين الاول / اكتوبـر ، ابرق جـامبرلـين رسمياً الى الهنـد بأنـه « ليست ثمة مصلحـة في متابعـة الزحف . . . »[٢٢] . وفي ٦ تشرين الاول / اكتوبر ، ابرق هاردنك بصورة خاصة الى جامبرلين ، منوهاً بالسهولة التي يمكن بها احتلال بغداد ، وجادل بأنه : « . . . من وجهة النظر السياسية ، سيكون لاحتلال بغداد تأثير هائل في الشرق الاوسط ، لاسيما في فارس والفغانستان وعلى حدودنا ، وسيعادل التأثير السيء الذي خلقه عدم النجاح في الدردنيل . انه سيعزل الاحزاب الالمانية في فارس ، ويولد على الارجح مفعولاً مهدئاً في ذلك القطر ، ويحبط الخطة الالمانية لاثارة الفغانستان والقبائل ، في حين ان الاثر الذي سيتركه في ارجاء الجزيرة العربية سيكون بارزاً . وفي الهند ، سيكون تأثيره حسناً دون شك »[٢٣] .

وبدون الدخول في مزيد من التفاصيل[٢٤] فإن اسباباً من هذا القبيل[٢٥] هي التي اقنعت السلطات العليا بمرور الزمن ، ولكن ليس بدون صعوبات[٢٦] ، بالموافقة على احتلال بغداد وما يليها . ومع ذلك، فإن هذه الحجج (المقنعة) كشفت عن ان الاحتلال قد تقرر لاسباب خارجية اكثر منه لحماية او اقامة اية مصالح مباشرة في العراق نفسه .

---

(١٨) Frederick James Moberly, *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918: History of the Great War Based on Official Documents*, 4 vols. (London: H. M.S.O., 1923-1927), vol 1, p. 134, «Dated 23 November 1914,».

(١٩) Ibid., vol. 1, pp. 135-136, «Dated 25 November 1914,».

(٢٠) Ibid., vol. 2, pp. 3-4.

(٢١) Ibid., vol. 2, pp. 7-8.

(٢٢) Ibid., vol. 2, p. 8.

(٢٣) Ibid., vol. 2, pp. 15-16.

(٢٤) Ibid., vol. 2, pp. 16-17 and 450.

(٢٥) كتب الجنرال بارو تقرير الحملة ضد البصرة . انظر : المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٨٨ .

(٢٦) « ان اللورد كتشنر لم يتفق كلياً مع مضمون البرقية المرسلة الى اللورد هاردنغ . . . كان لا يوافق على اكثر من القيام بغارة على بغداد . . . » (المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٨) ؛ وفي الواقع ، كان تشرشل ، وزير البحرية آنذاك ، يعارض حتى في احتلال البصرة » (المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٨٢) .

وقد اشار اللورد كرزن الى انه « عندما ارسلنا قوة الى البصرة في اول الامر ، لم تكن لدينا نية الاحتفاظ بما بين النهرين بصورة دائمية وقد جررنا تدريجياً الى بغداد و . . . كانت الوزارة حريصة على تقليص الالتزامات المالية[٢٧] والعسكرية[٢٨] (لحكومة صاحب الجلالة) الى اقصى حد ممكن »[٢٩] .

ومع ذلك ، فعندما احتلت بغداد في ١٩١٧ ، نشأ واقع سياسي جديد ، وكان لا بد لذلك ان يبرز الى السطح الآراء المتضادة بين صانعي السياسة البريطانية . وجاءت البادرة الاولى مع اعلان مود بوعوده الوردية بتأليف حكومة عربية في المستقبل القريب[٣٠] . وعلى اثر احتلال بغداد ، حددت الحكومة البريطانية موقفها بمنتهى الوضوح :

« ان (حكومة صاحب الجلالة) اصدرت تعليماتها بالمحافظة على الجهاز الاداري القائم الى اقصى حد ممكن ، واحلال الروح والملاكات العربية محل التركية ، وبذل اقصى الجهود ، لدفع الممثلين المحليين الى الظهور والاشتراك في الادارة المدنية ، على ان يقتصر التعاون البريطاني قدر الامكان على المهمات الاستشارية »[٣١] .

الا ان اياً من هذه التعليمات والاعلانات وغيرها لم يوضع موضع التطبيق . فقد كان السير ارنولد ولسن هو الرجل البريطاني الذي تولى السيطرة موضعياً واصبح من الواضح (كما رأينا سابقاً) انه نفذ السياسة التي ارادها هو واعتبرها مناسبة . ان هذا الاستنتاج ليس محاولة لتحويل ولسن الى كبش فداء[٣٢] . ومهما يكن من امر ، فلقد سمحت الحكومة البريطانية لأحد مرؤوسيها بتنفيذ سياسة تتناقض مع وعودها . وهذا يعزز الرأي بأنه لولا ثورة العشرين ، لكان اتيح للنهج (الولسني) ان يحقق مشروعه او شكلاً معدلاً منه .

وليست ثمة ضرورة للاسهاب في موضوع يمس الدينامية الداخلية للسياسة البريطانية . الا انه يجدر بنا ملاحظة آراء لورنس حول المسألة : « انها الحكاية القديمة عن ترك كل شيء للرجل الموضعي . . ومن النادر الحصول على برقية مفهومة للتعليمات من الحكومة . واليوم اصبح الوضع اكثر سوءاً . . . فالحكومة لا

---

(٢٧) كلفت حملة العراق بريطانيا ٢٠٠ مليون باوند . انظر :

Great Britain, House of Commons, *Parliamentary Debates*, (1922), vol. 151, p. 1546.

(٢٨) بلغ عدد الاصابات البريطانية في الحرب (٩٢٥٠١)، انظر :

Moberly, Ibid., vol. 4, p. 331.

(٢٩) F.O. 371/5068.

محضر الاجتماع الذي عقد في وزارة الخارجية في ١٣ نيسان / ابريل ١٩٢٠ ، لمؤتمر مجموع الدوائر حول شؤون الشرق الاوسط .

(٣٠) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

(٣١) Moberly, Ibid., vol. 3, p. 254.

(٣٢) كتب أ . ولسن الى أ . هرتزل : « لا اعتقد ان اي شيء فعلته ، او كان يمكن ان افعله ، كان سيغير مجرى الاحداث بصورة جوهرية . . . واذا كانت حكومة صاحب الجلالة ترغب في الاستفادة من خدماتي ككبش فداء ، فإني لن احاول تفادي هذا المصير . . . » . انظر :

Sir Arnold Talbot Wilson, «Miscellaneous Papers,» British Museum, Department of Manuscripts, no. 52444, vol. 1, «Draft Letter,».

تستطيع عمل شيء ، والصحف لا تستطيع عمل شيء . . والى ان تضعوا الرجل المناسب هناك ، فسنبقى نحارب الآراء المتقدمة في كل مكان في ما بين النهرين »(٣٣) .

ولم يترك اللورد كرزن (وزير خارجية بريطانيا آنئذٍ) شكاً في ان ولسن هو المرجع الاعلى في الشؤون العراقية . وقد نوّه كرزن بأنه « . . . كانت هناك مدرستان فكريتان طيلة الوقت ، الاولى هي مدرسة الادارة البريطانية المباشرة ، وابرز دعاتها الكولونيل ولسن . والثانية . . هي مدرسة الدولة الوطنية »(٣٤) .

ومضى كرزن الى القول : « ان الكولونيل ولسن ، وهو رجل ذو حيوية وقوة فائقتين ، قد نجح ، بحكم مركزه الرسمي ، في وضع فكرته موضع التطبيق ، وان (حكومة صاحب الجلالة) قد اضطرت ، بشكل عام ، الى مسايرته »(٣٥) .

وفي اواخر ١٩١٩ ، بعثت وزارة الخارجية كتاباً الى السير برسي كوكس ، الذي كان في طهران . وقد ذكرت وزارة الخارجية بأن الادارة القائمة « متصلبة ، وباهظة التكاليف ، وتعيق تطور الادارة المدنية او اي شكل آخر من الحكم الاهلي قد يتقرر في المستقبل »(٣٦) . ومضت وزارة الخارجية الى التأكيد بأنه « في هذه الاثناء يبدو . . ان نظام الادارة المدنية . . لا يقوم بتنفيذ التصريح المشترك الصادر في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨(٣٧) ، ولا يرضي المطامح المحلية ، ولا يسير بالسرعة الكافية . انه نظام حكم بريطاني يأخذ بمشورة العرب (وذلك الى حد قليل فقط) اكثر منه حكماً عربياً يأخذ بمشورة البريطانيين . . . ويتعرض هذا النظام فعلاً لنقد شديد من جهات عديدة . . . وان فيصل . . . وضباطه . . . وعدداً من الرابطات والجمعيات المحلية يقومون بالتحريض في اتجاه مماثل . واخيراً فإننا نتلقى تقارير مزعجة متزايدة ، عن الاتجاه الحالي للادارة »(٣٨) .

وكان جواب كوكس ذا دلالة بالغة : « اني اوافق على ان النظام الحالي للادارة لا ينفذ ، في جميع المجالات نص او روح التصريح الانكلو- فرنسي . . . وقد كنت اشك دائماً في كون هذا التصريح يوفر الاساس العملي لادارة ما بين النهرين »(٣٩) .

وهكذا استمر ولسن في تنفيذ سياساته الخاصة في العراق، الا انه لم يستطع اسكات (تيار النقد المتصاعد) المتمثل في الصحافة البريطانية والذي كانت اصداؤه تتردد في البرلمان .

---

(٣٣) «Ferment for Freedom: Colonel Lawrence on Eastern Problem,» *Daily Herald*, 9/8/1920.

(٣٤) F.O. 371/5068, وقائع اجتماع عقد في وزارة الخارجية لـ I.D.C.M.E.A. ، بتاريخ ١٣ نيسان / ابريل ١٩٢٠ .

(٣٥) المصدر نفسه .

(٣٦) F.O. 371/4185/152286, «From Foreign Office to Sir Percy Cox, Dated 14 November 1919,».

(٣٧) قد يكون هذا إشارة الى الرسائل الخاصة لغرترود بيل .
John Marlowe, *Late Victorian: The Life of Sir Arnold Talbot Wilson* (London: Cresset, 1967), pp. 202-207.
تصريح انكلو- فرنسي وعد بمنح العرب الاستقلال والحكم الوطني .

(٣٨) F.O. 371/4185/152286, «From Foreign Office to Sir Percy Cox, Dated 14 November 1919,».

(٣٩) F.O. 371/4185/152324, «From Sir Percy Cox to Foreign Office, Dated 23 November 1919,».

ثانياً : موقف الرأي العام البريطاني

ان هذا التيار المعارض للسياسة المتبعة في ما بين النهرين كان نتيجة الظروف التي اعقبت الحرب ، والتي هيأت لظهور اتجاهين : (الاقتصاديين) الذين طالبوا بتخفيض سريع وحاسم في مصروفات الامبراطورية ، و(الليبراليين) الذين دعوا الى سياسة الاعتراف بحق تقرير المصير للامم المغلوبة ، وكان كل من هذين الاتجاهين يوجه نقداً شديداً الى السياسة المتبعة في العراق ، ويعبر عن احتجاجه عليها .

وقد سببت انباء الثورة بداية حملة واسعة في الصحافة البريطانية . وادعى لورنس « ان الرأي العام المسؤول برمته تقريباً في انكلترا يقف ضد سياستنا الحالية في ما بين النهرين . ان لويد جورج ووزراء آخرين يعارضونها . وجميع الصحف تقريباً تعارضها »[٤٠] . وفي آب / اغسطس ١٩٢٠ طالبت (التايمز) بـ« اولاً ، اصدار بيان حول الوضع الراهن للثورة في ما بين النهرين ، ثانياً ، ايضاح اسباب الثورة ، وثالثاً ، اصدار تصريح واضح وصريح حول السياسة المستقبلية في ما بين النهرين . . . »[٤١] . ثم مضت الى القول : « ان ما بين النهرين لن تكون (مجزية) حتى بعد الف عام . وقد اوضح المستر بكلي ، من دائرة الري المصرية ، انه اذا انفق ٣١,٠٠٠,٠٠٠ باوند على الري ، وتمت زراعة ثلاثة ملايين ايكر ، فإن الدخل الاجمالي لما بين النهرين (باستثناء النفط) قد يصل الى ١٠,٠٠٠,٠٠٠ باوند ـ خلال مدة خمسين عاماً » . « ولتحقيق هذه الغاية ينبغي التغلب ، اولاً على الصعوبات الهائلة المتعلقة بالايدي العاملة . . . ان هدفنا يجب ان يكون إخراج قواتنا بأسرع وقت ممكن »[٤٢] .

كان المقال (الاقتصادي) لـ (التايمز) محاولة لتبيان عدم جدوى الاستيلاء على العراق كعملية مربحة[٤٣] . وبعد ذلك بثلاثة ايام ، اتخذت (التايمز) موقفاً ليبرالياً وجادلت بالشكل التالي :

« مهما حاولنا اعتصار الكلمات ، فلا يمكننا تسمية المشاركين في الثورة بالمتمردين . . وليس من الغريب جداً انهم لجأوا الى هذا المسلك . إن السلطات المدنية في ما بين النهرين . . . قد سعت الى اقامة ادارة موسعة لن تكون البلاد في حاجة اليها خلال الخمسين عاماً القادمة . وقد فرضت على هذه البلاد المتخلفة مئات من الموظفين ذوي الرواتب الباهظة . . . وفرضت ضرائب تزيد بشكل جسيم عن معدل الضرائب في الهند ، بالرغم من ان ما بين النهرين . . . مشهورة بفقرها . . . وهي تسعى الى دعم سياستها بالاحتفاظ في ما بين النهرين بقوات تعادل الآن ،

---

(٤٠) «Ferment for Freedom: Colonel Lawrence on Eastern Problem,».

(٤١) *The Times*, (16 August 1920).

(٤٢) المصدر نفسه .

(٤٣) A.B. Buckley, *Mesopotamia as a Country for Further Development* (Cairo: Government Press, 1919).

ان هذا الكتاب ازال بعض التوقعات « المتفائلة » حول ما بين النهرين ، والتي شجعها كتاب : ري ما بين النهرين ، للسير و . ولكوكس .

عددياً ، ما يقرب من نصف قوة الجيش القائم في الهند ، بضمنه القوات البريطانية والهندية مجتمعة ، في السنوات التي سبقت الحرب العظمى . . . فهل نحن بحاجة الى البحث اكثر من ذلك عن اسباب الثورة؟»(٤٤) .

ومضت (التايمز) الى تبيان العواقب الوخيمة لتلك السياسة بالنسبة لبريطانيا نفسها : « اننا مقبلون على اوقات حرجة في بلادنا نفسها . (ارتفاع هائل في البطالة ، وزيادة اخرى في الاسعار ، مبعثها جزئياً التبذير الفاحش للاموال من قبل الحكومة في بلدان نائية . . . وفي كل مثل هذه الاحتمالات فإن عزم الحكومة على انفاق مبالغ جسيمة في محاربة العرب الذين يرفضوننا ويرفضون قوانيننا العضوية ، يبدو لنا اشبه بالجنون »(٤٥) .

وقد اكد هذه الفكرة السير ستانلي ريد (محرر التايمز اوف انديا) ، فقد كتب الى ولسن ، ان هناك شيئاً واحداً فقط يمكن عمله ، وهو الخروج من كل شبر من الاقليم ، وانقاذ ولاية البصرة ، بأسرع وقت ممكن (٤٦) ، وذهب ريد الى حد القول بأن « الاحتفاظ بالبلاد بقوة السلاح لا يعني سوى التمهيد لقيام حكومة سوفياتية في المملكة المتحدة وادارة سواراجية في الهند »(٤٧) .

وكان اصرح وابرز الدعاة لقيام ادارة عربية في العراق هو لورنس ، الذي طرح فكرة مهمة مؤداها ان (الاضطراب العشائري) كان جزءاً عضوياً من الحركة القومية : « منذ بضعة اسابيع ، طلب رئيس ادارتنا في بغداد حضور بعض الوجهاء العرب الذين ارادوا ان يؤكدوا مطالبتهم بحكم ذاتي جزئي (المندوبين) . وقد اضاف الى الوفد بعض العناصر التي رشحها بنفسه ، وقال لهم ، في جوابه ، انهم لن يكونوا آهلين لتحمل المسؤولية الا بعد زمن طويل . كلمات رائعة ـ الا ان عبئها كان ثقيلاً هذا الاسبوع على ابناء مانجستر في الحلة »(٤٨) .

وفي مقابلة صحافية مطولة ، اسهب لورنس في شرح آرائه . فأكد ، بالدرجة الاولى ، على اهمية القومية : « ان المحمديين والاقباط يعملون جنباً الى جنب من اجل القضية القومية . . . والخصومات القديمة بين السنة والشيعة اصبحت منسية »(٤٩) . ولخص لورنس حله للمشكلة فيما يلي : « اخرجوهم (اي البريطانيين) واحلّوا محلهم عرباً مثقفين ـ وهم متوفرون ـ فتنحل المشكلة من تلقاء ذاتها . ان سياستنا المعلنة هي اقامة حكومة عربية في ما بين النهرين ، ومن المنطقي ان يقوم العرب بهذه المهمة »(٥٠) .

وفي ١٢ تموز / يوليو ، نشرت (الديلي ميل) مقالاً طويلاً ذكر فيه الكاتب (لوفان فريزر) انه « ليس هناك في تاريخنا كله ما يمكن مقارنته بحماقتنا في ما بين النهرين »(٥١) .

---

(٤٤) *The Times*, (19 November 1920).

(٤٥) المصدر نفسه .

(٤٦) Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52457, vol. 3, «Dated 16 September 1920, Bombay,».

(٤٧) المصدر نفسه .

(٤٨) تعرض رتل مانشستر البريطاني ، لما يشبه الابادة في منطقة العارضية ـ الرارنجية على يد ثوار العراق . انظر : *The Observer*, 8/8/1920.

(٤٩) «Ferment for Freedom: Colonel Lawrence on Eastern Problem,».

(٥٠) المصدر نفسه .

(٥١) *The Daily Mail*, 12/7/1920, appendix5.

إن التيار الطاغي في الصحافة البريطانية لا يترك شكاً حول اتجاه (الرأي العام) البريطاني بخصوص المسألة العراقية . وكانت قوة هذا التيار تكمن في تعبيره عن واقع ان مصالح بريطانيا الاستراتيجية في العراق لم تكن تحتم وجودها المباشر . وفضلاً عن ذلك ، فإن هذا التيار كان يجد صدى متواصلاً له في البرلمان(٥٢) .

وكان في الواقع يعكس افكاراً وآراء رسمية ، وشكا ولسن : « ان ويكهام ستيد ، المحرر في (التايمز) ، يهاجمني شخصياً هجوماً عنيفاً الى حد ما ، واني اتساءل عمن يدفعه الى ذلك . انها (وزارة الخارجية) كما اتصور . ان الامر لا يهمني اطلاقاً ، الا ان شدة هجومهم على موظف دائمي امر غريب بعض الشيء »(٥٣) .

وقد سبق ان تعرفنا على موقف اللورد كرزن ، ومن الجدير بالذكر ان المستر مونتاغو (وكيل وزارة الهند) لم يكن اقل حرصاً على تسوية المشكلة العراقية على اساس قيام حكومة عربية ، حتى بدون انتداب . ففي ١٣ نيسان / ابريل ١٩٢٠ ، وفي مؤتمر لمجموع الدوائر ، قال مونتاغو ان ولسن يوصي بعدم استشارة الشعب . « انه (مونتاغو) لا يوافق على ذلك شخصياً . وما يريد قوله هو ان في نيتنا اقامة حكومة وطنية في دولة عربية ، وبذلك نخرس ألسنة المشككين » . ومضى مونتاغو الى التنويه بأنه «يرحب بأي شيء يلغي فكرة الانتداب ، التي تعتبر فعلاً بمثابة إهانة . وهو يفضل كثيراً قيام دولة مستقلة في ما بين النهرين ، يمكن لحكومة صاحب الجلالة ان تدخل معها في علاقات تعاهدية على اسس مشابهة للاتفاقية الانكلوفارسية . وقال اللورد كرزن « انه شخصياً حريص على التخلص من الانتدابات بالمرة » »(٥٤) .

وعلاوة على ذلك ، كان تأثير الصحافة والمناقشات البرلمانية البريطانية قوياً في العراق نفسه . اذ انها غذت حملة الوطنيين ضد الادارة المحلية بشكل فعال جداً . « لقد رحب المتطرفون بمقالات الصحف الانكليزية باعتبارها دليلاً على ان الانتداب كان مرفوضاً في لندن كما في بغداد »(٥٥) . وفضلاً عن ذلك ، اشار ولسن الى ، ان بعض الناس(٥٦) « قد اعتادوا على ابلاغ المتطرفين بالتفصيل بكافة الاشارات الواردة في الصحافة الانكليزية ضد السياسة المحلية والامبراطورية لـ (حكومة صاحب الجلالة) ، لاسيما مقالات

---

(٥٢) Great Britain, House of Commons, *Parliamentary Debates: Fifth Series, vols. 125-137* (London: H.M.S.O, 1920), vol. 127, pp. 644-645, 662 and 712; vol. 130, pp. 1468 and 1991; vol. 132, pp. 959-960, and vol. 133, pp. 1091-1092 and 1528.

(٥٣) Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52455, vol. 19 «Letter to Hirtzel, Dated 26 July 1920,».

(٥٤) F.O. 371/5068, «Minutes of I.D.C.P., Dated 13 Arpil 1920,».

(٥٥) Sir Arnold Talbot Wilson, *Mesopotamia, 1917-1920- a Clash of Loyalties: A personal and Historical Record* (London; New York: Oxford University Press, 1930), p. 255.

(٥٦) كان ولسن يشير بذلك الى قنصل الولايات المتحدة وممثل شركة ستاندرد اويل في بغداد . كانت برقيتا المندوب المدني ، رقم ٧٣٢١ بتاريخ ١٧ حزيران / يونيو ١٩٢٠ ، ورقم ٧٧٧٩ بتاريخ ٢٦ حزيران / يونيو ١٩٢٠ ، تتضمنان رسالة وضعت من و . هـ . غالاغر (ممثل ستاندرد اويل) . انظر :

Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52458, vol.4, no.9339, «Dated 3 September 1920,».

وقد اكدت هذه الاتهامات ، بصورة مستقلة ، وزارة الحربية في مذكرتها المرقمة ١٢١ / ٣ / ١٥٧٦ (M. 1. 2.) ، والمؤرخة في ٢٥ كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ .

(التايمز) (والمناقشات في مجلس العموم) والتي يشير اليها المتطرفون بحرية في خطبهم واحاديثهم العامة »[٥٧] .

ثالثاً : الخيارات الثلاثة

ان هذا يثير مسألة الاهداف الحقيقية او الاساسية لـ (بريطانيا) في العراق ، وبعبارة اخرى ، ما الذي كانت السياسة البريطانية تريد ان تقيمه في العراق ؟ في اوائل ١٩١٨ ، جادل هيرتزل بأن (ضم البصرة) قد اصبح ، كما هو مفترض ، خارج الصدد ، بما في ذلك الضم المقنع المشار اليه في اتفاقية (سايكس - بيكو) . « ان الواجهة العربية التي تحدثت عنها اللجنة[٥٨] يجب ان تكون شيئاً اكثر من واجهة . . »[٥٩] . وفي الوقت نفسه اكد هيرتزل انه « من الواضح اننا يجب ان نحافظ ، بشكل او آخر ، على النفوذ الغالب في ما بين النهرين »[٦٠] . وبعد ذلك بعامين ، في شباط / فبراير ١٩٢٠ ، كتب هيرتزل بصورة خاصة الى ولسن :

« هل فكرت يوماً باحتمال اضطرارنا للخروج؟ ان هذا الاحتمال يتزايد ببطء . . ان ما نحتاجه هو قليل من المؤسسات العربية التي يمكننا تركها باطمئنان في الوقت الذي نمسك فيه بالخيوط نفسها ، شيء لن يكلف كثيراً جداً ، شيء يستطيع (حزب العمال) هضمه دون ان يتعارض مع مبادئهم ، وفي الوقت نفسه يكون نفوذنا ومصالحنا السياسية والاقتصادية مضمونة . . . . لقد آن الأوان لتقليص كافة الاطماع ، واختزال كافة المسؤوليات الى اضيق الحدود . وستكون العاقبة وخيمة اذا حاولنا اي شيء آخر »[٦١] .

وبالنسبة لذهنية ولسن ، كان هناك خياران فقط : اما ان يحكم (البريطانيون) او يذهبوا[٦٢] . وفي ٩ حزيران / يونيو ١٩٢٠ كان ولسن يدرك انه « ليس ثمة حزب وسط في الوقت الحاضر ، ولذلك استأثر المتطرفون بالمسرح » . وحث حكومته على السماح له باعلان اصلاحاته الدستورية والموافقة على ارسال وفد الى لندن . وكان المفروض ان ذلك سيجعله يشعر بـ « قوة كافية لاتخاذ عمل حاسم ضد الزمرة الصغيرة من المتشددين الرئيسيين ، الذين يؤلف نفوذهم المتزايد خطراً عاماً »[٦٣] .

---

(٥٧) F.O. 371/5228/E. 9849, «From Civil Commissioner, Baghdad, Dated 15 August 1920,».

(٥٨) في ١٩ آذار / مارس ١٩١٧ ، شكل مجلس الوزراء « اللجنة الادارية لما بين النهرين » لبحث مستقبل العراق السياسي . F.O. 371/3951/68626.

(٥٩) Cabinet Papers [C.P.] 27/23, «Eastern Committee,».
مذكرة من السير أ . هرتزل حول « مستقبل ما بين النهرين » مؤرخة في ١١ كانون الثاني / يناير ١٩١٨ .

(٦٠) المصدر نفسه .

(٦١) Marlowe, *Late Victorian: The Life of Sir Arnold Talbot Wilson*, pp. 182-183.
(التشديد للمؤلف) .

(٦٢) Wilson, «Miscellaneous Papers,» no. 52455, vol. 1, «Telegram Dated 29 July 1920, no. 9180,».

(٦٣) F.O. 371/5227/E. 6509, «From Civil Commissioner, Baghdad, Dated 9 June 1920, no. 6976,».

وفي اليوم نفسه ارسل برقية اخرى وضّح فيها موقفه بكل جلاء . وقد جاء فيها : « . . . في شباط / فبراير الماضي حذرت الحكومة من اننا يجب ان نتمسك بما كان لدينا آنئذ بواسطة القوات الموجودة في البلاد ، او نجلو عنها ، وانه ليس ثمة طريق وسط . . . اننا لا نستطيع تنفيذ الانتداب بدون المجازفة بكارثة ، الا اذا كنا مستعدين للاحتفاظ ، خلال العامين القادمين بنفس العدد من القوات الموجودة في البلاد الآن على الاقل ، وفي حالة من الكفاءة اكثر بكثير مما هي عليه الآن . . (ويجب) ان نسترجع دير الزور ومن ضمنها الرقة . . . لا يمكننا ان نحافظ على مركزنا كدولة منتدبة باتباع سياسة مصالحة مع المتطرفين . . . يجب ان نكون مستعدين ، بغض النظر عن عصبة الامم ، للسير ببطء شديد في اقامة المؤسسات الدستورية او الديمقراطية . . . واذا كانت (حكومة صاحب الجلالة) تعتبر مثل هذه السياسة غير عملية او فوق طاقتنا (وهذا جائز) ، فإني ارى انه من الافضل مواجهة البديل . . . والجلاء عن ما بين النهرين . . . اني لعلى ثقة من ان انصاف الحلول ستؤدي الى الكوارث . . . »(٦٤) .

وقد ذكر يونغ (سكرتير وزير الخارجية (لورد كرزن) والمندوب السامي في العراق فيما بعد) ان ولسن كان يصرح بأن « هناك خيارين فقط امامنا ، اما الاحتفاظ بما بين النهرين بالقوة ، او الانسحاب نهائياً » . ومضى الى الاشارة الى « ان ولسن لا يذكر شيئاً على الاطلاق عن الخيار الثالث الذي كان يمثل دائماً سياسة(حكومة صاحب الجلالة)وهو، البقاء في ما بين النهرين برضاء الشعب. وليس من الصعب معرفة سبب ذلك ، وهو انه يعلم اننا لا نستطيع الحصول على رضاء الشعب إلا باقامة حكومة ذات طابع عربي غالب ، واني لواثق تماماً من ان الكولونيل ولسن سيبذل قصارى جهده للحيلولة دون تحقيق هذا الهدف »(٦٥) .

وفي اجتماع مشترك لمجموع الدوائر البريطانية ، عقد مع ورود الانباء الاولى عن الثورة من بغداد ، اتضح بجلاء الضعف الشديد لآراء ولسن بين صانعي السياسة البريطانية . وقد ذكر كرزن انه « من المؤسف جداً ان الكولونيل ولسن بقي طيلة هذه المدة في ما بين النهرين » . وتوصل المجتمعون الى الاقتناع بأن من الضروري ازاحة ولسن . وكان البديل الواضح هو برسي كوكس ، حيث ان « كافة ضباط (ولسن) كانوا لا يقلون عنه ولسنية » ، حسب تعبير مونتاغو(٦٦) . الا ان كرزن ذهب الى حد القول : « اننا لسنا واثقين تماماً من ان (كوكس) يعرف ما هي سياستنا والظاهر . . . ان (كوكس) هو اكثر منا ولسنية في نظرته بعض الشيء . . . ونحن نخشى ان يتبنى السير برسي كوكس . . . موقفاً اكثر ولسنية مما نرغب فيه » .

ولخص كرزن الرأي « الذي نحن على ثقة من موافقة المؤتمر عليه ، هو اننا يجب ان نواصل النهج الوسط في الحفاظ على مركزنا في البلاد برضاء الشعب »(٦٧) .

وأورد مارلو الاسباب التالية للاستياء الذي اثاره نهج ولسن بين السلطات العليا : « وكان

---

(٦٤) Ibid., no. 6948.

(٦٥) (التشديد للمؤلف) . Ibid., «Dated 16 June 1920,».

(٦٦) نوه كوربيت وهرتزل بأن السير ادغار بونام كارتر « كان رجلاً حر التفكير » .

(٦٧) F.O. 371/5226/4811, «Minutes of I.D.C.E., Dated 27 June 1920,».

(ولسن) يواجههم دائماً اما بطلب اتخاذ قرار محدد ، او بأمر واقع ، او بطلب الاختيار بين خيارين مبسطين بشكل مفرط »[٦٨] .

وأود ان اضيف هنا ان خيارات ولسن اثارت الاستياء بالدرجة الاساسية لأنها كانت تخالف النهج الذي كان يرغب فيه (الوايتهول) .

رابعاً : تأثير الثـــورة

إن النواقص الاصلية للثورة ، بالاضافة الى هزيمتها العسكـرية ، لعبت دوراً في تقليص تأثيرها على السياسة البريطانية . وبهذا الصدد ، يعود الفضل للثورة في تركيز الانتباه على المسألة العراقية برمتها والقضاء على احتمالات التسويف في حلها . لقد عجلت الثورة بظهور سياسة جديدة . وكان لا بد لهذه السياسة ان تتأثر الى حد كبير بالتفسير (الصائب او الوهمي) الذي قدمه صانعو السياسة ، عن الاسباب والقوى الكامنة وراء الثورة . وفضلاً عن ذلك ، فإن الثـورة قضت بصورة نهائية على امكانية (الحكم بواسطة القوة) وتركت خيارين لا ثالث لهما : الجلاء او هيمنة النفوذ البريطاني برضاء بعض العراقيين .

وما ان ادرجت مسألة الجلاء في جدول العمل ، حتى اخذت الشركات والمصالح الماليـة البريطانية تمارس ضغطاً معاكساً . ففي ٢٨ تموز / يوليو ١٩٢٠ بعثت غرفة تجارة بغداد برسالة الى المندوب المدني تعرب فيها عن « ارتياحها لقرار حكومة صاحب الجلالة بقبول الانتداب » ، وتحـث عـلى « الاحتفاظ بالقوات البريطانية » وتأسـف لـ « إعطاء اهمية اكثر مما ينبغي للمتاعب الراهنة مع العشائر » حيث ان « الثورات العشائرية ستتوقف عندما يدرك العرب ان ثمة حكومـة حازمـة ومستقرة تتولـى حفـظ الامن »[٦٩] . وفي ٣٠ تموز / يوليو ١٩٢٠ ، طلبت شركة بريطانية « تأكيدات بان حكومـة صاحب الجلالة لا تنوي الانسحاب من ما بين النهـرين »[٧٠] . وفي اليوم التـالي طالبت شـركة اخـرى بتأكيـد مماثل[٧١] . وفي ٢٩ كانون الاول / ديسمبر ١٩٢٠ ، تلقت وزارة الهند احتجاجاً من غرفة تجارة بغداد « على الجلاء عن العراق »[٧٢] . ويتجلى تأثير هذا الضغط ، بوضوح ، في برقية كوكس التي اقترح فيها « وجوب التشاور مع البيوتات التجارية والمالية الرئيسية ذات المصالح في ما بين النهرين ، فيما يتعلق بالاتجاه والمدى المتوقعين لتعاونها في ادارة ما بين النهرين في المستقبل »[٧٣] .

---

(٦٨) Marlowe, *Late Victorian: The Life of Sir Arnold Talbot Wilson*, pp. 256-257.

(٦٩) F.O. 371/5228/E.9413.

برقية من بغداد تحمل رسالة من غرفة تجارة بغداد .

(٧٠) Ibid., E. 10061.

(٧١) Ibid., E. 10062.

(٧٢) F.O. 371/6349/218, «From Sir Percy Cox to India Office,».

(٧٣) F.O. 371/162/2451, «From High Commissioner, Baghdad, Dated 16 February 1921.».

وقد اشار ولسن الى ان الرأسمالي البريطاني (الغارق) في العراق حتى نهاية ١٩١٩ يقـبدر بـ١٦مليون باونـد . وبالاضـافة الى ذلـك ، فإن « القيمـة المرسملة لحقـول النفط يمكـن تقديـرها بـ٥٠,٠٠٠,٠٠٠باوند على الاقل. ومن المعروف ان ثمة معادن اخرى . . . توجد في كردستان » . ومضى ولسن مؤكداً ان الاستيرادات تضاعفت ثلاث مرات منذ ١٩١٣ وأنها « تبلغ الآن ١٦,٠٠٠,٠٠٠ باوند » ، من ضمنها ١٠ ملايين باوند من بريطانيا. وخلص ولسن الى الاستنتـاج بأن « اي تقليص في سلطة الحكومة . . . سينطوي على كارثة واسعة النطاق بالنسبة للمصالح التجارية البريطانية والمحلية »(٧٤) . وفي آذار / مـارس ١٩٢٠ ذكر رئيس الـوزراء جواباً على المسـتر اسكويث (رئيس المعـارضة في البـرلمان البـريطاني) ان « المـوصل . . . تحتـوي على مـوارد نفطيـة غنية . وان العـراق ينبغي التعـامـل معـه ككيـان موحد »(٧٥) .

إلا ان هذه الحجج كانت تقابلها التكاليف الكبيرة في العراق والتي كانت عبئاً ثقيلاً على الخزينة البريطانية . وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت مسألة الجلاء ذات بعد اوسع . فإنها لم تكن عملية ، وكانت تؤلف خطراً على الجوانب الاكثر جدية في الاستراتيجية الامبريالية البريطانية في المنطقة . ففي ١٠ نيسان / ابريل ١٩٢٠ ، تنبأت المس بيل بـ « اننا على حافة تظاهرة قومية عربيـة كبيرة » . وأكدت : « انني اتعاطف كثيراً مع هذه التظاهرة » . ومع ذلك فقد ذكرت انه « اذا خسرنا ما بين النهرين ، فسنخسر فارس حتماً ثم الهند »(٧٦) .

وفي ١٠ كانون الاول / ديسمبر ١٩٢٠ جادل وزير الدولة للشؤون البحرية في مذكرة له بأنه « من وجهة النظر الاستراتيجية ، فإن التبرير الوحيد لبقاء القوات العسكرية في ما بين النهرين هو . . . المحافظة على السيطرة على الخليج وحماية حقول النفط الانكلو ـ فارسية ، التي كانت ، ولا تزال ، ضرورية للبحرية »(٧٧) .

وعليه ، فقد طلب سحب القوات البريطانية الى البصرة « بأسرع وقت ممكن »(٧٨) . وابلغ الجنرال هالدن (قائد القوات العسكرية البريطانية في العراق) المندوب السامي بأن « مجلس الجيش قد صرح بأنه يتوقـع اعـادة ارسـال كافة التعزيزات التي تبلغ ٢٠ كتيبة . . . والتي ارسلت بناء على طلبي . . في فترة نشوب القتال . . . اعادة ارسالها الى الهند او مكان آخر في موعد لا يتجاوز ٣١ آذار / مارس ١٩٢١ »(٧٩) .

وان هذا يدل على ان وزارة الحربية لم تكن مدركة تماماً للمضامين والعواقب السياسية لآرائها

---

(٧٤) F.O. 882 24, «From Civil Commissioner, Baghdad, Dated 15 November 1919,» appendix 11.

(٧٥) Great Britain, House of Commons, *Parliamentary Debates, Fifth Series, vols. 125-137*, vol. 127, p. 662.

(التشديد للمؤلف) .

(٧٦) Gertrude Lowthian Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, ed. by Lady, F. Bell, 2 vols. (New York: Boni and Liveright, 1927), p. 486.

(٧٧) F.O. 371 5232, E. 15721.

(٧٨) F O. 371 6348 244, «From War Office to India Office, no. 87318, Dated 23 December 1920,».

(٧٩) F O. 371 6349 227, «From General Haldane to High Commissioner, no. 0/2088/50, Dated 6 November 1920,».

او مطالبها . وقد وزع وزير الدولة لشؤون الهند مذكرة الى مجلس الوزراء نوه فيها بأن الانسحاب الى البصرة سوف يعني التخلي عن الانتداب ، وطلب دراسة الموضوع على ضوء ذلك . وفضلاً عن ذلك ، فقد نوه بأنه في حالة الجلاء ، ستكون البصرة بحاجة الى فرقة بريطانية على الاقل لحمايتها . ومع ذلك فلم يكن ثمة ضمان ضد زحف تركي او بلشفي على سائر انحاء العراق . وفي هذه الحالة ، فإن وجود فرقة بريطانية واحدة لن يكون كافياً للدفاع عن البصرة(٨٠) .

وفي ٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٠ ، اوضح الجنرال هالدن بكل جلاء ان « مسألة تقليص الحامية . . . ليست مرتبطة فقط بمسألة نزع السلاح ، بل بخلق جيش عربي »(٨١) . وهذا يعزز الرأي القائل بأن الجلاء البريطاني عن العراق كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بخلق ادارة وجيش عربيين لملء الفراغ والحيلولة دون احتلال العراق من قبل (الشياطين السبعة) . وقد اكدت ذلك برقية كوكس المؤرخة في ١٢ تشرين الثاني / نوفمبر ، والتي اشار فيها الى مسألة الانتداب ومسؤولياته ، واهمية القوات المجندة محلياً ، وخلص الى الاستنتاج بأن الجلاء لم يكن عملياً في الوقت الراهن(٨٢) .

وفي ١٥ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٢٠ ، ابرق هالدن الى وزارة الحربية بأنه لا يستطيع التوصية بتقليص الحامية النظامية ما لم « تستبدل بقوات محلية ولا انوي القيام بأي عمل ما لم يتخذ قرار حول السياسة المستقبلية في العراق »(٨٣) .

وبعد مرور زمن طويل على الاحداث ، لخص السير برسي كوكس الوضع بالعبارات التالية : « . . . كان واضحاً ان الثورة يجب ان تخمد قبل ان يصبح بالامكان سلوك اي سبيل للعمل ، وكانت المسألة موضوع البحث هي ما اذا كان ينبغي علينا ، بعد اعادة القانون والنظام ، وضع حد لخسائرنا ، والتخلي عن الانتداب والجلاء عن البلاد ، او اقامة حكومة وطنية على الفور . . وفي رأيي ، ان الجلاء لم يكن ممكناً ، فقد كان يعني التخلي عن الانتداب وعن ارصدة رساميلنا البالغة قيمتها سبعة او ثمانية ملايين باوند في داخل البلاد ، والاخلال التام بكافة الوعود التي قدمناها للعرب . . . اما بخصوص ما اذا كانت السياسة البديلة لاقامة حكومة وطنية على الفور تحظى بفرصة معقولة للنجاح ، فقد اجبت بأني اعتقد ذلك ، وان لم اكن مفرطاً في الثقة ، وان الامر يستحق المجازفة على اية حال اذا اعتبرناه البديل الوحيد عن الجلاء »(٨٤) .

---

(٨٠) F.O. 371 / 6348 / 244, «Note Circulated to Cabinet by Secretary of India, Dated 24 December 1920,».

(٨١) F.O. 371 / 6349 / 227, «From General Haldane to High Commissioner, no. 0 / 2088 / 50, Dated 6 November 1920,».

(التشديد للمؤلف) .

(٨٢) F.O. 371 / 6349 / 227, «From High Commissioner, Baghdad, no. S.D. 89, to G.O.C. in C.M.E.F., Dated 12 November 1920,».

(٨٣) F.O. 371 / 6349 / 227, «From Headquarters, M.E.F., Baghdad, to Secretary of War Office, Dated 15 November 1920,».

(٨٤) Percy Cox, «Tribute to Gertrude Bell,» in: Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, pp. 526 - 527.

(التشديد للمؤلف) .

والواقع انه عندما شعر كوكس بالمطالبة بسحب القوات الى البصرة[٨٥] ، اعرب عن رأيه وهو « اذا لم نستطع الاحتفاظ بولايتي بغداد والبصرة ، فيجب ان نرفض الانتداب بالمرة ، ولا نحتفظ . . . الا . . . بالبصرة تحت الادارة البريطانية الكاملة »[٨٦] ، الا ان كوكس لم يكن مقتنعاً حقاً بالجزء الاخير من قوله . فقد كان يؤمن بل ويسعى من اجل عدم تجزئة العراق ، « تذكروا انه ليس ثمة حدود يمكن الدفاع عنها بين الموصل وبغداد ، واذا استولى الاتراك على بغداد ، ألن يهدفوا الى الاستيلاء على البصرة ايضاً ؟ »[٨٧] . هكذا كان كوكس يحاجج الحكومة البريطانية . وعشية مسألة الجلاء بشكل عام ، نوه كوكس بالمشاكل التي ينطوي عليها ذلك : « . . . ستتعرض حقول النفط الفارسية مرة اخرى للخطر ، كما ان الحقول العراقية ، التي توجد دلائل كثيرة على توفرها ، ستنتقل الى ايدٍ معادية . وان تجارتنا مع العراق ، التي تبشر بالخير ، ستتضرر ايضاً . . . »[٨٨] .

واذا كانت سياسة (الحكم بالقوة) تعني نفقات باهظة جداً ، وتحدي الرأي العام البريطاني والعراقي ، فإن بديل (الجلاء) كان ينطوي على تضحية لا مبرر لها بالمصالح والهيبة البريطانية . ولذلك ، ارتؤي ان الحل الافضل هو طريق وسط يضمن المصالح ، وفي الوقت نفسه يختصر التكاليف . وحسب تعبير تشرشل ، « ان فيصل يقدم الامل بالحل الافضل والارخص »[٨٩] ، وهكذا كان الامر فعلاً[٩٠] . ان هذا الرأي في المحافظة على المصالح البريطانية بالاقتران مع تخفيض التكاليف وتتويج فيصل ، كان يحظى ايضاً بتأييد كوكس[٩١] . ولكن لماذا كان فيصل يمثل هذا (الحظ السعيد) ؟ كان ذلك مرتبطاً بالطريقة التي فسر بها صانعو السياسة البريطانية اسباب نقمة العراقيين والقوى الكامنة وراءها .

ففي ٥ آب / اغسطس ارسل ولسن برقية مطولة عزا فيها الحركة الى « التدفق المنتظم للدعاية من سوريا و . . . تركيا ، والمدعوم باموال غزيرة »[٩٢] . ومضى الى التأكيد على اهمية العوامل الخارجية ، مقترنة بالضعف العسكري البريطاني ، باعتبارها العناصر الاكثر اساسية وراء انفجار العنف . وفي برقية ثانية اعترف ببعض العوامل الداخلية المرتبطة بادارته . الا انه استمر على الاعتقاد بأن التحريض الخارجي كان المسؤول بالدرجة الرئيسية عن نشوب الحوادث[٩٣] .

---

(٨٥) F.O. 371/6349/222, «War Office to General Haldane, no. 87319, Dated 3 December 1920,».

(٨٦) F.O. 371/6349/222, «High Commissioner, no. 1485, Dated 2 January 1920,».

(٨٧) Philip Graves, *The Life of Sir Percy Cox* (London: Hutchinson, 1941), p.324.

(٨٨) المصدر نفسه .

(٨٩) F.O. 371/6350, «From Churchill to Prime Minister, Cairo, Dated 21 March 1921,».

(٩٠) انخفضت التكاليف البريطانية في العراق الى اقل من ٨ ملايين باوند عام ١٩٢٢ / ١٩٢٣ ، والى اقل من ٦ ملايين باوند عام ١٩٢٣ / ١٩٢٤ ، وذلك بالقياس الى ٣٢ مليون باوند عام ١٩٢٠/ ١٩٢١ .

(٩١) F.O. 371/6349/222, «High Commissioner, no. 1485, Dated 2 January 1920,».

(٩٢) F.O. 371/5228/9849, «From Civil Commissioner, Baghdad, 5 August 1920, no.9450,».

(٩٣) F.O. 371/5229/E. 10109, «From Civil Commissioner, Baghdad, 12 August 1920, no. 9700,».

وفي ٢٦ آب / اغسطس ، وزع مونتاغو (مذكرة) سرية ، وقد نوه فيها بأنه نتيجة لرسائل لورنس الى (التايمز) اصبح لدى (الرأي العام) انطباع بأن البريطانيين « يحاربون الوطنيين الذين لا يطالبون الا بشكل من الحكم يتسم بقدر معقول من الاستقلال والتشارو مع بريطانيا » . وذكر مونتاغو بصراحة ان الغرض من « مذكرته هو الاشارة الى ان سبب الانفجار يكمن خارج ما بين النهرين » . ومضى الى القول : « لذلك ينبغي علينا الاعتراف بأننا نحارب عدواً مجهولاً . . . (أ) لقد تم الاعتراف منذ زمن طويل بأن الحزب العربي يمكن تقسيمه بشكل عام الى قسمين : (١) المتطرفين العقلاء الذين يرغبون في الاستقلال في ظل السيطرة البريطانية ، و(٢) المتطرفين الغلاة ، الذين يرغبون في الغاء السيطرة الاوروبية . . . (ب) ان هؤلاء المتطرفين الغلاة يحظون بعطف . . . البلاشفة ، والفوضويين الهنود ، والكماليين . ان مصطفى كمال هو الآن بلشفي صريح (كذا) . . . ممثلو ستاندارد اويل ، في بغداد . . . وسواء كان هؤلاء يمثلون حركات مستقلة او جزءاً من مؤامرة واحدة ، فإنهم متحالفون على الاقل »[٩٤] .

وبالرغم من هذا التحليل (التآمري المتطرف) ، فقد توصل مونتاغو الى استنتاج (عاقل) . فقد ذكر « ان الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها محاربة المتطرفين الغلاة هي كسب تأييد الوطنيين الموالين لبريطانيا » . واقترح لذلك « توجيه كافة الطاقات . . . من اجل تهيئة حزب وطني . . . يكون مستعداً لتقلد الحكم ، في ظل المشورة البريطانية »[٩٥] .

وفي ١٤ ايلول / سبتمبر ، قدم الميجر ن . ن . أ . براي (ضابط المخابرات الخاص الملحق بالدائرة السياسية لوزارة الهند) بشكل (سري للغاية) (تقريراً اولياً عن اسباب الاضطراب في ما بين النهرين) . وقد استهل تقريره بالقول : « ينبغي علينا . . . ان نبحث بين الطبقات المتعلمة . . . عن عوامل الاضطراب او الهدوء السياسي . . . فقد تنامت لديها طيلة سنوات ، روح قومية عربية . . . الاستقلال بالنسبة لها امر حقيقي جداً . . . ان هذا الحزب الذي يسعى الى اهداف مشروعة ، قدم الكثيرون من افراده تضحيات كبيرة من اجله . هو قادر ، كحزب سياسي ، على القيام بتحريض قوي عربي وبالتالي خلق اضطراب كبير »[٩٦] . ومع ذلك ، فقد كان الميجر براي يميل الى اعتبار الاضطراب في العراق جزءاً من مؤامرة عالمية « تدبرها جمعيات مختلفة ، ويوجهها نفوذ خارجي من خلال برلين وموسكو . . . ومما يزيد في تعقيد الوضع ، الدسائس الايطالية والفرنسية والبلشفية »[٩٧] .

وفي تشرين الاول / اكتوبر ١٩٢٠ ، رفعت هيئة الاركان العامة لوزارة الحربية تقريرها حول (عوامل الانفجار في العراق) ، وقد ذكرت فيه ان الثورة العراقية لم تكن سوى جزء من « نفوذ موسكو الخبيث »[٩٨] .

---

(٩٤) F.O. 371/5229/E. 10440, «Note on the Causes of the Outbreak in Mesoporamia, Dated 26 August 1920,».

(٩٥) المصدر نفسه .

(٩٦) F.O. 371/5230/E. 12339.

(٩٧) المصدر نفسه .

(٩٨) War Office [W.O.] 33/969, «Causes of 1920 Outbreak In Mesopotamia,».

وكان لا بد لهذه الآراء ان تلقى معارضة من مسؤولين آخرين . فقد كتب كلايتن (عضو المكتب العربي في مصر) : « اعتقد ان التأثيرات الخارجية والدعاية التخريبية نادراً ما تثير الشرقيين (لاسيما الفلاحين) الى اعمال متطرفة على نطاق واسع ، ما لم تكن التربة مهيأة لذلك بوجود عوامل التذمر » . وقد اقترح كلايتن تأليف « حزب وطني ليتولى الحكم في ظل المشورة والسيطرة البريطانيتين »(٩٩) .

وفي ١٥ تموز / يوليو ، اعرب الميجر يونغ عن رأيه في ان نوري السعيد او جعفر العسكري هما « املنا الاخير تقريباً »(١٠٠) . وبعد ذلك بثلاثة ايام ، كتب مذكرة اقترح فيها ، من بين امور اخرى ، تنحية ولسن ، وارسال نوري وجعفر الى العراق ، واصدار تصريح بأن بريطانيا توافق على اي حاكم يختاره مجلس تشريعي(١٠١) . وفضلاً عن ذلك ، فقد اعترض الميجر يونغ على تحليل الميجر براي ، وعزا الاضطراب الى « القوميين الذين استاءوا من ادارتنا ، وفقدوا كل امل في تحقيق الاستقلال . . . واثروا على رجال العشائر الجهلاء (كذا) عن طريق مخاطبة عواطف لم ولن نشاطرهم اياها »(١٠٢) . واستنتج يونغ انه « اذا كانت اخطاؤ نا ، كما يقول الميجر براي . . . ثانوية ، فإن آفاق المستقبل ليست مشرقة و . . . ينبغي علينا الخروج من ما بين النهرين بصورة نهائية . ولكن ، من جهة اخرى ، اذا . . . كانت اخطاؤ نا هي التي سببت الاضطرابات . . . فليس علينا الا تصحيح اخطائنا . . . »(١٠٣) .

وواجهت افتراضات براي تحدياً آخر من كورنوالس (الذي كان آنئذٍ مدير المكتب العربي) . ولم يستبعد كورنوالس تماماً الصلات الخارجية للقوميين العراقيين ، الا انه كان يرى ان تغيير السياسة البريطانية ازاء تحقيق الاستقلال العربي سيضع حداً لهذه الصلات المثيرة للقلق . وكان كورنوالس مقتنعاً بأن « العرب يعلمون تماماً بأنهم يحتاجون الى المساعدة الخارجية ، وهم في قرارة نفوسهم يفضلون الحصول عليها منا بدلاً من الاتراك او الالمان او البلاشفة »(١٠٤) .

ومع ذلك ، فقد تمسك الميجر براي بوجهة نظره ورفع تقريراً ثانياً يتضمن مزيداً من الاسهاب حول موضوع (المؤامرة العالمية) الهادفة الى زعزعة النفوذ البريطاني . واقترح براي بعض التدابير المعاكسة لاحباط هذه المؤامرة . وذكر انه « فيما يتعلق بما بين النهرين نفسها فإن النقطة المهمة هي عزل العروبيين عن القوميين الاتراك . وكوسيلة مباشرة لتحقيق ذلك ، يجدر بنا دراسة امكانية استخدام جمعية العهد التي هي ، في قرارة نفسها ، مناهضة للاتراك »(١٠٥) .

---

(٩٩) F.O. 371/5229/E. 10440, «Note on the Causes of the Outbreak in Mesopotamia, Dated 26 August 1920,».

(١٠٠) F.O. 371/5036.

(١٠١) F.O. 371/5228, «Dated 18 July 1920,».

(١٠٢) F.O. 371/5230/E. 12339, «Major Young Minutes, Dated 12 October 1920,».

(١٠٣) المصدر نفسه .

(١٠٤) F.O. 371/5230/E. 12339, «K. Cornwallis Minutes, Dated 10 October 1920,».

(١٠٥) F.O. 371/5231/E. 12966, «Report on Causes of Unrest in Mesopotamia, no. 11, by Major N.N. Bray, Special Intelligence Officer Attached to Police Department, India Office,».

وعلق كورنوالس على ذلك بما يلي : « ان الحزب العروبي في ما بين النهرين هو . . . مخلص ومتحمس في رغبته في الاستقلال . . . ان اغلبية هذا الحزب تؤيد التطور في ظل السيطرة البريطانية ، (كذا . . .) وهي مقتنعة بأن الاستقلال الذي تأمل فيه قد حرم عليها . واذا استطعنا تنويرها فيما يتعلق بنزاهة اغراضنا ، يبدو ان ثمة اسساً قوية للامل بأننا سنستطيع انتشالها من السيطرة القومية ـ البلشفية »(١٠٦) .

وكتب الميجر يونغ في تعليق شديد اللهجة : « . . . اعتقد ان السلام لا يمكن اعادته بصورة دائمة الا بكسب هذه الجمعية (العهد) الى جانبنا ، ولكني اود التنويه بأن الجمعية ، التي اعتقد انها القوة المحركة للحركة القومية في ما بين النهرين ، تناضل من اجل مثل اعلى ، والى ان يتحقق هذا المثل الى حد يرضي اعضاءها المعتدلين ، فليست ثمة امكانية لكسب تأييدها التام .

ان امة خسرت، طبقاً لتقرير حديث من بغداد ، ما لا يقل عن ٨٠٠٠ ضحية خلال اشهر قلائل ، ولا تزال صامدة ، هذه الامة لن تقنع بنزاهة مقاصدنا بمجرد الكلام »(١٠٧) .

خامساً : فيصل كبديـــل

في ١٩٢١ ، اخبر فلبي فيصل ان فرص صيرورتـه ملكاً على العراق هي ضئيلة جداً اذا كان يريد الاستناد في حملته على كونه المرشح المقبول للحكومة البريطانية ، ونصحه بأن يسعى للحصول على تأييد الشعب باعتباره نصيراً للاستقلال التام(١٠٨) . ان هذا القول يكشف عن رؤ ية مثالية لم تكن تستوعب حقائق الوضع العراقي ولا دوافع واهداف السياسة البريطانية ، اذ لو كان فيصل مرشح (الاستقلال المطلق)(١٠٩) ، لما سمح له البريطانيون ابداً باعتلاء العرش العراقي . ولو كان مجرد دمية بريطانية ، كما يشار ضمناً في كثير من الاحيان ، لما كانت لديه ايضاً اية فرصـة لاعتلاء العرش . ان سياسة فيصل التي وعدت بالمحافظة على هيمنة النفوذ البريطاني مع اقامة ادارة عربية كانت الصيغة المقبولة والممكنة في ذلك الحين .

ان ما كان البريطانيون يرغبون فيه حقاً هو اقامة نظام جديد يحقق غرضين : هيمنة النفوذ البريطاني ، وفي الوقت نفسه تخفيض حاد في تكاليفهم في ما بين النهرين . وكان الهدف الثاني لهذه المعادلة الصعبة يتضمن ضرورة ارضاء غالبية السكان والعناصر الوطنية بوجه خاص . وان حجج لورنس وبيل ويونغ اقنعت السلطات بأن الثورة كانت نموذجاً قومياً : « ان هذه الدعاية (القومية)

---

(١٠٦) F.O. 371/5231/E. 12966, «Minutes, Dated 22 October 1920,».

(١٠٧) المصدر نفسه .

(١٠٨) Elizabeth Monroe, *Philby of Arabia* (london: Faber and Faber, 1973), p. 110.

(١٠٩) اصدر الخالصي فتوى ذات اتجاه مماثل . انظر : العراق (بغداد) ، ٦ / ٧ / ١٩٢١ . وقد اختير فيصل في (٦٨) مضبطة من مجموع (١٥٧) في بغداد بشرط « الاستقلال المطلق » . انظر :
F.O. 371/6352, «Intelligence Report, no. 19, 15 August 1921,».

كانت السبب الوحيد لقيام الثورة هنا . ذلك ان المحركين الرئيسيين كانت تدفعهم روح الوطنية الخالصة . صحيح انهم كان ينبغي عليهم اضافة العنصر الاسلامي قبل تحريك الجماهير ، وصحيح ايضاً ان العشائر لم تشترك الا بأمل النهب ، (كذا . . .) والتخلص من دفع الضرائب ، الا ان اياً من هذه العواطف والعنعنات لم تكن لتعبأ لو لم يدع الوطنيون الى رفع السلاح »(١١٠) .

واستناداً الى هذا الادراك ، اعتبر ارضاء الوطنيين العراقيين امراً ضرورياً . وعليه ، فإن فيصل ، الذي جمع بين كونه حليفاً لبريطانيا وقومياً عربياً في الوقت نفسه يمكن اعتباره الحل الامثل .

في آب / اغسطس ١٩٢٠ ، طرحت الحكومة البريطانية ، في تعليماتها الى المندوب السامي المعين حديثاً (السير برسي كوكس) ، فكرة تنصيب فيصل اميراً على العراق . الا ان هذه الامكانية كانت مشروطة بوضوح بما يلي:

« ١ ـ مطالبة تلقائية بفيصل تصدر عن هيئة ذات صفة تمثيلية كافية من الرأي العام . . . ٢ ـ استعداد الشريف فيصل ، مبدئياً لقبول بريطانيا كدولة منتدبة »(١١١) .

وكان الشرط الثاني ينطوي ضمناً على تشكيل حكومة عربية مع « تقديم مساعدة بريطانية في جميع الامور من قبل سكرتير يكون مستخدماً لدى الحكومة العربية » . ووضعت تحفظات مهمة فيما يتعلق بالدفاع والشؤون الخارجية والمالية(١١٢) . وقد اطلع فيصل على الشروط ووعد ببذل كل جهده « لتحقيق قسطه من (الخطة) »(١١٣) .

وفي تموز / يوليو ١٩٢٠ اقترح ولسن امكانية عرض إمارة العراق على فيصل . وقد ذكر بأنه « ليس ثمة مرشح محلي ينجح في الحصول على تأييد محلي كافٍ » . وعلاوة على ذلك ، اكد ولسن ان فيصل « لا يمكن ان يغفل اهمية المساعدة الاجنبية بالنسبة لاستمرار وجود الدولة العربية »(١١٤) . وبعد ذلك باسبوعين ابلغ ولسن وزارة الهند ان فكرة تنصيب امير شريفي تحظى بتأييد وجهاء المنتفك و(زعماء) بغداد والنجف وكربلاء(١١٥) .

وفي اوائل تموز / يوليو ١٩٢٠ ، اعلم هالدن وزارة الحربية بـ (خطورة) الموقف وطلب مزيداً من القوات(١١٦) . الا ان هاردنغ لم يعتبر ذلك (علاجاً شافياً) وطلب بدلاً منه (توضيح

---

(١١٠) Bell, «Private Letters and Papers,» «Letter Dated 30 January 1920,».

(١١١) F.O. 371 / 5229 / 5140, «Appointment of Sir Percy Cox as High Commissionor, Instructions of H.M.G., Dated 28 August 1920, India Office,».

(١١٢) المصدر نفسه .

(١١٣) F.O. 371 / 6350 / E. 4509, «Allenby to Curzon, no. 240, Cairo, Dated 15 April 1921,».

(١١٤) F.O. 141 / 444 / 12215, «From Civil Commissioner, Baghdad, to Secretary of State of India, no. 9249, Dated 31 July 1920,».

(١١٥) Ibid., «Dated 13 August 1920, no. 9752,».

(١١٦) F.O. 371 / 5227 / E. 8071, «From G.O.C., Mesopotamia, to War Office, nos. X9349 and X9359, Dated 7 July 1920,».

اهدافنا الخاصة) وارسال كورنوالس الى بغداد بسرعة كما ان جعفر العسكري ونوري السعيد قد يهدئان الاضطراب الآخذ في الانتشار[١١٧] . وكان يونغ يحمل رأياً مماثلاً ، فقد نوّه بعقم الحل العسكري واضاف الى مقترحات هاردنغ (الاتصال بالمتآمرين من سوريا) و« اعلان استعداد بريطانيا لقبول اي حاكم عربي يختاره المجلس التشريعي »[١١٨] . الا ان مسؤولين بريطانيين آخرين كانوا يحملون رأياً مختلفاً :

« . . . ان الطريق الوحيد المفتوح امامنا هو القتال حتى النهاية واي تنازلات سياسية كبيرة ، مثل تنصيب امير عربي . قبل اعادة النظام . . . سينظر اليها . . . باعتبارها اقراراً بالهزيمة . ان المتطرفين سيعتبرونها انتصاراً لهم . . . كما ان المعتدلين سيعتبرونها فشلاً من جانبنا »[١١٩] .

وكان من المنطقي ان لا يوافق تيلي وهاردنغ على هذا الرأي[١٢٠] . الا ان كرزن قبله جزئياً ، وابلغ رئيس الوزراء انه هو وتشرشل « لا يشكان في ضرورة ارسال المزيد من القوات الا ان المسألة برمتها ينبغي مواجهتها فوراً »[١٢١] . وبذلك ، اعتبرت هذه البرقية ان اخماد الثورة عسكرياً خطوة يجب ان يعقبها حل سياسي طويل الامد .

وفي تموز / يوليو ١٩٢٠ ، كتب كوكس الى تشرشل ان الحكومة البريطانية لا تستطيع الموافقة على استمرار غير محدود للتدابير الراهنة التي « تنطوي على اعباء جسيمة جداً » . واستبعد فكرة تأسيس جمهورية ، او تنصيب امير تركي ، او فصل البصرة ، واقترح ترشيح فيصل . وبعد ان اكد كوكس على اهمية التعاون الانكلو ـ هاشمي الذي كان فيصل يؤمن به ، مضى الى القول :

« يبدو من التقارير الواصلة من ما بين النهرين خلال السنة الماضية ، سواء في فترة الثورة الاخيرة او ما بعدها ، ان هذا هو الحل الذي يرغب فيه الجزء الاعظم من الرأي العام في العراق »[١٢٢] .

وفي فترة لاحقة من تلك السنة ، اعاد كوكس التأكيد على رأيه وطلب من حكومته تقديم (مفتاح الحل) للعراقيين . واكد ان « الغالبية العظمى تؤيد . . . تنصيب شريف »[١٢٣] .

وفي اوائل ١٩٢١ ، كانت وزارة الحربية لا تزال تطالب بالجلاء عن الموصل وبغداد[١٢٤] . وأعرب كوكس عن رأيه في ان من الممكن اجراء تخفيض كبير في القوات « بعد انتخاب او تنصيب

---

(١١٧) F.O. 371/5227/E. 8071, «From Harding to Curzon, no. 39, Dated 10 July1920,».

(١١٨) F.O. 371 / 5228 / E. 8483, «British Policy in Mesopotamia, Major Young,» pp. 1 and 13.

(١١٩) المصدر نفسه ، ص ١و١٣ .

(١٢٠) المصدر نفسه .

(١٢١) F.O. 371/5227/E. 8474, «From Foreign Office to P.M., no. 64, 15 July1920,».

(١٢٢) F.O. 371/6351/6831, «no. 171, Dated 9 July1920,».

(١٢٣) F.O. 371 / 6349 / 215, «From High Commissioner to S.C. for C., no. 1235, Dated 26 December 1920,».

(١٢٤) F.O. 371 / 6349 / 22, «From War Office to High Commissioner, no. 87319, Dated 30 December 1920,».

فيصل . . . كحاكم »[125] . وكانت الحكومة تحرص على ان تجري هذه الخطوة كاستجابة لمطلب صادر من الرأي العام العراقي . وكان هذا الموقف ضرورياً لتحاشي استفزاز فرنسا او المرشحين الآخرين ، ولمسايرة عصبة الامم . الا ان كوكس حذر حكومته من ان اخفاء « رغباتنا الخاصة قد يؤدي الى انتصار لـ (المتطرفين) وينتهي بالتصويت لصالح الغاء الانتداب » . وعليه اقترح كوكس الاعلان عن قبول الانتداب على الفور ، وان يقـوم فيصــل . . . بارسال برقية الى (نوري وجعفر وطالب والنقيب) يعلن فيها ترشيح نفسه[126] .

وكان ثمة تطور آخر جعل ترشيح فيصل امراً اكثر الحاحاً . وذلك ان المرشح التركي لعرش العراق[127] ، كان يكسب تأييداً متزايداً ، مما اثار استياء البريطانيين . وكان مبعث ذلك يتعلق بتأخير تتويج فيصل . وكان من رأي بعض شيوخ العشائر التخلي عن الاتراك في حالة قيام حكومة عـربية حقيقيـة وقدوم فيصــل[128] ، « والا فإنهم سيتمسكـون بالاتـراك في حـالـة قيـام البـريـطانيـين بخداعهم »[129] . وكان الاتجاه نحو تنصيب امير تركي قـائماً بـالدرجـة الرئيسيـة بين الضبـاط والموظفين الاتراك السابقين[130] الذين لم يلتحقوا بحركة الحجاز[131] ، الا ان هذا الاتجاه كان يلقى هوى لدى بعض افراد الطوائف العراقية[132] « ان الشريف معروف بآرائه المتساهلة جداً في مسألة الشيعة . . . ولهذا السبب فإن احد اولاده هو المرشح الذي اختاروه »[133] . وقرر الحزب الموالي للاتراك ايضاً تأييد عبد الرحمن النقيب[134] . وكان الاخير ، نتيجة خوفه من سيطرة القوميين وفيصل يجاهر بميوله العثمانية[135] . واستدعى الرصافي الذي كان يمثل الوطنيين ذوي الميول العثمانية ، من القدس[136] ، وكلف بشن حملة ضد فيصل[137] .

---

(١٢٥) F.O. 371 / 6349 / 22, «From High Commissioner, Mesopotamia, no. 1486, Dated 2 January 1920,».

(١٢٦) المصدر نفسه .

(١٢٧) Colonial Office [C.O.] 371 / 13 / 8834, «Note on Mesopotamia: Question of a Turkish Ruler, Dated 15 February 1921, by Police Department of India Office,».

كان المرشح برهان الدين .

(١٢٨) اعتبر كوكس « الاقتراح خطراً » . انظر :

F.O. 371/6349/12, «From High Commissioner, Dated 13 February 1921, no. 3635,».

(١٢٩) F. O. 371/6351/6560, «From Sir Percy Cox to Churchill, Dated 1 June 1921, no. 152 ,».

(١٣٠) F.O. 371/6350/116, «Mesopotamia Intelligence, Report no. 6, Dated 31 January 1921,».

(١٣١) F.O. 371/6349, «Mesopotamia Intelligence, Report no. 1, Dated 15 November 1920,».

(١٣٢) Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, vol. 2, p. 585, «Letter Dated 22 January 1921,».

(١٣٣) F.O. 371/6350/116, «Mesopotamia Intelligence, Report no. 6, Dated 31 January 1921,».

(١٣٤) F.O. 371/6351/6185, «Mesopotamia Intelligence, Reports nos. 10-11, Dated 4 April 1921,».

(١٣٥) اوراق محمود صبحي الدفتري .

(١٣٦) اوراق كامل الجادرجي .

(١٣٧) العراق (بغداد) ، ٥ / ٥ / ١٩٢١ ، والشرق ، ٧ / ١٠ / ١٩٢٠ .

بـدأت السلطات البريطانية تنزعـج ازاء هذه التـطورات . وارسل كـوكس تحـذيـراً الى تشرشل[١٣٨] في حين كتبت المس بيل : « اذا ترددنا ، فإن تيار الرأي العام قد يتحول بشكل جارف الى جانب الاتراك »[١٣٩] . وكتب كرزن : « . . . من الضروري اذن البدء بأسرع وقت ممكن في العمل من اجل استقلال عربي من النوع الذي يؤدي الى الفرقة بين العرب والاتراك والوحدة بين العرب والبريطانيين »[١٤٠] .

وكان انتخاب فيصل هو المطلوب ايضاً لدى وطنيي ثورة العشـرين . فإن السـويدي ، والياسري ، والبزركان ، وابو طبيخ ، والمكوطر ، وابو التمن ، انضموا جميعاً الى فيصل . وكانت الحركة الموالية للهاشميين داخل العراق جيدة التنظيم وفعّالة[١٤١] .

وقد انعقد مؤتمر القاهرة في اذار / مارس ١٩٢٠ . وكانت « المسألة الرئيسية موضوع البحث هي ضرورة اجراء تخفيض كبير في التكاليف العسكرية »[١٤٢] . وكان هذا الهدف ، حسب رأي المؤتمرين ، مرتبطاً بشكل عضوي بتتويج فيصل . ولم يكن لدى تشرشل (ادنى شك) في ان « فيصل يقدم الى حد كبير جداً ، افضل فرصة لتوفير اموالنا »[١٤٣] . ولأجل وضع حد لـ « التبذير غير القابل للتصديق والجاري الآن في ما بين النهرين »[١٤٤] اقترح تشرشل خطة تؤدي في مرحلتها النهائيـة الى تقليص كبير للحـامية البريطانية في العراق . ومضى الى القول « ان الظروف السياسية . . . بطبيعة الحال . . . تستلزم الحـل الفيصلي بالنسبة للعراق »[١٤٥] . ثم قال موضحاً هذه النقطة : « مما يزيد في تعقيد الوضع تعدد المطالبين بالعرش ، وكثير منهم غير مقبولين على الاطلاق ، كما ليس بينهم من يوفر احتمال قيام حكومة عربيـة قادرة عـلى التخفيف من التزاماتنا العسكرية »[١٤٦] .

وقد نوه كوكس بأن « خبرة فيصل السابقة خلال الحرب تجعله في الوضع الافضل بالنسبة لاقامة جيش في وقت سريع »[١٤٧] . كما ذكر تشرشل ، ان الغرض من التأييد القوي للسياسة الشريفية هو خدمة

---

(١٣٨) F.O. 371/6349/13, «From High Commissioner, Dated 13 February 1921, no.3635,».

(١٣٩) Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, vol. 2, p. 585.

(١٤٠) F.O. 371/5229/10440, «Dated 11 September 19210,».

(١٤١) كان ناجي ونوري اكثر هؤلاء نشاطاً . وقد ورد في احد التقارير « ان الحزب الشريفي احرز تأييد المجتهدين الذين سيرجحون كفة الميزان في منطقة الفرات والذين يقفون فعلاً ضد طالب » . انظر : F.O. 371/6351/6185, «Mesopotamia Intelligence, Reports nos. 10-11, Dated 4 April 1921,» and الاستقلال (بغداد) ، ١٧ / ١١ / ١٩٢٠ و١٧ / ١٢ / ١٩٢٠ ؛ العراق (بغداد) ، ٢٣ / ٥ / ١٩٢١ و ١٤ / ٦ / ١٩٢١ ، ودجلة ، ١٠ ـ ١١ / ٨ / ١٩٢١ .

(١٤٢) F.O. 371/6351/6185, «Mesopotamia Intelligence, Report no. 11, Dated 15 April 1921: A Preliminary Communication,».

(١٤٣) F.O. 406/46/5408, «From Churchill to Prime Minister, Dated 14 March 1921,».

(١٤٤) المصدر نفسه .

(١٤٥) F.O. 406/46/5408, «From Churchill to Prime Minister, Dated 16 March 1921,».

(١٤٦) F.O. 406/46/5408, «From Churchill to Prime Minister, Dated 18 March 1921,».

(١٤٧) Air Ministry [A.M.] 5/829, «Minutes of Cairo Conference, Appendix 6- Mesopotamia: Political, 1st Meeting of the Political Committee, Dated 12 March 1921,» p. 40.

بريطانيا في مناطق عربية اخرى[148] . ووافقت المس بيل على ذلك واشارت الى: « ان الدعاية العربية الوحيدة التي يمكن ان تحقق اي قسط من النجاح هي الدعاية الشريفية . وان من الافضل جداً تحويل هذه الدعاية لصالحنا ، بدلاً من ابقائها كعدو محتمل »[149] . وقد عزز بلفور هذا التقويم لقدرات فيصل السياسية ، وكتب :

« . . ومع ذلك فإذا لم يتم ادخال (فيصل) ، فقد اخبرني حداد بصريح العبارة تقريباً ان فيصل وعائلته وحزبه سيبذلون قصارى جهودهم لاثارة المتاعب امامنا في كافة انحاء الشرق الاوسط . . . وان مركزهم في مكة سيجعل ذلك امراً سهلاً جداً . وإذا نظرنا الى المسألة من وجوهها كافة ، فيبدو ان فيصل قادر على هذا العمل . ونحن مدينون له بشيء دون شك ـ وانه سيكون مصدر ازعاج شديد اذا بقي محط الآمال »[150] .

ومنذ شباط / فبراير ١٩٢٠ ، كانت وزارة الحربية قد عرضت المزايا التالية لـ (تعيين فيصل في العراق) :

« (١) تعزيز سمعة بريطانيا العظمى ؛ (٢) كونه مقبولاً دينياً لدى كافة الطوائف الاسلامية على السواء ؛ (٣) تعوده على الاساليب البريطانية في الادارة ؛ (٤) عداؤه للبلشفية ؛ (٥) وضع حد ، على الارجح ، لدسائس حسين مع مصطفى كمال ؛ (٦) دعم الاستقرار في الشرق الاوسط »[151] .

وكان بنتيجة الاقتران المعقد لهذا الادراك ، لمصالح بريطانيا الخاصة من جهة ، وللنضال المتفاني للحركة الاستقلالية العراقية من جهة اخرى، ان مهد الطريق لتأسيس مملكة عراقية (مستقلة) . وكان من شأن هذا الحل ان يرضي بعض الوطنيين (المعتدلين او المساومين) وفي الوقت نفسه يحافظ على هيمنة النفوذ البريطاني . وقد لخصت غرترود بيل المفارقة التي ينطوي عليها هذا الحل عندما كتبت : « اننا نسجنهم اول الامر لقولهم انهم يريدون عبدالله ، ثم نشجعهم على المطالبة بفيصل »[152] . وبين هذين الموقفين، كانت هناك الثورة العراقيـة في ١٩٢٠، التي تبقى نقطة تحول في تاريخ العراق الحديث بأسره .

لقد كانت اهداف ثورة العشرين والحركة الوطنية والقومية التي مهدت لها هي : الاستقلال التام والناجز لعراق موحد ، ملك عربي هاشمي مقيّد بدستور ومجلس تشريعي ، ووحدة عربية . وفي سبيل ذلك فلقد بُذلت جهود دؤوبة ومضنية تُوجت بالكفاح المسلح وسقوط آلاف القتلى

---

(١٤٨) المصدر نفسه .

(١٤٩) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(١٥٠) «The Sudan Archives,» School of Oriental Studies Library, Durham University, Box 303, «Note by F.C.C. Balfour in Autumn 1920,».

(١٥١) W.O. 33 / 988, «The Proposed Kingdom of Mesopotamia: Memorandum by General St., ff, Dated 17 February 1920,».

(١٥٢) Bell, *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*, vol. 2, p. 595, «Letter Dated 8 May1921,».

والشهداء . ولقد تمكنت هذه الثورة من انهاء كل احتمالات الاستعمار المباشر والاحتلال (والتي يجب ان لا يستهان باحتمال قدرة الحاكم البريطاني على فرضها) . كذلك فلقد تمكنت الثورة من اقامة عراق موحد ومستقل . ولكن هذا الاستقلال لم يكن تاماً او ناجزاً ، فلقد تمكن البريطانيون (واصدقاؤهم) من فرض نظام شبه استعماري على العراق . مع ذلك فإن تكوين الدولة العراقية الحديثة ، كان خطوة كبيرة الى الامام .

كذلك فلقد تم تتويج ملك عربي هاشمي . ولكن ذلك جرى (بنصف) انتخاب شعبي ، و(بنصف) تعيين بريطاني. اما عن الدستور والمجلس التشريعي ، فمن الناحية- الشكلية - لقد تحقق ذلك ، ولكن من الناحية- الموضوعية - فإن ذلك لم يكن - شكلاً ومضموناً - منسجماً ، تماماً ، مع الرغبة الحقيقية لوطنيي وقوميي وثوار العراق . وهذا ما جعل شاعراً عراقياً كبيراً (الرصافي) يقول بيته الشهير :

علم ودستور ومجلس امة   كل عن المعنى الصحيح محرف

اما عن هدف الوحدة العربية . . فلم يتحقق البتة،ربما لأنه مسألة المسائل في تحطيم آلية السيطرة الاستعمارية . ولا ادري ماذا بوسعي ان اقول وخاصة بعد مرور اكثر من ستين عاماً على طرح الثورة لهذا الهدف الضرورة . واحسب ان بوسعي - برغم كل شيء - ان اكرر (ان ثقتي بالوحدة العربية ، هي ثقتي بطلوع الفجر بعد الليل ، مهما طال)[١٥٣] .

على ان ذلك كله لا يعني - ولا للحظة واحدة - بأن ثورة العشرين قد فشلت ، او ان كفاح ابنائها قد اهدر ، او ان دماء شهدائها قد تبخرت . فالتاريخ يجب ان لا يفسر بمعايير براغماتية او نفعية فحسب . ان التاريخ هو العظة والعبرة والمعنى والذكريات التي تضيء طريق الاجيال والمستقبل .

إن شعباً او حركة او فرداً (يُهزم) وهو شامخ ورافع للسلاح في وجه الغزاة والاجانب والطغاة ، لهو افضل - تاريخياً - بألف مرة ممن (ينجح) في تحقيق بعض اهدافه ، وهو راكع يستجدي الحلول عن طريق المساومات والتنازلات المهينة والخنوع والمذلة .

إن الصمود ، والكرامة ، والكبرياء ، والجراح ، والشهداء ، والعنفوان ، متوجاً بالقتال المسلح (حتى وان فشل او هزم او ابيد) ، يبقي له اعمق العبر في تاريخ الشعوب . وهو الذي يهيء لخوض معارك اكثر ضراوة واشد استبسالاً ، وبالتالي اكثر قدرة على انتزاع الحقوق الوطنية والاجتماعية .

ان الجيش الثوري لا يلطم الصدور على ما فات، بل يتقن ويتجاوز نواقص الماضي . ان الجيش الثوري هو الذي يعتبر كل هزيمة او انتكاسة بمثابة بداية لمعركة جديدة . ان الفشل الاول

---

(١٥٣) مقطع من خطاب جمال عبد الناصر اثر اعلان انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة في ٢٨ ايلول / سبتمبر ١٩٦١ .

والثاني والثالث . . . لا يعني القبول بالهزيمة ، بل بداية الطريق الى الظفر الحاسم . ان الجيش المهزوم هو اخطر من الجيش المنتصر ، شريطة ان لا يدع الهزيمة تقوده الى الاستسلام .

وبهذا المعنى ، وبهذا الفهم ، فإن ثورة ١٩٢٠ لم تفشل . انها خالدة في ضمير الشعب وتاريخ العراق والامة العربية . وستبقى تنير الطريق على اهدافها العظيمة : الاستقلال التام ، الوحدة الوطنية ، الديمقراطية ، والوحدة العربية . ولقد اضاف تطور الحياة وتصاعد دور الكادحين ، هدفاً آخر وهو بناء الاشتراكية . ولقد حققت ثورتا ١٤ تموز / يوليو و١٧ ـ ٣٠ تموز / يوليو بعض هذه الاهداف .

ولا بد لهذه الاهداف ان تتجسد بشكلها الكامل والحاسم بكفاح الشعب ، وارادة الحياة ، ومنطق العصر .

المَراجع

١ ـ العربيـة

كتـب

ابراهيم ، عبد الفتاح . على طريق الهند . بغداد : ١٩٣٥ .

ابن الحسين ، عبدالله (الملك) . مذكرات عبدالله بن الحسين . القدس : ١٩٤٥ .

ابو سعد ، احمد . الشعر والشعراء في العراق ، ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨ : دراسة ومختارات . بيـروت : دار المعارف ، ١٩٥٩ . (تاريخ الشعر العربي المعاصر ، ٢)

احمد ، كمال مظهر . ثورة العشرين في الاستشراق السوفييتي . بغداد : ١٩٧٧ .

ـــ . دور الشعر الكردي في ثورة العشرين العراقية . بغداد : مطبعة الحوادث ، ١٩٧٨ .

الاخرس ، عبد الغفار . مجموعة عبد الغفار الاخرس. بغداد : [د.ت.].

ارسلان ، شكيب . السيد رشيد رضا او اخاء اربعون سنة . القاهـرة؛ دمشق : مطبعـة دار الكتب المصرية ؛ مطبعة ابن زيدون ، ١٩٣٧ .

ـــ . سيرة ذاتية . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩ .

ـــ . لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ ط ٣ . القـاهـرة : مـطبعـة عيسى البـابي الحلبي ، ١٩٣٩ .

اسحاق ، اديب . الدرر . باعتناء عوني اسحاق . بيروت : المطبعة الادبية ، ١٩٠٩ .

اسعد ، أ . الشعر والشعراء في العراق . بيروت : ١٩٥٦ .

اسماعيل ، محيي الدين . من ملامح العصر . صيدا : المطبعة العصرية ، ١٩٦٧ .

الاعظمي ، احمد عزت . القضية العراقية : اسبابها ، مقدماتها ، تطورها ونتائجها . بغداد : مـطبعة الشعب ، ١٩٣١ ـ ١٩٣٤ . ٦ج .

الاعظمي ، علي ظريف . تاريخ الدول الفارسية في العراق . بغداد : المكتبة العربية ، ١٩٢٧ .

ـــ . مختصر تاريخ بغداد . بغداد : نعمان الاعظمي ، ١٩٢٦ .

الافغاني ، جمال الدين . الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني مع دراسة عن الافغاني الحقيقة الكلية . تحقيق ودراسة محمد عمارة . القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨ .

ـــ . الوحدة الاسلامية والوحدة والسيادة . القاهرة : صبيح ، ١٩٣٣ .

الالوسي ، جمال الدين . محمد كرد علي . بغداد : دار الجمهورية ، ١٩٦٦ .

الالوسي ، محمود . غرائب الاغتراب . بغداد : ١٩١٠ .

ـــ . مبادىء السوق وجغرافية العراق العسكرية . بغداد : ١٩٤٦ .

امين ، احمد . قادة الاصلاح في العصر الحديث . القاهرة : ١٩٤٩ .

الانباري ، عبد الرزاق علي . كتاب التناقضات . الكويت : ١٩٦٠ .

انبازي ، محمد . تاريخ الامارات الكردية . بغداد : [د.ت.].

ـــ . تاريخ السليمانية . بغداد : [د.ت.].

انطون ، فرح . ابن رشد وفلسفته . القاهرة : ١٩٠٧ .

انيس ، محمد . الدولة العثمانية والشرق العربي ، ١٥١٤ - ١٩١٤ . القاهرة : [د.ت.] .

آل بازركان ، علي . الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية : رسالة تتضمن مناقشة وتحليلاً لحوادث ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ ورد ما الصق بها من مفتريات وتصحيح ما دار حولها من اخطاء . بغداد : مطبعة اللواء ، ١٩٥٤ .

البازي ، حامد . البصرة في الفترة المظلمة . بغداد : دار منشورات البصرى ، ١٩٦٩ .

برو ، توفيق علي . العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ، ١٩٠٨ - ١٩١٤ . القاهرة : جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٠ .

ـــ . القومية العربية في القرن التاسع عشر . دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٦٥ . (كتب قومية ، ٤)

البزاز ، عبد الرحمن . الاسلام والقومية العربية .

ـــ . محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال . القاهرة : ١٩٦٠ .

البستاني ، سليمان . عبرة وذكرى او الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده . القاهرة : مطبعة الاخبار ، ١٩٠٨ .

بصري ، مير . مباحث في الاقتصاد العراقي . بغداد : ١٩٥٩ .

البصير ، محمد مهدي . تاريخ القضية العراقية . بغداد: ١٩٢٤ . ٢ ج .

ـــ . نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر . بغداد : ١٩٤٧ .

بطي ، رفائيل . الادب العصري في العراق العربي . القاهرة : ١٩٢٣ . ٢ ج .

ـــ . الصحافة في العراق . القاهرة : جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٥٥ .

البكري ، عادل . تاريخ الكوت . بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦٧ .

بكنغهام ، جيمس سلك . رحلة الى العراق سنة ١٨١٦ . ترجمة سليم طه التكريتي . بغداد : مطبعة اسعد ، ١٩٦٨ .

البهي ، محمد . الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الفرنسي . ط ٤ . القاهرة : [د.ت.].

بيهم ، محمد جميل . العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب . دراسة تستعرض دور العرب والترك في تنازع العالم على السيادة وتتناول اوضاعها في العصر الحاضر . بيروت : المطبعة الوطنية ، ١٩٥٧ .

التكريتي ، منير بكر . الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية من ١٨٩٦ - ١٩٢١ . بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٦٩ .

التلعفري ، قحطان احمد عبوش . ثورة تلعفر ١٩٢٠ والحركات الوطنية الاخرى في منطقة الجزيرة . بغداد : مطبعة الازهر ، ١٩٦٩ .

توما ، اميل . الوحدة العربية في تطورها التاريخي . حيفا : ١٩٧٠ . (في الاصل اطروحة دكتوراه قدمت الى جامعة موسكو)

الجابري ، محمد هليل . « الحركة القومية العربية في العراق بين ١٩٠٨ - ١٩١٤ . » اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ١٩٨٠ .

الجادرجي ، كامل . من اوراق كامل الجادرجي . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩ - ١٩٧١ . ٢ج .

الجامعة الاميركية في بيروت ، هيئة الدراسات العربية . الفكر العربي في مائة سنة . اعداد فؤاد صروف ونبيه امين فارس . بيروت : الجامعة ، ١٩٦٧ .

الجبوري . الكرملي الخالد. بغداد: ١٩٤٧ .

الجلالي . موجز تاريخ عشائر العمارة . بغداد : ١٩٤٧ .

جميل ، مظفر حسين . « سياسة العراق التجارية . » اطروحة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، كلية الحقوق ، ١٩٤٩ .

الجميل ، مكي . البداوة والبدو في البلاد العربية : دراسة لاحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ووسائل توطينهم . عمان : ١٩٦٣ .

ـــ . البدو والقبائل الرحل في العراق . بغداد : ١٩٥٦ .

جواد ، هاشم . مقدمة في تاريخ العراق الاجتماعي. بغداد: ١٩٤٦ .

الجواهري ، ديوان الجواهري . صيدا : ١٩٦٧ . ٢ ج .

جودت ، علي . ذكريات علي جودت ، ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨ . بيروت : مطابع الوفاء ، ١٩٦٧ .

الحاني ، ناصر . محاضرات عن الزهاوي . بغداد : ١٩٥٤ .

حتي ، فيليب خوري . لبنان في التاريخ ، منذ اقدم العصور التاريخية الى عصرنا الحاضر . ترجمة انيس فريحة . مراجعة نقولا زيادة . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٥٩ .

حزب اللامركزية ، اللجنة العليا . المؤتمر العربي الاول . القاهرة : الحزب ، ١٩١٣ .

حسن ، محمد سلمان . التطور الاقتصادي في العراق ، التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ، ١٨٦٤ ـ ١٩٥٨ . صيدا : المكتبة العصرية ، ١٩٦٥ . (في الاصل اطروحة دكتوراه قدمت الى جامعة اكسفورد)

ـــ . طلائع الثورة العراقية : العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الاولى . بغداد : مطابع جريدة الجمهورية ، ١٩٥٨ .

الحسني ، عبد الرزاق . تاريخ الصحافة العراقية . بغداد : مطبعة الزهراء ، ١٩٥٧ .

ـــ . تاريخ العراق السياسي الحديث ، ط ٢ منقحة . صيدا : مطبعة العرفان ، ١٩٥٧ . ٣ ج .

ـــ . تعريف الشيعة . صيدا : ١٩٣٥ .

ـــ . الثورة العراقية الكبرى. ط ٢ منقحة . صيدا : مطبعة العرفان ، ١٩٦٥ .

ـــ . ثورة النجف . بغداد : ١٩٧٢ .

ـــ . العراق في دوري الاحتلال والانتداب . صيدا : مطبعة العرفان ، ١٩٣٥ . ٢ج .

ـــ . موجز تاريخ البلدان العراقية . بغداد : مطبعة النجاح ، ١٩٣٠ .

حسين ، فاضل . مشكلة الموصل : دراسة في الدبلوماسية العراقية ـ الانكليزية ـ التركية وفي الرأي العام . بغداد : مطبعة الرابطة ، ١٩٥٥ . (في الاصل اطروحة دكتوراه قدمت الى جامعة انديانا ، الولايات المتحدة الامريكية ، ١٩٥٢)

حسين ، محمد محمد . الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر . القاهرة : ١٩٥٦ ، ٢ ج .

الحصري ، ساطع . اراء واحاديث في القومية العربية . القاهرة : مطبعة الاعتماد ، ١٩٥١ .

ـــ . آراء واحاديث في الوطنية والقومية . القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٤٤ .

ـــ . البلاد العربية والدولة العثمانية . ط ٢ . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ .

ـــ . حول القومية العربية. ط ٢ . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦١ .

ـــ . دفاع عن العروبة . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٥٦ .

ـــ . العروبة بين دعاتها ومعارضيها. بيروت : ١٩٥١ .

ـــ . ما هي القومية ؟ ابحاث ودراسات على ضوء الاحداث والنظريات . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٥٩ .

ـــ . محاضرات في نشوء الفكرة القومية . القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٥١ .

ـــ . مذكراتي في العراق ، ١٩٢١ - ١٩٤١ . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨ . ٢ج .

ـــ . يوم ميسلون : صفحة من تاريخ العرب الحديث. بيروت : [د. ت.].

الحلي ، جعفر . سحر بابل وسجع البلابل او تراجم الاعيان الافاضل . صيدا ، [د. ت.] .

الحلي ، حيدر . الدر اليتيم . بومباي ، [د. ت.].

الحلي ، يوسف كركوش . تاريخ الحلة . النجف : ١٩٦٥ .

حمادة ، سعيد . النظام الاقتصادي في العراق . بيروت : المطبعة الاميركية في بيروت ، ١٩٣٨ .

الحنفي ، جلال . المغنون البغداديون . بغداد : ١٩٦٤ .

الخازن ، سليمان . يوسف بك كرم في المنفى . بيروت : ١٩٥٠ .

الخاقاني ، علي . شعراء الحلة او البابليات . النجف : دار البيان ، ١٩٥١ - ١٩٥٣ . ٥ج .

ـــ . شعراء الغرى او النجفيات . النجف : ١٩٥٥ . ١٢ ج .

خدوري ، مجيد . اسباب الاحتلال البريطاني للعراق . بيروت : ١٩٦٦ .

ـــ . نظام الحكم في العراق . بيروت : ١٩٦٥ .

خلف الله ، محمد احمد . عبدالله النديم ومذكراته السياسية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٦ .

الخليلي ، جعفر . التمور قديماً وحديثاً . بغداد : ١٩٥٦ .

ـــ . المدخل الى موسوعة العتبات المقدسة . بيروت : ١٩٦٥ .

ـــ . هكذا عرفتهم . بغداد : [د. ت.].

ـــ . انظر ايضاً : الفراتي .

خياط ، جعفر . القرية العراقية : دراسة في احوالها واصلاحها . بغداد : ١٩٥٠ .

[داغر ، اسعد] . ثورة العرب : مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها . بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية . القاهرة : مطبعة المقطم ، ١٩١٦ .

ـــ . مذكراتي على هامش القضية العربية . القاهرة : دار القاهرة للطباعة ، ١٩٥٦ .

الدباغ . النخل والتمور في العراق . بغداد : ١٩٥٦ .

الدروبي . البغداديون : اخبارهم ومجالسهم . بغداد : ١٩٥٨ .

دروزة ، محمد عزة . حول الحركة العربية الحديثة : تاريخ ومذكرات وتعليقات . صيدا : المكتبة العصرية ، ١٩٥٠ - ١٩٥١ . ٦ ج في ٤ .

الدملوجي ، صديق . مدحت باشا . بغداد : ١٩٥٣ .

ـــ . اليزيدية . الموصل : ١٩٤٩ .

الدهان ، سامي . عبد الرحمن الكواكبي ، ١٨٥٤ - ١٩٠٢ . القاهرة: ١٩٥٨ .

الدوري ، عبد العزيز . الجذور التاريخية للشعوبية . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٢ .

ـــ . الجذور التاريخية للقومية العربية . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ .

ـــ . العصر العباسي الاول : دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي . بغداد : مطبعة التفيض الاهلية ، ١٩٤٥ . (منشورات دار المعلمين العالية ، ١)

ـــ . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩ .

ـــ . مقدمة لتاريخ صدر الاسلام . بيروت : ١٩٦٠ .

الرافعي ، عبد الرحمن . مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية . القاهرة : مطبعة الشرق ، ١٩٣٩ .

الراهب . تاريخ كربلاء . بغداد : ١٩٣٥ .

الراوي ، ابراهيم حمدي . من الثورة العربية الكبرى الى العراق الحديث . بيروت : مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٩ .

الراوي ، طه . ذكرى السويدي. بغداد : مطبعة دار الاسلام ، ١٩٣٠ .

الرشودي ، عبد الحميد (جامع ومعد) . الزهاوي : دراسات ونصوص . تقديم يوسف عز الدين . بيروت : مكتبة دار الحياة ، ١٩٦٦ .

الرصافي ، معروف . ديوان الرصافي . ط ٣. القاهرة : ١٩٤٧ .

رضا ، محمد رشيد . تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . القاهرة : ١٩٢٥ ، ١٩٣١ ، ١٩٤٧ . ٣ج .

رودنسون ، مكسيم . النظرية الماركسية في الامة . بيروت : ١٩٧١ .

الريحاني ، امين . فيصل الاول . ط ٢ . بيروت : دار الريحاني ، ١٩٥٨ .

ـــ . قلب العراق : سياحة وسياسة وادب وتاريخ . بيروت : ١٩٣٥ .

ـــ . ملوك العرب او رحلة في البلاد العربية . بيروت : دار صادر؛ مطبعة الريحاني ، ١٩٥١ . ٢ج .

زريق ، قسطنطين . معنى الوعي القومي : نظرات في الحياة القومية المتفتحة في المشرق العربي . بيروت : ١٩٣٨ .

الزهاوي ، جميل صدقي . الاوشال . بغداد : ١٩٣٤ .

ـــ . الثمالة . بيروت : ١٩٢٦ .

ـــ . ديوان الزهاوي . القاهرة : ١٩٢٤ .

ـــ . رباعيات . بيروت : ١٩٢٤ .

ـــ . الفجر الصادق . القاهرة : ١٩٥٥ .

ـــ . الكلم المنظوم . بيروت : ١٩٠٩ .

ـــ . اللباب . بغداد : ١٩٢٨ .

زيدان ، جرجي . تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر . ط ٢ . القاهرة : دار الهلال ، ١٩١٠ ـ ١٩١١ .

السادات ، انور . اسرار الثورة المصرية : بواعثها الخفية واسبابها السيكولوجية . تقديم جمال عبد الناصر . القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٥٦ . (كتب قومية ، ٣١١)

السامرائي ، يونس الشيخ ابراهيم . تاريخ مدينة سامراء . بغداد : ١٩٧١ .

ـــ . تاريخ علماء سامراء . بغداد: مطبعة دار البصرى، ١٩٦٦ .

سركيس ، يعقوب . مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد . تقديم محمد رضا الشبيبي . بغداد : شركة التجارة والطباعة المحدودة ، ١٩٤٨ .

سعيد ، امين محمد . الثورة العربية الكبرى : تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن . القاهرة : ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ . ٢ج .

السعيد ، نوري . استقلال العرب ووحدتهم . بغداد : ١٩٤٣ .

ـــ . خطاب في مؤتمر لندن عن فلسطين ، ١٩٣٩ . بغداد: ١٩٣٩ .

السعيدي . تاريخ البصرة. النجف : ١٩٥٩ .

سوسة ، احمد . فيضانات بغداد في التاريخ . بغداد : مطبعة الاديب ، ١٩٦٣ .

ـــ . وادي الفرات ومشروع بحيرة الحبانية . بغداد : مطبعة المعارف ، ١٩٤٥ .

السويدي ، توفيق . مذكراتي : نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية . بيروت : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٩ .

الشبيبي ، محمد رضا . ديوان الشبيبي . القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ .

الشرقي ، علي . ذكرى السعدون . بغداد: ١٩٢٩ .

شريف ، محمد بديع . دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة . القاهرة : ١٩٥٤ .

شفيق ، احمد (باشا) . مذكراتي في نصف قرن . القاهرة .

شمس . سفير الله . القاهرة : ١٩٦٩ .

شميل ، شبلي . المجموعة حزيران . القاهرة : [د.ت.].

الشهرستاني ، هبة الدين . الهيئة والاسلام . النجف : ١٩١١ .

شوكت ، سامي . هذه اهدافنا . بغداد: ١٩٣٩ .

صالح ، زكي . مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني . القاهرة : جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٦ . (محاضرات القاها على طلبة قسم الدراسات التاريخية والجغرافية)

صايغ ، انيس . تطور المفهوم القومي عند العرب . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦١ .

ـــ . الفكرة العربية في مصر . بيروت : هيكل الغريب ، ١٩٥٩ .

ـــ . الهاشميون والثورة العربية الكبرى . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٦ .

صايغ ، سليمان . تاريخ الموصل . بيروت : ١٩٢٨ . ٢ ج .

الصراف ، عباس . عشائر العراق . بغداد : ١٩٣٧ - ١٩٥٦ . ٤ ج .

الصوفي ، احمد علي . المماليك في العراق ، صحائف خطيرة من تاريخ العراق القريب ، ١٧٤٩ - ١٨٣١ . الموصل : [د.ن.]، ١٩٥٢ .

الضابط ، شاكر صابر . موجز تاريخ التركمان في العراق . بغداد : ١٩٥٨ .

العباسي ، خضر . شعراء الثورة العراقية اثناء الاحتلال البريطاني في العراق . بغداد : مطبعة دار المعرفة ، ١٩٥٧ .

العباسي ، عبد القادر باش اعيان . البصرة في ادوارها التاريخية . بغداد : مطبعة دار البصرى ، ١٩٦١ .

عبد الناصر ، جمال . الميثاق الوطني . القاهرة: ١٩٦٤ .

عبده ، محمد . الاسلام دين العلم والمدينة . القاهرة : ١٩٤٩ .

ـــ . الاسلام والرد على منتقديه . القاهرة : ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ .

ـــ . الاسلام والنصرانية . القاهرة : ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ .

العبطة ، محمود . بغداد وثورة العشرين . بغداد : ١٩٧٧ .

ـــ . رجل الشارع في بغداد..بغداد : ١٩٥٩ .

العدوي، ابراهيم احمد . رشيد رضا : الامام المجاهد . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة ، [د.ت.]. (اعلام العرب ، ٣٣)

عريم ، عبد الجبار . القبائل الرحل في العراق . بغداد : ١٩٦٥ .

العزاوي ، عباس . تاريخ الضرائب العراقية . بغداد : ١٩٥٩ .

ـــ . تاريخ العراق بين احتلالين . بغداد : مطبعة بغداد الحديثة ، ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦ . ٨ ج .

ـــ . عشائر العراق . بغداد : مطبعة بغداد ، ١٩٣٧ ـ ١٩٥٦ . ٤ ج .

عز الدين ، يوسف . خيري الهنداوي . القاهرة : ١٩٦٥ .

ـــ . الزهاوي الشاعر القلق . بغداد : ١٩٦٢ .

ـــ . شعراء العراق في القرن العشرين . بغداد : مطبعة اسعد ، ١٩٦٩ .

ـــ . الشعر العراقي الحديث . بغداد : ١٩٦٠ . (في الاصل اطروحة دكتوراه قدمت الى جامعة لندن)

ـــ . الشعر العراقي في القرن التاسع عشر . بغداد : ١٩٥٨ . (في الاصل رسالة ماجستير قدمت الى جامعة القاهرة)

ـــ . الشعر والمجتمع العراقي ، ١٩١٥ـ ١٩٤٥ . بغداد : ١٩٦٢ .

ـــ . في الادب العربي الحديث : بحوث ومقالات . بغداد : مطبعة دار البصرى ، ١٩٦٧ .

العسكري ، تحسين . ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية . بغداد ؛ النجف : ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ . ٣ج.

العطية ، وداي . تاريخ الديوانية . النجف : ١٩٥٤ .

العظم ، رفيق . الجامعة الاسلامية واوروبا . القاهرة : ١٩٠٧ .

عفلق ، ميشيل . ذكرى الرسول العربي . دمشق: ١٩٥٠ .

العلاف ، عبد الكريم . بغداد القديمة . بغداد : ١٩٦٠ .

العلوجي والحجية . الشيخ ضاري . بغداد : ١٩٦٨ .

علي ، عباس . زعيم الثورة العراقية . يتضمن حياة الزعيم العظيم السيد الصدر . بغداد : مكتبة الاحرار ؛ المكتبة العلمية ، ١٩٥٠ .

علي ، مصطفى . ادب الرصافي . القاهرة : ١٩٤٠ .

العمري ، خيري . حكايات سياسية في تاريخ العراق الحديث . القاهرة : دار الهلال ، ١٩٦٩ .

العمري ، سعاد (مترجمة) . رحلات نيبهور . بغداد : ١٩٥٤ .

العمري ، محمد امين . تاريخ حرب العراق خلال الحرب العظمى سنة ١٩١٤- ١٩١٨ . بغداد: المطبعة العربية ، ١٩٣٥ . ٣ ج .

ـــ . تاريخ مقدرات العراق السياسية . بغداد : المكتبة العصرية ، ١٩٢٤ - ١٩٢٥ . ٣ج .

عواد ، كوركيس . الاب انستاس ماري الكرملي : حياته ومؤلفاته ، ١٨٦٦ - ١٩٤٧. بغداد : ١٩٦٠ .

غرايبة ، عبد الكريم . سورية في القرن التاسع عشر ، ١٨٤٠ - ١٨٧٦. القاهرة : جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦١- ١٩٦٢ .

ـــ . مقدمة لتاريخ العرب الحديث، ١٥٠٠ - ١٩١٨. دمشق : جامعة دمشق ، ١٩٦٠ .

الغصيني ، فائز . مذكراتي عن الثورة العربية . دمشق: مطبعة الترقي ، ١٩٥٦ .

الغلامي ، عبد المنعم . اسرار الكفاح الوطني في الموصل ، ١٩٠٨- ١٩٢٥. بغداد : [د. ن.]، ١٩٥٨ .

ـــ . ثورتنا في شمال العراق . بغداد : ١٩٦٦ .

غنيمة ، يوسف . تجارة العراق قديماً وحديثاً . بغداد : ١٩٥٢ .

ـــ . نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق . بغداد : ١٩٥٨ .

فارس . عامان في الفرات الاوسط . النجف : ١٣٥٣هـ .

الفاسي ، علال . الحركات الاستقلالية في المغرب العربي . القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٤٨ .

فائق ، سليمان . تاريخ بغداد . بغداد : ١٩٦٢ .

ـــ . تاريخ المنتفك . تعريب م . خ . الناصري . بغداد : ١٩٦١ .

فخري ، ماجد . دراسات في الفكر العربي . بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٠ .

الفراتي [جعفر الخليلي]. على هامش الثورة العراقية الكبرى . بغداد : شركة النشر والطباعة العراقية ، ١٩٥٢ .

آل فرعون ، فريق المزهر . الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها . بغداد : مطبعة النجاح ، ١٩٥٢ .

فريد ، محمد . تاريخ الدولة العلية العثمانية . القاهرة : ١٨٩٤ .

فهمي ، احمد . تقرير حول العراق : مباحث عن ثروة البلاد واقتصادياتها وحالة السكان الروحية والاجتماعية . بغداد : المكتبة العصرية ، ١٩٢٦ .

فياض . عبدالله . الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٦٣ .

ـــ . مشكلات الاراضي في لواء المنتفك . بغداد : ١٩٥٢ .

فيضي ، سليمان . في غمرة النضال: مذكرات . بغداد : عبد الحميد سليمان ، ١٩٥٢ .

قدوري ، احمد . مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى . دمشق : ١٩٥٦ .

القصاب ، عبد العزيز . من مذكراتي . بيروت : ١٩٦٢ .

القصاب ، عبد المحسن . ذكرى الافغاني في العراق . بغداد : مطبعة الرشيد ، ١٩٤٥ .

القلعجي ، قدري . جمال الدين الافغاني حكيم الشرق . بيروت : ١٩٥٢ .

الكاظمي ، عبد المحسن . ديوان الكاظمي. ج١ ، دمشق : مطبعة ابن زيدون ، [د.ت.]؛ ج٢ ، تحقيق ونشر حكمة الجادرجي . القاهرة : ١٩٤٨ .

آل كاشف الغطاء ، محمد الحسين . اصل الشيعة واصولها . ط ٩ . بيروت : [د.ت.].

كامل ، مصطفى . المسألة الشرقية . القاهرة : ١٨٩٨ .

كبة ، ابراهيم . الاقطاع في العراق بين نوري السعيد وخبراء العالم الحر . بغداد : مطبعة المعارف ، ١٩٥٧ .

كبة ، محمد مهدي . مذكراتي في صميم الاحداث ، ١٩١٨-١٩٥٨. بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٥ .

كرد علي ، محمد . مذكرات محمد كرد علي . دمشق : ١٩٤٨ .

ـــ . مصادر الثقافة العربية . القاهرة : [د.ت.].

الكرملي ، انستاس ماري . خلاصة تاريخ العراق منذ نشوءه الى يومنا هذا . البصرة : مطبعة الحكومة ، ١٩١٩ .

كمال الدين ، محمد علي . التطور الفكري في العراق . بغداد : ١٩٦٠ .

ـــ . ثورة العشرين في ذكراها الخمسين : معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ . النجف : مطبعة التضامن ، ١٩٧١ . (منشورات دار البيان ، ٥٢)

ـــ . سعد صالح . بغداد : ١٩٤٩ .

الكواكبي ، عبد الرحمن . ام القرى . حلب : ١٩٥٩ .

ـــ . طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. القاهرة : [د.ت.].

كوتلوف ، ل. ن . ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق . تعريب عبد الواحد كرم . بغداد : ١٩٧١ . (في الاصل اطروحة دكتوراه قدمت الى جامعة موسكو ، ١٩٥٨)

مبارك ، زكي . الغزالي والاخلاق . القاهرة : [د.ت.].

آل محبوبة ، جعفر . ماضي النجف وحاضرها . النجف : ١٩٥٨ .

محفوظ . عراقيات الكاظمي . بغداد : ١٩٦٠ .

المخزومي ، محمد . خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني . بيروت : ١٩٦١ .

المدري ، فهمي . مدحت باشا . بغداد : ١٩٣٠ .

مرقص ، الياس . موضوعات الى مؤتمر اشتراكي عربي . دمشق : دار دمشق ، ١٩٦٣ .

ـــ . نقد الفكر القومي . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٦ .

مشتاق ، حازم طالب . اوراق ايامي . بيروت : ١٩٦٨ .

المغربي ، عبد الغني . جمال الدين الافغاني : ذكريات واحاديث . ط٢ . بيروت : ١٩٦٨ .

مغنية ، محمد جواد . دول الشيعة في التاريخ . بيروت : ١٩٦٥ .

ـــ . الشيعة والحاكمون . بيروت : المكتبة الاهلية ، ١٩٦١ .

المقدسي ، انيس الخوري . التيارات الادبية في العالم العربي المعاصر . بيروت : ١٩٦٧ .

موسى ، سليمان . الحركة العربية : سيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة . بيروت : دار النهار ، ١٩٧٠ .

الموسوي ، م . الحاج عطية ابو كلل . بغداد : [د.ت.].

ناجي ، هلال . الزهاوي وديوانه المفقود . القاهرة : ١٩٦٢ .

ناصر ، شاكر . قوانين الارض والاملاك غير المنقولة . بغداد : ١٩٤٢ .

ناصر ، علي . قضية العرب . بيروت : ١٩٤٦ .

ـــ . هذا ما كتبناه . بيروت : ١٩٥٢ .

الناهي ، صلاح الدين . الاقطاع ونظام الاراضي في العراق . بغداد : ١٩٥٥ .

النجار ، مصطفى عبد القادر . التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية ، ١٨٩٧ ـ ١٩٢٥ . القاهرة : ١٩٧٠ . (في الاصل رسالة ماجستير قدمت الى جامعة القاهرة)

نسيبة ، حازم زكي . القومية العربية : فكرتها ، نشأتها ، تطورها . ترجمة عبد اللطيف شرارة . بيروت : ١٩٦٦ .

النصلي . العصبية العشائرية . بيروت : ١٩٦٤ .

نوار ، عبد العزيز سلمان . تاريخ العراق الحديث من نهاية عهد داود باشا الى نهاية عهد مدحت باشا . القاهرة : داو الكاتب العربي، ١٩٦٨ . (في الاصل اطروحة دكتوراه قدمت الى جامعة عين شمس)

ـــ . داود باشا والي بغداد . القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨ . (في الاصل رسالة ماجستير قدمت الى جامعة عين شمس)

الهاشمي ، طه . مذكرات طه الهاشمي ، ١٩١٩ـ ١٩٤٣. مع تحقيق ومقدمة في تاريخ العراق الحديث بقلم خلدون ساطع الحصري . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٧ .

الهلالي ، عبد الرزاق مجيد . تاريخ التعليم في العراق . بغداد : ١٩٥٩ .

ـــ . الزهاوي بين الثورة والسكوت . بيروت : دار الثقافة ، [د.ت.].

ـــ . الشاعر الثائر : سيرة محمد باقر الشبيبي . بغداد: ١٩٥٧ .

ـــ . محاضرات في اصلاح الريف . بيروت : ١٩٥٤ .

الواعظ ، محمد نجم الدين . الروض الازهر . الموصل : ١٩٤٩ .

الوائلي ، ابراهيم . الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر . بغداد : ١٩٦١ .

ـــ . الشعر العراقي في ثورة العشرين . بغداد : ١٩٦٠ .

ـــ . الشعر العراقي وحرب طرابلس . بغداد : ١٩٦٤ .

الوردي ، علي حسين . دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الاكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث . بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦٥ .

ـــ . شخصية الفرد العراقي . بغداد: ١٩٥١ .

ـــ . لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث . بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٦٩ ـ ١٩٧٦ . ٧ ج .

الوهب ، عبد الرزاق . تاريخ كربلاء . بغداد : ١٩٣٥ .

وهب ، محمد يونس عبدالله . اهمية تلعفر في ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠ . الموصل : مطبعة الجمهورية ، ١٩٦٧ .

ـــ . تاريخ تلعفر قديماً وحديثاً . الموصل : مطبعة الجمهورية ، ١٩٦٧ .

الياسري ، عبد الشهيد. البطولة في ثورة العشرين : ثورة العراق، ١٩٢٠. النجف : ١٩٦٧ .

اوراق ومخطوطات

الجادرجي ، كامل . اوراق خاصة تتعلق بالعهد العثماني وابو التمن ومعروف الرصافي والشبيبي .

ـــ . اوراق ومخطوطات تتعلق باحداث ١٩٢٠ . (من مجموعات نصير الجادرجي) .

الخالصي ، محمد . « بطل الاسلام : سيرة حياة والد . » الكاظمية ، ١٩٣٩ . (مخطوط)

ـــ . « كتاب في سبيل الله . » [د.ت.]، مكتبة الخالصي . (مخطوط)

الدفتري ، محمود صبحي . مخطوطات واوراق تتعلق باحداث ١٩٢٠ (من مجموعات نصير الجادرجي)

الشبيبي ، محمد رضا . اوراق خاصة تتعلق بالوضع في النجف خلال الاعوام ١٩١٨ ـ ١٩١٩ . (في الثقافة الجديدة)

العباسي ، عبد القادر باش اعيان . « تاريخ البصرة .» البصرة ، [د ت.] . (مخطوط)

القزويني ، صالح . « ديوان القزويني . » (مخطوط)

دوريات

الاستقلال (بغداد) : ١٩٢٠ .

البرمكي ، شاكر . « مصادر البحث في ثورة العشرين . » دراسات عربية : السنة ٣ ، العدد ٣ ، كانون الثاني / يناير ١٩٦٧ .

التلعفري ، علي الشيخ ابراهيم . « عوامل اخفاق الثورة العراقية الكبرى ، ١٩٢٠ . » دراسات عربية : السنة ٧ ، العدد ٣ ، كانون الثاني / يناير ١٩٧١ .

ـــ . « الثورة العراقية الكبرى والتحليل العلمي. » دراسات عربية : السنة ٥، العدد ١٢ ، تشرين الاول / اكتوبر ١٩٦٩ .

تنوير الافكار (بغداد) : ١٩١٠ .

خيري ، سعاد . « الثورة العراقية الاولى . » الثقافة الجديدة (بغداد) : العدد ٣٨ ، تموز / يوليو ١٩٧٢ .

دار السلام (بغداد) : ١٩١٨- ١٩٢٠ .

رضا ، رشيد . « الحكومة الاستبدادية . » المنار (القاهرة) : السنة ٣ ، ١٩٠٠ .

الرقيب (بغداد) : ١٩٠٠ .

صدى الاحرار: ١٣ / ٦ / ١٩٥٢ ؛ ٣ / ٤ / ١٩٥٣ .

صدى بابل (بغداد) : ١٩٠٩ - ١٩١٤ .

العراق (بغداد) : ١٩٢٠ .

العرب (بغداد) : ١٩١٧ - ١٩٢٠ (رسمية) .

العروة الوثقى (بيروت) : ١٩١٠ ؛ (القاهرة): ١٩٢٣ .

العزيز ، حسين قاسم . « آراء في تطور الادب العربي في العصور الاسلامية . » الثقافة الجديدة : العدد ١٥ ، تموز / يوليو ١٩٧٠ .

ـــ . « اثر تعارض المصالح الارستقراطية العربية والايرانية في فتنة الامين والمأمون . » الثقافة الجديدة ، العدد ٤ ، تموز / يوليو ١٩٦٧ .

العلم (النجف) : ١٩١٠- ١٩١١ .

علوش ، ناجي . « تطورات الحركة العربية منذ بدء النهضة : الحركة العربية حتى الحرب العالمية الاولى ، ١٨٥٠ - ١٩٢٠ » دراسات عربية : السنة ٢ ، العدد ١ ، تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٥ .

ـــ . « الحركة العربية بعد الحرب العالمية الاولى . » دراسات عربية : السنة ٢ ، العدد ٢ ، كانون الاول / ديسمبر ١٩٦٥ .

الغلامي ، عبد المنعم . « صفحات مطوية من تاريخ الحركة القومية ، ٤ . » صدى الاحرار : ٩ / ٥ / ١٩٥٣ .

الفرات (بغداد) : ١٩٢٠ .

فريد ، محمد . « مذكرات محمد فريد . » الكاتب (القاهرة) : السنة ٩ ، العدد ١٠٤ ، ١٩٦٩ .

لغة العرب (بغداد) : ١٩١١ .

المنار (القاهرة) : ١٨٩٨ - ١٩١٦ .

المهدوي ، اسماعيل . « ابو حامد الغزالي : دراسة جديدة لحياته وافكاره . » الآداب : السنة ١٦ ، العددان ١٠- ١١ ، تشرين الاول / اكتوبر - تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٨ .

موسى، سليمان . « جمعية العربية الفتاة . » العربي (الكويت) : العدد ١٥١ ، ١٩٧١ .

النوري ، علي . « تعليق حول طبيعة ثورة العشرين الـوطنية في العـراق . » دراسات عـربية : السنـة ٦ ، العدد ٤ ، شباط / فبراير ١٩٧٠ .

ـــ . « ثورات العراق الوطنية . » الثقافة الجديدة : العدد ١٤ ، حزيران / يونيو ١٩٧٠ .

مقابلات

الخالصي ، الشيخ هادي . حديث خاص، كانون الثاني / يناير ١٩٧٠ .

٢ ـ الاجنبيـــة

Books

Acton(Lord). *History of Freedom and Other Essays.* London: 1919.

Adams,Charles C. *Islam and Modernism in Egypt: A Study of the Modern Reform Movement Inaugurated by Muhammad Abdo.* London: Oxford University Press, 1933.

Ahmed, J. M. *The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism.* London; New York: Oxford University Press, 1960.

Allen, Harold B. *Rural Education and Welfare in the Middle East.* London: His Majesty's Stationary Office, 1946.

Amin, Abd al- Amir Muhammad. *British Interests in the Persian Gulf, 1747-1778.* Leiden: Brill, 1968.

Anderson, Mathew Smith. *The Eastern Question, 1774-1923: A Study in International Relations.*. London: Macmillan, 1966.

Antonius, George. *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement.* 3rd print. London: Hamilton, 1955.

Ashley, [Anthony] Evelyn. *The Life of Henry John Temple, Viscount Palmerston.* 2nd ed. London: Bentley, 1876. 2 vols.

Attiyyah, G.R. *Iraq, 1908-1912.: A Socio-Political Study.* Beirut: Arab Institute for Research and Publishing, 1973. (Originally a Ph. D. dissertation, Edinburgh University, 1968).

Averroes. *On the Harmony of Religions and Philosophy.* Trans. with introduction and notes of Ibn Rushd's«KitabFasl al-Maqal» with its appendix and an extract from «Kitab al Kashf 'an manhij al-Adilk»by George F. Hourani. London: Luzac, 1961. (E.J.W. Gibb memorial series, new series, 21)

—. *Tahafut al-Tahafut: The Incoherence of the Incoherence*. Trans. with an Introduction and notes by Simon Van den Bergh. 2 vols. London: Luzac, 1954. (E.J.W. Gibb memorial series, new series, 19)

Avineri, Shlomo (ed.). *Karl Marx on Colonialism and Modernization*. New York: 1969.

Al - Baghdadi, Abu Mansour Abd-al-Qahir Ibn Tahir. *Moslem Schism and Sects: Al-Fark bain al-Firak, being the History of the Various Philosopic Systems Developed in Islam*. Trans. by Kate Chambers Seelye. New York: Columbia University Press, 1920.

Baker, Ray S. *Woodrow Wilson and World Settlement, Written from His Unpublished and Personal Material*. New York: Doubleday; Page, 1922. 3 vols.

Barker, A. J. *The Neglected War: Mesopotamia, 1914-1918*. London: Faber and Faber, 1967.

Batatu, Hanna. *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of Its Communists, Ba'thists and Free Officers*. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1978.

Be'eri, Eliezer. *Army Officers in Arab Politics and Society*. London: 1970.

Bell, Gertrude Lowthian. *From Amurath to Amurath*. London: Heinemann, 1911.

—. *The Letters of Gertrude Lowthian Bell*. Edited by Lady F. Bell. 2 vols. New York: Boni and Liveright, 1927.

—. *Syria, The Desert and the Sown*. New ed. London: Heinemann, 1928 [c1907].

Beqiraj, Mehmet. *Peasantry in Revolution*. Ithaca, N.Y.: Cornell University, Center for International Studies, 1966. (Cornell research papers in international studies, 5)

Berkes, Niyazi. *The Development of Secularism in Turkey*. Montreal: McGill University Press, 1964.

Birdwood (Lord). *Nuri as- Said: A Study in Arab Leadership*. London: Cassell, 1959.

Blunt, Ann (Lady). *Bedouin Tribes of the Euphrates*. Edited with a preface and some account of the Arabs and their horses by W.S. Blunt. London: Murray, 1879. 2 vols. in 1.

Blunt, Wilfrid Scawen. *The Future of Islam*. London: K. Paul, Trench, 1882.

—. *The Secret History of the English Occupation of Egypt, being a Personal Narrative of Events*. London: 1923.

Boersner, Demetrio. *The Bolsheviks and the National and Colonial Question, 1917-1928*. Genève; Paris: 1957.

Bonné, Alfred. *The Economic Development of the Middle East: An Outline of Planned Reconstruction after the War*. London: Routledge, 1945.

Bottomore, Thomas Burton. *Elites and Society*. Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1966.

Bray, N [orman] N.E. *A Paladin of Arabia: The Biography of Brevet Lieutenant - Colonel G.E. Leachman of the Royal Sussex Regiment.* Foreword by the right honourable Sir Samuel Hoare. London: Heritage; Unicorn Press, 1936.

—. *Shifting Sands.* Foreword by the right honourable Sir Austen Chamberlain. London: Unicorn Press, 1934.

Brige, J.K. *A Guide to Turkish Area Study.* Washington, D.C.: 1949.

Brinton, [Clarence] Crane. *The Anatomy of Revolution.* New York: Prentice- Hall, 1952.

Brown, Edward G. *A Literary History of Persia.* Cambridege: Cambridge University Press, 1953-1956. 4 vols.

—. *The Persian Revolution, 1905-1909.* Cambridge: Cambridge University Press, 1910.

—. *The Press and Poetry of Modern Persia.* Partly based on the manuscript work of Mirza Muhammad Ali Khan «Tabirat» of Tabriz. Cambridge: Cambridge University Press, 1914.

Browne, J [ohn] Gilbert (Brigadier). *The Iraq Levies, 1915-1932.* London: The Royal United Service Institution, 1932.

Buchanan, George (Sir). *The Tradegy of Mesopotamia.* Edinburgh: Blackwood, 1933.

Buchanan, Zetton. *In the Hands of the Arabs.* London; New York: Hodder and Stoughton, [c 1921].

Buckley, A.B. *Mesopotamia as a Country for Further Development.* Cairo: Government Press, 1919.

Bullard, Reader (Sir). *The Camels Must Go: An Autobiography.* London: Faber and Faber, 1961.

— (ed.). *The Middle East: A Political and Economic Survey.* New ed. London: Oxford University Press, 1961.

Bulwer, William Henry Lytton (Earl Bulwer, Baron Dalling and Bulwer) (ed.). *The Life of Henry John Temple, Viscount Palmerston, with Selections from His Diaries and Correspondence.* 3rd ed. London: Bentley, 1871. 2 vols.

Burgoyne, Elizabeth. *Gertrude Bell: From Her Personal Papers.* London: Benn, 1958-1961. 2 vols.

Burton, Richard F. *Personal Narrative of a Pilgrimage to el-Medinah and Meccah.* London: 1855-1856. 3 vols.

Bush, Briton Cooper. *Britain, India and the Arabs, 1914-1921.* London: 1971.

Candler, E. *The Long Road to Baghdad: Late Official «Eye-Witness» in Mesopotamia.* London; New York: 1919. 2 vols.

Carr, Edward Halett. *What is History*. Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1965.

Charlton. *An Autobiography*. London: 1939.

Chesney, F.R. *Narrative of the Euphrates Expedition Carried on by Order of the British Government during the Years 1835-1836 and 1837.* London: Longmans, 1868.

Clausewitz, Carl Von (General). *On War.* Trans. by Col. J.J. Graham. Introduction and notes by Col. F.N. Maude. 5th impression. London: Paul, Trench, Trubner, 1949. 3 vols.

Clemow, Frank Gerard. *Report on Sanitary Matters in Mesopotamia, Shi'ah Holy Cities and on the Turco-Persian Frontier.* Being a summary of the work done by the Commission of inspection despatched to those regions by the Constantinople Board of Health in the Winter of 1914-1915. Calcutta: Superintendent Government Printing, 1916.

Cohen, Stuart A. *British Policy in Mesopotamia, 1903-1914.* London: Ithaca Press for St. Antony's College, Oxford, Middle East Centre, 1976. (St. Antony's Middle East monographs, 5)

Coke, Richard. *The Arabs Place in the Sun.* London: 1928.

—. *Baghdad, The City of Peace.* London: Butterworth, 1927.

—. *The Heart of the Middle East.* London: Butterworth, 1925.

Collier, Basil. *Barren Victories, Versailles to Suez, 1918-1956.* London: Cassel, 1964.

Creasy, Edward S. *History of the Ottoman Turks.* Introduction by Zeine N. Zeine. Beirut: Khayat's, 1961.

Cromer, Evelyn Baring (Lord). *Modern Egypt.* London; New York: Macmillan, 1908. 2 vols.

Cumming, Henry Harford. *Franco-British Rivalry in the Post War Near East: The Decline of French Influence.* London: Oxford University Press, 1938.

Daalder, H. *The Role of the Military in the Emerging Countries.* The Hague: Gravenhage; Mouton, 1962. (Publications of the Institute of Social Studies, series minor, 1)

Dann, Uriel. *Iraq under Qassem: A Political History, 1958- 1963.* Jerusalem: 1969.

Davison, R. *Reforms in the Ottoman Empire, 1856-1876.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963.

Djemal Pasha, Ahmad. *Memoires of a Turkish Statesman, 1913-1919.* London: [n.d.].

Dodwell, Henry. *The Founder of Modern Egypt: A Study of Mohammed Ali.* Cambridge: Cambridge University Press, 1931.

Dowson, V.H.W. Ernest (Sir). *An Enquiry into Land Tenure and Related Questions: Proposals for the Initiation of Reform.* Lechworth, Eng.: Garden Ciry Press for Iraq Government, 1931.

Earle, Edward Mead. *Turkey, the Great Powers and the Baghdad Railway: A Study in Imperialism.* New York: Macmillan, 1923.

Edmonds, Cecil J. *Turks and Arabs: Politics, Travel and Research in North Eastern Iraq, 1919-1925.* London: Oxford University Press, 1957.

The Encyclopaedia of Islam. 1913.

Erskine, Mrs. Steuart. *King Faisal of Iraq.* London: Hutchinson, 1933.

Fanon, Frantz. *The Wretched of the Earth.* trans. from French by Constance Farrington. Preface by Jean-Paul Sartre. Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1967.

Al-Fassi, Allal. *The Independence Movements in Arab North Africa.* Trans. by Hazem Zaki Nuseibeh: Washington, D. C.: American Council of Learned Societies, 1954. (American Council of Learned Societies, Near Eastern translation program, 8)

Finer, Samuel Edward. *The Man on Horseback: The Role of the Military in Politics.* London: Pall Mall Press, 1962.

Fisher, Stanley (Sir). *Ottoman Land Laws Containing the Ottoman Land Code and Later Legislation AffectingLand with Notes and an Appendix of Cyprus Laws and Rules Relating to Land.* London; New York: Milford; Oxford University Press, 1919.

Fisher, Sydney Nettleton. *The Middle East: A History.* New York: Knoph, 1959.

— (ed.). *The Military in the Middle East: Problems in Society and Government.*Coulumbis, Ohio: Ohio State University Press, 1963. (Ohio State University, Coulumbis, Graduate Institute for World Affairs, 1)

Fisher, William Bayne. *The Middle East: A Physical, Social and Regional Geography.* London: 1966.

Foster, Henry Albert. *The Making of Modern Iraq, a Product of World Forces.* London: Williams and Norgate, 1936.

Galeski, Boguslaw. *Basic Concepts of Rural Sociology.* Trans. from Polish by H.C. Stevens. Edited by Teodor Shanin and Peter Worsley with the assistance of Ann Allen. Manchester: 1971.

Gallances, H. *Settlement of the Carmelites in Mesopotamia, 17th and 18th Centuries.* London: 1927.

Gaury, Gerald de. *Three Kings in Baghdad, 1921-1958.* London: Hutchinson, 1961.

Al-Ghazzali, Abu Hamid. *The Book of Knowledge.* Being a translation with notes of the «kitab al-Ilm»of al-Ghazzali's «Ihya' Ulum al- Din» by Nabih Amin Faris. Lahore: Sh. Muhammad Ashraf, 1962.

Gibb, H[amilton] A [lexander] R [ooskeen] Gibb. *The Modern Trends in Islam.* Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1950.

—. *Studies on the Civilization of Islam.* Edited by Stanford J. Shaw and W.R. Polk. Boston, Mass.: Beacon Press, 1962.

— and Harold Bowen. *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Molem Culture in the Near East.* London; New York: Oxford University Press, 1950-1957. 2 vols.

Glubb, John Bagot (Sir). *Britain and the Arabs: A Study of Fifty Years, 1908-1958.* London: Hodder and Stoughton, 1959.

Gólap, Z. *Turkish Nationalism and Western Civilization.* Trans. and edited by N.B. Brakes. London: 1945.

Gooch, George Peabody and Harold Temperley (eds.). *British Documents on the Origins of the War, 1898-1914.* London: His Majesty's Stationary Office, 1928. 5 vols.

Graves, Philip. *The Life Sir Percy Cox.* London: Hutchinson, 1941.

Graves, Robert. *Lawrence and the Arabs.* Edited by Eric Kennington. London: Cape, 1927.

Haider, M. *Arabesque.* London: 1944.

Haider, S. «Land Problems of Iraq.» Ph. D. dissertation, University of London, 1942.

Haldane, James Aylmer L. (Sir). *The Insurrection in Mesopotamia, 1920.* Edinburgh; London: Blackwood, 1922.

—. *A Soldier's Saga: The Autobiography of General Sir Aylmer Haldane.* Edinburgh; London: Blackwood, 1948.

Hall, Leonard Joseph (Lieut. Col.). *The Inland Water Transport in Mesopotamia.* London: Constable, 1921.

Halpern, Manfred. *The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963.

Harris, George Lawrence [et al.]. *Iraq, Its People, Its Society, Its Culture.* New Haven, Conn.: Human Relations, 1959.

Harrison, James P. *The Communists and Chinese Peasant Rebellions: A Study in the Rewriting of Chinese History.* London: Collancz, 1970.

Hart, Liddell B. H. *T.E. Lawrence in Arabia and After.* London: Cape, 1934.

Hasan, Mohammed Salman. «Foreign Trade in the Economic Development of Modern Iraq, 1869-1939.» Ph.D. dissertation, Oxford University, 1958.

Hay, W[illiam] R. *Two Years in Kurdistan: Experiences of a Political Officer, 1918-1920.* London: Sidgwick and Jackson, 1921.

Hegel, Georg Wilhelm Freidrich. *The Philosphy of History.* New York: 1956.

Hershlag, Zvi Yehuda. *Introduction to the Modern Economic History of the Middle East.* Leiden: Brill, 1964.

Hewett, John P. (Sir). *Report for the Army Council on Mesopotamia.* London: Harrison and Sons for His Majesty's Stationary Office, 1919.

—. *Some Imperssions of Mesopotamia in 1919.* London: Harrison and Sons for His Majesty's Stationary Office, 1920.

Heyd, Uriel. *Foundations of a Turkish Nationalism: The Life and Teachings of Ziya Gölap.* London: Luzac, 1950.

Hitti, Philip Khuri. *History of the Arabs from the Earliest Times to the Present.* 2nd ed. London: Macmillan, 1940.

Hobson, J[ohn] A. *Imperialism: A Study.* London: 1902.

Hooper, C.A. *Constitutional Law of Iraq.* Baghdad: Mackenzie for Iraq Government Press, 1928.

Hoskins, Halford Lancaster. *British Routes to India.* London; New York: Longmans, Green, 1928.

Hourani, Albert Habib. *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939.* London: Oxford University Press; Royal Institute for International Affairs, 1962.

Howard, Howard Nicholas. *The King-Crane Commission: An American Inquiry in the Middle East.* Beirut: Khayat's, 1963.

—. *The Partition of Turkey: A Diplomatic History, 1913-1923.* Norman, Ok.: University of Oklahoma Press, 1931.

Huerwitz, Jacob Coleman (ed.). *Diplomacy and the Middle East: A Documentary Record, 1914-1956.* Princeton, N.J.: Van Nostrand, 1956. 2 vols.

Huntington, Samuel P. (ed.). *Changing Patterns of Military Politics.* New York: Free Press of Glencoe, 1962. (International yearbook of political behavior research, 3)

Iqbal, Muhammad (Sir). *The Reconstruction of Religious Thought in Islam.* Lahore: 1934.

Ireland, Philip Willard. *Iraq: A Study in Political Development.* London: 1937.

Issawi, Charles Philip. (ed.). *The Economic History of the Middle East, 1800-1914.* Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1966.

Janowitz, Morris. *The Military in the Development of New Nations: An Essay in Comparative Analysis.* Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1964.

Jastrow, Morris. *The War and the Baghdad Railway: The Story of Asia Minor and Its Relation to the Present Conflict.* 2nd impression with a new preface. Philadelphia; London: Lippincott, 1918.

Jessup, Henry Harris. *Fifty- Three Years in Syria.* New York: 1910. 2 vols.

Johnson, J.J. (ed.). *The Role of the Military in Underdeveloped Countries.* Princeton, N.J.: 1967.

Jwaideh, Albertine. *St. Antony's Papers No.16: Midhat Pasha and the Land System of Lower Iraq.* London: Oxford University, St. Antony's College, 1963. (Middle Eastern affairs, 3)

Keddie, Nikki. *Religion and Rebellion in Iran: The Tobacco Protest of 1891 - 1892.* London: Cass, 1966.

— and Hamid Algar. *An Islamic Response to Imperialism: Political and Religious Writings of Sayyid Jamal al- Din al- Afghani.* Including a translation of the Refutation of the Materialists from the Origibnal Persian by Nikki R. Keddie and Hamid Algar. Berkeley, Calif.: University of California Press, 1968.

Keddourie, Elie. *Afghani and Abduh: An Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam.* London: Cass, 1966.

—. *England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire, 1914-1921.* London: Bowes and Bowes, 1956.

—. *The Ghatham House Version and Other Middle-Eastern Stdies.* London: Weidenfeld, 1970.

—. *Nationalism.* London: Hutchinson, 1960.

— (ed.). *Nationalism in Asia and Africa.* Introduction by Elie Kedourie. London: Cass, 1971.

Kennedy, Pringle. *Arabian Society at the Time of Muhammad.* Calcutta: Thacker, 1926.

Kerekes, Tibor (ed.). *The Arab Middle East and Muslim Africa.* Washington, D.C.: Georgetown University Press, 1961.

Kerr, Malcolm H. *Islamic Response: The Political and Legal Theories of Muhammad Abduh and Rashid Rida.* Berkeley, Calif.: University of California Press, 1966.

Khadduri, Majid. *The Independent Iraq, 1932-1958 : A Study in Iraqi Politics.* London: 1932.

—. *Political Trends in the Arab World: The Role of Ideas and Ideals in Politics.* London: 1970.

—. *The Republican Iraq: A Study in Iraqi Politics Since the Revolution of 1958.* London; New York: Oxford University Press, 1969.

—. *St. Antony's Papers, No. 17: Aziz Ali al-Misri and the Arab Nationalist Movement.* Oxford: Oxford University, St. Antony's College, 1965. (Middle Eastern affairs, no. 4)

Kirk, George, Eden. *A Short History of the Middle East from the Rise of Islam to Modern Times.* 7th ed. London: Methuen, 1964.

Klieman, Aaron S. *Foundations of British Policy in the Arab World: The Cairo Conference of 1921.* London: 1970.

Knightley, Philip and Colin Simpson. *The Secret Lives of Lawrence of Arabia.* London: 1969.

Kohn, Hans. *A History of Nationalism in the East.* Trans. by Margaret M. Green. London: Routledge, 1929.

—. *Nationalism and Imperialism in the Hither East.* London: Routledge, 1932.

Lapidus, Ira Martin. *Muslim Cities in the Later Middle Ages.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1967. (Harvard Middle Eastern studies, 11)

Laqueur, Walter Zéev (ed.). *The Middle East in Transition: Studies in Contemporary History.* London: 1953.

Lawrence, Thomas Edward. *The Letters of T.E. Lawrence.* Edited by David Garnett. London; Toronto: Cape, 1938.

—. *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph.* Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1969.

Lenin, Vladimir Illich. *Imperialism, the Highest State of Capitalism: A Popular Outline.* Mascow: Foreign Languages Publishing House, 1959.

—. *The National Liberation Movement in the East.* Moscow: 1961.

Leslie, Shane (Sir). *Mark Sykes, His Life and Letters.* Introduction by the right honourable Winston Churchill. London: Cassell, 1923.

Lewis, Bernard. *The Arabs in History.* 4th ed. London; New York: Hutchinson's University Library, 1966.

—. *The Emergence of Modern Turkey.* London; New York: Oxford University Press, under the auspices of the Royal Institute of International Affairs, 1961.

— and P.M. Holt (eds.). *Historians of the Middle East.* London: Oxford University Press, 1962.

Lloyd George, David. *Memoirs of the Peace Conference.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 1939. 2 vols.

—. *War Memoirs.* London: Nicholson and Watson, 1933-1936. 6 vols.

Loder, John de Vere. *The Truth about Mesopotamia, Palestine and Syria.* London: Allen and Unwin, 1923.

Longrigg, Stephen Hemsley. *Four Centuries of Modern Iraq*. London: Oxford University Press, 1925.

—. *Iraq, 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History*. London; New York: Oxford University Press, 1953.

— and F. Stoakes. *Iraq*. New York: 1958.

Lorimer, John Gordon. *Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia*. London: Holland, 1970.

Luke, Harry Charles Joseph. *Mosul and Its Minorities*. London: Hopkinson, 1925.

Lyell, Thomas Reginald. *The Ins and Outs of Mesopotamia*. London: Philpot, 1923.

MacCallum, Elizabeth P. *Iraq and the British Treatise*. New York: Information Service of Foreign Policy Association, 1930.

McCullagh, Francis. *The Fall of Abdul Hamid*. London: Methuen, 1910.

Macdonald, Alan David. *Euphrates Exile*. London: Bell, 1936.

Main, Ernest. *Iraq, from Mandate to Independence*. London: 1933.

Mann, James Saumarez. *An Administrator in the Making: James Saumarez Mann, 1893-1920*. Edited by Saumarez Mann. London; New York: Longmans, Green, 1921.

Marlowe, John. *Late Victorian: The Life of Sir Arnold Talbot Wilson*. London: Cresset, 1967.

Marriott, John Arthur. *The Eastern Question: An Historical Study in European Diplomacy*. 4th ed. Oxford: Clarendon, 1947.

Marx, Karl. *Pre-Capitalist Economic Formations*. Edited with an introduction by E.J. Hobsbawm. London: Lawrence and Wishart, 1964.

—. *Selected Writings in the Sociology and Social Philosophy*. Edited with introduction and notes by T.B. Bottomore and Maximilien Rubel. London: Watts, 1956.

— and Frederick Engels. *Selected Correspondence*. Moscow: [n.d.].

—. *Selected Works*. London: 1959.

Midhat, Ali Haydar. *The Life of Midhat Pasha: A Record of His Services, Political Reforms, Banishment and Judicial Murder*. Derived from private documents and reminiscences by his son Ali Haydar Midhat. London: Murray, 1903.

Miller, David and Clark D. Moore. *The Middle East, Yesterday and Today*. London: 1970.

Mirski, G. *Creative Marxism and the Problem of National Revolution*. Trans. by the Mizan News Letter. London: Mizan News Letter, 1964.

Moberly, Frederick James (comp.). *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918: History of the Great War Based on Official Documents.* London: His Majesty's Stationary Office, 1923-1927. 4 vols.

Monroe, Elizabeth. *Britain's Moment in the Middle East, 1914-1956.* London: 1965.

—. *Philby of Arabia.* London: 1973.

Morris, James. *The Hashemite Kings.* London: Faber and Faber, 1959.

Al-Nafeesi, A.F. «The Role of the Shi'ah in the Political Development of Modern Iraq, 1914-1921.» Ph.D. dissertation, Cambridge University, 1972.

Al-Nakib, H.A. «A Critical Study of Saiyyid Talib Pasha al-Nakib in the Setting of His Time and Environment, on the Basis of Arabic and Foreign Documents.» M. Phil. thesis, Leeds University, 1973.

Nevakivi, Jukka. *Britain, France and the Arab Middle East, 1914-1920.* London: Athlone, 1969.(University of London Historical studies, 23)

Nicholson, Reynold Alleyne. *A Literary History of the Arabs.* Cambridge: Cambridge University Press, 1969.

Nuseibeh, Hazem Zaki. *The Ideas of Arab Nationalism.* Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1956.

Philby, Harry St. John Bridger. *Arabia.* London: Benn, 1930.

— *Arabia of the Wahhabis.* London: Constable, 1928.

— *Arabian Days: An Autobiography.* London: Hale, 1948.

— *The Heart of Arabia: A Record of Travel and Exploration.* London : Constable , 1922. 2 vols.

Poliak, A.N. *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon, 1250-1900.* London: The Royal Asiatic Society, 1939.

Al-Qaysi, Abdul Wahab Abbas. «The Impact of Modernization on Iraqi Society during the Ottoman Era: A Study of Intellectual Development in Iraq, 1869-1917.» Ph. D. dissertation, University of Michigan, 1958.

Qubain, Fahim Issa. *Inside the Arab Mind.* Arlington, Virg.: Middle East Research Associates, 1960.

Ramsaur, Ernest Edmondson, Jr. *The Young Turks: Prelude to the Revolution of 1908.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1957.

Ranga, N.G. *Revolutionary Peasants.* New Delhi: Amrit Book Co., 1949.

Redfield, R. *Peasant, Society and Culture.* Chicago: 1956.

Rich, Claudius James. *Narrative of a Journey to the Site of Babylon in 1911.* London: Duncan and Malcolm, 1839.

Rihani, Ameen. *Around the Coasts of Arabia.* London: Constable, 1930.

Robertson, W. (Field-Marshall Sir). *Soldiers and Statesmen.* London: 1926.

Ronaldshay (Earl). See: Zeltand, Lawrence John Lumby Dundas.

Rosen, Friedrick. *Oriental Memoirs of a German Diplomatist.* New York: Dutton, 1930.

Saab, Hassan. *The Arab Federalists of the Ottoman Empire.* Amsterdam: Djambatan, 1958.

Sachar, Howard Morley. *The Emergence of the Middle East, 1914-1924.* London: Allen Lane, 1969.

Sa'id, Nuri. *Arab Independence and Unity.* Baghdad: Government Press, 1943.

Saleh, Zaki. *Britain and Mesopotamia, Iraq to 1914: A Study in British Foreign Affairs.* Baghdad: al-Ma'aref Press, 1966.

—. «Origins of British Influence in Mesopotamia.» Ph.D. dissertation, Baghdad 1949.

Sayegh, Fayez A. *Arab Unity: Hope and Fulfillment.* New York: Devin-Adair, 1958.

Shanin, Teodor (comp.). *Peasants and Peasant Societies: Selected Readings.* Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1971.

Sharabi, Hisham B. *Arab Intellectuals and the West: The Formative Years, 1875-1914.* London: 1970.

— *Governments and Politics of the Middle East in the Twentieth Century.* New York; Princeton, N.J.: Van Nostrand, 1962.

— *Nationalism and Revolution in the Arab World.* Princeton, N.J.: Van Nostrand, 1965.

Sherson, Eroll. *Townshend of Chitral and Kut, Based on the Diaries and Private Papers of Major General Sir Charles Vere Townshend.* London: Heinemann, 1928.

Sluglet, Peter. *Britain in Iraq, 1914-1932.* London: Ithaca for the Middle East Centre, St. Antony's College, Oxford, 1976. (St. Antony's Middle East monographs, 4)

Smith, Wilfred Cantwell. *Islam in Modern History.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1957.

Soane, E.B. *To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, with Historical Notices of the Kurdish Tribes and the Chaldeans of Kurdistan.* London: Murray, 1926.

Sokolow, Nahum. *History of Zionism, 1600-1918.* London; New York: Longmans; Green, 1919. 2 vols.

Spector, Ivar. *The Soviet Union and the Muslim World, 1917-1958.* Seatle: Distributed by the University of Washington Press, 1959.

Stafford, R[onald] S. (Lt.- Col.). *The Tragedy of the Assyrians.* London: Allen and Unwin, 1935.

Stein, Leonard J. *The Balfour Declaration.* London: Valentine, 1961.

—, *Syria.* London: Benn, 1926.

Stitt, George. *A Prince of Arabia: The Emir Shereef Ali Haider.* London: Allen and Unwin, 1948.

Storrs, Ronald (Sir). *Orientations.* London: Nicholson and Watson, 1937.

Sykes, Mark (Brigadier General Sir). *The Caliph's Last Ḥeritage: A Short History of the Turkish Empire.* London: Macmillan, 1915.

—. *A History of Persia.* 3rd ed. With a supplementary essay. London: Macmillan, 1958. 2 vols.

Temperley, H[arold] W.V. *England and the Near East: The Crimea.* London: 1934.

— (ed.). *A History of the Peace Conference of Paris.* London: Under the auspices of the Institute of International Affairs, 1920-1924. 6 vols.

Thomas, Bertram. *Alarms and Excursions in Arabia.* New York; Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1931.

Townshend, Charles V.F. (Major General Sir). *My Campaign in Mesopotamia.* London: Butterworth, 1920.

Toynbee, Arnold Joseph. *The Islamic World since the Peace Settlement.* London: 1926.

—. *A Study of History.* Abridged by D.C. Somervell. London; New York; Oxford: Gumberlege, 1946-1947.

—. *Survey of International Affairs.* London: 1927.

—, and Kenneth P. Kirkwood. *Trukey:* London: 1927.

Tse-Tung, Mao. *The Chinese Revolution and the Chinese Communist Party.* Peking: 1958.

Wallace, D[onald] Mackenzie (Sir). *Egypt and the Egyptian Question, 1890-1982.* London: Macmillan, 1983.

Warriner, Doreen. *Land and Poverty in the Middle East.* London; New York: Royal Institute of International Affairs, 1948.

—. *Land Reform and Development in the Middle East: A Study of Eygpt, Syria and Iraq.* London: 1948.

Watt, W[illiam] Montegomery. *Muslim Intellectuals: A Study of al-Ghazali.* Edinburgh: Edinburgh University Press, 1963.

— (trans.). *The Faith and Practice of al-Ghazali.* London: Allen and Unwin, 1953. (Ethical and Religious Classics of East and West, 8)

Weir, William (Sir). *The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall.* Edinburgh: 1915.

Wellhausen, J. *The Arab Kingdom and Its Fall.* Trans. by Margaret Graham Weir. Calcutta: University of Calcutta, 1927.

Willcoks, W. (Sir). *Irrigation of Mesopotamia.* 2nd ed. London: 1917. 2 vols.

Willert, Arthur (Sir). *Aspects of British Foreign Policy.* London: 1928.

Wilson, Arnold Talbot (Lt.- Col. Sir). *Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917: A Personal and Historical Record.* London: Oxford University Press; H. Milford, 1930.

—. *Mesopotamia, 1917-1920, A Clash of Loyalties: A Personal and Historical Record.* London; New York: Oxford University Press, 1930.

—. *The Persian Gulf: A Historical Sketch from the Earliest Times to the Beginning of the 20th Century.* Oxford: Clarendon, 1928.

—. *South West Persia: A Political Officer's Diary, 1907-1914.* London; New York: Oxford University Press, 1941.

Wilson, J. and R. Holland. *The Prospect of British Trade in Mesopotamia and the Persian Gulf.* Delhi: 1917.

Wingate, Ronald (Sir). *Not in the Limelight.* London: Hutchinson, 1959.

Wittfogel, Karl August. *Oriental Despotism: A Comparative Study of Total Power.* London: 1963.

Wolf, Eric R. *Peasants.* London: Prentice- Hall, 1966.

Woodward, Ernest Llewellyn (Sir) and R. Butler (eds.). *Documents on British Foreign Policy, 1914-1939.* London: His Majesty's Stationary Office, 1946-1952. 4 vols.

Worsley, Peter. *The Third World.* 2nd ed. London: Weidenfeld and Nicolson, 1967.

[Yalman], Ahmet Amin. *Turkey in the World War.* London: Milford; Oxford University Press for the Carnegie Endowment for International Peace, Division of Economics and History, 1930.

Young, Hubert (Sir). *The Independent Arab.* London: Murray, 1933.

Zahn, J.A. *From Berlin to Baghdad and Babylon.* London: 1922.

Zeine N. Zeine. *The Emergence of Arab Nationalism, with a Background Study of Arab-Turkish Relations in the Near East.* Revised and reset ed. Beirut: Khayat's, 1966.

—. *The Struggle for Arab Independece: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom in Syria.* Beirut: Khayat's, 1960.

Zetland, Lawrence John Lumby Dundas (2nd Mariquis, Earl of Ronaldshay). *The Life of Lord Curzon: Being the Authorized Biography of George Nathaniel Marquess Curzon of Kedleston.* London: Benn, 1928. 3 vols.

Ziadeh, Nicola Abdo. *Sanusiyah: Study of a Revivalist Movement.* Leiden: Brill, 1958.

Papers and Documents

Arab Tribes of Baghdad. Calcutta: 1917.

Bell, Gertrude Lowthian. «Letters.» Durham University, School of Oriental Studies' Library. (Mimeo.)

—. «Private Letters and Papers.» Newcastle- upon- Tyne University Library. (Mimeo.)

Correspondences Regarding Post War Irrigation Policy in Mesopotamia. Baghdad: 1919.

Dickson, H.R.P. (Major). «Letters and Papers.» Oxford University, M.E.C. (DS77, DSS1. 53). (Mimeo.)

Dowson, V.H.W. Ernest (Sir). *Dates and Dates Cultivation.* Cambridge: 1924.

Fortnightly Papers of Political Officers: Baghdad Wilayat, 1918. Baghdad: 1918.

Great Britain, Admiralty War Staff, Intelligence Division. *A Handbook of Mesopotamia.* London: The Division, 1916-1918. 4 vols.

Great Britain, House of Commons. *Parliamentary Debates: Fifth Series.* Vols. 101-148. London: His Majesty's Stationary Office [H.M.S.O.], 1918-1921. 4 vols.

Great Britain, House of Parliament. *Parliamentary Papers- Cmd. 675: San Remo Oil Agreement.* London: H.M.S.O., 1920.

—. *Parliamentary Papers- Cmd. 964: Treaty of Sevres, 10 August 1920.*

—. *Parliamentary Papers - Cmd. 1061: Review of the Civil Administration of Mesopotamia.* London: H.M.S.O., 1920.

—. *Parliamentary Papers- Cmd. 1176: Draft Mandate for Mesopotamia and Palestine as Submitted for the Approval of the League of Nations.* London: H.M.S.O., 1921.

—. *Parliamentary Papers- Cmd. 1195: Franco British Convention of December 23, 1920, on Certain Points Connected with the Mandates for Syria and the Lebanon, Palestine and Mesopotamia.* London: H.M.S.O., 1921.

—. *Parliamentary Papers- Cmd. 1351: Petroleum in Iraq.* London: H.M.S.O., 1921.

—. *Parliamentary Papers- Cmd. 1500: Final Drafts of the Mandates for Mesopotamia and Palestine for the Approval of the Council of the League of Nations.* London: H.M.S.O., 1921.

—. *Parliamentary Papers- Cmd. 5957: Correspondences between Sir Henry McMahon and the Sharif Husain of Mecca, July 1915-March 1916.* London: H.M.S.O., 1938.

—. *Parliamentary Papers- Cmd. 8610: Report of the Commission Appointed by Act of Parliament to Enquire in the Operations of War in Mesopotamia together with a seperate Report by Commander J. Wedgwood, D.S.O., Mesopotamia Police and Appendices.* London: H.M.S.O., 1917.

Great Britain, Public Record Office, Air Ministry. «Air, Series 5. vols. 829, 837: Cairo Conference.» 2vols.

Great Britain, Public Record Office, Cabinet Papers. «Cab., Series 17 vol. 173: Mesopotamia.».

—. «Cab., Series 17, vol. 175: Mark Sykes.»

—. «Cab., Series 17, vol. 176: Arab Question.»

—. «Cab., Series 17, vol. 177: Arab Bureau Reports.»

—. «Cab., Series 17, vol. 191: Mesopotamia Commission.»

—. «Cab., Series 19, vols. 2-7: Mesopotamia Commission.»

—. «Cab., Series 21, vol. 10: Arab Movement.»

—. «Cab., Series 21, vol. 60: Mesopotamia, Administration.»

—. «Cab., Series 21, vol. 61: Mesopotamia, British Policy.»

—. «Cab., Series 21, vol. 70: Mesopotamia Reports.»

—. «Cab., Series 21, vol. 177: Bolshevik Influence.»

—. «Cab., Series 23, vols. 23-27: Minutes.»

—. «Cab. Series 27, vol. 22: Mesopotamia Administration, India Office, Sir Percy Cox.»

—. «Cab. Series 27, vol. 23: Eastern Committee.»

Great Britain, Public Record Office, Colonial Office. «C.O., Series 696, Administration Reports, vols. 1-4: 1917- 1921.» 4 vols.

—. «C.O. Series 730, Correspondence, 1921, vols. 1-18.»

—. *Report on Iraq Administration, October 1920-March 1922.*

Great Britain, Public Record Office, Foreign Office. *Mesopotamia No. 63 (1920).*

—. «F.O. Series 141, vols. 444-446, and 779.» 2 vols.

—. «F.O. Series 371, General Correspondence, vols. 2128- 2143; 2487- 2492; 2768- 2783; 3041- 3062; 3380- 3421; 4140- 4241; 5032- 5294, and 6346- 6369 (1914- 1921).» 8 vols.

———. «F.O. Series 406, Confidential, vols. 40-48 (1918-1921).» 4 vols.

———. «F.O., Series 608, vols. 84; 98, and 98-99: Peace Conference of 1919-1920.» 3 vols.

———. «F.O. Series 882, Embassy, Consular Archives, Arab Bureau Papers, A., vols. 1-18.»

———. «F.O. Series 882, Embassy, Consular Archives, Arab Bureau Papers, B, vol. 19.»

———. «F.O. Series 882, Embassy, Consular Archives, Arab Bureau Papers, C., vols. 20-24.»

———. «F.O. Series 882, Embassy, Consular Archives, Arab Bureau Papers, vols. 25-28, Arab Bulletins, nos. 1-114. (1916-1919).» 4 vols.

Great Britain, Public Record Office, War Office. «Series 33, vol. 969: Causes of 1920 Outbreak in Mesopotamia.»

———. «Series 33, vol. 983: Proposed Kingdom of Mesopotamia.»

———. «Series 106, vol. 189-209: Correspondence and Papers.»

———. «Series 157, Mesopotamia (General H.Q.), vols. 776-818 (1915-1918).» 4 vols.

———. «Series 158, vol. 687, October - December 1920, Misc. Correspondence.»

———. «Series 158, vol. 688: February - May 1921.»

———. «Series 158, vols. 700-707: The Uprising.»

Howell, E.B. *Note on Irrigation in Mesopotamia*. Baghdad: 1919.

Longrigg, Stephen Hemsley. *Note on Land and Revenue Policy*. Baghdad: 1926.

Memo. on Educational Policy as Approved by the C.C., 12 August 1919. Baghdad: 1919.

Municipal Budgets for the Year 1919-1920. Baghdad: 1920.

Philby, Harry St. John Bridger. «Papers.» Oxford University, St. Antony's College, M.E.C., vols. v-vi: 1919. (DS79. 8.T). 2 vols. (Mimeo.)

Report on Conditions of Trade in Mesopotamia.

Sanctional Budget Estimates, Baghdad Wilayat for 1918-1919. Baghdad: 1919.

«Sudan Archives.» Durham University, School of Oriental Studies Library, Boxes 303, 239 and 248. (Mimeo.)

Tribes of the Tigris. Calcutta: 1917.

Wilson, Arnold Talbot (Sir). «Letters, 1903-1921.» London Library. (Mimeo.)

———. «Miscellaneous Papers.» British Musueum, Department of Manuscripts. (No. 52455-52458). (Mimeo.)

Periodicals

Ahmed, F. «The Young Turk Revolution.» *Journal of Contemporary History:* Vol. 3, no. 3, July 1968.

Alavi, H. «Peasants and Revolution.» *The Socialist Register* (London): 1965.

Anstruther, C. «Iraq and Its Future.» *London Outlook:* Vol. 28, 9 July 1926.

Barakat, H. «Alienation: Process of Encounter between Utopia and Reality.» *The British Journal of Sociology:* Vol. 20, no. 1 March 1969.

Berque, Jacques. «The Arabs and Social Science in the Last Hundred Years.» *Middle East Forum:* Vol. 43, no. 1, 1967.

Bevan, A.A. «The Arab and the Future of Mesopotamia.» *New Statesman:* Vol. 9, 14 July 1917.

Bourdillon, B.H. «The Political Situation in Iraq.» *Journal of British Institute of International Affairs:* Vol. 3, November 1924.

Carter, John. «The Bitter Conflict over Turkish Oil Fields.» *Current History:* Vol. 23, no. 4, January 1926.

Coke, Richard. «Great Britain and Iraq.» *Contemporary Review:* Vol. 126, September 1924.

—. «New Monarchy in the Garden of Eden.» *Current History:* Vol. 20, September 1924.

—. «Newest Constitution in an Ancient Land.» *Current History:* Vol. 21, November 1924.

Dawn, C. Ernest. «The Rise of Arabism in Syria.» *Middle East Journal:* Vol. 16, no. 2 (1962).

Edmonds, Cecil J. «Gertrude Bell in the Near and Middle East.» *Journal of the Royal Central Asian Society:* Vol. 56, part 3, October 1969.

«Ferment for Freedom: Colonel Lawrence on Eastern Problem.» *Daily Herald:* 9/8/1920.

Gibb, H[amilton] A[lexander] R[ooskeen]. «Al Mawardi's Theory of the Khilafa.» *Islamic Culture:* Vol. 2, 1937.

Hasan, Mahammed Salman. «Growth and Structure of Iraq's Population, 1867-1974.» *Bulletin of the Oxford University Institute of Statistics:* No. 20, 1958.

Heathcote, D. «Mosul and the Turks.» *Fortnightly Reveiw:* Vol. 124, November 1925.

Hourani, Albert Habib. «Arabic Culture.» *The Atlantic Monthly:* Vol. 198, October 1956.

Keddie, Nikki. «Afghani in Afghanistan.» *Middle Eastern Studies:* Vol. 1, no. 4, July 1965.

Kedourie, Elie. «Further Light on Afghani.» *Middle Eastern Studies:* Vol. 1, no. 2, January 1965.

—. «Reflexions sur l'histoire du Royaume d'Iraq, 1921-1952.» *Orient:* No. 11, 1959.

Kelly, John Barrett. «Mehemet Ali's Expedition to the Persian Gulf, 1837-1840- Part 1.» *Middle Eastern Studies:* Vol. 1, no. 4, July 1965.

Kerr, Malcolm. «Rashid Rida and Islamic Legal Reform: An Ideological Analysis.» *Muslim World:* Vol. 50, no. 1, January 1960.

Kiernan, V.G. «The Peasant Revolution.» *The Socialist Register:* 1970.

Klieman, Aaron S. «Britain's War Aims in the Middle East in 1915.» *Journal of Contemporary History:* Vol. 3, no. 3, July 1968.

Lewis, Bernard. «The Islamic Guilds.» *Economic Review:* November 1937.

—. «Islamic Revival in Turkey.» *International Affairs:* Vol. 28, no. 1, January 1952.

McMunn, George F. (Lieut. - Col. Sir). «Gertrude Bell and T.E. Lawrence: The Other Side of Their Stories.» *The World Today:* November - December 1927.

Mejcher, Helmut. «Oil and British Policy Towards Mesopotamia, 1914-1918.» *Middle Eastern Studies:* Vol. 8, no. 3, October 1972.

Seeman, Melvin. «On the Meaning of Alienation.» *American Sociological Review:* Vol. 24, no. 6, December 1959.

Shanin, T. «The Peasantry as a Political Factor.» *Sociological Review:* Vol. 14, no. 1, 1966.

Toynbee, Arnold Joseph. «Aspects of Arab History.» *The Listener:* (5 September 1968).

Vinogradov, A. «The 1920 Revolt in Iraq Reconsidered: The Role of the Tribes in National Politics.» *International Journal of Middle East Studies:* Vol. 3, no. 2, April 1972.

Wolf, Eric R. «On Peasant Rebellions.» *International Social Science Journal:* Vol. 21, no. 2, 1969.

Zeitlin, Maurice. «Alienation and Revolution.» *Social Forces:* Vol. 45, no. 2, December 1966.

Ziadeh, Nicola A. «Recent Arabic Literature on Arabism.» *The Middle East Journal:* Vol. 6, no. 4, Autumn 1952.

فهرس عام

(أ)

(ج)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(غ)

(ك)

(ن)

(هـ)

(Q)

(R)

(S)

(T)

(W)

(Y)

(Z)

- الديمقراطية وحقوق الانسان في الوطن العربي (سلسلة كتب المستقبل العربي (٤))
(٣٥٢ ص ـ ٨٤ ل.ل./ ٨ $) .... مجموعة من الباحثين
- الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠ ـ ١٩٣٩ (٢٣٦ ص ـ ٥٦ ل.ل./ ٦ $) .... اعداد مروان بحيري
- التحليل السياسي الناصري: دراسة في العقائد والسياسة الخارجية (سلسلة اطروحات الدكتوراه (٣))
(٢٩٦ ص ـ ٩٦ ل.ل./ ١٠ $) .... د. محمد السيد سليم
- العمالة الاجنبية في اقطار الخليج العربي (٧١٢ ص ـ ١٧٠ ل.ل./ ١٧ $) .... ندوة فكرية
- انتقال العمالة العربية: المشاكل ـ الآثار ـ السياسات
(٣١٢ ص ـ ٧٦ ل.ل./ ٨ $) .... د. ابراهيم سعد الدين ود. محمود عبد الفضيل
- جامعة الدول العربية، الواقع والطموح (١٠٠٤ ص ـ ٢٢٠ ل.ل./ ٢٢ $) .... ندوة فكرية
- الصراع العربي ـ الاسرائيلي: بين الرادع التقليدي والرادع النووي (٢٤٨ص ـ ٦٠ ل.ل/ ٦ $). امين حامد هويدي
- ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الاول: المؤلفون ـ القسم الاول: بالعربية
(١٠٦٠ ص ـ ٢٤٠ ل.ل./ ٤٠ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الاول: المؤلفون ـ القسم الثاني: بالانكليزية والافرنسية
(١٠٩٦ ص ـ ٢٤٠ ل.ل./ ٤٠ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الثاني: العناوين ـ القسم الاول: بالعربية
(٤٠٠ ص ـ ٨٨ ل.ل./ ١٥ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الثاني: العناوين ـ القسم الثاني: بالانكليزية والافرنسية
(٣٦٨ ص ـ ٨٨ ل.ل./ ١٥ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الثالث: الموضوعات (ثلاثة اقسام)
(٣٢٧٢ ص ـ ٩٨٠ ل.ل./ ٩٨ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- النظام الاقليمي العربي ... طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة (٢٧٢ ص ـ ٦٦ ل.ل./ ٧ $).. جميل مطر ود. علي الدين هلال
- التطور التاريخي للانظمة النقدية في الاقطار العربية ... طبعة ثانية
(٤٧٢ ص ـ ١١٢ ل.ل./ ١١ $) .... د. عبد المنعم السيد علي
- مصر والعروبة وثورة يوليو (سلسلة كتب المستقبل العربي (٣))
(٤٠٠ ص ـ ٩٦ ل.ل./ ١٠ $) .... مجموعة من الباحثين
- الفكر الاقتصادي العربي وقضايا التحرر والتنمية والوحدة... طبعة ثانية
(٢٤٨ ص ـ ٦٠ ل.ل./ ٦ $) .... د. محمود عبد الفضيل
- المواصلات في الوطن العربي... طبعة ثانية (٤٠٤ ص ـ ٨٨ ل.ل./ ٩ $) .... ندوة فكرية
- السياسة الامريكية والعرب... طبعة ثانية مزيدة ومنقحة (سلسلة كتب المستقبل العربي (٢))
(٣٦٨ ص ـ ٨٨ ل.ل./ ٩ $) .... مجموعة من الباحثين
- دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي... طبعة ثالثة (سلسلة كتب المستقبل العربي (١))
(٤٧٦ ص ـ ١١٤ ل.ل./ ١١ $) .... مجموعة من الباحثين
- التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية
(٥٢٨ ص ـ ١٢٦ ل.ل./ ١٣ $) .... ندوة فكرية
- المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية (٥٥٦ ص ـ ١٣٢ ل.ل./ ١٣ $) .... ندوة فكرية
- الامكانات العربية... طبعة ثانية (١٢٦ ص ـ ٣٠ ل.ل./ ٣ $) .... د. علي نصار
- صور المستقبل العربي ... طبعة ثانية (٢١٢ ص ـ ٥٠ ل.ل./ ٥ $) .... د. ابراهيم سعد الدين وآخرون
- النظام الاجتماعي العربي الجديد... طبعة ثالثة (٣٠٤ ص ـ ٧٢ ل.ل./ ٧ $) .... د. سعد الدين ابراهيم
- تجربة دولة الامارات العربية المتحدة ... طبعة ثالثة (٨١٦ ص ـ ١٩٦ ل.ل./ ٢٠ $) .... ندوة فكرية
- التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠ طبعة ثالثة (سلسلة اطروحات الدكتوراه (٢))
(٤١٦ ص ـ ١٠٠ ل.ل./ ١٠ $) .... د. مارلين نصر
- البعد التكنولوجي للوحدة العربية ... طبعة ثالثة (١١٦ ص ـ ٢٨ ل.ل./ ٣ $) .... د. انطوان زحلان
- القومية العربية والاسلام ... طبعة ثانية (٧٨٠ ص ـ ١٨٦ ل.ل./ ١٩ $) .... ندوة فكرية
- التكامل النقدي العربي المبررات ـ المشاكل ـ الوسائل... طبعة ثانية
(٧٤٠ ص ـ ١٧٨ ل.ل./ ١٨ $) .... ندوة فكرية
- هجرة الكفاءات العربية ... طبعة ثالثة (٤٣٢ ص ـ ١٠٤ ل.ل./ ١٠ $) .... ندوة فكرية
- التعريب وتنسيقه في الوطن العربي... طبعة رابعة (سلسلة اطروحات الدكتوراه (١))
(٦٦٨ ص ـ ١٦٠ ل.ل./ ١٦ $) .... د. محمد المنجي الصيادي
- هدر الامكانية طبعة رابعة (١٤٠ ص ـ ٣٠ ل.ل./ ٣ $) .... د. نادر فرجاني

الدكتور وميض جمال عمر نظمي

- ولد في بغداد عام ١٩٤١
- تخرّج من كلية الحقوق العراقية عام ١٩٦٤
- حاز على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة درهام بانكلترا عام ١٩٧٤ . وكان رئيساً للاتحاد العام للطلاب العرب في المملكة المتحدة وايرلندا، في الفترة ١٩٧١ـ ١٩٧٤
- عمل كرئيس لقسم العلوم السياسية في جامعة بغداد ، للفترة ١٩٧٦ ـ ١٩٨٢ . وكان رئيساً لمركز الدراسات الفلسطينية في جامعة بغداد ، خلال عامي ١٩٨٠ و١٩٨١ .
- له كتب ومقالات ومحاضرات وتراجم في المواضيع التالية : الفكر العربي الاسلامي ، الفكر الاشتراكي ، الفكر القومي العربي ، التطور السياسي المعاصر في العراق ، الاستعمار والامبريالية ، التخلف والتنمية ، الاوضاع السياسية في بعض بلدان العالم الثالث
- يعمل حالياً استاذاً مساعداً في قسم العلوم السياسية بكلية القانون والسياسة في جامعة بغداد

الطبعة الثالثة

الثمن : ١٤٨ ل. ل.
أو ما يعادلها